إسحق دويتشر

النبي المنبوذ

تروتسكي ١٩٢٩ ـ ١٩٤٠

ترجمه وقدم له
كميل قيصر داغر

المؤسسة العربية
للدراسات والنشر
بناية برج الكارلتون ـ ساقية الجنزير ـ ت ٨٠٧٩٠٠/١
برقياً موكيالي بيروت ـ ص.ب. ١١٣/٥٤٦٠ بيروت

النبيّ المنبوذ

المؤسسة العربية
للدراسات والنشر

بناية برج الكارلتون . ساقية الجنزير . ت ٨٠٧٩٠٠/١
برقياً : موكيالي بيروت . ص ب ٥٤٦٠/١١ بيروت

الطبعة الأولى ١٩٨٣

هذا الكتاب معرّب عن الترجمة الفرنسية
الصادرة بعنوان
Le Prophète hors- la loi
Trotsky (1929 - 1940)
par
ISAAC DEUTSCHER

مقدمة الترجمة العربية

حين قرأ تروتسكي الحوار الذي دار بين سفير فرنسا لدى الرايخ الثالث وهتلر قبل الحرب العالمية الثانية مباشرة ، وتخوُّف الرجلين من ان يكون المنتصر الأخير ، في حرب طويلة ورهيبة بدت نُذُرها آنذاك على الأبواب ، هو تروتسكي بوجه التحديد . . حين قرأ ذلك الحوار كتب : « إنهم يهجسون بشبح الثورة ويعطونه اسم رجل » .

وبالفعل ، لم تقترن صورة الثورة ، في التاريخ ، باسم رجل ، قدر ما اقترنت باسم تروتسكي ، حتى في الفترة التي صوَّره دويتشر لنا فيها مشرداً ، منبوذاً . لا بل إن ذينك التشرد والنبذ اللذين لازماه طوال المرحلة التي يؤرخ لها الجزء الأخير من الثلاثية (١٩٢٩- ١٩٤٠) ، كانا بالضبط النتيجة المباشرة لهذا الواقع . ذلك ان الخوف من قائد ثورة اوكتوبر والمنظِّر للثورة الدائمة كان يجمع في خندق واحد البيروقراطية الستالينية في الدولة العمالية الأولى وكامل جوقة الحكومات البورجوازية في العالم ، بحيث أبعدته الأولى (قبل أن تجهز عليه جسدياً في نهاية المطاف) ، ورفضت الثانية استقباله على ارضها ، « فلم يعد ثمة - على حد قول تروتسكي بالذات - غير كوكب من دون تأشيرة » .

ودويتشر ، في هذه التراجيديا « الشكسبيرية » اللاهثة ، المشحونة بحرارة الحقيقة والحياة ، التي يظهر فيها تروتسكي على مسرح هائل ، حدَّاه العالم الشاسع والتاريخ ، يقدم لنا بانوراما شاملة عن المعركة القاسية والمريرة وغير المتكافئة التي استمر « النبي الأعزل ، والمنبوذ »يخوضها في وجه القوة الغاشمة . يقف البطل هنا بكل جبروته التاريخي وهيبته الفكرية ونبويته السياسية ، قوياً وعاجزاً في آن معاً امام السلطة المسلحة بكل إمكانات القمع والسحق وغسل الادمغة ومسخ حقائق التاريخ . شاهد بأم عينه كامل الجيل القديم الذي سبق أن أبحر معه على طريق الثورة يزول من على خشبة المسرح ، يباد الجزء الأفضل منه ، والجزء الأفضل من الجيل الشاب يداس بالاقدام ويطحن ، اولاده يتساقطون الواحد بعد الآخر ،

وأنصاره تمر عليهم الآلة الحاقدة للدزرجيموردا القاتل والمتوحش . لكنه يبقى رغم هول المأساة وبشاعة الجريمة التي يعيش آثارها المدمرة يوماً بيوم ، على مستوى البطولة التي تليق بصانعي التاريخ ، لا بل أبهى وانصع ما فيه من صفحات . هكذا لا يعود يمكن أن يستغرب المرء ، للحظة واحدةٍ ، ذينك الشغف والتعلق من جانب أنصاره الذين كانوا يتقدمون إلى الموت وعلى شفاههم الصيحة التي اصبحت مألوفة جداً لكثرة ما تكررت امام مفارز الاعدام : « فليعش تروتسكي الى الأبد !» . فهو كان يمثل لهم ، ولكل المناضلين الذين فشل ستالين في تطويعهم ، الشعلة الباقية من اوكتوبر والأمل الصامد ، رغم قساوة المحن وهول الردة ، بمستقبل للبشرية وضّاء ونظيف . وقد ظل يمارس نفوذه الادبي والفكري والسياسي الهائل داخل روسيا حتى بعد سنوات نفيه وابعاده ، لدرجة انه حتى «المستسلمون والبوخارينيون والستالينيون المترددون كانوا ينهلون بنهم كل كلمة تصل منه الى الاتحاد السوفياتي » ، ويتهامسون في اللحظات الحرجة ، حين تكون القرارات المهمة على وشك أن تؤخذ : « ماذا يقول ليف دافيدوفيتش بصدد هذا الموضوع ؟ » وذلك احياناً ، حتى في غرف انتظار الدخول على ستالين .

ولاشك أن مخيلة ستالين التي استنبطت كل اشكال التضييق والحصار والخنق لتحول دون ذلك النفوذ المتجدد والخلاق ، في صفوف الاجيال السوفياتية التي كانت لا تزال تقع تحت الإغراء الآسر لشخص تروتسكي وفكره وبرنامجه ، لم تجد مخرجاً آخر غير الابادة الجسدية لآلاف الثوريين ، وحتى عائلاتهم وكل ما قد يذكّر بهم . تلك الابادة حفرت هوة رهيبة ـ يقول دويتشر ـ في وعي الامة ، بحيث « جرى طحن ذاكرتها الجماعية ، وتحطيم استمرارية تقاليدها الثورية وتدمير قدرتها على أن تكوّن اي نوع من الفكر غير الامتثالي وتبلوره » .

التفاؤل الثوري الملازم

ويسلط دويتشر الضوء ساطعاً ، في حياة تروتسكي وفكره ، على التفاؤل الثوري الذي بقي ملازماً له حتى لحظاته الاخيرة ، ورغم كل ما عاين من احباطات وضربات مريعة للحركة الثورية ، بنتيجة السياسة الستالينية المثبطة والمبلبلة ، المنظِّمة لأكبر هزائم الطبقة العاملة في عصرنا ، كما رغم المآسي الشخصية المدمرة التي عاشها هو ذاته، والتي لا تنفصل بتاتاً عن المأساة العامة لقوى الثورة في مرحلة تاريخية كاملة ، هذا التفاؤل فسَّره دويتشر في الفصل الأخير ، **الانتصار في**

الهزيمة ، بقوله إن تروتسكي كان يطبق المقياس التاريخي الكبير على الاحداث وعلى قدره الخاص به ، معتبراً أنه « حين يتعلق الأمر بالتغييرات الأكثر عمقاً في النظام الاقتصادي والثقافي ، فإن ٢٥ عاماً تزن في التاريخ أقل مما تزن ساعة في حياة إنسان » ، وانه اذا قيس ما أنجزه المجتمع السوفياتي ، بهذا المقياس ، فهو لا شك بداية متواضعة جداً لكنها تبرر الثورة والتفاؤ ل الاساسي حيالها و « تبدد الضباب الكثيف للاحباط واليأس » .

وقد عبر عن هذه الرؤ يا المشرقة لمصير الانسانية في وصيته بالذات ، التي خطها قبل اشهر من مصرعه على يد عميل ستاليني في منفاه بالمكسيك، فاختتمها بهذه الكلمات :

« وصلت ناتاشا لتوها من الساحة الى الشباك وفتحته على مصراعيه كي يدخل الهواء بحرية الى غرفتي . استطيع أن أرى الرقعة النيّرة الخضراء من العشب تحت الجدار والسماء الصافية الزرقاء فوقه ، وضوء الشمس في كل مكان .

« الحياة جميلة ، فلتنظفها الاجيال القادمة من كل شر ، ومن كل اضطهاد ، ومن كل عنف وتستمتع بها كلياً » .

تفاؤ له هذا ، الذي يتطور هنا الى رؤ يا شعرية مفعمة بالضوء ، ربما يبلغ درجته المثلى في الكلمات الأخيرة التي نطق بها ، وهو يلفظ أنفاسه :

« . . أنا واثق بانتصار الاممية الرابعة . إلى الأمام ! » .

هذا باختصار شديد جانب أساسي من الصورة التي يقدمها دويتشر عن تروتسكي في الحقبة الأخيرة من حياته ، الحقبة التي نشهده فيها منفياً ، وطريداً ، ومحاصراً ، لكن في الوقت ذاته محتفظاً بروحه القتالية التي لم تفارقه لحظة ، والتي جعلت من حياته ملحمة يومية من النضال ، النظري والعملي ، العنيد والصارم والمنسجم لأجل تمهيد الطريق امام « المستقبل الشيوعي للبشرية » . إلا أنه مع إبداء التقدير والاحترام العظيمين للعمل الثمين والخلاق والضخم الذي انجزه دويتشر عن حياة تروتسكي وعمله ، لا بد من مناقشة ولو سريعة ، للعديد من المفاهيم والآراء التي يتوصل اليها ، عبر دراسته ، وتنعكس بقوة على التقويم العام لمجمل تجربة تروتسكي في السنوات الأخيرة من حياته .

فالفكرة الطاغية التي يخرج بها المرء من مطالعة الجزء الأخير من ثلاثية

دويتشر مفادها انه كان اجدى بكثير لو انصرف تروتسكي في سنواته الأخيرة للكتابة النظرية والتاريخية ، التي لا يجارى في مضمارها ، بدل الغرق في متطلبات الممارسة اليومية والنضال السياسي والتنظيمي ، حيث لم يعد في استطاعته ان يقدم الا ضمن حدود لا تبرر الجهد الهائل الذي كان يأخذه منه ذلك . هكذا بضربة واحدة يلغي عمل سنوات لـ « تسليح جيل جديد بمنهج ثوري »، ولا سيما نضاله التنظيمي الدائب والصبور الذي تتوّج بتأسيس الاممية الرابعة ، ومتابعته عن كثب لتلامذته وأنصاره وتجمعاتهم ، مهما ضؤل حجمها ، وللخلافات التي كانت تنشب في صفوف تلك التجمعات . بيد أن دويتشر الذي ينظر بالكثير من الاكبار لاسهام تروتسكي النظري ، ويسمح لنفسه بتحجيم الجانب العملي من نضاله في سنوات نفيه ، من مواقع الاسف على ما مثّله ، في رأيه ، من هدر لوقت ثمين كان يمكن تكريسه للكتابة النظرية ، لم يوفّر كذلك نقده لتلك الكتابة في بعض جوانبها . وهذا ظاهر بوضوح في حديثه عما يسميه « الماركسية الكلاسيكية » لدى تروتسكي ، التي شهدت نوعاً من الطلاق ، وفقاً لتعبيره ، مع الواقع ، كما بصدد مفهوم « الثورة السياسية »، الذي يطرحه تروتسكي في مؤلفه « الثورة المغدورة » كأفق لتطور الصراع داخل الاتحاد السوفياتي ، على طريق الخلاص من الانحطاط البيروقراطي وما يمثله من إعاقة خطيرة للبناء الاشتراكي .

١ ـ الموقف من الأممية الرابعة

إن الموقف الذي يتخذه دويتشر في « النبي المنبوذ »، المنشور عام ١٩٦٤ ، من تأسيس الاممية الرابعة ، ليس موقفاً لاحقاً ، بعد وقوع الحدث ، ولا سيما بزمن طويل ، بل كان متبلوراً ومحدداً بالضبط ، كما يذكر هو ذاته ، منذ فترة مؤتمر التأسيس ، عام ١٩٣٨ ، حيث عبّر آنذاك مندوبا الفرع البولندي ، الذي كان دويتشر من ابرز قادته ، عن المعارضة الاجماعية لذلك الفرع بصدد اعلان الاممية الجديدة ، على أساس انه « من قبيل الانخراط في طريق مسدود محاولة خلق اممية جديدة في حين كانت حركة الشغيلة ، بمجملها ، في حالة انحسار ، وتمر بفترة انتكاس كثيف وجمود سياسي » ، وناشدا رفاقهما انيمتنعوا عن القيام « بحركة لا معنى لها »وعن « اقتراف عمل جنوني » .

هذا الموقف لم يتبدل بالتأكيد مع الوقت ، وظل دويتشر على هذا الرأي بعد عشرات السنين ، حيث يتكرر في الجزء الأخير من ثلاثيته إعدامه للتجربة بكلام

سريع ومقتضب . فهو حين يشير الى قرار ستالين ، في نهاية المطاف ، تصفية تروتسكي جسدياً ، يقول : « قبل سنوات كان يمكن ان يخشى ستالين رؤية تروتسكي يقود حركة شيوعية جديدة في الخارج ، لكن ألم يكن يدرك الآن ان الاممية الرابعة قد انهارت كلياً ؟» .

إن نظرة متفحصة ودقيقة لا بد أن تبيّن كم ان دويتشر ، في احكامه التي اصدرها اوائل الستينات ، كان لا يزال يحاول البقاء ضمن موقف « تاريخي » يتناسب كلياً مع الموقف السياسي القديم الذي اتخذه ، هو والمجموعة البولندية التي انتمى اليها في الثلاثينات. وحتى اذا اخذنا بالاعتبار ان الاممية الرابعة لم تنجح ، بعد تأسيسها بعشرات السنين في ان تصبح منظمة عالمية جماهيرية ، الا ان هذا ليس كافياً لاطلاق احكام بالقدر من الجزم الذي نجده لدى دويتشر ، مؤرخاً ، لا سيما اذا ادخلنا في الحسبان الظروف القاسية ، موضوعياً وذاتياً، التي حالت دون ذلك ، سواء من حيث الابادة الواسعة التي تعرض لها كادراتها ومؤسسوها وقواعدها ، على ايدي الستالينية والنازية في الثلاثينات والاربعينات ، او بسبب ظروف الحرب العالمية الثانية والاستقرار الاقتصادي الذي تلا تلك الحرب وبقي قائماً اكثر من عشرين عاماً في البلدان الغربية بوجه خاص ، وعلى امتداد فترة طويلة ، لا ريب ، اطلقت عليها الاممية تسمية « مرحلة اجتياز الصحراء » . وقد تلت هذه المرحلة بعد انتعاش الصراع الطبقي في الغرب ، منذ اواخر الستينات ، ولا سيما بعد احداث ١٩٦٨ الفرنسية ، مرحلة نمو جدي واكيد لمنظمات الاممية المشار اليها ، ربما كانت كافية لتعدل من نظرة دويتشر لو قيض له ان يبقى على قيد الحياة سنوات معدودات *.

في كل حال ، سيكون مفيداً ان نورد مقطعاً من المناقشة القيِّمة التي كتبها بيير فرانك ، احد مؤسسي الاممية ، في ايلول / سبتمبر ١٩٦٤** ، بعد قليل من صدور « النبي المنبوذ » ، حيث يقول رداً على كلام المؤلف :

« .. وفقاً لدويتشر ، انتهت محاولة تروتسكي لخلق الاممية الرابعة بإخفاق

(*) توفي عام ١٩٦٧ (م) .

(**) علماً ان هذه المناقشة تمت في فترة لم تكن شهدت بعد النمو الجديد للأممية الرابعة ، بعد استعار الأزمة الاقتصادية والاجتماعية في الغرب في النصف الثاني من الستينات ، وما بعد ذلك . (م)

كلي (ص ٥١٣) . وهذا التقويم يرتكز فقط على واقع أنه حين كتب دويتشر سيرة تروتسكي ، لم تكن الاممية الرابعة غدت حركة جماهيرية ، لأنه على صعيد الدفاع عن الماركسية الثورية منذ موت تروتسكي ، واغنائها ، ما من تيار سياسي ساهم بنسبة يمكن مقارنتها ، من قريب او من بعيد ، بما كان عليه نشاط الأممية الرابعة ونتاجها النظري والسياسي . وليس ثمة ادنى تبجح في قول ذلك ، فلو لم تفعل الاممية الرابعة الا هذا ، لكان تأسيسها مبرّراً . هـذا الاسهام النظري والسياسي كان مستحيلاً تماماً لولا وجود المنظمة ، ولولا مشاركة اعضائها في كل المعارك الثورية عبر العالم . الكل يعرف ان احد المعطيات الاساسية للماركسية يتمثل في استحالة الفصل بين النظرية والممارسة من دون مخاطر وقوع في الخطأ ، سواء بالنسبة لهذه او بالنسبة لتلك . وما كان صحيحاً عموماً ، غدا اليوم اكثر الحاحاً بكثير (. . .) فالسياسة العالمية تصنع حالياً في اكثر من مئة بلد مختلف جداً بعضها عن البعض الآخر ، سواء اجتماعياً ، او من ناحية التطور الاقتصادي (. . .) إن النضال لأجل الاشتراكية يتطلب سياسة عالمية، إذا لم يكن الا بمواجهة الدور القيادي الذي تلعبه الامبريالية الاميركية في المعسكر الرأسمالي . إن سياسة عالمية كهذه تتخطى كل استيعاب كُتُبي للوضع ، ولا يمكن ان تصدر عن تجمعات قومية من حيث الجوهر حتى إن كان على قادتها أن يقوِّموا الوضع العالمي . فلا يمكن التوصل الى الحد جدياً من الأخطاء المحتومة الا بمجابهة مستمرة بين خط أممي من جهة ونشاط عملي داخل الحركة العمالية العالمية ، من جهة اخرى .

« كان افضل ، بالتأكيد ، أن تتم هذه المواجهة على يد اممية رابعة اكبر عدداً ، لمصلحة قضية الاشتراكية بالذات ، لكن (. . .) ما يهم قبل كل شيء أن يكون هنالك حقاً وحدة اممية فعلية للفكر والعمل . وفي وسعنا القول إن الاممية تقدمت ، في هذا الصدد ، بخطوات جدية نسبة الى ما قبل الحرب (. . .) وثمة مقاييس اكثر صحة من مقياس القوة العددية للحكم على شرعية حركة ما وحيويتها .

« لقد تعلمنا في مدرسة تروتسكي ان ثمة فائدة ، دائماً ، في المسائل الكبرى ، بأن يضع المرء نفسه على المستوى التاريخي . فمنذ نصف قرن ، بدأت ازمة الرأسمالية مع حرب ١٩١٤ (كتب فرانك نصه عام ١٩٦٤). في تلك السنوات الخمسين ، المزدحمة بانقلابات جبارة ، مرت الحركة العمالية بمحن هائلة ، وتمت محاولات تنظيمية كثيرة ، فأية موازنة يمكن ان نقيمها الآن ؟ احتفظت الاشتراكية ـ الديمقراطية بمواقع قوية في اوروبا ، وفي متناول الحركة الشيوعية الرسمية ـ عدا

البلدان التي تحكمها ـ عدد من الاحزاب الجماهيرية ، بينما لم تتطور في العديد من البلدان . ومن التجمعات التي تكونت كرد فعل على سياسة الاشتراكية ـ الديمقراطية او الستالينية ، وغالباً ما كانت تحوز قوى اكبر عدداً من قوى فروع الأممية الرابعة ، لم يبق اي شيء عملياً (. . .) لم تصبح الاممية الرابعة منظمة جماهيرية ، لكنها امتدت الى الكثير من بلدان العالم المستعمر . بعبارات اخرى ، تبيّن موازنة الحركة العمالية خلال نصف قرن أن ثلاثة تجمعات اثبتت حيويتها ، وهو ما لا يمكن تفسيره بأسباب ذاتية ، كصفات اعضائها وقادتها ، بل بأسباب موضوعية ، بأسباب تاريخية : منظمات الاممية الثانية التي تمد جذورها في الطبقة العاملة وفي الرأسمالية في الوقت ذاته ، والمنظمات الستالينية لان لها صلات بالطبقة العاملة وبالقيادة البيروقراطية للدولة العمالية الاولى في العالم ؛ واخيراً منظمات الاممية الرابعة ، الضعيفة عدداً والتي عانت من قمع لا مثيل له في التاريخ ـ من جانب البورجوازية والبيروقراطية ، لأنها تمثل الطبقة العاملة العالمية في مصالحها التاريخية الاساسية ، ولأنها السليل المباشر للحزب البلشفي لعام ١٩١٧ وللاممية الشيوعية[١] » .

٢ ـ « الثورة عبر الفتح » و« الماركسية الكلاسيكية » .

منذالجزء الأول من الثلاثية ، كان دويتشر قد رفع ما دعاه « الثورة عبر الفتح » الى مقام نظرية سوف يضعها فيما بعد ، اثناء كتابته « النبي المنبوذ » ، بمواجهة « ماركسية كلاسيكية » اعتبر ان تروتسكي ظل مرتبطاً بها ومنطلقاً منها في تحليلاته ، ومواقفه وتوقعاته . وكان كتب في « النبي المسلح » أن معارضة تروتسكي العقلانية للثورة عبر الفتح لم تكن « الا الوجه الآخر لايمانه شبه اللاعقلاني بالطاقة الثورية الخاصة بالطبقات العاملة الغربية وبقدرتها على صنع الثورة[٢] » . واشار الى ان تروتسكي اعتبر « أن تضامن الثورة الروسية مع الطبقات العاملة في البلدان الاخرى ينبغي ان يعني بصورة رئيسية مساعدتها على فهم تجربتها السياسية والاجتماعية وتفسيرها وطرح مشكلاتها ، ولكن ليس حلها نيابة عنها . وخلال نقاش ، تكلم بغضب على اولئك الذين يعتقدون في البلدان الاجنبية بامكانية الحلول محل الثورة عن طريق عمليات الجيش الأحمر ، وقال : « أفضل لهم ان يوضع حجر الرحى

---

(١) Quatrième Internationale العدد ٢٣ ، تشرين الثاني ١٩٦٤ ، ص ٦٠ ـ ٦١ ـ ٦٢ .

(٢) دويتشر ، النبي المسلح ، ص ٤٨٤ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٨١ .

في عنقهم ويلقى بهم في البحر[٢] » .

وقد توصل دويتشر في جزئه الاول الى بلورة مفهومه حول الدورات الثورية ، المختلفة من حيث طبيعتها . رأى أن الحرب العالمية الأولى افتتحت دورة ثورية حملت البلشفية في بدايتها « موجةُ ثورةٍ أصيلة ، وحوالى نهايتها شرعت البلشفية تنشر تلك الثورة عبر الفتح[*] . إن مسافة طويلة ، تمتد ما يقارب ربع قرن ، تفصل الدورة الأولى عن الدورة الثانية التي ستفتتحها الحرب العالمية الثانية . وبين الدورتين بقي البحر البلشفي راكداً . اما الدورة الثانية فستبدأ ، بما اختتم الدورة الأولى ، عنينا الثورة عبر الفتح[٣] » .

هذا الفهم سيستعيده كلياً في « النبي المنبوذ »، في عبارات تكاد تكون حرفية ، وذلك في نهاية الفصل الأخير بعنوان : « الانتصار في الهزيمة». وقد خلص الى اعتبار ان تروتسكي اخطأ حين اعتقد ان الدورة الجديدة ، التي افتتحتها الحرب العالمية الثانية ، ستبدأ « بالاشكال التي اتخذتها الدورة الأولى ، بصراعات طبقية وانتفاضات بروليتارية تتوقف نتيجتها اجمالاً على توازن القوى الاجتماعية داخل كل امة كبرى ومواصفات القيادة الثورية القومية » ، متوصلاً الى القول إن المقاييس « التي كان الماركسيون اعتادوا ان يحكموا بواسطتها على النضج الثوري لأمة او انعدام نضجها قد اخفقت » . وعزا ذلك الاخفاق الى ما يسميه « الماركسية الكلاسيكية » ، التي كانت تتحكم - في نظر دويتشر - برؤية تروتسكي للاشياء وبتحليلاته وتوقعاته ، والتي جعلت « الطلاق بين النظرية والممارسة ، او بين القاعدة والواقع ، يتعمق اكثر فأكثر » .

ومن الواضح أن هذا المفهوم الذي يقدمه دويتشر لتفسير حقبة بكاملها من التطورات الثورية والهزائم والانتكاسات ، معارضاً به ماركسية « كلاسيكية » مفترضة ، يختزل حركة التاريخ على امتداد تلك الحقبة ، بشكل تعسفي الى حد بعيد . فبين دخول الجيش الاحمر الى جورجيا عام ١٩٢١ ودخوله اوروبا الشرقية عام ١٩٣٩ شهدت اوروبا نضالات ثورية « كلاسيكية » - لكي نستخدم عبارته -

(*) إشارة الى الحملتين ، الفاشلة ضد بولندا عام ١٩٢٠ ، والمنتصرة ضد جورجيا عام ١٩٢١ (م) .
(٣) دويتشر ، النبي المسلح ، ص ٤٨٧ .

عديدة ، ناهيك بما مثلته الثورة الصينية من حركة جماهيرية اصيلة . كما أن ما تلا الحرب العالمية الثانية لا يمكن ان يفسره ، حصراً ، مفهوم « الثورة عبر الفتح » ، وإلا كيف نفهم الثورة اليوغسلافية ، بوجه خاص ، التي لم تتم على يد الجيش الاحمر ، بل بفعل الشيوعيين اليوغسلاف ، ورغم انف ستالين بالذات ؛ أو الثورة الالبانية ؛ ناهيك بحركات المقاومة في العديد من بلدان اوروبا الغربية ، ولا سيما فرنسا وايطاليا واليونان ، تلك الحركات الثورية التي قادها الشيوعيون المحليون وكان يمكن ، على الارجح ، ان تستولي على السلطة في تلك البلدان لولا تعليمات ستالين وتوجهاته التي حكمتها اتفاقاته مع حلفائه الغربيين ، ولعبت دوراً طاغياً في حَجْر العملية الثورية في اوروبا ، والعالم ، لحقبة تاريخية كاملة .

من جهة اخرى ، إذا كان دويتشر يعني بمعارضته ما يسميه « ماركسية كلاسيكية » بمفهومه عن « الثورة عبر الفتح » أن الماركسيين الثوريين اخطأوا حين توقعوا انتصار الثورة في أوروبا اولاً ، وأن جملة من المنظورات الماركسية القديمة كان لا بد من إعادة النظر بها على ضوء التطورات التي تلت الحرب الثانية ، ولا سيما في الشرق الاقصى وخارج أوروبا والمجتمعات الصناعية المتقدمة بوجه العموم ، فهذا من الامور التي لا بد من التسليم بها . في كل حال ، لم تكن مهمة الماركسية يوماً أن تستكشف المستقبل بدقة العلوم الطبيعية ، انما هي قبل كل شيء دليل للعمل . وهذا لا يعني ان ليس بالامكان استخدامها كطريقة لفهم احتمالات التطور في مجتمعات محددة والتوصل احياناً لتوقعات تأتي الحركة الفعلية لصراع الطبقات ، على المستويين الاقليمي والعالمي لتثبت صحتها ، إلا أن هذا لا يعني أن تلك الاحتمالات تخضع دائماً للمسار الذي تحدده لها حسابات عمالقة الفكر الماركسي . فحتى ماركس فشل في العديد من الاحيان بتوقعاته حول تطور حركة الثورة في اوروبا وآسيا ، ولا سيما حين توقع في الخمسينات من القرن الماضي ثورة وشيكة في القارة الاوروبية كان يخشى عليها من الصعود الرأسمالي في الصين واليابان واميركا . ذلك ان الحياة هي ، وفقاً لتروتسكي ذاته ، « معقدة من الناحية العملية اكثر مما من الناحية النظرية[٤] » . لكن مهما يكن ، ومع اخذ هذه الامور بالحسبان ، لقد ادرك تروتسكي ، وإلى حد ما اكثر من غيره ، أن التاريخ لا يتحرك وفقاً لقوالب جاهزة ؛ وجاءت نظريته

---

(٤) تروتسكي ، الثورة المغدورة ، ص ١٧٧ ، دار الطليعة ، ١٩٨٠ .

حول « الثورة الدائمة » تتيح لنا أن نفهم ، على ضوئها ، المسار الفعلي الذي اتخذته الثورات المنتصرة في العقود الاخيرة .

وحتى بالنسبة لمسار « الثورة عبر الفتح » غير المتوقع اصلاً ، والذي دخل لاحقاً على صراع الطبقات ، بفعل قيام الدولة العمالية الأولى وتوطدها ، فقد كان تروتسكي ، حسب ما يقول بيير فرانك ، الشخص الذي ترك في هذه الصدد الكتابات الاكثر عمقاً ، لأنه « بنتيجة نشاطه السياسي ونضاله ضد البيروقراطية فهم أفضل من اي شخص آخر طبيعة هذه الظاهرة » . ويتابع فرانك فيفسر الصعوبات التي وضعت على طريق تروتسكي والاممية الرابعة في سعيهما لتجديد الحركة الشيوعية العالمية ، قائلاً : « إن وجود ميدان مربك بالقيادات القديمة ، وسطوة البيروقراطية السوفياتية التي تتواصل ما بعد الفترة التي اختفت فيها الظروف التي خلقتها ، والمسافة بين مستوى الجماهير الثقافي غداة الاستيلاء على السلطة والمتطلبات التي تطرحها مشكلات ممارسة السلطة البروليتارية ، كل ذلك يفسر الصعوبات التي اعاقت انجاز المهمة التي تصدى لها تروتسكي بعد إفلاس الاممية الثالثة[5] » .

٣ ـ الثورة السياسية

هذه الموضوعة فصَّلها تروتسكي في « الثورة المغدورة » ، معتبراً أن بروليتاريا بلد متخلف قد اضطلعت بأول ثورة اشتراكية ، « لذا سوف يكون عليها ان تدفع ثمن هذا الامتياز التاريخي بثورة ثانية ضد السلطة البيروقراطية المطلقة » . هذه الثورة « لن تكون ثورة اجتماعية كثورة عام ١٩١٧ ، فلن يكون الهدف منها تبديل القواعد الاقتصادية للمجتمع السوفياتي واحلال شكل للملكية محل شكل آخر (. . .) إن قلب الفئة البونابرتية سيكون له نتائج اجتماعية عميقة الأثر ولكنها ستكون داخل اطار التطور السياسي[6] » .

وقد ناقش دويتشر هذا المنظور مستبعداً إياه ، متسائلاً « إذا كان تروتسكي ، بإلحاحه على ضرورة ثورة سياسية في الاتحاد السوفياتي لم يتصور منظوره هذا

---

(٥) بيير فرانك، مجلة Quatriéme Internationale، ص ٦٠.

(٦) تروتسكي ، المرجع ذاته ، ص ١٧٧ .

بصورة دوغمائية للغاية ، ولم يعط ، خلافاً لنصائحه هو ، تحديداً جاهزاً جداً لسيرورة غير منجزة » . وفي دحضه لاحتمال تلك الثورة ، استعاد شروط الثورات كما حددها لينين ، وهي : « أ ـ ألا يكون القادة قادرين على الحكم كما اعتادوا أن يفعلوا ؛ ب ـ أن يرفض المحكومون ، بفعل بؤسهم ويأسهم وغيظهم ، مواصلة الحياة كما في السابق ؛ ج ـ أن يوجد حزب ثوري قادر على تجربة حظه وعازم جدياً على ان يفعل ذلك » . وقد رأى أن تلك الشروط لم تكن متوفرة في الاتحاد السوفياتي ، ولم تتوفر فيما بعد .

إلا أن علينا أن نأخذ بالحسبان أن « الثورة المغدورة » صدرت عام ١٩٣٦ في فترة كانت الستالينية تعاني فيها من أزمة عصبية هي التي دفعت بها بعد قليل الى هوة التطهيرات السحيقة والمجازر المريعة لنخبة الثوريين الروس ، وكانت جماهير واسعة تحس في قرارة نفسها بالنفور العميق من البيروقراطية السائدة وطرائق حكمها ، بالاضافة لعشرات الالوف من الكوادر الثوريين الذين كانوا يتطلعون بالتأكيد الى اليوم الذي يخرج فيه الاتحاد السوفياتي من تحت كابوس الستالينية المرعب ، والذين لم يكن قد توصل تروتسكي بعد الى تصوّر المصير المأساوي المذهل الذي كان يعده لهم ستالين ، والتصفيات الدموية الرهيبة التي سيمارسها ضدهم على امتداد السنوات اللاحقة .

في كل حال ، فإن منظور الثورة السياسية ، هو الآخر ، إذا كان بدا حتى الفترة التي انجز فيها دويتشر اصدار ثلاثيته (عام ١٩٦٤) غير راهن ، فإن صحته لا بد أن يُنظر اليها على اساس « المقياس التارخي الكبير » بالضبط الذي اشار اليه في الصفحات الاخيرة من الثلاثية . واذا كانت لم تظهر الى الآن إرهاصاتٌ لتلك الثورة في الدولة العمالية الأولى ، فلا مجال لنكران أن تلك الارهاصات ظهرت في اكثر من دولة عمالية اخرى ، على امتداد العقود الاخيرة . ولعل التحركات العمالية البولندية في السنتين الماضيتين ، التي بلغت حداً نادراً من الاتساع ، وطرحت فيما طرحت ديمقراطية بروليتارية حقيقية تجمع الى الحرية الكاملة للرأي والتعبير ، وحرية التجمع النقابي المستقل عن اجهزة الدولة ، مجالس العمال والتسيير الذاتي ، الى غير ذلك من المطالب . . . وأرعبت بيروقراطيات الدول العمالية بلا استثناء ، هي الخطوات الاولى والاساسية نحو الثورة السياسية كما عرّفها تروتسكي . واذا كانت تلك التجربة قد اجهضت مؤقتا فهذا لا يعني انها لا تشكل طوراً بالغ الاهمية من تراكمات لا بد أن تؤدي في

نهاية المطاف الى كسر القوقعة البيروقراطية وتحقيق قفزة نوعية تعيد الاعتبار للديمقراطية العمالية وللسير الحثيث نحو انجاز المهام الاشتراكية ، ليس فقط في بولندا بل كذلك في كامل المعسكر غير الرأسمالي ، وفي طليعته الاتحاد السوفياتي .

على كلٍّ ، لم يكن دويتشر حاسماً في موقفه من هذه المسألة ، وحرص على الاعتراف بأنه يفضل « ان يسلم الامر ، بما يخص الحكم النهائي على تروتسكي وفكرة الثورة السياسية لديه ، الى مؤرخ الجيل القادم » ، وحسناً فعل !

* * *

بيد أن هذه الملاحظات الضرورية الواردة اعلاه لا يمكن إلا أن تترافق بالتنويه الشديد بعظمة العمل الذي انجزه دويتشر ، وبالنزاهة النادرة للمؤرخ وكاتب السيرة والمفكر ، الذي تعامل مع الشخصية المهيبة لتروتسكي بما يتناسب مع موقعها الفريد والفذ في تاريخ الماركسية . وحسبنا أن نورد التقويم الاخير الذي يقدمه لنا عن هذه الشخصية ، لنرى كيف ان دويتشر كان ، دون اي جدال ، على مستوى المهمة الضخمة التي تصدى لها ، مهمة اعادة تكوين تفاصيل السيرة الحقيقية لرجل عظيم سطا « لصوص المقابر » على ضريحه ، و « رواية منجزاته المحفورة على الواح من ذهب » ، ونفض الغبار عن الملحمة الخارقة للماركسية الثورية منذ بداية هذا القرن ، والتجرؤ على تثمين دوره بما يتوافق مع حقيقة هذا الدور وموقعه من كل ما يقدمه عصرنا من واعد ومتألق وجميل . يقول دويتشر :

« إن حياة تروتسكي وعمله الهائلين يشكلان عنصرين اساسيين من تجربة الثورة الروسية ، وحتى من حبكة الحضارة المعاصرة . إن الطابع الفريد لأحداث حياته والصفات الادبية والجمالية الخارقة لمحاولته تدافع عن نفسها بنفسها وتشهد على اهميته . ومن المستحيل ألا تحدث طاقة فكرية بهذا السمو ، ونشاط بذلك الاعجاز ، وشهادة بذلك النبل ، كامل تأثيرها ، إذ إن ذلك يتعارض مع كل معنى للتاريخ . فهذه هي المادة التي تصنع منها الأساطير الاكثر سمواً والهاماً . إلا ان اسطورة Legend تروتسكي منسوجة من وقائع ثابتة وحقائق يمكن التأكد منها . هنا لا ترفرف أية اسطورة Mythe فوق الواقع ، بل يرتفع الواقع بالذات الى مستوى الاسطورة .

« إن مجرى حياة تروتسكي غني ومتألق لدرجة أن أياً من اجزائه كان كافياً ليملأ حياة شخصية تاريخية مرموقة . لو توفي في الثلاثين او الخامسة والثلاثين من عمره ، قبل عام ١٩١٧ بقليل ، لكان وضع في مصاف مفكرين وثوريين روس من امثال بيلينسكي وهرزن وباكونين ، كسليلهم الماركسي والمساوي لهم . ولو أن حياته انتهت عام ١٩٢١ ، او بعد ذلك ، في الفترة التي مات فيها لينين تقريباً ، لكان الناس تذكروه كقائد ثورة اوكتوبر ومؤسس الجيش الاحمر وقائده الكبير خلال الحرب الاهلية وكمرشد الاممية الشيوعية ، الذي كان يتوجه الى عمال العالم بقوة ماركس وألقه ، وبنبرات لم يجر سماعها منذ **البيان الشيوعي** (. . .) . إن الافكار التي نادى بها والعمل الذي أنجزه بصفته قائد المعارضة بين ١٩٢٣ و١٩٢٩ ، تشكـل المادة والجوهر في احد الفصول الاكثر اهمية والاشد درامية في حوليات البلشفية والشيوعية . جاء الى الواجهة كالشخصية الاولى في اكبر مساجلة ايديولوجية عبر القرون ، وكالملهم المعنوي والفكري للتصنيع والاقتصاد المخطط ، واخيراً كالناطق بلسان كل اولئك الذين قاوموا من داخل الحزب البلشفي صعود الستالينية . حتى لو توفي عام ١٩٢٧ ، لكان ترك خلفه تراثاً من الأفكار لا يمكن تدميره او الحكم عليه بنسيان طويل الامد ، تراث من أجله واجه الكثير من أنصاره مفرزة الاعدام واسمه على شفاههم ، تراث يزيد الزمن من راهنيته ووزنه ويتلمس الطريق نحو جيل سوفياتي جديد » .

كميل قيصر داغر

مقدمة المـؤلف

هذا الجزء يختم ثلاثيتي حول تروتسكي ويروي النهاية الكارثية لمأساته . والبطل الرئيسي لمأساةٍ ما يكون عموماً لدى نهايتها منفعلاً اكثر مما هو فاعل . ومع ذلك بقي تـروتسكي النقيض النشط ، والمكافـح ، لشخص ستالين حتى النهاية ، والصوت الوحيد المتصدي له . فخلال تلك الاثنتي عشرة سنة ، من عام ١٩٢٩ إلى عام ١٩٤٠ ، لم يتمكن صوت واحد من الارتفاع بوجه ستالين في الاتحاد السوفيـاتي ، لا بل لم يمكن سمـاع صدى واحـد للصراعـات الحادة السابقة ، اللهم الا في الاعترافات الذليلة بالذنب التي اجبر على الادلاء بها العديد العديد من خصوم ستالين. هكذا بقي تروتسكي وحده واقفاً ـ كما يبدو ـ في وجه الاستبداد الستاليني . كما لو ان صراعاً تاريخياً جباراً تركَّز في مسـاجلة وخصومة بين رجلين . وكان على كاتب السيرة أن يبين كيف حدث ذلك وأن يستقصي الظروف والعلاقات المعقدة التي ، في حين سمحت لستالين بأن يَخْطر في زي البطل ، جعلت من تروتسكي رمز معارضة الستالينية والناطق الـوحيد بلسانها .

هكذا كان عليَّ ان أسرد الاحداث السياسية والاجتماعية المخيفة الخاصة بتلك الحقبة ، مثلها مثل وقائع حياة تروتسكي : الاضطراب الذي ولَّده التصنيع والجماعية في الاتحاد السوفياتي والتطهيرات الكبرى ، وانهيار الحركات العمالية الالمانية والاوروبية تحت ضربات الفاشية ، واندلاع الحرب العالمية الثانية . وكل من تلك الاحداث أثر على مجرى حياة تروتسكي ، وقد اتخذ بصدد كل منها موقفاً ضد ستالين . لقد كان علي ان استعرض المساجلات الكبرى في تلك الحقبة ، ذلك ان النزاع الايديـولوجي ، في حيـاة تروتسكي ، بـأهمية مشهـد المعركة في المأساة الشكسبيرية . فيه يتكشف طبع البطل الرئيسي ، في اللحظة التي يتوجه فيها الى الكارثة .

وهذا الجزء ، تطرقت فيه اكثر مما في اي من الجزءين السابقين الى الحياة الخاصة للشخص الذي أنا بصدده ، وبوجه اخص الى قدر عائلته ومصيرها .

فتكراراً ، يجب أن ينتقل انتباه القراء من السرد السياسي بحصر المعنى الى ما تستمر اللغة الدارجة في تسميته التاريخ الانساني (كأن الامور العامة ليست اكثر اهتماماتنا انسانية وكأن السياسة ليست نشاطاً انسانياً بامتياز !) . وعلى هذا المستوى ، لا يمكن فصل حياة تروتسكي العائلية عن تقلبات حياته السياسية . انها تعطي نضاله بعداً جديداً ، ومأساته عمقاً قاتماً . هذه القصة الغريبة والمؤثرة جرت روايتها هنا للمرة الأولى على اساس مراسلة تروتسكي الخاصة مع زوجه وأولاده ، وهي مراسلة كان لي امتياز التمكن من تصفحها دون قيد (وهو ما أدين به الى المأسوف عليها ناتاليا سيدوفا التي طلبت ، قبل عامين من وفاتها ، الى امين مكتبة جامعة هارفارد أن يفتح لي القسم المغلق من محفوظات زوجها ، وهو قسم قضت ارادته بأن يبقى مقفلاً حتى عام ١٩٨٠) .

* * *

أود أن أقدم بعض الشروح بصدد السياق السياسي الذي ألفت فيه هذه السيرة. فحين بدأت العمل عليها، في نهاية عام ١٩٤٩، كانت الدوائر الرسمية في موسكو تحتفل بالذكرى السبعين لميلاد ستالين ، بخنوع لا مثيل له في التاريخ الحديث ، وكان يبدو ان اسم تروتسكي طمس إلى الابد تحت ثقل النميمة والنسيان . كنت قد نشرت **النبي المسلح** وأحاول انجاز النص الاول لما يحمل اليوم عنوان **النبي الاعزل** و **النبي المنبوذ** حين اجبرتني ، حوالى نهاية عام ١٩٥٦ ، نتائج المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفياتي ، وزلزال اوكتوبر السياسي في بولندا و المعارك في المجر ، على قطع هذا العمل وتكريس كل اهتمامي لاحداث الساعة . ففي بودابست كانت جماهير منفلتة من عقالها قد رمت الى الحضيض بكل تماثيل ستالين ، بينما كانت تتواصل في موسكو عملية انتهاك حرمة الصنم المعبود انتهاكاً خفياً ، ويتعامل معها الفريق الحاكم كسر من اسرار العائلة . كان خروتشوف لفت انتباه سامعيه في المؤتمر العشرين قائلاً : « علينا ألا نترك اخبار هذه القضية تشيع خارج الحزب ، ولا سيما في الصحافة . علينا ألا ننظف غسيلنا الوسخ أمام أنظار أعدائنا » . وهو ما أوحى إلي بهذا التعليق :

> « سيكون صعباً أن يتواصل تنظيف الغسيل الوسخ ، مدة اطول ، من خلف ظهر الشعب السوفياتي . وقريباً ينبغي ان تتم هذه العملية أمامه وفي وضح النهار ، فهذا الغسيل الوسخ تخضل بعرقه وبدمه . وعملية التنظيف تلك التي ستتطلب وقتاً طويلاً ربما انجزتها أيد غير الايدي التي

بدأتها ، أيد اكثر فتوة ونظافة » .

ظهر **النبي المنبوذ** بعد أن تم جزء من تنظيف الغسيل الوسخ علانية ، وبعد ان أزيلت مومياء ستالين من ضريح الساحة الحمراء . والحادثة الاخيرة الهمت رساماً غربياً للكاريكاتور ، بالغ الفطنة ، فرسم صورة للضريح نرى فيها تروتسكي الى جانب لينين في المكان من المدفن الذي شغر قبل قليل . ورسام الكاريكاتور كان يعبر عن فكرة خطرت على الارجح للكثير من الناس في الاتحاد السوفياتي (مع انه يمكن الأمل بأن تتم اعادة اعتبار تروتسكي ، حين ستتم ، بصورة لا احتفالات طقسية فيها ولا شعوذات) بانتظار ذلك ، يواصل خروتشوف واصحابه بذل كل جهودهم لابقاء الحُرْم الستاليني ضد تروتسكي ساري المفعول . وفي المساجلة بين خروتشوف وماوتسي تونغ يتهم كل فريق الفريق الآخر بالتروتسكية ، كما لو كان يجتهد في تقديم البرهان ، ولو سلبياً ، على ان للمشكلات التي اثارها تروتسكي ولافكاره طابعاً حيوياً .

هذه الأحداث جميعاً غذت قناعتي بصدد راهنية الموضوعة التي اطرحها واهميتها التاريخية : ولكن لم يكن لها تأثير ملحوظ على طريقة تصوّر الموضوع ، ولا على الفكرة الاجمالية التي قام عليها كتابي . صحيح ان هذه السيرة تتخطى من حيث حجمها ما كنت توقعت في مخططاتي الاولية ، اذ كتبت ثلاثة اجزاء بدل جزأين أو جزء واحدٍ . الا اني لم افعل بذلك سوى الاستجابة ـ رغماً عني ـ للمنطق الادبي لهذا العمل ولمنطق ابحاثي التي كان اتساعها وعمقها يزدادان بصورة غير متوقعة . كانت المواد السيرية تجتهد ، اذا صح القول ، في ان تأخذ بين يديّ الشكل والاحجام المناسبة ، وقد فرضت عليَّ متطلباتها (اعرف تماما ان كل ما اقوله لن يبرئني في نظر احد النقاد ، الذي كان سفيراً في موسكو ، والذي صرح انه جزم على الدوام بأن الثورة الروسية لم تقع ، وهو يتساءل بالتالي لماذا يمكنني ان اكرس كل هذا الحيّز لحدث وهمي الى هذا الحد) . وبخصوص طريقتي السياسية في النظر الى تروتسكي ، فانها بقيت دون تغيير . لقد ختمت الجزء الاول من هذه الثلاثية ، عام **١٩٥٢** ، بفصل بعنوان : **الهزيمة في الانتصار** ، حيث أصوّر تروتسكي في ذروة قوته . وفي مقدمة الجزء ذاته ، قلت أني اذ انجز قصة حياته ، قد أتساءل اذا لم يكن عنصر راسخ من عناصر النصر يختفي في صلب هزيمته . وهذه هي بالضبط المسألة التي اناقشها في الصفحات الاخيرة من **النبي المنبوذ** التي تشكل تذييلاً بعنوان : **النصر في الهزيمة** .

بالمراسلة . وما كان شيء يجعله اكثر تعاسة من المزاج السيىء لوالده ، او كل ما يجعله يفهم ان جهوده ليست على مستوى ما ينتظر منه . كان يستصعب تبديد الاستياء الابوي ، وتبرير سلوكه ، وطلب توضيح او اعتذار . كانت والدته وحدها من يشتكي إليه ويوجِّه المآخذ .

كانت ناتاليا ، سريعة العطب والمتألمة ، المتورطة في التشوش الخطير لانفعالات زينا والممزقة أحياناً بين الابن والوالد ، تبذل كل ما في وسعها . كان لديها ما يكفي من الفطنة لتفهم بوضوح إلى أي حد كان قدر كل واحد صعباً ، وما يكفي من المحبة للتعاطف مع كل منهم ، وما يكفي من قوة النفس لمحاولة مساعدتهم جميعاً. كانت تشرح لليوفا في رسائلها مشكلة زينا ، ولا تنفك تخبر ليوفا وزينا في اي توتر لا يُحتمل كان يعيش والدهما ، لأنه كان عليه دائماً ان يواجه ببطولة عالماً معادياً . ومذاك ، هل ينبغي ان نندهش إذا انكسرت ، بين الحين والآخر ، قدرتها على التحمل ؟ كتبت تقول : « كما تعلم ، فإن مصاعب والدك ليست أبداً بمواجهة القضايا الجسام ، بل مع الأمور التوافه » . فإزاء المشكلات الكبرى ، كان صبره لا متناهياً ، لكن تفاصيل تافهة كانت تثير عصبيته ، لا بل تجعله بالغ الحساسية . وكانت ناتاليا تتوسل لليوفا وزينا ألا ينسيا بسبب ذلك المحبة العميقة والمحمومة التي يكنها لهما ، او يشكَّا في ذلك . كتبت لليوفا راجية إياه ان يكتب اكثر الى والده وان يكتب رسالة متوقدة ، وان يكون كذلك أكثر حرارة ومراعاة مع زينا . كتبت تقول : « إن ألمك هو ألمنا نحن الثلاثة جميعاً » . إلا أن الضربات كانت أحياناً بالغة القسوة ، حتى بالنسبة لقوة النفس اليقظة لدى ناتاليا . « ما العمل ، لا يمكن عمل شيء . . . » ، ليس من النادر أن نصادف هذه الكلمات المستسلمة في رسائلها لليوفا ، « اكتب اليك كما أنت ، بمشاعر مغلقة وعينين مغلقتين[٦٨]» .

كل ذلك كان يحدث في نهاية صيف ١٩٣٢ ، وكان قد مر ثلاثة اعوام ونصف على وصول تروتسكي إلى برنكيبو . وخلال كل تلك الفترة ، كان قد اشتغل بقساوة ، مواصلاً الانشغال بموضوعات متنوعة كانت تهمه ، غير مهمل ايا من مراسليه ، مالئاً صفحات الـBulletin وكاتباً ، بالاضافة الى دزينة من الكتب

---

(٦٨) الكثير من رسائل ناتاليا غير مؤرخة .

ملاحظة بصدد المصادر والمراجع ، وتشكرات

يستند هذا الجزء ، بصورة اكثر منهجية مما في الجزأين السابقين ، الى محفوظات تروتسكي ، ولا سيما الى مراسلته مع اعضاء عائلته . في كل مرة ارجع فيها الى **المحفوظات** بوجه عام ، أعني القسم المفتوح بينها ، الذي يمكن الباحثين ان يصلوا اليه في مكتبة هاوتون بجامعة هارفارد . اما حين استقي معلومات من الجزء « المقفل » من المحفوظات ، فانا ارجع الى القسم المغلق . وفي بيبليوغرافيا **النبي المسلح** ، اعطيت وصفاً إجمالياً للقسم المفتوح ، بينما ثمة وصف للقسم المغلق في البيبليوغرافيا الملحقة بهذا الجزء .

إن القسم الاكبر من العشرين الف وثيقة في الفرع المغلق يشمل مراسلة تروتسكي السياسية مع انصاره وأصدقائه. وكان قد اوصى بان يبقى كل هذا القسم تحت الاختام لأنه حين حول تلك الاوراق الى جامعة هارفارد (في صيف عام ١٩٤٠) كانت أوروبا بكاملها تقريباً ، إما تحت الاحتلال النازي ، أو تحت السيطرة الستالينية ، وبدا مستقبل العديد من البلدان خارج اوروبا غير مضمون . لذا كان يشعر بأن عليه حماية المتراسلين معه . لكن لم يكن ثمة شيء ـ أو اذا شئتم شيء كثير ـ له طابع سري أو خاص في المضمون السياسي لتلك المراسلة . فالجزء الاكبر مما كانت تتضمنه كنت اعرفه منذ سنوات ١٩٣٠ ـ ١٩٤٠ ، وسأقول بعد قليل كيف حصل ذلك . هكذا حين قمت بقراءة تلك الوثائق عام ١٩٥٩ لم أجد فيها عملياً ما له بالنسبة اليّ طابع مثير أو مفاجىء . من جهة اخرى ، فإن مراسلة تروتسكي العائلية وحتى الاوراق الخاصة ببيته ، الواردة كذلك في القسم المغلق ، كشفت لي تجاربه ومشاعره الاكثر حمامة واغنت الى حد بعيد الصورة التي كنت كونتها عن شخصيته .

لدى قراءة الجزأين السابقين ، اشتكى بعض النقاد من أن استشهاداتي **بالمحفوظات** بقيت دون الكثير من التفصيل . تكفيني الاشارة الى اني كلما استشهدت بوثيقة من **المحفوظات** كنت أوضح في النص أو في الحاشية من كتب

تلك الوثيقة ، متى ، والى من وجهها . وهذا كل ما يحتاج اليه المرء حين يدرس المسألة . إن حواشي اكثر تفصيلاً ربما كان يمكن ان تضفي طابعاً اكثر اثارة على جعبتي من المعلومات ، لكن ما كانت لتجدي أبداً القارىء العادي الذي لم يقيض له أن يصل الى محفوظات تروتسكي ، أو المنقب الذي يجب ان تسمح له الارشادات المعطاة بتحديد سهل لموقع كل مستند يجري الاستشهاد به . اضف الى ذلك انه منذ كنت اعمل على الجزأين السابقين ، جرت إعادة تصنيف المحفوظات ، بحيث ان اي نوع من الاسناد الخاص الذي أمكن ان اكون قمت به ربما لا جدوى منه الآن (كان من الممكن ، مثلاً ، الإشارة الى ان الوثيقة أ أو ب هي في القسم ج ، الملف ١٧ ، لكن القسم أ أو ب أو ج كان قد زال من الوجود في غضون ذلك) . فالمواد مصنفة الآن وفقاً لترتيب زمني بسيط ، وبما أني احدد عموماً تاريخ كل مستند تم الاستشهاد به ، يكفي الباحث الذي يريد العثور على المستند المقصود ان يلقي نظرة على الفهرست الممتاز المقسوم الى جزأين ، الخاص بالمحفوظات ، والذي في متناول العموم في مكتبة هاوتون .

لقد تساءل ناقد أو ناقدان الى اي حد يمكن الوثوق بالمحفوظات واذا لم يكن تروتسكي وتلامذته قد زوروا الوثائق . وبالنسبة لي فإن صحة المحفوظات تؤكدها بما لا يقبل الشك الدلائل الملازمة لها ، والاحالة الى مراجع اخرى ، واخيراً لأنها تقدم للناقدين كما للمادحين كل المواد التي هم بحاجة اليها . وفي الواقع ان تروتسكي كان اسمى بكثير من ان يرتكب أي تزوير أو تشويه للوثائق . أما أنصاره فهم لم يتفحصوا يوماً محفوظات المعلم ، اما لقلة اهتمام ، أو لانشغالهم بأمور اخرى . وفي عام ١٩٥٠ ، كنت مع زوجتي الباحثين الأولين اللذين اشتغلا على اوراق تروتسكي منذ فرغ منها .

فيما انا اعيد الحياة الى الجو الايديولوجي ، وأصف الاحزاب والجماعات والافراد المنخرطين في الصراعات الداخلية ضمن الحركة الشيوعية ، في سنوات ١٩٣٠ ـ ١٩٤٠ ، استقيت inter alia من تجربتي الخاصة كناطق بلسان الحركة الشيوعية المعادية للستالينية في بولندا . كانت الجماعة التي انتسبت اليها تعمل آنذاك من ضمن علاقة وثيقة بتروتسكي . كانت أمانته الاممية تقدم لنا وثائق وفيرة للغاية ، جزء منها ذو طابع سري ، ومن بينها رسائل سيّارة ونسخ عن مراسلات تروتسكي ، الخ . وككاتب وخطيب ، انخرطت حقاً في كل المساجلات

الموصوفة في هذا الجزء تقريباً . كان علي خلال المجادلات ، أن أطلع عن كثب على حشد من الادبيات السياسية ، على الكتابات الستالينية ، والاشتراكية الديمقراطية ، والتروتسكية ، والبراندلرية ، وكراسات اخرى وكتب ودوريات ومنشورات صادرة في بلدان شتى . ومن البديهي ان جزءاً صغيراً فقط من تلك الادبيات كان في متناول يدي في الفترة التي كتبت فيها ثلاثيتي ، اي ما يكفي بالضبط للتأكد من دقة انطباعاتي وذكرياتي ، وللتثبت من صحة المعطيات والاستشهادات . لذا لا تزعم فهرستي وحواشيَّ استنفار كل ما هنالك من ادبيات حول الموضوع .

كان من حظي اني تمكنت من استكمال المواد المستخلصة من المحفوظات والمراجع المطبوعة ، بمعلومات حصلت عليها من ارملة تروتسكي ، ومن الفرد ومارغريت روسمر ، الاصدقاء الاكثر حمامة لتروتسكي في سنوات نفيه ، ومن جان مارتين دي بايير التي سلمتني الاوراق والمراسلات الخاصة بليون سيدوف، ابن تروتسكي البكر ، ومن بيار فرانك ، سكريتير تروتسكي في فترة وجوده في برنكيبو ، ومن جوزف هانسن ، سكريتير تروتسكي وحارسه في كويواكان والشاهد العيني لأيامه وساعاته الاخيرة ، ومن آخرين كثيرين ايضاً كانوا اتباعاً لتروتسكي في احدى الفترات (بين من اوردت اسماءهم هنا ، توفي كل من ناتاليا سيدوفا ومارغريت روسمر وجان مارتين قبل انجاز هذا الجزء) . ومن خارج الدائرة المتشكلة من عائلة تروتسكي وانصاره ادين بالكثير لكونراد كنودسن وامرأته اللذين استضافا تروتسكي في النروج ، وللسيد هلج كروغ ، وللسيد والسيدة ن . ك . داهل ، وذلك لأجل المعلومات الكثيرة والذكريات الحية للغاية التي نقلوها اليَّ بخصوص احتجاز تروتسكي وطرده خارج النروج . ولقد اجريت حديثاً مع السيد تريغفي لي ، الذي كان وزيراً للعدل مسؤولاً عن دخول تروتسكي الى النرويج وعن احتجازه في آن معاً . لكن السيد لي ، الذي حدثني طويلاً جداً وبصورة معبرة للغاية بخصوص شخصه هو ، طلب الي يومذاك ان امتنع عن الاستشهاد بما قاله ، مصرحاً ان ذاكرته قد خانته ، وأنه لما كان متعاقداً مع ناشر اميركي لا يحق له ان يكشف معلوماته في غير مذكراته الخاصة به . الا ان السيد لي تلطف فأطلعني على التقرير الرسمي حول قضية تروتسكي ، الذي كان قد عرضه على البرلمان النرويجي في بداية عام ١٩٣٧ . حصلت كذلك على امتياز اجراء حديث مع البروفسور هـ . كوهت ؛ وزير خارجية النروج في الفترة التي اقام

فيها تروتسكي في ذلك البلد ، وقد ابدى الكثير من الاهتمام بجلاء كامل الحقيقة حول هذا الموضوع .

وفيما انا ادرس فصلاً مهماً آخر من حياة تروتسكي ، اتصلت بالمأسوف عليه جون ديوي ، الذي قدم لي سرداً بالغ الايضاح بخصوص المحاكمة المضادة في المكسيك ، وحدثني باستفاضة وحرية عن الانطباع الذي تركه تروتسكي في نفسه . وادين للطف صديق ديوي وسكريتيره ، الدكتور س.راتنر ، بمعلومات قيّمة حول الظروف التي قرر الفيلسوف الاميركي العجوز فيها أن يترأس تلك المحاكمة المضادة . وبين أشخاص آخرين قدموا لي معلومات ، اود أن اشير الى السيد جوزف برجيه ، الذي كان سابقاً عضواً في هيئة أركان الكومنترن بموسكو ، والذي أمضى فيما بعد ما يقارب العشرين عاماً في معسكرات الاعتقال الستالينية . وقد روى لي السيد برجيه عن لقائه سرجي سيدوف ، ابن تروتسكي الاصغر ، في موسكو ، في سجن بوتيركي عام ١٩٣٧ .

اوجه كذلك شكري لـ مركز **الابحاث الروسي** في جامعة هارفارد ، وبوجه خاص للاستاذين م.فاينسود وم.د. شولمان ، للتسهيلات التي قدماها لي ، وللدكتور د.أ. بروور ، المسؤول عن آدامز هاوس ، ولامرأته ، وذلك للضيافة اللطيفة التي منحاني اياها أثناء عملي على القسم المغلق من محفوظات تروتسكي ، عام ١٩٥٩ .كما احفظ الجميل ايضاً للاستاذ ويليام جاكسون والآنسة س.أ. جاكمان ، من مكتبة هاوتون ، لمساعدتهما بالغة الصبر ، وللسيدة ايلينا زارودنايا ـ ليفين ، التي ساعدتني في قراءة بعض وثائق **المحفوظات** .

وأعبر للسادة جون بل ، دان م. دافين ، ودونالد تييرمان ، الذين قرأوا مخطوطتي ومسوداتي ، عن عرفاني بجميلهم لما قدموه لي من انتقادات واقتراحات عديدة لتحسين النص .

ولم يكن اسهام امرأتي في هذا الجزء مجرد اسهام يقدمه مساعد وناقد قدير . فخلال سنوات عديدة (منذ عام ١٩٥٠ ، التاريخ الذي بدأنا فيه دراستنا المعمقة لمحفوظات تروتسكي) ، دخلت الى قلب جو الدراما المأساوي هذا ، وساعدتني ، بصورة حاسمة ، بفضل تعاطفها المرهف مع شخص هذه الدراما ، في رسم صور الشخصيات وسرد قصة حياتهم .

أ.د

١٩٦٣

الفصل الأول

في جزيرة البرنس

تنطوي ظروف نفي تروتسكي من روسيا على ما ينذر بالسنوات اللاحقة . فالطريقة التي نُفي بها كانت اعتباطية وفظة . كان ستالين قد اجّل ذلك النفي طوال أسابيع ، في حين كان تروتسكي يقصف المكتب السياسي بالاحتجاجات ، منددا بلا شرعية القرار . ويبدو أن ستالين كان يتردد في أخذ قرار نهائي ، أو ربما كان يواصل مشاوراته مع المكتب السياسي . حينئذ بالذات انتهت فجأة لعبة القطة والفأر . ففي ليل ١٠ شباط/فبراير ١٩٢٩ ، جرى الاسراع في نقل تروتسكي وامرأته وابنه البكر إلى مرفأ اوذيسا ، ووضعهم على متن المركب **ايليتش** ، الذي ابحر للحال . كانت الزمرة المكلفة بحراسته والسلطات البحرية قد تلقت أوامر جازمة مطلوباً تنفيذها فوراً رغم الساعة المتأخرة من الليل ، ورغم العواصف ومياه البحر المتجمدة . فستالين لم يعد يتحمل الآن أي إمهال . والمركب ايليتش ، وكاسحة الجليد التي كانت تتقدمه ، جرى اعدادهما خصيصاً لانجاز هذه المهمة : فما من حمولة ، وما من ركاب على متن المركب غير تروتسكي وعائلته وضابطين من الغيبيو . كان ستالين يضع بذلك المكتب السياسي أمام أمر واقع ، فيحسم اي تردد ويحول دون تكرار مشاهد مماثلة لتلك التي حدثت حين طلب الى المكتب السياسي ، للمرة الأولى ، الترخيص بنفي تروتسكي فاحتج بوخارين وفرك يديه وبكى وسط الاجتماع قبل ان يصوّت ضد ذلك الترخيص هو وريكوُف وتومسكي(١) .

حصل النفي وسط السرية التامة ، ولم يتم اعلان القرار قبل وضعه موضع التنفيذ . فلقد كان ستالين يخشى رد فعل عنيفاً . كان قد جرى حشد قوات في المرفأ للحيلولة دون أي تظاهرات احتجاج أو اجتماعات جماهيرية

---

(١) انظر النبي الأعزل ، الفصل السادس . كان ريكوف لا يزال آنذاك رئيساً لمجلس مفوضي الشعب ، اي الوزير الأول السوفياتي ، والوزير الأول السوفياتي الذي خلف لينين .

مماثلة لتلك التي كانت قد نظمتها المعارضة قبل عام من ذلك الحين ، قبل اختطاف تروتسكي من موسكو[٢] . في هذه المرة ، لن يكون هناك شهادات مشاهدين ، ولا شهود من اي نوع كان . لم يكن ينبغي ان يسافر تروتسكي مع جمهرة من الركاب يمكن ان يلجأ امام اعينهم الى المقاومة السلبية . لا بل تلقى طاقم المركب الأوامر بالبقاء قريباً منه وبالحيلولة دون اي احتكاك بينه وبين المسافرين . تمت السفرة في جو من التوتر الغامض ، فستالين لم يكن بعد مصراً على تحمل المسؤولية الكاملة عن هذا التدبير ، وكان ينتظر ليرى هل سيصدم الرأي العام الشيوعي في الخارج ، ولم يكن يعرف بعد إذا كانت الاحداث اللاحقة لن تضطره لاستدعاء خصمه . اعتنى بتصوير هذا النفي بشكل ملتبس للغاية ، بحيث يمكن ان يمر عند الحاجة كسوء تفاهم يسهل تبديده ، او يمكن حتى انكار وجوده . هكذا في الايام القليلة التي تلت ، أوحت الصحف الشيوعية الاجنبية بأن تروتسكي ذهب الى تركيا في مهمة رسمية ، او نصف رسمية ، او حتى ذهب برضاه الكامل مع حاشية كبيرة[٣] .

هكذا ، وفجأة ، وجد تروتسكي نفسه على متن مركب كئيب مقفر ، مقلع عبر العواصف نحو أفق فارغ . حتى بعد العام الذي امضاه في ألما ـ آتا ، فان هذا الفراغ المتكون حوله ، الفراغ الذي كانت أشباح ضباط الغيبيو المتسكعين هنا وهناك تجعله اكثر عداء ، كان ينطوي على شيء ما مخيف . ما الذي كان يعنيه وبم كان ينذر ؟ لم يكن الى جانبه غير ناتاليا وليوفا ، وكان السؤال ذاته يُقرأ في عينيهما . ولقد نزل الجميع الى حجرتهم وظلوا هناك طوال السفرة ، ليتخلصوا من العاصفة ومن الشعور بالفراغ . لكن الشعور هذا بدا يلازم خطواتهم . ما الذي كان يعنيه ذلك وما عساها تكون نهاية الرحلة ؟

كان تروتسكي يتوقع الاسوأ : ما كان يعتقد بأن ستالين قد يكتفي بانزاله على الضفة الثانية من البحر الاسود ويتركه يمضي في سبيله ؛ كان يظن ان ستالين وكمال باشا ، رئيس تركيا وديكتاتورها ، حبكا مؤامرة ضده ، وان شرطة كمال باشا قد تأتي لتوقيفه وهو ما يزال على متن المركب ، ثم لاحتجازه او

---

(٢) المرجع المذكور ، الفصل الخامس .

(٣) لومانيتيه ، شباط / فبراير ١٩٢٩ .

تسليمه للمهاجرين الروس البيض المتجمعين في القسطنطينية كي ينتقموا منه . وقد عززت هذا الخوف المكائد التي حبكتها له الغيبيو . فلقد كان طالب هذه مراراً بأن تخلي سبيل سيرموكس وبوزنانسكي ، سكريتيريه وحارسيه المخلصين ، والسماح لهما بمرافقته إلى الخارج . لكن الغيبيو التي وعدت بالاستجابة لهذا الطلب لم تف بوعدها . كانت قد قررت ، بالتأكيد ، تركه على الشاطىء الآخر ، حتى من دون صديق يدافع عنه . في الطريق ، حاول الضباط الذين كانوا يواكبونه ، ان يطمئنوه : قالوا له ان سيرموكس وبوزنانسكي قد ينضمان اليه في القسطنطينية ، وحتى ذلك الحين ستتكفل الغيبيو بضمان سلامته ، فرد تروتسكي : « لقد خدعتموني مرة ، وستفعلون مرة أخرى »[٤] .

كانت تملأ الحيرة تروتسكي وامرأته وابنه ، وهم يتذكرون آخر رحلة في البحر قاموا بها معاً . كان ذلك عام ١٩١٧ ، حين أبحروا الى روسيا على باخرة نروجية ، بعد أن تم احتجازهم في كندا ثم اطلقت السلطات البريطانية سراحهم . كتب تروتسكي في سيرته : « في ذلك الحين ، كانت العائلة تضم الاشخاص ذاتهم (مع ان سرغي ، الاصغر ، الذي كان معهم عام ١٩١٧ ، لم يكن بين ركاب ايليتش) ، لكن كنا أصغر سنا باثني عشر عاماً » . إلا أن الظروف ، التي لم يقل عنها شيئاً ، هي التي كانت تشكل مفارقة اكثر اهمية بكثير من هذا الاختلاف في السن . فعام ١٩١٧ ، استدعته الثورة الى روسيا استعداداً للمعارك الكبرى التي كانت على أهبة البدء ، أما الآن فكانت الحكومة السائدة باسم الثورة تطرده من روسيا . عام ١٩١٧ ، خلال احتجازه في معسكر بريطاني ، كان يخطب كل يوم في جمهور البحارة الالمان خلف الاسلاك الشائكة ، سارداً لهم مواقف كارل ليبكنخت في الرايخستاغ ، وفي الزنزانة وفي الخنادق ، ضد القيصر (الالماني) او الحرب الامبريالية ، ومثيراً حماسهم للاشتراكية . وحين جرى اطلاق سراحه ، حمله البحارة على اكتافهم حتى بوابة المعسكر الكبرى وهم يهتفون بحماس مضاعف وينشدون النشيد الاممي[٥] . أما اليوم فلم يكن حوله غير الفراغ وزئير العواصف . كانت عشر سنوات قد انصرمت

---

(٤) رسائل تروتسكي الى اللجنة المركزية ، والى الهيئة التنفيذية للكومنترن ، وللمواطن فيكين ، مفوض الغيبيو مطلق الصلاحية مؤرخة في ٧ ـ ١٢ شباط / فبراير ١٩٢٩ . **المحفوظات : مويا جيزن** ، ج ٢ ، ص ٣١٨ .

(٥) النبي المسلّح ، الفصل الثامن .

منذ هزيمة حركة سبارتاكوس واغتيال ليبكنخت ، وكان تروتسكي تساءل اكثر من مرة ألن يكون مصيره نسخة طبق الاصل عن مصير ليبكنخت . ولقد جاءت حادثة طفيفة تضيف ملمحاً ساخراً لتلك المفارقة : في حين كان المركب ايليتش يدخل مضيق البوسفور بسط احد ضباط الغيبيو يده الى تروتسكي وفيها مبلغ ١٥٠٠ دولار ، هبة من الحكومة السوفياتية لمفوض الحرب فيها سابقاً ، تتيح له الاقامة في الخارج . كان تروتسكي في تلك اللحظة يتخيل ابتسامة ستالين الساخرة . لكن لما كان لا يملك قرشاً واحداً ، فقد ابتلع الاهانة وقبل المال . كان ذلك هو المرتب الاخير الذي استلمه من الدولة التي كان احد مؤسسيها .

كانَ اجترار ذكرى احداث كئيبة كهذه لا يتفق مع طبيعة تروتسكي . مهما يكن المستقبل صعب التكهن به ، كان عازماً على مجابهته واقفاً وهو يقاتل . لن يسمح لنفسه بأن تتبدد في الفراغ ؛ فأبعد من ذلك الفراغ كانت ثمة آفاق نضال وأمل لم يتم اكتشافها بعد ، الماضي الذي كان ينبغي أن يحياه حتى في اللحظة الراهنة ، ومستقبل سيواصل الحياة فيه الماضي والحاضر . لم يكن يحس بشيء يجمعه بتلك الشخصيات التاريخية التي قال عنها هيغل مرة انها انجزت مهمتها التاريخية واستنفدت نفسها وسقطت كصدف فارغة[٦] . كان يناضل ليطفو فوق ذلك الفراغ الذي اجتهد ستالين والاحداث لاحتجازه فيه . اما الآن فكل ما يمكنه أن يفعل هو أن يكتب احتجاجه النهائي ضد النفي ، قبل نهاية الرحلة . سلم حراسه رسالة موجهة الى اللجنة المركزية للحزب ، والى اللجنة التنفيذية المركزية للسوفييتات . في تلك الرسالة فضح المؤامرة التي حاكها ستالين والغيبيو بالاتفاق مع كمال باشا والشرطة « القومية الفاشية » لكمال باشا ، وحذر مضطهديه من أنه سيأتي اليوم الذي سيكونون مسؤولين فيه عن ذلك الخداع الوقح . ثم حين ألقى المركب ايليتش مراسيه وظهر حراس الحدود الاتراك ، سلمهم احتجاجاً حازماً موجهاً الى كمال باشا . كان الغضب والسخرية ظاهرين عبر تحفظ اللهجة الرسمي ؛ كتب يقول :

« يشرفني وانا على ابواب القسطنطينية أنْ اعلمكم بأني لم اصل الى الحدود التركية باختياري ، وانا لا أجتاز هذه الحدود إلا لأن عليّ الخضوع

(٦) Hegel, Philosophie der Weltgeschichte.

للقوة . تفضل ، ايها السيد الرئيس ، بقبول المشاعر التي تتلاءم مع مناسبة كهذه »[٧] .

لم يكن ينتظر اطلاقاً ، من جانب كمال ، رد فعل على احتجاجه ، وكان يشك كثيراً في أن يضطرب مضطهدوه في موسكو لدى فكرة أنه يمكن ، في يوم من الايام ، أن يضطروا لتقديم تفسير لما أقدموا عليه . لكن حتى في حين كان يبدو من العبث التماس عدالة التاريخ ، ما كان بوسعه أن يفعل شيئاً آخر . كان مقتنعاً بأنه لا يتكلم فقط لصالحه الشخصي ، بل باسم الصامتين ، باسم أصدقائه وتلامذته المسجونين او المنفيين ، وبأن العنف الذي كان ضحيته كان يمارس ضد الحزب البلشفي بكامله وضد الثورة بالذات . كان يعرف انه ، مهما يكن سعده وتعسه ، فإن سجاله مع ستالين سيتواصل وسيكون له صداه على امتداد القرن . إذا كانت ارادة ستالين تتمثل بإزالة كل اولئك القادرين على الاحتجاج والشهادة ، فإنه في حين يجري نفي تروتسكي قسراً وقهراً فلقد قرر ان ينهض للاحتجاج والشهادة .

إن الاحداث التي تلت النزول الى البر يغلب عليها تقريباً طابع الهرج . فما كاد تروتسكي وأفراد عائلته يطأون الساحل حتى اقتيدوا الى القنصلية السوفياتية في القسطنطينية . ومع أنه كان قد ألصق بتروتسكي وصف المجرم السياسي والمعادي للثورة ، جرى استقباله بالتكريم اللائق بقائد ثورة اوكتوبر ومؤسس الجيش الاحمر . خصص له جناح في مبنى القنصلية . وبدا جميع الرسميين ، الذين عمل بعضهم في السابق تحت قيادته ، راغبين في ان يشعر كما لو كان في بيته . وكان رجال الغيبيو يتصرفون كما لو كانوا ينوون حقاً الوفاء بالتعهد الذي قطعوه بحماية حياته . كانوا ينفذون كل رغباته ، ويتبضعون له ، ويرافقون ناتاليا وليوفا في تنقلاتهما في الجزيرة حين يبقى تروتسكي في القنصلية . وقد ابدوا الكثير من العناية في تفريغ المحفوظات الضخمة التي جلبها معه من ألما ـ آتا وفي نقلها ، دون ان يحاولوا حتى استقصاء مضمونها ، وكان الامر يتعلق بالوثائق والتقارير التي سيستخدمها بعد قليل كذخائر سياسية ضد ستالين ! يبدو أن موسكو كانت لا تزال تحاول تمويه الابعاد وتخفيف الصدمة التي احدثها لدى الرأي العام

---

(٧) المحفوظات ، مويا جينرن ، ج ٢ ، ص ٣١٧ .

الشيوعي . لم يتكلم بوخارين عبثاً ، في احد الايام ، على عبقرية ستالين في التدريج والتدقيق ؛ إن موهبة ستالين الخاصة ، المتمثلة بالوصول الى غاياته ببطء ، وخطوة فخطوة ، تظهر في تفاصيل من هذا النوع .

ظهرت كذلك في الطريقة التي ضمن بها ستالين تعاون كمال باشا . فبعد وصول تروتسكي بوقت قصير، اعلمته الحكومة التركية بأنه لم يتكلم أحد ابداً على نفي بصدده ، وان الحكومة السوفياتية طلبت فقط من الحكومة التركية منح تروتسكي تأشيرة دخول لأسباب صحية ، وان الحكومة التركية ، المهتمة الى ابعد الحدود بالعلاقات الودية مع جارها الشمالي ، ما كان في وسعها استقصاء اسباب ذلك الطلب ، وبناء على ذلك تجاوبت ومنحت التأشيرة المطلوبة . الا ان كمال باشا ، الذي ضايقه ان يرى نفسه وقد تحول الى متواطىء مع ستالين ، سارع لطمأنة تروتسكي الى أنه ليس وارداً اطلاقاً بالنسبة اليه ان يكون محتجزاً او معرضاً لأي نوع من العنف في الأراضي التركية ، وان في وسعه مغادرة البلاد حين يشاء او البقاء فيها طالما يطيب له ذلك ؛ وانه اذا كان في نيته البقاء ، فسوف توفر له الحكومة التركية كل الاشكال الممكنة من حسن الضيافة وتتكفل بضمان سلامته وامنه(٨) . لكن رغم ذينك المودة والاحترام ، بقي تروتسكي مقتنعاً بأن كمالاً متواطىء مع ستالين . في كل حال ، كان يستحيل معرفة كيف سيتصرف كمال إذا ما اضطر لمواجهة مطالب جديدة من جانب ستالين ؛ هل يمكن ان يخاطر ، لمصلحة منفي سياسي ، بالتخاصم مع جاره الشمالي القوي ؟

ما كان يمكن ان يستمر الوضع الملتبس الذي تسببت به اقامة تروتسكي في القنصلية السوفياتية . لم يكن ستالين ينتظر إلا حجة لانهاء ذلك الوضع ، كما أن تروتسكي ذاته كان يعجز عن احتماله . فإن كانت الغيبيو تؤمن حمايته ، كان يبقى اسيرها الافتراضي ، بحيث لم يكن يعرف من عليه ان يخشى اكثر ، المهاجرين الروس البيض خارج القنصلية ، أو حراسه داخلها . كان يجد نفسه محروماً من الميزة الوحيدة التي يوفرها النفي للمناضلين السياسيين : حرية الحركة وحرية التعبير . كان مهتماً بعرض حالته ، وبكشف الاحداث التي ادت الى

---

(٨) استناداً الى رسالة موجهة لتروتسكي ، نصها حاكم القسطنطينية ، بأمر من كمال باشا ، في ١٨ - ٢ - ١٩٢٩ . محفوظات تروتسكي (القسم المقفل) .

طرده ، وبالاتصال بأنصاره في شتى البلدان ووضع خطط عمل جديدة . وأي من تلك الامور ما كان في وسعه ان يقوم به في القنصلية بأمان . اكثر من ذلك ، كان هو وامرأته مريضين ، وكان عليه ان يكسب عيشه ، وهو ما لم يكن يمكنه أن يفعله إلا بواسطة الكتابة . كان بحاجة إلى الاقامة في مكان ما ، والاتصال بناشريه ومباشرة العمل .

في يوم وصوله بالذات ، وجه رسائل الى اصدقائه والمتعاطفين معه في اوروبا الغربية ، ولا سيما في فرنسا ، فكان الجواب فورياً . . كتب اليه الفرد ومارغريت روسمر ، بعد ثلاثة ايام من نزوله الى الساحل(٩) : «لا حاجة لأن نقول لك ان في وسعك الاعتماد علينا ، جسداً وروحاً ؛ نعانقك من اعماق قلبينا ، بكل مودة واخلاص » . كانا صديقي تروتسكي وناتاليا منذ الحرب العالمية الأولى ، يوم كانا ينتميان الى حركة زيمرفالد . وفي بداية العشرينات ، كان الفرد روسمر مثَّل الحزب الشيوعي الفرنسي في الهيئة التنفيذية للاممية الشيوعية في موسكو ، وقد جرى طرده من الحزب لأنه اعلن تضامنه مع تروتسكي ، من اعماق قلبه : « بكل مودة وإخلاص » لم تكن إذاً بالنسبة لآل روسمر بنداً من بنود الانشاء . رغم الخلافات اللاحقة بقيا صديقي تروتسكي الحميمين الوحيدين طوال سنوات نفيه . كذلك ، فإن بوريس سوفارين ، المحرر السابق للنشرة النظرية للحزب الشيوعي الفرنسي ، والذي كان الوحيد بين المندوبين الشيوعيين الاجانب في موسكو الذي تكلم دفاعاً عن تروتسكي في ايار مايو ١٩٢٤ ، كتب عارضاً مساعدته وتعاونه ؛ بالاضافة الى متعاطفين نشيطين آخرين ، كموريس ومادلين باز ، وكانا محامياً وصحفية طردا من الحزب الشيوعي ، وسيشتهران فيما بعد بوصفهما نائبين اشتراكيين . Cher grand ami ، هكذا بدآ رسالتهما اليه ، التي عبّرا فيها عن قلقهما بخصوص وضعه غير الثابت في تركيا . وقد حاولا الحصول له على تأشيرات دخول الى البلدان الأخرى ، ووعداه بالانضمام اليه قريباً في القسطنطينية(١٠) .

بواسطة آل روسمر وباز ، اتصل تروتسكي بالصحف الغربية ، وفي القنصلية

---

(٩) المراسلة بين آل روسمر وتروتسكي ، المرجع ذاته .

(١٠) من موريس باز الى تروتسكي ، في ١٨ شباط / فبراير ١٩٢٩ . المحفوظات .

حيث كان لا يزال يقيم كتب سلسلة مقالات نُشرت في **النيويورك تايمز** ، و **الدايلي اكسبرس** وصحف اخرى ، في النصف الثاني من شباط/ فبراير . شكلت تلك السلسلة روايته العلنية الاولى للصراعات الداخلية في الحزب خلال السنوات والشهور الاخيرة . جاءت مختصرة ، وحازمة وهجومية . لم يوفر فيها خصماً او عدواً ، سواء كان شاباً أو شيخاً ، لا سيما ستالين الذي فضحه امام العالم بهذه العبارات : حفَّار قبر الثورة[١١] ، وهي العبارات ذاتها التي سبق ان استخدمها امام المكتب السياسي . لكن حتى قبل أن تظهر مقالاته ، كان قد اصطدم بمضيفيه الذين حثوه على مغادرة مبنى القنصلية للاقامة في واحد من مجموعة ابنية مخصصة لموظفي القنصلية حيث يمكن ان يواصل حياته في « حماية » الغيبيو . وقد رفض الانتقال وبقيت المسألة معلقة حتى جاء نشر المقالات يفجر الازمة . أصبح ستالين يمتلك الآن الذريعة التي كان بحاجة اليها لإضفاء العلنية على النفي . فلقد تكلمت الصحف السوفياتية على تروتسكي واصفة اياه بأنه الرجل الذي باع نفسه للبورجوازية العالمية والذي يتآمر ضد الاتحاد السوفياتي ؛ وصوَّر رسَّامو الكاريكاتور تروتسكي ، **مستر تروتسكي** ، وهو يشد اليه كيساً يحتوي **٢٥** الف دولار . اعلنت الغيبيو أنها اصبحت في وضع يستحيل معه ان تتحمل مسؤولية أمنه وأنها ستطرده من القنصلية[١٢] .

مرت ايام عديدة وناتاليا وليوفا ، الخاضعان لرقابة دقيقة خلال تنقلاتهما من جانب رجال الغيبيو ، يبحثان بصورة حثيثة في ضواحي القسطنطينية عن ملجأ فيه الحد الادنى من الامن والحد الادنى من الانعزال . وقد وجدا أخيراً منزلاً لم يكن في المدينة ولا حتى بالقرب منها بل في جزر برنكيبو ، وسط بحر مرمرة (كانت الباخرة تقضي لا أقل من ساعة ونصف للذهاب من القسطنطينية الى الجزر) . كان ثمة بعض السخرية في هذا الاختيار المتسرع لمحل اقامة ، لأن برنكيبو ، أو ارخبيل الامراء ، كان في السابق منفى يرسل الاباطرة البيزنطيون إليه العصاة والخصوم من السلالة الملكية . وقد وصل تروتسكي الى هناك في ٧ أو ٨ آذار/ مارس . فيما كان ينزل الى ساحل بويوك آدا ، اهم بلدة في برينكيبو ، خيل إليه انه من الطيور المهاجرة ، لكن اقامته ستمتد هناك لتصل الى اربع

---

(١١) النص الأصلي مؤرخ في ٢٥ شباط / فبراير ١٩٢٩ . **المحفوظات** ، **كتابات** ، ج ١ ، ص ١٩ ـ ٥٢ .

(١٢) مراسلة تروتسكي مع ممثل الغيبيو في القسطنطينية ، ٥ و ٨ آذار / مارس . **المحفوظات** .

سنوات طوال ، خصبة بالاحداث .

وصف تروتسكي مراراً تلك الحقبة من حياته على انها هجرته الثالثة . وهذا التعبير ، الذي يفتقر قليلاً الى الدقة ، يعطي ايضاحات حول حالته النفسية حين وصل الى برنكيبو . في الواقع ، كانت تلك هي المرة الثالثة التي تنفيه فيها حكومة روسية ويضطر إلى المضي للعيش في الخارج . لكنه نفي في عامي ١٩٠٢ و١٩٠٧ الى سيبيريا والمنطقة القطبية،من حيث هرب باحثاً عن ملجأ له في الغرب.في تلك الأيام ، أينما كان يصل كان يشكل جزءاً من الجماعة الممتلئة حياة ، والنشيطة وكثيرة العدد ، التي كان يتألف منها المنفيون الروس . اما في هذه المرة،فلم يكن هو الذي اختار الهجرة ، ولم يكن ثمة في الخارج اي جماعة من المنفيين الروس لتستقبله كواحد منها ، وتقدم له الوسط والوسيلة لمواصلة نشاطه السياسي . كان هنالك عدد كبير من جاليات المهاجرين السياسيين ، لكنها كانت تشكل روسيا المضادة للثورة في المنفى . كان بينها وبينه الدم والحرب الأهلية . ومن بين اولئك الذين قاتلوا الى جانبه في تلك الحرب لم يكن هنالك الآن من ينضم اليه !

هكذا كان نفيه الثالث من نوع مختلف عن نوع النفيين السابقين ، وما كان يمكن مقارنته بأي مثيل له في الماضي ، لأنه ما من منفي وجد نفسه ، على امتداد التاريخ الطويل والكثيف للهجرة السياسية ، في هذا الوضع من العزلة ، اذا استثنينا نابوليون الذي كان اسير حرب . كان تروتسكي يسعى ، بصورة لاواعية ، لجعل قساوة هذا الطور الجديد من حياة الابعاد والنفي ألطف بالنسبة الى عائلته واليه ، عن طريق ربط هذا الطور بتجاربه السابقة للثورة . كانت ذكرى تلك التجارب الآن عامل تشجيع وتعزية . لقد دامت فترة هجرته الاولى اقل من ثلاث سنوات ، وقطعها الـ Annus Mirabilis لعام ١٩٠٥؛ اما الهجرة الثانية فدامت فترة اطول بكثير ، عشر سنوات ، لكن تلاها النصر العظيم لعام ١٩١٧ . في كل مرة ، كان التاريخ يكافيء الثوري على انتظاره المحموم في الخارج . فهل كان من قبيل تعليل النفس بالاوهام الامل بأن يكرر التاريخ ذلك ؟ كان يدرك في هذه المرة ان المستقبل قد يكون أقل أريحية ، وان من المحتمل كثيراً ان لا يعود ، هو تروتسكي ، ابداً إلى روسيا . لكن حاجته الى منظور واضح ورافع

للمعنويات ، وتفاؤل المقاتل الذي يخوض معركة يائسة ويأمل بالنصر ، حتى حين تكون الهزيمة امامه ، كل ذلك كان يتغلب على هواجسه .

هذا النوع من التفاؤل لن يفارقه ابداً ، لكن في حين سوف يحتفظ في السنوات الاخيرة من نفيه بثقته في الانتصار النهائي لقضيته اكثر مما بحظه في ان يعيش ما يكفي ليشهد ذلك الانتصار ، فإن تفاؤله احتفظ في السنوات الاولى من النفي بطابع اكثر شخصية . لقد تأمل بثبات أن تعطيه الاحداث الحق ، في وقت قريب ، ويعود الى روسيا . لم يكن يعتقد أن الوضع السياسي سيكون مستقراً ، وكان يتوقع ، بسبب الخضّات التي يسببها التجميع(*) والتصنيع ، تبدلات كبرى في الحزب الحاكم تنتج عن التبدلات على المستوى القومي . لم يكن يعتقد بإمكان توطيد دعائم الستالينية . فماذا كانت هذه غير ترقيع لأفكار غير ملائمة ، ومواربات بيروقراطية لا تجرؤ على التصدي وجهاً لوجه للمشكلات التي تجد نفسها إزاءها ؟ كان مقتنعاً بأن نهاية هذا الفاصل من السلطة الستالينية سوف تتم حتماً ، إما بنتيجة انبعاثٍ للروح الثورية وتجددٍ للبلشفية ، او عن طريق ثورة مضادة واعادة للرأسمالية . كان هذا الانحصار الصارم ضمن احتمالين وحيدين يطغى على افكاره ، حتى إذا حدث احياناً ان تَصوَّر احتمالات اخرى . كان يعتبر انه هو والذين يشاطرونه افكاره يشكلون المعارضة الجدية الوحيدة في وجه ستالين ، المعارضة الوحيدة الباقية صلبة على الارض التي افتتحتها ثورة اوكتوبر ، القادرة على تقديم برنامج عمل اشتراكي وتشكيل حكومة بلشفية بديل . لم يتوصل حتى ذلك الحين الى تصور ستالين قادراً على تدمير المعارضة ، او حتى اجبارها طويلاً على الصمت . وهنا أيضاً ، كانت آماله تتغذى بذكريات سابقة للثورة . فرغم سجن الثوريين ونفيهم واعدامهم ، لم تكن القيصرية قد تمكنت من خنق المعارضة . لماذا اذاً قد ينجح ستالين ، الذي لم يكن توصل بعد الى اعدام المعارضين ، لماذا قد ينجح حيث فشل القياصرة ؟ لا شك ان المعارضة مرت في حالات عسر ويسر ، لكن لما كانت تمد جذورها العميقة في الوقائع الاجتماعية وتشكل التعبير عن مصلحة البروليتاريا ، ما كان يمكن الاجهاز عليها وازالتها من الوجود ؛ ولما كان هو قائد تلك المعارضة المعترف به ، كان عليه ان يوجه نشاطاتها من الخارج ، مثلما سبق أن وجه ، هو ولينين ، انصارهما

(*) سنستعمل عبارة التجميع بمعنى Collectivisation أي إضفاء الطابع الجماعي (م) .

من أقاصي منفاهما . هو وحده كان يمكنه منذ ذلك الحين ان يحدث العالم بصدد المعارضة ، بسبب الحرية النسبية التي كان يتمتع بها ، وأن يوصل صوته بعيداً بما فيه الكفاية .

من زاوية أخرى ، كان وضعه يختلف ، مع ذلك ، عما كان عليه قبل الثورة . ففي تلك المرحلة ، كان العالم يجهله ، أو انه لم يكن يعرفه غير ذوي الاطلاع ، بصفته كثوري روسي . اما اليوم فكان الامر مختلفاً ، فهو لم يكن يخرج من الظلمة النسبية التي تتصف بها حركة سرية . فلقد شاهده العالم يقود ثورة اوكتوبر ، ويؤسس الجيش الاحمر وينظم النصر ، واخيراً يلهم الاممية الشيوعية . ارتفع الى ذرى لا يمكن الهبوط منها اطلاقاً ، ولعب دوره على مسرح العالم ، تحت كشّافات ضوء التاريخ ، وما كان يمكنه العودة إلى العتمة . كان الماضي يطغى على حاضره ، ويستحيل السقوط في الظلمة الحامية لحياة الهجرة السابقة للثورة . كانت أعماله قد هزت العالم ، ولا هو ولا العالم كان بامكانهما ان ينسيا .

كما لم يكن بإمكانه أيضاً أن يحصر اهتماماته بروسيا ، فلقد كان يعي واجبه إزاء الأممية . كان الصراع في تلك السنوات ينصب بصورة أساسية على مسائل الاستراتيجية والتكتيك للحركة الشيوعية في المانيا والصين وانكلترا ، وعلى الطريقة التي خَصَّت بها موسكو الاممية ، بفعل انتهازيتها . وبالنسبة اليه ، كان أمراً لا يُعقل ألا تجري مواصلة ذلك النضال . وللوهلة الاولى ، كان يبدو أن النفي ينبغي أن يسهّل ذلك الأمر . إذا كان يعود عليه بانعدام الشعبية أن يجعل من نفسه داخل روسيا بطل النزعة الاممية وناقد ضيق الافق القومي ، الستاليني والبوخاريني ، فلقد كانت لديه أسباب للأمل بأن تكون ردود الفعل لصالحه في الخارج قوية بين الشيوعيين . ألم يكن طرح اولوية مذهبه الاممي بمواجهة مفهوم الاشتراكية في بلد واحد تعزيزاً لمصالحهم الحيوية ، في الواقع ؟ لم يكن في وسعه مخاطبة الشيوعيين الاجانب من موسكو وألما - آتا ، وكان ستالين حرص على أن يبقوا جاهلين موقفه ، أو على الا يكوّنوا عن ذلك الموقف غير فكرة مشوهة بشكل فظ . اما الآن فربما كانت اقامته الاضطرارية في الخارج تسمح له بطرح القضية أمامهم .

كان لا يزال يعتبر باستمرار ان بلدان الغرب الصناعية المتقدمة تشكل ساحات

معركة صراع الطبقات العالمي؛وبذلك كان يبقى أميناً تجاه ذاته وتجاه الماركسية الكلاسيكية التي كان يمثلها بكل نقاوتها.وفي الواقع،ما من مدرسة داخل الحركة العمالية ، ولا حتى المدرسة الستالينية ، كانت تتجرأ على السخرية علانية من ذلك التراث . فبالنسبة للاممية الثالثة ، كما بالنسبة للأممية الثانية ، كانت اوروبا الغربية لا تزال تشكل دائرة النشاط الرئيسية ، فالحزبان الشيوعيان الالماني والفرنسي كانا يمسكان بناصية جماهير كثيفة ، بينما كان الاتحاد السوفياتي لا يزال متخلفاً صناعياً وبالغ الضعف ، وكان قد جرى تأخير انتصار الثورة الصينية عشرين عاماً . هكذا لما كانت قد بقيت اوروبا البورجوازية في قلب السياسة العالمية ، حتى في حقبة الانحدار تلك ، كان يبدو أن الطبقات العاملة الغربية لا تزال القوى الأهم للثورة البروليتارية ، الأهم بعد الاتحاد السوفياتي ضمن المفهوم الستاليني ، بينما كان تروتسكي يعتبرها الأهم على الاطلاق في وضع الكمون .

وبالطبع ، لم يكن تروتسكي يؤمن بثبات النظام البورجوازي في أوروبا واستقراره . ففي فترة وصوله الى برنكيبو ، كان « الازدهار » الذي عرفه الغرب في سنوات ١٩٢٥ ـ ١٩٣٠ يقارب نهايته ؛ لكن المحافظين والليبراليين والاشتراكيين ـ الديمقراطيين كانوا لا يزالون يتدفأون على شمس الديمقراطية والسلام وتعاون الطبقات ، التي كانت تضمن بنظرهم الاستمرار اللامتناهي لذلك الازدهار . كانت الحكومات البرلمانية تبدو مستقرة وصامدة ، وكانت الفاشية ، في معقلها الايطالي الوحيد ، باقية كظاهرة على هامش السياسة الاوروبية . ومع ذلك فمنذ الايام الاولى لاقامة تروتسكي في القسطنطينية توقع نهاية فردوس الحمقى ذلك ، وتكلم على انحدار الديمقراطية البورجوازية ، وعلى موجة القعر الفاشية .

« . . هذه الاتجاهات للتطور السياسي في اوروبا منذ الحرب، ليست عرضية، بل تشكل الاستهلال الدامي للحقبة الجديدة. . لقد قادتنا الحرب العالمية الاولى إلى حقبة توتر عظيم ، وصراعات كبرى ، مع منظور حروب جديدة كبرى . . . لا يمكن قياس عصرنا على القياس القديم للقرن التاسع عشر ، الذي كان قرن توسع الديمقراطية البورجوازية بامتياز . سوف يتميز القرن العشرون ، من زوايا عديدة ، عن القرن التاسع عشر أكثر مما يتميز التاريخ الحديث كله عن العصر

الوسيط »[١٣] .

كان لديه الانطباع بأنه يعود الى أوروبا عشية منعطف حاسم للتاريخ ، في الفترة التي لا يمكن فيها الا للثورة الاشتراكية ان تقدم للامم الغربية البديل الحقيقي من الفاشية . كان يعتقد ان الثورة في الغرب ستحرر الاتحاد السوفياتي من عزلته وتخلق موازناً قوياً لعبء التخلف الثقيل الذي تسبب بتهافت الثورة الروسية . ولم يكن ذلك الأمل يبدو باطلاً .

إن الحركة العمالية في البلدان الغربية ، بمنظماتها الجماهيرية السليمة وروحها القتالية ، المخففة بالتأكيد لكن الحية باستمرار ، هذه الحركة كان لا يزال في وسعها أن تصمد في معارك وأن تخوضها ؛ والاحزاب الشيوعية ، رغم اخطائها وعيوبها ، كانت لا تزال تضم في صفوفها طليعة الطبقة العاملة . وقد استخلص تروتسكي من ذلك أنه ينبغي الاستمرار في فتح اعين تلك الطليعة على الاخطار والاحتمالات لجعلها مدركة مسؤولياتها ، ولهز وعيها وحثها على العمل الثوري .

هذه الرؤيا للحاضر ، بالاضافة الى ماضي تروتسكي ، هما اللذان هيآه للدور الخاص الذي سيلعبه في المنفى . كان يقف في الواجهة كوريث الماركسية الكلاسيكية كما اللينينية ، اللتين انحدرت بهما الستالينية بحيث لم تعودا غير سلسلة من العقائد الجامدة ، وميثولوجيا بيروقراطية . كان ترميم الماركسية وإدخال روحها النقدية مجدداً الى جمهور الشيوعيين تمهيداً جوهرياً للعمل الثوري الفعلي وللمهمة التي كان يكلف نفسه بها . ما من ماركسي ، باستثناء لينين ، تكلم يوماً بسلطة ادبية مشابهة لسلطته ، سلطة كان يمكنه أن يمارسها بما هو منظرٌ للثورة وقائد ظافر لها . ولم يتوجب على شخص ان يعمل ضمن وضع بتلك الصعوبة ، لأنه كان محاطاً من كل الجهات بعداوة لا تلين ، ومنخرطاً في نزاع مع الدولة التي ولدتها الثورة . كان يمتلك وفراً ، لا بل فيضاً ، من الشجاعة والطاقة المطلوبين للاضطلاع بدور كذلك الدور ولمواجهة وضع كذلك الوضع . فكل الضربات الجدية التي تلقاها ، بدل أن تفلَّ غريزة القتال لديه ، اعطتها كل حدتها ، واثارتها الى الاوج . واهواء عقله وقلبه ، التي كانت دائماً واسعة وجارفة

(١٣) الكتابات ، ج ١ ، ص ٤٧ ، الطبعة الفرنسية .

بصورة خارقة ، كانت ترفدها طاقة مأساوية هي بقوة وسمو تلك التي تحرك الانبياء ومشترعي رؤيا ميكايل آنج . تلك الطاقة الادبية ، هي التي حمته في تلك الفترة من كل معنى المأساة الشخصية . لم يكن ثمة حتى أثر لديه للرثاء لمصيره الخاص به . وفي السنة الأولى لنفيه ، حين ختم سيرته بهذه الكلمات : « لا اعرف ما يدعونه المأساة الشخصية » ، كان يقول الحقيقة ، وكان يرى قدره الخاص به كأمر عارض في المد والجزر الكبيرين للثورة والثورة المضادة ؛ وقليلاً ما كان يهمه ، في الواقع ، ان يقاتل من داخل السلطة أو بوصفه منبوذاً . لم يكن الاختلاف بين الحالتين يؤثر اطلاقاً على ايمانه بقضيته وبنفسه ، وحين صدرت عن احد النقاد ، حسني النية ، ملاحظة مفادها أنه رغم سقوط مفوض الحرب السابق فقد احتفظ كلياً بصفاء ذهنه وقوته،لم يتمكن تروتسكي من كظم سخريته من الجاهل الذي كان يرى علاقة بين قدرة الانسان على التفكير السليم وممارسة وظيفة ما[١٤] . لم يكن يشعر بكامل وجوده إلا حين يتمكن من تركيز كل طاقاته الى اقصى الحدود ووضعها في خدمة فكرة معينة ، وهو ما كان سيفعله مهما حصل . كانت ذكرى انتصاراته خلال الحرب الاهلية والثورة ، ذكرى اكثر حيوية من ذكرى هزائمه اللاحقة ، تعزز ثقته . كان يعرف أن انتصاراته لا تزول ، والذرى التي رفعته اليها حياته كانت عالية بحيث تنسيه كل سقوط ، وبحيث ما كان في وسع سلطة في العالم أن تنزله منها . ومع ذلك فالمأساة ، القاسية والعنيدة ، كانت تضيق عليه الخناق اكثر فأكثر .

حوالى عام ١٩٣٠ ، كانت برنكيبو لا تزال مقفرة بقدر ما كانت في الحقبة التي كان اشقاء اباطرة بيزنطة وابناء عمومتهم المغضوب عليهم يذبلون فيها على سواحلها . حتى الطبيعة كان يبدو انها تخيلت المكان ليكون اصلاحية ملكية . إن بويوك ـ آدا ، الجزيرة ذات الشواطىء الصخرية الحمراء ، القائمة على الزرقة القاتمة ، تَلبُدُ في البحر كحيوان من قبل التاريخ وهو يشرب[١٥] . وفي الالوان الملتهبة لغروب شمس ، تتنامى لطختها الارجوانية ، مبتهجة ومتحذية كشعلة على الافق الهادىء ؛ ثم هاك انفجاراً لحمرة صاخبة ، تحدياً غاضباً في وجه العالم البعيد وغير المرئي ، وصولاً الى الانغمار النهائي في الظلمة ، الذي كما لو كان

---

(١٤) مويا جيزن ، ج ٢ ، ص ٣٣٦ .

(١٥) ماكس ايستمان ، Great CompagnonS ، ص ١١٧

مفعماً بالضغينة والحقد . أما سكان الجزيرة ، وهم بعض صيادي الاسماك وبعض الرعاة المقيمين بين الاحمر والازرق ، فيعيشون كاجدادهم قبل الف عام ، ويخيل للمرء ان مقبرة البلدة تضج اكثر من البلدة ذاتها بالحياة(١٦) . لم يحدث يوماً أن قطع الصمت زمور سيارة ما ؛ كان يسمع احياناً في الشارع الكبير نهيق حمار ، يصعد من بين الشواطىء الصخرية المحيطة او من الحقول . لكن خلال اسابيع معدودة يهجم الضجيج والحركة بغتة ، ذلك انه عند مجيء الصيف تمتلىء الشواطىء والأكواخ بأناس يقضون ايام العطلة ، بعائلات تجار ، لا سيما من القسطنطنية ؛ ثم يسود الهدوء من جديد ، ولا تجد هناك غير نهيق حمار في استقبال عودة الخريف الهادئة والرائعة .

كان مسكن تروتسكي على أطراف بويوك ـ آدا ، محاطاً من كل الجهات بسياجات عالية وبالبحر ، منفصلاً عن البلدة ويضارع انعزاله عنها انعزالها عن باقي العالم . كان المسكن كناية عن دارة واسعة وخربة استأجرها من احد الباشاوات المفلسين ، وبعد ذلك الحين بسنوات ، كان تروتسكي لا يزال يتذكر بأي قدر من المرح والحيوية شمّرت ناتاليا ، المهتمة بالنظافة ، عن ساعديها ، وجعلت من معها يحذون حذوها ، لكنس الاوساخ وطرش الجدران بالابيض . وبعد ذلك بوقت طويل ، دهنوا ارض المسكن بطلاء رخيص لدرجة أن احذيتهم بقيت تلتصق بها طوال اشهر بعد تلك العملية . كان ثمة وسط المنزل بهو واسع له ابواب تنفتح على شرفة تواجه البحر . في الطابق الاول كانت حجرة العمل الخاصة بتروتسكي ، التي سرعان ما غطت جدرانها كتب ودوريات وصلت من اوروبا واميركا . أما في الطابق الارضي فكانت السكريتيريا التي يهتم بها ليوفا . وقد وصف زائر انكليزي الرخام ذا اللون المتسخ ، المتأرجح بين البرونز والتذهيب الرديء ، الذي يعبر عن المطامح الاجتماعية للمالك التركي كما عن الاخفاق في حياته . ذلك الديكور الحائل ، المعد لتقديم الترف والهيبة لباشا معتزل ، كان يشكل مفارقة هزلية مع الجو السبارطي المحيط بالمكان . حين وصل ماكس ايستمان الى هناك ، كان المنزل مزدحماً بأمناء السر ، وبالحراس والمدعوين ، وقد شبَّه افتقاره الى الجمال ووسائل الراحة بحالة ثكنة مقفرة : « لم يكن في تلك القاعات الواسعة وعلى الشرفة قطعة اثاث واحدة ، ولا حتى كرسي . ليست سوى مماش ، والابواب التي تطل على الغرف من كل جانب

---

(١٦) تروتسكي ، مذكرات غير منشورة ، تموز / يوليو ١٩٣٣ . المحفوظات .

مقفلة . وفي كل من تلك الغرف ، طاولة مكتب ، او سرير ، او كلاهما معاً ، وكرسي اضافية . احدى الغرف ، في الاسفل ، وهي غرفة صغيرة جداً ، مربعة وذات جدران بيضاء ، تكاد تتسع لطاولة وبعض الكراسي ، يجري استخدامها كغرفة طعام » . وهذا الزائر الاميركي ، الميّال إلى المتعة والرخاء ، يقول إنه « ينبغي ان يكون رجل وامرأة شبه ميتين ، من الزاوية الجمالية » ، كي يعيشا في مسكن بتلك الصرامة ، بينما « كان في وسعهما ان يجعلا منه مسكناً ساحراً ، لقاء دولارات قليلة »[(١٧)،(١٨)] . لا شك انه لم يكن في المكان أي شيء من وسائل الراحة المتوفرة في المنزل البورجوازي الاميركي ؛ وحتى في ظروف عادية ، ما كان مر ببال تروتسكي وناتاليا أن يُعِدّا « مسكناً ساحراً » مع رسوم لا تكلف « الا بضع دولارات » ؛ ولم تكن شروط حياتهما في برنكيبو عادية في يوم من الايام . بقيا هنالك ، طيلة الوقت ، كما في صالة انتظار عند رصيف ميناء ، يتطلعان الى المركب الذي يمضي بهما بعيداً عن ذلك المكان . بقي البستان ، المحيط بالدارة ، متروكاً للاعشاب « لتوفير المال » ، كما قالت ناتاليا لاحد الزوار ، الذي كان ينتظر تقريباً ان يرى تروتسكي يستثمر تلك القطعة الصغيرة من الارض . كان ينبغي توفير الجهد والمال من اجل نضال يائس ، لم يكن المنزل في بويوك ـ آدا غير مركز قيادته المؤقت . كانت صرامته النظيفة والجرداء تتناسب مع ذلك الهدف .

ظهر بوضوح ، منذ وصول تروتسكي ، انه لا يمكنه القبول بعزلته وأن واقع كونه إلى ذلك الحد تحت رحمة الغيبيو والمهاجرين الروس البيض ظل يثير المخاوف لديه . كان قد جرى وضع شرطيين تركيين خارج بوابة مسكنه ، لكنه لم يكن يستطيع التعويل عليهما في امر سلامته الشخصية ، وقد بدأ على الفور تقريباً يسعى للحصول على تأشيرة دخول ، وهو سعي وصفه في الصفحات الاخيرة من سيرته الذاتية[(١٩)] .

حتى قبل إبعاده من اوذيسا، كان طلب الى المكتب السياسي منحه تأشيرة دخول

---

(١٧) مانشستر غارديان ، ١٧ آذار / مارس ١٩٣١ . انظر كذلك روسمر في الملحق لكتاب تروتسكي ، حياتي ، ص ٥٩٢ .

(١٨) ايستمان ، استشهاد مذكور .

(١٩) مويا جيزن ، ج ٢ ، ص ٣١٨ - ٣٣٣ ، المحفوظات .

الى المانيا. وقد قيل له إن الحكومة الإلمانية، وكانت اشتراكية ديمقراطية يرئسها هرمان مويللر، رفضت منحه تلك التأشيرة. وكان نصف مقتنع ان ستالين خدعه بهذا الخصوص . لذا حين اعلن بول لوبي ، الناطق بلسان الاشتراكيين في الرايخستاغ ، ان المانيا قد تمنح تروتسكي حق اللجوء اليها ، قدم طلباً فورياً للحصول على تأشيرة . لم يكن يثنيه « السرور الخبيث الذي ابرزت به الصحف اضطرار رسول للديكتاتورية الثورية الى طلب اللجوء لبلد ديمقراطي » . وكانت تلك الصحف تقول ايضاً إن ذلك قد يعطيه درساً جيداً ، ويلقنه أن يقدر قيمة المؤسسات الديمقراطية . ومع ذلك ، فالدرس لم يكن بنّاء على الاطلاق . فلقد سألته الحكومة الالمانية بادىء ذي بدء إذا كان مستعداً للخضوع للتقييدات التي تزمع أن تضعها بصدد حرية حركته ؛ واجاب انه مستعد للامتناع عن اي نشاط علني ، وللحياة في عزلة تامة عن العالم ، في ضواحي برلين على وجه التفضيل ، وللانصراف لعمله الأدبي . وسئل حينئذ إذا كانت زيارة قصيرة ، ضرورية لمعالجة صحية ، قد لا تكفيه ؛ وحين اجاب بأنه لما كانْ لا خيار له ، فهو سيصل حتى الى الاكتفاء بذلك ، جرى اعلامه برأي الحكومة في ان صحته ليست مترديةا الى حد ان تستوجب معالجة خاصة . ويقول تروتسكي :

«سألت حينئذ إذا كان لوب Loebe عرض عليَّ حق اللجوء أو حق الدفن في المانيا. . . في ظرف ثلاثة اسابيع، جرى بتر حق اللجوء الديمقراطي ثلاث مرات. اولاً، جرى تقزيمه الى حق الاقامة الخاضع لتقييدات خاصة، ثم الى المعالجة الصحية، واخيراً الى حق الدفن بكل بساطة، هكذا ما كان في وسعي تقدير كل منافع الديمقراطية إلا بصفة جثة هامدة».

مثل موضوع قبول تروتسكي على الارض البريطانية باكراً جداً للنقاش امام مجلس العموم، في شباط/ فبراير ١٩٢٩ . اعلنت الحكومة بوضوح أنه لن يعطى ترخيصاً بالدخول . كانت البلاد على عتبة الانتخابات ، وكان متوقعاً عودة حزب العمال الى السلطة . قبل نهاية نيسان/ ابريل ، وصل الى القسطنطينية علمان من اعلام الحركة الفابية ، سيدني وبياتريس ويب ، وطلبا الى تروتسكي ، بكل اجلال واحترام ، ان يستقبلهما . ورغم عداوات سياسية قديمة ، استقبلهما استقبالاً ودياً ، معبراً ، كما في أي وقت مضى ، عن اهتمامه العميق بالاطلاع على الوقائع الاقتصادية والسياسية للحياة البريطانية . وقد عبر له الزوجان ويب عن

ثقتهما بالنجاح الانتخابي لحزب العمال . فأشار عندئذ الى انه سيطلب في حال حدوث ذلك تأشيرة دخول الى بريطانيا . لكن سيدني ويب ابدى أسفه قائلاً إن الحكومة العمالية ستضطر للاعتماد على حزب الاحرار ، في مجلس العموم ، وقد سيعترض اعضاء الحزب المذكور على قبول تروتسكي على الارض البريطانية . ولم تمر عدة اسابيع حتى كان رامسي ماكدونالد يشكل بالفعل حكومته الثانية جاعلاً سيدني ويب ، الذي غدا اللورد باسفيلد ، وزيراً بين وزرائه .

في وقت مبكر من شهر حزيران/ يونيو ، اتصل تروتسكي بالقنصلية البريطانية في القسطنطينية ، وارسل برقية ، طبقاً للأصول ، يطلب فيها تأشيرة دخول من ماكدونالد . وكتب كذلك الى بياتريس ويب ، بتعابير لبقة بقدر ما هي لطيفة ، بشأن محادثاتهما في برنكيبو والجاذبية التي لبريطانيا ، وبخاصة للمتحف البريطاني ، عنده . ووجه كذلك النداء الى فيليب سناودن ، وزير المال ، مبلغاً إياه ان الخلافات في الرأي السياسي لا يجب ان تشكل عائقاً امام زيارة الى انكلترا ، لأنها لم تمنع في السابق سناودن من زيارة روسيا حين كان تروتسكي في السلطة . كما ابرق الى جورج لانسبوري يقول : « أرجو أن يكون في متناولي ، قريباً ، رد زيارتك اللطيفة لي في كيسلوفودسك »[٢٠] .

لكن تلك المحاولات ضاعت سدى ، رغم واقع ان الاحرار لم يعارضوا اطلاقا دخوله الى بريطانيا . على العكس من ذلك ، فقد احتجوا على موقف الوزراء العماليين ، وتدخل لويد جورج وهربرت صموئيل مراراً في السر ، لصالح تروتسكي[٢١] . وهو ما دفع تروتسكي الى الاعلان : « هوذا وضع مختلف لم يتوقعه السيد ويب » . خلال ما يقرب من العامين ، جرى التعرض للمسألة في البرلمان وفي الصحافة وإغفالها ، مرة بعد أخرى . وقد وجه هـ.ج. ويلز وبرنارد

(٢٠) النسخ عن الطلبات والبرقيات والرسائل موجودة في المحفوظات ، القسم المقفل . ونقرأ في الرسالة الى بياتريس ويب ، المكتوبة بالفرنسية بمعاونة روسمر : « أتذكر زيارتك بسرور ، فلقد كانت بالنسبة لي مفاجأة لذيذة ، مع أن وجهات نظرنا بدت مختلفة تماماً ، وهو ما كنا نعرفه مع ذلك . لقد أظهرت لي المحادثة مع الزوجين ويب أن من درس تاريخ التريديوليونية التي غدت شيئاً كلاسيكياً لا زال يمكن أن يستفيد من «حوار مع مؤلفيه» وقد نوه تروتسكي ، فيما يتكلم على ما لبريطانيا من جاذبية عنده ، بـ « انجذابي ، الذي غدا قديماً ، الى المتحف البريطاني » .

(٢١) انظر المحفوظات ، القسم المقفل (الملف البريطاني) . كان مراسل تروتسكي الانكليزي ، الذي يطلعه على سير الامور ، أحد أبناء عم هربرت صموئيل . وهو يستشهد بصموئيل ذاته ، كمصدر للمعلومات .

شو احتجاجين ضد الحظر المفروض على تروتسكي . كما ان ج.ل. كينز ، وس.ب. سكوت ، وأرنولد بينيت ، وهارولد لاسكي ، وايلن ويلكنسون ، وج.ن. غارفن ، اسقف بيرمنغهام ، والعديد من الشخصيات الأخرى ، وجهوا النداء الى الحكومة ورجوها ان تعيد النظر في قرارها . إلا ان الاحتجاجات والنداءات لم تلق اي استجابة . وقد كتب تروتسكي : « هذه الكوميديا من فصل واحد حول موضوع الديمقراطية ومبادئها ، كان يمكن ان يكتبها برنارد شو ، لو ان السائل الفابي الذي يجري في عروقه اكتنز بـ ٥٪ على الاقل من الدم الذي يجري في عروق يوناثان سويفت » .

إلا ان شو فعل كل ما في وسعه ، مع أنه لم يكن لاذعاً ، بالقدر الذي في متناوله ، في تلك المناسبة . كتب الى كلاينز ، وزير الداخلية ، بصدد « الوضع الساخر . . . لحكومة عمالية واشتراكية ، ترفض منح حق اللجوء لاشتراكي مميز الى ابعد الحدود ، مع انها تمنح هذا الحق لـ . . . معارضيها الاكثر رجعية . اواه ، لو ان الحكومة ، التي حظرت على السيد تروتسكي الاقامة ، تمكنت في الوقت ذاته من اجباره على الصمت ! لكن لا يمكن اجبار السيد تروتسكي على الصمت ، فسلطته الادبية سلاح مسنون ، والسطوة التي منحه اياها مجرى حياته الخارق على خيال الجمهور في العالم المعاصر تسمح له بأن يجيِّر لمنفعته كل محاولة اضطهاد . يغدو ملهم كل مناضلي اقصى اليسار في العالم اجمع وبطلهم . على اولئك الذين يشعرون بخوف لا معقول من الأسد الاسير ان يسمحوا له على الاقل بالدخول الى بريطانيا ، حتى لو لم يكن ذلك إلا للامساك بمفتاح قفصه . » وكان شو يبرز المفارقة بين سلوك كمال باشا وسلوك ماكدونالد ، ويجد من الصعب ابتلاع مثال الليبرالية الذي تعطيه حكومة تركية لحكومة بريطانية[٢٢] .

ولم تكن الحكومات الاوروبية الأخرى تظهر اندفاعاً اكبر للامساك بمفتاح قفصه . فلقد نبش الفرنسيون قرار الطرد المأخوذ ضد تروتسكي عام ١٩١٦ واعلنوا انه لا يزال ساري المفعول . والتشيكيون ، الذين ابدوا في البدء استعدادهم لاستقباله ، فأنبأه الدكتور لودفيغ شيغ ، الوزير الاشتراكي في حكومة

---

(٢٢) الاستشهاد مأخوذ من نسخة عن رسالة شو الى كلاينز ، وزير الداخلية ، نسخة جرى الاحتفاظ بها في المحفوظات . وقد تدخل شو ايضاً لدى هندرسون ، وزير الخارجية ، الذي « رفض الاهتمام بهذه القضية » .

مازاريك ـ واصفاً إياه بـ « الرفيق كلي الاحترام » ـ بأنه اتفق مع بينيس على منحه التأشيرة ، التشيكيون هؤلاء سرعان ما انهوا مراسلتهم له بلهجة باردة للغاية ، مستبدلين عبارة « الرفيق » بعبارة « السيد Herr » ، مرفقين ذلك برفض جازم من دون ادنى تفسير[٢٣] . والهولنديون الذين كانوا قد منحوا حق اللجوء للقيصر الالماني غليوم رفضوا منحه لتروتسكي . وفي رسالة وجهها تروتسكي الى ماجدولين باز ، كتب ساخراً ما مفاده انه لما كان يجهل الهولندية يمكن للحكومة ان تضمن بكل راحة بال انه لن يتدخل في شؤون هولندا الداخلية ، وانه مستعد للعيش متخفياً على مقربة من أي جدول ريفي[٢٤] . كما ان النمساويين ، هم ايضاً ، لم يكونوا اكثر استعداداً لاعطاء الآخرين « مثلاً عن اتساع افقهم » . واعلنت الحكومة النروجية انه ليس في وسعها منحه حق الدخول الى البلاد لأنها تعجز عن ضمان سلامته . ولقد جس اصدقاء تروتسكي حتى نبض قادة دوقية لوكسمبورغ الكبرى . اكتشف تروتسكي « اوروبا من دون تأشيرة دخول اليها » . وهو لم يفكر حتى بتقديم طلب تأشيرة الى الولايات المتحدة ، لأن « هذه الأمة ، الأقوى في العالم ، كانت كذلك الاشد ارتعاباً بين كل الأمم » . وقد استنتج ان اوروبا واميركا من دون تأشيرة وانه « لما كانت تانك القارتان تمتلكان القارات الثلاث الاخرى ، فلم يعد ثمة غير كوكب من دون تأشيرة » . « جرى افهامي ، من الجهات كافة ، ان قلة (ايماني بالديمقراطية هي خطيئتي الاصلية . . . لكن حين كنت اطلب اعطائي درس اشياء في المادة المذكورة ، كان يمتنع المتطوعون عن الاستجابة للنداء »[٢٥] .

والحقيقة انه ، حتى في المنفى ، كان تروتسكي يثير الخوف . كانت الحكومات والاحزاب الحاكمة تبلغه أنه لا يمكن لأي كان أن يقود ثورة كبرى ، ويتحدى كل الدول القائمة ، ويعترض على حقوق الملكية المقدسة ، دون ان يلقى الجزاء . كانت اوروبا البورجوازية تتأمل بذهول واستمتاع مشهداً لم تره منذ سقوط نابوليون ، لأنه منذ تلك الحقبة لم ير أحد هذا العدد من الحكومات يلقي الحُرْم على رجل ، ورجلاً يثير كراهية ورعباً بذلك الشمول[٢٦] . فالمحافظون لم

---

(٢٣) مراسلة تروتسكي مع الدكتور شيخ ، وزير داخلية تشيكوسلوفاكيا ، ـالمحفوظات ، القسم المغلق .

(٢٤) المرجع ذاته .

(٢٥) مويا جيزن ، ج ٢ ، ص ٣٣٣ .

(٢٦) كتب تروتسكي : ان السير أوستن شامبرلن ، وزير الخارجية ، قد صرح ، على ذمة الصحف ، أن العلاقات

يغفروا له الدور الذي لعبه في انزال الهزيمة بالحملة الصليبية المعادية للبلشفية الذي شنتها الأربع عشرة امة . ولم يعبر أحد عن تلك المشاعر أفضل من ونستون تشرشل ، ملهم تلك الحملة الصليبية وصاحب فكرتها ، في بحث ساخر ومشبع بروح الظفر ، بعنوان **غول اوروبا** . « ان تروتسكي ، الذي كانت تقطيبة من حاجبيه تعني الموت للآلاف ، هو **هناك الآن** ، فاقد للعزاء ، شبيه بصرة أسمال بالية ، على سواحل البحر الاسود » . الا انه سرعان ما اعاد تشرشل النظر في المسألة ، وحين ادخل هذا البحث في كتابه ، **معاصرون عظام** ، استبدل عبارة « صرة أسمال بالية » بهذه الكلمات : تروتسكي ، **صرة الدهاء هذه** . لقد اظهرت له تصريحات تروتسكي السياسية الاولى التي صدرت عنه على سواحل البحر الاسود ، انه لم يتزحزح عن مواقفه كعدو للوضع القائم ، وانه ظل مفعماً بالتحدي وبالثقة بالذات اللذين كان مفعماً بهما يوم كان قائداً للجيش الاحمر وحين كان يوجه كلامه الى العالم من أعالي منبر الاممية الشيوعية . كلا ، كلا ، لم يكن ذلك « صرة أسمال بالية » بل صرة دهاء[٢٧] .

إن جهل الاسباب الحقيقية التي ادت الى انشقاق البلشفية الداخلي كان يزيد كذلك من مشاعر الحقد والخوف . كانت الصحف المحترمة تتساءل إذا لم يكن نفي تروتسكي محض خداع ، واذا لم يكن غادر بلاده بالاتفاق سراً مع ستالين بهدف تحريك الثورة في الخارج . ادعت صحيفة **التايمز** انها تملك معلومات من مصادر وثيقة تؤكد ان الامر يتعلق بذلك بالضبط، ورأت يد تروتسكي وراء التظاهرات الشيوعية في المانيا[٢٨] . وروت **المورننغ بوست** ، مع كل التفصيلات

الطبيعية بين انكلترا والاتحاد السوفياتي ستغدو ممكنة تماماً ما ان يجري حشر تروتسكي في الزاوية . إن هذه العبارة المقتضبة تشرّف مزاج الوزير المحافظ ، لكني أسمح لنفسي بنصحه بالا يصر كثيراً على هذا الوضع . لقد اظهر ستالين بما فيه الكفاية الى أي حد هو مستعد لارضاء السيد شامبرلن عبر طردي من الاتحاد السوفياتي . وإذا كان لم يذهب أبعد من ذلك فليس لأنه تنقصه النية ، وإنه قد يكون من الأمور اللاعقلانية إطلاقاً أن يعاقب لاجل ذلك الاقتصاد السوفياتي والصناعة البريطانية . » كتابات ، ج ١ ، ص ٢٧ .

(٢٧) ونستون س . تشرشل ، **معاصرون عظام** ، ص ١٩٧ . التشديد من عندي . كتب تشرشل النسخة الأولى من هذا البحث ، رداً على مقال لتروتسكي في John O'London's Weekly . في التعليق الذي كتبه تروتسكي بصدد الصورة التي رسمها تشرشل للينين ، لاحظ أن التآريخ التي أعطاها تشرشل مغلوطة في معظمها ، وأن المذكور برهن عن جهل كامل بطبع لينين ، وذلك بسبب الهاوية التي تفصله عن مؤسس البلشفية . قال تروتسكي إن لينين كان يفكر بتعابير العصر والقارة ، بينما كان يفكر تشرشل بتعابير الألعاب النارية البرلمانية والمسلسلات .

(٢٨) التايمز ، ١٠ ـ ٥ ـ ١٩٢٩ .

الممكنة ، قصة المفاوضات السرية بين ستالين وتروتسكي ، التي تهدف الى ارجاع الاخير الى قيادة القوات المسلحة . واستنتجت الصحيفة انه من ضمن هذا السياق سافرت شقيقة تروتسكي من موسكو الى برلين ثم الى القسطنطينية(٢٩) . وتكلمت **الدايلي اكسبرس** على « هذا الغراب الجاثم على غصن الاشتراكية البريطانية » و « حتى إذا كانت اجنحته ومخالبه مقصوصة ، فليس ذلك الطائر الذي في وسعنا ، نحن البريطانيين ، الأمل بتدجينه يوماً »(٣٠) . اما المانشستر غارديان والاوبزرفر فدعمتا ، ببعض الحرارة ، طلب الحصول على اللجوء السياسي الذي قدمه تروتسكي . لكن صوتيهما بقيا صوتين معزولين . ورأت الصحف الاميركية في تروتسكي مثير حرائق ثورية ، وفي ستالين رجل دولة معتدلاً يمكن اميركا أن تتعامل معه(٣١) . بينما عبر اليمين الالماني والصحافة القومية عن حدتهما وشراستهما. كتبت **برلينر بورسنزايتونغ**(٣٢) : « لدى المانيا ما يكفي من الهموم المشابهة . . . ونحن نرى من النافل اضافة الضيافة المديدة لهذا الدعاوي البلشفي بالغ الحول والطول » . اما **البيوباشتر** التي كان يصدرها هتلر فكتبت : « يود تروتسكي ، هذا الكلب الدموي السوفياتي واليهودي ، الاقامة في برلين . يجب ألا تميل العين عن صانع السوء هذا ، هذا القاتل اليهودي »(٣٣) .

وبما يخص الاحزاب الاشتراكية ـ الديمقراطية ، ولا سيما تلك التي كانت في السلطة ، كانت تشعر بالانزعاج في اعماقها الديمقراطية ، لكن لم تكن خشيتها أقل . وحين احتج جورج لانسبوري في احد اجتماعات الحكومة على المعاملة التي يعامل بها تروتسكي ، رد رئيس الوزراء ووزيرا الخارجية والداخلية بما يلي : « إنه هناك في القسطنطينية وليس على طريقنا ، وليس من صالح احد ان يكون في مكان آخر . فنحن جميعاً نخافه »(٣٤) . وقد كتبت بياتريس ويب الى

(٢٩) المورننغ بوست ، من ٦ الى ٨ ـ ٧ ـ ١٩٢٩ .

(١٠) الدايلي اكسبرس ، ١٩ ـ ٦ ـ ١٩٢٩ .

(٣١) انظر مثلاً : النيويورك أميريكان و النيويورك وورد في ٢٧ ـ ٧ ـ ٢٩ . كتبت الأخيرة « يعرف ستالين ، وهوروسي فطن ، أن السلطة من دون المال ليست أكثر من خيال ، لذا يميل الى جهة المال ، وينبغي أن يثير هذا اهتمام الحكومة المحافظة الأميركية » .

(٣٢) برلاينر بورسنزايتونغ ، أول شباط / فبراير ١٩٢٩ .

(٣٣) ٩ ـ ٢ ـ ١٩٢٩ . أما الصحيفة الأكثر إثارة للاحترام ، هامبورغن ناشريشتن ، فكتبت في ٢٥ ـ ١ ـ ١٩٢٩ : « يحصد ستالين نتائج الخطأ الذي اقترفه حين لم يرسل تروتسكي وكل زمرة تروتسكي الى الآخرة » .

(٣٤) ان لانسبوري بالذات هو مصدر الخبر . وقد رواه للمراسل البريطاني لتروتسكي وكرر على مسمعه أنه وقف ضد =

تروتسكي ، معبرة عن اعجابها بذكائه وشخصيته : « يزعجنا ، زوجي وانا ، كبير الازعاج ، رفض اعطائك تأشيرة الدخول الى بريطانيا . لكن ما اخشاه هو أن كل من يبشر بالثورة الدائمة ، اي بنقل الحرب الثورية الى داخل سياسة البلدان الاخرى ، سيجد تلك البلدان ترفض دائماً دخوله اليها[٣٥] » .

من الناحية التاريخية ، لم يكن ذلك صحيحاً اطلاقاً . فكارل ماركس وفريدريك انجلز امضيا الجزء الاكبر من حياتهما لاجئين سياسيين في انكلترا يبشران بالثورة الدائمة . لكن الزمن تغير ، وماركس وانجلز لم يعرفا في آن معاً سرّاء التحول اولاً من لاجئين سياسيين مغمورين إلى دليلين وقائدين للثورة ، وضراء السقوط فيما بعد في ظلمة المنفى . لم تكن تفاجىء تروتسكي المشاعر التي يثيرها . لقد رفض مواصلة السعي للحصول على تأشيرة بصورة اكثر ديبلوماسية ، كما كان الزوجان باز ينصحانه بأن يفعل . ما كان يريد تحريك الخيوط في الكواليس والامتناع عن توجيه نداآت علنية[٣٦] . حتى حين كان يبحث لنفسه عن ملجأ ، كان يعتبر أنه منخرط في معركة افكار . كان يعرف ان الحكومات والطبقات الحاكمة تدفع له ضريبة بفعل خوفها منه : وكانت تتمثل تلك الضريبة في عجزها عن ان ترى فيه ملتمساً بصفته الشخصية ، كان عليها ان تعامله كمؤسسة وكتجسيد للثورة المناضلة .

انكب تروتسكي على العمل ، من دون انتظار نتيجة استدعاآته والتماساته الحصول على تأشيرات . فبعد الاسابيع القليلة التي تلت وصوله ، كانت برنكيبو مركزاً لنشاط محموم غير معتاد . هرع المخبرون الصحفيون من كل القارات بهدف الحصول على مقابلات معه . وظهر الزائرون والأصدقاء . ففي شهر ايار/ مايو وحده ، جاء لا اقل من سبعة من فرنسا ، ومكثوا أسابيع لا بل أشهراً . وصل تروتسكيون شباب ليعملوا حراساً له وأمناء سر . واتى ناشرون المان واميركيون لرؤيته بهدف توقيع عقود بصدد كتب ولتقديم سُلَف عن حقوق التأليف . ومن كل البلدان ، كتب اليه شيوعيون منشقون يناقشون في مسائل تتعلق بالايديولوجيا

= قرار الحكومة وأنه سيفعل كل ما في وسعه فعله في الكواليس لتقديم النصح له . انظر **المحفوظات** ، **القسم المقفل** .

(٣٥) كتبت بياتريس ويب رسالة بتاريخ ٣٠ نيسان / ابريل ١٩٣٠ تشكره فيها على نسخة إضافية من كتابه حياتي . وقد أنهت رسالتها عارضة على « الدعاوي الهدام » أن تساعده عن طريق الكتاب ، والدورية ، والوثائق .

(٣٦) ماجدولين باز إلى تروتسكي ، ١٤ حزيران / يونيو ١٩٢٩ **المحفوظات** ، **من القسم المقفل** .

والسياسة . ولم يطل الوقت حتى كان تروتسكي ، الذي يرد بصورة منهجية على كل سؤال ويملأ بدقة جبالاً من الاوراق ، غائصاً حتى أذنيه في مراسلة مدهشة من حيث الحجم ، سوف يواصلها ، مهما تكن الظروف ، حتى نهاية حياته . كان يعد العدد الاول من Bulletin Oppositsii(*) ، النشرة الدورية الصغيرة التي ستغدو صحيفته الأساسية لنقاش قضايا الحزب الداخلية ، ووسيلته الاهم للاتصال بالمعارضة في الاتحاد السوفياتي . وقد بدأت تلك النشرة الدورية تصدر في تموز/يوليو . ولم يكن سهلاً إصدارها في بويوك آدا والعثور على طابعين روس لها في باريس وبرلين . في الوقت ذاته ، أخذ تروتسكي على نفسه تنظيم انصاره على المستوى العالمي .

أضف الى ذلك انه أعد للنشر ، في الشهور الأولى من اقامته في الجزيرة ، عدداً لا بأس به من الكتب . كان مهتما باطلاع العالم على برنامج المعارضة الموحدة لعام ١٩٢٧ ، الذي ابصر النور بعنوان : **الوضع الحقيقي في روسيا** . ولقد جمع مجموعة من الوثائق المحظورة في الاتحاد السوفياتي سوف تشكل مجلَّد : **المدرسة الستالينية في التزوير** ؛ وفي **الاممية الثالثة بعد لينين** قدم نقد **مشروع برنامج الاممية الثالثة** ؛ هذا النقد الذي تضمنته الرسالة التي وجهها من ألما ـ آتا الى المؤتمر السادس . كانت نسخ مختصرة ، ومبتورة جزئياً ، عن تلك النصوص قد ظهرت في الخارج ، وهو ما جعل تروتسكي اكثر اهتماماً بتقديم النصوص الكاملة والاصيلة . وكانت **الثورة الدائمة** الكتاب الصغير ، الذي كتبه ايضاً في ألما ـ آتا ، والذي اعاد فيه تأكيد نظريته والدفاع عنها خلال مساجلة مع رادك .

لكن الثمرة الأدبية الأساسية في ذلك الفصل كانت كتابه **حياتي** . ففي ألما ـ آتا ، كان بريوبراجنسكي واصدقاء آخرون قد رجوه ان يكتب سيرة حياته ، وكان آنذاك قد القى على الورق العناصر العائدة الى البدايات ، الى طفولته وصباه . وفي برنكيبو ، واصل هذا العمل بسرعة زائدة ، مرسلاً فصولاً فور انجازها الى مترجميه الالمان والفرنسيين والانكليز . ولقد كان التقدم سريعاً لدرجة أن في الامكان التساؤل اذا لم يكن نصٌّ حقاً اكثر بكثير من البدايات في ألما ـ آتا . فبعد اقل من ثلاثة اشهر من وصوله بويوك ـ آدا ، أمكنه ان يكتب الى آل كلياشكوس في فيينا ، وهم عائلة قديمة من الثوريين الروس اقام معهم علاقات

(*) نشرة المعارضة (م) .

صداقة قبل عام ١٩١٤ بكثير : « لا ازال غائصاً كلياً في هذه السيرة الذاتية ، ولا اعرف كيف اخرج منها . كان أمكنني أن اكون انجزتها قبل وقت طويل ، لكن نوعاً من التحذلق الملعون يمنعني من ذلك . انا مستمر في التحقق من مراجع وتآريخ ، وفي شطب شيء وادخال شيء آخر اليه . اكثر من مرة ، تعرضت لتجربة الالقاء بكل ذلك الى النار والشروع في عمل اكثر جدية ، لكن من المؤسف أننا في الصيف ، ولا نار في المداخن ، وبصدد النار ، لا مداخن ايضاً ها هنا »[٣٧] . وفي ايار/ مايو ، كان قد ارسل الى مترجمته الالمانية ، الكسندرا رام ، جزءاً كبيراً من العمل : وبعد ذلك باسابيع ، كانت قد بلغتها الفصول حول « الحرب الاهلية » . لكن في تموز/ يوليو ، عاد « تحذلقه اللعين » يربكه ، وشرع يعيد كتابة الصفحات الاولى من الكتاب . وفي بداية الخريف ، كان مجمل المخطوطة قد اصبح جاهزاً ، وكانت مقتطفات منها تظهر هنا وهناك في الصحف . وفي حين كان لا يزال يصحح ، بتدقيق ، الترجمتين الفرنسية والالمانية ، كان غدا يستعد لكتابة **تاريخ الثورة الروسية** ، الذي تلقت الكسندرا رام مشروعه الاول قبل نهاية تشرين الثاني/ نوفمبر[٣٨] .

وسط هذه الزوبعة من النشاطات ، كانت هموم أخرى ، تتعلق بأولاده واحفاده وبالاصدقاء الذين تركهم في الجانب الآخر من الحدود ، تستمر في تنكيد عيشه . كان لا يزال آنئذ في دوامة الحزن الذي سببه له احتضار نينا وموتها حين جاء مرض زينا ـ كانت زينا ابنته البكر من زواجه الأول ـ يثير قلقه واضطرابه . وقد وصلته اخبار عنها عن طريق باريس حيث كان آل باز يتصلون بعائلته في موسكو بواسطة احد المتعاطفين ، وكان عضواً في ملاك موظفي السفارة السوفياتية . كانت زينا مصابة بالسل . إن موت شقيقتها ، واضطهاد والدها ، ونفي زوجها افلاطون ڤولكوف الى سيبيريا ، والصعوبات التي كانت تلقاها لتحصيل معيشتها ومعيشة طفليها ، كل ذلك اثر تأثيراً عميقاً على توازنها النفسي . ولقد حاولت عبثاً ان تغادر البلاد للالتحاق بوالدها . كان تروتسكي يقدم لها مساعدة مالية ، ولقد حث انصاره الحكومة السوفياتية على منح ابنته تأشيرة

(٣٧) كتبت هذه الرسالة أول حزيران / يونيو ١٩٢٩ . **المحفوظات** ، **القسم المقفل** .

(٣٨) كانت الكسندرا رام من أصل روسي ، وزوجاً لفرانز بفمفرت ، محرر الأسبوعية المتقدمة Aktion . كان بفمفرت قد طرد من الحزب الشيوعي كيساري متطرف بعد المؤتمر الثالث للكومنترن ، في حين كان نفوذ تروتسكي في أوجه . لكنه وامرأته تركا جانباً كل خلاف سياسي وحفظا لتروتسكي مودة حارة حتى النهاية .

خروج . كانت والدتها ، الكسندرا سوكولوفسكايا ، لا تزال في لينغراد ، علماً أن احداً لم يكن يعرف كم سيكون مسموحاً لها بعد ان تبقى هناك . كانت تعتني بأطفال لينا ، على أساس ان والدهم ، مان نيفلسون ، كان هو الآخر منفياً ومسجوناً . ولم يكن ذلك كل ما في الأمر : كانت زوج ليوفا ، وكان ولده قد بقيا كذلك في موسكو تحت رحمة الاقدار . هكذا بين اقرب اقرباء تروتسكي ، لم يكن ثمة اقل من اربع عائلات حطمها الصراع السياسي الذي لا يرحم ، وما كان اسبوع تقريباً يمر دون ان يحمل أنباء تتعلق بالمضايقات الممارسة ضد الاصدقاء ، وضروب البؤس التي لا مثيل لها ، وحالات المرض في السجن ، وعذابات الجوع ، والمشاجرات مع السجانين ، والاضرابات عن الطعام ، وحالات الانتحار والوفاة . وقد بذل تروتسكي كل ما في وسعه ليثير الاحتجاجات ، لا سيما ضد اضطهاد راكوفسكي الذي كان لا يزال ، في تاريخ قريب ، الاكثر شهرة واثارة للاحترام بين كل السفراء السوفيات في كل البلدان الغربية ، والذي كان يجري جره الآن من منفى الى آخر . كان يعاني من نوبات قلبية ، وكانت اخباره قد توقفت عن الوصول منذ اشهر عديدة .

الا ان حيوية تروتسكي تغلبت على القلق الشديد والهم والتعب . فلقد أغرق حزنه في عمل لا يكل ، وفي الصلات التي اقامها مع اصدقائه وتلامذته . ولكي يبدد آثار الارهاق ، كان يمضي للتجذيف والصيد في المياه سماوية اللون لبحر مرمره . لكن حتى حين كان يرتاح ، كان يعجز عن تنويم طاقته كلياً . كان عليه ان ينفقها في مهام قاسية ، تماماً كما في ألما - آتا . كان يعني صيد الاسماك بالنسبة اليه حملة معقدة تدخل فيها مراكب ثقيلة وحجارة وشبكات صيد . كان يمضي في رحلات طويلة ، يرافقه صيادان تركيان توصلا تدريجياً الى أن يصبحا من أهل البيت . كان ينشط معهما ، يسحب الشباك والحجارة ويعود بكميات ضخمة من الاسماك (ان ايستمان ، الذي كان يستهجن فكرة تروتسكي عن الاستراحة ، كان يتساءل اذا « لم يكن تروتسكي يجد نفسه من جديد في الحالة النفسية والذهنية التي جعلته يذهب الى قازان حيث هزم الجيوش البيضاء ، حين كان يمضي الى الصيد وسط استعدادات مماثلة من الكثافة والسرعة والتنظيم المنهجي بهدف النجاح »[٣٩]) . كان يعجز عن مهاودة قواه البدنية أو الذهنية ،

(٣٩) ماكس ايستمان ، استشهاد مذكور .

وحتى سوء حالته الصحية المزمن لم يكن ينقص من قوة عضلاته . في بعض الاحيان ، كان يقلع لوحده ، ويغيب خلال فترات طويلة ، مشيراً هلع عائلته وامناء سره . ولقد طرح أحد أتباعه ، الذي وصل في واحدة من تلك اللحظات ، سؤالاً حول ما اذا كان تروتسكي لا يخاف ان تنصب له الغيبيو شركاً في اعالي البحر ، ولقد رد بطريقة قدرية تقريباً ، قائلاً ان الغيبيو قوية لدرجة انها في اول مرة ستقرر ان تقضي عليه لن يكون في وسعه ان يفعل شيئاً . بانتظار ذلك ، لم يكن يرى لماذا عليه ان يكون جلاد نفسه وان يرفض ممارسة القليل من الحرية الذي بقي له ، والاستمتاع بلون الحياة ومذاقها(٤٠) .

كانت المخاوف التي شعر بها لدى وصوله الى تركيا قد اختفت الى هذا الحد او ذاك . فالاتراك لم يكونوا يتصرفون فقط بطريقة سليمة بل كذلك بروح المساعدة والنجدة . كان كمال باشا يفي بوعده ، مع ان ذلك ابقى تروتسكي غير مصدق . فحراس الشرطة الموضوعون عند أبواب الدارة كانوا يلازمون مركزهم لدرجة انهم غدوا كذلك جزءاً من اهل البيت ، وكانوا يقومون بالتحوج ويساعدون في الاعمال المنزلية . اما المهاجرون الروس البيض فلم يقوموا بأية محاولة لاجتياز الجدران العالية والسياجات . حتى الغيبيو كانت تبدو بعيدة وغير مبالية . الا ان هذا الظاهر كان خداعاً ، فالغيبيو لم تكن بعيدة اطلاقاً ، وفي اغلب الاحيان كان احد عملائها ، الذي يعرض نفسه كأحد اتباع تروتسكي الاكثر حماساً ، يتسلل الى محيطه كسكرتير او حارس . كتبت ناتاليا : « بقي فرانك ،

---

(٤٠) يقدم موريس باريجانين صورة كلها رونق عن رحلة بصحبة تروتسكي ، رحلة صيد في عرض بحار آسيا الصغرى . « . . . كان يريد الحصول على غنيمة حربه . . . كان يمكن اكتشاف سعادته الخفية ، إنه يتحكم بعناصر الطبيعة . » عند المساء ، فاجأتهما عاصفة عنيفة ، وغدا المركب على وشك الغرق . كان الدركي التركي الذي يرافقهما يعوي من الخوف ، أما تروتسكي الممسك بالمجذافين فراح يصارع الأمواج بكل قواه . كان هدوؤه وانتباهه لمرافقيه وروح الفكاهة لديه تجعل باريجانين يفكر كالتالي : « لا تخش شيئاً ، فقيصر وحظه يحالفانك . » . ولقد عثروا على ملجأ في كوخ فارغ ، على جزيرة مقفرة صغيرة . وفي الصباح التالي ، وإذ لم يكن معهم ما يقتاتون به ، قتلوا أرنبين بما معهم من سلاح . ولما كان باريجانين جرح أرنبه فقط ، فقد أجهز عليه . إذاك قال له تروتسكي : « الصياد لا يتصرف هكذا ، إنه لا يقتل حيواناً جريحاً . » في غضون ذلك ، كانت السلطات التركية شرعت تبحث عنه ، ووصل فلاحون لنجدته . وإذ تلقى تروتسكي تلك المساعدة ، سخر من قدره ، لأنه تذكر قصة تشندرين حول الجنزالين الروسيين الضائعين في أرض مجهولة والعاجزين عن الحصول على أبسط الحاجات الضرورية لمواصلة الحياة : « أواه ! - تنهد أحدهما - لو أمكننا أن نجد موجيكاً هنا . حينئذ بالذات ، حصلت المعجزة ، إذ ظهر موجيك فوراً ، وفعل كل ما يجب بطرفة عين . » (A Lèon Trotsky (Les Humbles, May-June 1934

وهو ليتواني ، خمسة اشهر في برنكيبو ؛ وفيما بعد ، علمنا انه كان مخبراً تابعاً للشرطة السرية الروسية ، مثله مثل المدعو سوبوليفيسيوس ، وكان ليتوانياً ايضاً ، الذي جاء يقيم عندنا فترة قصيرة فقط (يعمل شقيقه رومان ويل بصفة عميل استفزازي في حلقات المعارضة في باريس واوروبا الوسطى)(٤١) . كانت الصعوبة تكمن في واقع ان كل اولئك الذين كان يجري كشفهم كعملاء استفزازيين لم يكونوا يلعبون بالضرورة ذلك الدور ، بينما الجواسيس الاكثر خطراً لم يتم الوصول يوماً حتى إلى كشفهم . هكذا اعترف سوبوليفيسيوس الذي سجن بعد ذلك بثلاثين عاماً في الولايات المتحدة ، كعميل سوفياتي ، انه تجسس في الواقع على تروتسكي خلال اقامته في برنكيبو(٤٢) . الا ان مراسلته مع تروتسكي ، وظروف القطيعة بينهما ، تترك شكوكاً حول صحة هذا الجزء من اعترافه. فسوبوليفيسيوس قطع علاقته بتروتسكي بعد ان عبر علانية ، ومراراً ، عن خلافاتهما السياسية المهمة . وأيا تكن الحقيقة ، فإن سوبوليفيسيوس وشقيقه حظيا بثقة تروتسكي شبه الكاملة خلال السنوات الثلاث الأولى في برنكيبو لم يكونا مبتدئين في الحلقات التروتسكية ، فسوبوليفيسيوس كان في روسيا بصفة مراسل للمجلة الماركسية اليسارية Saechsische Arbeiterzeitung ، وهناك انضم الى المعارضة التروتسكية عام ١٩٢٧ ، ولم يكن هو واخوه بالغي النشاط فقط في فرنسا والمانيا ، بل قدما لتروتسكي ايضاً كمية كبيرة من المعلومات المفيدة ومواد استند اليها في كتبه . ساعداه على نشر الـ Bulletin Oppozitsii ، ومر بين يديهما قسم كبير من المراسلة السرية مع الاتحاد السوفياتي ، ومعاجم الرموز والرسائل المكتوبة بالشيفرة ، وعناوين الغلافات ، الخ . . .(٤٣) .

في منظمة سرية ، يكون من الصعب إبقاء العملاء الاستفزازيين بعيدين

---

(٤١) فيكتور سرج ، **حياة وموت تروتسكي** ، ص ٢٠١ ، ٢٠٢ .

(٤٢) انظر Hearing before The Subcommittee To investigate The Administration of The **Internal** Security Act , etc , U . S . **Senate**, 21 - 11 - 57 - P . P . 4875 - 4876

حيث يظهر سوبوليفيسيوس باسم جاك سوبل . وفي مراسلته مع تروتسكي كان يستعمل اسم سونين . أما شقيقه الدكتور سوبلن ، المحكوم عليه أيضاً ، فهرب من الولايات المتحدة الى إسرائيل عام ١٩٦٢ ، لكن حظر عليه دخول اسرائيل ، وأثناء نقله الى الولايات المتحدة عبر انكلترا ، حاول مرتين أن ينتحر في لندن . وقد توفي بعد المحاولة الثانية .

(٤٣) ملات المراسلة بين تروتسكي وسوبوليفيسيوس وأخيه رومان ويل ، الدكتور سوبلن ، ملفين في القسم المقفل من المحفوظات .

كلياً . فالمنظمة تتعرض دائماً لعمل الادلاء ، ويتساوى في السهولة اقتراف اخطاء لفرط الشكوك (وهو ما يمكن ان يشل المنظمة بأكملها) والغياب شبه الكلي لليقظة والاحتراس . وما كان يجعل الامور أسوأ أيضاً بالنسبة لتروتسكي ، هو ان القليل فقط من اتباعه الغربيين تعلموا الروسية بشكل كاف وتآلفوا مع مشكلات روسيا ، بحيث كان بأقصى الحاجة اليهم . كان عمله يستحيل تقريباً لولا مساعدة ليوفا ، لكن هذا لم يكن كافياً ، ولم يكن تروتسكي يقبل من دون تضايق عميق تضحية ولده . لأنه كان من قبيل التضحية ، من جانب انسان لم يتخط العشرين من عمره الا قليلاً ، ان يحكم على نفسه بحياة ناسك في برنكيبو . لذا كان تروتسكي يترقب في الغالب سكريتيراً روسيا وكان ذلك يجعل من الاسهل تسلل احد الجواسيس . لذا كان بعض الاصدقاء يستدركون الحادث بتحذيرات يوجهونها في الوقت المناسب . هكذا في بداية عام ١٩٣٠ ، حاول فالانتين اولبرغ ـ وكان له اقرباء مناشفة ، وقد زعم انه تروتسكي ـ أن يحظى بالقبول في برنكيبو بصفة سكريتير . لكن فرانز بغامفرت والكسندرا رام ، اللذين كانت لديهما شكوك حوله اعلما تروتسكي من برلين بمخاوفهما فجرى استبعاد اولبرغ . وفي عام ١٩٣٦ ، ظهر كمتهم وشاهد ضد تروتسكي وزينوفييف وكامينيف ، في اولى المحاكمات الكبرى في موسكو(٤٤) . الا ان تلك التحذيرات في الوقت المناسب كانت نادرة للغاية وسوف يلازم الوجه القائم للعميل الاستفزازي خطوات تروتسكي كلعنة في السنوات اللاحقة .

كان وضع تروتسكي المالي خلال إقامته في برنكيبو أيسر بكثير مما كان يتوقع . كانت مداخيله الادبية كبيرة ، وكانت الحياة في الجزيرة رخيصة ، بينما كانت حاجاته وحاجات عائلته متواضعة للغاية . إلا أنه مع تضخم عدد اهل البيت ، الذين كانوا يضمون عدداً متزايداً من امناء السر والمدعوين الذين كانوا

---

(٤٤) مراسلة بغمفرت مع تروتسكي ، نيسان / ابريل ١٩٣٠ ، المرجع ذاته . كان أولبرغ عضواً في رايخسليتونغ المعارضة الألمانية . ولقد أثار الشبهات بقيامه بتحريات متواصلة بشأن اتصالات تروتسكي بأنصاره في الاتحاد السوفياتي . انظر كذلك المراسلة بين أولبرغ وليڤ سيدوف . لا نعلم إذا كان عميلاً استفزازياً عام ١٩٣٠ ، أو إذا غدا كذلك فيما بعد كسوبوليڤيسيوس . يُروى أنه بعد وصول النازيين الى السلطة في ١٩٣٣ ـ ١٩٣٤ ، عاش أولبرغ في فقر مدقع ، بصفة مهاجر سياسي في تشيكوسلوفاكيا . يمكن بالطبع أن يكون عمل كجاسوس ستاليني لأسباب ايديولوجية ، دون أن يحصل مقابل ذلك على مكافآت . ظهر بوصفه متَّهماً ، وكأحد شهود الاتهام الرئيسيين في محاكمة زينوفييف عام ١٩٣٦ ، وحُكم عليه بالاعدام .

يقيمون طويلاً ، ومع تنامي المراسلة التي غدت بحجم مصلحة حكومية صغيرة ، ارتفعت نفقاته السنوية الى ما يعادل ١٢ الف دولار اميركي ، لا بل ١٥ الفاً . إن الجمهور العالمي لكتب تروتسكي كان يضمن له بالتالي مداخيل مرتفعة وحقوق تأليف عديدة . فعن مقالاته الاولى التي كتبها في القسطنطينية ، تلقى عشرة آلاف دولار وضع من اصلها ستة آلاف دولار جانباً كاعتماد لنشر الـ Bulletin Oppositsii والصحف التروتسكية الفرنسية وحتى الاميركية . فيما بعد ، خلال العام ، تلقى تسليفات مهمة عن الطبعات المختلفة لكتابه حياتي ، من بينها سبعة آلاف دولار عن الطبعة الاميركية وحدها . وعام ١٩٣٢ دفعت له Saturday Evening Post ٤٥ الف دولار لنشر تاريخ الثورة الروسية(٤٥) على مراحل . واذا كان تروتسكي اقترض عشرين الف فرنك فرنسي من موريس باز لدى مغادرته القنصلية السوفييتية في القسطنطينية ، فلم يمر اكثر من عام حتى كان في وسعه ان يرجعها له ، ولم يعد مذاك بحاجة للاقتراض . وحين استقصى باز ، في ايار/ مايو ١٩٢٩ ، عن امكان وجود صعوبات مالية لدى تروتسكي ، اجابه الاخير انه على العكس من ذلك بامكانه منذ ذلك الحين ان يمارس ترف مساعدة اصدقائه السياسيين في الغرب من الناحية المالية ، ولقد فعل ذلك كما يظهر من مراسلته ومن حساباته ، بأريحية فياضة . الى حد ان بعض اولئك الاصدقاء لم يعودوا يعتمدون الا على تلك المساعدة ، وهو أمر لم يكن ينطوي على الادب واللياقة .

كان تروتسكي ، وزينوفييف ، وحتى شليا بنيكوف ، قد قاموا قبل هزيمتهم بوقت طويل بمحاولات لتنظيم انصارهم في الاحزاب الشيوعية الاجنبية . وفي الفترة الاولى ، لم تذهب جهودهم عبثاً بصورة كلية ، رغم حالات فرض الحُرم وحالات الطرد(٤٦) . إلا ان المناورات التكتيكية والتراجعات من جانب المعارضة الروسية ضللت الشيوعيين في الخارج ، مثلما كانت اعمال الانتقام الستالينية قادرة على تخويفهم . ولقد افقد استسلام كتلة زينوفييف النهائي أنصاره الاجانب معنوياتهم . أما الضربات التي اصابت تروتسكي ونفيه فلم يكن لها النتيجة نفسها

---

(٤٥) هذه المعطيات مأخوذة من التقارير ومن مراسلة تروتسكي مع ناشريه ووكلائه الادبيين . المحفوظات ، القسم المقفل .

(٤٦) في رسالة كتبها تروتسكي الى سوبوليفيسيوس وويل في ٤ / ١١ / ١٩٢٩ ، اكد أن اللينينبوند الالماني كان يواصل نشاطاته بفضل المال الذي تلقاه قادته من بياتاكوف قبل استسلامه . لكن حجم تلك النشاطات كان متواضعاً بحيث ان مبلغاً صغيراً من المال كان سمح باستمرارها .

اطلاقاً . ففي نظر الشيوعيين الذين لم يكونوا مهيئين كلياً للخضوع لأوامر ستالين ، كانت سلطته المعنوية لا تزال على سموها ، والاسطورة التي كانت تحيط باسمه ، اسطورة المناضل الظافر والذي لا يلين اغتنت الآن بالملامح الجديدة للشهادة . إلا ان الكومنترن كانت قد ادانت التروتسكية بفظاظة ، وبدأت تصفيها من الفروع الاجنبية بشراسة لم يكن يمكن اي شيوعي اجنبي ان ينتظر معها أي مغنم من اهتدائه الى الهرطقة ؛ وقليلون هم الذين كانوا مستعدين للحاق بالشهيد على الدرب التي انخرط فيها .

من برنكيبو ، أخذ تروتسكي على نفسه أن يجمع أنصاره السابقين والراهنين . وإذا لم تتوفر لديه القدرة على جعلهم يشاركون في تلك المهمة ، فذلك لم يكن يجعل المسعى غير مجد في نظره - وبمعنى ما كان ذلك يجعله أكثر اثارة للاهتمام . ولما كان يعرف تماماً أن الوصوليين والبيروقراطيين قد لا يستجيبون لندائه ، توجه حصراً الى الناس المتبصرين والمتجردين . ألم تكن قوة تنظيم ثوري تتوقف دائماً على عمق قناعات اعضائه واخلاصهم اكثر مما على عددهم ؟ لقد كانت سطوة ستالين على الكومنترن عند نهاية العشرينات لا تزال سطحية ، وكل أولئك الذين كانوا في تلك السنوات في الحزب الشيوعي ، كلهم تقريباً قادرون على ان يتكلموا ، عن تجربة ومعاناة ، على الاضطراب والقرف اللذين شعر بهما الكوادر ، مثلهم مثل مناضلي القاعدة ، وهم يشرعون بتطويع أنفسهم للاورثذكسية التي كرستها موسكو . تحت تلك الامتثالية التي كانت لا تزال سطحية للغاية ، كان يمكن الشعور بالانزعاج وانعدام التصديق ، وبمقدار من الغليان ؛ كان ثمة ايضاً عادات الفكر الماركسي القديمة ، وضمائر معذبة كان مصير تروتسكي يشكل بالنسبة اليها تحدياً دائماً . كان المناضل الحزبي الجيد يعتبر أن واجبه الاسمى يأمره بالتضامن مع الثورة الروسية ، وما كان في وسعه أن يتحمل مسؤولية تكذيب الرجال الذين كانوا يحكمون آنذاك في موسكو ، والذين كانوا يتكلمون بصوت الثورة ويطلبون الى الشيوعيين الاجانب بإلحاح ان يصوّتوا في خلاياهم ولجانهم لصالح قرارات تدين تروتسكي . كان رجل الحزب يصوت في الاتجاه المطلوب ، لكن كل تلك « الحملة » بقيت لغزاً كئيباً بالنسبة إليه . كان التكالب الذي تخاض به يغيظه بصورة غامضة . كان عاجزاً عن تحديد اسباب ذلك ، وكان يحدث احياناً ان يتساءل لماذا من الضروري ان تأتي موافقته ، هو الانسان المتواضع ، لتثبت اللعنات المخيفة الساقطة من عل . كان

اعضاء الطبقة العاملة ، ما عدا حديثي السن والمحرومين من أية معلومات ، يتذكرون ايام تروتسكي المجيدة ، وهجماته المدوية على الرأسمالية العالمية ، وبياناته اللاهبة التي أثرت عميقاً في عدد كبير جداً منهم ، لا بل التي دفعت بعضهم الى الانخراط في صفوف الثوريين . ان تبدل موقف الحزب حيال هذا الرجل ، الذي لم يكونوا يتذكرونه إلا كرفيق لينين الاقرب اليه ، كان يبدو غير مفهوم بالنسبة اليهم ، ومع هذا ما كان في وسعهم أن يفعلوا شيئاً ازاء ذلك ، أو شيئاً كثيراً . هنا وهناك ، كان بعض الرجال المشمئزين من هذا التغيير او ذاك في خط الحزب يقدمون استقالاتهم . لكن الجزء الأكبر من بينهم كانوا يجدون ، بعد تفكير ، انه ربما لم يكن عليهم ان يهتموا من دون حق بما يبدو صراع تكتلات بين القادة الكبار ، وأن روسيا ، في كل حال ، بعيدة وصعبة الفهم ، وان اعداءهم الطبقيين الخاصين بهم على قرب قريب منهم ، وان الحزب الشيوعي كان يقاتل ضد اولئك الاعداء الطبقيين بالذات بشجاعة وبطريقة توحي بالثقة . كانوا يستمرون في تقديم اخلاصهم للحزب ، لكنهم كانوا يفعلون ذلك رغماً عن الستالينية لا بسببها . وقد ظلوا خلال بعض الوقت يهزون اكتافهم بتضايق حين يسمعون رسميي الحزب ينددون بتروتسكي ، « الخائن والمعادي للثورة » .

كانت سطوة تروتسكي على خيال الانتليجنسيا اليسارية المتقدمة لا تزال عظيمة . وحين كتب برنارد شو انه يعود كما كان « ملهم كل مناضلي اقصى اليسار في كل البلدان وبطلهم » ، لم يكن بعيداً عن الحقيقة كما أمكن أن يظهر ذلك في وقت لاحق[٤٧] . لقد سبق ان رأينا اللائحة المؤثرة بأسماء مشاهير انكلترا المتقدمة الذين رفعوا صوتهم دفاعاً عن تروتسكي ضد

---

(٤٧) كان شو قد عبر مراراً عن إعجابه بتروتسكي بحمية غير معتادة . فلقد كتب مثلاً في إحدى رسائله الى موللي تومبكينز : « بالأمس كانت أمامي رزمة من التقارير والأحاديث لقادتنا الحزبيين الكبار ، وكتاب بقيمة ٢,٦ شلن من تأليف تروتسكي . . . من حيث العطش الصرف ، والفظ والمتوحش ، الى الدم ، يصعب أن يصنع المرء أفضل من خطب بيركنهيد ولويد جورج وتشرشل ، أما من حيث الرزانة والصراحة غير المتكلفة والقوة الذهنية المتقنة ، فليس هناك غير تروتسكي . حين تنتقل من الحملة الرئاسية في بلدك ، ومن الانتخابات العامة في بلدنا ، الى هذه التحاليل الاجمالية ، يتولد لدينا انطباع بالانتقال الى كوكب آخر »

G . B . Shaw , To a Young actress, P78

وشو هو الأول الذي قارن تروتسكي الكاتب بليسنغ (بتعابير استعارها من هاينه

(Zur Geschichte der philosophie und religion in Deutschland)

انظر مقدمة النبي المسلح ، وانظر كذلك الفصل الخامس من هذا الكتاب .

حكومتهم الخاصة بهم . (صحيح ان الحزب الشيوعي البريطاني كان أقل « انعداءً بالتروتسكية » من اي حزب آخر ؛ الا اننا نجد في الرسائل التي تلقاها تروتسكي في برنكيبو ملفاً ضخماً يضم الرسائل بالغة الود والتعبير التي تبادلها مع كاتب شيوعي انكليزي ، اشتهر فيما بعد باورثوذكسيته الستالينية) . وبين الفنانين والشعراء والروائيين ، الاوروبيين والاميركيين ، المشهورين او الذين كانوا على وشك ان يشتهروا ، افتتن به اندريه بريتون واعضاء آخرون في المدرسة السوريالية ، هنرييت رولان ـ هولست ، الشاعرة الهولندية ، پاناييت ايستراتي ، الذي كان عمله الأدبي اللامع والكئيب في قمته آنذاك ، دييغو ريڤيرا ، ادموند ويلسون ، الشاب اندريه مالرو ، والعديد من الشخصيات الاخرى . وقد اعلن مؤرخ للحركة الشيوعية الاميركية ان « تروتسكي لا يزال يجتذب المثقفين الشيوعيين » . ويشير هذا المؤرخ للشيوعية الاميركية ، تأكيداً لصحة كلامه ، الى « . . . ميكايل غولد ، الصحفي والكاتب المشهور ، الذي لم يكن يستطيع ، حتى بعد سقوط اللعنات الاولى على تروتسكي ، مقاومة متعة امتداح تروتسكي في الـ New Masses ، كإنسان يتميز تقريباً بكونية ليوناردو دافنشي وشموليته ! وحتى في عام ١٩٣٠ ، كتب غولد ، بين ملاحظات باخسة للقيمة سطحية بما فيه الكفاية ، ان « تروتسكي هو الآن عنصر خالد من عناصر الثورة الروسية الكبرى . . . احدى الاساطير الدائمة للبشرية كسافونارولا او دانتون »[(٤٨)] . . ويذكر شيوعي اميركي آخر ، هو أيضاً من محترفي الادب ان « الاعجاب بدون تحفظ لم يكن شيئاً مقصوراً على ميكاييل غولد ، بل وسم كل العناصر المتقدمة للغاية في البلدان التي كانت تتابع الاحداث الجارية في الاتحاد السوفياتي . . . » .

في معظم البلدان الاوروبية ، كانت مجموعات من التروتسكيين والزينوفييفيين المطرودين تنشط بقيادة بعض مؤسسي الاممية الشيوعية . لم يكن مر اكثر من خمس سنوات حين احتجت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفرنسي بالاجماع لدى موسكو ضد الحملة المعادية للتروتسكية . وبين عامي ١٩٢٤ و ١٩٢٩ واصل الفرد روسمر وبوريس سوفارين والآخرون المعركة ضد

(٤٨) ت . درابر ، الشيوعية الأميركية وروسيا السوفياتية ، ص ٣٥٨ و جذور الشيوعية الأميركية ، ص ١٢٩ . انظر كذلك ج فريمان ، An American Testament ، ص ٣٨٣ ـ ٣٨٤ .

الستالينية(٤٩) . وكان التعاطف ازاء التروتسكية شديداً في الحلقة النقابية الثورية لبيار مونات التي شكلت احد العناصر المكونة للحزب الشيوعي الفرنسي ، لكنها انفصلت عنه منذ ذلك الحين . وكان للزينوفييفيين تجمُّعهم الخاص بهم . ففي المانيا ، كان هنالك اللينينبوند ومعارضة ويدينغ (التي سميت هكذا بسبب المنطقة العمالية الواسعة في برلين) لكن الزينوفييفية هناك ، التي مثلها اركاديي ماسلوف وروث فيشر ، كانت تعبر عن نزعة الانشقاق اكثر مما عن التروتسكية . وكان قائدان شيوعيان ايطاليان مهمان ، هما انطونيو غرامشي وأميديو بورديغا ، اللذان كانا يقبعان في سجون موسوليني ، عبَّرا عن مناهضتهما لستالين . فغرامشي وجه من خلية سجنه بياناً بموقفه الى موسكو حيث أخفاه توغلياتي ، ممثل الحزب في الهيئة التنفيذية للكومنترن(٥٠) . وكان اندريه نين ، الاقدر بين شارحي الماركسية في اسبانيا ، قد قرر أن يقامر بكل شيء الى جانب المعارضة ، وابقى اتصالاً طوال سنوات مع تروتسكي(٥١) . وفي هولندا ، كان مارينغ سنيڤليت ، اول ملهم

---

(٤٩) انظر النبي الأعزل . في عام ١٩٢٦ ، حاول بياتاكوف ، الذي كان انذاك عضوا في الجسم الدبلوماسي للسفارة السوفياتية في باريس أن يوحد العناصر المعادية للستالينية المختلفة ، المطرودة من الحزب الشيوعي الفرنسي . في موسكو ، كان تروتسكي وزينوفييف يشكلان المعارضة الموحدة ، وكان دور بياتاكوف يتمثل بخلق شيء من هذا القبيل في فرنسا . التقى روسمر ، وأميدي دونوا ، ولوريو ، وسوفارين ، ومونات ، وپاز وآخرين ، وأطلق نشرة باسم ، ضد التيار ، لكن روسمر ومونات ، المعاديين لأي فكرة تكتل بين التروتسكيين والزينوفييفيين ، رفضا التعاون . وهكذا بدأت ضد التيار تظهر كصنحيفة للمعارضة الموحدة برعى تحريرها پاز ولوريو . وقد واصل روسمر ومونات نشاطاتهما المعادية لستالين ، بصورة مستقلة .

(٥٠) Bulletin Oppositii ، العددان ١٧و١٨ ، ١٩٣٠ . انظر كذلك رسالةروسمر الى تروتسكي في١٠/٤/١٩٣٠ . المحفوظات ، القسم المقفل . في ذلك الوقت تقريباً ، انتقل الى المعارضة التروتسكية ثلاثة أعضاء من المكتب السياسي الايطالي هم راڤازولي وليونيتي وتريسو . وكانوا أصدقاء لغرامشي واتباعاً له ، وقد نقل أحدهم الى روسمر النبأ المتعلق برسالة غرامشي الى توغلياتي وإخفاء الرسالة . وفي عام ١٩٦١ ، طلبت علانية الى توغلياتي ، عبر الصحافة الايطالية ، أن يوضح هذه المسألة ، فأجاب بواسطة أحد أصدقائه أنه صحيح أن غرامشي طالبه عام ١٩٢٦ بالحاح الا يخرط الشيوعية الايطالية في صراع داخلي للكتل الخاصة بالحزب الروسي (وكان توغلياتي قد دعم بوخارين وستالين ضد تروتسكي) . وأكد توغلياتي أن رسالة غرامشي وصلت الى موسكو خلال هدنة بين كتل الحزب ، وهكذا قرر بعد أن استشار بوخارين أن تلك الرسالة لا علاقة لها بالوضع القائم . وحين استؤنف الصراع بين ستالين وتروتسكي ، جرى ابقاء الكومنترن والحزب الايطالي مع ذلك في جهل مطبق بموقف غرامشي . هذا الموقف يفسر النسيان الذي غاصت فيه ذكرى غرامشي خلال الحقبة الستالينية . ولم يجر اكتشاف جدارة غرامشي من جديد الا بعد موت ستالين ، وكان توغلياتي مطلق نوع من تقديس غرامشي بعد الموت داخل الحزب الايطالي

(٥١) كان نين بدأ يتراسل مع تروتسكي في فترة ألما ـ آتا . انظر المحفوظات .

للحركة الشيوعية الاندونيسية ، على رأس مجموعة مهمة من النقابيين اليساريين الهولنديين تعارض الستالينية . وانضم ايضاً الى التروتسكية في بلجيكا كل من ڤان اوڤرستراتن وليزويل ، وكانا قائدين قديمين للحزب الشيوعي ، بالاضافة الى انصارهما المتمترسين بقوة في المنطقة المنجمية الواسعة في شارلروا .

وقد وصلت انعكاسات المساجلة الداخلية في الحزب الى آسيا . ادخل بذور التروتسكية الى شانغهاي وبكين وكانتونغ وووهان طلاب قدامى في جامعة صن يات صن في موسكو ، شاهدوا عن كثب النضال الذي خاضه تروتسكي بصدد القضية الصينية عام ١٩٢٧ . وفي عام ١٩٢٨ ، عقدوا اول مؤتمر تداولي قومي للمعارضة الصينية ، وكان بعضهم يأملون عقد تحالف مع ماوتسي تونغ الذي كان غير مرغوب فيه آنذاك في الكومنترن ، لأن موقفه غالباً ما توافق مع موقف تروتسكي بين عامي ١٩٢٥ و١٩٢٧ ، وكذلك لأنه كان يطلق مذاك ، في تلك الفترة من انحسار الثورة،حرب الأنصار ضد الكيومنتانغ . وفي عام ١٩٢٩ ، تولى تشن توسيو ، قائد الحزب حتى عام ١٩٢٧ ، إضفاء العلانية ، في رسالة مفتوحة ، على التاريخ الداخلي الكريه من العلاقات بين موسكو والكيومنتانغ والشيوعية الصينية ، واعترف بأن انتقادات تروتسكي لسياسة ستالين وبوخارين كانت ، ويا للأسف ، في محلها تماماً(٥٢) . كما ان التأثير التروتسكي ظهر كذلك في الهند الصينية وفي اندونيسيا وسيلان . وفي الفترة ذاتها تقريباً ، حصل

---

(٥٢) كان اهتمام تروتسكي بالصين مواظباً بقدر ما كانت اتصالاته بتلامذته الصينيين وثيقة ضمن الظروف الخاصة بتلك الفترة . خلال صيف ١٩٢٩ وخريفه ، زار لين تسي (؟) ، وكان معارضاً متوجهاً من موسكو الى الصين ، زار تروتسكي في برنكيبو . وبعد ذلك ، وحتى عام ١٩٤٠ ، بقي تروتسكي يتراسل بصورة منتظمة مع عدة مجموعات صينية كانت تمثل اتجاهات مختلفة في المعارضة . ومنذ أعوام ١٩٢٩ - ١٩٣١ ، كان اتباعه الصينيون يطلعونه على خصومات لي - لي - صان ، الذي كان آنذاك القائد الرسمي للحزب ، وشوته وماوتسي تونغ ، مدينين الأولين كانتهازيين ، ومعلقين آمالاً كبيرة على ماو . ولم يبد بعض اتباع تروتسكي حماساً إزاء اهتداء تشن توسيو الى التروتسكية . لقد كانوا يعتبرونه مصفيّاً ، وأشاروا الى انه توقف عن لعب أي دور . أمّا تروتسكي الذي لم يكن يمكن بعد أن يعني له اسم ماو أشياء كثيرة ،فكان يعلق أهمية كبيرة على شخصية تشن توسيو ، رجل الماركسية الصينية الكبير ، وقد حاول ان يصالح التروتسكيين الصينيين معه . وأوضح تشن توسيو ذاته ، في رسالة الى تروتسكي بتاريخ ١٩٣٠/١٢/١ انه اطلع للمرة الأولى على وجهات نظر تروتسكي حول الثورة الصينية في صيف ١٩٢٩ ، وأنه أدرك صحتها على الفور . انظر المحفوظات ، القسم المقفل . (انظر استنادات أخرى لهذ المراسلة في مؤلفنا هذا ، الفصل الخامس منه . ان الدور الذي لعبه تشن توسيو في ثورة ١٩٢٥ - ١٩٢٧ موصوف في النبي الأعزل .)

تروتسكي على انضمامات جديدة في اميركا .ويمكن الاشارة هنا الى جيمس ب. كانون وماكس شاختمان ، عضوي اللجنة المركزية في الولايات المتحدة ، وموريس سبكتور ، رئيس الحزب الشيوعي الكندي ، وحتى في المكسيك البعيدة ، انضمت مجموعة من الشيوعيين ، شجعها دييغو ريڤيرا ، الى قضية الهراطقة الذين هزموا في موسكو قبل قليل .

أقام تروتسكي صلة بين كل تلك المجموعات وحاول أن يصهرها في منظمة واحدة . فمنذ جرى ابعاده من موسكو ، تعيّشت المجموعات المذكورة على فتات فكره ونشرت في صحف صغيرة ومنشورات صغيرة شذرات من كتاباته التي اجتازت خفيةً حدود الاتحاد السوفياتي . ولقد كان لظهوره في القسطنطينية فعل الصدمة الكهربائية فيها ؛ فسلطته المعنوية كانت تشكل بالطبع العنصر الاساسي الاصلب ، وكان انصاره عبرالعالم ينتظرون ان يروه ينفخ الحياة في معارضة شيوعية عالمية للستالينية . ولا شك ان تلك السلطة عليهم كانت تنطوي كذلك على مخاطر ، لأنهم كانوا يعتادون على الادوار المحدودة الضيقة لتلامذة وأتباع ورعين . كانت التروتسكية قد اصبحت ، حسب تعبير هاينريخ براندلر ، مركباً صغيراً مثقلاً بشراع ضخم ، وحتى على صعيد المعارضة الروسية كانت شخصية تروتسكي مهيمنة ، لكنه كان محاطاً هناك على الاقل ، بشركاء تميزوا خلال الثورة ، بأناس ذوي فكر مستقل وطبع حازم وتجربة غنية . واذا استثنينا حالة او حالتين ، لم يكن هناك أناس لهم هذا الوزن بين حلفائه خارج روسيا . وكان يأمل ان يجري إيجاد علاج لهذا الضعف في المعارضة ، في وقت قريب جداً ، وان يخرج سريعاً من الصف قادة جدد . لم يكن يتخيل لحظة انه قد يبقى القائد المغترب الوحيد للمعارضة الروسية . كان ينتظر ان يرى ستالين ينفي آخرين منها ، لا سيما راكوفسكي ورادك ، بحيث ما ان يخرج هؤلاء من روسيا حتى تعثر المعارضة العالمية على دماغها القيادي القدير[٥٣] . الا ان تلك الآمال لم تتحقق ، إذ لم يكن ستالين ينوي ابداً ان يعزز قوة تروتسكي بعمليات نفي أخرى .

ماذا كانت تمثل التروتسكية في ذلك الطور الخاص إذا وضعنا على حدة

(٥٣) B. O. ، عدد ١ و ٢ تموز / يوليو ١٩٢٩ . ومنذ الآن نختصر بالحرفين B. O. كلمتي Bulletin Oppositsii (أو نشرة المعارضة) .

سحر شخصية تروتسكي ؟

كان يجد المرء في اعماقها مبادىء الاممية الثورية والديمقراطية البروليتارية . كانت الاممية الثورية تنتسب الى تراث الماركسية الكلاسيكية ، فالاممية الثالثة انقذتها من يدي الاممية الثانية الهزيلتين ، وكان تروتسكي يدافع عنها في وجه الامميتين الثانية والثالثة . لم يكن هذا المبدأ بالنسبة اليه محض تجريد ، بل كان يشكل نسيج افكاره وغرائزه السياسية . ما كان ينظر في يوم من الايام الى مسألة سياسية دون الرجوع الى المنظور الاممي ، وكانت المصلحة ما فوق القومية للشيوعية معياره الأمثل . لذا كان يرى في مذهب « الاشتراكية في بلد واحد » تزويراً « قومياً اشتراكياً » للماركسية ومختصراً لغرور البيروقراطية السوفياتية وغطرستها . ولم يكن ذلك المذهب يسود آنذاك في الاتحاد السوفياتي وحسب ، حيث يجيب على الاقل عن حاجة نفسية ، بل كان يشكل كذلك القانون الرسمي للشيوعية الدولية ، دون أن يستجيب مع ذلك لأي حاجة في هذا الميدان . وإذ انحنت الكومنترن خضوعاً للانانية المقدسة لروسيا الستالينية ، فقد قضت على مبرر وجودها بالذات . ان اممية تجرها عربة الاشتراكية في بلد واحد كانت تنطوي على تناقض في الالفاظ . ومن الناحية النظرية ، أبرز تروتسكي كيف أن مفهوم دولة اشتراكية معزولة ومستقلة غريب عن الفكر الماركسي ، وانه يعود بأصله الى النظرية القومية ـ الاصلاحية للتحريفيين الالمان في القرن التاسع عشر ، وانه يعبر عملياً عن التراجع عن الثورة العالمية والحاق سياسة الكومنترن بتصريف الأمور الجارية ، حسب الأسلوب الستاليني[٥٤] .

---

(٥٤) كان تروتسكي يعيد أصل الاشتراكية في بلد واحد الى ج ، ڤولمار ، الاصلاحي الألماني المعروف جيداً ، الذي عرض ، قبل ٢٠ عاماً من حملة برنشتاين التحريفية ، نظرية دولة اشتراكية معزولة . (فلنضف الى ذلك أنه لم يكن ثمة غير تنويع اشتراكي على الموضوعة الأساسية لنظريات ليست الاقتصادية .) لقد أبرز تروتسكي كيف أن مفهوم ڤولمار ارهف من مفهوم ستالين أو بوخارين ، لأن دولته الاشتراكية المعزولة كان ينبغي أن تكون دولة مشابهة لألمانيا ، التي تمتلك قدرة تكنولوجية حقيقية ، لا دولة فلاحية متخلفة . كان ڤولمار يرى في التفوق التقني للدولة الاشتراكية المعزولة على جيرانها الرأسماليين ضمانة نجاحها ، بينما كان بوخارين وستالين يعتقدان ، حتى عام ١٩٢٨ ، أن دولة كهذه يمكن أن تزدهر حتى وسط التخلف الصناعي . (أنظر حول هذه النقطة ، **تروتسكي** ، **الأممية الثالثة بعد لينين** ، ص ٤٣ ـ ٤٤) . كان ڤولمار يتصور كذلك أن المانيا اشتراكية ، تستخدم ميزات تكنولوجيا متفوقة واقتصاد مخطط ، ستهزم جيرانها الرأسماليين بواسطة المنافسة الاقتصادية السلمية ، وبذلك تجعل الثورة في البلدان الأخرى نافلة الى هذا الحد أو ذاك . وإذ صاغ ڤولمار هذا التصور ، لم يكن يستبق هكذا المفهوم البوخاريني ـ الستاليني للعشرينات وحسب ، بل أكثر بكثير أيضا =

ومع ان تروتسكي اكد أولوية المصلحة الاممية على المصلحة القومية ، إلا أنه كان بعيداً عن إبداء لامبالاة عدمية حيال الحاجات القومية للاتحاد السوفياتي ، أو عن تجاوز مصالحه العسكرية او الديبلوماسية الخاصة به بخفة . وكان يلح بوجه خاص على واقع ان الدفاع عن الدولة العمالية الاولى هو واجب كل شيوعي . لكنه كان مقتنعاً بأن الغرور الستاليني يضعف الاتحاد السوفياتي الذي تكمن مصلحته المثلى في تخطي عزلته وتوسيع اطار الثورة . وكان يرى بالتالي ان على الدولة العمالية ، في الطور الحاسم من صراع الطبقات العالمي ، ان تكون معدة ، ضمن منظور بعيد المدى ، للتضحية بمصالحها الفورية بدل إعاقة ذلك الصراع ، كما فعل ستالين وبوخارين في حالة الثورة الصينية بين ١٩٢٥ و١٩٢٧ . هذه المساجلة سوف تدور في العقد اللاحق حول محاور اخرى : الاستراتيجية الشيوعية والتكتيك حيال النازية والجبهات الشعبية ، لكن في الاساس (إذا استخدمنا مماثلة نستمدها من السياسة الاميركية المعاصرة) ، كان النزاع ذاته بين الاممية التروتسكية والانعزالية هو الذي يعطي دائماً سياسة ستالين ميزتها الخاصة في العشرينات كما في الثلاثينات .

في الظاهر ، كان موقف تروتسكي (أو كان يجب ان يكون) اكثر مدعاة للتعاطف بكثير ، من جانب الشيوعيين خارج الاتحاد السوفياتي ، مما كان موقف ستالين . ومن بين الموقفين ، كان محقاً في توقع ان يكون ذلك الذي يستثير الجواب الاشد حرارة ، لأنه كان يلح على اهمية اولئك الشيوعيين في الخارج ، بما هم فاعلون مستقلون ضمن صراع الطبقات العالمي ، بينما كان ستالين يخصهم بدور محض محميين من جانب « دولة الشغيلة » .

كانت مرافعة تروتسكي لصالح الديمقراطية البروليتارية تهدف الى تحرير الاحزاب الشيوعية من القيود الصارمة لتنظيمهم المغالي في البيروقراطية ، وإلى اعادة المركزية الديمقراطية الى داخل تلك الاحزاب . كان هذا المبدأ قد تجسد ايضاً في التراث الماركسي وكان وارداً على الدوام في الانظمة الداخلية للاحزاب المذكورة . سعت المركزية الديمقراطية الى ان تحفظ للاحزاب الاشتراكية في البدء ، ثم للأحزاب الشيوعية فيما بعد ، الحرية في الانضباط والانضباط في

= اطروحات خروتشوف حول المنافسة الاقتصادية والانتقال السلمي الى الاشتراكية ، التي تم تبنيها في المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفياتي في شباط / فبراير ١٩٥٦ .

الحرية . كانت تجبرها على أن تبقي في العمل الانسجام والوحدة الدقيقين ، وتسمح بأكبر قدر ممكن من التنوع في وجهات النظر ، الذي يتفق مع برامجها . وكانت تلزم الاقليات بتنفيذ القرارات التي تتخذها الاكثرية وتفرض على الاكثرية احترام حقوق كل اقلية في النقد والمعارضة . بموجبها كانت اللجنة المركزية لأي حزب (وقيادة الاممية) تتمتع طوال ولايتها بسلطة التوجيه الفعلي لمنتسبي القاعدة ، لكن اللجنة المركزية تخضع للارادة والتصويت الخالي من اية قيود ، اللذين يصدران عن منتسبي القاعدة هؤلاء بالذات . كان لهذا المبدأ إذاً قيمة سياسية عملية كبرى ، وقيمة فعلية كبرى للحركة ، وقد ادى التخلي عنه واستبداله بالمركزية البيروقراطية الى إعاقة الاممية في تحركاتها . واذا كان الانضباط الاحادي الاتجاه والمركزية القصوى داخل الحزب السوفياتي شكّلا جزءاً لا يتجزأ من التطور العضوي لاحتكار السلطة البلشفي ، فان مد هذا النظام الى الفروع الاجنبية للكومنترن كان مصطنعاً بصورة كلية ولا رابط بينه وبين أطرها القومية وظروف وجودها .

كانت معظم الاحزاب الشيوعية الغربية معتادة على العمل في اطار نظام تعدد الاحزاب ، حيث كانت تتمتع ، عموماً ، بحرية النقاش والنقد الجازمة . لكن قادتها كانوا الآن في وضع غريب ومتناقض : ففي داخل منظمتهم الخاصة بهم ، كانوا يرفضون ان يمنحوا انصارهم الحقوق التي كان هؤلاء يستطيعون ممارستها خارج المنظمة . حوالى عام ١٩٣٠ ، ما كان يمكن شيوعياً المانيا او فرنسياً أو غير ذلك ان يعبر عن رأي مخالف حول مسألة خط الحزب ؛ كان عليه أن يقبل كحقيقة انجيلية كل المعلومات الرسمية الآتية من موسكو . هكذا كان كل حزب شيوعي يصبح ، داخل بلده ، شيئاً مشابهاً لحبيسة غريبة مفصولة عن سائر الأمة ، وليس ذلك ناجماً عن مشروعه الثوري بقدر ما هو ناجم عن قواعد السلوك فيه التي لم يكن لها علاقة بذلك المشروع الاساسي . كانت قواعد السلوك تلك تشكل قانوناً شبه كهنوتي يخضع الأعضاء لممارسات روحية بصرامة تلك التي تمارس في كل الرهبنات منذ الاصلاح المضاد . صحيح ان الكومنترن المستلنة (نسبة الى ستالين) كانت تتوصل عبر تلك الممارسات الى انجاز انتصارات انضباطية خارقة ، لكن انضباطاً من هذا النوع كان مدمراً لفعالية حزب ثوري . إن حزباً كهذا ينبغي أن يكون من الشعب وفي الشعب الذي يعمل وسطه ، ولا يجب ان يكون منعزلاً بسبب التقيد بعبادةٍ وبطقوسها . لا شك ان

الستالينية كانت تفتن بعباداتها وأضحياتها ودخان بخورها بعض المثقفين الساعين وراء فعل ايمان ، اولئك بالذات الذين سيلعنون فيه « الاله غير المعصوم » . تلك العبادة التي كانت تـأسرهم نـادراً ما كـانت تجتذب جمهـور الشغيلة ، اولئك البروليتاريين الاقوياء الذين كانت تتوجه اليهم (هذا على الاقل ما كان يجزئ ادعاؤه) . اضيف الى ذلك انه بفعل الانضباط الغريب ، وقواعد طقسية ليست أقل غرابة ، كان محرضو الحزب موثوقي اليدين والرجلين ، في حين كان ينبغي أن يقتربوا ممن يرغبون في كسبهم لقضيتهم ، بصورة حرة وطليقة . حين كان شيوعي اوروبي يتقدم للدفاع عن قضيته امام جمهور عمالي ، كان عليه عموماً ان يجابه معارضاً اشتراكياً ـ ديمقراطياً ينبغي دحض حججهومكافحة شعاراته . الا انه غالباً ما كان مناضلنا عاجزاً عن فعل ذلـك ، لأنه تنقصه عادة النقاش السياسي التي لم تكن تجري تنميتها داخل الحزب ، ولأن تكوينه كان يحرمه من القدرة على وعظ غير المهتدين . مـا كان في وسعـه ان يتفحص بعمق اطروحـات خصمه ، بينما كان عليه ، طوال الوقت ، ان يفكر باورثوذكسيته الخاصة به وان يتحقق مما اذا لم تكن أقواله تحرفه دون علم منه عن الخط الاساسي للحزب . كان في وسعه ان يجعل من نفسه ، بتعصب ميكانيكي ، معبراً عن نظام من الحجج والشعارات المحددة سلفاً . لكن أي شكل من المعارضة والسخرية كان يجعله فوراً في حالة ارتباك ، وحين كان مطالباً ، كما الحال غالباً ، بالاجابة عن انتقادات موجهة ضد الاتحاد السوفياتي ، نادراً ما كان في وسعه ان يفعل ذلك بشكل مقنع . كان تسبيحه وحمـده لستالين يجعـلانه مـوضع سخـرية سـامعيه المتزنين . ولا بد ان انعدام فعالية ذلك التحريض الستاليني كان احد الاسباب الرئيسية لغياب التفوق التكتيكي في السنوات اللاحقة إزاء الاصلاحية الاشتراكية ـ الديمقراطية ، وذلك حتى في الظروف الأكثر ملاءمة .

أخذ تروتسكي على عاتقه هزَّ الاحزاب الشيوعية من سباتها العميق ، وأن يوقظ فيها الاندفاع والثقة بالذات والحمية القتالية ، التي كانت فيما مضى صفاتها الخاصة بها ، وهي الاشياء التي ما كان في استطاعتها أن تستعيدها من دون الحرية في صفوفها . جعل من نفسه الداعي الذي لا يكل للمركزية الديمقراطية ، وهو التعبير الذي كان يشرح معناه للشيوعيين الذين لم يفهموه يوماً أو أنهم نسوه . كان يوجه النداء اليهم ، لمصلحتهم الخاصة بهم ، باسم كرامتهم ومستقبلهم ، آملاً ألا يبقوا في اللامبالاة ، وفي الحقيقة انه لو كان للعقل ومبادىء الماركسية او

المصلحة الخاصة بالشيوعية ما تقوله في الموضوع ، لما كانت حججه ومرافعاته سقطت في آذان صماء .

إذا وضعنا تلك المبادىء الاساسية على حدة ، كانت التروتسيكية تمثل كذلك جملة من المفاهيم التكتيكية التي تتغير حسب الظروف . إن قسماً كبيراً جداً من كتابات تروتسكي في المنفى مخصص لشروح حول هذه الموضوعات نادراً ما تثير اهتمام من هم خارجها ، لا سيما بعد مرور الزمن . الا ان سلّم افكار تروتسكي التكتيكية كان عريضاً جداً ، وقد بقيت وجهات نظره على الاقل في قسم منها ، حالية جداً بما يخص سياسة الطبقة العاملة ، بحيث ان ما كان عنده ليقوله عن الموضوع يتمتع بأهمية اكثر من تاريخية .

بين عامي ١٩٢٣ و١٩٢٨ ، حين كانت الكومنترن تطبق خطها المعتدل ، انتقد تروتسكي واصدقاؤه ذلك الخط من وجهة نظر اليسار[٥٥] . وبعد عام ١٩٢٨ ، حدث تبدل الى هذا الحد أو ذاك . فمنذ انعطف ستالين يساراً في الاتحاد السوفياتي ، بدلت سياسة الكومنترن أيضاً اتجاهها ، ناقلة نقلاً آليا كل حركة وكل ارتكاس مصدرهما الحزب الروسي . فمنذ المؤتمر السادس للاممية المنعقد خلال صيف عام ١٩٢٨ ، بدأت هذه تبدل شعاراتها وتعليماتها التكتيكية من النموذج اليميني الى النموذج اليساري المتطرف[٥٦] . وفي الأشهر التي تلت ، تبلور الخط الجديد بشكل اكثر حدة ، بحيث لم يعد في الاخير غير نقيض الخط القديم في جوانبه كافة[٥٧]. وفي حين كانت الكومنترن تتكلم في السنوات السابقة على استقرار الرأسمالية النسبي ، كانت تشخص الآن نهاية الاستقرار وتتوقع الانهيار الوشيك والنهائي للرأسمالية . كانت تلك هي النقطة الحاسمة من النظرية المزعومة للمرحلة الثالثة التي اصبح مولوتوف المعبر الرئيسي عنها ، بعد أن حل محل بوخارين على رأس الكومنترن . وفقاً لهذه النظرية ، ينقسم التاريخ السياسي لفترة ما بعد الحرب الى ثلاثة فصول متمايزة تماماً : الأول هو فصل اندفاع وجهود ثورية دام حتى عام ١٩٢٣ ؛ والثاني كان فصل الاستقرار الرأسمالي الذي بلغ نهايته عام ١٩٢٨ ؛ بينما سوف يؤدي الثالث (الذي ينفتح الآن) الى

---

(٥٥) انظر النبي الأعزل ، الفصلان الثاني والخامس .

(٥٦) Kommunisticheskii Internatsional v Dokumentakh, ED. Bela kun, p. p. 76 g- 784.

(٥٧) المرجع ذاته ، الصفحات ٨٦٧ - ٨٨٨ - ٩١٥ - ٩٢٥ - ٩٥٧ - ٩٦٦ .

احتضار الرأسمالية والامبريالية . وإذا كانت الشيوعية الدولية بقيت حتى ذلك الحين في وضع الدفاع ، فلقد حان الوقت الآن للانتقال الى الهجوم ، وللانعطاف من النضال الذي يخاض على اساس متطلبات جزئية واصلاحات ، نحو النضال المباشر للاستيلاء على السلطة .

كانت الكومنترن تزعم أن كل تناقضات الرأسمالية على وشك الانفجار ، لأن البورجوازية ستكون عاجزة عن التحكم بالأزمة الاقتصادية القادمة ، ووفقاً لتحليلها فان العناصر المبشرة بوضع ثوري بدأت تظهر بصورة بديهية للغاية عبر العالم ، لا سيما في الروح الجديدة للطبقات العاملة التي كانت تنفض كل الأوهام الاصلاحية ، وتنتظر عملياً أن يتقدم الشيوعيون ليقودوها ويخوضوا بها المعركة . كل حادثة صغيرة تقريباً ، في صراع الطبقات ، كانت تمثل الآن قوة دفع ثورية عظيمة جداً ويمكن أن تقود الى المعركة بهدف السيطرة على الشارع ، أو ، بوضوح اكثر ، الى الانتفاضة المسلحة . جاء في الـ Bolchevik في حزيران/يونيو ١٩٢٨ : « موجة الاضرابات تعم العالم الرأسمالي بأسره . ثمة عناصر نضال ثوري حاد وحرب اهلية تمتزج امتزاجاً وثيقاً بعناصر الاضراب ، وجماهير الشغيلة غير المنظمة تندفع الى المعركة . . . ويمتد الاستياء المتنامي والحركة باتجاه اليسار ايضاً الى ملايين الشغيلة الزراعيين والى الفلاحين المضطهدين . أعلن مولوتوف في الهيئة التنفيذية للاممية : « ينبغي ان يكون المرء انتهازياً سطحياً أو ليبرالياً تافهاً كي لا يرى اننا دخلنا ، بقدمينا الاثنتين ، في منطقة احداث ثورية عظيمة ، لها معنى أممي عظيم جداً » . ولم تكن تلك الكلمات معدة كتنبؤات على المدى الطويل ، بل كتوقعات بخصوص امور راهنة وتوجيهات للعمل . حاول العديد من الاحزاب الشيوعية الاوروبية تحويل استعراضات اول ايار/مايو ١٩٢٩ والمظاهرات ضد الحرب في ٤ آب/اغسطس الى صراع مباشر لأجل التحكم بالشارع ، وهو ما أدى الى مناوشات عقيمة ودامية بين المتظاهرين والشرطة في برلين وباريس ومدن اخرى .

بالتوافق مع هذا الخط العام ، عدلت الكومنترن أيضاً موقفها حيال الاحزاب الاشتراكية ـ الديمقراطية . فقد قيل إنه في حالة ثورية حقيقية ، لا يمكن تلك الاحزاب الا أن تصطف بجانب الثورة المضادة ، وهكذا لم يبق بنظر الشيوعيين ميدان للتفاهم يمكن ان يتحقق فوقه تعاون وحتى اتفاقات جزئية مع الاشتراكيين الديمقراطيين . لما كانت البورجوازية تصارع للاحتفاظ بسيطرتها ، ولما كان عهد

الحكومة البرلمانية والحريات الديمقراطية ينتهي ، ولما كانت الديمقراطيات البرلمانية تتحول من داخل الى فاشية ايضاً ، فالاحزاب الاشتراكية ـ الديمقراطية ، هي ايضاً ، كانت تتحول الى اشتراكية ـ فاشية ، اشتراكية ، بالاسم ، وفاشية بالافعال . وبما انها تخفي طبيعتها الحقيقية تحت قناع اكبر من الفاشية بحصر المعنى ، كان يعني ذلك بالتالي أن على الشيوعيين ان يركزوا نيرانهم على العدو الرئيسي ، اي الاشتراكية ـ الفاشية . بالطريقة نفسها ، فإن الاشتراكيين ـ الديمقراطيين اليساريين ، الذين يتكلمون غالباً لغة لا يمكن تمييزها تقريباً من لغة الشيوعيين ، هم اخطر ايضاً من الجناح اليميني داخل الاشتراكيين ـ الفاشيين ، وينبغي مكافحتهم بكل ما يمكن من عزم . اذا كان طُلب حتى ذلك الحين الى الشيوعيين ان يشكلوا الجبهة الموحدة مع الاشتراكيين ـ الديمقراطيين في الأعلى وفي الاسفل ، مع القادة كما مع مناضلي القاعدة ، فالكومنترن كانت الآن تحظر بحزم كل تكتيك من هذا النوع . لم يكن يمكن الاستمرار في ممارسة تكتيك الجبهة الموحدة الا على صعيد القاعدة وحسب . جرى السماح للشيوعيين بالتعاون مع مناضلي الحزب الاشتراكي ـ الديمقراطي ، لكن فقط مع اولئك المستعدين للقطع مع قادتهم . إن تشجيع اي نوع من الاتصال على المستوى الأعلى كان يعادل تقديم الدعم والعون النشط للاشتراكية ـ الفاشية(٥٨) .

هذه المفاهيم والتعليمات ستسيطر على سياسة كل الاحزاب الشيوعية خلال السنوات الخمس أو الست التي تلت ، وصولاً تقريباً الى حقبة الجبهة الشعبية ، وذلك خلال السنوات المشؤومة للجمود الاقتصادي الكبير ، ولصعود النازية ، ولسقوط الملكية في اسبانيا وأحداث اخرى ، التي كان سلوك الاحزاب الشيوعية خلالها ذا أهمية حاسمة .

حين أكد تروتسكي في المرحلة السابقة ان الكومنترن فوّتت بسياستها الجبانة فرصاً ثورية ، لم يقترح أبداً قلباً لذلك الخط بالجذرية والقصوية اللتين تميز بهما ما كان يحدث الآن ، لذا انتقد هذا القلب على انه ارتداد بمقدار ١٨٠ درجة ، انعطاف مفاجىء من الانتهازية الى القصوية . لم تكن الشعارات والتعليمات التكتيكية الجديدة غير القفا الصرف للشعارات والتعليمات السابقة ، ولم يكن هذا القفا ينفع الا في تمويه افلاسها الكامل . وفي تعليق جارف على

(٥٨) المرجع المذكور ، الصفحات ٩٤٦ ، ٩٥٧ ، ٩٦٦ واخرى .

نقاشات مولوتوف المملة حول الفترات الثلاث ، بيّن تروتسكي كيف ان من الخطأ اعتبار الفترة الثانية التي جرت فيها الثورة الصينية والاضراب الانكليزي العام فترة استقرار ، وانه اقل واقعية ايضاً تصور انهيار وشيك للرأسمالية ، خلال فترة ثالثة ، وان تُستنتج من ذلك الحاجة الى سياسة هجومية بوجه الحصر . قال إن الكومنترن عمدت الى هذا التوجه الجديد بصورة ميكانيكية بحتة، من دون اية محاولة لتوضيح ما لم يكن مناسباً في التكتيك القديم ، ودون اي نقاش صادق ، ودون إعادة تقويم القضايا الموضوعة على جدول الاعمال . ولما كان يجري منع الاحزاب الشيوعية من نقاش ما هو صحيح وما هو خاطىء في سياستها الخاصة بها ، فإنه محكوم على تلك الاحزاب ان تتحول من طرف لطرف آخر ، وان تستبدل ، بناء للاوامر ، مجموعة من الحماقات والاخطاء بمجموعة اخرى . لم يكن نظامها الداخلي مجرد مسألة تنظيم ، بل كان يؤثر سلباً على كل السياسة الاممية ، جاعلاً اياها سياسة جامدة وغير مستقرة في الوقت ذاته . لم تكن القصوية المحمومة للـ« فترة الثالثة » تعبر عن انبعاث للاممية الثورية في دوائر موسكو الرسمية ، إذ إن تلك القصوية كانت تعيق نمو الشيوعية في العالم ، مثلها مثل الانتهازية السابقة ، وكان في اساسها اللامبالاة البيروقراطية الوقحة ذاتها حيال المصالح الاممية للطبقة العاملة(٥٩) .

مثلما في السابق ، كان تروتسكي يدافع عن الفكرة القائلة ان كل الحقبة التي انفتحت مع الحرب العالمية الاولى والثورة الروسية هي فترة أفول للرأسمالية ، التي تحطمت اسسها بالذات . الا ان ذلك لم يكن يعني ان البناء على وشك الانهيار بصخب عظيم . فأفول نظام اجتماعي ليس ابداً سيرورة بسيطة للانهيار الاقتصادي أو سلسلة متواصلة من الاوضاع الثورية . وبالتالي ، فما من جمود يكون ، بصورة مسبقة ، الاخير والنهائي ، وحتى خلال أفول الرأسمالية يكون فيها حالات ليسر وعسر ، مع ان حالات اليسر تميل الى أن تقصر اكثر فأكثر وتنطوي على خضات ، وحالات العسر تشبه اكثر فأكثر سقطات عمودية مدمّرة بشكل خاص . ان الدورة التجارية ، مهما تكن التغيرات التي حصلت منذ ايام ماركس ، كانت تتبع مجراها الطبيعي ، لا فقط من الازدهار

---

(٥٩) خصص تروتسكي عدداً كاملاً من B . O . (العدد الثامن ، يناير ١٩٣٠) لنقد سياسة الفترة الثالثة ، وعاد اليه في العديد من الاعداد اللاحقة .

المفاجىء الى الجمود ، بل كذلك من الجمود الى الازدهار المفاجىء . كان من المضحك إذاً الاعلان ان البورجوازية بلغت موضوعياً مأزقها النهائي . فلا يوجد مأزق من هذا النوع لا تحاول طبقة مالكة ان تخرج منه . ونجاحها في ذلك أو عدم نجاحها يتوقفان على العوامل الاقتصادية الصرفة اقل بكثير مما على توازن القوى السياسية ، التي يمكن ان تميل الى هذه الجهة أو تلك ، وفقاً لنوعية قيادة الحركة العمالية . إن توقع مد صاعد ابداً من الثورات ، واكتشاف عناصر حرب اهلية في كل اضراب صاخب قليلاً ، والاعلان اخيراً أنه آن الاوان للانتقال من الدفاع الى الهجوم والانتفاضة المسلحة ، إنما يعادل التخلي ببساطة عن كل شكل للقيادة والاندفاع ، في اتجاه الهزيمة . ففي صراع الطبقات ، تماماً كما في الحرب ، لا يمكن فصل الاشكال الهجومية عن الاشكال الدفاعية للعمل ، ومعارضة هذه بتلك . ان نموذج الهجوم الأكثر فعالية يولد عادة من دفاع ناجح ، ويستمر عنصر من عناصر الدفاع حتى في الانتفاضة المسلحة ، تلك النقطة الحاسمة من النضال الثوري . كان على الشغيلة خلال الازمة والجمود ان يدافعوا عن انفسهم في وجه الهجمات على مستوى حياتهم ، وكذلك في وجه صعود الفاشية . فأن يقال لهم إن وقت دفاع كهذا قد مضى ، وان عليهم الاستعداد لهجوم معمم ضد الرأسمالية ، لم يكن يؤدي الى شيء ، إذا لم يكن الى الوعظ بالبطالة او الاستسلام ، والدعوة الى ذلك بأعلى الصوت ، واشده تطرفاً وجذرية . وبالطريقة ذاتها ، فإن استبعاد كل نوع من التعاون بين الاحزاب الشيوعية والاشتراكية ، انما يعني الاعداد لكارثة تحل بالحركة العمالية عموماً وبالشيوعية بوجه خاص . وهكذا خلص تروتسكي الى القول إن مفهوم المرحلة الثالثة ليس سوى نتاج مغفّلي البيروقراطية ، وكل ما جرى تدشينه تحت اشراف المايسترو مولوتوف انما هو المرحلة الثالثة من حماقات الكومنترن واخطائها .

هذه الانتقادات المبكرة تشكل مكثّفاً لمساجلة تروتسكي مع الكومنترن ، وبخاصة المساجلة المتعلقة بسياسة الاخيرة خلال ارتقاء هتلر السلطة ، وهي المساجلة التي ستملأ بداية السنوات ١٩٣٠ - ١٩٤٠ . كان من الواضح ، بما يخص كل نقاط التكتيك تلك ، ان التروتسكية كانت تعارض الكومنترن الآن من عن يمينها ، وليس كما كان الأمر حتى ذلك الحين ، أي من يسارها . لم يكن يكمن التبدل في موقف تروتسكي ، الذي بقي منسجماً مع ما سبق أن تبناه هو ولينين في المؤتمرين الثالث والرابع للكومنترن ، في عامي ١٩٢١ و١٩٢٢ ، بل

كان يكمن في الانقلابات المفاجئة لمركزية ستالين البيروقراطية وفي تناوب التعرجات اليمينية واليسارية المتطرفة . لكن حتى في ذلك الحين ، كان موقف نقد ستالين « من اليمين » ينطوي على مساوىء . فالشيوعيون ، المعتادون النظر اليه كناقد ستالين اليساري ، ساورهم الشك بانعدام في التماسك او إغفال للمبادىء . وفي الواقع ان نقطة الافتراق بين التروتسكية والمعارضات اليمينية المختلفة شبه البوخارينية داخل المعسكر الشيوعي كانت غير واضحة، على الاقل بما يخص نقاط التكتيك التي كانت تصل الى ذلك القدر من البروز في المساجلات المشار اليها . كانت مجموعات المعارضة اليمينية في أوروبا ، التي شكل البراندليريون التكتل الاهم بينها (كان براندلر وتالهايمر قد طردا لتوهما من حزبهما) ، تنتقد كذلك التطرف الجديد ، نقداً صارماً(٦٠) . لكن ما كان يضع التروتسكية بمعزل عن انواع المعارضة الاخرى ، انما قوة نقدها الفكرية وهجوميته وعمقه التأليفي . فبراندلر وتالهايمر كانا يكتفيان بفضح التعرج اليساري المتطرف الاحدث للكومنترن ، بينما كان تروتسكي يهاجم مجمل نشاطها لفترة ما بعد لينين . كان البراندلريون ، الذين يهتمون بصورة رئيسية بسياسة احزابهم القومية ، يجتهدون كثيراً ألا يفضحوا القيادة السوفياتية . فحول مسألة النزاعات الداخلية في الحزب السوفياتي كانوا يصطفون ، شاؤوا أو أبوا ، بجانب ستالين ، مقدمين تأييدهم للاشتراكية في بلد واحد ، عاذرين النظام البيروقراطي ، بحجة انه يناسب الشروط الخاصة بروسيا ، متجاوبين حتى مع الادانات للتروتسكية ، الصادرة عن موسكو(٦١) . كانوا مقتنعين بأن أي معارضة شيوعية تجابه موسكو بصدد مسائل مبدئية لا يمكن ان تلقى جواباً داخل الصفوف الشيوعية ، وكانوا يأملون ان تكتشف الكومنترن عاجلاً أو آجلاً ان سياسة المرحلة الثالثة مستحيلة التطبيق ، وأن ترذلها ، وتتوافق مع اولئك الذين تحاشوا ، من بين نقادها ، قطيعة لا رجعة فيها . وبعكس هؤلاء ، كانت التروتسكية تعتبر أن سياسات شتى الاحزاب القومية

---

(٦٠) كانت المجموعات القريبة من البراندلريين هي مجموعتا وارسكي وكوسترزيوا في بولندا ، اللذين اقيلا من وظائفهما عام ١٩٢٩ (ولم يطردا من الحزب) ، ومجموعة هومبرت دروز في سويسرا ومجموعة لوفستون في الولايات المتحدة .

(٦١) أن الـ Arbeiterpolitik البراندلرية استمرت تتخذ موقفاً منهجياً معادياً للتروتسكية . وقد وقف تروتسكي منها موقفاً مماثلاً ، فكتب : « أنا لا أناقش شتى اتجاهات المادية مع واحد يرسم إشارة الصليب حين يمر أمام كنيسة . لذا لن أناقش مع براندلر وتالهايمر » .

لا يمكن اصلاحها ، أو انه لا يمكن تقديم علاج لاخطائها ، داخل تلك الاحزاب بالذات ، لأن مصدر انحطاطها موجود في موسكو ، ومن واجب جميع الشيوعيين ، بالتالي ، الاهتمام اشد الاهتمام بأمور الاتحاد السوفياتي الداخلية ، والوقوف كذلك ، في هذا الصعيد ، بوجه البيروقراطية الستالينية . وكانت هذه الدعوة لتدخل الرأي الشيوعي الاجنبي في الشؤون السوفياتية خاصة بالتروتسكية ؛ وكان ذلك تحدياً حقيقياً يثير هلع معظم النفوس الشيوعية واستهوالها .

رغم العمق التأليفي لنقد التروتسكية للكومنترن ، لم تكن التروتسكية تتطلع الى تشكيل حركة شيوعية جديدة . ففي تلك الحقبة، وعلى امتداد سنوات عديدة ، وقف تروتسكي بوجه فكرة اممية رابعة ، كانت قد ناقشَتْها من قبلُ المعارضة العمالية ، في الاتحاد السوفياتي ، وبعض الصامدين من المعارضة الزينوفييفية في اوروبا. أعلن أن عليه، هو وانصاره، ان يبقوا مخلصين للاممية الشيوعية ، رغم كونهم مطرودين منها . كانوا يشكلون مدرسة فكرية تناضل لاستعادة موقعها داخل مجمل الحركة الشيوعية . فالاضطهاد وحده اضطرهم لأن يشكلوا تكتلاً ، وقد ظلوا تكتلاً لا حزباً منافساً . كان هدفهم الوحيد التأثير على الرأي الشيوعي ، وجعله يدرك ان غاصبين استولوا على مقاليد الحكومة السوفياتية والكومنترن ، ودفعه للنضال من أجل احياء الماركسية واللينينية بكل نقاوتهما . هكذا إذاً ، كانوا يناضلون من اجل إصلاح للاممية ، لا من اجل قطيعة دائمة معها . كان تروتسكي يعتقد انه رغم كل حماقات الاحزاب الشيوعية وعيوبها ، فهذه الاحزاب لا زالت تمثل الطليعة المناضلة للطبقات الكادحة ، وأن موقع المعارضة هو الى جانب تلك الطليعة . فاذا أدار ، هو وتلامذته ، لها ظهورهم ، يكونون ذهبوا طوعاً الى الصحراء التي كان ستالين يدفعهم نحوها . لا شك ان الستالينية لم تكن تسمح لأي من تيارات المعارضة بالتعبير بوضوح عن وجوده داخل الاممية ، لكن هذا الوضع لا يمكن ان يدوم . فثمة احداث حاسمة ، داخل الاتحاد السوفياتي او خارجه ، سوف توقظ قريباً اندفاعة الشيوعية ، التي تهجع الآن ، وتستثير عملاً جديداً ، وتعطي المعارضة فرصتها . كان تروتسكي يوجه للذين يقاتلون لأجل اممية رابعة هذا التحذير : لا يكفي مجموعة من المنشقين ان يرفعوا راية جديدة كي يصبحوا عاملاً له حسابه في السياسة ، فالحركات الثورية لا توجدها الرايات والشعارات ، بل تولد وتنمو عضوياً مع الطبقات الاجتماعية التي تجعل من نفسها المعبرة عنها . كل من الاميات كانت

تمثل طوراً محدداً تماماً في تجربة الطبقة العاملة وفي النضال من اجل الاشتراكية ، ولا يمكن أحداً ان يتجاهل ، من دون عقاب ، الروابط التي تشد الامميتين الثانيةوالثالثة الى الجماهير ووزن تقاليدها السياسية . أضف الى ذلك ان الاممية الثالثة ابنة الثورة الروسية ، والشغيلة الواعون سياسياً يشملونها بالتضامن الذي يعبرون عنه تجاه الثورة . وقد اعلن تروتسكي أنه كان من حقهم أن يفعلوا ذلك مع انه كان عليهم ان يمنعوا الستالينية من استغلال اخلاصهم . ينجم عن ذلك انه طالما بقي الاتحاد السوفياتي دولة عمالية ، ينبغي عدم توقع رؤية الشغيلة يتخلون عن الاممية الثالثة ، ولا ينبغي دفعهم للقيام بذلك .

لقد كان تروتسكي جازماً كلياً ، بصدد هذه النقطة المحددة ، المتمثلة بأن الاتحاد السوفياتي لا يزال دولة عمالية رغم تشويهاته البيروقراطية . إن ما يحدد بنظره الطابع الاجتماعي للاتحاد السوفياتي هو الملكية القومية لوسائل الانتاج . وطالما بقي هذا العنصر ، « المكسب الاهم الذي حققته ثورة اوكتوبر » ، دون مساس به ، فإن الاتحاد السوفياتي يمتلك الاسس الحقيقية في قاعدة تطوره الاشتراكي . لا شك ان على طبقته العاملة أن تؤكد نفسها بمواجهة البيروقراطية قبل أن تتمكن حتى من البدء بجعل الاشتراكية واقعاً . لكن ، مرة أخرى ، لا يسعها أن تفعل ذلك ، بصورة حقيقية ، إلا على قاعدة الملكية العامة لوسائل الانتاج . وبما ان وسائل الانتاج هذه بقيت محفوظة ، فالدولة العمالية لا تزال حية ، إن لم يكن بصورة راهنة فعلى الاقل بصورة كامنة .

هذا الرأي ، غالباً ما تعرض للنقد ، وبين من انتقدوه تلامذة تروتسكي الخاصون به ؛ لكنه لم يقبل يوماً بمساومة حول هذا الموضوع ، ولا بأن يتزحزح قيد شعرة عن موقفه بصدده ، حتى حين توصل لمراجعة افكاره الاخرى وتعديلها . هكذا ، خلال النصف الاول من حياته في المنفى دعا الى الاصلاح ، لا الى الثورة ، في الاتحاد السوفياتي ، بينما سيؤكد في النصف الثاني ان الثورة السياسية هي الرد الوحيد على الاستبداد البيروقراطي . لقد راجع كذلك مفهومه حول دور المعارضة وأعلن ولادة حزب شيوعي جديد واممية جديدة . لكن حتى آنذاك ، لم ينفك يؤكد ، بالحزم ذاته ، ان الاتحاد السوفياتي دولة عمالية ، ويعلن ان الدفاع غير المشروط عن الاتحاد السوفياتي في وجه كل اعدائه البورجوازيين هو واجب اولي على كل عضو من اعضاء المعارضة . ولقد جحد

مراراً اصدقاء وانصاراً كانوا ينفرون من القبول بهذا الالتزام(٦٢) .

كانت نتائج المحاولات الأولى التي قام بها تروتسكي لتنظيم أنصاره في الغرب مخيبة للآمال . لقد ركز اهتمامه على فرنسا ، حيث كان عدد انصاره اكثر تأثيراً مما في أي مكان آخر ، أملاً بتشكيل قاعدة قوية للمعارضة . اجتهد في أن يجمع عُصَباً وتجمعات تروتسكية او شبه تروتسكية مختلفة ، والتوحيد بين تلك العصب والتجمعات والزينوفييفيين بالاضافة الى الحلقة النقابية للثورة البروليتارية . وكان روسمر حذره منذ البدء بصدد جو الانقباض السياسي والاحباط الذي كان يسود في معظم تلك التجمعات . كانت خمس سنوات قد مرت منذ التوهج التروتسكي العابر في الحزب الفرنسي . خلال تلك الفترة ، كانت الكومنترن رتبت الامور لاعادة ارساء نفوذها فيه وطرد كل المنشقين والمعزولين من بين جمهور المناضلين . ولقد أشار روسمر الى أن الشعور بالعزلة وهزائم المعارضة في روسيا كانت قد شجعت العديد من المعادين للستالينية الذين كان يسود فيما بينهم جو الانهزامية الذي دفع بعضهم إلى التخلي عن المعركة وتمني « أنْ لم يكن لديهم ما يفعلونه مع المعارضة » . حتى اولئك الذين كانوا صامدين ضمن هكذا جو ، كان تفكيرهم مشوشاً وكانوا يتناحرون فيما بينهم . وقد واصل روسمر الكلام بصددهم قائلاً : « إن أسوأ ما كانت تعاني منه تلك المجموعات هو انها كانت تجد نفسها خارج اي شكل من اشكال العمل ، وهو ما يزيد حتماً من طابعها العصبوي(٦٣) » .

أصبحت صحة ملاحظات روسمر بديهية حين ضرب تروتسكي صفحاً بآرائه وحاول « إعادة كسب » سوڤارين والآخرين لجانب المعارضة . وكان سوڤارين لفت اليه الانظار سابقاً حين رفع في موسكو صوتاً متوحداً دفاعاً عن تروتسكي ، وقد توقع تروتسكي ، الذي كان يعلق اهمية كبرى على مقدرته الصحفية ، ان يراه وقد اصبح الناطق الفرنسي الاشد بلاغة بلسان المعارضة . ولقد فوجىء كثيراً حين ابدى سوڤارين تكلفاً وادعاءات غير محتملة ؛ طلب الى تروتسكي ألا يدلي بأي تصريح علني من دون اتفاق مسبق مع المعارضة الفرنسية ، أي معه

---

(٦٢) ز - ز ، الأعداد ٣ و ٤ و ٥ ، و الكتابات ، ج ١ ، ص ٢١٣ - ٢٧٤ . المناضل ، كانون الأول / دبسمبر ١٩٢٩ .

(٦٣) من روسمر الى تروتسكي في ١٦ نيسان / ابريل ١٩٢٩ .

هو بالذات . وأجاب تروتسكي المهتم بتجنب أي شكل من اشكال الشقاق ، بأنه قد لا يدلي بأي تصريح بصدد قضايا تتعلق بفرنسا ، وأنه لم يتكلم حتى ذلك الحين علانية إلا بصدد القضايا السوفياتية والصينية ، تلك القضايا التي يحق له ، مهما يكن ، ان يقول كلمته فيها من دون التماس موافقة فرنسية على ذلك . وكان رد سوفارين رسالة طويلة ، من مئة وثلاثين صفحة ، محشوة بالغرائب والنكات ، وبملاحظات وتحليلات حادة ، لكن كذلك بحجج بالغة التشوش والاضطراب ، كل ذلك بلهجة عداء مسموم جعلت القطيعة امراً لا مناص منه . فلقد أكد في رسالته تلك ان البلشفية أخفقت نهائياً خارج روسيا ، لأنها تتجاهل طابع العصر وتبخس قدر القوة التي تتمتع بها البورجوازية وتبالغ في تقدير الروح النضالية للشغيلة . اكثر من ذلك ، لقد اقترفت البلشفية ، في نظره ، الخطأ المشؤوم المتمثل بمحاولة تكوين الاحزاب الشيوعية الاجنبية على صورتها ومثالها . ومهما تكن ميزات هذه الطريقة في تصور الأمور ، فما ذلك هو ما كان ينتظر تروتسكي أن يطرحه شخص اشتهر بأنه من انصاره ، وما كان في وسعه ، هو بالذات ، ان يقبل بذلك . لم يكن موافقاً على أن البلشفية مسؤولة عن الاخطاء المشؤومة التي نسبها اليها سوفارين ؛ واذا كان يلوم أحداً على فشل الكومنترن ، فانما كان يلوم الستالينية لا اللينينية . أما المخيف اكثر فكان مأخذ سوفارين الآخر وهو مأخذ كانت له نكهة مماثلة للستالينية ، رغم عبارة « رأسمالية الدولة السوفياتية » ومفاده أن تروتسكي والمعارضة يمارسون تشدداً ثورياً ، لا حاجة اليه ، يمنعهم من ان يهتموا كما يجب بالضرورات المحسوسة للدولة السوفياتية . كانت كلمات سوفارين تقول بالحرف : « ليس هنالك ما هو اهم بالنسبة للحركة الاممية لشغيلة العالم اجمع من النجاح الاقتصادي للاتحاد السوفياتي ، الذي تشكل رأسمالية الدولة فيه تقدماً لا جدال فيه على الرأسمالية الامبريالية » . وتابع ساخراً من « البطولة غير المجدية التي تمنع تروتسكي وأتباعه من خدمة الدولة السوفياتية ، حتى اذا لم يكن لهم مكان داخل الحزب : « يمكن المرء ان ينفع الثورة دون ان يكون عضواً في المكتب السياسي ، أو في اللجنة المركزية ، أو حتى في الحزب » . وبغض النظر عن الطابع عديم اللياقة كلياً لهذه الملاحظات ، فقد كان يمكن أن تظهر كنصيحة متأخرة مقدمة لتروتسكي كي يخضع لستالين ، لأنه ما من شيء آخر غير الاستسلام ، أو ما يشابه ذلك ، كان يمكن أن يمنع تروتسكي من الاستمرار في خدمة الثورة ، دون أن يكون عضواً

في الحزب . ومع ذلك ، فإن سوفارين انقلب ، بالاندفاع ذاته ، وأثقل بالسخرية الفظة إخلاص تروتسكي للبلشفية واللينينية، حاثاً إياه على التحرر منهما والعودة الى ماركس[٦٤] .

أجاب تروتسكي : « لم اعد أرى ما يبقى من الروابط التي كانت تشدنا قبل سنوات » . ففي كل ما طرحه سوفارين ، لم يكن في وسعه أن يجد « استدلالاً واحداً مرتكزاً على المذهب الماركسي ، وعلى وقائع لها علاقة بالموضوع » .

« فقط ريشة الصحفي العبوس والمحبط تقودك وتوحي إليك بمفارقاتك . إنك تتعامل مع الحزب والاممية كما لو كانا جثتين . وخطأ المعارضة الروسية الأكبر يكمن ، بنظرك ، في جهدها المتواصل للتأثير على الحزب والعودة إلى صفوفه ، بينما ، من جهة أخرى تصف الاقتصاد السوفياتي برأسمالية الدولة وتطلب الى المعارضة ان تنحط الى دور خادمة لرأسمالية الدولة هذه . لقد تجاوزت المتراس ، لكن لتنتقل إلى المعسكر الآخر[٦٥] » .

وضع ذلك حداً للمراسلة بين تروتسكي وسوفارين وجعل من الاخير خصماً نهائياً لتروتسكي . ومع انه حاول عام **١٩٢٩** ان يعلِّم تروتسكي طريقة ان يكون نافعاً للثورة عبر وضع نفسه في خدمة رأسمالية دولة متقدمة ، فسوف ينـدد بتروتسكي في السنوات اللاحقة على أساس اقترافه الخطيئة المعاكسة ، المتمثلة باعتقاده بوجود تقدم ما في الاتحاد السوفياتي وبأن ما يبقى من ارث الثورة كافٍ لحفز الدفاع عنه .

ولقد اخفقت ايضاً محاولة تفاهم مع النقابيين في **الثورة البروليتارية** ، الذين كان اشهرهم مونات ولوزون . كان سبق ان مارس تروتسكي خلال الحرب الأولى تأثيراً كبيراً عليهم ، متغلباً على رأيهم المسبّق المميز لهم الذي كان يضعهم بمواجهة كل شكل من اشكال السياسة ، بما فيها سياسة الماركسية الثورية . فيما بعد ، انضموا الى الحزب الشيوعي ، لكنهم طردوا منه اثناء الحملة المعادية للتروتسكية . كان تعلقهم الشخصي بتروتسكي لا يزال قوياً جداً ، لكن تجربتهم

---

(٦٤) تروتسكي ، المراسلة مع سوڤارين . المحفوظات ، القسم المقفل .

(٦٥) المرجع ذاته .

مع الكومنترن قوّت قرفهم القديم من السياسة وعززت ايمانهم بأن النشاط النضالي للنقابة ، الذي يبلغ ذروته في الاضراب العام ، يشكل الطريق الملكية نحو الثورة الاشتراكية . ولقد بذل تروتسكي ما وسعه من جهد فلم ينجح في استعادتهم الى المفهوم اللينيني حول الاهمية القصوى للحزب الثوري ، ولا في استثارة حركة انضمام لديهم الى نضاله من أجل إصلاح الكومنترن .

كما ان الأمور لم تسر بصورة أفضل اثناء محاولته التوسط بين انصاره والزينوفييفيين . كان هؤلاء الاخيرون شيعة صغيرة ، لكن كان لهم زعيمهم المشهور ، وهو ألبر ترين ، الذي قاد الحزب الشيوعي الفرنسي رسميا خلال عامي ١٩٢٤ و١٩٢٥ . ففي الفترة التي كان زينوفييف يقود فيها عملية بلشفة الحزب ، طرد ترين تروتسكيي الحزب غير موفر بحقهم اي تشنيع أو شتيمة . على هذا الاساس ظلوا حاقدين عليه حتى بعد طرده هو ذاته ، ورفضوا اي مباحثة بصدد هدنة معه . إلا ان تروتسكي دعاه الى برنكيبو في ايار/مايو ١٩٢٩ ، وحاول طيلة شهر كامل أن يصل الى مصالحة . بيد أن الاحقاد القديمة كانت بالغة القوة ، وترين الذي سعى لتبرير سلوكه عام ١٩٢٤ لم يفعل شيئاً لتهدئة خواطرهم . ولقد اضطر تروتسكي ، تحت ضغط انصاره ، للانفصال عن ترين ، لكن انفصالهما كان ودياً اكثر من الانفصال مع سوفارين ، وهما أبقيا على علاقات صداقة ، بعيدة لكن حقيقية .

لم يكد يسلمٍّ تروتسكي باخفاقه مع سوفارين والنقابيين وترين حتى كان عليه ان يهتم بالخلافات التي ظهرت بين التروتسكيين أنفسهم . وما كان يجدي كثيراً سردُ القصة لو لم تلعب دوراً في حياة تروتسكي وفي إخفاق التروتسكية النهائي كحركة . كان هنالك عدة مجموعات وزمر متخاصمة في باريس : من بينها حلقة موريس وماجدولين پاز ، التي كانت تنشر دورية صغيرة باسم **ضد التيار** ، وروسمر والتروتسكيون الشباب (مع صحيفتيهم الخاصتين بهم ، **صراع الطبقات** و**الحقيقة**) الذين كان بيير نافيل وريمون مولينييه يمثلان داخلهم مجموعتين متضادتين . ومن بين كل هؤلاء ، كان روسمر وحده وجهاً مشهوراً ذا اهمية مرموقة ، عضواً في النخبة الصغيرة من الامميين الثوريين الذين أثبتوا كفاءاتهم إبان الحرب العالمية الأولى . كان نافيل كاتباً شاباً ، ساهم في تمرد السورياليين الادبي ، ثم انضم الى الحزب الشيوعي وحصل على بعض الشهرة كناقد ماركسي

للسوريالية . كان قد تعاطف مع نضال تروتسكي في موسكو عام ١٩٢٧ ، وطرد بسبب ذلك من الحزب . كان يمتلك تكويناً نظرياً ماركسياً ، لكن تجربته السياسية كانت ضعيفة ولم يكن لديه عملياً اية صلة بالحركة العمالية . أما مولينيه فكان على العكس نشاطياً جسوراً ومليئاً بالحيوية والطاقة ، سهل الحركة لكن غير موسوس في اختيار الأهداف والوسائل ، وغير متبلور فكرياً . هذان النموذجان المتناقضان من المثقفين والنشاطيين شكلا في الغالب تشاركاً صلباً في العمل حين كان يدفع بهما الانطلاق في النشاط العملي اليومي ضمن منظمة واسعة . لكن تضادهما كان يفجر في العادة المجموعات الصغيرة المقطوعة عن التيار الرئيسي للحركة والباقية خارج أي عمل .

حين قدم موريس وماجدولين پاز الى برنكيبو في اوائل ربيع عام ١٩٢٩ ، حثهما تروتسكي على توحيد حلقتهما مع المجموعات الاخرى بغية تحويل ضد التيار إلى اسبوعية هجومية كبرى تتكلم باسم المعارضة ، وإطلاق حملة مؤثرة لاستقطاب الأنصار . وضع معهما خطة تلك الحملة ووعد بتعاون وثيق من جانبه . وقد وافقا على اقتراحاته ، لكن ليس من دون تحفظات عديدة . وحين عادا الى باريس، اعادا النظر في ذلك ثم رفضا اطلاق الاسبوعية الكبرى . قالا إنه ليس للمعارضة اي حظ في إنجاح حركة على المستوى الذي تصوره تروتسكي . وفوق كل ذلك ، اعترضا على « محاولته فرض قيادة روسمر » ، وكانا يتكلمان على التروتسكيين الشباب ، الذين كانوا يتمرنون على خوض المعارك ، بعبارات مقذعة ومنفرة ، واصفينهم بأنهم كدسة من الحمقى والعنيدين . وما كان سلوك آخر معد اكثر لاقناع تروتسكي بأن الزوجين پاز لا ينطويان على شيء من صفات الثوريين المحترفين الذين كان يسعى لجمعهم . لم يكونا ، في الحقيقة ، غير اثنين من بلاشفة الصالونات الناجحين في مهنتهم البورجوازية (كان موريس ، على الاقل ، محامياً لامعاً) والمنتمين الى التروتسكية على أساس التسلية وتضييع الوقت . في حين كان تروتسكي في ألما ـ آتا كان يسعدهما ان يلعبا دور ممثلين له في باريس ، وان يجعلا مجده ينعكس عليهما ، لكن حين خرج من روسيا ووضعهما أمام شروطه لم يبديا اية رغبة في الالتزام بجدية . تلت ذلك مراسلة مربكة . فلقد أشعرهما تروتسكي بأنه يعتبرهما في صميمه محافظين ومزيفين . كتب يقول لهما انه يمكن الثوريين إما ان يكونوا اناساً مثقفين أو اناساً جهلة ، إما اذكياء أو حمقى ، لكن لا يمكن ان يكون هناك ثوري ليست لديه الإرادة التي تحطم

العوائق ، وليس عنده الاخلاص وروح التضحية[٦٦] .

ولم تكن الطريقة التي أجاب بها الزوجان پاز أقل جَرْحاً من انتقادات تروتسكي حيالهما . أصرا على قوة الشيوعية الرسمية وجاذبيتها وعلى ضعف المعارضة ، مستعينين بتلك المفارقة ، التي لا شك انها كانت حقيقية كتبرير لفتورهما . وقد أوضحا انهما لن يطلقا الأسبوعية ضد التيّار ، لأن على جريدة المعارضة ، إذا لم تكن تنوي بلوغ الفشل ، الاستفادة من شيء مختلف تماماً عن النثر اللامع للرفيق تروتسكي وعن اسمه القتالي ؛ عليها ان تكون ذات قاعدة مادية وادبية وان تكون قادرة على العيش بجانب قرائها وأنصارها النشيطين . إن الصحيفة ربما تفتقر لتلك القاعدة ، لأن الشيوعيين القدامى الذين عنى لهم اسم تروتسكي الشيء الكثير سابقاً ، سقطوا في البلادة والفتور ، ولأن الشباب جهلة ولا يمكن النقاش معهم . «لا تكنْ لديك اوهام حول وزن اسمك . فخلال خمس سنوات ، افترت عليه الصحافة الشيوعية الرسمية لدرجة انه لم يبق لدى الجماهير الواسعة غير ذكرى غامضة جداً عنك بصفتك قائد الجيش الاحمر . . »
كان ثمة بون شاسع حقاً يفصل الآن عن الاجلال الذي عبر عنه الزوجان پاز قبل اشهر ، حين توجها الى تروتسكي بالعبارات التالية : «صديقنا العظيم العزيز . . .» ، لأنهما توصلا للتلميح الى أنه تحركه الأنانية والغرور . أما ان يكون انصاره معزولين ، وان يكون الدعاويون الستالينيون شنّعوا اسمه لدى جمهور المناضلين الشيوعيين ، أو سعوا لدفنه في النسيان ، فلقد كان تروتسكي يعرف كل ذلك ويعيه جيداً . لكنه كان يرى ان هذا سبب اضافي لكي يبادر انصاره الى هجوم معاكس ينطوي على وسائل عمل بالغة الفعالية ، ذلك الهجوم الذي لا شيء غيره جدير بنفض البلادة داخل الصفوف الشيوعية . وقد استخلص انه لا يمكن فعل اي شيء مع آل پاز ، مع أن تلك القطيعة التي تلت القطيعة مع سوڤارين ، ازعجته بالقدر ذاته ، إذ كان يأخذ بالاعتبار الخدمات التي أدياها له واهتمامهما به في فترة نفيه الى الخارج .

أما ما حدث بعد ذلك مباشرة فكان أمراً مثيراً للرثاء ، لأن تروتسكي اضطر في هذه المرة الى الانشغال بالعداوات التي كانت تمزق سائر انصاره ، اي روسمر

---

(٦٦) المراسلة بين تروتسكي وآل پاز ، المحفوظات ، القسم المقفل .

ومجموعتي ناڤيل ومولينييه . كان مولينييه وصل الى پرنكيپو مفعماً بـالتفاؤ ل ، ممتلىء الرأس بالخطط لتحويل التروتسكية الى قوة سياسية كبرى . كان مقتنعاً بأن للمعارضة حظوظاً باهرة في فرنسا ، لأن الحزب الرسمي كان يتأكله الشقاق وما كان في وسعه البقاء خارج تأثير دعوة المعارضة . كل ما كانت المعارضة بحاجة إليه هو العمل المقرون بثقة كبرى بالذات ، والقيام بمبادرات جريئة . كـانت مخططاته تقضي بإدخال التروتسكيين الى الحزب ، من اجل لقاءات جماهيرية وصحف تـطبع منهـا اعداد ضخمـة من النسخ ، الـخ . . . وكان وضـع تلك المخططات موضع التنفيذ يتطلب قدراً من المال اكبر بكثير من ذلك الذي في وسع المعارضة ان تحصل عليه من اعضائها ، لذا كانت لديه ايـضاً خطط مالية ، غامضة بعض الشيء ، لكنها ليست غير معقولة بشكـل مطلق . كـان مستعداً للانخراط في شتى انواع المغامرات التجارية ، وكان يضع سلفاً كشف حساب بالأرباح التي يتوقعها(٦٧) .

أما روسمر ونـاڤيل فكـانا ينـظران الى الاحتمالات نظرة فيها حـذر اكبر ، مستخفين بإمكانات العمل الجماهيرية التي كان مولينييه يرفع رايتها ، وكانا من جهتهما يميلان بالاحرى للاكتفاء ببدايات اكثر تواضعاً ، أي بتوضيح تدريجي ومنتظم لأفكار المعارضة وبدعاوة بين عناصر اليسار الاكثر نضجاً من وجهة النظر السياسية . كانا يخشيان ان تفقد مشاريع مولينييه المعارضة حظوتها وكانا يَحْذرانه ويحترسان منه . اعلن روسمر : « هذا ليس مناضلاً شيوعياً ، انه رجل اعمال ، وهو أمّي » . كانت تروى في باريس قصص كريهة بصدد مولينييه . احداها مفادها أنه فر من الجيش ، وحين مثل امام المحكمة العرفية دافع عن نفسه بطريقة لا تليق بشيوعي ، إذ صوّر نفسه بصورة معارض الخدمة العسكرية لأسباب دينية . وكانت الاشاعات والأقاويل تتنامى بصدد الطابع المشبوه لأعماله التجارية ، لكن كان من الصعب ربط كل ذلك بوقائع محددة بوضوح .

وفي حين كان تروتسكي يعترف ببعض نواحي القصور والمحدودية لدى مولينييه ، إلا أنه كان يثق به ضمناً . إن قريحة الرجل ، وموهبة الابداع لديه ، وشجاعته ، كانت تأسره ، لأن تلك هي الصفات التي كان يعلق عليها عموماً اكبر

(٦٧) كانت عائلة مولينييه تدير مصرفاً صغيراً في باريس ، جادة الجمهورية .

الاهمية لدى انصاره . كان في طبيعة مولينييه شيء من المغامر ، لكن كان هنالك حماس ثوري حقيقي ايضاً ، وعداء للامتثالية حقيقي . ذلك العداء للامتثالية هو ما كان يعتقد تروتسكي أنه السبب وراء استياء الجهلة المحافظين من مولينييه وافترائهم عليه ؛ وقد كان تروتسكي ، من جهته ، يعلم تماماً ان ما من حركة ثورية قادرة على الاستغناء عن أناس من نوع مولينييه يعوّض من بعض القصور الفكري لديهم ميلهم الى المغامرة وتذوقهم للمخاطر . فكم من المرار اضطر للجوء الى اناس من هذا النوع إبان سنوات الثورة والحرب الاهلية ! فمع كل يوم جديد ، كانت تزيد محبة تروتسكي لمولينييه بسبب الحميّة التي كان يضطلع فيها بكل نوع من المهام المحدودة ، لكن المهمة مع ذلك بالنسبة اليه ، مساعداً اياه في تنظيم بيته ببرنكيبو وفي تجهيز السكريتارية ، والاهتمام بمصالحه لدى ناشري باريس الخ . . . وفي الحقيقة انه اصبح نوعاً من القيِّم ، الذي لا غنى عنه ، على منزل تروتسكي ، هو وعائلته ايضاً . فامرأته جان واخوه هنري ، الذي كان مهندساً متواضعاً لا اهتمامات سياسية لديه ، اخلصا لتروتسكي ، هما ايضاً ، بالطاقةوالحماس ذاتيهما اللذين كان يبديهما مولينييه ، واللذين كانا يروقان لتروتسكي كثيراً . كان الثلاثة يقطعون طريق باريس ـ برنكيبو جيئة وذهاباً ، ويمضون الكثير من الوقت في بويوك ـ آدا ، وقد غدت علاقاتهم بعائلة تروتسكي وثيقة ومطبوعة بمودة حارة . كان تروتسكي يبدو مهتماً بأن يبدد ، مع اقصى درجة من المراعاة ، شكوك روسمر وشبهاته ، وذلك لا سيما أنه إذا كان يعلق اهمية كبيرة على احكام روسمر وتجرده ، فقد كان يعتبر انه غير معد جيداً للتفاصيل التنظيمية ويمكن ان يتعرض بسهولة للاحباط بنتيجة الانفعال البائس الناجم عن العمل التكتلي الذي يقوم به مولينييه كما لو كان يلعب . أما بصدد اعتراضات ناڤيل على مولينييه فقد أبدى تروتسكي صبراً أقل : وبخ ناڤيل على تعاليه الثقافي ، وعلى مفاهيمه المختزلة ، وفتوره السياسي ونفوره من مواجهة العمل الجماهيري . إلا انه تصرف بحيث يجري نسيان الخصومات مؤقتاً . وقد قبل روسمر ومولينييه وناڤيل تسوية للنزاع واتفقوا على استبعاد المشاعر السلبية الشخصية والعمل معاً ، وعادوا الى باريس وفي نيتهم بناء تنظيم للمعارضة لا يكون قومياً وحسب ، بل كذلك أممياً(٦٨) .

---

(٦٨) هذه العلاقة مستندة الى المراسلة المتبادلة بين تروتسكي ومولينييه وناڤيل وفيكتور سرج وليون سيدوف وآخرين =

كان تروتسكي مفعماً بالأمل . لا شك ان القاعدة المتكونة في فرنسا ستكون اضيق من المتوقع ، لكن ربما كانت كافية كنواةٍ لمنظمة أوسع . جرى لفت النظر ايضا الى انه سبق ان انطرح في تلك النقطة المحددة مأزق ما . هل على المعارضة ان تستهدف العمل الجماهيري وأن تتقدم بتحريضها وشعاراتها المميزة لها ، او ان عليها حصر نفسها في نموذج العمل الذي كانت تولته في الماضي ، بصورة بطيئة لكن مثمرة ، بواسطة حلقات صغيرة للدعاوة الماركسية ، تطرح نظريتها بصبر وتتعامل بأفكار اكثر مما بشعارات ؟ لكن لم يكن المأزق مصاغاً بتلك الحدة وذلك الوضوح ، لذا بقي معلقاً . إن واقع أن المعارضة لم تكن تتطلع إلى تأسيس حزب سياسي جديد ، وظلت تكتلاً يصر على اصلاح الحزب القديم ، كان يدعو الى تركيز الجهود على الوجه النظري للدعاوة الايديولوجية . والحالة هذه فإن تروتسكي ، المفكر ، كان يميل بلا شك الى هذا الشكل من النشاط . لكن من جهة اخرى ، فإن رجل العمل في شخصه ، المفوض الكبير وقائد المعارضة ، كان يجد صعوبة على الدوام في ضبط فقدانه للصبر ، ويتطلع الى حركة جماهيرية واسعة ومندفعة .

في صيف ١٩٢٩ ، قام روسمر برحلة الى المانيا وبلجيكا لتقصي اوضاع مجموعات المعارضة هناك وضمها الى الحركة . أقام صلات بالايطاليين ، والهولنديين ، والاميركيين وتروتسكيين آخرين . وقد قدم الى تروتسكي تقارير مفصلة ، أعلمه فيها باكتشافاته ، التي لم تكن مشجعة ، بالاجمال ، إطلاقاً . إن التكاسل والنزاعات العصبوية والخصومات الشخصية ، التي كانت أضعفت المعارضة في فرنسا إضعافاً شديداً ، أساءت إليه إساءة كبرى أيضاً وأزعجته إزعاجاً كبيراً . كان تروتسكي يرى ان ما من بلد أهم من المانيا ، الحلبة الرئيسية لصراع الطبقات في اوروبا ، حيث الحزب الشيوعي المستند الى عدة ملايين من الناخبين كان أقوى منه في أي مكان آخر في الغرب . أشار روسمر إلى أنه وجد في برلين عدة مجموعات تعترف كلها بسلطة تروتسكي ، لكن قوتها كانت تذوب فوق لهيب العداوات المتبادلة . كانت المجموعة التي تحمل اسم ويدينغ تضم التروتسكيين بحصر المعنى ، لكن الـ **Lenin-bund** كان اقوى نفوذاً واكبر تأثيراً . كانت تصدر له الـ **Fahne des Kommunismus** وكان هو بقيادة هوغو أوبراهنز . كان

أيضاً ، والمراسلة المذكورة تغطي مجمل السنوات ما بين عامي ١٩٣٠ و ١٩٤٠ . أنظر المحفوظات ، القسم المقفل .

ثمة أيضاً بدع صغيرة اخرى يسارية متطرفة ، من مثل الكورشيين ، الذين كانوا يحملون هذه التسمية نسبة الى كارل كورش ، وهو منظرٌ كان في عام ١٩٢٣ وزيراً في حكومة تورينج الاشتراكية ـ الشيوعية . وقد كان الزينوڤييڤيان ماسلوف وفيشر أقوى بكثير . ومن قبيل المفارقة والغرابة أنهما تبنيا ، بعد استسلام ملهمهما امام ستالين ، موقفاً متطرفاً في العداء للستالينية ، مشابهاً موقف الباقين على قيد الحياة من المعارضة العمالية في الاتحاد السوفياتي . وفي هجماتهما على الشيوعية الرسمية كانا يذهبان أبعد بكثير مما كان تروتسكي مستعداً أن يفعل . كانا يعلنان أن الثورة الروسية لم تعد قادرة على المضي أبعد مما وصلت إليه ، وان الاتحاد السوفياتي دخل مرحلة ثورة مضادة . وانه لم يبق شيء من ديكتاتورية البروليتاريا ، وان البيروقراطية الحاكمة هي طبقة جديدة قمعية واستغلالية تستند الى رأسمالية الدولة الخاصة باقتصاد مؤمم ، وباختصار ، ان الترميدور الروسي قد انتصر . وأضافا انه اصبح من الصعب حتى تمييز سياسة ستالين الخارجية عن سياسة الامبريالية القيصرية . وبالتالي ، فما من إصلاح يمكن أن يبعث حكم الطبقة العاملة حياً . فقط ثورة بروليتارية اخرى يمكن ان تنجح في انجاز ذلك . وكانا يعتبران كذلك ان من غير المجدي محاولة إصلاح الاممية الثالثة ، التي غدت في نظرهما أداة بين يدي الترميدوريين الروس المستغلين اسطورة اوكتوبر البطولية ، بهدف منع الشغيلة من مواجهة الحقائق ، ولقطر طاقاتهم الثورية بقفا الثورة المضادة . ومن البديهي ان اولئك الذين كانوا يرون هذا الرأي لم يكونوا يشعرون اطلاقاً بأنهم ملتزمون بأي نوع من التضامن حيال الاتحاد السوفياتي ، او بواجب الدفاع عنه . وكانوا يلفتون النظر الى ان واقعة نفي تروتسكي ذاتها تشكل شهادة لصالح الموقف المشار إليه . وكانوا يكتبون ما مفاده أن « طرد تروتسكي يشكل النقطة التي وقفت الثورة الروسية معها نهائياً » .

أما تروتسكي فتبرأ من ذلك الحماس المغالى به لدى المدافعين عنه . ففي مساجلات مع الـ Leninbund والثورة البروليتارية استعاد محاجته القديمة في وجه اولئك الذين اعتبروا الترميدور السوفياتي أمراً مكتملاً . مرة اخرى ، حدد الترميدور كثورة مضادة بورجوازية ، مبيناً ان هذه الاخيرة لا يمكن ان تتم من دون حرب أهلية . أشار ألى أن الاتحاد السوفياتي لم يمر بطور آخر من الحرب الاهلية ، وإلى أن النظام المقام عام ١٩١٧ احتفظ ، رغم انحطاطه ، باستمرارية كانت تعبر عن نفسها ببنيته الاجتماعية المرتكزة على الملكية العامة لوسائل الانتاج

وعلى الممارسة غير المنقطعة للسلطة عن طريق الحزب البلشفي . كتب يقول : « إن الثورة الروسية في القرن العشرين هي ، بلا شك ، أوسع امتداداً من الثورة الفرنسية في القرن الثامن عشر واعمق منها . إن الطبقة الاجتماعية ، التي استندت إليها ثورة اوكتوبر ، اكبر عدداً ، بما لا يقاس ، واكثر تجانساً وتراصاً وحزماً مما كان عاميّو مدن فرنسا . إن القيادة التي توفرت لثورة اوكتوبر كانت ، على مستوى اتجاهاتها جمعاء ، اكثر خبرة ونفاذاً ، بما لا يقاس ، مما كانت المجموعات القيادية للثورة الفرنسية ، أو مما كان يمكن أن تكون . واخيراً إن التبدلات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية التي تسببت بها الديكتاتورية البلشفية هي ، بلا جدال ، اعمق من تلك التي بادر اليها اليعقوبيون . وإذا كان مستحيلاً انتزاع السلطة من ايدي العاميين الفرنسيين . . . من دون حرب اهلية (كان الترميدور حرباً أهلية هزم فيها اللامتسرولون Les Sans- Culottes) ، فكيف يمكن التفكير او الاعتقاد بأنه كان من الممكن ان تنتقل السلطة من ايدي البروليتاريا الروسية إلى ايدي البورجوازية ، بصورة سلمية عن طريق تغيير بيروقراطي يتم من دون اصطدامات وبشكل غير ملحوظ تقريباً ؟ إن هكذا تصوراً للترميدور ليس غير نزعة إصلاحية بالمعكوس » . واضاف: « إن وسائل الانتاج التي كانت في السابق ملكاً للرأسماليين ، تبقى الى اليوم بين يدي الدولة السوفياتية ، والارض تأممت ، والعناصر الاجتماعية التي تعيش من استغلال العمل يحال بينها وبين الدخول الى السوفييتات والجيش » . من المؤكد انه لم يكن هنالك ادنى شك بصدد واقع الخطر الترميدوري ، لكن الصراع كان متواصلاً ، وكما ان انعطاف ستالين يساراً ، والهجوم ضد النيبمان والكولاك لم يزيلا الخطر الترميدوري ، فإن نفي تروتسكي لم ينجح في أن يمحو ذكرى ثورة اوكتوبر . كان ينبغي الاحتفاظ بحس التناسب في تقويم الوقائع وفي اطلاق النظريات . لقد كان مفهوم رأسمالية دولة في الاتحاد السوفياتي عارياً من الصحة تماماً ، لأنه لم يعد هنالك رأسماليون ، واذا كان المتكلمون عليه ذاتهم ينددون بملكية الدولة للصناعة ، فلقد كانوا يتراجعون بذلك عن شرط أول جوهري للاشتراكية . كما ان البيروقراطية لم تكن طبقة استغلالية جديدة ، بالمعنى الماركسي للكلمة ، بل زائدة مرضيَّة على جسم الطبقة العاملة ، لأنه ما كان في وسع طبقة استغلالية جديدة أن تنشأ بمجرد ممارسة وظائف ديكتاتورية ، من دون امتلاك وسائل الانتاج[٦٩] .

---

(٦٩) الكتابات ، استشهاد مذكور ؛ B.O. ، استشهاد مذكور .

غدت الأمور المترتبة على نزاع من هذا النوع جليّة حين انفجر فجأة، في صيف ١٩٢٩، صراع بين الاتحاد السوفياتي والصين بصدد مسألة ملكية سكة حديد منشوريا. فلقد طالبت الصين بسكة الحديد التي كانت بين يدي الحكومة السوفياتية بوصفها صاحبة امتيازها. انطرحت عندئذ مسألة معرفة في أي جهة على المعارضة أن تقف. كان النقابيون الفرنسيون، واللينينبوند، وعدد من التروتسكيين البلجيكيين يعتقدون ان على الحكومة السوفياتية أن تتخلى عن سكة الحديد (التي انشأتها روسيا خلال التوسع القيصري في منشوريا)، وكانوا يرون في رفض ستالين القيام بذلك برهاناً على طابع سياسته الامبريالي. ولقد كانت مفاجأتهم كبيرة حين اعلن تروتسكي ان ستالين على حق في الاحتفاظ بسكة الحديد، وان من واجب المعارضة الوقوف بجانب الاتحاد السوفياتي ضد الصين[٧٠]. وسوف تكون تلك هي المساجلة الكبرى الاولى بين تروتسكي وأنصاره، خلال سنوات نفيه وسوف نراه يخوض من جديد، خلال السنة الاخيرة من حياته، مساجلة مماثلة (هي الاخيرة تاريخياً مع انصاره)، بصدد الحرب الروسية ـ الفنلندية عام ١٩٤٠، مساجلة تتناول من جديد مسألة موقف المعارضة حيال الاتحاد السوفياتي. وفي ذلك النزاع، تبنى تقريباً وجهة النظر ذاتها التي تبناها عام ١٩٢٩.

صرح انه لا يرى اي مبرر للدولة العمالية كي تتخلى عن مواقع اقتصادية واستراتيجية حيوية لصالح تشانغ كاي تشك وحكومته، اللذين سبق ان اعترفا بالامتياز السوفياتي في منشوريا. انتقد بصراحة طريقة ستالين في معالجة الشؤون الصينية، وعدم ايلائه اهتماماً لحساسيتها، وفشله في توجيه النداء الى شعب منشوريا بالذات. كان يعتقد أن سياسة اكثر تبصراً وعقلانية كان في وسعها ان تسمح بتحاشي النزاع، لكن طالما نشب ذلك النزاع، فليس امام الشيوعيين من خيار آخر غير دعم الاتحاد السوفياتي. فإذا تخلى ستالين عن سكة الحديد للكيومنتانغ، فهو لا يتخلى عنها للشعب الصيني، بل لمضطهديه. لم يكن تشانغ كاي تشك حراً في تحركاته، فإذا انتزع حق الاشراف على سكة الحديد فسيكون عاجزاً عن الاحتفاظ به، وسيفقده عاجلاً او آجلا لصالح اليابان (او انه سيسمح

(٧٠) إن دور تروتسكي، عام ١٩٢٦، كرئيس للجنة الصينية في المكتب السياسي، مكلفة، interalia، بضمان امتداد النفوذ السوفياتي في منشوريا، مذكور في النبي الأعزل.

لـرأس المال الاميـركي بمد نفـوذه الى الاقتصاد المنشـوري) . فقط الاتحاد السوفياتي كان قوياً كفاية لمنع اليابانيين من وضع يدهم على ذلك الموقع في منشوريا . كان تروتسكي يـرى ان الحقوق القـومية للصين ، التي يتـذرع بها الناقدون ، لا ادنى علاقة لها بتلك الحالة المحددة التي اعتبرها حالةعارضة في صـراع معقد ومتعـدد الجوانب بين شتى قـوى الامبريـالية العـالميـة والاتحـاد السوفياتي . وخلص الى القول ان وقت العدالة التاريخيـة ، بالنسبـة للاتحـاد السوفياتي ، واستعادة الصين ذلك الموقع المنشوري المتقدم سوف يأزف حين تقوم حكومة ثورية في بكين ، وهذه النبوءة سوف تتحقق بعـد انتصار الثـورة الصينية . في غضون ذلك ، كانت الحكومة السوفياتيـة مضطرة للعمـل بصفة المؤتمن على الصين الثورية ، وللاحتفاظ لها بممتلكاتها المنشورية(٧١) .

ومن السهل تخيل الهلع الذي أثاره تروتسكي لدى متحمسي المعارضة . لقد أربكهم « انعدام الاتساق » في مواقفه ، وكانوا يعتقدون أنه يفوّت فـرصة ممتازة لتوجيه ضربة لستالين . لكن تروتسكي لم يكن يسعى لتسجيل نقاط ضد خصومه ؛ وكان سلوكه متفقاً تماماً مع ما يقوله بصدد الاتحاد السوفياتي كدولة عمالية . فحيال تلك الدولة ، كان يشعر ، في وضعه كمنفي ، بالمسؤولية نفسها التي سبق ان شعر بها بوصفه عضواً في المكتب السياسي او في حكومة لينين . كان يرى ان تلك التعبيرات عن السخط الفريسي بشأن السياسة السوفياتية ، التي كان يستسلم اليها بعض تلامذته ، تدل عى تشبث عنيد بآراء خاطئة ، وعلى موقف رخيص . وقد أبلغ هؤلاء بحزم أنه لا شيء يجمعه بالتروتسكيين الذين يرفضون الاخلاص الذي لا يتزعزع ، وإن النقدي ، للدولة العمالية .

إن الصرامة التي كان يتمسك معها بمبادئه ، رافضاً تليينها باضافة شيء من

---

(٧١) عام ١٩٣٥ ، أقدم ستالين ، الذي كان شديد الاهتمام بمواجهة احتمال هجوم ياباني على الاتحاد السوفياتي ، بسبب خطر الحرب الوشيكة ، على بيع سكة الحديد لحكومة مانشوكوو العميلة . وعام ١٩٤٥ ، استعاد الاتحاد السوفياتي الاشراف على سكة الحديد ، لكن ستالين لم يتخل قبل عام ١٩٥٢ ، وبعد بعض التردد ، عن السكة لحكومة ماوتسي تونغ . كان ذلك أحد أعمال ستالين السياسية المهمة الأخيرة ، فحتى ذلك الحين كان قد تواصل النفاذ الاقتصادي الى الصين تحت قيادته ، ولقد كان التنازل الذي تم عام ١٩٥٢ يشبه الاعلان عن تخلي خلفائه نهائياً عن المجرى الذي سلكته السياسة الروسية من قبل . وبخصـوص هذه النقـطة ، كما بخصوص نقاط أخرى ، كان ستالين وخلفاؤه المنفذين الخجولين ، على مضض ، لسياسة كان تروسكي سبق أن حددها قبل ذلك بربع قرن .

الديماغوجية اليها ، كانت تشكل إهانة للكثير من اولئك الذين اعجبوا به سابقاً ، أو كانوا ميالين للاعجاب به . وفي الواقع ان الحركة التي كان يلهمها كانت محشورة ، من جهة ، بين توسوسه الصارم بما يخص الافكار ، ومن جهة اخرى ، الفظاظة الفاقعة للاضطهاد الستاليني . ذلك الاضطهاد كان يبقي أنصاره على مسافة ، لا يمكن اجتيازها ، من الناس الوحيدين الذين كان يمكن ان تترك تلك الافكار صدى في نفوسهم ، اي الجمهور الشيوعي العريض في اوروبا . كان تدقيقه المرهف في اختيار أسلحة المناقشة يبعده عن جمهور معاد للستالينية لا يزال متشذراً لكنه متنام مع ذلك ، مؤلف من اعضاء سابقين في الحزب ، كانت لديهم رغبة كبرى في مواجهة الستالينيين ورد الصاع لهم صاعين ، ومجابهة المكر بالمكر والسم بالسم . لم يكن مزاج هذا الجمهور يسمح بالموافقة على الأوامر التي كانت تصدر عن تروتسكي وتقضي بنكران الذات .

لذا بعد عام أو عامين من النقاشات وكسب الاعضاء ، كان عدد الذين تبعوه في طريقه المشكوك بالعوائق بالغ الصغر . من هنا وهناك ، كانت مجموعات جديدة تصطف الى جانبه ؛ فعلى سبيل المثال ، عضو آخر في المكتب السياسي الايطالي ، أو في اللجنة المركزية للحزب البلجيكي ، أو مجموعة صغيرة من التشيكيين، أو حتى من النشاطيين البريطانيين ، كانوا يهتدون ، وينضمون للمعارضة مفعمين بالأمل . لكن انضمامهم لم يكن يتوصل الى تغيير أي شيء في وضع المعارضة . ذلك أنه حتى إذا كان بعض القادمين الجدد ظلوا مؤثرين للغاية داخل الحزب ، حتى تاريخ قريب ، وكانوا يقيمون صلات عديدة مع الطبقة العاملة ، صلات تولوا تنميتها طوال أعوام ، إلا أنهم كانوا يفقدون كل تأثير وكل اتصال ما أن يطردهم الحزب ، ويلاحقون بكل الافتراءات الممكنة والمتصورة ، ويطاردون كما لو كانوا مصابين بالبرص . كانوا يواجهون سلطة موسكو ، وهيبة حزبهم الخاص بهم ، والانضباط الصارم للطليعة البروليتارية ، وجهازاً كاملاً من الزمر الغفيرة ، وكتائب من الدعاويين والمحرضين الذين كان بعضهم لا يَفْضُل اوغاداً وقطاع طرق ، لا بل الذين كان يتحول معظمهم ، بفعل إخلاص محموم وأعمى لقضيتهم ، الى قَتَلةٍ معنويين لرفاقهم بالأمس . كان المهتدون الجدد إلى التروتسكية يبدأون عملهم ، مصممين بحزم على أن يوقظوا من الخدر الحزب الذي احبوه ، وعلى أن يجعلوه يرى النور الذي أبصروه بشغف فيما كانوا يدرسون كتابات تروتسكي . لكن سرعان ما كانوا يجدون أنفسهم مسجونين داخل حلقات

صغيرة محكمة الاقفال حيث كان عليهم أن يعتادوا الحياة ، كمصابين بالبرص نبلاء في صحراء سياسية . أصاب الإحباط الشُلل العاجزة عن الانخراط في حركة جماهيرية . فمهما يكن ذكاء تلك الشلل وقوّتها ، سوف تجد نفسها ، إذا لم تقع على أي نقطة ارتكاز عملية ، وهي تستنفد قواها حتماً في مشاحنات مدرسية وعداوات شخصية كثيرة لا بد ان تقود الى انشقاقات لا تحصى وتبادل للعنات والحُرْم . ولا شك ان تقدم اي من الحركات الثورية مر دائماً بمشاحنات عصبوية من هذا النوع ، لكن ما يميز الحركة الحية عن البدعة المتحجرة ، هو ان تلك الحركة تنتهي دائماً ، على عكس هذه الاخيرة ، الى الانتقال بالشكل الملائم من التنازع والشقاق الى العمل السياسي الحقيقي بين الجماهير .

لم يكن ينقص المجموعات التروتسكية أناس تتوفر لديهم الافكار والتجرد والحماس ؛ لكنها كانت عاجزة عن كسر الإبعاد الذي كانت تفرضه الستالينية عليها ، ولقد استحال عليها ، خلال وجودها بالغ الهزال ، ان تتخلص من خلافاتها الداخلية . هكذا ، بعد قليل من المصالحة التي اجراها تروتسكي بين أنصاره الفرنسيين ، عاد هؤلاء فاختلفوا من جديد . جدد روسمر وناڤيل إبداء مآخذهم على مولينييه ، متهمين إياه باللامسؤولية والمبالغة في الجسارة ، في حين كان يأخذ عليهما قلة الايمان وإعاقة كل شكل من خطط العمل . كانت لهذه المنظمة الهزيلة ، التي تحاول ان تظهر بمظهر جسم اكبر بكثير ، هيئتها التنفيذية القوميةولجنتها الباريسية . وكان روسمر ونافيل يتمتعان بالاكثرية في الهيئة الأولى ، وقد اقترحا طرد مولينييه بحجة ان عملياته المالية تهدد المعارضة بفقد حظوتها . لكن كان مولينييه يحظى بدعم اللجنة الباريسية و . . . تروتسكي . وقد توسل روسمر الى تروتسكي ان يوفر على اللجنة التنفيذية ذلك الارباك والحرج ويتوقف عن حماية مولينييه[٧٢] . لكن تعلق تروتسكي بمولينييه كان يقارب الشغف آنذاك ، وقد غدت علاقاته بروسمر متوترة بشكل خاص ، ومراسلتهما جافة بعض الشيء . ولقد أصابت تلك الخصومة ايضاً الجهازين الاممين الصوريين اللذين جهزت المعارضة نفسها بهما : المكتب الأممي والسكريتاريا الأممية ، اللذين كانت

---

(٧٢) راجعْ المراسلة بين تروتسكي وروسمر في شهري حزيران / تموز ١٩٣٠ ، وكذلك رسائل تروتسكي الى ماكس شاختمان ، في ١٨ آب ١٩٣٠ ، والى مولينييه في كانون الثاني / شباط ١٩٣١ ، والى فدرالية شارلروا بتاريخ ٢٨ حزيران ١٩٣١ . المحفوظات ، القسم المقفل .

تفصل بينهما ، هما ايضا خصومة شديدة[٧٣] .

وفي صيف ١٩٣٠ ، طلب تروتسكي مجدداً إلى انصاره الفرنسيين أن يأتوا إلى برنكيبو ويسوّوا خلافاتهم ، فأتوا واتفقوا من جديد ، وبعث تروتسكي بهم الى باريس، واثقاً باتفاقهم الاجماعي على أن يطلقوا أخيراً الحركة التي تأخرت طويلاً والتي كان يعلق الكثير من الآمال عليها . لكن لم تمر عدة اسابيع حتى كان الصراع ينشب من جديد بصورة حادة ، وفي تشرين الثاني/نوفمبر استقال روسمر ، الذي جرحته محاباة تروتسكي لمولينييه . وقد كانت الصدمة كبيرة ، سواء بالنسبة للمنظمة او بالنسبة لتروتسكي ، على المستوى الشخصي ، لأنه كان يعرف تماماً أنه لم يكن لأحد بين كل اتباعه في اوروبا هيبة روسمر وصفاته . لكنه كان مقتنعاً بأن طاقة مولينييه سرعان ما ستنتشل المنظمة من المأزق وتدفع روسمر الى العودة . وفي كتاب الاستقالة بالذات ، اعطى روسمر تروتسكي البرهان على إخلاص وتجرد نادرين ، ذلك انه امتنع عن المساهمة في أي مساجلة ، بدل أن يدخل في نزاع مكشوف مع تروتسكي ؛ فضل الانسحاب من اي نشاط تكتلي . إلا أن الشعور الذي أوحى اليه به سلوك تروتسكي كان قوياً لدرجة أنه رفض لسنوات عديدة أن يراه من جديد أو حتى أن يتبادل معه وجهات نظر .

غدت شقاقات مشابهة ، يستحيل ان يميز المرء فيها عملياً العنصر الشخصي من العنصر السياسي ، المرض المزمن الذي اصاب معظم المجموعات التروتسكية ، إذا لم نقل كلها . وكان المثال الفرنسي مُعْدِياً ، اذا لم يكن لشيء فلأن باريس كانت مركز التروتسكية العالمية . في العادة ، كانت الشخصيات

---

(٧٣) كان المكتب الأممي ، الذي تشكل في مؤتمر تداولي للتروتسكيين الآتين من بلدان مختلفة ، في نيسان ١٩٣٠ ، يضم روسمر ، ونافيل بصفة نائب عنه ، والأميركي شاختمان ، والألماني لاندو ، والاسباني نين والروسي ماركين . كان ل . سيدوف (ليوفا) ، تحت الاسم المستعار ماركين ، يمثل المعارضة الروسية (الا أنه لم يشارك في المؤتمر) . لم يتمكن المكتب من العمل ، لأن شاختمان عاد الى الولايات المتحدة ، ودخل نين السجن بعد ذلك بقليل ، ولم يكن ماركين يستطيع مغادرة برنكيبو . في ذلك الحين تشكلت سكريتارية اممية في باريس ، كان نافيل محركها الأساسي ، وإلى جانبه الايطالي سوزو والأميركي ميل . وسرعان ما جرى كشف حقيقة ميل كستاليني ، وظهر أن السكريتارية ليست أكثر فعالية من المكتب . ولقد سعى تروتسكي حينذاك الى اصلاح وضعها بمساعدة سونين ـ سوبوليفيسيوس وويل . (انظر رسالة تروتسكي الى ويل بتاريخ ١٥ كانون الأول ١٩٣١ .)

هزيلة الوزن ، وقضايا الخلاف عديمة الاهمية ، والخصومات مضجرة ، لدرجة انه حتى مشاركة تروتسكي لم تكن كافية لاعطائها القدر من المعنى المطلوب لتدخل في سيرة حياته . ومع مرور السنوات ، اتخذت تلك المشاركة اشكالاً مثيرة للرثاء وحتى مضحكة احياناً . فبما أن كل خصومة تقريباً كانت تهز المنظمة بكاملها ، كانت تلك المشاحنات التافهة تكلفه الكثير من الوقت وتنخر اعصابه . كان يتخذ موقفاً أو يتصرف بصفة حَكَمٍ ، ولما كان على صلة بكل انحاء العالم ، توجب عليه ان يهتم بعدد لا يُعقل من هذا النوع من المجادلات ؛ ولما كان يشجع الفروع المختلفة على ان يهتم اعضاء بعضها بنشاطات بعضها الآخر ، والعكس بالعكس ، فلقد كان يكتب رسائل لا تنتهي ، ورسائل سيّارة ، شارحاً للبلجيكيين ، مثلاً ، لماذا يتخاصم الفرنسيون ، ولليونانيين لماذا يختلف الرفاق الالمان ، وللبولنديين ما هي قضايا الخلاف المختلفة في شتى المجموعات البلجيكية ، أو في مختلف مجموعات المعارضة الاميركية ، وهكذا دواليك . . . إلى ما لا نهاية له(٧٤) .

فعل كل ذلك ، مقتنعاً بأنه يثقف ويكوِّن فريقاً جديداً من الشيوعيين والكوادر الجديدة للقيام بالثورة . لم يكن الهزال البالغ لموارد المعارضة ، وضعف تنظيمها يثبطان ، ولو قليلاً ، من معنوياته . كان يعتبر ان قيمة حركة ما تكمن في قوة افكارها ، وان هذه الافكار سوف تنتصر في نهاية المطاف ؛ وان المهمة الرئيسية تكمن في الابقاء على استمرارية مدرسة الفكر الماركسي ، وأن اي منظمة يجب ان تبنى مع اعتبار الظروف الراهنة بالذات وبالمادة البشرية المتوفرة حالياً . كانت نزاعات اتباعه تنطوي احياناً على ما قد يؤدي به الى اليأس ويدفعه إلى التساؤل إذا لم تكن جهوده باطلة . كان يعزي نفسه حينذاك بذكرى لينين الذي كان يستشهد غالباً بصورة لتولستوي ، خلال اعوام الخلاف بين تكتلات المهاجرين . يصف تولستوي رجلاً متربعاً في منتصف طريق ، توحي حركاته المتنافرة والمجنونة للمارة بأنه مخبول ، فيما يدرك المرء حين يقترب ان الحركات الغريبة تنطوي على نشاط كله معنى ، لأن الرجل يشحذ

(٧٤) من بين ثلاثة آلاف ملف تضم حوالى ٢٠ألف وثيقة تخص القسم المقفل من المحفوظات ، يتشكل ٩ / ١٠ منها تقريباً من مراسلات تروتسكي مع انصاره . وتضم نسبة كبيرة جداً من القسم المفتوح من المحفوظات كتابات حول سياسة مختلف المجموعات التروتسكية وتكتيكها وتنظيمها .

سكيناً على مِسنّ . هكذا ، رغم المظهر عديم المعنى احياناً لأخذ تروتسكي وعطائه مع اتباعه ، كان يقول لنفسه إنه يشحذ ، في الواقع ، عقل جيل ماركسي جديد وإرادته . كان يمحو من نفسه كل اشمئزاز، وهو يمزج المبادىء الكبرى بالمسائل الاكثر تفاهة ، ويستنفر كل صبره وكل قدرته على الإقناع بهدف ان يعطي انصاره بسخاء . إلا أنه لم يكن يستطيع الامتناع عن الشعور بواقع أن المادة البشرية التي كان يعمل بها تختلف كلياً عن تلك التي اشتغل بها لينين، أو هو بالذات ، قبل الثورة . في ذلك الحين ، مهما يكن بؤس سياسة الهجرة ، فإن من كانوا يساهمون فيها كانوا مناضلين جديين وصادقين ، مخلصين جسداً وروحاً لقضيتهم ويضحون في سبيلها بكل مصلحة في الحياة ، وبالحياة بالذات ؛ كانوا مجامر بشرية منْ الحماس الثوري . أما تلامذته الحاليون ، في الغرب ، فكانوا مصنوعين من قماشة مختلفة ، كان فيهم القليل القليل من الشغف والبطولة اللذين يدفعان إلى اقتحام السماء. كان يقول عنهم إنهم ليسوا، بالتأكيد، أو لم يصبحوا بعد ، بلاشفة أصيلين ، وكان ذلك يفسر المسافة النفسية الشاسعة بينهم وبينه .

كان يفضل البقاء في الفكر مع اصدقائه وتلامذته الآخرين ، اولئك المشتتين في السجون وفي المستعمرات الاصلاحية في الاورال وسيبيريا ، والذين كانوا يخوضون النضال هناك، جائعين ومتجمدين من البرد ، ومواجهين مشكلاتهم حتى الموت ؛ حتى الأكثر رداءة بين اولئك القوم كانوا يبدون له كمناضلين أمجاد ، واقرب اليه ، في كل حال ، من اي من اتباعه الغربيين . في بعض الاحيان ، كان يترك العنان ، من دون علمه ، لمشاعره، كما مثلاً في النعي المرفق بموجز عن حياة كوت ـ تسينتسادزه ، وقد كتبه في اوائل عام ١٩٣١ . كان تسينتسادزه ، العضو في الحزب البلشفي منذ عام ١٩٠٣ ، على رأس التشيكا خلال الحرب الأهلية ، ثم اصبح احد قياديي المعارضة ، وقد تعرض للنفي والسجن والتعذيب . ورغم ان السل هدم صحته وكان يعاني من نزيف رئوي ، فقد واصل المعركة وقام بإضرابات عن الطعام ، ومات في السجن . وفي هذا النعي ، الذي نُشر في الـ **Bulletin** ، اورد تروتسكي هذه الكلمات المفعمة بالنبوءة ، المقتطفة من رسالة كان تسينتسادزه ارسلها اليه في ألما ـ آتا : « إن الكثير ، الكثير من اصدقائنا ، من هؤلاء القريبين منا ، سوف ينهون حياتهم في السجون ، أو في مكان ما من المنافي. ومع ذلك ، سيشكل هذا في التحليل الأخير إغناء أخيراً للتاريخ الثوري ، وسيتمثل الدرسَ جيل جديد » .

وقد كتب تروتسكي : « إن الاحزاب الشيوعية الغربية لم تصهر بعد مكافحين من النموذج الذي يمثله تسينتسادزه » ، وكان ذلك عيبها الرئيسي ، العيب الذي تعاني منه المعارضة أيضاً . اعترف تروتسكي بذهوله وهو يرى كم يصادف المرء من المطامح الدنيئة والحسابات المبنية على المصلحة ، حتى لدى المعارضين في الغرب . غالباً ما كانت الرغبة في التميز محرضاً على بذل الجهد وعلى النجاح . لكن « الثوري يبدأ حيث يتم إخضاع الطموح الشخصي إخضاعاً كاملاً لخدمة « فكرة كبرى » . . . ومن المؤسف ان القليل القليل من الناس في الغرب تعلموا أن ينظروا الى تلك المبادىء جدياً . كانت مغازلة الافكار كما كان التبجح بالماركسية ـ اللينينية تبجُّحَ الهواة أمرين رائجين تماماً[٧٥] » .

نادراً ما كان تروتسكي يسمح لنفسه باطلاق اتهامات من هذا النوع . لم يكن يجد من المجدي التلوي يأساً بسبب قصور المادة البشرية التي ينتجها التاريخ ؛ فمن تلك المادة وحسب يمكن تكوين أشخاص جدد من معدن تسينتسادزه .

إلا أن المعارضة في الاتحاد السوفياتي كانت تتفتت ، وكان المقاتلون من نموذج تسينتسادزه إما يزولون جسدياً أو يهزلون معنوياً . كانوا محصورين بين فكي الارهاب الستاليني ومأزقهم الخاص بهم . ومنذ عام ١٩٢٨ ، في حين كان تروتسكي يقوي من منفاه في ألما ـ آتا روح المقاومة فيهم ، بدا من بعض العلامات لديهم أنه ليست عندهم القوة لتحمل ضغوط بذلك القدر . ونذكر كيف أنهم إذ كانوا يشهدون نهاية التحالف بين الستالينيين والبوخارينيين ، وفي بدايةمسار ستالين الجديد الى اليسار ، حدث بينهم انقسام في الرأي[٧٦] . كانت تلك الاحداث تعطي طابعاً بالياً لبعض المطالب القصوى للمعارضة أو لصيحات الحرب الصادرة عنها . كانت المعارضة قد طالبت بتصنيع سريع وتجميع تدريجي للاستثمارات الزراعية ، وكانت اتهمت ستالين بأنه يحول دون ذلك كله ويحابي المزارعين الاغنياء . وحين سرّع ستالين ، في عام ١٩٢٨ ، وتيرة التصنيع وانقلب على الاستثمارة الزراعية الخاصة ، هنأ المعارضون أنفسهم ، بادىء ذي بدء على

---

(٧٥) B. O ، العدد ١٩ ، آذار / مارس ١٩٣١ .

(٧٦) انظر فصل : سنة في ألما ـ آتا ، في النبي الأعزل .

التغيير الذي تم ، لأنهم رأوا فيه تبريراً لموقفهم الخاص بهم . لكنهم شعروا حينذاك بأن افكارهم وشعاراتهم سرقت منهم ، وبأنهم حرموا من قسم كبير من مبررات وجودهم .

في ظل نظام ، ايِّ نظامٍ ، يتسامح مع الحد الادنى من المساجلات السياسية ، يمكن حزباً أو تكتلاً ، يرى لسوء حظه خصومه يسرقون منه ثيابه ، أن يشهد بكرامةٍ تطبيق الآخرين برنامجه الخاص به . اما التروتسكيون المنفيون فلم يكونوا حتى احراراً بالايحاء بأن ثيابهم سرقت منهم ، او حتى بأن يتبينوا أمام الأمة الى اي حد كان الستالينيون منافقين وحمقى حين راكموا الاتهامات ضدهم وشهّروا بهم واصفين اياهم بأنهم « سوبر ـ مُصنِّعون » واعداء للفلاحين . إن مسار ستالين اليساري الجديد ، الذي كان يبرىء المعارضة ضمناً ، كان يسجل هزيمتها ايضاً . ولم تكن المعارضة تعرف مذاك بوضوح لماذا وعلى أية أسس ستواصل مقاومتها ، وذلك خاصة لأن سياسة ستالين كانت تتبع عن كثب مطالب المعارضة ، حتى منتصف عام ١٩٢٩ ، وقبل ان يتخذ قراره الشروع بتجميع معمم وبتصفية الكولاك . إنه مغيظ دائماً الى ابعد الحدود ، بالنسبة لحزب او مجموعة ، ان يرى برنامجه الخاص به وقد انتحله خصومه . لكن بما يخص التروتسكيين الذين كانوا يعرّضون انفسهم للاضطهاد والافتراء ، فيما كانوا يروّجون لافكارهم ، كانت الصدمة ساحقة مدمرة . بدأ البعض يتساءلون حبّاً بماذا عليهم ان يستمروا في العذاب ويتركوا أقرب اقربائهم يعانون من اقسى الحرمانات . كانوا يتساءلون ألم تحن ساعة التخلي عن القتال وحتى التصالح مع مضطهدهم الفريد ؟

الذين استسلموا لذلك الوضع النفسي ايدوا رادك وبريو براجنسكي بحرارة حين فصّلا حجة مفادها أنه لا شيء يدعو للوم في مصالحة كهذه ، وانه إذا لم تكن المعارضة تريد الاقتصار على خدمةمصالح شخصية ، عليها ان تستمتع برؤية افكارها تنتصر ، حتى اذا كان مضطهدوها هم الذين يضعونها موضع التطبيق . كانوا يقولون : صحيح ان ستالين لا يظهر اي اندفاع ليعيد الى داخل الحزب الديمقراطية البروليتارية التي طالبت المعارضة بها أيضاً ، لكن بما أنه ينفذ جزءاً بهذه الاهمية من برنامج المعارضة ، ثمة ما يبرر الأمل بأنه سينفذ في النهاية ما تبقى من ذلك البرنامج بالذات . ومهما يكن ، فالمعارضون سيكونون ربما قادرين ، بشكل أفضل ، على خدمة قضية الحرية الداخلية للحزب إذا هم عادوا الى صفوفه ، بدل البقاء في المستعمرات الاصلاحية التي لا يمكنهم ان يمارسوا

منها اي تأثير. أيّاً يكن الشيء الذي يناضلون من أجله ، عليهم النضال من اجله داخل الحزب الذي هو ، وفقاً للتعابير ذاتها التي استخدمها تروتسكي سابقاً ، « الاداة الوحيدة التي قدمها التاريخ والتي تمتلكها الطبقة العاملة » بهدف التقدم على طريق الاشتراكية؛ به وحده وفيه يمكن المعارضين أن يسيروا بمشاريعهم الى النجاح . لا رادك ولا بريوبراجنسكي كانا يقترحان حتى ذلك الحين الاستسلام ، إنما كانا ينصحان فقط بتبني موقف أكثر ميلا للمصالحة ، وهو ما قد يسمح لهما بالتفاوض حول شروط عودتهما الى الحزب. وكانت كتلة اخرى في المعارضة ، يعبر عن افكارها سوسنوفسكي ودينجلستدت ، وراكوفسكي أحياناً ، ترفض تلك الاقتراحات ولا تعتقد أن ستالين سيخوض جدياً ونهائياً عملية التصنيع والمعركة ضد الكولاك . لم يكونوا يرون في المسار الجديد الى اليسار غير مناورة مؤقتة ستتبعها تنازلات على كل المستويات لصالح الرأسمالية الريفية ، والنيب الجديدة وانتصار الجناح اليميني . كانوا ينكرون أن تكون الاحداث محت برنامج المعارضة ، ولا يرون أي مبرر لتعديل أي من مواقفهم . والاكثر تفاؤلاً بينهم كانوا مفعمين ، اكثر من اي وقت مضى ، بالأمل في ان يكون الزمن يعمل لصالحهم، قائلين انه إذا واصل ستالين المسار الى اليسار فإن منطق هذا الموقف بالذات سوف يضطره الى وقف معركته ضد المعارضة اليسارية ، واذا أطلق النيب الجديدة فإن الانعطاف يميناً الذي يلي ذلك سيعرض موقعة الخاص به للخطر الشديد لدرجة أنه سيضطر ، هنا ايضاً ، الى تسويات مع التروتسكيين بهدف اعادة التوازن . سيكون بالتالي من الحماقة بمكان ان تحاول المعارضة مبادلة المبادىء بالعودة الى الحزب، وبوجه خاص ان تتخلى عن شرط حرية التعبير والنقد . تلك كانت ، اجمالاً ، وجهة النظر التروتسكية الاورثوذكسية .

إن القناعة بأن برنامج المعارضة أصبح قديماً لم تكن تتقدم فقط على صعيد التوفيقيين . فلأسباب معاكسة تماماً لأسباب رادك وبريو براجنسكي ، اكتسحت تلك القناعة بزخم اكبر اولئك الذين كانوا يشكلون الجناح الاكثر تطرفاً والأكثر تصلباً في المعارضة . هؤلاء يعتبرون من المسلّمات ان الاتحاد السوفياتي لم يعد دولة عمالية ، وان الحزب خان الثورة ، ولما كان الأمل بإصلاحه غير مجْدٍ فعلى المعارضة ان تتشكل في حزب جديد وتعد لثورة جديدة . كان البعض مستمرين في النظر الى ستالين كمطلق للرأسمالية الزراعية لا بل كزعيم للديمقراطية الكولاكية ، بينما كان يرى آخرون ان حكمه يشكل التجسيد الصرف

لهيمنة رأسمالية الدولة ، المعادية للاشتراكية بشدة .

حتى نهاية عام ١٩٢٨ ، لم تكن التجاذبات ، الناجمة عن تلك الشبكةمن الاتجاهات المختلفة ، قوية كفاية لتدمير الوحدة الخارجية للمعارضة . كان نقاش لا ينتهي يدور في المستعمرات الاصلاحية ، وكان تروتسكي يرأس ذلك النقاش ، محافظاً على التوازن بين وجهات النظر المتضادة . إلا انه بعد نفيه الى القسطنطينية ، زادت قوة الخلافات وابتعدت الجماعات المتعارضة اكثر فأكثر بعضها عن البعض الآخر . أما التوفيقيون الذين كانوا يرغبون بشدة في العودة الى الحزب فقلصوا تدريجياً من الأسس التي كانوا يعلنون عن استعدادهم للتوافق انطلاقاً منها مع ستالين ، الى ان اصبح الوفاق الذي كانوا يعدون انفسهم له أمراً لا يمكن تمييزه عن الاستسلام الصرف . من جهة اخرى ، وصل جنون العداء لدى المتصلبين حيال كل ما كان يمثله ستالين إلى حد أنهم لم يهتموا بتاتاً بالتبدلات التي طرأت على سياسته ، أو بما كان يجري عموماً في البلاد . كانوا يرددون بإلحاح الاتهامات القديمة الموجهة للستالينية ، دون الاهتمام بمعرفة ما اذا كانت لا تزال لها صلة بالوقائع القديمة او الحديثة . كان اعضاء تلك المجموعات المتطرفة ينظرون بعضهم الى البعض الأخر كمرتدين وخونة . وصم المتصلبون التوفيقيين سلفاً بصفة خدم ستالين ، بينما كان الاخيرون يعتبرون الأولين أناساً ضلوا الطريق ، وتوقفوا عن أن يكونوا بلاشفة ، وتحولوا الى فوضويين ومعادين للثورة . وكان الجناحان المتطرفان يتضخمان عدداً بينما كانت معارضة أصغر فأصغر حجماً هي التي بقيت « تروتسكية أصيلة » .

لم يمر اكثر من ثلاثة أشهر على نفي تروتسكي حتى لم يبق شيء ، حتى من الوحدة الخارجية للمعارضة . وقد انتظر تروتسكي عدة اشهر قبل ان يتمكن من اعادة اقامة بعض الاتصالات . ولما كان مقطوعاً عن اتباعه ، تمكن ستالين من أن يُدِب الانقسام والاحباط في صفوفهم عن طريق الدمج بينَ وسائل الارهاب والتملق . كان ذلك الارهاب انتقائياً : فالغيبيو تركت التوفيقيين وشأنهم ، لكنها كانت تتفحص المستعمرات الاصلاحية بدقة لامتناهية ، فتختار المعارضين الأكثر عناداً وتحولهم الى سجون يخضعون فيها لأسوأ انواع المعاملة واقساها. كانوا يوضعون فيها تحت حراسة عسكرية ، مكدسين في زنزانات رطبة ومظلمة ودون تدفئة ، في شتاء سيبيريا ، حيث يخضعون النظام يجمع إلى نقص الاغذية تعفنها ، ويحال بينهم وبين القراءة والضوء وتسهيلات التراسل مع عائلاتهم . هكذا كانوا

محرومين من كل الامتيازات التي كان المسجونون السياسيون حصلوا عليها في روسيا القيصرية ، وكان البلاشفة منحوها لكل المجرمين المعادين للبلشفية (في تلك الفترة تقريباً ، أمر ستالين باطلاق سراح عدد كبير من المناشفة والاشتراكيين الثوريين ، كما لو كان يريد الهزء اكثر ايضاً برفاقه القدامى) . هكذا منذ آذار/مارس **١٩٢٩** ، كان التروتسكيون يصفون حياتهم في مركز الاشغال الشاقة في توبولسك ويقارنونها بالصورة المذهلة **للكاتورغا** في **منزل الاموات** لدوستويفسكي[٧٧] . واذا كان ذلك الارهاب يرمي الى اثارة هلع التوفيقيين وجعلهم اكثر طواعية ، فقد كان يبدو أنه يستهدف كذلك دفع المتصلبين الى اشكال من التعبير عن عداء مسعور لكل وجوه النظام القائم بحيث يصبح من السهل التنديد بهم كمعادين وتعميق الهوة بينهم وبين التوفيقيين .

إلا ان ستالين كان عاجزاً عن تحطيم المعارضة بالارهاب وحسب . كان سلاحه الأكثر مضاء بكثير هو المسار الجديد الى اليسار . لقد كتب راكوفسكي : « من دون الاضطهادات القاسية ، لم يكن المسار الجديد الى اليسار معداً إلا لإدخال اعضاء جدد الى صفوف المعارضة ، لأنه كان يسجل إفلاس سياسة ستالين بنسختها الاولى . لكن الاضطهاد لوحده ، من دون المسار الجديد الى اليسار ما كان احدث النتائج التي توصل اليها[٧٨] . خلال الاشهر التي تلت وصول تروتسكي الى القسطنطينية ، توقف نهائياً تردد ستالين بما يخص سياسته . اصبحت قطيعته مع بوخارين ناجزة في دورة شباط/فبراير للمكتب السياسي ، في حين كان تروتسكي في طريقه الى تركيا . وفي نيسان/ابريل ، نقل النزاع من امام المكتب السياسي الى امام اللجنة المركزية ، ثم امام المؤتمر التداولي السادس عشر للحزب . ولقد اطلق المؤتمر التداولي نداء مدوياً الى الامة بهدف تسريع جذري للتصنيع والتجميع ، وهو نداء كان يستعيد جزئياً بصورة حرفية نداءات تروتسكي السابقة[٧٩] . أصبح أصعب فأصعب أن يتمسك المرء بالفكرة التي كان

---

(٧٧) انظر التقرير المؤرخ في ٢٠ - ٣ - ١٩٢٩ ، في الـ B. O. ، العدد الأول .

(٧٨) المرجع ذاته ، العدد ٧ ، نوفمبر - ديسمبر ١٩٢٩ .

(٧٩) ڤ . ك . پ (ب) بروفسو يوزاخ ، ص ٥١٥ . جرى في قرارات المؤتمر التداولي استعادة دعوة تروتسكي الى منافسة اشتراكية ، قبل عشرة أعوام من ذلك التاريخ ، استعادة حرفية لكن دون ذكر اسم صاحبها . ك . ي . س . س . ق ريزولوتسياخ ، ج ٢ ، ص ٤٩٦ - ٤٩٧ . أنظر كذلك كتابي : Soviet Trade Unions ص ٩٥ - ٩٧ .

تروتسكي وبعض التروتسكيين يتمسكون بها ، والقائلة إن التبدل في سياسة ستالين مناورة مؤقتة . بدا هكذا ان بريو براجنسكي ورادك ، اللذين اكدا دائماً أن ستالين لم يكن ينظر الى المسار الجديد يساراً بخفة وعدم اكتراث ، وان الظروف لا تسمح له بفعل ذلك اذا رغب بأن يفعل ، كانا يملكان بصدد تلك النقطة فهماً أفضل للواقع .

تفاقمت مآزق المعارضة الى حد بعيد ، دفعة واحدة . غدا شبه مضحك بالنسبة لاعضائها أن يرددوا الشعارات القديمة ويطالبوا بتصنيع أكثر اندفاعاً وسرعة ، وهم يضجون ويصخبون ، وان يحتجوا على تهدئة الرأسمالية الريفية ويتكلموا على تهديد نيب جديدة . كان على المعارضة إما أن تسلم بأن ستالين يقوم بعملها هي ، أو أن تعيد تجهيز نفسها وتسليح نفسها سياسياً لاجل صراع اكثر شدة واندفاعاً . كان تروتسكي وراكوفسكي والآخرون يعملون على تكييف افكار المعارضة مع الواقع الراهن ، لكن الاحداث كانت تتدافع بوتيرة تتحدى وتيرة العقول النظرية الاكثر حيوية ونشاطاً .

كانت حالة الأمة وتبدلات السياسة الرسمية تساهم في بلبلة المعارضة . كان الوضع الراهن من اخطر الاوضاع ، أو أن ستالين[٨٠] ، على الاقل ، كان يصفه بهذه الطريقة . لكن قادة المعارضة ، هم أيضاً ، ومهما تكن خلافاتهم كانوا يستعملون الوصف ذاته . فبريو براجنسكي ، غير الميال الى المبالغة في اضفاء الطابع الدرامي على الأمور ، كان يقارن التوتر في ربيع عام **١٩٢٩** بذلك الذي أدى الى تمرد كرونشتادت ، ذلك التمرد الذي اعتبره البلاشفة أخطر بالنسبة اليهم من أي مرحلة حرجة خلال الحرب الاهلية[٨١] . وتكلم رادك على النزاع بين الستالينيين والبوخارينيين في اللجنة المركزية فأعلن ان اللجنة المركزية كانت تشبه الكونفنسيون اليعقوبية عشية التاسع من ترميدور ، اليوم الذي كرس انهيار اليعقوبية . ووصف راكوفسكي تلك اللحظة كالأكثر حسماً منذ الحرب الاهلية[٨٢] ، وهكذا كان الاتفاق كاملاً حول هذه النقطة بين كل المراقبين .

---

(٨٠) ستالين ، سوشينيا ، ج ١٢ ، ص ١١٨ وما بعدها .

(٨١) بريوبراجنسكي ، Ko , Vsem Tovarishchampo oppositsii ، (المحفوظات ، التي يجري الاستناد اليها في عدد من الصفحات الأخرى) . انظر كذلك تقرير راكوفسكي في الـ B.O. ، استشهاد مذكور .

(٨٢) استشهاد مذكور .

منذ عدة سنوات إلى الآن ، كانت الهوة بين المدينة والريف قد توسّعت وتعمقت . ما كان بوسع الخمسةوالعشرين او الستة والعشرين مليوناً من المنشآت الزراعية القديمة الصغيرة ، التي معظمها بالغ الضآلة ، أن تكفي لتغذية سكان المدن الذين كان عددهم يتنامى بسرعة ، وكانت المدن تعيش تحت تهديد المجاعة شبه المتواصل .وفي نهاية المطاف ، ما كان يمكن حل الأزمة إلا باستبدال المنشآت الصغيرة غير المنتجة بالمزرعة الكبرى من النموذج الحديث . وفي بلد واسع معتاد على الزراعة الخفيفة ، كان يمكن تحقيق ذلك إما بالتطوير الكثيف للرأسمالية الزراعية أو بالتجميع ؛ ولم يكن ثمة خيارات اخرى . ما كان يمكن أي حكومة بلشفية أن تتصرف كمتبنية للرأسمالية الزراعية ، لأنها لو فعلت هكذا لاثارت ضدها قوى معادية هائلة وافسدت منظورات التصنيع المخطّط(٨٣) . هكذا لم يعد هناك غير طريق واحدة ممكنة ، هي طريق التجميع ، وذلك حتى مع التسليم بأن المسائل ذات الاهمية القصوى ، المتعلقة بالمقياس والمنهج والوتيرة ، تبقى تنتظر الحلّ . الى هنا قادت سنوات التردد والارتباك الرسميين : كان سيلزم الآن اتخاذ قرارات ضمن ظروف اسوأ بكثير من الظروف التي كان يمكن اتخاذها فيها بتاريخ سابق . إن محاولات ستالين الجمع بين السياسات الاكثر تعارضاً ، تهدئة المزارعين الاغنياء ثم مصادرة انتاجهم بعد ذلك ، جعلت الفلاحين يستشيطون غيظاً . ولم يكن نفوره المتواصل من تنشيط التنمية الصناعية أقل كارثية . ففي حين كان الريف عاجزاً عن تأمين الغذاء للمدينة ، لا بل لم يكن يظهر اي رغبة في ذلك ، كانت المدينة عاجزة عن تقديم السلع الصناعية للريف . إن الفلاح ، الذي لم يكن يستطيع الحصول على الاحذية والالبسة والآلات الزراعية لم يكن يشعر بنفسه ، بالتالي ، مدفوعاً لزيادة مردوده ، وكان اقل اندفاعاً ايضاً لبيعه . هكذا المدينة الجائعة والريف المحروم من كل السلع الصناعية كانا ، كلاهما ، في حالة غليان .

لقد جرى اتخاذ القرارات المتعلقة بوتيرة التصنيع والتجميع وبمداهما ضمن

---

(٨٣) كانت الاستثمارة الزراعية من النموذج الرأسمالي على نطاق واسع تشكل الخلفية الريفية للتصنيع في انكلترا والولايات المتحدة ، وكانت ملكيات اليونكرز الكبرى والـ Grossbauerwirtschaft تسيطر في الزراعة الألمانية إبان الاندفاع الصناعي للأمة . في كل تلك البلدان ، كانت الاستثمارة الزراعية الكبرى توجد منذ بداية التصنيع ، بينما لم يكن يوجد في روسيا العشرينات شيء مشابه . إن تركيز الاستثمار الزراعي بالسيرورات العادية للتنافس الرأسمالي كان تطلب الكثير من الوقت والكثير من الـ Laissez faire

ظروف تتسم بفقر مدقع على مستوى كل العناصر البشرية والمادية الضرورية لتلك الحركة المزدوجة الى الامام . ففي حين كان يفتقر العمال الى الخبز ، كانت الصناعة تفتقر الى اليد العاملة المتخصصة ، كما كانت تفتقر الى الآلات ايضاً . إلا أنه كانت هنالك آلات غير مستعملة ، بسبب افتقاد المحروقات والمواد الاولية ، التي كان تأمينها يتوقف على الاقتصاد الريفي . وكانت وسائل النقل مختلة وما كان في وسعها أن تلبي الحركة الصناعية المتنامية . وبالنسبة للسلع وموارد الطاقة كلها تقريباً (ماء ، غاز ، كهرباء) ، كان التوزيع ناقصاً بصورة خطيرة ، اذا اخذنا بالاعتبار الطلب على تلك السلع والموارد ، وكان التضخم يتفاقم ، كما لم يكن للأسعار الخاضعة للمراقبة اية علاقة بالاسعار غير المراقبة ، علماً أن هذه وتلك لم تكن تعبر عن اية قيمة اقتصادية حقيقية .

كانت كل العلاقات والروابط بين مختلف اجزاء الجسم السياسي مقطوعة ، باستثناء روابط البؤس واليأس . لم تكن العلاقات الاقتصادية بين المدينة والريف مقطوعة ، مرة اخرى ، وحسب ، بل كان الامر ذاته واقعاً بين المواطن والدولة ، وحتى بين الحزب والدولة . وفي ذلك المعترك ، لم يكن هنالك تطرفٌ في الخداع والعنف لم يكن القادة والمقودون مستعدين لبلوغه . كان الحقد على المفوضين يتخذ لدى الكولاك ولدى العديد من صغار الفلاحين وحتى لدى العديد من الفلاحين الفقراء طابعاً شرساً . كانت الحرائق الاجرامية واغتيالات اعضاء حزبيين وممرضين احداثاً يومية في القرى . وتلك الاستعدادات الخاصة بالفلاحين كانت تنتقل الى الطبقة العاملة التي كان عدد القادمين الجدد اليها من الريف كبيراً جداً . في ذلك العام الثاني عشر للثورة ، تسبب فقر الامةوالتقاعس والتجاوزات من جانب الحكومة باضطراب كان من الحدة والاتساع بحيث كان لا بد أن يحدث شيء خطير ورهيب في أقرب وقت ، بغية خنق الانفعالات المكبوتة أو تصريفها . كان تحت السطح غليان شديد ، ربما كان أدى الى انفجار جبار ، من نموذج ما حدث ، مثلاً ، في هنغاريا عام ١٩٥٦ ، على نطاق ضيق . إن ستالين وانصاره الذين جرى دفعهم ، هكذا ، إلى تحصيناتهم الاخيرة، ردوا بسعار متزايد .

« الثورة في خطر » ، تلك كانت الصيحة التي أطلقها التروتسكيون من أعماق منافيهم وزنزاناتهم . كان التوفيقيون ، مثلهم مثل التروتسكيين الأصيلين ، نهباً للهموم ذاتها ، لكن في حين كان الاخيرون لا يرون اي نموذج عمل يمكنهم

ان يقوموا به ، بسبب الظروف التي كانوا يوجدون فيها ، ويعتقدون ان عليهم البقاء مستعدين لمواجهة الأزمة الوشيكة ، كان التوفيقيون يشعرون في ذواتهم ، على العكس ، بمهماز العمل الفوري ؛ وعلى صيحات: « الثورة في خطر ! » ، كانوا يسيرون قدماً نحو الاستسلام . والافضل بينهم فعلوا ذلك على قاعدة قناعة راسخة بعمق ، قائلين: بما أن قدر البلشفية والثورة في مهب الريح ، من الاجرام التشبث بالتكتلات والتعلق بمصالح وطموحات عصبوية . اما الأسوأ بينهم ، الانتهازيون المتعبون ، فوجدوا في ذلك الخطر الذي تتعرض له الثورة ، حجة مناسبة للتحلل من الالتزامات حيال قضية خاسرة . ومن الممكن جداً أن الوسطيين بين التوفيقيين ، الذين لم يكونوا الافضل ولا الأسوأ ، لم يدركوا اسبابهم الخاصة بهم ، التي كانت على الارجح مختلطة أو متساوية الحدين .

في نيسان/ابريل ١٩٢٩ ، جمع بريو براجنسكي التوفيقيين بأسرهم حول ندائه : « الى كل الرفاق في المعارضة »(٨٤) . وهذه الوثيقة غير عادية : للمرة الاخيرة ، يعبر فيها التوفيقي بصراحة ووضوح ، قبل أن يكمَّ الاستسلام فمه : يلقي نظرة الى الوراء على الطريق الذي اجتازته المعارضة ، ويتحول ببصره نحو المعبر المتعرج والوعر الذي ينفتح امامه. يصف بريو براجنسكي الطريقة التي دفع بها المعارضة إلى المأزق انتصارُ افكارها الخاصة بها . لاحظ ان العديد من رفاقه كانوا يفضلون انكار ذلك الانتصار بدل التسليم بوجود ذلك المأزق بالذات : يتصرفون دائماً كما لو ان تنبؤاتهم بصدد النيب الجديدة والانعطاف الى اليمين تحققت بالفعل ، وكما لو لم يحدث المسار الجديد الى اليسار . وبالطبع ، فإن ستالين اطلق المسار الجديد الى اليسار بصورة مختلفة جداً عن تلك التي جعلوا من أنفسهم أبطالها . كانت المعارضة تريد المبادرة الى التصنيع والتجميع تحت الشمس الساطعة للديمقراطية البروليتارية ، بموافقة الجماهير والمبادرة الحرة للقاعدة ، بينما يستند ستالين الى قوة القرار الحكومي والقمع الهابطين من علٍ . لكن مهما يكن ، لقد دعم المعارضون ما يفعل ، حتى إن كانت الطريقة التي يستخدمها تثير اشمئزازهم . وإذا رفضوا الاعتراف بذلك ، سيتحولون الى معارضة حباً بالمعارضة ، ومذاك ، سوف ينحرفون عن مبادئهم الخاصة بهم ، من اجل تبرير انفسهم . أما هو ، بريو براجنسكي ، فلا يجحد ماضي المعارضة ، وهو

(٨٤) المحفوظات .

يعلن : « حين قاتلنا اللجنة المركزية ، قمنا بواجبنا ، لكن واجب المعارضة الراهن هو ان تقترب من الحزب، ثم ان تعود اليه (نلاحظ هنا ان المنظر الرائد للتراكم الاشتراكي الأولي هو الذي يتكلم) ، بغية « الوقوف جميعاً في جبهة واحدة ضد ضغط الاستياء الذي ستثيره في بلد فلاحين سياسة تراكم اشتراكي ونضال يجري خوضه ضد الرأسمالية الزراعية » .

يتكلم بريو براجنسكي على الضغينة التي تسبب بها ستالين لدى التوفيقيين حين نفى تروتسكي بمساعدة العدو الطبقي (اي الحكومة التركية) . لا يمكن المعارضين ان يغفروا له ذلك ، على حد قوله ، لكنه يقترح ألا يتم العمل بحيث تطغى هذه الاهانة على الاعتبارات من النوع الاكثر عمومية ، ويضيف ان تروتسكي ، هو الآخر ، اثار الارتباك في صفوف المعارضة حين خاض معركته ضد ستالين في الصحافة البورجوازية الغربية . لم تكن لدى بريو براجنسكي اوهام كثيرة حول المصير الذي ينتظر التوفيقيين ، وكان يعرف ان الضربات والاهانات ستتساقط عليهم خلال السنوات الصعبة والحرجة اللاحقة ، مع انه صعب عليه ان يتوقع في أي مستنقع من الوحل والدم سوف يغوصون ، قبل أن يهلكوا ، هم انفسهم ، فيه . لكنه كان ثاقب النظر بما فيه الكفاية ليحدد لرفاقه بوضوح ان الطريق التي كان يدعوهم للسير عليها ستكون ملأى بالهموم والآلام القاسية . كانت الآمال بمصالحة كريمة وصادقة ، تلك الآمال التي غذاها في العام السابق ، قد انهارت، وكان ينظر الآن الى العودة للحزب كنوع من الاستسلام المضمر . اختتم قائلاً .

« اولئك بيننا الذين قاتلوا في صفوف الحزب قبل عشر سنوات وعشرين سنة او اكثر (كان بريو براجنسكي ذاته بلشفيا منذ عام ١٩٠٤) سيعودون اليه بمشاعر مختلفة جداً عن المشاعر التي كانت لديهم إبان انتسابهم الأول ؛ سيعودون اليه من دون الحماس الذي كانوا يشعرون به في البدء ، مثل اناس محطمة قلوبهم . ليسوا حتى واثقين بأن اللجنة المركزية ستوافق على إعادتهم للحزب . إن ظروف هذه العودة والوضع الداخلي للحزب هي بحيث انه حتى لو تمت اعادتنا ، سيجري تحميلنا مسؤولية اشياء حذرنا منها وإخضاعنا لطرائق لا يمكننا الموافقة عليها . . . واذا تمت اعادتنا ، سيكون علينا جميعاً ان نتلقى بطاقتنا الحزبية كما نتلقى صليباً ثقيلاً » . الا انه بالنسبة لمن يرغبون في خدمة

قضية الاشتراكية ، لا خيار آخر غير حمل هذا الصليب .

في أيار/مايو سُمح لبريو براجنسكي بالمجيء الى موسكو لمحاولة تحقيق المصالحة مع الحزب . بادىء ذي بدء ، سعى للحصول على شروط ملائمة للمعارضة ككل ، طالباً وقف الارهاب وعمليات النفي ، وإعادة الاعتبار لاعضاء الحزب الذين كانوا ضحايا عمليات الانتقام التي مورست وفقاً لبنود المادة ٥٨ ، المتعلقة بجرم النشاطات المعادية للثورة ، وشيئاً أخيراً ليس اقلها شأنا هو إلغاء إبعاد تروتسكي . ولقد تفاوض مع اورجو نيكيدزه وياروسلافسكي واعضاء آخرين في اللجنة المركزية ولجنة الرقابة المركزية ، وكان عمل هؤلاء جميعاً يتم تحت رقابة ستالين الشخصية .

بالنسبة لستالين ، كان استسلام جزء كبير من المعارضة على جانب من الأهمية ، لما سيؤدي اليه ذلك من نتائج على صعيد معنويات الحزب وحظوظ تروتسكي . ولما كان مهتماً باجتذاب التوفيقيين وحريصاً على ألا يحطم آمالهم في الحال ، فقد تظاهر في البدء بأنه ينظر بعين العطف الى بعض رغباتهم ، لكنه لم يكن يستطيع في الواقع أن يوافق على أي منها ، وبوجه خاص لم يكن في وسعه السماح للمعارضين بأن يقولوا ، اثناء عودتهم الى الحزب ، بأنهم عادوا بعد أن تبنت قيادة الحزب برنامجهم . كان شكل ذلك ، لا ما يعادل تبريراً لتروتسكي والتروتسكية وحسب ، بل كذلك دحضاً لكل الاتهامات الموجهة للتروتسكيين ، وفي الاخير فضحاً للطابع غير الشرعي لعمليات الانتقام التي سحقهم ستالين بواسطتها . لم يكن في وسعه ان يسمح لأي كان بأن يشير ولو تلميحاً إلى واقع انه اخذ ورقة (وأي ورقة !) من كتاب تروتسكي . فلو فعل ذلك لكان حطم ادعاءه القوة والعصمة عن الخطأ . كان على المستسلمين ان يعلنوا أنه هو ، لا هم ولا تروتسكي ، الذي كان على حق ، كان عليهم أن يندّدوا بماضيهم ويجحدوه ، فلم يكن يمكن القبول بأن يعودوا بوصفهم موجِّهين جرت إساءة فهمهم . ما كان في وسعهم العودة إلا كمخربين ، ممتلئين ندماً ، للمسار الجديد الى اليسار ولكل اشكال السياسة التي قادت اليه بصورة متماسكة ؛ وحتى حينئذ ، لم يكن ينبغي السماح لهم بأن يثيروا في الحزب المشاعر واجبة الاداء للأبناء الشاطرين المكتئبين . ما كان يمكنهم ان ينتظروا غير الغفران الممنوح للخطأة التائبين وللمجرمين . كان عليهم أن يعودوا ، لكن وهم يجتازون الطريق راكعين . ولكي يصل بهم ستالين الى هذا الدرك ، كان عليه ان يعمد الى مساومة بطيئة وعنيدة . بحيث

ينهك دفاعهم الذهني ويحثهم على ان يتخلوا عن كل شروطهم ، الواحد بعد الأخر ، الى ان يصلوا لحافة الاستسلام غير المشروط . ولم يكن في سلوك ستالين ما يفاجىء ، فالشروط التي استسلم وفقاً لها زينوفييف وكامينيف وانطونوف ـ اوفسينكو وبياتاكوف وكثيرون غيرهم ، والسيرورة التي جرى ايصالهم عبرها الى فعل ذلك ، كانت لا تزال ماثلة في كل ذاكرة . لكن تلك كانت القدرة على خداع الذات ، بحيث ان الكثير من التوفيقيين ، الذين كانوا يتابعون من بعيد ، وبقلق ، مفاوضات بريو براجنسكي في موسكو (ولا ننسينَّ انه كان مسموحاً له ان يتصل بمستعمرات المنفيين) كانوا لا يزالون يأملون ان يجري تجنيبهم صروف الأذلال التي تعرض لها اولئك الذين استسلموا من قبل .

كان غدا من الممكن ، بعد شهر ، تبيُّن نتيجة مفاوضات بريو براجنسكي عبر سلوك رفاقه الاقربين . فحوالى منتصف حزيران/يونيو ، انتقل كذلك الى موسكو كل من رادك وسميلغا ، بحراسة الغيبيو ، بهدف الانضمام الى بريو براجنسكي . توقف القطار الذي اقلهما في محطة سيبيرية صغيرة ، حيث حدث صدفة أن استقبلتهم مجموعة من المعارضين الذين وصفوا اللقاء في رسالة محفوظة بين اوراق تروتسكي . لم يتحدثوا الا مع رادك ، فسميلغا كان مريضاً وبقي في مقصورته . حدثهم رادك عن غرض تلك الرحلة وقدم لهم الحجة التي غدت مألوفة لتبرير الاستسلام : المجاعة التي تشمل الامة بأسرها ، نقص الخبز الذي كان يحس به الناس حتى في موسكو ، استياء الشغيلة ، خطر انتفاضة فلاحية ، الخلافات في اللجنة المركزية حيث كان البوخارينيون والستالينيون يتآمرون بعضُهم لتوقيف البعض الآخر ، الخ . . . قال لهم إن الوضع بخطورة ما كان عليه عام ١٩١٩ حين كان دينكين على ابواب موسكو وكان يودنيتش يهاجم بتروغراد ، لذا يرى أن على الجميع الانضمام مجدداً الى الحزب . وقد سألوا : ضمن أية شروط ؟ هل سيكون لهم أن يشترطوا في موسكو محو الفقرة ٥٨ من قانون الجزاء ، العلامة المشينة للعداء للثورة ، من على جبين المنفيين ؟ فأجاب رادك بالنفي ، معلناً ان من يتشبثون بمعارضتهم يستحقون تلك العلامة المشينة . ولقد صاح : « نحن ذاتنا دفعنا بأنفسنا نحو النفي والسجن » . هل سيطالب بإرجاع تروتسكي ؟ لم تكن مرت اكثر من اسابيع قليلة حين اعلن بريو براجنسكي انه لا يمكن المعارضة أن تغفر إبعاد تروتسكي إلى الخارج ، ولم تكن مرت اكثر من شهور قليلة على احتجاج رادك بالذات ، مؤلف الدراسة الشهيرة : تروتسكي

منظم النصْر ، لدى اللجنة المركزية التي رأى فيها « أداة الموت البطيء لقلب الثورة المقاتل » ، وعلى اختتامه احتجاجه بالكلمات التالية : « فليتوقف هذا اللعب غير الانساني بصحة الرفيق تروتسكي وحياته » . لكن خلال الاسابيع الاخيرة ، فعل منطق الاستسلام لستالين فعله ، وهكذا كانت دهشة محاوري رادك كبيرة حين سمعوه يجيب : « لقد قطعت علاقتي بليف دافيدوفيتش نهائياً ، ومن الآن وصاعداً ، نحن اعداء سياسيون ، لا شيء يجمعني بالمتعاون مع صحف لورد بيفر بروك ! » (غالباً ما كان تعاوَنَ رادك ذاته مع الصحافة البورجوازية ، وسوف يفعل ذلك مجدداً لصالح ستالين[٨٥]) . كان عنف جواب رادك بحد ذاته يكشف مدى شعوره بالذنب ، دون ان يدري بذلك . ولقد واصل الكلام مستفيضاً في حديث مقذع ضد من استقطبتهم المعارضة حديثاً ، ممن قال عنهم انهم شباب مستاؤون لا شيء من البلشفية لديهم ، لكنهم انضموا الى التروتسكيين يدفعهم عداء صرف للاتحاد السوفياتي . ومرة أخرى خاطب عواطف محاوريه ، قائلاً : « لقد تبنى آخر مؤتمر تداولي لحزبنا برنامجنا الذي أثبت هكذا قيمته بصورة باهرة . أية مآخذ أخرى على الحزب تبقى لديكم ؟ » عند هذه النقطة كلف حراس رادك انفسهم بتقديم الجواب . ففي عز النقاش ، قاطعه جماعة الغيبيو وهم يصيحون بأنهم لن يسمحوا له بالتحريض ضد نفي تروتسكي ، واعادوه الى قطاره بعد أن اشبعوه لطماً وضرباً . وقد استرسل رادك في ضحكة هستيرية ، قائلاً : « أنا أتولى التحريض ضدّ نفي تروتسكي ! » ثم اعتذر بلهجة كلها شكوى : « كل ما افعله هو اني احاول اقناع هؤلاء الرفاق بالعودة الى الحزب » . لكن الحارس لم يرد حتى ان يسمعه ، واستمر يوجه اليه اللطمات ليعيده الى مقصورته . في العام السابق ، كان رادك أثقل باحتقاره زينوفييف وبياتاكوف بسبب رائحة الـ Dostœvshchyna المرَضيَّة التي كانت تفوح من شخصيتهما ومن تراجعاتهما . والآن كان هو ، أمير الهجَّائين ، يظهر لأولئك الذين سبق ان فكروا وعانوا مثله ، كسميردياكوف ساقط من صفحات

---

(٨٥) غالبا ما دافع تروتسكي عن نفسه بوجه هذا المأخذ ، الذي عبر عنه للمرة الاولى احد اتباعه الفرنسيين . وقد انبأه روسمر بذلك في رسالة بتاريخ ٢٤ شباط/فبراير ١٩٢٩ . وكان جوابُ روسمر وجواب تروتسكي ان ماركس ، هو ايضا ، اضطر لكسب معيشته بالكتابة للصحافة البورجوازية . وفي ملاحظة خاصة ظهرت في العدد الاول من Bulletin Oppositsii ، شرح تروتسكي موقفه للقراء السوفيات ، وبيّن أنه تكلم حتى في الصحافة البورجوازية كبلشفي ـ لينيني يدافع عن الثورة .

دوستويفسكي ، في تلك المحطة البائسة السيبيرية الصغيرة[٨٦] .

بعد شهر من المساومة ، في ١٣ تموز/يوليو ، تولى رادك وبريو براجنسكي وسميلغا ، وأربعمئة منفي آخر ، الاعلان نهائياً عن استسلامهم[٨٧] . ولقد كانت المكاسب التي حققها ستالين بنتيجة ذلك عديدة ، فما من حدث منذ استسلام زينوفييف وكامينيف في المؤتمر الخامس عشر (في كانون الأول/ديسمبر ١٩٢٧) أدى ما أداه لدعم هيبة ستالين ونفوذه . كان قد اطلق هجوماً شديداً ضد كتلة بوخارين ، فحرره تفكك المعارضة التروتسكية من ضرورة القتال على جبهتين في آن معاً . كان تروتسكي غالباً ما قال ان التروتسكيين والستالينيين قد يتوحدون بمواجهة خطر حاد آت من جهة اليمين ، وهذا ما كانوا يفعلونه الآن ! لكن ستالين كان يملي شروطه ، يكسبهم الى جانبه الآن من دون تروتسكي ، لا بل ضده . كان الكثيرون بين المستسلمين اناساً ذوي قدْر كبير وتجربة غنية ، سوف يملأ بواسطتهم المناصب الصناعية والادارية التي كان يجري ابعاد البوخارينيين تدريجياً عنها . كان يعرف ان المستسلمين سينخرطون كلياً في حركة التصنيع . سوف يعمل العديد منهم تحت قيادة بياتاكوف ، كبير المستسلمين والملهم النشط لمفوضية الصناعة الثقيلة . ورادك لوحده كان يفوق قدراً ، بوصفه دعاوياً ، جحافل من الكتبة الستالينيين .

وللحال هاجم تروتسكي الدفعة الثالثة من المستسلمين (كانت الاولى مؤلفة من زينوفييف وكامينيف واتباعهما ، والثانية من انطونوف اوفسينكو وبياتاكوف واصدقائهما) . كتب يقول : « إنهم يعلنون ان الفروقات بين ستالين والمعارضة اختفت تقريباً . كيف يفسرون إذاً الطابع المسعور لعمليات الانتقام ؟ إذا كان الستالينيون يمارسون النفي ، في غياب خلافات اعمق واكثر استعصاء ، ويُنزلون عقوبة الكاتورغا بالبلاشفة ، فهم يفعلون ذلك إذاً بروح لصوصية بيرقراطية محضة ومن دون اية فكرة سياسية . هكذا تظهر السياسة الستالينية إذا نظرنا اليها من وجهة نظر رادك . كيف بوسعه إذاً هو واصدقاؤه ان يرفعوا الصوت لصالح الوحدة مع قطاع طرق سياسيين ؟ » لم يكن تروتسكي من جهته ينظر هكذا إلى السياسة الستالينية ، كان يعتبر ان الستالينية تبدي تجاه المعارضة عداء شرساً ، لأسباب

(٨٦) المحفوظات ، .H.O ، العدد ٦ ، ١٩٢٩ .

(٨٧) برافدا ، ١٣ تموز/يوليو ١٩٢٩ .

سياسية عميقة . لم تكن الفروقات الاساسية فقدت من قوّتها ، واذا كان رادك وبريو براجنسكي يتجاوزان تلك الانقسامات أو يتظاهران بذلك فلأنهما انهارا معنوياً وادبياً . إن الثورة قارضة عظيمة للطبائع وكل فترة من الردة الرجعية تجبي ضريبتها في أوساط جيل من المكافحين المتعبين الذين يكفّون عن المقاومة . لكن عاجلاً أو آجلاً تحل محل العناصر الشائخة والمتعبة عناصر شابة تدخل ميدان النضال بشجاعة متجددة وتعرف ان تستخلص الدرس حتى من انحطاط من سبقوها وخورهم . « أمامنا أفق نضال طويل عنيد وعمل تربوي مديد[٨٨] » .

في الحقيقة انه حين بلغت تروتسكي أولى أخبار استسلام رادك بقي غير مصدق ، وعزا سلوك رادك الى طبعه الانفعالي وانعزاله وافتقاده الدعم الادبي من جانب رفاقه . كان يتذكر بتأثر شديد ان « وراء رادك ربع قرن من العمل الماركسي الثوري » ، ويشك في أن يكون قادراً حقاً على مسالمة الستالينية ، إذ « إن عصبه ماركسي الى حد لا يمكن أن يقبل معه بذلك ، وهو فوق كل شيء من طينة اممية مميزة » . لكن حين صدرت **البرافدا** وعلى صفحاتها رسالة ارتداد رادك ادرك ان « رادك سقط الى درك ادنى بكثير مما كان قد اعتقد » . لكن حتى في ذلك الحين ، بدا له السقوط غير قابل للتصديق بحيث تصوّر أن تلك الصفقة مع ستالين كانت مؤقتة ، وان رادك الذي تذبذب باستمرار بين يمين الحزب ويساره قد يتحالف قريباً مع البوخارينيين . ومع ذلك ، كم من التشوش والاختلاط في كل هذه القضية ! « يعتبر رادك ، وآخرون غيره ، ان الفرصة هي الأكثر ملاءمة للاستسلام . ولماذا ذلك؟ لأن الستالينيين ينزلون الآن العقاب بريكوف وتومسكي وبوخارين . هل كانت مهمتنا إذاً أن نجعل جزءاً من الجماعة الحاكمة يعاقب الجزء الآخر ؟ هل تغير التعامل مع المسائل السياسية الاساسية تغيراً جوهرياً ؟ ألم يستمر النظام المعادي للماركسية الذي يسود الاممية الشيوعية ؟ هل ثمة بعض الضمانات للمستقبل ؟ » كان رادك وبريو براجنسكي يريان في الخطة الخمسية الأولى انطلاقة جديدة كلياً . رد تروتسكي قائلاً : «ليست النقطة الحاسمة في احصاءات هذه الخطة الخمسية البيروقراطية per se(*) بل في مشكلة الحزب» ، الروح التي يقاد بها الحزب ، لأن هذه تحدد كذلك سياسته . هل تخضع

---

(٨٨) الكتابات ، ج١ ، ص ١٥٧ الى ١٦٣ .

(*) perse تعني في ذاتها (ج) .

الخطةالخمسية في وضعها كما في تنفيذها لرقابة ما من القاعدة ، للنقد والنقاش ؟ ذلك ان نتائج الخطة تتوقف أيضاً على هذا ! « إن النظام الداخلي للحزب هو بالنسبة للماركسيين عامل رقابة على الخط السياسي لا يمكن الاستغناء عنه » ولقد شكل هذا على الدوام أحد الأفكار الاساسية للمعارضة . « لكن ذاكرة المرتدّين ضعيفة في العادة او انهم يعتقدون ان الوضع هكذا بالنسبة للآخرين . يمكن الاشارة بحق إلى ان حزباً ثورياً يجسد ذاكرة الطبقة العاملة . إن مهمته الأولى ، الجوهرية ، هي تَعلمُّ عدم نسيان الماضي لكي يكون قادراً عى توقع المستقبل » . كان تروتسكي لا يزال يعتبر المسار الجديد الى اليسار الذي اطلقه ستالين ناتجاً ثانوياً للنضال والضغط اللذين مارستهما المعارضة . وكان يعتقد ايضاً ان بوسع ستالين أن يقلب سياسته ، وأن نزاعه مع بوخارين كان نزاعاً سطحياً رغم كل حدته وعنفه .

ولم تصل حجج تروتسكي قبل الخريف الى المعارضين في الاتحاد السوفياتي ، وكان يصعب أن تكون كافية لايقاف موجة الاستسلام . كانت الهزة في الاتحاد السوفياتي قد ذهبت اعمق ، وكان تأثيرها على المعارضة اعنف مما اعتقد تروتسكي . حتى ذلك الحين لم يكن ثمة في ملاحظاته اي اشتباه بالخطورة وبحالة القلق الشديد اللتين كان يجدهما المرء في كتابات كل المعارضين في روسيا ، بمن فيهم الاكثر تصلباً . كان لا يزال ينظر الى الوضع العام في سنة ١٩٢٩ عبر موشورة عام ١٩٢٨ ، ولم يكن بلغه إلا جزئياً جو عشية الحرب الاهلية الذي كان يرفرف فوق انحاء البلاد . كان الصدى العميق لصيحة « الثورة في خطر » لا يصل إليه بكل دويِّه ، القوة التي كان يأخذها المسار الجديد الى اليسار واتساع القطيعة بين ستالين وبوخارين . إلا ان هذين الامرين كانا اكثر ما يقضان مضاجع جميع الاعضاء في مختلف مجموعات المعارضة .

إن الانطباع بأن الثورة كانت مهددة بخطر مميت ، على المعارضة أن تبعده من ضمن عمل مشترك مع الستالينيين ، سرعان ما دفع بعض من كانوا ينتمون الى الجناح الاكثر تصلباً في المعارضة لتقفي اثار بريو براجنسكي ورادك . فإيفان سميرنوف ، قاهر كولتشاك وأحد أقرب المتضامنين مع تروتسكي ، ومراشكوفسكي ، وكان مقاتلاً ذا بطولة أسطورية ، وبيلو بورودوف ، المفوض الذي وجد تروتسكي ملجأ لديه حين غادر الكرملين في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٢٧ ، وترفاغانيان ، وبوغوسلافسكي ، وآخرون عديدون ، طلبوا هم أيضاً

إعادتهم الى الحزب . دخلوا في مفاوضات مع هيئة الاركان الستالينية ، في جو أقل قتامة من ذلك الذي واجه بريوبراجنسكي ، آملين ان يدفع الوضع العام ستالين إلى اعادتهم ضمن شروط اقل إذلالاً[٨٩] . ولقد دامت المساومة هذه المرة ما يقارب الخمسة أشهر ، من حزيران/يونيو الى نهاية تشرين الاول/اوكتوبر ، وصدرت اربعة إعلانات سياسية مختلفة في هذه القضية ، دبجتها مجموعة سميرنوف . في مشروع اول تم إعداده في آب/اغسطس ، وجرى الاحتفاظ به بين أوراق تروتسكي ، بررت المجموعة مساعيها بالاتفاق على الخطة الخمسية و « خطر اليمين » ، لكنها صاغت كذلك انتقادات واضحة حيال سياسة ستالين ، بقولها إنه لم يجر ايلاء اعتبار كاف في الخطة الخمسية للحاجة الى رفع مستوى معيشة الشغيلة المتدني جداً ، وإلى ان اختيار كوادر الحزب كان على قاعدة تجعل من التعبير عن آراء نقدية امراً مستحيلاً ، والى ان مذهب الاشتراكية في بلد واحد يلعب دور حاجز واق للانتهازية مثله مثل الافضلية الرسمية المعطاة باستمرار للفلاحين المتوسطين . في الوقت ذاته الذي احتفظ فيه طالبو العودة ، إذاً ، بموقف المعارضة بشأن كل النقاط ، كانوا يسلّمون كذلك باخطائها . اعلنوا أنهم اخطأوا حين اعتقدوا أن اللجنة المركزية ستنعطف يميناً ، في سعيها وراء وسيلة للخروج من الأزمة ، وتفتح الطريق إلى الترميدور . ولم يبرر مخاوفهم غير سلوك الاقلية البوخارينية . اتفقوا على القول بأنه إزاء الظروف الحالية الخطيرة ، على قيادة الحزب ألا تسمح بقيام التكتلات ، لأنها إذا اقدمت على ذلك لن يستفيد منه غير العناصر اليمينية . على المعارضة التروتسكية ، بالتالي ، أن تحل نفسها بما هي تنظيم ، وان ينفصل اعضاء مركزها القيادي « الذي كان له وجود خلال سنوات بأسماء مختلفة » ، بعضهم عن البعض الآخر ، ويوقفوا كل اشكال النشاط السري . طلبوا كذلك وضع حد نهائي لاعمال الانتقام ضد المعارضة ، ووجهوا مرافعة حماسية يطالبون فيها باستدعاء تروتسكي « الذي يرتبط مصيره بمصير الطبقة العاملة ، علماً ان الاتحاد السوفياتي والشيوعية العالمية غير قادرين على الاستغناء عن خدماته[٩٠] » .

لم يتخل سميرنـوف والمتضامنون معه عن مطالبهم إلا ببطء شديد ، وبعد

---

(٨٩) Vide تقرير لراكوفسكي في الـB.O ، العدد ٧ ، ١٩٢٩ .

(٩٠) المحفوظات .

ان دافعوا عنها باستبسال . كانت السنة تتقدم والصعوبات تتنامى ، وفي الواقع ان ستالين كان اكثر تلهفاً من قبل لضمان استسلامات جديدة . الا انه لم ينتزع من هذه المجموعة ارتداداً بمهانة ذلك الذي انتزعه من رادك وبريو براجنسكي . فيما لطف سميرنـوف واصدقاؤه انتقاداتهم لستالين ثم تخلوا عنها واستبعدوا مطالب شتى ، ظلوا مع ذلك يصرون على السماح لهم ، حتى في فترة استسلامهم ، بالمطالبة بعودة تروتسكي ، وحول هذه النقطة بالذات طالت المساومة مدة خمسة اشهر . وحين خضعوا في نهاية المطاف ، ظلوا يرفضون التنديد بتروتسكي أو جحده ، وجاء إعلان خضوعهم الذي جرى تذييله بمئات التواقيع ، ونشرته **البرافدا** في ٣ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٢٩ ، جاء اكثر اتزاناً واكثر جدارة من أي عمل من هذا النوع سبقه . كان جو الاستسلام ينفذ الآن إلى اعمق اعماق المعارضة ، الى اكثر التروتسكيين إخلاصاً . إلا أن راكوفسكي الذي كان يعاني من مرض خطير (كان يصاب بنوبات قلبية) وتم نقله من أستراخان الى بارنول - نجح مع ذلك في إعادة تجميعهم . تحت تأثيره توقف قسم من المعارضة ، يضاهي بعدده تقريباً القسم الذي تبع سميرنوف ، على حافة الاستسلام . أعلن راكوفسكي : « إننا نكافح من اجل **البرنامج الكامل** للمعارضة . اولئك الذين يقيمون السلام مع ستالين ، لأنه يضع موضع التنفيذ الجزء الاقتصادي من البرنامج ، والذين يأملون ايضاً ان ينفذ لاحقاً القسم السياسي ، يتصرفون كالاصلاحيين فيما مضى ، حين كان هؤلاء يكتفون بتحقيق مطالبهم بصورة متقطعة وبطيئة » . كانت الافكار السياسية للمعارضة غير منفصلة عن تطلعاتها الاقتصادية . « طالما بقي القسم السياسي من برنامجنا هاجعاً يبقى كل البناء الاشتراكي تحت خطر تبديده بصورة كاملة » ، وكان راكوفسكي يرى أن الاستقامة في القناعات والشهامة في الموقف تجاه الخصوم أمران اكثر اهمية ايضاً . إن قيادة حزبية تنتزع من المعارضين اعترافات بأخطاء وهمية لا تفعل غير تقليد الكنيسة الكاثوليكية التي كانت تدفع الملحدين الى الرجوع عن اخطائهم وهم على فراش الموت ، وقيادة من هذا النوع « تفقد كل حق في احترامها والمعارض الذي يبدل قناعاته بين ليلة وضحاها لا يستحق غير الاحتقار الكامل[٩١] » .

مرت شهور عديدة قبل أن يتوصل فريق راكوفسكي الى تحديد موقفه ،

(٩١) .B.O ، العدد ٦ ، ١٩٢٩ .

ورسالته المفتوحة الى اللجنة المركزية «لم تصبح جاهزة إلا في نهاية آب/أغسطس» . لم يكن من السهل الحصول على ما يقارب الخمسمئة توقيع يتوزع أصحابها على ٩٤ منفى ، لكن كان من الأصعب أيضاً التوفيق في الوثيقة بين كل تلاوين الآراء التي كان يحملها الموقعون . إن مضمون الرسالة الذي كان يتخذ شكل طلب عودة الى الحزب ، يشهد تماماً على أن الجو كان قبل كل شيء جو مصالحة . على غرار بريوبراجنسكي وسميرنوف ، كان راكوفسكي والذين يتبعونه ، كسوسنوفسكي ومورالوف ومديفاني وكاسباروفا والآخرين ، يعلنون أن الوضع الحرج على المستوى القومي وقرار الحزب الاضطلاع بالخطة الخمسية الأولى هما اللذان دفعاهما لعرض التفاوض لأجل الصلح على اللجنة المركزية . فنجاح الخطة سيقوي الطبقة العاملة ويعزز الاشتراكية بينما قد يفتح فشل تلك الخطة الباب للترميدور والردة . وإزاء أخطر نزاع بين قوى الرأسمالية وقوى الاشتراكية ، فهم يفضلون التشبث بالمسائل التي يتفقون حولها مع الحزب على التمسك بتلك التي يختلفون بشأنها معه . كانوا يرون أن أخطار اليمين أقرب وأكثر حدة ، وما كانوا لا يزالون ينتقدونه في سياسة الحزب إنما رغبته الثابتة بتهدئة الفلاح المتوسط . كانوا يؤيدون بصدق وحرارة عظيمين تصنيعاً سريعاً بحيث أنهم سبق أن طالبوا ، من مستعمراتهم الاصلاحية ، بانضباط أقوى في العمل داخل المصانع ، وبعمل حازم ضد أولئك الذين يحاولون استغلال استياء الشغيلة لاغراض معادية للثورة . كانوا لا يزالون يؤكدون أيضاً أنه من الحيوي لنجاح حركة التصنيع أن تتلقى هذه دعم جمهور الشعب ، الذي كان ما ينفك يشعر بألم بالاهمال الذي تم إبداؤه حيال شروط معيشته وبالتضخم المتزايد بسرعة ، وبالعديد من الوعود الرسمية التي لم يتم الوفاء بها ، وبالاعتباط البيروقراطي . ولما كان مقدمو الطلب قد جعلوا من أنفسهم ، على امتداد سنوات ، أبطال نمط العمل الذي تبناه الحزب أخيراً ، فلقد كانوا يعون حقهم الثابت في العودة ، ولا سيما أنهم استقبلوا بالتأييد الانعطافة الى اليسار في سياسة الكومنترن ووافقوا على أن التكتلات مشؤومة . كانوا يأسفون لتفاقم النزاع بين المعارضة واللجنة المركزية ، الذي ساهم فيه مساهمة كبرى إبعاد تروتسكي . ولقد انتهى الاعلان بهذه الكلمات : «نهيب باللجنة المركزية ، وبلجنة المراقبة المركزية وبالحزب بأسره كي يسهلوا عودتنا الى الحزب ، وذلك عن طريق اطلاق سراح البلاشفة - اللينينيين ، والغاء المادة ٥٨ ، وعودة ليف دافيدوفيتش تروتسكي» .

علم تروتسكي بهذا الإعلان حين بلغ برنكيبو في ٢٢ أيلول/سبتمبر فتلقى النبأ برضى ممزوج بالقلق . كان يسعده أن يرى أخيراً اعلاناً من انصاره ، هو الأول منذ شهور عديدة، لا ينضح بالاستسلام الكامل . ومع ذلك كانت لديه مخاوف بشأن مضمونه . وبما أنه نجح أخيراً في إقامة سلسلة من الصلات بالاتحاد السوفياتي عن طريق برلين وباريس وأوسلو ، رأى من واجبه أن يبعث بالرسالة الى مستعمرات المنفيين الذين لم تكن بلغتهم بعد ، لكنه أضاف إليها بنداً من عنده يزيد نصل الاعلان قطعاً . أشار الى أنه يؤيد الاعلان لأنه رغم اعتداله لا التباس فيه . ما كان يمكن رفض توقيعه إلا من كانوا يعتقدون أن الترميدور السوفياتي أضحى ناجزاً ، وأن الحزب مات وأن ما ينبغي فعله ليس أقل من ثورة جديدة في الاتحاد السوفياتي . « مع أنه جرت نسبة هذا الرأي الينا عشرات المرات، فلا علاقة لنا به إطلاقاً. . . رغم القمع والاضطهاد نعلن أن ولاءنا لحزب لينين ولثورة اوكتوبر باق على ثباته » . كان يعترف أيضاً أنه مع المسار الى اليسار والقطيعة بين ستالين وبوخارين تبلور وضع جديد. إذا كان ستالين يقاتل في السابق المعارضة اليسارية مستعيراً حججه من اليمين البوخاريني ، فهو يهاجم الآن اليمين مستعيناً بحجج مستعارة من اليسار بوجه الحصر » . من الناحية النظرية ، كان ينبغي أن يقود ذلك إلى تقارب بين الوسط واليسار ، لكن ما حصل في الواقع أبعد ما يكون عن ذلك . لقد كان تبني ستالين سياسة المعارضة سطحياً ، أو عرضياً أو محض تكتيكي . في الواقع ، بقي التباعد الاساسي عظيماً ، فستالين كان يتصور الخطة الخمسية في اطار الاشتراكية في بلد واحد ، بينما كانت المعارضة تنظر الى السيرورة الكلية لبناء الاشتراكية في سياق ثورة عالمية . هذا الفرق الأساسي كان واضحاً أكثر من أي وقت مضى ، وفي حين كان راكوفسكي واصدقاؤه قد عبروا عن تضامنهم مع سياسة الكومنترن الجديدة أشار تروتسكي باختصار لكن بحزم إلى اعتراضاته تجاه تلك السياسة . إلا أنه كان يعتقد أن راكوفسكي على حق حين يقول إنه مستعد « لإخضاع النضال من أجل الافكار الى القواعد النظامية والانضباطية لحزب مستعد لتأسيس عمله على الديمقراطية البروليتارية » . بما أنهم كانوا مستعدين للدفاع عن وجهات نظرهم داخل الحزب في الفترة التي كان يقود فيها الحزب تحالف من الوسط واليمين ، فعليهم ، بالأحرى ، أن يكونوا مستعدين لفعل ذلك بالذات وقد فقد اليمين كل رقابة . إلا أن التخلي عن وجهة نظره ، بسبب ذلك ، يصبح أمراً خالياً من الشهامة ولا يليق بالماركسية وبمدرسة الفكر اللينينية .

كان تروتسكي يثق ضمناً بتجرد راكوفسكي وشجاعته ، لكنه كان يعرف تماماً أن راكوفسكي يتصرف مضطراً وواقعاً تحت ضغط حالة التشتت . وفي تعليق آخر ، عذر لهجة راكوفسكي المصالحة ، المحسوبة « بهدف امتحان النظام الداخلي للحزب علانية ضمن ظروف سياسية مختلفة » . بعد كل الدروس الحديثة التي تلقاها هذا النظام ، أكان أم لم يكن قادراً على أن يصلح ، ولو جزئياً ، الضرر العظيم الذي سببه للحزب والثورة ؟ هل كان لا يزال يمكن أن يتم اصلاح الجهاز الستاليني بواسطة ذلك الجهاز بالذات ؟ كانت تحفظات راكوفسكي ، وصمته بشأن أخطاء ستالين على المستوى الأممي ، وواقع أنه كان يشدد على انعطافاته الحديثة الى اليسار ، كل هذه الأمور كانت محسوبة بحيث تسهل بدء إصلاح من ذلك النوع . مرة أخرى ، برهن راكوفسكي أن ما يهم المعارضة إنما هو جوهر الأشياء لا شكلها ، ومصلحة الثورة لا طموح أشخاص ومجموعات . « المعارضة مستعدة لأن تحتل الموقع الأكثر تواضعاً داخل الحزب ، فقط إذا كان في وسعها أن تبقى أمينة حيال ذاتها[٩٢] » .

لكن في الوقت ذاته الذي كان تروتسكي يكتب فيه ذلك ، كان يتساءل كم عدد اولئك الذين سيرتدّون ، من بين من وقّعوا على بيان راكوفسكي ، وفي رسالة سرية حذر راكوفسكي من أنه ذهب الى آخر الشوط في سعيه الى المصالحة ، وأن « عليه ألا يقدم على أية خطوة إضافية ! » وفي عدد Bulletin حيث نشر اعلان راكوفسكي ، نشر تروتسكي أيضاً رسالة مغْفلة وجهها مراسل مقيم في روسيا ينتقد فيها راكوفسكي على التملق الوضيع الذي كان يسخى به على المستسلمين . كان المراسل وهو واحد من القلة الباقين على تفاؤلهم حتى ذلك الحين - يثق بأن « ستالين سيخر قريباً على ركبتيه أمامنا ، مثلما كان قد فعل زينوفييف عام ١٩٢٦ » .

في نهاية العام ، لم تكن تواصل المقاومة غير أقلية صغيرة من المعارضين . واذا سلمنا بصحة احد التقارير ، لم يكن باقياً غير ألف من التروتسكيين في المنافي والسجون ، بينما كان هنالك قبل الاستسلام عدة آلاف . لم تكن تلك هي المرة الأولى التي يجد تروتسكي نفسه فيها مضطراً لأن يقول لنفسه : « الأصدقاء الذين وقفوا في البدء الى جانبنا ترنحوا وتاهوا بعد ذلك في

---

(٩٢) Prismo druziam (ليس للنشر) ، ٢٥ ايلول / سبتمبر ١٩٢٩ ، المحفوظات B.O. ، استشهاد مذكور .

العاصفة ! » . وفي الأيام الاخيرة من تشرين الثاني / نوفمبر ، كتب الى مجموعة من انصاره في الاتحاد السوفياتي(٩٣) : « إذا بقي في المنفى ، لا ثلاثمئة شخص مخلصين لرايتهم ، بل خمسة وثلاثون فقط ، لا بل ثلاثة اشخاص ، ستبقى الراية ، وسيبقى الخط الاستراتيجي ، وسيبقى المستقبل » . كان مستعداً لمواصلة النضال ، حتى وحده . هل كان يفكر آنذاك برسالة ادولف يوفي الوداعية ؟ كان يوفي كتب اليه ساعة انتحاره : « اعتقدت دائماً انك لا تمتلك ما يكفي من طبع لينين العنيد الذي لا يلين . لا تمتلك الى درجة كافية تلك القدرة التي كان يحوزها لينين ، والتي كانت تمكنه من أن يواجه لوحده ، ويبقى لوحده على الطريق التي يعتبرها الطريق الصحيحة »(٩٤) .

ومن الغريب ان ستالين كان ينظر ببعض الامتعاض الى عودة المستسلمين المتسارعة الى موسكو ، مهما تكن المكاسب التي حققها من جراء ذلك . كان آلاف التروتسكيين والزينوفييفيين قد عادوا الى الحزب ، او رصوا الصفوف حوله ، وكانوا يشكلون وسطاً مميَّزاً تماماً . لم يسمح ستالين لأي منهم بأن يحتل منصباً له ادنى اهمية سياسية . لكن تم تعيين المدراء والمربّين والاقتصاديين في مناصب في كل مراتب الحكم ، وكان لا بد أن يمارسوا فيها بعض التأثير . ومع ان ستالين لم يشك في حماسهم حيال المسار الجديد الى اليسار ، ولاسيما حيال التصنيع ، كان يعرف اية اهمية ينبغي ان يعلقها على الارتدادات التي انتزعها منهم . كانوا لا يزالون معارضين في صميمهم ، يعتبرون أنفسهم الرواد المغبونين للمسار الجديد الى اليسار ، وكانوا يكرهونه ، لا فقط لأنه اضطهدهم ، بل كذلك لأنه الرجل الذي سرق أفكارهم . لا شك انه حوّلهم سياسياً الى عبيد له ، لكن يمكن حقد العبيد المكتوم ان يكون اخطر من العداء المكشوف ، يمكنه ان يبقى لابداً ، صامتاً ، مترقباً ، وان يلاحق السيد بعينيه اليقظتين ، لينقض عليه حين ينزلق أو يكبو .

كان المستسلمون يمتلكون الآن فرصة للتأثير ، مباشرة أو مداورة ، حتى على الستالينيين والبوخارينيين ، الذين كانوا قد تبلبلوا حين رأوا ستالين يتبنى

---

(٩٣) كتب تروتسكي تلك الرسالة ، المؤرخة في ٢٦ / ١١ / ١٩٢٩ ، تحت تأثير اتصال من جانب معارض لا بد أنه كان يشعر بالاستعداد للانضمام الى المستسلمين . المحفوظات .

(٩٤) انظر النبي الأعزل .

الأفكار والشعارات التي اعتقدوا صادقين انها مؤذية حين كان تروتسكي وزينوفييف يناديان بها . بعد كل الانتصارات التي حققها ستالين على المعارضة بمجملها غدا في تناقض شديد مع بعض أنصاره الخاصين به، الذين بدأ يكتشف بينهم تروتسكيين خفيين وبوخارينيين خفيين . كان اولئك العناصر يقولون : إذا كنا على حق في أعوام **١٩٢٥ ـ ١٩٢٧** ، حين رفضنا الدعوات إلى التصنيع السريع وشن الهجمات على الكولاك ، من جانب المعارضة ، وحين نددنا بتروتسكي وزينوفييف كمخربين للتحالف بين العمال والفلاحين ، فنحن الآن مخطئون ، إذاً ، بالتأكيد . وإذا كنا الآن محقين ، وإذا لم يكن في وسع أي شيء ، ما خلا المسار الجديد إلى اليسار ، أن ينقذ الثورة ، أما كان علينا أن نتبنى المسار في السابق ، حين كانت المعارضة تحثنا على القيام به ؟ وكان يضيف الأكثر توسوساً وتدقيقاً : « ألم يكن خسيساً من جانبنا أن نشتم المعارضة ونسحقها ؟ » كانت الأجوبة تختلف بالطبع ، إذ كان البعض يصلون إلى استنتاج معين ، بينما يصل آخرون الى استنتاج آخر[٩٥] . حتى أنه منذ صيف **١٩٢٩** وخريفه ، وفي حين كان المستسلمون يعودون الى صفوف الحزب ، تم طرد بعض الستالينيين القدامى ، لا بل أرسل بعضهم الى المنافي التي كان قد غادرها المستسلمون للتو . كانت الحالات الأكثر بروزاً هي حالة أوغلانوف ، سكريتير منظمة موسكو وأعضاء آخرين في اللجنة المركزية ، الذين تم التنديد بهم كبوخارينيين ، وحالة شاتسكين وستن ولومينا دزه ، وكانوا دعاويين مرموقين وقادة للشبيبة الستالينية ، والثلاثة جرى كشفهم كنصف تروتسكيين .

هذه الحالات تكشف ، وإنْ قليلاً ، حالة الاضطراب داخل الفريق الحاكم بالذات ، اضطراب يشير حقاً الى أن واقع وجود ذلك العدد من المستسلمين ، حول ستالين ، كان يمثل بالنسبة اليه مكسباً مشوشاً . كان ستالين يعرف أنهم لا يزالون ينظرون إلى تروتسكي كدليلهم وملهمهم، وحتى كقائد الثورة الحقيقي. ففي كل مرة كانت تفاوض جماعة منهم بشأن شروط الاستسلام ، كانت تطالب بعودة تروتسكي، وتتمسك بذلك الشرط حتى حين ترضخ بصدد كل النقاط الاخرى المتعلقة بالسياسة والانضباط . واخيراً حين كانت تضطر إلى التخلي عن

(٩٥) كانت نقاشات كهذه لا تزال تدور عام ١٩٣١ ، في الفترة التي كان كاتب هذه السطور يقيم خلالها في موسكو .

تروتسكي ، كان معظم أعضائها يفعلون ذلك بقلب يائس وعينين دامعتين . كان من خنقوا ، كرادك ، اندفاعات قلبهم العفوية ، وانهالوا شتائم بحق تروتسكي ، قليلين وقليلين جداً . وكانت فورات رادك العنيفة تثير الاشمئزاز ، حتى في صفوف الستالينيين القدامى. كان تروتسكي يمثل لمعظم المستسلمين كل ما قاتلوا من اجله في أفضل الأيام وأمجدها . كان انهيارهم وإذلالهم قد عزلاه سياسياً ، لكنهم كانوا لا يزالون يُبرزون بصورة أقوى وأوضح عظمته الأدبية . كان المستسلمون ، والبوخارينيون والستالينيون المترددون ، ينهلون بنَهَم كل كلمة تصل منه الى الاتحاد السوفياتي . في اللحظة الحرجة ، حين كانت القرارات المهمة على وشك أن تؤخذ ، كانوا يتهامسون : « ماذا يقول ليف دافيدوفيتش بصدد هذا الموضوع؟ » وذلك أحياناً حتى في غرف انتظار الدخول على ستالين . كان الـ Bulletin يُتداول في موسكو ، إذ كان حزبيون عائدون من مهمات في الخارج ، وبخاصة اعضاء في السلك الدبلوماسي ، يُدخلون نشرة المعارضة سراً ويؤمنون تداولها في صفوف أصدقائهم . ومع أنه لم يصدر من الـ Bulletin اكثرمن ألف نسخة من كل عدد ، وان بعض تلك الأعداد فقط أمكن تداولها بتلك الطريقة ، كانت تعليقات تروتسكي وتوقعاته ، والنتف القليلة المختارة من هجماته اللاذعة تنتقل سريعاً من فم لفم . لذا لم يكن في وسع ستالين ان يرتاح على اكاليل غاره ويتأمل هذا الغليان بهدوء .

قدمت له قضية بلومكين فرصة ليضرب . كان جاكوب بلومكين ، الموظف الكبير في الفرع الخارجي للغيبيو ، مارس في السابق عملاً غريباً ، وكان دوره الحالي اكثر غرابة أيضاً . عشية الثورة ، انضم ، وهو بعد مراهق ، الى المنظمة الارهابية في الحزب الاشتراكي ـ الثوري . كان هذا المثالي الرومانسي ، الشاعر قليلاً ، يبدي اخلاصاً مبكراً ، بريئاً وغير محدود لقضيته . في تشرين الأول/اوكتوبر ١٩١٧ ، كان في عداد الاشتراكيين ـ الثوريين اليساريين الذين تحالفوا مع البلاشفة ، وكان يمثل حزبه في التشيكا ، الموضوعة آنذاك تحت قيادة دزرجنسكي ، وهكذا كان هذا الشاب ابن العشرين عاماً (تختار الثورة عشاقها في ريعان الشباب) احد الأباء المؤسسين للتشيكا . وحين قطع حزبه علاقته بالبلاشفة ، انطلاقاً من موضوع صلح بريست ليتوفسك ، شارك رفاقه قناعتهم الشرسة التي تعتبر ان البلاشفة خانوا الثورة حين عقدوا ذلك الصلح . وحين قرر رفاقه تنظيم انتفاضة ضد حكومة لينين واجبار الجمهورية السوفياتية على شن

الحرب على المانيا ، حددوا رجلين ليتولوا اغتيال الكونت ميرباخ ، سفير المانيا في موسكو ، وكان بلومكين احدهما . ولقد نجح في مهمته ، وكان ذلك إشارة انتفاضة سحقها تروتسكي . واوقف البلاشفة بلومكين وجاؤوا به إلى تروتسكي .

ويذكر الجميع ان الحزب البلشفي ذاته كان في تلك الفترة منقسماً انقساماً عميقاً حول موضوع صلح بريست ـ ليتوفسك . هكذا رغم ان الحزب اعتبر الاشتراكيين ـ الثوريين اليساريين خارجين على القانون ، كان العديد من البلاشفة يشعرون بتعاطف شديد مع قاتل ميرباخ ، مع انهم كانوا يدينون عمله . وقد خاطب تروتسكي عواطف المتمردين الثورية ، وسعى لكي يدركوا كم كان عملهم شاذاً ، وذلك بهدف جعلهم يهتدون الى وجهات نظر البلاشفة . وحين مَثَل بلومكين أمامه ، بدأ نقاشاً طويلاً وجدياً مع ذلك الارهابي الشاب وسريع التأثر . وندم بلومكين ، بعد أن رضخ امام قدرة تروتسكي الفائقة على الاقناع ، وطلب إعطاءه الفرصة ليكفر عن خطئه . وقد حكم عليه بالإعدام ، Pro forma* ، وجرى حتى إبلاغ الحكومة الالمانية بأنه تم اعدامه ، لكنه مُنح ، في الواقع ، الغفران ، واتيحت له فرصة إثبات إخلاصه للثورة . فأخذ على نفسه عندئذ أن يتولى تنفيذ أخطر المهمات لحساب البلاشفة، وعمل لهم خلال الحرب الأهلية خلف خطوط الحراس البيض . كان الاشتراكيون الثوريون اليساريون يعتبرونه خائناً ، وحاولوا اغتياله في العديد من المرار . بعد احدى تلك المحاولات ، وإذ كان يبل من إصابته في إحدى المستشفيات ، قذفوا بقنبلة يدوية الى القاعة التي كان يرقد فيها ، فأمسك بها وقذف بها من النافذة في اللحظة ذاتها التي انفجرت فيها . إثر ذلك ، اعاد البلاشفة اعتباره ، وقد خدم في هيئة اركان تروتسكي ، ودرس في الاكاديمية العسكرية ، واشتهر الى حد ما كناقد عسكري . وكان نشطاً أيضاً في الكومنترن . وبعد الحرب الأهلية ، انضم من جديد إلى صفوف التشيكا او الغيبيو ، وعمل كضابط كبير في قسم مكافحة الجاسوسية . لم يكن ثمة حدود لإيمانه بتروتسكي ، فقد كان متعلقاً بمفوض الحرب بكل خيوط مزاجه الانفعالي . وكان يقيم كذلك علاقات صداقة وثيقة مع رادك الذي كان يعبده وكان أسهل بلوغاً ومعاشرة من تروتسكي . وحين انتقل تروتسكي ورادك الى المعارضة ، لم يخف بلومكين تضامنه معهما ؛ ومع ان طبيعة عمله منعته من

(*) اي شكلياً (م) .

الانخراط في نشاطات المعارضة ، اعتبر أن واجبه يقضي عليه بأن يعترف لمنجنسكي ، قائد الغيبيو ، بحقيقة موقفه ؛ وبما أنه كانت تُعلق أهمية كبرى على مهارته في عمله بمكافحة الجاسوسية ، ولم يكن يشارك في عمل المعارضة ، ولم يقترف يوماً أي اخلال بالانضباط ، سُمح له بالاحتفاظ بآرائه والبقاء في منصبه . وقد بقي في الحزب وفي الغيبيو حتى بعد طرد المعارضة .

في صيف ١٩٢٩ ، خلال تنقله في إحدى المهمات ، من الهند حتى روسيا ، توقف بلومكين في القسطنطينية ، حيث التقى ليوفا ـ حسب رواية تروتسكي ـ صدفة في الشارع . ومن الجائز الشك في أن يكون ذلك اللقاء تم صدفة ، لأنه أمر غير معقول أن يصل بلومكين إلى تركيا دون أن يكون في نيته الاتصال بتروتسكي . وإذ التقى ابن الأخير ، عرضاً أو لا ، فقد طلب موعداً مع الأب . رفض تروتسكي في البدء ، معتبراً أن المخاطرة كبيرة جداً ، لكن حين جدد بلومكين التماسه ، بلهجة التضرع ، وافق على استقباله .

وصل بلومكين ليفتح قلبه للرجل الذي مثل قبل احد عشر عاماً أمامه بصفة قاتل ميرباخ . وكمعظم المعارضين كان مرتبكاً ، عرضة لأزمة ولاء . كان يجد من الصعوبة بمكان أن يوفق بين وضعه في الغيبيو وعواطفه تجاه المعارضة ، وكان يحس بنفسه ممزقاً بين المعارضين الذين استسلموا واولئك الذين كانوا يقاومون ، بين ايمانه بتروتسكي وصداقته حيال رادك . ولم يكن يعتقد ان القطيعة بين هذين الرجلين امر لا يمكن إصلاحه ؛ وبحكم سذاجته ، كان يأمل حتى التوفيق بينهما . بقي ساعات طوالاً وجهاً لوجه مع تروتسكي خلف باب مقفل ، ينقل إليه اخبار موسكو ويستمع بنهم إلى حجج تروتسكي المتعلقة بالمسؤوليات ، وبواجب المعارضة وتفاهة الاستسلام .

طرح على تروتسكي أزمته الضميرية الخاصة به ، وتكلم على رغبته في الاستقالة من الغيبيو . وثناه تروتسكي عن ذلك بقوة . قال له تروتسكي ان عليه ان يعمل للغيبيو باخلاص ، حتى مع اخذ صعوبة الوضع بعين الاعتبار . فالمعارضة التزمت بالدفاع عن الدولة العمالية ، وما على أي معارض ان يتخلى عن اي منصب رسمي ، فهو يعمل فيه باسم مصالح الدولة لا باسم التكتل الستاليني . ألم تكن المعارضة الى جانب الاتحاد السوفياتي في النزاع بشأن سكة حديد منشوريا ؟ كان نشاط بلومكين موجهاً بكامله ضد العدو الخارجي ، ولم

يكن هناك انقطاع بين مواصلة ذلك النشاط وموقف المعارضة . وقد قبل بلومكين النصيحة وطلب الى تروتسكي ان يكلفه برسالة وتعليمات الى معارضي الداخل . وعرض كذلك مساعدته لاقامة اتصالات مع الصيادين الاتراك وتنظيم المرور السري لنشرة المعارضة Bulletin على الحدود بالاتفاق معهم .

أعطاه تروتسكي الرسالة ، واحتفظ بنسخة عنها في المحفوظات . ولا تنطوي هذه الوثيقة على شيء يذكر ، من قريب أو من بعيد ، بمؤامرة ، مهما يكن جهد التخيل الذي يمارسه المرء . كان مضمونها من العمومية، لا بل جزئياً من انعدام الأهمية ، بحيث برهن تروتسكي وبلومكين عن عدم احتراس حين خاطرا بنقل تلك الرسالة . كان تروتسكي يتوقع فيها ان ستالين سيجد نفسه من الخريف وصاعداً امام وضع صعب للغاية ، وان المستسلمين سيدركون حينذاك إلى أي حد كان استسلامهم عديم الجدوى . ويدعو أنصاره كذلك للمقاومة ويبدي احتقاره الشديد للجبناء ؛ كما يبلغ اولئك الأنصار أنه يستعد لنشر هجوم ضد رادك يذكر لهم خطوطه الاساسية . وللمرة الألفين يدحض الاتهام الذي يردده الآن رادك ، والذي مفاده أنه بصدد تشكيل حزب جديد ؛ وقد كرر أن المعارضة لا تزال جزءاً لا يتجزأ من الحزب القديم ؛ وأشار كذلك الى أنه بصدد تشكيل منظمة عالمية للمعارضة ، شارحاً ، مع الكثيرمن التفاصيل قليلة الأهمية ، حقيقة الخلافات التي تمزق الالمان والفرنسيين والنمساويين ، أكانوا تروتسكيين أو زينوفييفيين ، وراجياً الروس ألا يحبطهم ذلك ، لا بل أن يكونوا مطمئنين واثقين بالمستقبل ، لأن المعارضة العالمية لا بد أن تبرز أخيراً كقوة سياسية حيوية . وإنه لمؤثّر التفكير بأن المنفيين كانوا يعلقون على ذلك آمالاً بتلك الضخامة ، وبأن على تروتسكي طمأنتهم . لكن على امتداد الرسالة لم يكن هنالك شيء لم يسبق أن قاله ، أو كان على وشك ان يقوله علناً ، ولاسيما في الـ Bulletin(٩٦).

---

(٩٦) نص الرسالة غير المؤرخ موجود في المحفوظات ، القسم المقفل ، الملف الروسي . استحال عليّ أن احدد التاريخ الدقيق لزيارة بلومكين . ويبدو استناداً الى الاثباتات الذاتية انها تمت في تموز / يوليو او في آب / اغسطس ١٩٢٩ . وكانت رسالة تروتسكي تشمل كذلك التعليمات التالية بشأن التنظيم : طلب الى انصاره ألا يوجهوا إليه رسائل عبر اوربانز ، زعيم اللينينبوند الالماني ، الذي كان قد افتتح معه مساجلة سياسية ، وحذرهم من خارين ، الموظف في السفارة السوفياتية في باريس ، الذي ندد به كعميل استفزازي ستاليني . (يبدو إلى حد ما أن خارين هو الذي كان صلة الوصل بين تروتسكي وروسيا بعد نفي الأخير بقليل) . وهذه التعليمات ايضاً ما كان يمكن اعتبار أي شيء فيها يمت بصلة الى مؤامرة ، أو حتى يتسم بالسرية . ففي كل حركة من =

وبالطبع ، من الممكن الافتراض أنه أعطى بلومكين تعليمات شفهية لها طابع تآمري بصورة أكثر وضوحاً، لكن من الغريب أنه حتى الغيبيو لم تعلن يوماً أنه فعل ذلك ، وإذا اعتبرنا الاثباتات الجوهرية التي يقدمها موقفه ونشاطه ومراسلاته ، نرى أنها تشير بوضوح الى أنه لم يكن لديه شيء يقوله سراً لأتباعه لم يقله لهم ، أو لم يكن في وسعه أن يقوله لهم ، علانية . وقد مضى بلومكين ، الذي كان يحمل تلك الرسالة ، مفعماً بالتفاؤل ، واثقاً مذاك بقدرته على أن يبرهن لرادك وللآخرين أن اتهاماتهم لا أساس لها من الصحة ، وأن تروتسكي هو ، أكثر من أي وقت مضى ، بلشفي عظيم وشريف ، وأن على المعارضة أن تستعيد وحدتها تحت قيادته .

بعد عودة بلومكين الى موسكو بوقت قصير ، تم توقيفه واتهم بالخيانة وأعدم . وليس من الممكن تحديد الطريقة التي عرفت عبرها الغيبيو بتحركاته . فالبعض اعلنوا أنه باح بسره لامرأة كان يحبها ، وأنه لما كانت هذه بالذات عميلة للشرطة السرية فقد تولت فضحه ؛ بينما يؤكد آخرون أنه لدى عودة بلومكين مضى لتوّه إلى رادك ، الذي خاف أن تحوم حوله الشبهات وكان متحرقاً لاقناع ستالين بصدق ارتداده فخان صديقه . وهذه الرواية اعتُبرت صحيحة في العديد من الأوساط وعادت على رادك بالاحتقار والحقد . ووفقاً لرواية أخرى أكد صحتها فيكتور سرج وقدمها ، كان دور رادك مثيراً للرثاء أكثر مما كان مشؤوماً . روى سرج أنه حالما عاد بلومكين الى موسكو شعر بأن الغيبيو تعرف أين كان ، وبأن عملاءها يقتفون أثره ليكتشفوا بمن يتصل من المعارضين . وقد قلق رادك بسبب وضع بلومكين الصعب فنصحه بالاتصال بأورجو نيكيدزه ، رئيس لجنة الحزب للرقابة المركزية والاعتراف له بكل شيء . كانت تلك هي الطريقة الوحيدة (تلك على الأقل هي الكلمات المنسوبة اليه) امام بلومكين لانقاذ نفسه . فمع أن أورجو نيكيدزه كان صارماً للغاية بخصوص قضايا الانضباط ، إلا أنه كان رجلاً مرهفاً ، وحتى شهماً على طريقته ، الوحيد في الهرم الذي كان يمكن الاعتقاد بأنه قد يعالج الحالة بصورة صارمة ، بالتأكيد ، لكن ليس من دون إنسانية . ولا نعرف في الواقع إذا كان بلومكين أوقف قبل اتصاله بأورجو نيكيدزه أو بعد ذلك

= هذا النوع ، عادة ما تعطى التحذيرات ضد العملاء الاستفزازيين اوسع علانية ممكنة ، بحيث يأخذ اكبر عدد ممكن من الناس حذرهم .

الاتصال[٩٧]. ربما أمكن تفسير كل هذا اللغز بصورة أكثر بساطة : ربما وقعت العين اليقظة لعضو في القنصلية السوفياتية بالقسطنطينية على بلومكين إذ كان يستقل المركب الى برنكيبو ، أو أن عميلاً استفزازياً في منزل تروتسكي تمكن من اكتشاف الزائر المجهول الذي بقي تروتسكي مغلقاً على نفسه معه لوقت طويل .

ويروي ضابط سابق في الغيبيو أن بلومكين تصرف بعنفوان مشهود خلال الاستجواب ، وسار رابط الجأش إلى مكان الاعدام ، وحين كانت الطلقة القاضية على وشك أن تطلق ، صاح بأعلى صوته : « فليعش تروتسكي[٩٨] ». وخلال السنوات اللاحقة ، سوف تدوي هذه الصيحة بصورة أكثر فأكثر تواتراً بين صلية وصلية لفرق الاعدم .

كان ذلك الاعدام هو الأول من نوعه . لا شك أن تروتسكيين آخرين سبق أن دفعوا حياتهم ثمناً لقناعاتهم . ماتوا جوعاً وإنهاكاً . ففي السنة السابقة ، مثلاً ، مات بوتوف ، أحد سكريتيري تروتسكي ، في السجن في نهاية اضراب طويل عن الطعام . إلا أن القاعدة التي كانت تقضي بألا يكرر البلاشفة أبداً خطأ اليعاقبة المميت فيلجأوا إلى الاعدامات في صراعاتهم ، جرى احترامها حتى ذلك الحين ، على الأقل من حيث الشكل . هذه القاعدة جرى تحطيمها منذ ذلك الحين ؛ كان بلومكين أول عضو في الحزب ينفذ فيه حكم الاعدام لجرم متعلق بالحياة الداخلية للحزب ، ولجرم لم يكن يزيد عن واقع الاتصال بتروتسكي .

كان ستالين يخشى أن تجعل الاستسلامات الخط الفاصل بين المعارضة والحزب غير واضح ، وجاءت قضية بلومكين تعزز تلك المخاوف . لم يكن في وسعه السماح بأن يقوم ضابط كبير في الغيبيو ، في الخدمة الفعلية ، بزيارة الى تروتسكي بوصفه رفيقاً ، وبأن يلعب دور الوسيط بين تروتسكي والمستسلمين . فالتسامح مع ذلك كان يعني تعريض كل الاتهامات الرسميةالمساقة ضد تروتسكي للسخرية وتشجيع تزايد الاتصالات . ويمكن أن يكون ستالين بالذات لم يؤمن بالطابع غير المؤذي لمهمة بلومكين ولرسالة تروتسكي الى المعارضة . ربما

---

(٩٧) انظر رسالة تروتسكي الى روسمر في ٥ - ١ - ١٩٣٠ . الـB.O. ، العددان ٩و١٠ ، ١٩٣٠ وسرج : مذكرات ثوري ، ص٢٧٧ - ٢٧٩ .

(٩٨) أ. أورلوف ، القصة السرية لجرائم ستالين ، ص٢٠٢ .

عرضت لنفسه المتشككة فكرة أنه قد يكون من قبيل انعدام الحذر الاعتقاد بأن قاتل ميرباخ قد لا يطلق العنان لعواطفه السياسية القوية ، لكن البسيطة ، بصورة عمل ارهابي . في كل حال ، كان ينبغي ان يشكل إعدام بلومكين تحذيراً للآخرين . كان ينبغي أن يبيّن لهم ذلك أنه لا يصح المزاح مع الاتهامات الرسمية بالعداء للثورة ؛ وإن المادة ٥٨ هي بالضبط المادة ٥٨ ، وأنه سوف يُعاقَب في المستقبل على العلاقات الرفاقية مع منفيّ برنكيبو بكل الصرامة التي يسمح بها نص قانوني جرى حرفه وإفساده . ومن المثير للفضول أن أي حكم بالاعدام لم يكن قد أُنزل بالتروتسكيين المعلنين ، الذين كانوا على اتصال بقائدهم من سجنهم أو من مستعمرتهم الاصلاحية ، يرسلون اليه تحيتهم الجماعية في ذكرى ثورة اوكتوبر وفي اول ايار ، والذين كانت تظهر أسماؤهم تحت مقالات واطروحات في Bulletin Oppositsii . كان التحذير موجهاً ، مؤقتاً ، إلى أعضاء الحزب ، وأصحاب المناصب الرسمية ، لاسيما في الغيبيو ، وإلى المستسلمين الذين تمت إعادتهم للحزب . جرى رسم خط الفصل بين الحزب والمعارضة من جديد ، وبالدم .

علم تروتسكي بالاعدام عن طريق معارض غُفْل ، كان لا يزال في خدمة الحكومة ، وكان في مهمة رسمية في باريس(٩٩). لكن موسكو احتفظت بالصمت ، وحين علت الجلبة عن طريق الصحافة الالمانية ، كذبت النبأ الصحف الشيوعية . وخلال أسابيع عديدة ، انتظر تروتسكي معلومات إضافية ، وفي رسائله الموجهة لأتباعه في روسيا ، لم يصدر عنه أي تلميح الى بلومكين . كل ذلك ، حتى بداية كانون الثاني/يناير١٩٣٠ ، حين جاءت رسالة من المعارضين في موسكو تبدد كل الشكوك المحتملة . وللحال كشف تروتسكي ظروف لقائه مع بلومكين ، وأعلن أن ستالين هو الذي أمر شخصياً بالاعدام وأن ياغودا نفذ الأمر حتى دون الرجوع الى منجينسكي ، القائد الاسمي للغيبيو. وقد نشرت الـ Bulletin الرسالة التي وصلت من موسكو ، والتي كان كاتبوها يؤكدون أن رادك هو الذي خان بلومكين . اما تروتسكي ، فبعد أن أعاد النظر فيها ، بدأ يشك بأن يكون الأمر حصل هكذا ، ولمّح إلى أن من المرجح أن يكون رادك تصرف

---

(٩٩) نقل ر . مولينييه النبأ الى تروتسكي في ١٠ كانون الاول/ ديسمبر ١٩٢٩ ، عبر رسالة كانت مرفقة بتقرير كئيب حول تفكك المعارضة . المحفوظات ، القسم المقفل .

بشكل أحمق وغير مسؤول ، ولكن عن حسن نية . كتب تروتسكي يقول : « إن مأساة بلومكين هي في كونه وضع ثقته في رادك ، وفي أن رادك يضع ثقته في ستالين » .

أوعز تروتسكي الى أنصاره في البلدان الغربية بأن يثيروا عاصفة من الاحتجاجات . كتب إلى روسمر في ٥ كانون الثاني/يناير ١٩٣٠ : « ينبغي أن تغدو قضية بلومكين قضية ساكو وفانزيتي المعارضة اليسارية ». قبل ردح من الزمن ، كان إعدام ساكو وفانزيتي، الفوضويين الايطاليين الاميركيين، في بوسطن ، قد أثار احتجاجاً منقطع النظير على المستوى العالمي ، نظمه الشيوعيون والاشتراكيون والراديكاليون والليبراليون . أما مصير بلومكين فلم يثر حتى جزءاً لا يذكر من السخط الذي كان قد أثاره إعدام ساكو وفانزيتي . كان تحريك ضمير اليسار بوجه خطأ قضائي ارتكبته عدالة دولة بورجوازية أكثر سهولة بكثير من تعبئة ذلك الضمير ضد Justizmord تم اقترافه في دولة عمالية . ومن جهة اخرى ، لم تكد تمر بضعة أسابيع حتى توجب أن يحتج تروتسكي ، ويطلب الى الآخرين أن يحتجوا ، ضد إعدامين آخرين لمعارضين ، وضد أعمال الانتقام العنيفة بحق راكوفسكي وأصدقائه . مرة أخرى ، لم ينجح في خدش اللامبالاة الصلدة لدى أولئك الذين أَمَل تحريك شعورهم(١٠٠).

انتهى عام ١٩٢٩ في روسيا بزلزال فاق عنفه كل توقع . كانت سياسة ستالين في بداية العام لا تزال مترددة وحائرة . كانت حركة التصنيع تتعاظم وتنمو ، لكن الحكومة لم تكن تخلت بعد عن كامل حذرها . في نيسان/ابريل طالب المؤتمر التداولي السادس عشر للحزب بتجميع أسرع ، لكنه أعلن أن المزارع الخاصة ستبقى مهيمنة في الاقتصاد الريفي لسنوات عديدة أخرى . كانت الخطة الخمسية تتوقع تجميع ٢٠٪ فقط من الملكيات الصغيرة حوالي عام ١٩٣٣ . كان على الكولاك أن يدفع ضرائب أعلى ويقدم المزيد من الحبوب ، لكن لم يكن ثمة تفكير بعد بتصفيته . ولم تأت نهاية العام حتى بدا كما لو أن

---

(١٠٠) في العدد ١٠ من .B.O اورد تروتسكي اسمي الرجلين اللذين تم اعدامهما ، سيلوف ورابينو فيتش ، واعلن انهما اتهما بتخريب النقل عبر الخط الحديدي . وفقاً لأورلوف (مرجع مذكور ، استشهاد مذكور) ، كانت الجريمة الحقيقية لرابينوفيتش ، وكان هو الآخر ضابطاً في الغيبيو، انه اعلم الحلقات السرية التروتسكية في موسكو بإعدام بلومكين .

زوبعة كنست كل هذه الخطط والحذر الذي أوحى بها . قلبت حركة التصنيع كل الحدود الموضوعة ؛ مراراً وبصورة متتالية ، جرى رفع مستوى الأهداف المزمع بلوغها وبدأ يُتداول شعار فحواه أن الخطة ينبغي أن تنجز في أربع سنوات ، ثلاث سنوات ، لا بل سنتين ونصف . وفي الذكرى الثانية عشرة لثورة اوكتوبر ، اصدر ستالين قراره بموت المنشأة الزراعية الخاصة ، بعد أن واجهته الصعوبات التي سبق أن توقعها تروتسكي ورفض الفلاحون تسليم الحبوب . كان أمر اليوم ينص على التجميع الكامل والفوري ولم تمر أربعة أشهر حتى أُعلن أن ٥٠٪ من المزارع ، أي حوالي ١٣ مليون مزرعة ، تم تجميعها . طردت السلطة الكاملة للدولة والحزب الكولاك من أرضهم وأجبرت ملايين الفلاحين الآخرين على جعل كل ما يملكون ملكية مشتركة وقبول نمط جديد من الانتاج[١٠١].

اصبحت كل قرية ، او ما يقاربها ، ميدان قتال في حرب طبقات لم ير أحد مثيلاً لها من قبل ، حرب تخوضها الدولة الجماعية ، تحت قيادة ستالين العليا ، بهدف الاستيلاء على روسيا الريفية والتغلب على فرديتها العنيدة. كانت قوى الجماعية محدودة ، لكن جيدة التسليح ، ومتحركة وتقودها ارادة واحدة . ولقد أُخذت الفردية الريفية ، التي كانت قواها الضخمة مبعثرة ، على حين غرة ، وليس معها من سلاح غير هراوة اليأس الخشبية . في تلك الحرب كما في أي حرب أخرى ، ظهرت وفرة في المناورات ، والمناوشات المرتبكة ، والهجمات والانسحابات المشوشة ، لكن المنتصرين استولوا في الأخير على الغنائم وساقوا جماعات لا تحصى من الأسرى الى سهول سيبيريا الفارغة والشاسعة والى المساحات الموحشة والمغطاة بالجليد في الشمال الكبير . إلا أنه في هذه الحرب لم يستطع المنتصرون ، بعكس الحال في كل الحروب ، ان يسلِّموا بمدى اتساع العداوات أو أن يكشفوه ؛ لقد اضطروا للزعم أنهم بصدد تنفيذ تحويل صحي لروسيا الريفية ، بموافقة أكثرية ساحقة . هكذا بعد عدة عقود ، بقي العدد الدقيق للضحايا ، الذي لا شك بأنه يبلغ الملايين ، طي الكتمان .

إن فجائية ذلك الزلزال واتساعه وقوته بلغت حداً لم يستطع معه غير

(١٠١) انظر ك.ب.س.س ، ف ريفولوتسياخ ؛ ج ٢ ، ص ٤٤٩ ـ ٤٦٩ ، ٥٤٣ وما بعدها . انظر كذلك ستالين ، سوشينيا، ج ١٢ ، ص ١١٢ ـ ١٣٥ ، والبرافدا في ٦ ـ ١ ـ ١٩٣٠ ، واخيراً دويتشر ، ستالين ، من ص ٣١٧ الى ص ٣٢٢ .

القليلين ممن شهدوه أن يقيسوا بدقة مدى ضخامته ويقدروا تلك الضخامة حق قدرها . حتى تاريخ حديث جداً ، كانت المعارضة التروتسكية تمكنت من التأكيد ، بأن ستالين ، إذ أرسى المسار الجديد إلى اليسار ، لم يكن يفعل غير تطبيق التدابير التي طالبت بها . لكن التبدل الكبير تخطى مطالباتها إلى حد أنه أذهل التروتسكيين والستالينيين ، على حد سواء ، ناهيك بالبوخارينيين . وبين التروتسكيين ، أظهر التوفيقيون أنهم يدركون تماماً ضخامة الأحداث وطابعها الحاسم . اما اولئك الذين ظلوا يقاومون فكانوا يتشبثون بالمقدمات المنطقية والاستدلالات المعدة خلال السنوات السابقة . فراكوفسكي ، مثلاً ، وصف أوامر ستالين بإلغاء الكولاك بأنها « فصاحة يسارية متطرفة » وأكد أن الوزن النوعي للمزارع الغنية في الاقتصاد القومي سيتنامى أكثر فأكثر ، رغم كل النقاشات المملة بصدد الرأسمالية الزراعية[١٠٢]» . وقبل الذكرى الثانية عشرة للثورة بقليل ، اعتبر تروتسكي ذاته أن « النمو البطيء للاقتصاد الريفي . . . . والصعوبات التي مسرحها الريف ، تسهل تنامي سلطة الكولاك وتطور تأثيرهم[١٠٣] . . . » . لم يكن يتصور أنه يمكن تكنيس **٢٥** مليون مزرعة خاصة صغيرة بالقوة ، دفعة واحدة وفي مدى سنوات قليلة .

ومع ذلك ، ففي بداية عام **١٩٣٠** ، بدأ تروتسكي يدرك ما يحصل ، وفي سلسلة من الأبحاث المخصصة لنقد الخطة الخمسية ، فصَّل خطاً جديداً للهجوم على سياسة ستالين . تميز هذا النقد الجديد بازدواجية ديالكتيكية : أقام فصلاً واضحاً جداً بين « اتجاه تقدمي اشتراكي » و«اتجاه تقهقري بيروقراطي» في الاتحاد السوفياتي ، وسلط الأضواء على نزاعاتهما الدائمة . هكذا يبتدىء ، مثلاً ، بحثه : «حول قلة الحذر الاقتصادية ومخاطرها » :

« يكتسب نجاح الاتحاد السوفياتي على صعيد التطور الصناعي معنى تاريخياً اجمالياً . والاشتراكيون ـ الديمقراطيون ، الذين لا يحاولون حتى أن يقوّموا الوتيرة التي يبرهن الاقتصاد السوفياتي انه قادر على بلوغها ، لا يستحقون سوى الاحتقار . هذه الوتيرة ليست ثابتة ولا أكيدة . . . لكنها تقدم البرهان العملي على الامكانات الضخمة الملازمة

---

(١٠٢) .B.O ، العدد ٧ ، ١٩٢٩ .

(١٠٣) الكتابات ، ج ١ ، ص ٧٦ .

للطرائق الاقتصادية الخاصة بالاشتراكية . وليس صعباً أن نرى ، على أساس التجربة السوفياتية ، أي سلطة اقتصادية كانت تمتعت بها كتلة اشتراكية تضم اوروبا الوسطى واوروبا الشرقية،وأقسام كبيرة من آسيا، لو أن الأحزاب الاشتراكية ـ الديمقراطية استخدمت السلطة التي منحتها إياها ثورة ١٩١٨ وفجرت انتفاضة اشتراكية . لكان للبشرية ، اليوم ، بمجملها ، هيئة مختلفة تماماً . لكن لما كانت الأوضاع كما هي ، فسيكون على البشرية أن تدفع بحروب جديدة وثورات جديدة ثمن الخيانة التي ارتكبها الحزب الاشتراكي ـ الديمقراطي[١٠٤]».

وبعد أن أعاد هكذا ، بقوة ، تأكيد طريقته في تصور الاتجاهات الاشتراكية في الأشياء الجارية بالاتحاد السوفياتي ، هاجم سياسة ستالين الداخلية بالتعابير نفسها التي وصف بواسطتها الخط الجديد للكومنترن : «خط متعرج متطرف يساراً يحل محل الخط المتعرج اليميني السابق». كانت وجهة النظر متطابقة مع الفكرة التي يكونها تروتسكي عن ستالين ، الذي كان يرى فيه وسطياً يتصرف تحت الضغوط المتناوبة لليمين واليسار ، وجهة نظر تصف بصورة مناسبة الموقع الذي احتله ستالين طوال العشرينات في نسيج العلاقات المكونة للحزب ، لكن لا تنسجم بالقدر ذاته مع حقائق السنوات الاخيرة . وإذا اعتبرنا كل شيء ، ظل تروتسكي يعتقد بأن التجميع والتصنيع المكثفين لم يكونا غير مرحلة انتقالية في سياسة ستالين . لم يكن يدرك ، ولن يدرك أبداً بصورة كاملة ، ان ستالين تجاوز في ١٩٢٩ ـ ١٩٣٠ نقطة معينة لا مجال بعدها لأي عودة الى الوراء ، لأنه لم يعد في متناوله وقف حركة التصنيع أو محاولة عقد سلام مع الكولاك الذين كان بصدد تدميرهم. إلا أن الخطأ الأساسي الكائن في حكم تروتسكي ، وسنعود اليه فيما بعد ، لا يجرد من كل قيمةٍ انتقاداته النوعية ، التي كان يستبق فيها معظم المراجعات السياسية التي سيجعل خلفاء ستالين انفسهم أبطالها بعد عام ١٩٥٣ . تماماً كما جعل تروتسكي من نفسه رائد التراكم الأولي الاشتراكي ، في العشرينات ، كان هكذا في الثلاثينات رائد اصلاحات اقتصادية واجتماعية لن تتم المبادرة اليها إلا بعد عشرات السنين .

هاجم في البدء نسبة التوسع الصناعي التي حددتها الخطة الخمسية الأولى

(١٠٤) هذا البحث كُتب في شباط / فبراير ١٩٣٠ ونشر في الـB.O ، العدد ٩ .

في نسختها النهـائية(١٠٥) ، لاحظ أن ستالين انتقل فجأة من خطوة الحلزون إلى قفزات حلبة السباق . لم تكن النسخ الأولى من الخطة تهدف الى أكثر من نسبة توسع سنوية قريبة من ٨ إلى ٩٪، وكان اقتراح المعارضة مضاعفة الوتيرة قد وُصِف بأنه خيالي وغير مسؤول وخطير . والآن جرى تثليث الوتيرة ، وقد لفت تروتسكي الانتباه إلى أنه بدل النضال لأجل نتائج **فُضلى** ، تلقى المخططون والمدراء الأوامر بالضغط للوصول الى **الحد الأقصى** ، دون حسبان أن ذلك يفقد الاقتصاد القوي توازنه وينقص من فعالية الحملة . كانت الأهداف المعينة للانتاج تتجاوز بقدر لا محدود الموارد المتوافرة ، وهكذا كان يحدث عدم اتساق بين الانتاج الأولي والانتاج المصنّع ، وبين الصناعة الثقيلة والصناعة الخفيفة ، بين التثمير والاستهلاك الخاص . وكان التناقض بين التقدم الصناعي والتأخر الزراعي أسوأ أيضاً . وما من حاجة للتوسع هنا في ذكر حالات التفاوت تلك وحالات أخرى من النموذج ذاته ، غالباً ما كان تروتسكي يحللها بالتفصيل . جرى منذ ذلك الحين اعتبار أنه من البديهيات أن تكون تلك التفاوتات هي التي ميزت سيرورة التصنيع بكاملها خلال الحقبة الستالينية وأفسدتها . لكن كما يحدث في أغلب الاحيان ، فبديهيات جيل هي هرطقاتٌ تخوَّف منها جيل سابق ، ولم يكن الشيوعيون هم الوحيدين الذين استقبلوا انتقادات تروتسكي بسخط أو بسخرية .

ومع ذلك ، حين ينتهي المرء ، بعد هذا الردح من الزمن ، إلى إعادة تفحص ما كان يقوله تروتسكي حول هذا الموضوع ، تفاجئه النبرة المتزنة لاعلاناته السياسية أكثر من لهيبها السجالي . كان يسبق كل قطعة نقدية تقريباً باعتراف واضح بشكل خاص بالتطورات المنجزة تحت قيادة خصمه ، مع أنه كان يلح على واقع أن حافز ذلك التقدم موجود في الملكية القومية لوسائل الانتاج وتخطيط الصناعة ، وأن ستالين لم يكن يستخدم فقط تلك الميزات التي يقدمها الاقتصاد السوفياتي بل يسيء استخدامها . لم يكن يؤمن بأن المهماز الاداري يمكن أن يسرع نمو الصناعة . في أغلب الأحيان ، كان المهماز يؤدي إلى التوقف والعطل . ان الملكية القومية لوسائل الانتاج تقود إلى التخطيط الممركز

---

(١٠٥) انظر كذلك رسالة تروتسكي المفتوحة الى اعضاء الحزب ، في الـ B.O. ، عدد ١٠ ، نيسان / ابريل ١٩٣٠ . تعليقاته على المؤتمر السادس عشر ، المرجع ذاته ، عدد ٢٣ وعدد ١٣ ، حزيران / يونيو وتموز / يوليو ١٩٣٠ . نجاحات الاشتراكية ومخاطر انعدام الحذر ، المرجع ذاته العددان ١٧و١٨ ، تشرين الثاني / نوفمبر وكانون الاول / ديسمبر ١٩٣٠ .

وتجعله ضرورياً ، لكن المركزة البيروقراطية القصوى تقود إلى تركيز الأخطاء التي يرتكبها من في السلطة وإلى تضخيمها ، وإلى الشلل في ميدان المبادرة الاجتماعية ، وإلى تبذير رهيب للموارد المادية والبشرية . وكان يضطر دليل غير مسؤول و« معصوم عن الخطأ» لأن يمحو تحت ستار التباهي كل الأخطاء وكل المساوىء ، وإلى أن يستعرض باستمرار نجاحات مشهودة وأرقاماً قياسية لا مثيل لها واحصائيات مدهشة . كان التخطيط الستاليني يشدد على الوجه الكمي للتصنيع ، دون أي شيء آخر . وبقدر ما كانت عالية كمية السلع التي ينبغي انتاجها بأي ثمن ، كانت النوعية متدنية . كان يلزم ، لأجل تخطيط عقلاني ، مجموع مفصل من المُعَامِلات Coefficients الاقتصادية والروائز التي تقيس بصورة متصلة ، لا نمو الانتاج وحسب ، بل كذلك التبدلات في النوعية ، والسعر ، وقدرات المال الشرائية ، والنسب المقارنة للانتاجية ، الخ . . . إلا أن كل مظاهر الاقتصاد تلك كانت تبقى في الظل ، وكان ستالين يقود عملية التصنيع «والمصابيح كلها مطفأة»، في جو من التعتيم الكامل على المعلومات الحيوية .

كان نقد تروتسكي للتجميع يمضي أكثر بكثير إلى عمق الأشياء . أدان تصفية الكولاك على أنها عمل وحشي ، وذلك قبل أن تصل أخبار الأهوال التي أدت إليها بزمن طويل . خلال السنوات التي جرى فيها التنديد به كعدو للفلاحين ، كان قد حث المكتب السياسي على رفع نسبة الضرائب على المزارعين الميسورين ، وتنظيم شغيلة الريف والفلاحين الفقراء ، وتشجيع هؤلاء على تشكيل مزارع جماعية بصورة طوعية ، والالقاء بكل موارد الدولة من الآلات الزراعية ، والأسمدة ، والتسليفات ، والمساعدات الزراعية ، في جانب المزارع الجماعية ، بحيث يسهل ذلك نموها في صراعها بوجه المنشأة الزراعية الخاصة . كانت تلك الاقتراحات تعكس المدى الكامل لسياسته المعادية للكولاك ، وهو لم يذهب يوماً أبعد من ذلك . لم يدر في خلده أبداً أن طبقة اجتماعية بضخامة عدد البورجوازية الريفية ـ يمكن ـ أو يجب ـ تدميرها بمرسوم أو بالعنف ، وأن آلاف الناس ستصادر أملاكهم ويحكم عليهم بالموت الاجتماعي ، موت سيكون كذلك جسدياً لعدد كبير منهم . لا شك أنه كان من بديهيات الماركسية واللينينية ان الاشتراكية والمنشأة الزراعية الخاصة لا تلتقيان في نهاية المطاف ، وأنه ينبغي أن يزول المزارع الرأسمالي من مجتمع يتطور نحو الاشتراكية . كان تروتسكي يعتبر ، كما سبق أن فعل كل البلاشفة حتى تاريخ حديث جداً ، أن الأمر يتعلق

هنا بسيرورة تدريجية يتساقط خلالها المالك الصغير أمام انتاجية الزراعة المجمّعة . وتذكّر هذه العملية ، رغم طابعها الأقل إيلاماً بكثير ، بالطريقة التي تساقط بها الحرفي المستقل الصغير والمزارع الصغير أمام الصناعة الحديثة والزراعة الكبرى في ظل الرأسمالية .

لم يكن ثمة ، بالتالي ، أي عنصر ديماغوجي في فضح تروتسكي الحادّ لتصفية الكولاك . لم يكن يرى في ذلك تحريفاً مؤذياً ودموياً لكل ما دافعت عنه الماركسية واللينينية ، وحسب ، بل كان كذلك لا يؤمن بأن الكولخوزي Kolkhozy الذي استولده ستالين بالقوة سيكون قابلاً للحياة . لقد بيّن أن الزراعة المجمعة تتطلب قاعدة تكنولوجية تفوق من بعيد جداً تلك التي تقوم عليها المنشأة الزراعية الفردية ، وهكذا قاعدة لم تكن موجودة بعد في الاتحاد السوفياتي حيث لم يكن حل الجرار محل الحصان في الفلاحة[١٠٦]. وفي مقارنة معبرة ، يمكن القول بصددها ، مع ذلك ، Comparaison n'est pas raison*، أكّد أنه يستحيل تماماً تحويل استثمارات صغيرة خاصة الى مزارع جماعية قابلة للحياة ، بقدر ما يستحيل تركيب باخرة عابرة للأطلسي بواسطة مراكب صغيرة . لا شك ان ستالين كان ينوي تقديم الآلات في السنوات اللاحقة ، كما توصل في النهاية لأن يفعل ، لكن ما كان تروتسكي يؤكده هو أنه لا يجب أن يسبق التجميع الوسائل التقنية اللازمة لإرسائه،وإلا فإن المزارع الجماعية لن يتم دمجها في الاقتصاد ، ولن تكون انتاجيتها أعلى من انتاجية المزارع الخاصة ، ولن تحمل الى الفلاحين المنافع المادية التي يمكن ان تعوض عليهم خسارة الملكية الخاصة[١٠٧].

---

(١٠٦) قدرت البرافدا في ١٥ يناير ١٩٣٠ أن مليون وخمسمئة ألف جرار ضرورية للتجميع الكامل للزراعة السوفياتية ، وهي درجة من المكننة لم يتم بلوغها قبل عام ١٩٥٦ ، حين تخطى « مرأب الجرارات » المحسوب على أساس الوحدة HP١٥ سقف الـ ١٥٠٠,٠٠٠ . واذا حسبنا في الواقع على اساس الوحدة ٣٠ HP لكان لدينا٠٠٠و٨٧٠ جرار. كان الانتاج السنوي للجرارات HP١٥ لا يتخطى الا قليلاً ٣٠٠٠ جرار عام ١٩٢٩ و ٥٠ الفاً عام ١٩٣٢ . اما الكميات المتوافرة من الآلات الزراعية الاخرى فكانت مهملة اجمالاً ففي بداية اول خطة خمسية ، عام ١٩٢٨ ، لم يكن ثمة اكثر من الف شاحنة في المزارع ، و١٤ الفاً في عام ١٩٣٢. انظر **Narodnae Khoziastvo S.S.S.R.v 1958g الدليل السنوي للاحصائيات السوفياتية ، ١٩٥٩ ، ص ٢٤٣ و ٤٨٧ .**

(*) بالفرنسية في النص الاصلي ، ومعناها ليست المقارنة حجة .

(١٠٧) كتب تروتسكي : « إن تجميع الـ Sokhas (السكك الخشبية) غش واحتيال » . وقد جادل في هذه الحجة بعض الاقتصاديين التروتسكيين (انظر مثلاً ، دراسة يا . غريف في الـ B.O. العدد ١١ ، بعنوان التجميع والاكتظاظ السكاني)، وبالطبع ، بعض الستالينيين، مؤكدين ان المزرعة الجماعية قد تكون اكثر انتاجية من =

وبانتظار أن يجري دمج المزارع الجماعية تقنياً سيتميز رد فعل الفلاحين بهبوط المردود الزراعي أو ركوده، وهو ما قد يهدد بتفجير المزارع الجماعية من الداخل. لقد كان تروتسكي فطناً بشأن عقلية الفلاحين لدرجة أنه حذر موسكو من برنكيبو، من الكارثة التي كانت قيد الاعداد: المجزرة المعممة للمواشي، وفعل ذلك مبكراً جداً، قبل ٥ سنوات من تسليم ستالين واعترافه بالواقع(١٠٨). وحتى في تاريخ لاحق جداً، بقي تروتسكي مقتنعاً بأن البنية الجماعية للزراعة هي في حالة مزمنة من شبه الانهيار.

وإذا عدنا الى الوراء، قد يبدو أن تروتسكي كان ينظر الى الاشياء بصورة بالغة القتامة. فمهما يكن، لم يتم انهيار المزارع الجماعية؛ ومع ذلك فسياسة ستالين الريفية، خلال الثلاثينات بكاملها، التي كان يتلازم فيها الارهاب الجماعي والتنازلات الوضيعة، كانت تمليها بالضبط مخافة ذلك الانهيار. وهو لم يستطع الابقاء على تماسك المزرعة الجماعية إلا عن طريق قيود حديدية. كان انحدار المردود الزراعي والركود الذي تلاه أمرين فعليين، واصبحا الموضوعة الكبرى للسياسة الرسمية بعد ٢٥ و ٣٠ عاماً.

كان سير الأعمال في البلاد ينعكس على كل وجوه السياسة القومية. فالتصنيع كان يتم على قاعدة زراعية ضيقة ومشذرة بشكل خطير، وسط حالات مجاعة وفي قحط دائم على مستوى المؤن؛ كان يترافق، بالتالي، بتدافع شامل وحيواني ضار تقريباً من اجل ضرورات المعيشة، وباستياء واسع، وانتاجية

= الاستثمارة الزراعية الصغيرة من النموذج التقليدي، حتى لو كانت بدائية من الناحية التقنية. ان من كانوا ينتقدون تروتسكي كانوا يعتبرون على قاعدة القياس على المانيفاكتورة البريطانية، ان المانيفاكتورة، بالمعنى الاشتقاقي بوجه الحصر للكلمة، كانت اكثر انتاجية من الجرافة الفردية، حتى قبل الثورة الصناعية، وفي حين لم يكن هناك بعد غيرها، لأنها، كما لاحظ ماركس في رأس المال، كانت تتمتع بمميزات التعاون البسيط في البدء، ثم قسمة العمل اليدوي. ومن وجهة النظر النظرية بوجه الدقة، كانت الانتقادات الموجهة لتروتسكي محقة. فالتجميع، حتى من دون وجود مسبق لقاعدة تكنولوجية ملائمة، ينبغي ان يؤدي الى انتاجية اعلى، كما كانت الحال في الصين خلال فترة من الزمن، وبالتحديد ما بين ١٩٥٠ و١٩٦٠. الا انه من الناحية العملية، وبمقدار ما كان يتعلق الامر بالتجميع في سنوات ١٩٢٩ - ١٩٣٢، كان تروتسكي على حق. فكل المكاسب التي كان يمكن ان تستخلصها المزارع الجماعية من التعاون وقسمة العمل اليدوي ظلت معدومة بنتيجة الموقف الساخط الذي اتخذه الفلاحون حيال العمل، والتدمير الاولي لكل الموجود من المواشي.

(١٠٨) B.O.، العدد ٩، ١٩٣٠.

عمل متدنية . كان على الحكومة ان تخنق الاستياء باستمرار وترفع من قوة الانتاجية عن طريق الارهاب والافساد . ولقد حشرت الصدمة العنيفة لسنتي **١٩٢٩ ـ ١٩٣٠** الاتحاد السوفياتي في حلقة مفرغة من الحرمانات والارهاب لم يخرج منها طوال زمن مديد .

كان ستالين قد أعلن الآن نهاية النيب والغاء اقتصاد السوق . وكان تحليلنا السابق لمفاهيم تروتسكي قادنا الى فكرة انه لا مجال لهكذا الغاء مفاجىء للنيب ولحظر التجارة الخاصة بمرسوم ، والى انه لا يمكن التخطيط الاشتراكي ان يحل محل النيب ذات فجر ودفعة واحدة ، بل يجب ان ينمو داخل اقتصاد مختلط إلى حين يتمكن القطاع الاشتراكي المتزايد هيمنة من ان يمتص القطاع الخاص تدريجياً او يحوله او يزيله ، او يفجر اطار النيب(١٠٩) . وكان تروتسكي يتمسك باستمرار بهذا الفهم ، ويعتبر أن إلغاء النيب ابتكار دماغ بيروقراطي . كان يمكن فقط بيروقراطية فشلت في التحكم بقوى اقتصاد السوق وتركتها تتخطاها ، بسبب اهمالها المديد للتصنيع وطريقتها غير السليمة في معاملة الفلاحين ، ان تحاول الآن اتخاذ قرار بأن السوق لم تعد موجودة . لكن إذا اخرجنا السوق من الباب ، حسب ما كان يرى تروتسكي ، فهي تدخل من الشباك . فطالما لم يتم تشريك الزراعة بصورة عضوية ومستقرة ، واستمر النقص العظيم في السلع ، تستحيل تصفية لعبة العرض والطلب واحلال التوزيع المخطط للسلع محلها .كانت الضغوط العفوية للسوق ستظهر عميقاً على مستوى الزراعة اولاً ثم في تلك القطاعات حيث تتقاطع الزراعة والصناعة ، واخيراً حتى داخل القطاع المؤمم في الإقتصاد حيث ستهز التخطيط بعنف وتفسده . إن البراهين على ذلك متوفرة ، لا سيما في بداية الثلاثينات : فوضى الاسعار الرسمية وغير الرسمية لسلع الاستهلاك الجاري ، التوسع الهائل للاسواق السوداء على اختلافها ، هبوط قيمة الروبل، الانحدار المريع لقوة الاجور الشرائية . كان المخططون يعملون من دون مقياس او نظام درجي ، عاجزين عن تحديد التكاليف والقيم الفعلية وعن تقدير الانتاجية . كانت نصيحة تروتسكي الدائمة تقضي بـ « العودة الى مقياس ونظام دَرَجيّ » . كان يحسن بالمخططين ان يعترفوا بوجود ضغوط السوق ويأخذوها بالحسبان ، بهدف محاولة التحكم بها ، بدل ادعاء انهم تغلبوا عليها . حتى في

---

(١٠٩) النبي الاعزل.

السنوات اللاحقة ، حين تم التغلب على التضخم المتنامي بسرعة في بداية الثلاثينات ، احتفظت تلك الانتقادات بصحتها ، وهنا ايضاً ، بدا ان قسماً كبيرا من الحجج التي قدمها الاقتصاديون السوفيات خلال السنوات العشر الاولى التي تلت موت ستالين ، بشأن اهمية قياس القيمة والاسعار ، كانت تستعيد حجج تروتسكي .

إن التعتيم الستاليني بشأن الاعلام الاقتصادي كان يجعل مسائل حاسمة أخرى تغرق في الظلام . من يدفع ثمن التصنيع ؟ أية طبقة اجتماعية ؟ وكم ؟ اية طبقة واي فريق يحققان المكاسب التي تنتج عن ذلك ، وضمن اية حدود ؟ كان قادة المعارضة ، وبوجه خاص بريو براجنسكي ، اكدوا في بداية العشرينات انه ينبغي ان يقدم الفلاحون مساهمة ضخمة في اموال تثمير الصناعة المؤممة . كان ستالين يعول على ان الفلاحين سيقدمون اسهاما ، بفضل التجميع ، وذلك بمضاعفة المردود والتموين بالاغذية والموارد الاولية ، لكن الفلاحين احبطوا محاولته . كانت صيحة المستثمر الصغير حين غادر مزرعته : « فلتهلك نفسي مع المفوضين ! » وإذا لم ينجح في جعل اعمدة الدولة القائمة على التجميع تنهار ، فهو رفض ، على الاقل ، ان يتخلى لصالحها عن عدد كبير من عناصر التصنيع الحيوية التي كان يتوقع ان يقدمها لها . وهو ما تمثل ، عملياً ، بإتلاف المخزون وبانخفاض المردود .

بنتيجة ذلك ، كان الحمل الذي طُلب الى الطبقة العاملة المدينية ان تحمله بالغ الثقل . كان القسم الاكبر من اعتماد التثمير في الصناعة يتمثل ، في الواقع ، بالمحسوم من موازنة الاجور القومية. بتعابير فعلية ، كان على طبقة عاملة اكبر عدداً بكثير أن تؤمن استمرارها انطلاقاً من كمية محدودة من السلع الاستهلاكية ، في حين كانت تبني محطات جديدة للطاقة ، ومصانع صلب جديدة ،ومعامل جديدة لبناء الآلات(١١٠) كان تروتسكي اعلن قبل عشر سنوات انه

(١١٠) ما بين ١٩٣٠ و١٩٤٠ ، ارتفع عدد سكان المدن في الاتحاد السوفياتي من ٣٠ مليوناً الى ٦٠ مليوناً تقريباً . وقد تمت الزيادة الاقوى في النصف الاول من ذلك العقد . هبط المردود غير الصافي للزراعة من ١٢٤ عام ١٩٢٨ (١٠٠عام ١٩١٣) الى ١٠١ عام ١٩٣٣ ،وكان لايزال ١٠٩ عام ١٩٣٦، بينما هبط مردود تربية المواشي من ١٣٧ عام ١٩٢٨ الى ٦٥ عام ١٩٣٣ ثم ارتفع ببطء حتى ٩٦ فقط عام ١٩٣٦ . وخلال الثلاثينات ، لم تتجاوز محاصيل الحنطة ابداً مستوى عام ١٩١٣ ، او كانت ادنى مستوى بعض الشيء (نارو =

لا يمكن « الطبقة العاملة أن تقترب من الاشتراكية إلا لقاء تضحيات كبرى ، واستنفار كل قواها ، بما فيها دمها وأعصابها » . وكان ستالين يغتصب الآن تلك التضحيات من دم واعصاب . لقد اعلن تروتسكي عام ١٩٢٣ : « يمكن ان تكون هنالك اوقات لا تدفع لكم الحكومة فيها اية اجرة ، واخرى تدفع لكم فيها نصف اجوركم ، في حين عليكم ، انتم الشغيلة ، ان تقرضوا النصف الآخر للدولة بهدف إتاحة المجال امامها كي تعيد بناء الصناعة المؤممة[١١١] » . كان ستالين يستولي الآن على النصف الثاني من أجور الشغيلة ، لكن في حين كان يبرر تروتسكي اقتراحه بدمار الاقتصاد بعد الحرب والحرب الاهلية ، ويحاول ان يدفع الشغيلة للموافقة على طريقته في فهم التراكم ، كان ستالين يفعل ما يفعل بعد سنوات عديدة من اعادة البناء ، ويعلن للشغيل ان كسبه الحقيقي قد تضاعف وانه يدخل ارض الاشتراكية الموعودة . خلال فترة من الوقت ، أخفى التضخم الحقائق عن اعين الشغيلة ، إذ كان نجاح الخطة يتوقف على حماسهم وتحملهم واندفاعهم للعمل[١١٢] .

= دنو خوزياستفو .S.S.S.R ؛ ص ٣٥٠ ـ ٣٥٢) . ومع ذلك ففي عام ١٩٣٢ ، كان الفائض الممكن بيعه من السلع الزراعية لا يصل الى اكثر من نصف ما كان عليه حجمه قبل الثورة ، وفقط مصادرات ١٩٢٩ ـ ١٩٣٢ ضاعفت تقريبا مخزونات الحبوب المتوفرة لسد حاجات الاستهلاك المديني . وقد هبطت التموينات بالسكر واللحم والسمنة ايضاً هبوطاً ذريعاً في سنوات الخطة الخمسية الاولى (المرجع ذاته ، ص ٣٠٢) . وهبط انتاج الالبسة القطنية او بقي راكداً في سنوات الخطة الخمسية الاولى (المرجع ذاته ، ص ٢٧٤) . والملاحظات ذاتها صالحة بشأن انتاج الاحذية التي فاقم ندرتها اختفاء الصناعة المنزلية (المرجع ذاته ، ٢٩٦) . وخلال ذلك العقد ، المتميز بنقص اليد العاملة والمواد الاولية التى كانت من حق الصناعة الثقيلة قبل غيرها ، اصبح اكتظاظ المراكز المدينية ، الذي كان رهيباً ، من قبل ، بما فيه الكفاية ، اصبح كارثة ولم يقدم البناء الجديد اكثر من متوسط قدره ٣ م^2 للساكن الجديد في المدن .

(١١١) النبي الأعزل ،

(١١٢) في قرار اللجنة المركزية بتاريخ ١٠ كانون الثاني / يناير ١٩٣٣ (KPSS, v Revolutsyakh vol.2 p723) ورد ان متوسط ارتفاع مداخيل الشغيلة والفلاحين ، خلال الخطة الخمسية الاولى ، بلغ ٨٥ ٪ . خلال الفترة ذاتها ، ارتفع المبلغ الاجمالي للمبيعات بالمفرق في مخازن الدولة والمخازن التعاونية من ١٢ مليار الى رقم اعلى من ٤٠ ملياراً (Narodnoe Khoziastve S.S.S.R., p698) لكن إذا استثنينا الخبز ، الذي كان له سعر رسمي مقنّن ومحدد ، وربما البطاطا ، ظل مجموع السلع المبيعة ثابتاً او ارتفع فقط قليلاً جداً خلال تلك السنوات . ينجم عن ذلك إذاً ان قدرة الروبل الشرائية ، حتى اذا قيست بالاسعار المراقبة ، هبطت الى مستوى يتراوح بين ربع قيمته لعام ١٩٢٨ وثلثها . وبشأن الاسعار غير المراقبة ، كان الهبوط أشد ايضاً . هكذا اذاً ، حتى اذا تضاعفت الاجرة الرسمية ، فإن المتوسط الحقيقي للأجر لم يعد يعادل عام ١٩٣٢ اكثر من نصف الاجر عام ١٩٢٨ . اي ان ستالين كان يأخذ عن طريق التضخم نصف اجور الشغيلة لتمويل التصنيع .

في البدء ، جرى إطلاق الخطة بروح إذا لم تكن مساواتية إلا انها كانت تقدم ميزات الخدمة والتضحية المقبولتين بصورة مشتركة . لم تكن لطخة اللامساواة في المكافآت قد ظهرت بعد . ولقد أثارت روح الخدمة والتضحية تلك حماس الـ **Komsomoltsy** والـ **Udorniki** ، الذين تدافعوا لبناء الـ **Magnitostroys** والـ **Tractorstroys**(١١٣) . لكن ما ان تراجع الحماس الأول ، وبدأ يظهر التعب الكبير على الشغيلة ، حتى شرعت الحكومة تهمزهم بالاجور التمييزية ، بالعمل المدفوع ثمنه على اساس القطعة ، وبالستاخانوفية ، وعلاوات الانتاج الامثل ، الخ . . . وبالتوازي مع البيروقراطية والمدراء ، توصلت الارستقراطية العمالية إلى وضع متميز بشكل ملحوظ . انطلاقاً من ذلك اليوم ، تزايدت قوة الاتجاه المعادي للمساواة ، في حين كان ستالين يطلق اللعنات تلو اللعنات ضد دعاة المساواة البورجوازيين الصغار . على نقيض ذلك الاتجاه ، ذكرّ تروتسكي بـ « التراث البلشفي ، الذي كان تراث معارضة لارستقراطية العمل وللامتياز البيروقراطي » . لم يكن يعظ بالتسوية ، ولقد لفت الانتباه إلى انه « لا ادنى شك في استحالة ارساء المساواة في ميدان المكافأة ، حين يكون مستوى القوى الانتاجية ، وبالتالي مستوى الحضارة ، عموماً ، متدنيين جداً » . توصل حتى الى إعلان ان السياسة المساواتية على صعيد الاجر ، التي تم تطبيقها في السنوات الاولى للثورة ، ذهبت بعيداً جداً وشكلت عائقاً دون التقدم الاقتصادي . إلا انه كان يعتبر ان على حكومة اشتراكية ان تبقي اللامساواة في اضيق الحدود الممكنة ، وتخفضها تدريجياً وتدافع عن مصالح الجمهور العريض من غير ذوي الامتيازات . « في النزاع الذي يضع العاملة بمواجهة البيروقراطي ، نصطف نحن اعضاء المعارضة اليسارية الى جانب العاملة ضد البيروقراطي . . . الذي يمسك بعنقها . . . » كان يرى تهديداً موجهاً ضد كل مكاسب الثورة في واقع ان ستالين كان يجعل من نفسه حامي الامتياز(١١٤) » .

أعاد تروتسكي آنذاك تحديد فهمه ايضاً للديمقراطية البروليتارية . رأى انه

---

(١١٣) كان يغذي ذلك الحماس التوهم بان الاتحاد السوفياتي سيلحق بلدان الغرب المصنعة ويتخطاها خلال عامين او ثلاثة اعوام ، ويبني هكذا درعاً مصفحاً حقيقياً حول الاشتراكية في بلد واحد . .B.O العددان ١٧ و١٨ ، ١٩٣٠ .

(١١٤) .B.O ، العدد ٢٣ ، آب / اغسطس ١٩٣١ ، العدد ٢٧ ، آذار / مارس ١٩٣٢ .

فقط حين يكون الشغيلة احراراً بالتعبير عن مطالبهم وبانتقاد من بيدهم السلطة ، يسعهم ان يوقفوا تنامي الامتيازات . فمن وجهة نظر الاشتراكية ، يكون الاختبار النهائي « الذي ينبغي الحكم بواسطته على وضع البلاد الاقتصادي ، هو مستوى حياة الشغيلة والدور الذي يلعبونه في الدولة » . كان اعتنق خلال سنوات النيب الرأي القائل إن قوة الديمقراطية البروليتارية هي وحدها التي يمكن أن توازن القوى المجتمعة لرجال النيب والكولاك والبيروقراطيين المحافظين . وكان الآن يعتبر ان الديمقراطية هي الاطار السياسي الوحيد الذي يمكن اقتصاداً مخططاً ان يصل داخله إلى مردود أقصى . كان انبعاث الديمقراطية البروليتارية يمثل إذاً مصلحة اقتصادية حيوية ، لا سياسية وحسب ، للاتحاد السوفياتي . وبعكس أسطورة نشرتها التروتسكية المبتذلة ، لم يكن تروتسكي يدعو إلى رقابة الشغيلة المباشرة على الصناعة ، أي الادارة التي تؤمنها لجان مصانع ومجالس عمال .

فلقد اخفق هذا الشكل من الادارة في روسيا بعد الثورة بقليل، ومنذ ذلك الحين دافع تروتسكي بحزم عن ادارة الشخص الواحد والرقابة المركزية ، مؤكداً ان ادارة لجان المصانع للمصانع لن تغدو ممكنة إلا حين يكون جمهور المنتجين الواسع حصل على ثقافة عالية ، ووعى بقوةٍ مسؤولياته الاجتماعية . كان قد عارض ايضاً ، بصورة جذرية ، الخطة الفوضوية ـ النقابية للمعارضة العمالية ، التي كانت تتطلع الى تحويل ادارة الصناعات للنقابات وجمعيات المنتجين . وهو لم يعدل هذه التصورات بشكل محسوس بعد ان انتقل الى المعارضة ، ثم الى المنفى .

كان فهمه للديمقراطية العمالية يستتبع حق الشغيل وحريته في نقد الحكومة ومعارضتها ، وبالتالي حقه في تحديد سياساتها ، لكن ليس بالضرورة حقه في ممارسة رقابة مباشرة على الانتاج . كان يرى في التخطيط المركزي والادارة الممركزة ، الشرط الجوهري لكل اقتصاد اشتراكي ، كما لكل نموذج من الاقتصاد يتطور نحو الاشتراكية . لكن كان يلفت الانتباه الى ان على سيرورة التخطيط ، لكي تكون فعالة ، ان لا تتحرك فقط من اعلى الى أسفل ، بل كذلك من اسفل الى اعلى . لم يكن ينبغي تقرير اهداف الانتاج ، من اعلى الهرم الاداري، من دون نقاشات تمهيدية على مستوى الامة ، ومن دون تقدير الموارد والامكانات بالكثير من العناية على المستوى المحلي ، ومن دون اختبار تمهيدي لاستعدادات الشغيلة النفسية ، واخيراً من دون ان يكون هؤلاء فهموا الخطة حقاً ، ومن دون الارادة الطيبة الضرورية لتنفيذها . فحين لا يتاح لرأي الطبقة العاملة ان يتحقق من

الخطط التي تقدمها السلطة المخطِّطة ، ويصلحها ويعدلها ، فإن التفاوتات الصارمة التي ميزت الاقتصاد السوفياتي في ظل ستالين كانت حتمية(١١٥) .

ثم وجه تروتسكي نقده ضد ادعاء الاكتفاء الذاتي ، الذي كانت تنطوي عليه طريقة ستالين في قيادة الشؤون الاقتصادية . لقد بقيت الاشتراكية في بلد واحد بالنسبة اليه «طوبى رجعية قومية ـ اشتراكية» ، يستحيل بلوغها مهما تكن الوتائر المتبناة ، وتيرة السباق او وتيرة الحلزون . لفت الانتباه ، بالحاح مبالغ فيه احياناً أو في غير محله ، إلى ان ليس في وسع الاتحاد السوفياتي ، مستنداً إلى موارده وجهوده الخاصة به ، ان يتخطى أو حتى ان يبلغ مستوى انتاجية رأسمالية غربية متقدمة ، تلك الانتاجية التي تعتبر الشرط الضروري الذي لا غنى للاشتراكية عنه . بقي امتداد الثورة ، بأي حال من الاحوال ، الشرط الجوهري لانجاز الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي . لم تكن الانعزالية الستالينية تصيب الاستراتيجية الكبرى للثورة وللبناء الاشتراكي ، بل حتى السياسة التجارية المباشرة . لم يكن ستالين يحسب اي حساب لمنافع قسمة العمل الدولية ، وكان يجهل بذلك اهمية التجارة الخارجية بالنسبة للتصنيع السوفياتي ، لا سيما بعد الجمود الاقتصادي الكبير ، في وقت كانت الشروط التجارية تنقلب فيه بصورة قاسية ضد الاتحاد السوفياتي . مذاك حث تروتسكي موسكو على تقوية وضعها التجاري وبوسائل سياسية وعبر نداء يجري إطلاقه الى ملايين العاطلين عن العمل في البلدان الغربية . كان يرى أن يُطالَبَ هؤلاء برفع الصوت لأجل مبادلات تجارية مع روسيا (وتسليفات للتصدير) تساعد روسيا ، وتسمح كذلك بخلق وظائف في البلدان الرأسمالية(١١٦) . ولقد نشر تروتسكي ، باسمه ، وحتى باسم منظمته الصغيرة ، لهذه الغاية ، عدة بيانات ذات لهجة إقناعية ، لكن هذه الفكرة لم تتسبب بأي رد فعل في موسكو .

هذه الانتقادات المفصلة بلغت اوجها في الاحتجاج المتواصل والمحموم

---

(١١٥) استشهاد مذكور .

(١١٦) اعلن كاغانوفيتش : « يدعونا تروتسكي لنكون اكثر تبعية للعالم الراسمالي » . فأجاب تروتسكي : « إن الاكتفاء الذاتي هو مثل هتلر الاعلى ، لا المثل الاعلى لماركس ولينين» . Sovestkoe Khoziastvo v opasnosti, B.O. (العدد ٣١ ، نوفمبر ١٩٣١) هبطت قيمة الصادرات السوفياتية إلى ثلث ما كانت عليه سابقاً ، وقيمة الصادرات الى الربع ، بين ١٩٣٠ و١٩٣٥ ، وكان هذا الهبوط ناجماً جزئياً عن الشروط غير الملائمة التي تمت وفقاً للاتفاقات التجارية .

الذي اطلقه تروتسكي ضد الحِطّة الاخلاقية التي كانت سياسة ستالين تُنزل اليها الشيوعية . في عام **١٩٣١** ، اعلن ستالين ان الاتحاد السوفياتي توصل الى وضع اسس الاشتراكية ، لا بل انه دخل في عصر الاشتراكية ، وكان على دعاوييه أن يدعموا هذا الادعاء ، مقدمين صورة مدهشة وخيالية للمجتمع السوفياتي مقابل لوحة مثقلة بشكل فظ ببؤس الحياة في ظل الرأسمالية المنحطة(١١٧) . ولقد فضح تروتسكي ذلك التشويه المزدوج ، ملاحظاً ان القول للجماهير السوفياتية ان الجوع والحرمانات ، ناهيك بالاضطهاد الذي تعانيه ، تشكل مضمون الاشتراكية ، إنما يعادل في الواقع القضاء على ايمانها بالاشتراكية ويحولها الى عدوة للاشتراكية . وهنا كانت تكمن ، في رأيه ، جريمة ستالين الكبرى ، لأنه تم اقتراف تلك الجريمة ضد الآمال الأعمق رسوخاً في الطبقات العاملة ، وذلك يهدد بأن يعرض للخطر مستقبل الثورة ومستقبل الحركة الشيوعية(١١٨) .

كنا قد قلنا إن نقد تروتسكي يتفق من جميع النواحي مع تراث الماركسية الكلاسيكية، ويستبق في الوقت ذاته اصلاحات العهد ما بعد الستاليني . ويمكن الآن طرح السؤال المتعلق بمعرفة إذا كان ممكن التطبيق على الثلاثينات وضمن اية حدود . هل كان بالامكان ان توصع في الممارسة اقتراحات تروتسكي في الفترة التي صاغها فيها ؟ ألم يكن الطلاق العميق بين النظرية الماركسية وممارسة الثورة الروسية ملمحاً ملازماً لتلك الفترة ؟ ألم تجعل الظروف ذلك الطلاق محتوماً ؟ قليلة هي الاسئلة ، بين ما يطرحه المؤرخ على نفسه ، التي تضع حكمه تحت التجربة بتلك الدرجة من الصرامة . حتى تروتسكي كان يشدد في ساعاته الأقل هجومية على ان الصعوبات الواسعة التي يتعرض لها الاتحاد السوفياتي تمد جذورها في فقره وتخلفه وانعزاله . والاتهام الاقسى الذي كان يوجهه لحكم ستالين لم يكن يتمثل بخلق تلك الصعوبات بل بمفاقمتها . لم يكن من السهل بالنسبة لتروتسكي ، وليس اليوم سهلاً بالنسبة للمؤرخ ، رسم خط فاصل بين العوامل الموضوعية والذاتية في الوضع ، بين المصائب التي ورثتها الثورة الروسية وتلك التي تسببت بها الفظاظة والعسف الستالينيان . أضف الى

---

(١١٧) انظر مثلاً K.P.S.S. v Resolutsyakh ج ٢ ص ٧١٧ ـ ٧٢٤ . البرافدا ، البلشفي ، وكل الصحافة السوفياتية بين ١٩٣٠ و١٩٤٠ التي تمتلىء بهذه المفارقة .

(١١٨) انظر .B.O ، استشهاد مذكور ومواضع مختلفة .

ذلك أنه كانت هنالك وحدة حقيقية بين المتضادات ، تفاعل ديالكتيكي بين الموضوعي والذاتي . كان العسف والفظاظة البيروقراطيان ، بحد ذاتهما ، جزءاً لا يتجزأ من تأخر روسيا وانعزالها . كانا يمثلان الردود المتخلفة لورثة الثورة على التخلف الأصلي .

كان تروتسكي وستالين يفكران الآن ، كلاهما ، (اتفاق ضمني فقط في جزء منه) بأنه ليس في وسع الاتحاد السوفياتي ان يرتفع سريعاً إلى وضع القوة الصناعية إلا بواسطة التراكم الاشتراكي البدائي ، وهي وجهة نظر تجد تبريرها تاريخياً في انه ما من امة متخلفة حققت في هذا القرن تقدماً شبيهاً بتقدم روسيا على قاعدة مختلفة . ومع ذلك فالتراكم الاشتراكي البدائي كان يفترض مسبقاً ان يتمكن العمال والفلاحون من حمل عبء اثقل بكثير من العبء المعتاد للتقدم الاقتصادي . كانت بعض التفاوتات الاساسية للتخطيط السوفياتي ملازمة لتلك الشروط في كل حال . كان سيتوسع التثمير بصورة اسرع بكثير من الاستهلاك ، وكان ينبغي اعطاء الاولوية للصناعة الثقيلة على الصناعة الخفيفة . لقد اكد منظِّرو المعارضة انه مع التصنيع سيتزايد الدخل القومي بسرعة عظيمة بحيث يرتفع الاستهلاك الشعبي هو والتثمير معاً ،حتى إذا لم يكن بالنسبة نفسها .لكن الذي حصل هو ان الاستهلاك انخفض بصورة كارثية في السنوات الحاسمة اوائل الثلاثينات . لقد اكد تروتسكي انه كان بالامكان تجنب ذلك وانه كان يمكن ان تتم حركة التصنيع بجهود وآلام أخف بكثير لو تم الانطلاق قبل عدة سنوات ، وبصورة اكثر عقلانية . ومع ان هذه الحجة معقولة إلا أنه لم يكن من الممكن اثبات صحتها . اما الحجة الستالينية المضادة ، التي كانت مكتومة اكثر مما هي علنية ، فكانت معقولة هي الأخرى ، وتقول ان التغيير الكبير كان سيتسم بالكارثية ذاتها لو تمت المبادرة اليه في وقت مبكر اكثر وبصورة اكثر اعتدالاً . كان خطر المجاعة قد اناخ بثقله بصورة شبه دائمة على روسيا المدينية منذ الثورة ، بالاضافة إلى انه كان يكرر ظهوره دورياً قبل الثورة . كان لا بد للتصنيع والازدياد السريع لسكان المدن ، في كل حال ، ان يفاقماه ، طالما بقيت الزراعة مشذَّرة وقديمة بالقدر الذي كانت به . وبما أن البلاشفة رفضوا ترك الاستثمار الزراعي من النموذج الرأسمالي يتولى تموين المدن التي كانت تنمو بصورة محمومة ، فقد اضطروا لاختيار التجميع . ولو هم حاولوا تحقيق التجميع التدريجي الذي نادى به تروتسكي لكانوا حصدوا الأسوأ لدى العاملين وفقاً للحجة الستالينية : كانوا

اثاروا اعداء المستثمرين الصغار ، من جهة ، ومن جهة أخرى ، كان التقدم سار تماماً كما في زراعة من النمط الرأسمالي ، اي ببطء شديد لا يتناسب مع الحاجة لتأمين تموين المدن في فترة تصنيع سريع . أما تروتسكي فكان يعتقد ، على العكس ، ان بالامكان دفع الفلاحين الى تجميع طوعي وسليم من الناحية الاقتصادية . لكن الى اي حد لم يكن كل شكل من الجماعية سيصطدم باللاعقلانية العنيدة التي كان يبديها الموجيك في تعلقه بالملكية الخاصة؟وألم يكن لدى تروتسكي اتجاه لبخس هذا الوجه من وجوه القضية قدره ؟ هذه المسألة صعب حسمها . لقد كان ستالين يتصرف وفقاً للمبدأ الماكيافللي الذي يرى انه لا شيء اخطر بالنسبة للقائد من أن يؤذي ويسعى في الوقت ذاته للحصول على تأييد أعدائه. وفي حالة ستالين ، كان رعاياه يتحولون الى اعداء له . ولقد استخدم كل طاقاته بوجه صغار المستثمرين ، وكان على جيل بكامله ان يعاني من نتائج ذلك الزلزال الاقتصادي . إلا ان ستالين كان يرى انه حقق مقابل ذلك مكسباً سياسياً عظيماً ، حطم العمود الفقري للفردية الريفية القديمةالتي كانت تهدد بطحن التصنيع ، وبما أنه حقق ذلك النجاح ما كان في وسعه ان يتخلى عنه . كان عليه ان يدافع عنه بأسنانه واظافره .

لم يكن تروتسكي يعتقد بصلابةهذا النجاح الماكيافللي ، وقد ظل ينفي حتى النهاية أن يكون ستالين هزم الفردية الفلاحية . فلما كان مقتنعاً بأن الفلاحين لا يزالون قادرين على تدمير المزارع الجماعية ، أو على جعلها تخدم حاجاتهم ومصالحهم الخاصة بهم ، توقع ان تظهر طبقة جديدة من الكولاك داخل الكولخوزات وتستولي على دفة القيادة(١١٩) . هنا ايضاً ، كان تروتسكي يميز اتجاهاً فعلياً ، لكنه كان يبالغ في تقدير قوته . وفي الواقع ان غريزة الاكتساب الفلاحية عادت الى الظهور بأشكال مختلفة ، وكان على ستالين أن يناضل ضد انبعاث الكولاك في الكولخوزات . إلا أنه نجح عن طريق الجمع بين تدابير اقتصادية ومقادير من الارهاب في الإبقاء على تجدد نشاط الملكية الخاصة ضمن حدود ضيقة ومحصورة للغاية ، وفي منع الفردية الفلاحية من ان تشفى يوماً من الضربة المميتة التي وجهها اليها ، مع ان رنين احتضارها ظل يدوي في أذني روسيا طوال ربع قرن .

---

(١١٩) انظر مثلاً الفصل حول التناقضات الاجتماعية في القرية الجماعية ، في الثورة المغدورة ، ص ١٢٨ ـ ١٣٥ .

وقد توسل تروتسكي من منفاه ، مراراً إلى المكتب السياسي الستاليني كي يتراجع عن مبادرته الوحشية ، ويوقف ولو مؤقتاً الحرب الهمجية التي كان يشنها ضد الهمجية الريفية ، ويعود الى انماط عمل اكثر انسانية واكثر تحضراً يجبره عليها إرث الماركسية ـ اللينينية . حث المكتب السياسي على المبادرة الى فعل مصالحة كبيرة مع الفلاحين ، وعلى الاعلان امام الامة بأسرها انه حين فرض التجميع فرضاً أساء التصرف ، وان في متناول من يرغب من الفلاحين بترك المزارع الجماعية والعودة الى الاستثمار الزراعي الفردي أن يفعلوا ذلك . وهو لم يكن يشك في أن نتيجة ذلك ستكون تفكك عدد كبير من المزارع الجماعية ، وربما معظمها . لكن لما كانت تلك المزارع الجماعية ، حسب رأيه ،. غير قابلة للحياة ، فالخسارة طفيفة . وإذا بقيت كولخوزات قائمة وتلقت آلات وتسليفات ومساعدات زراعية تسمح لها بأن تقدم لاعضائها ارباحاً مادية ليست في متناول المستثمر الصغير ، يمكنها ان تلعب دور الريادة في اطلاق حركة جماعية طوعية حقيقية ، تحول مع الوقت مجمل الزراعة وترفع انتاجيتها الى المستوى الذي يتطلبه اقتصاد حديث في طور التوسيع . هذا ما كانت فعلته المعارضة لو عادت الى السلطة ، على حد قول تروتسكي(١٢٠) .

لكن بالنسبة للمكتب السياسي الستاليني ، كان قد فات أوان السعي وراء هكذا مصالحة مع الفلاحين . فمنذ خريف **١٩٢٩** ، كانت كل قوى الحزب والدولة منخرطة في الصراع . وكل محاولة لوقف ذلك الانخراط وللقيام بتراجع شامل كان يمكن ان تنتهي بالفوضى والانهزام . كان عدد الناس الذين تناولتهم تلك العملية مرتفعاً منذ البدء ارتفاعاً عظيماً ، وكانت الضغائن المطلق لها العنان على درجة من الحدة ، والعنف الممارس ضد القرويين ، خلال الانقلاب الهائل والدموي ، على درجة من الشدة ، بحيث كانت تملأهم مذاك الرغبة الشرسة بالانتقام ، وبحيث كان من المشكوك به تماماً أن يمكن ايجاد حل عقلاني طالما بقي الجيل الذي وقع ضحية تلك الصدمة القاسية . لو أن الحكومة اعلنت بأن الفلاحين أحرار في مغادرة المزارع الجماعية ، لكان انهار بصخب عظيم كل بناء التنظيم الزراعي ، وما كان بقي شيء تقريباً من المنشآت الجماعية . وكانت المنشأة الزراعية الخاصة اخذت حينئذ وقتاً طويلاً لاستعادة اطارها واستئناف عملها

---

(١٢٠) .B.O ، العددان ٢٩و٣٠ ، ١٩٣٢ .

بوتائره المعتادة . في غضون ذلك ، كان التموين بالغذاء هبط الى أدنى ايضاً ، وعانى النمو الصناعي من انهيار خطير . وليس من المتصور كذلك انه كان يمكن ان يتم نزوح شامل خارج المزارع الجماعية بصورة سلمية . كان شعر الفلاحون حينئذ بأن من حقهم ان ينتقموا من الحكومةوالحزب . كانت المصالحة استوجبت اصدار عفو وتقديم تعويضات للمصادرة املاكهم وللمنفيين ، ويمكن ان نتصور جيداً الجو الذي كانت استقبلت به افواج من المنفيين العائدين من معسكرات الاعتقال الى القرى التي ولدوا فيها . كان يمكن نزع الجماعية ان يطلق موجة عنف لا تقل غضباً عن تلك التي واكبت التجميع . ربما حكومة جديدة ذات ماض ابيض كالثلج ، حكومة تشكلها المعارضة كان امكنها ان تحاول تهدئة البلاد من دون الوصول الى حافة الثورة المضادة . ذلك على الاقل هو ما كان يعتقده تروتسكي . لكن حكومة ستالين كانت ترى ان هكذا محاولة تقود مباشرة الى الانتحار ، إذ كل علامة ضعف من جانبها كانت الهبت الحقد الذي يكمن في ملايين الاكواخ . لم يعد ثمة شيء يمكن صنعه ، بالنسبة لستالين ، غير البقاء في حمأة الصراع ، حتى لو كان ذلك ـ كما اعترف فيما بعد لتشرشل ـ أهول من كل المحن الرهيبة التي جاءت بها الحرب العالمية الثانية(١٢١) .

رأينا ان الظروف الخاصة بروسيا الريفية كانت تحول دون اي نوع من التغيير العقلاني في السياسة الصناعية ، وان بناء صناعياً جديداً عملاقاً ، له احجام تفوق بأضعاف مضاعفة ما كان قائماً في روسيا ما قبل الثورة ، كان يجب أن يقوم على قاعدة زراعية أضيق من قاعدة النظام القديم ، وانه ، خلال سنوات عديدة ، سيتوقف استمرار جمهور متنام باضطراد لسكان المدن على قيد الحياة (ارتفع عددهم من ٣٠ الى ٦٠ مليوناً خلال الثلاثينات فقط) على مخزون من المؤ ن ناقص او غير كاف الى حد بعيد . ما كان يمكن اي حكومة ان تصحح هذا التفاوت ، ونعني اي حكومة غير معدة لايقاف النمو الصناعي او ابطائه بصورة ملحوظة ، وللقبول بمنظور الركود الاقتصادي . لو عاد تروتسكي وانصاره الى

(١٢١) كتب تشرشل : « كان قد مر الآن منتصف الليل . . . سألته « قل لي ، هل كانت الهموم التي اثارتها هذه الحرب فيك شخصياً بقوة تلك التي ولدتها سياسة التجميع الزراعية » ، فأجاب المارشال ستالين للحال : « أوه ! كلا ! لقد كانت سياسة المزارع الجماعية صراعاً رهيباً . عشرة ملايين فلاح ـ قال وهو يرفع يديه ـ كان ذلك مريعاً ، وقد دام اربع سنوات ، كان ذلك ضرورياً لروسيا بصورة مطلقة » . ونستون تشرشل ، الحرب العالمية الثانية ، ج ٤ ، ص ٤٤٧ (النص الانكليزي) .

السلطة في لحظة ما بعد عامي ١٩٢٩ ـ ١٩٣٠ ، كان توجب عليهم ان يحسبوا حساب عواقب التلف والدمار الكارثيين للمخزون الزراعي . ولما كانوا التزموا بالتصنيع ، كان عليهم ، هم ايضاً ، ان يوفقوا سياستهم مع تلك الظروف التقييدية الصارمة .

قبل سنوات ، كان بريو براجنسكي أكد ان التراكم الاشتراكي البدائي الذي سيتم ـ حسب اعتقاده ـ ضمن شروط اقل تقييداً بكثير ، سيشكل العهد الاكثر حرجاً وحسماً في حياة دولة اشتراكية ، وأنه ينبغي اجتياز ذلك الطور الانتقالي ، تحت طائلة الحياة او الموت ، بأسرع ما يكون[١٢٢] . مذاك نفهم تماماً كم كان الامر يتعلق بمسألة حياة او موت ، بالنسبة لستالين الذي حذف من قاموسه كل إمكانية تراجع . لقد اجتاز تلك الفترة الانتقالية بسرعة قاتلة ، دون ان يأبه بالتحذيرات والنصائح بالاعتدال . كان بريو براجنسكي طلب إلى البلاشفة بالحاح « ان يعتنقوا وجهة نظر المنتج لا وجهة نظر المستهلك ، لأننا لا نعيش بعد في مجتمع اشتراكي ينتج للمستهلك ، بل ما زلنا نعيش تحت العقب الحديدي لقانون التراكم البدائي الاشتراكي » . لكن كم كان ذلك العقب الحديدي اثقل وأنهك الآن ! وكم كانت الآن اكثر صرامة وجهة نظر المنتج التي تبناها ستالين ، بعد كل ما جرى ، وبعد كل تعهداته. كان بريو براجنسكي توقع ان يرافق التراكم ،في اي حال من الاحوال ، نقصٌ نسبي في السلع الاستهلاكية ، وأن ينتج عن ذلك لا مساواة اقتصادية بين المدراء والشغيلة ، وبين الشغيلة غير الأكفاء والأكفاء أو نصف الأكفاء ، وان تغدو تلك اللامساواة ضرورية بهدف تشجيع الكفاءة والفعالية ، وان لا تؤدي الى تناقضات طبقية اساسية جديدة . لكن ما حدث في الواقع هو ان اللامساواة تزايدت بالتناسب مع القلة ، وفاقت الاثنتان كل توقع .

لجأ ستالين إلى كل الاشكال الممكنة من الحيل الايديولوجية لأجل توسيع الهوة بين امتيازات البعض وبؤس العدد الأكبر ، ولأجل إخفائها وتبريرها ؛ لكن الاخلال بالأمانة الايديولوجية لم يكن كافياً ، وجاء الارهاب يؤمّن حراسته الرهيبة للهاوية. كانت وحشيته تتفق مع التوتر الذي كان يطبع آنذاك كل العلاقات

---

(١٢٢) اختصرت استنتاجات كتاب بريوبراجنسكي : **الاقتصاد الجديد في النبي المسلح** .

الاجتماعية . من الخارج ، كان عنف الثلاثينات يشبه معاودة لارهاب الحرب الاهلية ، الا انه كان يتخطاه ، في الواقع ، بدرجات . فلقد كان البون شاسعاً إذا نظرنا إلى الأمر من ناحيتي الاتساع والقوة العمياء . ففي خلال الحرب الاهلية ، كان اللهاث المضطرم لغضب ثوري اصيل هو الذي يلفح قوى النظام القديم في الوقت الذي كانت تتآمر فيه ،وتنتظم وتتسلح وتقاتل الجمهورية الجديدة . كان رجال التشيكا ، المطوّعون حديثاً من صفوف الشغيلة الثائرين ، متشبعين كلياً بتجربة طبقتهم،يقاسمونها حرماناتها وتضحياتها ويعوّلون على دعمها . والارهاب الذي كانوا يمارسونه كان تمييزياً بقدر ما تسمح به فوضى الحرب الاهلية .فهو استهدف الاعداء الحقيقيين والنشيطين للثورة ، وكانوا اكثر ، بالتأكيد ، من حفنة صغيرة ، لكنهم لم يكونوا يشكلون مع ذلك إلا اقلية . وفي الجو الصارم لشيوعية الحرب ، كان يحمي كذلك المساواة السبارطية الطوباوية لتلك السنوات .

اما إرهاب الثلاثينات فكان حارس اللامساواة . وبفعل طبيعته بالذات ، كان مناهضاً للشعب ، وبما انه كان موجهاً ، بالقوة وفي الوقت الراهن ، ضد الغالبية ، فقد كان يصيب الجميع من دون تمييز . الا ان ذلك لا يفسر كلياً طابع الجنون الشامل الذي اتخذه . لم يكن ثمة حاجة للاعدامات الجماعية والتطهيرات الجماعية وعمليات الابعاد الجماعية ، لمجرد الحفاظ على مراوح اسعار مفتوحة تماماً اوحتى على امتيازات البيروقراطية ، إذ يمكن الحفاظ على تفاوتات في الامتيازات اكبر بكثير عبر وسائل اكثر اعتدالاً بكثير.لقد تم انفجار العنف الكبير بالترافق مع التجميع،وكانت الحاجة الى تأييد التغيير الكبير في الريف هي التي جعلت الارهاب يتواصل . وكان يكفي ان توجد في القرى فرق تأديبية واقسام سياسية كي يمنع ذلك الفلاحين من العودة الى الاستثمارة الزراعية الخاصة.كانت القوة الفظة تحمي وجودالكولخوز ، الذي كان يفتقر الى التماسك الاقتصادي الذاتي . والحاجة لجعل هذه القوة تنزل بكل ثقلها على الغالبية العظمى من الامة (كان الفلاحون لا يزالون يشكلون بين ٦٠ و ٧٠٪ من السكان) ، وذلك في كل فصل من فصول السنة ، في اوان الفلاحة ، وزرع البذار ، والحصاد ، واخيراً حين يسلم المزارعون محصولاتهم للدولة ، كل ذلك كان يولد حقنة دائمة من الخوف ، من عيار بالغ الثقل وفي جزء من الجسم الاجتماعي بالغ الاتساع ، بحيث تسمم الجسم بكامله دون مناص . هكذا ما ان قام جهاز الارهاب ، الاكثر ضخامة بكثير من كل ما سبق ان تمت رؤ يته ، وبدأ العمل ، حتى فعل ذلك بقوة

لا تنفك تتنامى ولا يمكن توقعها . لم تتمكن روسيا المدينية من الانعزال عن التشنجات التي كانت تهز روسيا الريفية ، ففاض يأس الفلاحين وحقدهم في المدن الكبرى والصغرى ، آخذاً بتلابيب اقسام واسعة من الطبقة العاملة ، وفاض العنف المنفلت من عقاله ، هو أيضاً ، لينضم الى اليأس والكراهية .

رغم التوجه اللاعقلاني للتبدلات الطارئة في سنتي ١٩٢٩ و١٩٣٠ ، يمكن ان يضاف بعضها للبعض الآخر فتشكل ثورة اجتماعية ، مختلفة تماماً عن ثورة أوكتوبر ١٩١٧ ، لكنها مثلها لا يمكن عكسها والرجوع بها الى الوراء . وما تجلى في ذلك الزلزال إنما هو « ديمومة » السيرورة الثورية التي تنبأ بها تروتسكي ؛ إلا ان تجلي تلك السيرورة كان مختلفاً عما توقع لدرجة انه لم يتمكن من أن يتعرف اليها ، ولا تعرف إليها بتلك الصفة . كان لا يزال يعتقد ، مثلما كان البلاشفة اعتقدوا حتى تاريخ حديث ، ان الثورة ليست ضرورية الا لاطاحة حكم الاقطاع والبورجوازية ولمصادرة الملكيات الارضية ورأس المال الكبير . لكن ما ان يُنجز ذلك ، حتى يتخذ الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية شكل تطور سلمي من حيث الجوهر . كان كاتب **الثورة الدائمة** اصلاحياً بمعنى ما ، في طريقة تصوره مشكلات الاتحاد السوفياتي الداخلية الخاصة به . لا شك انه ادرك قبل الجميع ان الجمهورية السوفياتية ستكون عاجزة عن تقديم حل لمشكلاتها ونزاعاتها الداخلية في اطار الاصلاح القومي ، وكان ينتظر بفارغ صبر إذاً ثورة عالمية تتولى هي حلها نهائياً . إن طريقته الثورية بتصور صراع الطبقات العالمي ، وطريقته الاصلاحية بتصور المشكلات الداخلية الخاصة بالاتحاد السوفياتي كانت تشبه وجه قطعة عملة وقفاها. وعلى العكس ، كان ستالين قد بقي حتى عام ١٩٢٩ واثقاً من ان الاصلاح القومي بمفرده يمكن ان يقضي على كل النزاعات في الاتحاد السوفياتي ، وحين وجد من خلال الممارسة ان الامر يختلف عن ذلك كان عليه الآن ان يمضي الى أبعد من اطار الاصلاح الاجتماعي . وقد أطلق ثورة قومية اخرى . كان العنصر الاصلاحي في سياسته هو ما نحّاه لا العنصر القومي . لقد كانت لا مبالاته التجريبية بالمنظورات الثورية الاممية ، والسمة شبه الثورية لسياسته الداخلية ، تشكلان كذلك وجه قطعة نقود وقفاها .

وكان مجرى التاريخ يؤكد الآن، بالسخرية التي يتميز بها ، الحقيقة الجوهرية في الفكرة التي تنطوي عليها خطة تروتسكي ، لكنه ناقض ، على الاقل

جزئياً ، هذه الخطة ذاتها . كان تروتسكي كتب في بداية القرن : « إذا تُركت الطبقة العاملة لوحدها لا بد أن تسحقها الثورةالمضادة في اللحظة التي يدير فيها الفلاحون ظهرهم للبروليتاريا » . وقد بدت تلك اللحظة قريبة جداً ، أولاً في عام ١٩٢١ ، ثم مجدداً في نهاية العشرينات حين ادار الفلاحون ظهرهم للبلاشفة . وتابع تروتسكي : « لن يكون لدى الشغيلة خيار آخر غير دغم مصير الثورة الروسية بمصير الثورة الاشتراكية في اوروبا »ومنذ عام ١٩١٧ لم ينفك يردد انه لا يسع روسيا لوحدها بلوغ الاشتراكية ، وان اندفاع الثورة لم يُستنفد مع ذلك . لم تكن ثورة ١٩١٧ إلا مقدمة الثورة العالمية ، وهوذا يظهر الآن ان القوة الدينامية للثورة الروسية لم تخمد مع ان شرارتها لم تشعل الثورة في اوروبا . لما كانت تلك القوة الدينامية عجزت عن ان تفعل في الخارج وتنتشر ، ووجدت نفسها مضغوطة داخل الاتحادالسوفياتي ، فقد استدارت إلى الداخل وبدأت تعيد صياغة بنية المجتمع السوفياتي بعنف . كان التجميع والتصنيع القسريان يحلان الآن محل امتداد الثورة ، ولم تكن تصفية الكولاك الروس غير بديل من إطاحة السلطة البورجوازية في الخارج . بالنسبة لتروتسكي ، لم تكن فكرته تنفصل عن خطته : فقط اوكتوبر المانية ، أو فرنسية ، او على الاقل صينية ، يمكن ان تقدّم التتمة الحقيقية للأوكتوبر الروسية . لم يكن يمكن إنجاز السيرورة الثورية في روسيا الا عن طريق تحويلها الى سيرورة ثورية اممية . من الناحية التاريخية ، كان ذلك لا يزال صحيحاً ؛ وفي الحالة الحاضرة ، كان ستالين يتصرف كالاداة اللاواعية للثورة الدائمة داخل الاتحاد السوفياتي . وقد رفض تروتسكي الاعتراف بذلك واخذ البديل على انه الشيء الحقيقي .

كانت وجهة نظره مطبوعة بعقلانية الماركسية الكلاسيكية ، بينما كان التغيير الكبير الذي أطلقه ستالين متسماً باللاعقلانية . فالثورة الكلاسيكية التي تصورتها الماركسية تتم على قاعدة مد حقيقي يوجهه وعي اجتماعي حاد ونشاط الجماهير السياسي . تلك الثورة تشكل التجلي الأسمى لارادة الحياة لديها وارادتها صوغ تلك الحياة من جديد . لقد جاء زلزال ١٩٢٩ - ١٩٣٠ في وقت كان فيه وعي الامة الاجتماعي وطاقاتها السياسية في أسفل سافلين . والذي حصل انما هو ثورة من فوق ، مرتكزة على الغاء كل نوع من النشاط الشعبي العفوي ؛ ولم يكن العنصر المحركّ فيها ايُّ طبقة اجتماعية بل جهاز الحزب . بالنسبة لتروتسكي ،

الذي اكتنز فكره بكل التقاليد الاوروبية الغنية والمتنوعة التي كانت ترتبط بـالثورات الكلاسيكية ، لم يكن ذلك الزلزال ، بالتالي ، ثورة إطلاقاً ، إنما محض اغتصاب تاريخي ارتكبته البيروقراطية الستالينية . الا انه مهما يكن طابع الثورة من فوق التي تولاها ستالين غير شرعي ، من وجهة نظر الماركسية الكلاسيكية ، فهي قد احدثت تغييراً دائماً ، لا سابق له من حيث الاتساع ، على مستوى علاقات الملكية واخيراً في نمط حياة الامة[١٢٣] .

عـدنا مراراً ، خلال سردنا ، إلى هذا الملح الخاص في التاريخ الروسي ، المتمثل بالسلطة الخارقة للدولة على الأمة . كانت الاستبدادية القيصرية القديمة تستمد قوتها من الهيئة البدائية ، غير المتمايزة وعديمة الشكل للمجتمع الروسي . لقد لاحظ ميليوتوف ، أنه في حين خلقت « الطبقات الاجتماعية » Estates الدولة State في الغرب » ، فإن الدولة هي التي خلقت في روسيا « الطبقات الاجتماعية » . واضاف تروتسكي انه حتى الرأسمالية الروسية جاءت الى الحياة « كطفل للدولة » . كان النقص في نضج الطبقات الاجتماعية في روسيا قد دفع قادة الانتليجنسيا وشُلل الثوريين لاحلال أنفسهم محل الشعب والعمل كما لو كانوا وكلاءه[١٢٤] . بعد موجة قعر قصيرة العمر نسبياً لكن جبارة ، شكلتها الطاقات الشعبية الروسية خلال العقدين الأولين في هذا القرن ، احدث انهاك هذه الطاقات بالذات ، خلال الحرب الاهلية ، وتفكك المجتمع بعد الثورة ، النتيجة نفسها . هكذا حين بدا في عامي **١٩٢١ - ١٩٢٢** ان الطبقة العاملة عاجزة عن الدفاع عن مصالحها الطبقية ، اضطلع لينين وحرسه القديم بدور الوكلاء . ولقد أدى بهم منطق الاستبدالية هذه الى إرساء الاحتكار السياسي للحزب البلشفي ، الذي اخلى المكان مذاك لاحتكار التكتل الستاليني الأكثر ضيقاً بكثير . ولكي نفهم معنى الاحـداث التي سنتكلم عليها ، ومعنى الصـراع بين ستالين وتروتسكي ، علينا الآن ان نعيد النظر في الشروط التي كانت توجد ضمنها مختلف طبقات المجتمع السوفياتي ، بعد الحرب الاهلية بعشر سنوات .

إن تضاؤل حجم الطبقة العاملة وتشتتها ، اللذين ميزاها في بداية العشرينات ، كانا قد اصبحا الآن شيئاً من الماضي . فمع النيب وتعافي الصناعة

---

(١٢٣) انظر الفصل الثامن من كتاب ستالين ، لإسحق دويتشر .

(١٢٤) النبي المسلح ، الفصلان الخامس والسادس .

نمت طبقة عاملة جديدة ، بحجم سابقتها تقريباً . وحوالى عام ١٩٣٢ ، اي خلال سنوات قليلة فقط ، ارتفع حجم اليد العاملة الصناعية من عشرة ملايين إلى اثنين وعشرين مليوناً . وخلال السنوات العشر التي تلت ، كان عدد الذين استوعبوا في المصانع والمناجم قد تضخم لدرجة ان الطبقة العاملة تضاعف عددها ، حوالى عام ١٩٤٠ ، ثلاث مرات عملياً(١٢٥). لكن رغم هذا النمو الجبار ، لم يعبر وزن الطبقة العاملة عن نفسه سياسياً على الاطلاق ، وكان تأثير الشغيلة المباشر على الحياة السياسية أهزل بما لا يقاس منه خلال السنوات الاخيرة من حياة القيصرية ، ولا سيما عام ١٩١٧ . كانوا عاجزين كلياً عن تأكيد ذاتهم بمواجهة البيروقراطية . ولا يعني هذا انهم لم يكونوا بحاجة لفعل ذلك في دولة عمالية . فمن ، غير لينين ذاته ، كان يلح في عامي ١٩٢٠ - ١٩٢١ على حاجة الشغيلة للدفاع عن انفسهم بوجه دولتهم الخاصة بهم ؟ فإذا كانوا بحاجة الى فعل ذلك عام ١٩٢١ ، فلقد كانوا بحاجة اكبر اليه ، بالأحرى ، في عام ١٩٣١ ؛ ومع ذلك ظلوا صامتين وساكنين .

ما عساه يفسر ظاهرة كسوف الوعي الاجتماعي تلك وشلل الارادة الشعبية ؟ ما كان يمكن ان يكون الارهاب وحده ، ولا حتى الارهاب الكلياني ، لأن هذا يكون فعّالاً أو عديم الفعالية وفقاً لدرجة المقاومة التي يواجهها أو لا يواجهها . لا بد أن ثمة سبباً آخر لدى الطبقة العاملة وراء سلبيتها هذه ، فما هو ذلك السبب ؟

كان الملايين من العمال الجدد يتوافدون على الصناعة بوجه خاص من الارياف البدائية ، « عفوياً » في البدء ، تحت ضغط الاكتظاظ السكاني الريفي ؛ ثم تم التحويل المخطط لليد العاملة من المزرعة الى المصنع ، على يد الدولة التي استخدمت المزارع الجماعية كمراكز ملائمة للتطويع . وقد جلب المطوَّعون معهم (الى المدن والمراكز العمالية) الأمية والبلادة والروح القدرية الخاصة بروسيا الريفية . هؤلاء الناس المقتلعون من جذورهم ، والذين بلبلتهم بيئة غريبة ، تلقفتهم على الفور آلية مخيفة ستحولهم الى شيء مختلف تماماً عما كانوا حتى ذلك الحين ، وتخضعهم لوتيرة الحياة الصناعية وانضباطها ، وتدربهم على الفنون الميكانيكية ، وتحقنهم بآخر اوامر الحزب ونواهيه وشعاراته . وبما انه

(١٢٥) Narodnae Kozlastvo S.S.S.R ، ص ٦٥٦ و٦٥٧ . وتشمل هذه الارقام العمال والمستخدمين في آن معاً .

جرى تكديسهم في تجمعات ضخمة وثكنات، وكانوا يلبسون الاسمال البالية، ويتعرضون لسوء التغذية ، ويعاملون بقساوة في مراكز العمل ، ويجري إخضاعهم في اغلب الاحيان لانضباط شبه عسكري ، فقد كانوا عاجزين عن مقاومة الضغوط التي كانت تُمارس عليهم . ولم تختلف تجربتهم ، اساساً ، اختلافاً محسوساً ، عن تجربة أجيال الفلاحين المقتلعين الذين ألقي بهم في البؤر الصناعية للرأسمالية المبكرة . . لكن في حين كان الفعل العفوي لسوق العمل ، والخوف من البطالةوالجوع ، في ظل سياسة الـ Laisser faire* ، يمارسان تحويلاً بطيئاً للفلاح ، ويجعلانه يوافق على انضباط عامل الصناعة ، تكفلت الدولة بكل ذلك في روسيا الستالينية واختصرت سيرورة التحويل بكاملها في وقت اقصر بكثير .

كان الجهد الذي اضطر المطوّع الجديد في الصناعة لبذله عنيفاً للغاية ، والتدريب الذي تم إخضاعه له بالغ الكثافة ، وقد شعر بأن الله والناس تخلوا عنه، وان ضخامة القوى التي تتحكم بمجرى حياته سحقته ، بحيث لم يكن لديه لا الاستعداد النفسي والفكري ولا القوة لتكوين اي رأي أو لتقديم أي احتجاج . وكان اضطغانه يجد فرصته للتفريج عن نفسه ، بصورة فردية ، عن طريق المشاجرات في حالة السكر ، أو التخريب الخفي لآلة من الآلات ، أو محاولة الهرب من مصنع إلى آخر . كان يحاول ترتيب اموره وتحسين ظروفه الخاصة به ، دون الاهتمام بوضع طبقته . كانت فرديته الوراثية تمنعه ، بقدر ما يمنعه حظر الاضرابات ، من الالتحام بإخوته الشغيلة بهدف الدفاع عن انفسهم ، ومن العمل معهم على اساس التضامن . وستالين الذي كان يقتلع تلك الفردية من مهدها ، المتمثل بالقرية ، كان يشجعها ويراهن عليها في المصانع ، حيث الستاخانوفية والتنافس الاشتراكي يؤججان إلى أبعد الحدود الرغبة في الكسب لدى الشغيل ، ويحرضانه في موقع العمل على التنافس مع جيرانه .

هكذا ، في الوقت ذاته الذي كان قد تم فيه تجميع الفلاحين ، كانت الطبقة العاملة قد حُشرت في وضع لم يبق معه شيء تقريباً من وجهة نظرها الجماعية تقليدياً . وقد كتب عالم اجتماع منفي معارض ملاحظة حزينة يقول فيها : « في حين تجري بلترة فلاحينا ، تتفشى في طبقتنا العاملة ، شيئاً فشيئاً ،

(*) بالفرنسية في النص ، بمعنى دعهم يفعلوا (م) .

وبصورة كلية ، الروح الفلاحية[١٢٦] » . ولا يعني هذا ان التضامن الطبقي والروح النضالية الماركسية زالا كلياً ، فهما كانا لا يزالان حيَّين تماماً لدى من بقي من جيل اوكتوبر ولدى عدد كبير من الشباب الذين تربوا في العشرينات . وما من احد الا وكان يمكنه أن يدرك ذلك حوالى عام **١٩٣٠** ، حين كان يلاحظ الحماس المفعم إخلاصاً وتجرداً ، الذي شرع الـ Udarniki الأولون يبنون به ، وغالباً تقريباً على عظامهم هم ، مصانع صلب جديدة ومحطات طاقة جديدة بين الصخور العارية للأورال أو بعيداً اكثر الى الشرق . ومع ان الدعاوة الستالينية كانت متناقضة فقد ظلت تثبت في الاذهان عدداً كبيراً من العناصر المنتمية الى التراث الماركسي ، وان كانت تشوه هذا التراث أو تبتره . كان الشغيلة المتشبعون بذلك التراث يشعرون بتدخل الفردية الفلاحية في المصانع وبفوضى الاجور والعلاوات . لكن هكذا شغيلة لم يكونوا يشكلون غير أقلية ضائعة في ملايين الموجيك المبلترين . ناهيك بأن الدولة والحزب كانا يجتذبان باستمرار طاقات الطبقة العاملة السياسية والفكرية ، بانتقاء الافراد الاكثر ثقافة وطاقة ووعياً سياسياً من بين صفوفها لتملأ بهم المناصب الادارية او مراكز القيادة المستحدثة أو ليطوعاهم في فرق خاصة كانت مهمتها تجميع الفلاحين . إن الطبقة العاملة التي حُرمت من نخبتها ، كانت تمزقها بصورة أشد قوى نابذة للمركز وتزيدها انقساماً . وبالطبع فقد كانت كذلك منقسمة بعمق بصدد التجميع . ان ما كان يجري في البلد أثار في البدء آمالاً كبرى لدى العمال المدينيين الذين كانوا حذرين على الدوام من البورجوازية الريفية . لكن الشغيلة الذين سبق ان قدموا من القرى أغاظهم ذلك ، وملأوا المدن روايات حول الأهوال المقترفة في الارياف ، واستثاروا الكثير من التعاطف . ويلاحظ عالم الاجتماع الذي استشهدنا به أن المدن امتلأت ، خلال سنوات الخطة الخمسية الأولى ، بأناس يصفهم كما يلي : Sans culottes à rebours[١٢٧] . وهو يفسر ذلك بقوله إنه ،منذ الثورة الفرنسية،يعادي اللامتسرول ، اي المرء الذي لا يملك شيئاً ، الملكية ، لكنه في الاتحاد السوفياتي ، في الوقت الراهن ، المدافع الشرس عن الملكية . كان يمكن الشعور بحضوره ومزاجه الخاص به حتى في اقدم قلاع البلشفية ، وهو ما

---

(١٢٦) يا. غريف في بحثه بعنوان **التجميع وفيض السكان** .B.O العدد ١١ ، ١٩٣٠) . يتعلق الامر بتحليل للمجتمع السوفياتي اثناء الهزة الكبرى ، تحليل هو الاكثر فرادة ، رغم طابعه الدوغمائي بعض الشيء .

(١٢٧) بالفرنسية في النص الأصلي ، والمعنى هو : لا متسرولون بالمقلوب .

لم يكن فيه ما يدهش إذا اخذنا بالاعتبار مثلاً ، ان عدد الكولاك والفلاحين الآخرين المصادرة املاكهم الذين غدوا عمال مناجم في حوض الدونيتز عام ١٩٣٠ ، كان يرتفع الى ٤٠٪ . كان سُلَّم المشاعر ، لدى اقدم شرائح الجماعات البروليتارية ، يتراوح بين العداء الشرس للسلطة والشعور بأن الحزب والدولة يعبران ، مهما يكن ، عن تطلعات الطبقة العاملة ، وأن معارضتهما أمر غير مقبول . لم يكن ثمة اي شك في ان جمهور اللامتسرولين بالمقلوب ، الجماهير الغفيرة من البروليتاريا الرثة ومن الفلاحين المهجّرين ، الذين كان في وسعهم ان يتكيفوا مع اية بيئة صناعية ، والذين كانوا يملأون الضواحي والاحياء الطرفية للمدن بعربدتهم وجرائمهم ، كانوا يشكلون احتياطياً كبيراً من لحم المدافع لكل انواع الحركات الترميدورية ، المعادية للثورة ، او حتى الفاشية .

كانت الطبقة العاملة الجديدة تشبه ، جزئياً ، بتشذرها وتشوشها وفقدانها الهوية السياسية ، بروليتاريا بدايات العصر الرأسمالي التي وصفها ماركس بتعبير **الطبقة في ذاتها ، لكن ليس لذاتها** . إن طبقة في ذاتها تقوم بوظيفتها الاقتصادية في المجتمع ، لكنها غير واعية لموقعها في المجتمع ، وعاجزة عن ادراك وضعها كجماعة ومصالحها التاريخية ، وعن ان تخضع لتلك المصالح جهود اعضائها الفرعية أو الفردية . وكان الماركسيون قد سلموا ضمناً بأنه ما أن تنجز الطبقة العاملة انسجامها الاجتماعي ووعيها السياسي اللذين يجعلان منها « طبقة لذاتها » حتى تستقر نهائياً في هذا الوضع ولا تعود تتقهقر إلى حالة انعدام النضج والطفولية . ولولا ذلك ، لكانت الطبقة العاملة التي اطاحت القيصر وملاكي الاراضي والرأسماليين انحدرت مجدداً إلى الوضع السفلي للطبقة غير الواعية لمصلحتها والعاجزة عن الافصاح عن افكارها ومشاعرها .

وكان وضع طبقة الفلاحين اسوأ بكثير ايضاً . فالضربات التي كانت تنهال عليها فككتها وضعضعتها كلياً ، مع انه كان يبدو قبل عام ١٩٢٩ ان الفلاحين بلغوا درجة من التماسك الداخلي الذي لم يحدث ان بلغوه من قبل . كان يبدو أن ما يوحد جموعها إنما كان عداؤها للتجميع البلشفي ، لا بل كان الامر كذلك إلى حدٍّ ما . كان تضادها مع الحزب والدولة يخفي انقساماتها الداخلية ، أي النزاع القائم بين المزارعين الميسورين والفلاحين الفقراء . كان الكولاك على رأس الجماعة القروية ، اما عمال المزارع والبدنياك الذين كانوا تابعوا خلال سنوات جهود البلاشفة للمساومة مع هؤلاء الكولاك بالذات ، فقد امتنعوا عن المجادلة

في وضعهم ، ووافقوا ، شئنا أم ابينا ، على ان ينقادوا إليهم . لذا حين ظهر القائمون بالتجميع في الارياف ، وجدوا من الصعوبة بمكان أن يفسخوا هذا التضامن بين القرويين . كان صلف الكولاك بلغ حداً من الجسامة ، وبلغ الانطباع الذي اعطاه للفلاحين الفقراء حداً من القوة ، بحيث لم يعتقد هؤلاء بأن المفوضين يتكلمون جدياً حين هدد هؤلاء الكولاك بالزوال . والعديد العديد منهم فكروا بأن من الافضل الاصطفاف الى جانب الكولاك والدفاع عن النموذج القديم للاستثمار ، بدل الاستجابة لنداء المفوضين . لكن بما انه سرعان ما اصبح بديهياً ان الحكومة لا تنوي إطلاقاً أن تتراجع ، وان ايام الكولاك معدودة حقاً ، فقد تفككت وحدة القرية بالكامل . استعاد العداء المكظوم منذ زمن طويل ، عداءُ الفقير تجاه الميسور ، طبيعته الحقيقية . كانت تمزق الجمهور الواسع مصالح وحسابات وعواطف متناقضة . فلما لم تكن الحكومة تتصدى فقط للرأسمالية الريفية ، بل للاستثمارة الزراعية الخاصة عموماً ، لا بل يُطلب من افقر المزارعين التخلي عن استثماراتهم الصغيرة ، كان لا يزال ثمة ميل لدى الفلاحين للبقاء موحدين بنتيجة تعلقهم بملكياتهم . فغريزة التملك كانت لدى افقر الفلاحين لا تقل قوة عما هي لدى أغناهم . وقد كان التعسف وانعدام الانسانية اللذين تلازما مع عملية التجميع يصدمان تلك الغريزة ويثيرانها ، تماماً كما حس الانسانية الأكثر انتشاراً . ولكن كان يفسد تلك المشاعر ويضعفها لدى الفلاحين الفقراء واقع النظر ببرود إلى انهم يستطيعون ، مهما يكن أن يستفيدوا من مصادرة املاك الاغنياء وتشريك الاستثمارات الزراعية . هكذا حين رأوا الى اي جهة تميل بصورة اكيدة كفة الميزان ، لم يتأخر الكثيرون منهم في الاصطفاف بذلك الجانب .

لا شك ان فكرة الاستثمار الزراعي الجماعي لم تكن غريبة عن روسيا الريفية . ففي سالف الأزمان ، كان ثمة اعتقاد قوي بأن الارض هي الملك المشترك لمن يزرعونها وان الخالق لم يخصصها لإثراء البعض وافقار غيرهم ، وقد بقيت المير Mir أو الأوبشينا Obshchina ، الكومونة الريفية البدائية التي كانت تجري اعادة توزيع الارض داخلها دورياً بين اعضائها ، بقيت قائمة حتى تاريخ قريب جداً من الثورة . ولم يتم إلا عام ١٩٠٧ سماح حكومة ستوليبين « للمزارعيين الاقوياء » بترك المير وسحب ممتلكاتهم من إعادة التوزيع والافلات من تأثيرها المعادل . صحيح أن تعلق الفلاح بقطعة الارض التي كان يملكها

والتي وسعها نما منذ عام ١٩١٧ بصورة عظيمة . مع ذلك كان لا يزال يمكن محرضي الحزب أن يقدموا الكولخوز كالوريث الشرعي للمير ، ويمدحوه امام القرويين ، لا كابتكار تخريبي ، بل كإحياء وفقاً لشكل معدَّل لمؤسسة بلدية مع ان الجشع الرأسمالي افسدها إلا انها احتفظت في الذاكرة الجماعية بطابع شيء ما مقدس . هكذا فإن الدوافع والتأثيرات التي حددت سلوك الفلاحين كانت معقدة ومتناقضة ونتج عن ذلك ان الخشية والايمان ، الهلع والامل ، اليأس والاطمئنان ، تنازعت افكار الموجيك تاركة إياه محتاراً ومشاكساً بصورة كاملة ، ومع ذلك مطيعاً ومتعهداً اعتراضاته في خضوع خامل .

لكن الفلاحين ، الذين سرعان ما رأوا انفسهم وقد أصبحوا في هذا الوضع ، لجأوا بصورة اكثر شراسة وجنوناً إلى التبذير . خلال الاشهر الأولى للتجميع ذبحوا اكثر من ١٥ مليون بقرة وثور ، وما يقارب اربعين مليون عنزة وخروف ، وسبعة ملايين خنزير واربعة ملايين حصان . واستمرت المذبحة حتى وصل مجموع المواشي الى نصف عدده السابق . وقد قدمت تلك المجازر الكبرى الطبق الرئيسي في الوليمة التي احتفل فيها المستثمر الصغير بجنازته الخاصة به . ولقد اعطى الكولاك اشارة المذبحة وحرضوا الآخرين على ان يحذوا حذوهم . إذ رأى انه فقد كل شيء ، وانه ، هو ، مموّن الامة سيحرم من ملكيته ، رأى من واجبه ان يحرم الامة من احتياطيها من الاغذية ، وبدل ان يسمح للمجمعين بأخذ مواشيهم الى مراكز التجميع الكومونية ، ملأ نملياته بهياكلها العظمية ، بهدف جعل اعدائه ينفقون جوعاً . وللوهلة الاولى ارعب المجمِّعين تماماً ذلك الشكل من الحرب الطبقية . تطلعوا ذاهلين ومرعبين وهم يرون الفلاح المتوسط وحتى الفلاح الفقير ينضمان الى الفلاحين الاغنياء لمواصلة تلك المذبحة ، إلى حين غدت روسيا بكاملها مسلخاً عظيماً . هكذا بدأ الكارنافال الغريب الذي كان يقوده اليأس والذي يملأ فيه الجنون قصاع اللحم . امتد وباء شراهة متهتكة من قرية الى قرية ، من فولوست Volost إلى فولوست ، ومن غوبرنيا Gubernia إلى غوبرنيا . كان الرجال والنساء والأولاد يلتهمون اللحم ويتقيأون ، لكنهم يعودون إلى قصاع اللحم . لم يسبق أن شوهدت من قبل تلك الكمية من الفودكا المقطَّرة في البلاد ، فكل كوخ تقريباً تحول الى مَقْطرة ، وكان من فيه يشربون بلا مزج ولوقت طويل ، بالطريقة السلافية القديمة . في الوقت ذاته الذي كان يشرب فيه الكولاك ويأكلون حتى التخمة ، كانوا يضيئون القرى

بنيران الفرح التي كانوا يشعلونها في اهرائهم وزرائبهم .كان يختنق الناس برائحة اللحم المتعفن ، وبأبخرة الفودكا ، وبدخان ممتلكاتهم المتروكة طعماً للنيران وليأسهم الخاص بهم . ذلك كان في الغالب المشهد الذي تقتحمه فرقة مجمِّعين فجأة ، لوقف العربدة المشؤومة برشقات الرشاشات . كانوا ينفذون الاعدام بأعداء التجميع الانذال فوراً أو يقتادونهم بالقوة ، ويعلنون ان باقي القرويين سيناضلون منذ الآن كأعضاء مثاليين في الكولخوز ، وذلك من اجل انتصار الاشتراكية في الزراعة . لكن بعد تصفية الكولاك ورفاقهم ، كانت البودكولاشنيكي Podkulachniki ومذابح المواشي واعمال العربدة تتواصل ، وما كان هنالك من وسيلة لوقفها . كانوا يقتلون الحيوانات لأنه لم يبق لديهم فرو ، او لأنهم مرضوا لكثرة ما تم اهمالهم ، وحتى البدنياك ـ الذين كان من مصلحتهم ان يحتفظوا بممتلكاتهم بفعل انضمامهم الى الكولخوز ـ ظلوا يحشون بطونهم الخاوية منذ زمن طويل . ثم جاء الصيام المديد والمريع : لم يعد في المزارع جياد وبذار للزراعة . هرع كولخوزيو او كرانيا وروسيا الاوروبية الى آسيا الوسطى ليشتروا الجياد ، ولما كان نصيبهم العودة بخفي حنين ، فقد ربطوا الأبقار والثيران القليلة الباقية إلى سلك الفلاحة ؛ لكن بقيت في عامي ١٩٣١ ـ ١٩٣٢ مساحات واسعة من الارض بوراً وتناثرت بين الاثلام جثث الموجيك الجائعين . لقد هلك المالك الصغير تماماً كما سبق ان عاش في همجية وعجز مثيرين للشفقة ، وكانت هزيمته النهائية معنوية بقدر ما كانت اقتصادية وسياسية .

لكن المجمِّعين كانوا هم ايضاً محبطين معنوياً ، وكما سبق ان قلنا كان على النظام الزراعي الجديد أن يعاني من تلك الهزيمة خلال السنوات اللاحقة . إن نجاح مهمات البناء ، في العادة ، التي تتولاها ثورة من الثورات ، لا يتوقف على الطبقة الاجتماعية التي اطاحتها ، سواء كان الامر يتعلق بالمالكين للأرض او بالبورجوازية . إن في وسعها ان تعتمد على الطبقات التي اصطفت بجانبها . لكن مفارقة ثورة ١٩٢٩ ـ ١٩٣٠ الزراعية كانت تكمن في أن تحقيق برنامجها الايجابي توقف بالضبط على الطرف المهزوم . لم يكن يمكن المزرعة الجماعية ان تزدهر ، في حين يفتقد المستثمر الصغير المتحول الى كولخوزي المزاج المتلائم مع مهمة تسييرها[١٢٨] .

---

(١٢٨) يا غريف ، المرجع المذكور .

إن افتقاد التماسك السياسي والمعنوي بين الفلاحين سهل إعطاء الانطباع بأن الدولة كلية القدرة . إذا كان حكم البيروقراطية قام بعد الحرب الاهلية على خلفية تفكك اقتصادي وتشتت للطبقة العاملة[١٢٩] ، فقد استمد هذا الحكم مذاك قوة غير محدودة عمليا من السيرورة المعاكسة ، اي من التوسع والنمو الاقتصادي اللذين سيعطيانه بنية جديدة وشكلاً جديداً للمجتمع ، لكن اللذين جعلا المجتمع ، على المدى المباشر ، مجتمعاً أكثر انعداماً للشكل وزادا من حدة هزاله الذهني . وفي السنوات اللاحقة سوف تكون كل طاقات الاتحاد السوفياتي منهمكة أشد الانهماك بالتقدم المادي وبالجهود الجبارة التي يتطلبها بحيث انه لم يبق غير القليل من الموارد ـ إذا لم يكن لا شيء ـ لتُدفَعَ الى الامام مشاريع سياسية أو معنوية مهما يكن نوعها . لما كانت سلطة الدولة عظيمة بما يتناسب مع ممارستها على أمة مضعضعة فان من كانوا في السلطة فعلوا كل ما في وسعهم لابقاء الأمة في تلك الحال .

إلا ان البيروقراطية ذاتها لم تكن توحدها حقاً مصلحة او وجهة نظر مشتركتان. فكل الانقسامات التي كانت تشق الطبقات الاخرى كانت تنعكس عليها . كانت المسافة التقليدية التي تفصل الموظفين الشيوعيين عن غير الشيوعيين على حالها ، وتظهر بصورة حادة ومتكررة في المحاكمات الشاذة المخيفة لـ « اختصاصيين » متهمين بأنهم مخربون وإغراقيون . كان معظم اولئك « الاختصاصيين » واصدقائهم قد انتظروا طوال سنوات النيب ، مفعمين بالأمل ، اللحظة التي تهدأ فيها دينامية الثورة ، وتعود روسيا دولة « طبيعية » . في الحقيقة انهم التمسوا في صلواتهم تلك النيب الجديدة ، وذلك الترميدور اللذين كان شبحاهما هاجس التروتسكيين والزينوفييفيين،وكانوا في البدء قد راهنوا على ستالين وبوخارين ضد تروتسكي ، ثم تمنوا بحرارة ان يروا بوخارين والترميدوريين الاصليين الآخرين ينتصرون على ستالين . اما الآن فكانت آمالهم محبطة ، وفي حالة الضيق الشديد ، لأنهم غالباً ما كانوا عاجزين او لا ادنى رغبة لديهم للتكيف مع الوضع الجديد . في الاقسام البلشفية من البيروقراطية ، كان البوخارينيون والستالينيون متشاهرين العداء . والاولون الذين كانوا في وضع قوي في سنوات النيب ، كانوا يلاحقون الآن ويقصون عن الادارة ، بينما يحل اناس جدد من الطبقة العاملة

(١٢٩) انظر النبي الاعزل ، الفصل الاول .

والانتلجنسيا الشابة في مناصبهم ومناصب كثيرة اخرى كانت تشغر باستمرار . كان تشكل البيروقراطية ، بالتالي ، غير ثابت اطلاقاً ، وكانت نظرتها الاجمالية متنافرة ؛ وحتى الرابط الوحيد ، الذي كان يمكن الاعتقاد بأنه يشكل عامل وحدة ، رابط الامتيازات ، كان هزيلاً للغاية ، لأنه لم يكن يمكن افراداً فقط من البيروقراطية ، بل جماعات بقضها وقضيضها ايضاً ، ان يحرموا باستمرار من امتيازات هامة، بين ليلة وضحاها ، ويتحولوا الى منبوذين ، ويساقوا الى معسكرات الاعتقال . وحتى العناصر الستالينية بوجه الحصر ، اعضاء جهاز الحزب وقادة الصناعة المؤممة الذين يؤلفون الجماعات القيادية بحصر المعنى ، لم يكونوا اطلاقاً خارج حالة انعدام الأمن التي كانت ترجف كل المراتب في ظل الاوتوقراطية الستالينية .

هكذا فإن التوسع الاقتصادي المحموم والاضطراب العام الذي كان يلازمه ، وانكساف الوعي الاجتماعي لدى الجماهير وهزال ارادتها السياسية ، كانت تشكل خلفية الاحداث التي كان يتحول الآن بواسطتها حكم تكتل واحد الى حكم زعيم واحد . كان تعدد النزاعات بالذات بين الطبقات وداخل كل طبقة، وكانت نزاعات يعجز المجتمع عن حلها ، يتطلب تحكيماً مستمراً لا يمكن ان يأتي الا من قمة السلطة بالذات . وكلما كانت التشوشات والتقلبات والخواء عظيمة على مستوى القاعدة ، كلما كان يجب ان تكون تلك القمة اكثر ثباتاً واستقراراً . وبقدر ما كانت تغدو القوى الاجتماعية ضعيفة ومحرومة من كل ارادة ، كلما كان يغدو الحَكَم اقوى واشد عناداً . وكلما اصبح اقوى كلما حتم ذلك ان تبقى تلك القوى اكثر عجزاً . كان عليه ان يركز في ذاته كل شكيمة القرار والعمل التي كانت تنقصها . كان عليه ان يحصر في ذاته كامل الاندفاعة المشتتة للامة ، وبقدر ما كان جمهور الناس يسقط تحت مستوى التطلعات الانسانية الاكثر ارتقاء ، كان عليه ان يبدو فوق البشر ، وكان على ذهنه المعصوم ان يتحكم بشرودهم واخطائهم وعلى يقظته الدائمة ان تحميهم من كل الاخطار التي لا يعونها ويعجزون عن حماية انفسهم منها . كان على الجميع ان يكونوا عمياناً، كي يستطيع هو، الرائي الوحيد ، ان يقود المركب . كان يجب كذلك المناداة به كمستودع الثورة والاشتراكية الوحيد ، ولم يكن على زملائه ، الذين مارسوا حتى ذلك الحين وظائفه كوكيل بالاتفاق التام معه ، ان يتخلوا فقط عن اي مطلب بهذا الصدد ، بل ان ينسحقوا ايضاً بصورة كلية . ولكي تكون هيمنته غير منازع فيها اطلاقاً ، كان يجب أن تهتف باسمه الجموع بلا انقطاع . وهو ايضاً كان عليه ان يحتفظ

بذلك التفوق بكل عناية ، ويحرص على أن يرتفع نحوه التملق الشعبي في تصعيد لا يتوقف . تماماً كمختار التاريخ لدى هيغل ، كان يجسد طوراً عظيما من حياة الامة ، ومن حياة البشرية حقاً . ومن دون جنون العظمة الاستحواذي الذي كان يولده وضعه في داخله ، لم يكن حتى ذلك كافياً . كان على حجم السوبرمان ان يفجر أطر زمانه . كان يجب ان يعيش الماضي والحاضر والمستقبل فيه ، وتندمج كلها في ذاته . الماضي مع اشباح القياصرة الاولين ، بناة الامبراطوريات ، الدافعة من أمامها بصورة منفرة شبحي ماركس ولينين ، والحاضر بقوته الجبارة على الثوران والخلق ، والمستقبل الذي يضيئه تحقيق الاحلام الاسمى للنوع البشري . الا ان سر التأليه المضحك لم يكن يكمن في ستالين ذاته بقدر ما يكمن في المجتمع الذي يحكمه ، وبما ان ذلك المجتمع كان يستسلم فيما تصادر منه هويته السياسية ومعنى حركته الهائلة ، كان يجسد القائد تلك الهوية وتلك الحركة الاجمالية للتاريخ .

إن السيرورة التي اصبحت الحكومة الستالينية بموجبها حكومة ستالين ، كانت اقل وضوحاً واقل تعاقباً بكثير من التطور الذي قاد اليها ، اي تحول حكم الحزب البلشفي الى حكم التكتل الستاليني . منذ البدء ، كان احتكار التكتل الى حد ما احتكار ستالين ، لأن انصاره حافظوا دوما على انضباط اكثر صرامة بكثير من انضباط انصار خصومه . إن الطريقة التي كان في وسع تروتسكي او بوخارين اوزينوفييف أن يقودوا بها أتباعهم لم تكن شيئاً اذا قورنت بالسلطة المطلقة التي كان يمارسها على اتباعه بصفته قائداً أعلى . ومع ذلك كان على ستالين الذي سحق كل خصومه ، أن يحصل على هيمنة مطلقة على انصاره الخاصين به . بدا الآن ان حكم تكتل واحد ، بالصفة ذاتها التي لحزب واحد ، كان ينطوي على تناقض في الكلمات. فكما في الحزب الواحد، كانت مختلف الجماعات والمدارس الفكرية تشكل ـ طالما كان في وسع اعضاء الحزب ان يعبروا عن رأيهم بحرية ـ ظلاً لنظام تعدد للاحزاب يتعارض مع هذا الحزب بالذات ، كانت الكتلة الواحدة تميل لأن تعكس في ذاتها خليط التكتلات والمدارس الفكرية التي الغتها قبل قليل . كان ينبغي الآن أن يكتشف ستالين التروتسكيين الخفيين والبوخارينين الخفيين بين انصاره الخاصين به ، أن ينكر على انصاره الحريات المحدودة التي بقيت موزعة بينهم . كان دورهم الآن ليكتشفوا أنهم بحرمانهم خصومهم من الحرية ، حرموا انفسهم ايضاً منها ووضعوا

أنفسهم تحت رحمة زعيمهم الخاص بهم . ولما كان هذا اعلن ان على الحزب ليكون بلشفيا أن يكون وحيد الاتجاه ، فقد ذكّر زمرته الآن بقوة بأن عليها ان تكون وحيدة الاتجاه وإلا فهي لا تكون ستالينية . لم تعد الستالينية تيار آراء وتعبيرات لمجموعة سياسية معينة ، بل اصبحت التعبير عن مصلحة نزوة ستالين الشخصية وارادتها .

إن تشخيص كل العلاقات السياسية أصاب كذلك وضع تروتسكي . فبما أن ستالين غدا التجسيد الوحيدالاورثوذكسي والرسمي للثورة ، اصبح تروتسكي بدوره ممثلها الوحيد غير الرسمي وغير الاورثوذكسي . حتى عام ١٩٢٩ كانت الامور مختلفة ، ولم تكن المعارضة التروتسكية تشكل من اي وجهة للنظر ميدان تروتسكي الشخصي ، حتى إذا كان قائدها السامي . كان مركزه القيادي يضم اناساً حازمين ومستقلين : راكوفسكي ، رادك ، بريوبراجنسكي ، سميرنوف ، بياتاكوف ، وآخرين ايضاً ، ولم يكن يمكن ان يقال عن اي من هؤلاء انه صنيعة تروتسكي . من جهة أخرى ، كان مناضلو القاعدة ، المناضلون لأجل الحرية داخل الحزب ، يحافظون على هذه الحرية ذاتها ضمن الحدود الضيقة لتكتلهم الخاص بهم . وفي المعارضة الموحدة ، مع ان زينوفييف وكامينيف كانا واعيين تفوق تروتسكي ، بقيا بالغي الحرص على سلطتهما الخاصة بهما ، ولم يكونا يتعاملان معه الا على قدم المساواة . ليس فقط لم يكن يفرض اوامره ، لكن كان يحدث له في الغالب ، كما سبق ورأينا ، أن تعيق عمله ضد ستالين تنازلاته لحلفائه المؤقتين . اضف الى ذلك أنه حتى عام ١٩٢٩ ، بقيت مدرسة التفكير البوخارينية تمثل بديلاً للستالينية والتروتسكية في آن معاً ، بديلاً لم يكن يفتقر الى الجاذبية بالنسبة لعدد من الناس داخل الحزب وخارجه . هكذا رغم التركيز المتعاظم باستمرار للسلطة بين يدي ستالين والامتثالية المتنامية ، لم تكن اصبحت توقعات البلاشفة وآمالهم تتركز على قائد وحيد وسياسة وحيدة ، بل كانت ترتبط بشخصيات ، زمر مختلفة من القادة ، مواقف مختلفة وأنواع مختلفة من المواقف .

لكن احداث ١٩٢٩ ـ ١٩٣٠ بدلت كل ذلك . جرت تصفية المدرسة الفكرية البوخارينية ، حتى قبل ان تتمكن من مواجهة ستالين بصورة مكشوفة . لم يكن في وسعها ان تواصل مناقشة الأمور الواقعة الخاصة بالتبدل الكبير ، ولم يكن

يمكنها مقاومة اندفاع التصنيع ، او المراهنة على المزارع الغني زمناً اطول . كانت الف البوخارينية وياءها طريقتها في النظر الى الفلاحين ، ومذاك لم يعد لذلك اي معنى : بما أن المالك الصغير اختفى ، بقيت المعارضة اليمينية من دون قاعدة . في هذه النقطة ظهر الفرق الجوهري بين هزيمة تروتسكي وزينوفييف وهزيمة بوخارين وريكوف . فمن اجل إنزال الهزيمة بالاولين، اضطر ستالين لأن يسرق منهما اسلحتهما السياسية ، بينما اضطر الثانيان للالقاء بأسلحتهما البالية الى المهملات . ذلك كان السبب في أنه حين طرد بوخارين وريكوف وتومسكي في تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٢٩ من المكتب السياسي ، مضوا بنشيج شبه غير مسموع ، بينما خرج زينوفييف وكامينييف حين خرجا وهما يطلقان صيحة حرب .

ان استسلام الزينوفييفيين ورصاصة الرحمة التي اطلقت على البوخارينيين تركا الستالينية والتروتسكية كمتنافسين وحيدين على الامانة الكاملة للبلشفية . لكن هاتين الزمرتين تفككتا بدورهما ، كل بطريقتها ، بفعل تطور غريب متواز ، وإن متناقض ، وقد تم ذلك للتروتسكيين لأنهم كانوا ينتقلون من ارتداد الى ارتداد ، وللستالينيين بسبب الشك والارتباك اللذين كانا يسودان داخلهم . ومثلما كان انتصار الستالينية يتحول الى اوتوقراطية ستالين ، كانت التروتسكية تتماثل في هزيمتها ، تدريجياً ، مع شخص تروتسكي وحده . لا شك انه حتى بعد كل الاستسلامات ، ظل هنالك في السجون والمنافي معارضون صامدون ، وحين كان راكوفسكي زعيماً لهم في بداية الثلاثينات ، كانت تتعزز صفوفهم بين الحين والآخر بوصول منضمين جدد وبعودة مستسلمين أزال الاستسلام الغشاوة عن عيونهم . لكن رغم تلك الانضمامات لم تتمكن التروتسكية ابداً من استعادة التماسك والثقة اللذين كانت لا تزال تحوزهما عام ١٩٢٨ . في افضل الاحوال ، كانت لا اكثر من كومة شذرات من تكتلات ، واعية لعزلتها، يائسة من المستقبل بكامله ومثابرة مع ذلك على ولائها لتروتسكي ولما كان يمثله او يفترض انه كان يمثله . استمر النقاش فيما بينهم وكانت تنبثق عنه مقالات وموضوعات جدالية . لكن لم يكن ينتشر ذلك الا بين جدران السجون الاربعة ، وحتى قبل ان يبلغ الارهاب اوج التطهيرات الكبرى ، لم يعرف التروتسكيون ان يستخدموا على غرار ثوريي العهد القيصري ، السجون والمنافي كقاعدة للعمل السياسي . لم تصل افكارهم الى الطبقة الكاملة والى الانتليجنسيا . وعلى امتداد السنين ، اصبح اتصالهم بتروتسكي أخف وأخف ، الى حين القطع الكامل لأي مراسلة معه عام ١٩٣٢ . لم يعودوا مذاك

يعرفون جيداً ما يمثله ، ولم يكن يستطيع هو أيضاً ان يؤكد إذا كان هنالك توافق - أو لا - بين وجهات نظره ووجهات نظرهم . لم يبق له غير امكانية واحدة هي ان يحل محل المعارضة بمجملها، ولم يكن لديهم غير امكانية واحدة هي الاعتراف به صراحة او ضمناً كوكيلهم الوحيد ، ومستودع وحيد للثورة . صوته وحده كان الآن صوت انمعارضة ، وكان الصمت الواسع لكل روسيا المعادية للستالينية هو الذي يزيد صوته وضوحاً وجهارة .

هكذا كان ينتصب مذاك تروتسكي ، الوكيل الوحيد للبلشفية في المعارضة ، بمواجهة ستالين ، المستودع الوحيد للبلشفية في السلطة . اصبح اسمه ، كاسم ستالين ، نوعاً من الاسطورة ، لكن في حين كانت اسطورة السلطة بالنسبة لستالين ، تنبثق من السلطة ، كان يتعلق الامر في حالة تروتسكي بأسطورة المقاومة والشهادة ، التي يتعلق بها الشهداء بالذات . ان الشباب الذين كانوا يواجهون الجلادين في الثلاثينات ، وهم يصيحون : « عاش تروتسكي » ، لم يكونوا يعرفون في الغالب غير بعض عناصر فكره ، كانوا يتماثلون مع رمز اكثر مما مع برنامج ، رمز سخطهم الخاص بهم ضد البؤس والاضطهاد اللذين كانا يحيطان بهم ، والحنين الى الوعد العظيم لثورة اوكتوبر ، والآمال المبهمة التي كانوا يضعونها في انبعاث للثورة .

لم يكن فقط الانصار المعلنون لتروتسكي ومعظم المستسلمين هم الذين كانوا ينظرون اليه هكذا . إن الشعور بأنه يمثل البديل الوحيد للستالينية استمر ، حتى بين اعضاء الحزب الذين كانوا ينفذون بصمت أوامر ستالين، وخارج الحزب بين الشغيلة المزودين بوعي سياسي وبين أوساط الانتليجنسيا . في كل مرة كان الناس يخافون أو يشعرون ان ستالين يدفعهم الى حافة الكارثة ، في كل مرة كان يصدم خضوعهم افراط ما في فظاظته ، كانت افكارهم تتجه ، حتى بصورة شاردة ، نحو تروتسكي الذي كانوا يعرفون تماماً انه لم يلق السلاح ، وانه يواصل في أراضٍ اجنبية ، نضاله المتوحد ضد إفساد الثورة .

وكان ستالين يعرف كل ذلك ويخشاه . وقد عامل تروتسكي بالطريقة التي كان يعامل بها مَلِكٌ في الحكم ، في سالف الزمن ، مطالباً بالعرش خطراً ، او بالطريقة التي عامل بها البابا البابا الزائف، اثناء الانشقاقات المزدوجة والمثلثة عن الكنيسة. ولدور البابا الزائف هذا كانت سخرية التاريخ حددت آنذاك تروتسكي ،

وريث الماركسية الكلاسيكية ! لم يكن معداً اطلاقاً لهكذا دور ، ولم يكن يشعر بنفسه راغبا في لعبه او قادراً على ذلك . طوال عقد حافل بالاحداث الاكثر هولاً ، والاشد تفجراً ، من مثل تحويل المجتمع السوفياتي ، والجمود الكبير في الغرب ، وصعود النازية ودمدمات الحرب التي كانت تقترب ، عبر الثلاثينات وحتى عام ١٩٤٠ ، بقي الصراع بين ستالين وتروتسكي في مركز السياسة السوفياتية ، كاسفاً في الغالب كل المشكلات الاخرى . لم تضعف لحظة واحدة حمية ستالين ، ولم يمنح دعاوييه وشرطته لحظة استراحة واحدة في الحملة على التروتسكية التي شنها في كل دائرة من دوائر النشاط والفكر ، والتي فاقم حدتها من شهر لشهر ، ومن عام لعام . كان الخوف من « المطالب بالعرش » يقض مضجعه ، وكان باستمرار يتربص بعملاء المطالب بالعرش الذين يمكن أن يجتازوا الحدود خفية ، ويسربوا رسائله ، ويحوكوا الحبائل ويجمعوا الانصار ويدفعوا بهم الى العمل . كان الشك يلازم ستالين الذي يحاول قراءة الافكار التي يمكن ان تراود أتباعه الاكثر خضوعاً بصدد تروتسكي ، وكان يكتشف في اقواله الاكثر براءة ، وحتى في تملقات حاشيته تلميحات محسوبة وماكرة الى الطابع المشروع لمطالب تروتسكي . وبقدر ما كان ستالين يبدو عظيماً ويتكلم عالياً ، وكان تلامذة تروتسكي القدامى يغدون منفِّرين ، ويعفرون جباههم في التراب امام القائد ،كان هاجس تروتسكي يصبح هاذياً وجنونياً . وقد عمل بشكل محموم لجعل الاتحاد السوفياتي يشاطره ذلك الهاجس . إن السعار الذي لاحق به ذلك الانتقام جاعلاً منه الشغل الشاغل للشيوعية الدولية كما للاتحاد السوفياتي ، ومخضعاً له كل المصالح ، اكانت سياسية او تكتيكية او فكرية او غير ذلك ، هذا السعار يفوق كل وصف ، ولا يكاد المرء يذكر في التاريخ حالة اخرى من استخدام ذلك القدر من موارد القوة والدعاوة ضد فرد واحد .

مهما يكن الطابع المَرَضي لهذا الوسواس ، فقد كان له اساس في الواقع . فستالين لم يفز بالسلطة مرة واحدة ؛ كان عليه أن يفوز بها مجدداً باستمرار . لا يجب ان تخفي عنا نجاحاته واقع ان سيطرته بقيت حتى التطهيرات الكبرى مشكوكاً فيها . بقدر ما كان يرتقي ، كان الفراغ حوله يغدو أعظم ويتسع جمهور الذين كانت لديهم اسباب للخوف منه والحقد عليه ، والذين كان يخافهم هو بالذات ويكرههم . كان يرى ان الانقسامات القديمة بين خصومه ، والخلافات بين بلاشفة اليمين وبلاشفة اليسار تغدو اكثر اهتزازاً أو هي تمَّحي ؛

كان يخاف بالتالي مؤمرات يمينية ـ يسارية من كتل تروتسكية ـ بوخارينية على شرطته ان تكشفها أو تخترعها مجدداً بلا انقطاع ، كتل يتلازم مع الوضع تشكيلها . وفي الاخير توصل نفوذه على زمرته الخاصة الى حد تحويل ستالينيين شرعيين قدامى الى حلفاء كامنين للتروتسكيين والزينوفييفيين والبوخارينيين . هو الذي جرى رفعه الى ما فوق كامل الحزب البلشفي ، رأى ـ ليس بدون مبرر ـ مجمل الحزب البلشفي كما لو كان تحالفاً كامناً ضده . كان عليه أن يستخدم كل ذرة من قوته وحيلته لمنع ما هو افتراضي من أن يصبح أمراً راهناً . كان يعرف انه إذا أبصر هكذا تحالف النور يوماً ، سيكون تروتسكي زعيمه دون جدال . وقد كان عليه عندئذ ان يفعل كل ما في وسعه ، أو اكثر مما في وسعه ، لتدميره.لجأ الى وسائل اكثر فأكثر تعسفاً ، والى افتراآت اكثر فأكثر عبثية ، لكن جهوده كانت تنطوي في ذاتها على بذرة هزيمتها . كلما زاد صياحه ضد خصمه ، وتنديده به كالقائد او المحرض الوحيد لكل الهرطقات وكل المعارضات ، كلما كان يدفع المشاعر الخرساء المعادية للستالينية التي كانت تطفح بها روسيا الى الالتفاف حول الوجه البعيد لكن الشامخ دوماً ، وجه المنبوذ .

الفصل الثاني

عقل وجنون

خلال السنوات ١٩٣٠ ـ ١٩٤٠ ، ناضل عقل تروتسكي ضد المد الصاعد للاعقلانية في السياسة العالمية . إلا ان بعضاً من اتباعه الروس كانوا يخشون أن لا يتوصل ، بالرغم من الطابع المبرر وحتى الذي لا يدحض لانتقاداته لسياسة ستالين ، الى ان يأخذ بالحسبان العنصر اللاعقلاني الملازم للوضع في الاتحاد السوفياتي[١] . ألم يكن هو من اكد قبل سنوات خلال مساجلة مع برتراند راسل « انه يستحيل ان نرسم سلفاً بيان مسارٍ ثورياً بصورة عقلانية » و « ان الثورة هي التعبير عن استحالة بناء مجتمع الطبقات بطرائق عقلانية[٢] » ؟ كان يبدو الآن انه يستحيل اعادة بناء المجتمع بواسطة تلك الطرائق ، حتى بعد الثورة ، في ظل نظام تخلى عن ميزات الرأسمالية ، لكنه لم يكن بعد قادراً على الاستفادة من ميزات الاشتراكية . إن كل العوامل (أو كلها تقريباً) ، التي كانت تسهِّل لا عقلانية مجتمع الطبقات : نزاعات اساسية على صعيد المصالح ، بُدِّية Fetichisme السلعة والمال ، عدم كفاية الرقابة الاجتماعية على قوى الانتاج ، إذا لم يكن غيابها الكامل ، كل تلك العوامل بقيت فاعلة في الاتحاد السوفياتي . كانت تفسد تطلع البلاشفة إلى تصنيع روسيا وتثقيفها ، وبناء اقتصاد مخطط ، وتأسيس الرقابة على الخواء الاجتماعي ، لا عقلانية الوسط الذي كان ذلك التطلع محصوراً ضمن حدوده . ومع انه يمكن أن نفسر نظريا هذا الوضع ، لا بل حتى توقعه نظرياً ، فقد كان يولد نتائج عبثية مخيفة الى حد أنه كان الذهن التحليلي والديالكتيكي يضل طريقه أحيانا في محاولاته فصل العقل عن الجنون .

في الغرب ، كانت تلك السنوات سنوات الجمود الاقتصادي الكبير : وجاء صعود النازية وانتصارها يوسعان من سجل تاريخ الجنون والجريمة . فبصورة او

---

(١) B.O. ، العدد ١١ ، ١٩٣٠ .

(٢) النبي الاعزل .

باخرى ، اضفى الانتصار النازي مذاك قتامة وظلاماً على حياة شخصيتنا الرئيسية . وبدون ان نستبق الامور يمكن ان نؤكد منذ الآن ان محاولة تروتسكي توعية الطبقة العاملة الالمانية بالاخطار التي تهددها كانت اعظم عمل سياسي انجزه في المنفى . فأفضل من اي شخص آخر ، وقبل اي شخص آخر بزمن طويل ، فهم طبيعة ذلك الجنون المدمر الذي سيطلع على العالم باسم الاشتراكية ـ القومية . إن تعليقاته على الوضع في المانيا ، المكتوبة بين عامي ١٩٣٠ و١٩٣٣ ، إبان السنوات التي سبقت وصول هتلر الى السلطة ، تتميز بالطابع الحازم والسريري للتحاليل والتوقعات المتعلقة بتلك الظاهرة المخيفة من علم المرض النفسي الاجتماعي وعواقبها على الحركة العمالية العالمية ، والاتحاد السوفياتي والعالم بأسره . ان ما يؤكد اكثر فأكثر على الطابع السياسي غير الصحي لتلك الحقبة ، إنما هي اللامبالاة الكاملة بما يخص المستقبل ، والعداء المسموم الذي رد به الناس المسؤولون عن مصير الشيوعية والاشتراكية الالمانية على صيحة الانذار التي اطلقها تروتسكي من منفاه في برنكيبو خلال تلك السنوات الثلاث الحاسمة . ان سرداً تاريخيا يمكن أن يظهر بصعوبة أي اعصار من الافتراءات والاستهزاء استقبله . ذلك أن تروتسكي كان يمثل في الواقع غريزة بقاء الحركات العمالية بوجه تلك الحركات بالذات ، التي بدا انها كانت تريد الانتحار مهما يكن الثمن . كان على تروتسكي ان يشهد استسلام الاممية الثالثة امام هتلر ، كما يشهد أب تقريبا انتحار ابن ضال وشارد ، وهو يحس بالخوف والخجل والغضب . ما كان في وسعه ان ينسى انه كان احد الآباء المؤسسين للاممية .

ولقد كانت الغارة ، التي شنها جنون تلك الازمنة على عائلة تروتسكي بالذات ، كبرق شرس تطلقه قساوة القدر المجنونة .

عدة اشهر فقط كانت قد انصرمت منذ بداية الازمة الاقتصادية العالمية ، وحالة الذعر في تشرين الاول / اوكتوبر ١٩٢٩ في وول ستريت حين تمزقت إرباً كل بنية جمهورية وايمار . كان الجمود الكبير بالنسبة لالمانيا صدمة مدمرة أدت بضربة واحدة إلى دفع ستة ملايين عامل الى احضان البطالة . وفي آذار / مارس ١٩٣٠ ، أُجبر هرمان مولر ، المستشار الاشتراكي ـ الديمقراطي ، على تقديم استقالته . كان التحالف الاشتراكي ـ الكاثوليكي ، الذي استندت اليه حكومته قد انهار ، فأعضاء التحالف لم يكونوا يتوصلون الى الاتفاق على ما اذا كان عليهم ان يخفضوا المساعدة المدفوعة للعاطلين عن العمل ، وكم عليهم ان يخفضوها .

أعلن الفيلد مارشال هندنبورغ ، رمز امبراطورية الهوهنزلرن وذخيرتها ، الذي كان آنذاك رئيساً للجمهورية ، القرار بحل البرلمان وعيَّن هاينريخ بروننغ مستشاراً للرايخ . وقد حكم بروننغ عن طريق المراسيم ، فطبق سياسة تضخمية صارمة ، وأنقص ميزانية الضمان الاجتماعي ، ولجأ الى تسريحات جماعية لمستخدمين حكوميين ، وخفض الاجور والرواتب ، وسحق المشاريع الصغيرةبالضرائب . بذلك فاقم ضيق الجميع ويأسهم . وفي انتخابات ١٤ ايلول / سبتمبر ١٩٣٠ ، حصل حزب هتلر ، الذي لم يجمع في عام ١٩٢٨ غير ثمانمئة الف صوت ، على ستة ملايين ونصف مليون صوت . وبذلك انتقل من اصغر حزب في الرايخستاغ الى ثاني اكبر حزب في الرايخستاغ . زاد أيضاً عدد اصوات الحزب الشيوعي ، من حوالى ثلاثة ملايين الى اكثر من أربعة ملايين . بينما تراجع الاشتراكيون ـ الديمقراطيون الذين كانوا قد حكموا كأسياد ، طيلة سنوات ، في جمهورية وايمار. وهو ما حصل ايضاً بالنسبة للحزب القومي الالماني Deutschnazionale والاحزاب الاخرى لليمين التقليدي . كشفت الانتخابات عدم استقرار الديمقراطية البرلمانية وأزمتها الحادة .

رفض قادة جمهورية وايمار ان يقرأوا اعلانات المستقبل . كان المحافظون ينظرون الى صعود الحركة النازية بمشاعر مختلطة . لقد بلبلتهم خسائرهم الخاصة بهم وعنف النازية ، لكن طمأنهم صعود حزب كبير يعلن حرباً شعواء على كل منظمات الطبقة العاملة ؛ كانوا يأملون بأن يجدوا في النازية حليفاً ضد اليسار ، وربما شريكاً ثانياً لهم في الحكومة . أما الاشتراكيون ـ الديمقراطيون الذين ارعبتهم تهديدات هتلر ، الذي كان يتبجح عبر شتى انحاء البلاد معلناً انه اقترب الوقت الذي ستسقط فيه رؤوس الماركسيين واليهود في السلة ، فقد قرروا التساهل مع حكومة بروننغ على اساس انها اهون الشرور . بالمقابل ، طار قلب الحزب الشيوعي فرحاً بما حققه من كسب ، ولم يكن يولي اهمية جدية للتزايد الكبير في عدد اصوات هتلر . هكذا غداة الانتخابات ، كتبت **Rote Fahne** ، التي كانت آنذاك الصحيفة الشيوعية الاهم في اوروبا : « كان الامس يوم عيد بالنسبة للسيد هتلر ، لكن انتصار النازيين المزعوم ليس في الواقع اكثر من بداية نهايتهم » . وبعد اسابيع كررت Rote Fahne ان « ١٤ ايلول /سبتمبر كان النقطة العليا التي بلغها المد الاشتراكي ـ القومي في المانيا ، وأن ما سيلي لا يمكن ان يكون غير انحسار وهبوط » .

بعد ذلك بأشهر ، حين ذاقت مدن المانيا الكبرى والصغرى طعم الارهاب الذي نشرته عصابات هتلر ، اعلن تالمان ، قائد الحزب الشيوعي ، امام اللجنة التنفيذية للكومنترن في موسكو : « بعد النجاح الباهر الذي حققه الاشتراكيون ـ القوميون في ١٤ ايلول / سبتمبر ، كان أتباعهم في كل أنحاء المانيا ينتظرون اموراً عظاماً ، اما نحن فلم نترك انفسنا نزوغ بفعل جو الذعر الذي كان تجلى آنذاك . . . على الاقل داخل الطبقة العاملة ، وفي كل حال بين اتباع الحزب الاشتراكي ـ الديمقراطي . لقد اعلنا آنذاك ، بهدوء وجدية ، أن ١٤ أيلول كان ، بمعنى ما ، اجمل يوم لهتلر وانه لن يرى اياماً اجمل بل فقط اسوأ » . وقد انضمت اللجنة التنفيذية للكومنترن الى وجهة النظر هذه ، وهنأت تالمان ، وثبتته في سياسته للحقبة الثالثة ، التي كان على الحزب الشيوعي ان يرفض بموجبها كل تحالف مع الاشتراكيين ضد النازية ، ويركز نيرانه على الاشتراكيين ـ الفاشيين[٣] .

نحن نعرف ان تروتسكي اخضع هذه السياسة لنقد صارم منذ عام ١٩٢٩ . وفي آذار/مارس ١٩٣٠ ، اي قبل ستة اشهر من الانتخابات الحاسمة ، كرر انتقاده في رسالة مفتوحة الى الحزب الشيوعي السوفياتي . تكلم فيها من جديد على قوة الفاشية المتنامية في كل اوروبا ، لكن بخاصة في المانيا ، واصر على ضرورة عمل شيوعي ـ اشتراكي مشترك[٤] . ومنذ ظهرت نتائج انتخابات ايلول/سبتمبر علق عليها في كراس خاص اهتم بنشره بعدة لغات اوروبية . كتب فيه يقول : « ان اول ميزة لحزب ثوري حقيقي هي قدرته على مواجهة الحقائق » ، وارسل الى سلة المهملات التهانيء الذاتية للكومنترن ، مبرزاً كيف أن الكسب الشيوعي لما يزيد قليلاً عن مليون صوت لا يعني شيئاً اذا قورن بكسب النازيين الذي بلغ تقريبا ستة ملايين صوت . ان « تجذر الجماهير » الذي كانت تتبجح به الكومنترن عاد بالمنفعة على الثورة المضادة لا على الثورة . وما كان يفسر الفوران « الجبار » للنازية ، انما هو ازمة اجتماعية عميقة » أفسدت

---

(٣) تمت دورة اللجنة التنفيذية للكومنترن في نيسان ١٩٣١ . كان مانويلسكي مقرر الوضع الاممي . وقد ابدى في تفسير سياسة الحقبة الثالثة حماساً منقطع النظير ، الى درجة أنه ابرز دون ارادته عبث تلك السياسة . (انظر الاممية الشيوعية ، عدد ١٧ ـ ١٨ ، ١٩٣١) .

(٤) .B.O ، العدد ١٠ ، نيسان / ابريل ١٩٣٠ ؛ انظر ايضاً هجومه القاسي على الحقبة الثالثة من اخطاء الكومنترن ، المنشور في الحقيقة ، والثورة ، والمناضل ، وصحف تروتسكية اخرى في يناير ـ فبراير ١٩٣٠ .

التوازن الذهني للشريحة الدنيا من الطبقة المتوسطة ، وعجز الحزب الشيوعي عن التصدي للمشكلات التي تطرحها تلك الازمة . فاذا كانت الشيوعية تعبر عن الآمال الثورية للشغيل ، فالنازية تجعل من نفسها الناطق بلسان اليأس المضاد للثورة لدى **البورجوازي الصغير** . . وحين يصعد حزب الثورة الاشتراكية ، لا يجر فقط معه الطبقة العاملة ، بل كذلك اقساماً واسعة من الشرائح الدنيا من البورجوازية الصغيرة . الا ان ما كان يحدث في المانيا هو العكس : فحزب اليأس المضاد للثورة كسب كذلك شرائح مهمة من الطبقة العاملة . كان محللو الكومنترن يعزون انفسهم بفكرة ان النازية لم تكن ببساطة غير رجيع متأخر لأزمة ١٩٢٣ والتوترات الاجتماعية التي تلتها . أما تروتسكي فبيّن ان النازية لم تكن تمثل رد فعل متأخراً على أزمة ماضية بل كانت تعبىء قوى لمواجهة ازمة قادمة ، وان « واقع كون الفاشية بدت قادرة على احتلال موقع انطلاق بتلك القوة ، عشية حقبة ثورية لا في نهايتها ، هو مصدر ضعف للشيوعية لا للفاشية » . واستخلص من ذلك انه رغم النجاح البرلماني للحزب الشيوعي ، سجلت الثورة البروليتارية هزيمة جدية . هزيمة يمكن ان تغدو حاسمة(٥) . في ذلك الكراس ، وضع تروتسكي الخطوط الاولى لتحليل للنازية سوف يفصله بعد ذلك بوقت قصير في سلسلة من الكتب والمقالات . وبعد ثلاثين عاماً ، يمكن ان تظهر بعض افكاره كبديهيات ، الا انها كانت كلها هرطقات حين قدمها . واجمالا ، حافظ تصوره للنازية على حاليته وفرادته ، وهو لا يزال التحليل الوحيد المتماسك والواقعي للنازية او للفاشية عموماً ، الذي يمكن العثور عليه في الادبيات الماركسية . لذا ليس من نافل الامور ابداً ان نلخص هنا هذا الفهم ، الذي فصله هو بالذات ، لا سيما بشكل سجالي ، في سياق الجدل الذي دار حول التكتيك الشيوعي(٦) .

نجد نواة مفهوم تروتسكي في وصفه للنازية كحزب اليأس المضاد للثورة . كان يعتبر النـازية كـالحركـة والايديـولوجيـة الخاصتين بـالـ Wildgewordene Kleinbürger ، البورجوازي الصغير الذي يجن جنونه . وهذا يضعه خارج كل الاحزاب الرجعية والمضادة للثورة الاخرى . كانت قوى الرجعية التقليدية تعمل

---

(٥) ليون تروتسكي ، **كتابات** ، ص ٢٥ ـ ٤٦ . انظر كذلك **المحفوظات** .

(٦) اهم الاعمال حول هذا الموضوع هي : **نيميتسكايا ديفولوتسيا اي ستالينسكايا بوروكراتيا** ، المنشورة تحت العناوين التالية : What Next? **بالألمانية**، و Edinstveemyi put' وابحاثه ومقالاته في الـ B.O ، **وفي** الصحف التروتسكية الاخرى . انظر **الكتابات** ، ج ٣ .

في العادة من علٍ ، من قمة الهرم الاجتماعي للدفاع عن السلطة القائمة . اما الفاشية والنازية فكانتا ثورتين مضادتين من أسفل ،للحركات الشعبوية ، المنبثقة من اعماق المجتمع ، وهما تعبران عن حاجة الشرائح الدنيا للطبقة الوسطى لتأكيد نفسها ضد باقي المجتمع . هذه الحاجة ، التي يجري كبتها عموماً ، تصبح عدوانية إبان كارثة قومية تبدو السلطة القائمة والاحزاب التقليدية عاجزة عن مواجهتها . فخلال « ازدهار » سنوات ١٩٢٠ - ١٩٣٠ ، كان حزب هتلر في المنطقة المحفوظة لمجانين السياسة الالمانية ، لكن الجمود الاقتصادي لعام ١٩٢٩ نقله الى الواجهة . كان الجمهور الواسع للحانوتيين وموظفي المكاتب تبع حتى ذلك الحين الاحزاب البورجوازية التقليدية ، وكان اعضاؤه اعتبروا انفسهم كدعائم الديمقراطية البرلمانية ؛ اما الان فقد تركوا تلك الاحزاب وتبعوا حزب هتلر ، لأن الخراب الاقتصادي المفاجىء ملأهم بشعور الخوف وانعدام الامن وأيقظ لديهم الرغبة في تأكيد ذواتهم .

إن الـ Kleinbürger هو بالطبع مستاء من وضعه الاجتماعي . حين كان يوجه أنظاره نحو الـ big business * الذي كان يسحقه في الغالب عبر المنافسة ، كان ذلك ممزوجاً بالحقد والحسد ، واذا خفض انظاره الى العمال ، كان يحسدهم على قدراتهم على التنظيم السياسي او النقابي وعلى دفاعهم العملي عن مصالحهم . كان ماركس وصف في السابق اولئك الذين كانوا يلتفتون ، في حزيران/يونيو ١٨٤٨ ، الى الشغيلة الثائرين في باريس التفاتة غضب ونقمة : « كان الحانوتيون يرون الطريق الى حانوتهم وقد اقفلته متاريس الشغيلة ، المرفوعة في الشوارع ، لذا خرجوا وسحقوا المتاريس » . ولم يكن لدى الحانوتيين الالمان لبداية الثلاثينات اي سبب من هذا النوع كي يصابوا بالجنون ؛ فما من متراس كان يعيق الوصول الى حانوتهم ؛ لكنهم كانوا مدمرين اقتصادياً وكانت لديهم اسباب لتحميل جمهورية وايمار مسؤولية ذلك ، تلك الجمهورية التي رأوا الاشتراكيين الديمقراطيين على رأسها طوال سنوات . وقد أرعبهم التهديد بالشيوعية الذي ، حتى اذا لم يكن يتخذ شكلاً حسياً ، او بالضبط لانه لم يكن يأخذ ذلك الشكل ، فقد كان يبقي المجتمع في حالة دائمة من الاضطراب والغليان . كان الـ Kleinbürger يرى ان الاعمال الكبرى ، والاموال اليهودية ،

(*) المقصود المشروع الكبير (م) .

والديمقراطية البرلمانية ، والحكومات الاشتراكية الديمقراطية ، والشيوعية والماركسية عموماً ، كانت تندمج كلها لاعطاء صورة عن المسخ الذي لا رأس له الذي كان يخنقه ، كان كل هؤلاء الناس متحدين في مؤامرة مشؤومة مسؤولة عن خرابه . وكان الساذج الصغير يشهر بوجه الـ big business قبضته كما لو كان اشتراكياً ، اما بوجه الشغيلة فكان يصرخ بمحترميته البورجوازية واستهواله صراع الطبقات ، وكبريائه القومي المجنون ، وكرهه للاممية الماركسية . هذا العصاب السياسي لملايين الناس المفقرين ، منح النازية قوتها وانطلاقها . كان هتلر ذلك الساذج الصغير ، بملامح اكثر بروزاً ، ذلك الساذج الصغير بوساوسه ومسبقاته وسخطه العصابي . كتب تروتسكي : « لم يكن يمكن اي بورجوازي صغير هائج ان يصبح هتلر ، لكن قطعة صغيرة من هتلر موجودة في كل بورجوازي صغير هائج » .

ومع ذلك لم تكن البورجوازية الصغيرة في وضعها العادي غير هباء منثور ، فهي لم تكن تمتلك شيئاً من مقدرة الشغيلة على التنظيم ، لانها كانت من حيث الجوهر عديمة الشكل ومفتتة الى ذرات صغيرة . ورغم الـ **bombast*** والتهديدات ، كانت تبرهن عن جبن في كل مرة تجد فيها نفسها امام مقاومة فعلية . فكل تاريخ الصراع الطبقي في اوروبا والثورة الروسية يقدم البرهان على ذلك . ما كان يمكن البورجوازية الصغيرة مذاك ان تلعب دوراً مستقلاً . كان عليها في نهاية المطاف إما ان تتبع البورجوازية الكبرى ، او ان تصطف بجانب الطبقة العاملة ؛ كان تمردها على الـ big business دون تأثير ، فالحرفي الصغير والحانوتي لا يستطيعان التغلب على او ليغارشيات الرأسمالية الاحتكارية . ما كان يمكن النازية إذا استولت على السلطة ، بالتالي ، ان تنفذ ايا من وعودها « الاشتراكية »، وكانت ستتكشف عن قوة محافظة من حيث الجوهر ؛ كانت ستسعى لتأبيد الرأسمالية ، وسحق الطبقة العاملة وتسريع خراب ذلك القسم الادنى بالذات من البورجوازية ، تلك البورجوازية الصغيرة بالذات التي اوصلتها الى السلطة . ومع ذلك ، فإن تلك الشريحة الدنيا من البورجوازية وجزأها المنتمي الى البروليتاريا الرثة كانا يتحركان بشكل محموم،ويلتهب خيالهما بأحلام

(*) الكلام المنمق الطنان (م) .

التفوق السياسي والاجتماعي الذي كان هتلر يعدهما به .

اعلن تروتسكي أن « ذلك الهباء البشري كان يجتذبه مغناطيس السلطة ؛ في اي من الصراعات سوف يتبع الحزب الذي يبدي اكبر عزم على الفوز ، والجسارة الاشد، والقدرة الاعظم على الاجهاز على كارثة من مثل الجمود الكبير . ذلك هو السبب في ان البلشفية في روسيا ، بأخذها قيادة الطبقة العاملة عام ١٩١٧ ، حصلت كذلك في اللحظة الحاسمة على انضمام الجمهور الواسع المتردد المشتت من الفلاحين وحتى من قسم من البورجوازية الصغيرة المدينية . بالطريقة نفسها ، كان يمكن الطبقة العاملة الالمانية ان تجتذب الى صفوفها جموع الشرائح الدنيا من البورجوازية لو أن هذه شعرت بقوتها وعزمها على النصر ، اي لو ان سياسة الاشتراكيين والشيوعيين لم تفتقر الى الهدف والقيادة . إن الطموحات المنتفخة بلا حدود ، الخاصة بالـ Kleinbürger ، وقوة النازية ، كانت مستمدة من ضعف الطبقة العاملة بالذات . كان قادة الاشتراكية ـ الديمقراطية يسعون للفوز بحظوة لدى الطبقات الوسطى والدنيا والعليا في البدء في ظل جمهورية وايمار وذلك بالخضوع بصورة خانعة لنظام برونغ ، ودائماً وفي كل مكان ، بالدفاع عن الوضع القائم Statuquo السياسي والاجتماعي . لكن الشرائح الدنيا من البورجوازية كانت تتمرد بالضبط على جمهورية وايمار ، وامتدادها المتمثل بنظام برونغ ، وضد ذلك الوضع القائم ، كانت السياسة الاشتراكية ـ الديمقراطية تساهم ، بالتالي ، بصورة حاسمة ، في ابعاد الطبقة العاملة المنظمة عن البورجوازية الصغيرة ، بشكل خطير ، ومن هذا الابتعاد كانت النازية تستفيد وتتقوى . ظل الاشتراكيون الديمقراطيون يعظون بالاعتدال والحذر ، في حين كان الاعتدال والحذر قد أفلسا ،وظلوا يدافعون عن الوضع القائم في حين كان هذا اصبح غير محتمل لدرجة ان الجماهير كانت تفضل اي شيء عليه ، بما فيه الهاوية التي كان هتلر يدفع بها اليها .

بسياسة النعامة التي اعتمدها الاشتراكيون ـ الديمقراطيون كانوا يبقون منسجمين مع انفسهم ، وكما لاحظ تروتسكي ، فإن مسؤولية الحزب الشيوعي كانت بذلك اعظم . إلا ان قادته لم يدركوا طبيعة الخطر ومدى اتساعه . فبتطرفهم البخس والتافه رفضوا ان يقيموا أي تمييز بين الفاشية والديمقراطيةوالبورجوازية ، وظلوا يؤكدون انه بمقدار ما تجتهد الرأسمالية الاحتكارية في تحويل الديمقراطية البورجوازية الى فاشية ، فان كل الاحزاب التي

تبقى على ارض الرأسمالية ستمر حتماً بهذا التحول ؛ كان لكل القطط ، في عرفهم ، اللون الداكن ذاته . كان هتلر فاشياً ، لكن الامر لم يكن يختلف بالنسبة لكل الاحزاب التقليدية في اليمين والوسط . كانت تلك الملاحظة تنطبق بصورة اخص على بروننغ ، الذي كان بدأ يحكم بمرسوم ، وكان يمكن تطبيقها ايضاً على الاشتراكيين ـ الديمقراطيين الذين يشكلون ضمن هذا المنظور الجناح اليساري للفاشية . لم يكن الأمر يقتصر هنا على شتائم سجالية ، ذلك أن في اصل كل ذلك توجهاً سياسياً خاطئاً واستراتيجية مغلوطة . كان الدعاويون الشيوعيون يعلنون دون توقف ان المانيا غدت تعيش تحت حكم الفاشية وان هتلر لن يستطيع جعل الامور اسوأ مما هي عليه في ظل بروننغ ، مستشار المجاعة(٧) . لكن عكس ذلك ، كان تروتسكي يبين انهم إذ اعلنوا ان الفاشية انتصرت فهم اعلنوا بذلك خسارة المعركة حتى قبل ان تبدأ ، وانهم بقولهم ، في كل حال ، للجماهير ان هتلر لن يكون اسوأ من بروننغ ، كانوا ينزعون سلاحها المعنوي بوجه هتلر ؛ ومع ذلك ، كان من قبيل الجنون الصرف ، بالنسبة لحزب للطبقة العاملة ، ان ينكر ـ او يطمس التمييز بين الفاشية والديمقراطية البورجوازية . صحيح انهما ، كليهما ، لم يكونا إلا شكلين وطريقتين مختلفتين للسيطرة الرأسمالية ، لكن لما كانت الظروف على تلك الحال ، فقد كان للفروق في الطرائق والاشكال اهمية حاسمة . فالبورجوازية تبقى سيطرتها ، في ظل ديمقراطية برلمانية ، بواسطة تسوية اجتماعية واسعة مع الطبقة العاملة ، تسوية تتطلب مساومة مستمرة وتفترض مسبقاً وجود منظمات بروليتارية مستقلة ، واحزاب سياسية ونقابات ؛ ومن وجهة نظر الماركسية الثورية ، تشكل تلك المنظمات « جزراً صغيرة للديمقراطية البروليتارية داخل الديمقراطية البورجوازية » ، نقاطاً مدعمة ومتاريس ، يمكن ان يقاتل الشغيلة من ورائها السيطرة البورجوازية بوجه عام . اما الفاشية فكانت تعني نهاية التسوية الاجتماعية والمساومة بين الطبقات .

---

(٧) طوال عام ١٩٣١ ، والنصف الاول من ١٩٣٢ ، ظهرت يومياً تقريباً في Rote Fahne تلك التشخيصات العميقة ، ودعمتها الـ Internationale Press Correspondenz والـ Kommunistische internationale بكل ما تمتلك من سلطة . انظر كذلك الدورة الحادية عشرة للـ KommunistichesKii International ١٩٣٢ ، اعداد من ٢٧ الى ٣٠ . لم يكن مولوتوف ومانويلسكي وبياتنيتسكي وقادة روس آخرون هم الذين يطمئنون انفسهم واتباعهم بالاعلان ان طريق الخلاص الوحيدة هي الطريق التي كان يقود بها تالمان الحزب الشيوعي الالماني ، بل كذلك الناطقون بلسان الشيوعيين الاوروبيين ، توغلياتي وتوريز وكاشين ولنسكي وكوزينن ، وآخرون ايضاً .

لم تكن تعنيها الطرق التي تمت بها تلك المساومة ، فهي لم تكن تستطيع ان تتساهل مع وجود اي منظمة مستقلة خاصة بالطبقة العاملة . ان تروتسكي الذي استخلص الدرس من تطور الفاشية الايطالية، واستدل، دون ادنى شك، كذلك على قاعدة التجربة البلشفية لنظام الحزب الواحد ، وصف سلفاً ، بتعابير أخاذة ، الاحتكار الكلياني للسلطة على طريقة هتلر ، الذي لن يترك مكاناً ابداً لأحزاب العمل وللنقابات المستقلة . واذا لم يكن الا لهذا السبب ، فقد كان على الماركسيين واللينينيين ان يدافعوا عن الديمقراطية البورجوازية ، أو بالاحرى عن «الجزر الصغيرة الخاصة بالديمقراطية البروليتارية داخل تلك الديمقراطية البورجوازية»،في وجه الهجوم الفاشي. فبقول الدعاوة الستالينية ان الاشتراكيين ـ الديمقراطيين يشكلون الجناح اليساري للفاشية ، وانهم سيوقعون ، عاجلاً أو آجلاً ، تسويات مع النازيين ، كانت تضرب صفحاً عن استحالة تلك التسوية موضوعياً[٨] . (تحسن إضافة ان قادة الاشتراكية الديمقراطية شاركوا كذلك في تلك الاوهام ، وانهم بذلوا عام **١٩٣٣** جهداً ، يعادل محاولة انتحار ، للوصول الى تسوية مع هتلر[٩]) . لم يكن يشك تروتسكي اطلاقاً بأن هتلر سيدمر كل اثر للحركة العمالية ، اكان إصلاحياً أو شيوعياً ، وما كان يدفعه لصياغة ذلك التشخيص ، انما هي فكرة كون النازية لا يمكن ان تفعل شيئاً آخر غير استهداف التدرير الكامل للمجتمع الالماني .

هكذا كان من الخطأ معاملة نظام برونغ على انه نظام فاشي ، حتى اذا كان يسجل النهاية المضمرة للتسوية الواسعة بين رأس المال والعمل ، التي استندت اليها جمهورية وايمار . كان برونغ عاجزاً عن سحق الحركة العمالية ، وعاجزاً ايضاً عن البقاء في مواقعه بوجه النازية . واذا استثنينا الدعم المهتز من جانب حزب الوسط الكاثوليكي ، و« التساهل » الاشتراكي ـ الديمقراطي ، ما كان يمكنه الاعتماد إلا على الامكانات العادية للجهاز البيروقراطي ، لكن هذه

---

(٨) تروتسكي ، **Wheat Next?** ، المقدمة والفصلان الاول والثاني . انظر الكتابات ، ج ٣ ، من ص ١٠٩ الى ١١٣ .

(٩) استخدم اوتوويلز ، قائد الاشتراكيين الديمقراطيين في الرايخستاغ ، احدى المناسبات الأخيرة التي اعطيت له لاستخدام المنبر البرلماني ، للاعلان ان حزبه مستعد لدعم حكومة هتلر في ميدان السياسة الخارجية . وكان يأمل لقاء ذلك انقاذ حزبه من الدمار على ايدي النازيين ، لكن هتلر رفض العرض.

الامكانات لم تكن تكفي لالغاء الطبقة العاملة المنظمة . لقد بقيت البنية السياسية على ما كانت عليه في ظل جمهورية وايمار، وما كان يمكن ان يفتت تلك البنية السياسية غير القوةالدينامية الخاصة بالنازية . كان قطع التسويةبين الطبقات قد أعد المسرح لحرب اهلية تكون فيها النازية والحركة العمالية بمجملها المتصارعتين الحقيقتين . كان نظام برواننغ « مثل رصاصة في قمة هرم » ، يرتكز على توازن هش بين معسكرين متعاديين ، وفي غضون ذلك ، كان النازيون يجندون الملايين ويدفعون بالهستيريا الى الذروة ، ويكونون قوة ضاربة بالغة الضخامة . وكان كل ذلك يتم في الوقت الذي يراوح فيه الشيوعيون والاشتراكيون في المكان ، ويخربون عملياً تعبئة قواهم الخاصة بهم .

إن بضعة استشهادات تعطي فكرة عن اللهجة اللجوج ،وحتى الساخطة احياناً ، لمحاجةتروتسكي :

« ان نظام برواننغ هو تمهيد انتقالي وقصير الامد للكارثة . . . والحمقى مطلقو الحكم الذين يعلنون انهم لا يرون اي فرق بين برواننغ وهتلر يقولون في الواقع : لا فرق بين ان توجد منظماتنا أو أن يتم تدميرها . هذا اللغو المزيف في تطرفه يخفي في الواقع السلبية الاكثر دناءة . . . على كل شغيل يفكر . . . ان يدرك هذا او يكشف الثرثرة الهاذية بصدد « برواننغ - و - هتلر - اللذين - ليسا - غير - شيء - واحد » . اننا نجيب : انتم تخطئون بشكل خطير ، تخطئون بصورة مخجلة لأنكم تخافون الصعوبات التي تنتظركم ، لأنكم ترتعبون من المشكلات الكبرى ، التي تعرض لكم ، تتخلون قبل ان تبدأ المعركة وتعلنون انكم منيتم بهزيمة . انكم تكذبون ! فالطبقة العاملة منقسمة . . ومضعفة . . . لكنها لم تدمَّر بعد ، وقواها لم تنفد بعد . . إن نظام برواننغ نظام انتقالي ، وهو يشير للانتقال الى ماذا ؟ إما الى انتصار الفاشية او الى انتصار الطبقة العاملة . . . المعسكران يعدان نفسيهما للمعركة الحاسمة . إذا ماثلتم برواننغ بهتلر تماثلون الوضع الذي يسبق المعركة بالشروط اللاحقة للهزيمة ، وتعترفون سلفاً بالهزيمة ؛ انكم تطلبون في الواقع الاستسلام من دون قتال . ان الشغيلة بغالبيتهم الساحقة ، والشيوعيين بوجه خاص ، لا يبغون هذا ؛ والبيروقراطية

الستالينية لا تريد ذلك ايضاً ، لكن لا ينبغي ان نأخذ اطلاقاً بالحسبان هذه النوايا الطيبة، التي سيبلط هتلر بها الطريق الموصلة الى جحيمه . . . علينا أن لا نتوقف عن فضح الطابع السلبي ، والمتردد بجبن وخجل ، والانهزامي والمبهرج لسياسة ستالين وماتويلسكي وتالمان وريميل ، ان نبين للعمال الثوريين أن الحزب الشيوعي لا يزال يمسك بمفتاح الوضع وان البيروقراطية الستالينية تحاول ان تقفل بهذا المفتاح ابواب كل عمل ثوري(١٠) .

وعد القادة الاشتراكيون ـ الديمقراطيون بشن « هجوم كبير » اذا حاول هتلر الاستيلاء على السلطة . بانتظار ذلك ، كانوا يطالبون الشغيلة بلا انقطاع بالهدوء والاتزان . وكان الستالينيون يتبجحون بانه اذا اخذ هتلر السلطة ، سوف يكنسه الشغيلة . اعلن برلماني شيوعي من الدرجة الأولى هو ريميل ، في الرايخستاغ : « فليأخذ هتلر السلطة ، فاذا فعل سرعان ما سيفلس ، ويأتي عند ذلك يومنا » . وقد رد تروتسكي على ذلك بقوله :

« يجب شن الهجوم الكبير قبل أن يحل هتلر محل برونغ ، قبل أن يتم سحق منظمات الشغيلة . . . إنه لعار أن يعطى الوعد بأن الشغيلة سيكنسون هتلر ما ان يستولي على السلطة . لأن ذلك يعني تهيئة الطريق لسيطرة هتلر . . . اذا سمحت الطبقة العاملة الألمانية . . . للفاشية بالاستيلاء على السلطة ، إذا برهنت عن عمى وسهولة مشؤومين الى هذه الدرجة ، لن يعود ثمة اي سبب للافتراض بأن تخرج الطبقة العاملة ذاتها للحال من خدرها ، بعد أخذ الفاشيين السلطة ، وتوجه ضربة مكنسة عظيمة . لا شيء من ذلك حصل في ايطاليا بعد وصول موسوليني الى السلطة . ان ريميل يستدل في كل النقاط مثل اولئك البورجوازيين الفرنسيين الصغار الثرثارين ، الذين كانوا مقتنعين في ١٨٥٠ ـ ١٨٥١ بأنه لو اراد لويس بونابرت ان يضع نفسه فوق الجمهورية ، سينتفض الشعب . . . الا ان الشعب الذي سمح لذلك المغامر بالاستيلاء على السلطة ابدى عجزه ، بالتأكيد ، عن التخلص منه فيما بعد . . . كانت ثمة حاجة لزلازل تاريخية وحتى لحرب كي يطاح (وهذا النموذج من

(١٠) تروتسكي ، What Next ، ص ٣٨ ـ ٣٩ . الكتابات ، ج ٣ ، ص ١٢٩ ـ ١٣٠ .

« الصراع » ضد هتلر سوف ينتهي بالضبط بالطريقة نفسها ، لأنه بالمقارنة مع هتلر ، كان موسوليني ونابوليون الثالث يشبهان اولئك الصيادلة الوديعين والانسانيين الذين نراهم في المدن الصغرى) . يتبجح ريميل في الرايخستاغ قائلاً : نحن المنتصرون غداً ، ولا نخشى ان نرى هتلر يأخذ السلطة . هذا يعني ان انتصار الغد سيكون انتصار هتلر لا انتصار ريميل . وعندئذ يمكنكم ان تطبعوا على انفكم ما يلي : لن يأتي نصر الشيوعيين بهذه السرعة . نحن لا نخاف ان نرى هتلر يأخذ السلطة ، ما هذا إن لم يكن قفا الكلام الذي يتلفظ به الجبن ؟ نحن لا نعتبر انفسنا قادرين على منع هتلر من اخذ السلطة ، والأسوأ من ذلك : نحن البيروقراطيين انحططنا لدرجة اننا لا نجرؤ حتى على التفكير جدياً بمقاتلة هتلر، ومن هنا فنحن لسنا بخائفين، مم لا تخافون؟من قتال هتلر ؟ أوه كلا . . . انهم لا يخافون انتصار هتلر ، لا يخافون رفض القتال ، ولا يخافون الاعتراف بجبنهم . يا للعار !(١١) » .

واذ كان تروتسكي يوجه انذاراً ولم يفت الأوان بعد ، كان ينتظر ان يرى الشيوعيين والاشتراكيين يلتقون . كان الوضع بعيداً عن ان يكون يائساً ، لكنه كان يسوء سريعاً ، ولم يكن يتطلب شيئاً اقل من اعداد الحرب الاهلية والاستعداد لها. كان نداء تروتسكي يدوي في آذان الواعظين بالاعتدال داخل الاشتراكية ـ الديمقراطية ، والستالينيين الذين كانوا يتحدون هتلر ليأخذ السلطة ، كاستفزاز سيىء وغير مسؤول ، لا بل كهذيان دون كيشوت . وسوف تثبت الاحداث ، بصورة مشؤومة بما فيه الكفاية ، في أي جانب كانت اللامسؤولية ، او النية السيئة او الدونكيشوتية . سوف تبرهن انه بين كل اشكال العمل المفتوحة لليسار الالماني ، كانت الحرب الاهلية التي كان ينبغي ان تمنع هتلر من الاستيلاء على السلطة ، الشيء الاقل مغامرة ، والشيء الوحيد حقاً الذي كان يمكن ان يجنب المانيا والعالم اهوال الرايخ الثالث، وزلازل الحرب العالمية . كان تروتسكي مقتنعاً في بداية حملته ان في وسع يسار موحد أن يهزم النازيين دون معركة تقريباً ، مثلما هزم البلاشفة والمناشفة كورنيلوف في آب/اغسطس ١٩١٧ ، وهو مَثَلٌ كان يورده باستمرار . كان يبرهن على انه لا يزال بامكان مظاهرة قوة اشتراكية ـ شيوعية

(١١) تروتسكي ، What Next? ص ٦٠ ـ ٦٢ . الكتابات ج ٣ ، ص ١٤٣ ـ ١٤٥ .

ان تفكك انصار هتلر ، هذا الغبار البشري الذي اكتسب قوة جرُفٍ ، فقط لانه كان يتنقل في الفراغ السياسي، ولا يصادف اية مقاومة متماسكة . وما كان لصالح اليسار ، الى حد ما ، هو ايضا واقع كون الجناح اليميني التقليدي لم يكن قد تحالف بعد مع هتلر ، حتى لو كان البعض داخل صفوف اسياد الصناعة والمصرف الالماني بدأوا يدعمونه . كان تروتسكي يحلل ، في فحصه الدقيق لكل الظروف التكتيكية والاستراتيجية المواقف الملتبسة الخاصة بالاوليغارشيات الرأسمالية ، وأسياد الجيش والستاهلهلم والشرطة . كان كل هؤلاء ممزقين بين الرغبة في استخدام النازية والخوف الذي توحي به اليهم ، بين املهم في سحق عالم العمل بقبضة هتلر وخوفهم من ان يروا هذا يغطس المانيا في حرب اهلية دامية ، لا يمكن توقع نهايتها . لم يكن هندنبورغ وكبار الصناعة ومنظمات الضباط يعرفون بعد ما يفعلون ، وكانت ثمة حاجة لعمل اشتراكي - شيوعي ضخم لجعل ذلك الارتباط اشد ، ولجعل مخاطر دعم يقدمه القادة المحافظون لهتلر تبدو لهم عظيمة ، وجعل انقساماتهم وتردداتهم اعمق ، واخيراً لتحييد بعضهم . إن الجمود وفقدان الاتجاه لدى اليسار ، لا يفعل وهو يقلل من المخاطر غير دفع البورجوازية الكبرى والجيش وهندنبورغ الى احضان النازيين .

كان لا يزال يمكن اذاً « جبهة موحدة » من الاشتراكيين والشيوعيين ان تغير كل الوضع السياسي . كان التهديد المميت ذاته معلقاً الآن على رأس هذين الحزبين ، حتى اذا لم يكن اي منهما يدرك ذلك ، وذلك وحده كان عليه ان يحثهما على جمع قواهما . طبعاً كانت تلك الفكرة تنفر القادة الاشتراكيين - الديمقراطيين . فالعداء للشيوعية كان الحافز الاساسي لسياستهم منذ عام ١٩١٨ ، وقد دفعهم الى التعلق بـ « أهون الشرور » ، المجسد بهندنبورغ - كوم - برويننغ ، بدل التحالف مع الشيوعية ضد هتلر . وقد بيّن تروتسكي مراراً كيف انهم اذ كانوا يتعلقون بـ « اهون الشرور » لم يكونوا يفعلون غير فتح ابواب « الشر الاكبر » ، المتمثل بالنازية ، لكن لم يكن ذلك ، بالنسبة اليه ، غير سبب إضافي ، على الشيوعيين لأجله أن يجعلوا من الجبهة الموحدة المسألة المركزية لكل سياسة الطبقة العاملة . لم يكونوا يتوصلون لذلك ، لأنهم كانوا متورطين في الخط المسمى خط الحقبة الثالثة للكومنترن . لم يكن في وسع الحزب الشيوعي حتى ان يحاول فتح أعين الملايين من الشغيلة الاشتراكيين - الديمقراطيين على الخطر الذي كان يهددهم ، في حين كان قادته هو عمياناً لا يرون ذلك الخطر . ان حظر

موسكو لكل اتفاق مع الحزب الاشتراكي ـ الديمقراطي لم يكن يسمح بذلك الاحتكاك الشيوعي الفعلي مع الحزب المذكور . كان التعنيف اليوم من جانب الستالينيين ضد « الاشتراكيين ـ الفاشيين ، يعمق اكثر فأكثر انقسام الطبقة العاملة ، مقدماً للعداء للشيوعية لدى القادة الاشتراكيين ـ الديمقراطيين عذراً مقبولاً في الظاهر ، وجاعلاً اكثر سهولة متابعة المجرى الكارثي الذي كانوا يتابعونه . فقط نداء صادق ومقنع يوجهه الشيوعيون الى ضمير الاشتراكيين ـ الديمقراطيين كما الى مصلحتهم الشخصية ، نداء مكرر دون ملل امام نظر وسمع الطبقة العاملة بأسرها كان امكنه تحطيم الحواجز بين الحزبين .

ما كان يجب ان تكون الجبهة الموحدة لعبة ديبلوماسية او برلمانية لمودة فارغة وكاذبة ، من نوع اللجنة الانكليزية ـ السوفياتية لاعوام ١٩٢٤ ـ ١٩٢٦ (أو هل يمكن ان نضيف ؟ الجبهة الشعبية لاعوام ١٩٣٦ ـ ١٩٣٨) ، بل اعداداً وتنظيماً متبادلين للمعركة المشتركة . كان على الحزبين ونقاباتهما ان « تسير منفصلة لكن أن تضرب معاً » وان تتفق فيما بينها « على طريقة توجيه الضربات . الى من ؟ متى ؟ كيف ؟ » لم يكن الحزبان بحاجة لاجل ذلك الى التخلي عن اي من مبادئهما ، او الى السعي وراء تكييفات ايديولوجية ما . ما كان على الشيوعيين ان ينسوا ابداً انه لا يمكن الاشتراكيين الديمقراطيين ان يكونوا ، في افضل الاحوال ، غير « حلفاء مؤقتين وغير اكيدين » يرعبهم دائماً العمل اللابرلماني ، وكان بإمكانهم ان يتملصوا من النضال في نقطته الاكثر حرجاً . ومع ذلك كان واجب الشيوعيين أن يمارسوا عليهم اقوى الضغوط ، لإيقاظهم الى العمل . فإذا انصاعوا امام ذلك الضغط ، يسير كل شيء حينئذ على ما يرام ؛ وإلا ينتهي الملايين من انصارهم الى رؤية موقف كل حزب ، ويبدون ميلاً اكبر للاستجابة لنداءٍ الى العمل ذي طبيعة شيوعية . في ذلك الوقت ، اي في ١٩٣٠ ـ ١٩٣١ ، لم يكن يمر يوم بدون مناوشات مشتتة ، لكن مع ذلك دامية ، بين الشغيلة والعصابات النازية . لكن في تلك المشادات ، كان يتم تبذير روح الشغيلة النضالي من دون اي هدف . ولم يكن يحصل الا بصورة متفرقة ان يتفق الشيوعيون والاشتراكيون على رد هجوم نازي مجتمعين . كانت حالات من هذا النوع تنتزع من تروتسكي التعليق التالي :

« أيها القادة الأعلون ! أيها الحكماء ، يا حكماء الاستراتيجية سبع مرات ! تعلموا شيئاً من هؤلاء الشغيلة ، افعلوا ما يفعلون ، افعلوه على

مستوى اوسع ، مستوى قومي » .

خلال عام ١٩٣١ ، تضخمت قوات الانقضاض النازية (Storm Troops) من مئة الف الى اربعمئة الف . وكان تروتسكي يحث اليسار الالماني على إقامة ميليشياته الخاصة المعادية للنازية ، وعلى التنظيم المشترك للدفاع المتبادل عن مراكز احزابه ، وعن مجالس المصنع ، والنقابات ، الخ . . . . كتب وهو يفكر بالحراس الحمر الروس :

« على كل مصنع ان يصبح متراساً معادياً للفاشية ، له قادته الخاصون به وكتائبه الخاصة به. يجب العمل وباليد خارطة للثكنات الفاشية والمعاقل الفاشية في كل مدينة وكل قضاء . يحاول الفاشيون تطويق معاقل البروليتاريا ، ومن الضروري محاصرتهم بدورهم[١٢] » .

لم يكن في وسع قادة الحركة العمالية الالمانية ان يحزموا امرهم على التفكير والعمل على اساس الحرب الاهلية ،وذلك جزئياً لأنه فيما كان هتلر يتقدم على الطريق التي ستقوده الى السلطة ، كان يتخلى بين الحين والأخر عن كل تفكير بانقلاب ، وكل نية لاستعمال العنف ، كان يعلن انه سيأخذ السلطة ويمارسها بصورة دستورية ، وكانت تلك تأكيدات من جانبه تحدث مفاعيلها . اعلن تروتسكي محذراً : « إنه يدغدغ خصومه كي يفاجئهم في نومهم ويوجه لهم ضربة مميتة في اللحظة المناسبة . يمكن لاعلانات احترامه للديمقراطية البروليتارية ان تساعده على ان يقيم في المستقبل المباشر تحالفاً يحصل حزبه فيه على المراكز الاهم بغية استخدامها لاجل القيام بانقلاب . ومهما يكن طابع هذه الحيلة الحربية بسيطاً واولياً ، فهي تنضح بقوة خارقة ، لانها محسوبة للاستجابة الى الحاجات السيكولوجية للأحزاب الوسيطة التي تفضل تسوية كل شيء بصورة سلمية وشرعية ، والاخطر ، لأنها ترضي سذاجة الجماهير الشعبية سريعة التصديق[١٣] » .

تكلمت البرافدا و Rote Fah ne مذاك عن تروتسكي كمشيع للذعر ، ومغامر ، واحد من دمى بروننغ يحرض الشيوعيين على التخلي عن الثورة

---

(١٢) تروتسكي ، المانيا ، مفتاح الوضع العالمي ، ص ٤١ ، B.O. ، العدد ٢٧ .
(١٣) What Next? ، ص ١٤٧ - ١٤٨ .

البروليتارية والدفاع عن الديمقراطية البورجوازية ، ونسيان انه « دون انتصار تمهيدي على الاشتراكية ـ الفاشية ، لا يسعنا هزيمة الفاشية »(١٤) . وقد رد تروتسكي ، ليس من دون غضب ، لكن مع ذلك بصبر لامتناهٍ ، على الحجج ، بما فيها اكثرها إثارة للسخرية ، لكي تكون وجهات نظره واضحة بالنسبة لمن كانت تبلبلهم تعقيدات المساجلة . استمر بلا كلل يفضح الوهم الذي يرى انه لا انتصارعلى الفاشية من دون انتصار تمهيدي على الاشتراكية ـ الفاشية ، لافتاً النظر الى انه ، على العكس ، لن يمكن الشيوعيين ان يناضلوا بصورة فعالة ضد الاشتراكيين ـ الديمقراطيين الا بعد ان تكون الفاشية قد هُزمت ، ولن يمكن الثورة البروليتارية في المانيا ان تتطور الا انطلاقاً من مقاومة ظافرة للنازية .

لم ينفع كل ذلك في شيء . فحتى في ايلول/سبتمبر **١٩٣٢** ، اي قبل اشهر من صيرورة هتلر مستشاراً ، واصل تالمان ترداده في دورة اللجنة التنفيذية للكومنترن ما سبق ان قاله مونزنبرغ :

> « لا يقدم تروتسكي في كراسه حول طريقة انزال الهزيمة بالنازية الا جواباً واحداً هو التالي : على الحزب الشيوعي الالماني ان يتحد مع الحزب الاشتراكي ـ الديمقراطي » . . . وفقاً لتروتسكي ، هذه هي الطريقة الوحيدة امام الطبقة العاملة الالمانية لحماية نفسها من الفاشية . يقول انه إما أن يتحالف الحزب الشيوعي مع الاشتراكيين ـ الديمقراطيين ، او يفقد الطبقة العاملة عشر سنوات او عشرين . هذه النظرية هي نظرية فاشي ومعاد للثورة مفلس تماماً ، انها في الحقيقة الاسوأ والاخطر والاكثر اجراماً بين النظريات التي صاغها تروتسكي خلال سنواته الاخيرة من الدعاوة المعادية للثورة(١٥) » .

---

(١٤) ان منتقيات من مساجلات الستالينيين الالمان ضد تروتسكي قد تشكل قراءة مثقِّفة ، مع أنها رتيبة بشكل لا يحتمل . حتى رجل كمونزنبرغ كتب : « يقترح تروتسكي . . . كتلة بين الشيوعيين والاشتراكيين الديمقراطيين . لا يمكن ان يكون شيء اكثر شؤماً بالنسبة للطبقة العاملة الالمانية ، ولا شيء يمكن ان يدفع امور الفاشية الى الامام اكثر من الاستجابة لاقتراح مجرم الى هذا الحد . . . . ان من يقترح هكذا كتلة . . . لا يفعل غير مساعدة القادة الاشتراكيين الفاشيين ، ودوره . . . دور فاشي بوضوح . » Rote Aufbau ، ١٥ / ٢ / ١٩٣٢ . وقد ختم مونزنبرغ هذه الحملة السياسية منتحراً في المنفى .

(١٥) فلتتم مقارنة **Rote Aufbau** ، **استشهاد مذكور** ، بالاجتماع الثاني عشر للـ IKKI ؛ القـ م ٣ ؛ **Kommunisticheskii** ، ١٩٣٢ ، العددان ٢٨ و٢٩ ، ص ١٠٢ ـ ١٠٣ ـ ١١١ وغيرها . كان تالمان يبدي ثقة هادئة حين اعلن : « طبعاً لن تصبح المانيا فاشية ؛ وانتصاراتنا الانتخابية تضمن ذلك ، وتقدم الشيوعية الذي لا يقاوم ضمانة اخرى » .

رد تروتسكي بقوله : « ان احدى اللحظات الحاسمة في التاريخ تقترب . . . اللحظة التي يمكن فيها أن تزول الكومنترن ، بما هي عامل ثوري ، من الخارطة السياسية خلال حقبة تاريخية كاملة . ان العميان والجزعين يرفضون ملاحظة ذلك. دعوا المغترين والمخربشين المأجورين يتهمونا بأننا متحالفون مع الثورة المضادة . ألم تصبح الثورة المضادة شيئاً . . . يعكر هضم البيروقراطيين الشيوعيين ؟ لا ينبغي إخفاء اي شيء ، لا شيء ينبغي التقليل من اهميته . علينا ان نقول للعمال المتقدمين، بأعلى صوتنا : بعد الحقبة الثالثة من المخاطرة بكل شيء ومن التبجح ، ها بدأت الحقبة الثالثة من الذعر والاستسلام » . وفي جهد شبه يائس لتأليب الشيوعيين ، دق تروتسكي مجدداً جرس الانذار ، واضعاً في كلماته كل قوة إقناعه :

« ايها الشيوعيون ، ايها الشغيلة ، انتم مئات الآلاف ، انتم ملايين . . . إذا استولى الفاشيون على السلطة ، سيمرون كمركبة هجوم رهيبة على جماجمكم واعمدتكم الفقرية . خلاصكم يكمن في النضال بلا هوادة . فقط وحدة المعركة مع الشغيلة الاشتراكيين الديمقراطيين يمكن ان تحقق لكم الظفر ! هيا أيها الشغيلة الشيوعيون ، اسرعوا ، فلم يعد لكم غير القليل القليل من الوقت الذي يمكن إضاعته[١٦] » .

كان تروتسكي يشعر بالعشب ينمو عند قدميه في برنكيبو في ذلك الوقت بالغ الحرج ، وكان ذلك يغدو ممضاً بالنسبة اليه اكثر فأكثر . كانت الرسائل والصحف تصله من اوروبا متأخرة جداً ، وهو تأخر كان يصل احياناً إلى خمسة عشر يوماً ، كما أن كراساته وبياناته كانت تصل الى المانيا متأخرة اكثر . في عام ١٩٢٣ ، حين كانت المانيا تبدو على شفير الثورة ، طلب الى المكتب السياسي إعفاءه من مناصبه الرسمية والسماح له بالمضي الى المانيا ليقود هناك العمليات الثورية ، بناء على طلب الحزب الالماني . أما الآن فكان اكثر اهتماماً بكثير بأن يكون قرب مواقع الفعل ، في حين كان مستقبل الشيوعية والمصير السياسي للعالم بأسره يتقرران لعقود لاحقة . عام ١٩٣١ ، كان الامر يتعلق بحلقة صغيرة من المحاضرات يعطيها في المانيا ، لكن هذا المشروع لم يتحقق ، بالطبع . لم

---

(١٦) تروتسكي ، المانيا ، مفتاح . . . ص ٤٤ .

يكن لديه اي حظ بالخروج من تركيا ؛ أسوأ من ذلك ، لم يكن انصاره القليلون داخل الرايخ يحققون اي تقدم : كانوا يصدرون صحيفة بالغة الصغر بعنوان **الثورة الدائمة** تظهر مرة في الشهر ، مالئة اعمدتها بكتابات تروتسكي ، ولم يكن لها اية قوة تأثير ، مع ان الكراسات كانت مقروءة جداً ، وتثير الكثير من النقاش . كان عازماً على إقامة سكريتاريا أممية في برلين حيث كان الأخوان سوبوليفيسيوس يبذلان نشاطاً كبيراً ، والى حيث جرى نقل مركز الـ Bulletin oppozitsii ، التي كانت تصدر في باريس من قبل . ولقد تقرر ، بهدف تحسين اتصالاته بالسكريتاريا ، ان يمضي ليوفا الى برلين ويعمل هناك كممثل لوالده ، أو حسبما كان يشترط بروتوكول المنظمة ، كممثل للفرع الروسي للمعارضة اليسارية .

كان ليوفا قد قاسم اقاربه ، كما سبق ان رأينا ، تقلبات المنفى وكان ذراع والده اليمنى . ومع ذلك لم تكن العلاقات بين الأب والابن تخلو من الغيوم . كانا على اتفاق سياسي كامل ، وكانت عبادة ليوفا لأبيه تصل الى حد المماثلة دون شرط ؛ وكانت تلك المماثلة بالذات سبب التوتر . كان لدى تروتسكي الانطباع الممض بأن شخصيته ومصالحه الخاصة به فرضت نفسها بشكل ساحق على ليوفا ، وانها حدت ليوفا بالدور الكابت لـ « ابن الرجل العظيم » ، ومع ذلك كان يطلب الورع النبوي بحدة وشغف . وكلما زاد شعوره بالعزلة كلما زاد اعتماده على ذلك الورع . كان ليوفا هو الانسان الوحيد الذي يمكنه ان يناقش معه افكاره ومخططاته ، ويقاسمه افكاره الاكثر خفاء ، والناقد الذي يثق اكثر ما يثق به ، وكان يحب ان يرى فيه الصلة بينه (سيكون في السنوات اللاحقة صلته الوحيدة) وبين الجيل الثوري الروسي الجديد . الا انه كان يحصل ان يثير اخلاص ليوفا المطلق اضطرابه احياناً . كان يرغب في استقلال اكبر لدى ابنه ، ويتمنى تقريباً بعض علائم المعارضة البنوية . لكن ما ان كانت تلك المعارضة تتجلى حتى كان يضطرب ويخشى حدوث خلاف . كانت العزلة والعلاقات الثابتة تقوي تلك التبعية المتبادلة وتزيد كذلك من حدة التنازعات بين الوالد والولد . ورغم انه لم يكن في ذلك اي شيء غير طبيعي ، كان يضاف إليه شيء ما شبيه بالتوتر والسخط اللذين يسودان بين سجينين تقاسما الزنزانة ذاتها زمناً طويلاً . كان تروتسكي متطلباً مع مساعديه وسكريتيريه . لكنه لم يكن يطلب منهم أبداً قدر ما يطلبه من نفسه ومن ولده . كان يبدي مع الغرباء الكثير من التهذيب ومن التحكم بالذات ؛ لكن في حالة توتر عصبي شديد ، كان ذلك التحكم بالنفس يتعرض لاختفاءات كاملة ، لا سيما اذا كان وحيداً مع

الاقربين . حينئذ كانت توبيخات قاسية تنهال على رأس ليوفا ، تتعلق بـ « اختلال ترتيب » السكريتارية ، و « الكسل والتهاونات » ، وبأنه « يترك » والده « يسقط » ، وهي مآخذ ما كان يمكن إلا أن تجرح شاباً مرهف الوجدان ، ومثابراً ومخلصاً كليوفا(١٧) .

حين اتفق الأهل والابن على الانفصال ، امتزج نوع من الارتياح اذاً بحزنهم . كان هنالك بالاضافة الى ذلك ، على الارجح ، سبب آخر وراء ذلك القرار : لقد تركت امرأة ريمون مولينييه ، جان ، زوجها واختارت الحياة مع ليوفا . الا ان مولينييه ظل يأتي الى برنكيبو كالسابق ، ويبدي الاستعداد ذاته للخدمة ، ومن المرجح ان رحيل ليوفا وجان وفر عليهما اي لقاء محرج . كان ثمة شك كبير في البدء في ان يحصل ليوفا على تأشيرة دخول الى المانيا . كان طلب عبثاً في العام السابق تأشيرة فرنسية : ردت الشرطة الفرنسية بأنها تعرف نشاطاته الثورية ، ولا ترغب في رؤيته يقيم في باريس ، لكنه سجل نفسه كطالب في الـ Technische Hochschule وحصل اخيراً على التأشيرة الالمانية في شباط/فبراير ١٩٣١ ، ولم يكن مشروع الاقامة من اجل الدراسة هذا مجرد ذريعة ، لأنه تابع في الـ Hochschule بالكثير من الاجتهاد محاضرات في الفيزياء والرياضيات ، لكن بالطبع ظلت اهتماماته الرئيسية سياسية(١٨) . وقبل اسابيع من رحيل ليوفا ، في منتصف كانون الثاني/يناير ، حدث امر سوف يؤثر على حياة العائلة بكاملها . فلقد وصلت زينا وابنها سيفا ، ذو الخمس سنوات ، من موسكو .

كان بدأ انتظارها منذ عدة اشهر في بويوك آدا ، وفقدت العائلة كل امل تقريباً برؤيتها تصل ، لأن الحكومة السوفياتية رفضت مراراً منحها السماح لها بالقيام بتلك الرحلة . كان زوجها ، افلاطون فولكوف ، منفياً ، وهي ذاتها تعرضت للاحتجاز مرتين بسبب علاقاتها بالمعارضة ، وهي لم تحصل على تأشيرة الخروج إلا بعد تدخل اصدقاء مقيمين في اوروبا الغربية وجهوا نداءاتهم الى السفراء السوفيات ، باسم الشفقة (لأن صحتها كانت قد تردت بعد موت شقيقتها

---

(١٧) ان العلاقات بين الابن وابنه موصوفة ، هنا وفي الصفحات التالية ، على أساس مراسلة عائلية لا يقل حجمها عن ٤٠ ملفاً في الفرع المغلق لمحفوظات تروتسكي ، وتضم ١٢٤٤ نصاً .

(١٨) إن دفاتر الرياضيات الخاصة بليوفا ، الممتلئة بوضوح وبشكل جيد ، بالاضافة لملاحظات مؤرخة لأساتذته ، افادت فيما بعد كشاهدة تدعيم حججه اثناء الدعوى المضادة في عام ١٩٣٧ في المكسيك . وهذه الدفاتر محفوظة في الارشيفات . وقد شرح ليوفا في رسالة إلى د . سوبلن (ويل) الاسباب التنظيمية التي دفعته للانتقال الى برلين (استغرق الحصول على التأشيرة الالمانية سبعة اشهر او ثمانية) .

نينا ، التي اعتنت بها حتى وفاتها) ، لكن . . . كان ثمة **لكن** ، لم تستطع ان تصطحب غير واحد من طفليها ، واضطرت لترك الآخر رهينة لدى ستالين ، وكانت طفلة صغيرة في السادسة او السابعة من عمرها . لـقد تولت الكسندرا لفوفنا ، زوج تروتسكي الأولى التي كانت تربي طفلي نينا في الوقت ذاته الذي كانت فيه غير مقبولة اطلاقاً تولت كذلك حضانة هذه الطفلة وحثت زينا على الانضمام الى ابيها واستعادة صحتها في الخارج .

وصلت زينا الى برنكيبو في حالة انهيار عصبي كلي ، مع ان ذلك لم يظهر للوهلة الاولى في نشوة اللقاء . استقبلها والدها بأقصى المحبة والحنان . وقد كتبت فيما بعد إلى امها في لينغراد تقول : « خلال الفترة الاولى من إقامتي ، يستحيل ان اقول الى اي حد كان لطيفاً معي وحريصاً علي » . بين كل اولاده ، كانت هي ، الكبرى ، تشبهه اكثر من الجميع . كانت لها الملامح ذاتها الحادة والقاتمة ، العينان المضطرمتان ذاتهما ، الابتسامة ذاتها ، السخرية اللاذعة ذاتها ، الحدة الانفعالية العميقة ذاتها ، وكذلك شيء من روحه الجامحة وفصاحته . كان يبدو كما لو انها ورثت أهواءه السياسية ، وحرارته المناضلة ، وحاجته للنشاط . كان ذهنها، حسب تعابير امها بالذات ، اكثر ميلاً إلى الامور العامة مما الى امور العائلة[١٩] .

كان في العواطف التي يكنها لها تروتسكي ظل من وخز الضمير . فمنذ اليوم الذي شعر فيه عام ١٩١٧ ، في حين كان يتوجه الى جماهير **السيرك الحديث** في بتروغراد ، بعيني ابنته المراهقتين الممتلئتين بالمحبة وهما ترمقانه من بين الجمهور ، ادرك مدى الانفعال الشديد الذي كان يثيره في زينا ؛ ومع ذلك كانت بالنسبة اليه شبه غريبة . كانت قد مرت تقريباً ثلاثون سنة على مغادرته زوجه الاولى وطفلتيه في مسكنهم في سيبيريا الشرقية ، في فرخولنسك ، (منفاه الاول) ، ثلاثون عاماً تقريباً على وضعه في سريره دمية تشبه رجلاً بهدف خداع الشرطة وتأخير مطارداتها[٢٠] . وكان الامر كما لو أن تلك الدمية خدعت كذلك ثمرة زواجه الأول . خلال ١٥ عاماً ، اي حتى عام ١٩١٧ ، لم يكن قد رأى

---

(١٩) هذا الاستشهاد من رسالة من سوكو لوفسكايا الى تروتسكي ، كتبت بعد وفاة زينا . انظر ملخصاً لهذه الرسالة ، ص ١٩٧ ـ ١٩٩ ، المحفوظات ، القسم المقفل .

(٢٠) انظر النبي المسلح ، الفصل الثاني .

ابنتيه إلا مرتين او ثلاثا ، وبصورة عابرة . وفيما بعد لم يستطع ان يمنحهما الا القليل من الوقت والانتباه خلال سنوات الثورة والحرب الاهلية والصراعات القاسية التي تلتهما . كان قلبه يهفو نحوهما خلال منفاه في ألما ـ آتا ، لكن كان قد فات آنذاك الاوان . فنينا توفيت بعد قليل ، وكانت زينا مريضة جداً بحيث لم تستطع السفر من موسكو ، لا بل كانت شدة المرض بحيث لم تستطع فيما بعد أن تحضر اجتماع وداع العائلة المؤثر على متن القطار ، حين نفي خارج روسيا . وقد وصلت الى برنكيبو محطمة القلب ، ومع ذلك مجنونة من الفرح والحب والاعتزاز بوالدها ؛ كانت آتية لا فقط كولد مريض ومتألم ، بل كذلك كتابع مخلص ، عارضة خدماتها وآملة أن يستفيد من تلك الخدمات ، وراغبة في أن يقبلها في اسراره . بكيا معاً موت نينا ، تحدثا عن اصدقاء ورفاق واقارب منفيين ، وناقشا مسائل سياسية . كانت تصغي مأخوذة ، وقد قرأت بشغف مخطوطات تاريخ الثورة الروسية وكتاباته الاخرى ؛ وتآلفت مع المساجلات التي كان يشارك بها آنذاك ، وتشبعت بكل خطورتها الدرامية ، واستمتعت بسخريته وظرفه . وقد انقلبت على ظهرها من الضحك حين عثرت على بحث تشرشل الذي يتعلق بـ « غول اوروبا » ؛ وكانت تحب ان تخاطب أباها باسم « الغول »[٢١] .

كما أن أفراد العائلة الآخرين أعطوها ايضاً الكثير من المحبة والعطف ، وبذلوا كل ما في وسعهم لتشعر بأنها في بيتها . كان وضع ناتاليا ايفانوفنا ، بالتأكيد ، دقيقاً ، لكنها كانت اقرب الى ولدي تروتسكي من زواجه الاول مما كان هو بالذات ؛ وهي لم تحاول فقط ان تلغي عن طريق الصداقة كل تباعد ، بل تصرفت معهما كأم ثانية . لم تترك نفسها تنخدع بالتحسن الظاهر لوضع زينا ، واصطحبتها الى اطباء ، مبدية حرصاً موسوساً على صحتها . كانت حساسة جداً بحيث لم تتخيل أن توتراً مخفيًا يمكن ان يزول كلياً وحاولت أن تمّحي في كل مرة كان يتولد لديها انطباع بأن الامور تتحسن اذا بقي الاب وابنته منفردين الواحد بالآخر . ومن الغريب أن علاقات ليوفا بأخته كانت اكثر توتراً بكثير ، فطبعاهما كانا لا يتفقان . فليوفا الذي كان يشبه امه اكثر مما يشبه والده ، كان متحفظاً ، ومتواضعاً وذا طبع معتدل ، لذا بلبلته بسهولة طبيعة اخته المنفتحةوالعاطفية

---

(٢١) هذه التفاصيل مأخوذة من مراسلات زينا . المحفوظات ، القسم المقفل . وقد اكتشفت في المحفوظات صورة لها كانت اهدتها لأبيها ، كاتبة عليها : « الى الغول » .

والحارة . وهي ، من جهتها ، لم يكن يمكن الا ان تحس ببعض الغيرة بسبب موقع ليوفا ، بسبب العلاقات الوثيقة التي كانت تشده الى والده . ولقد بقيت التوترات مقنَّعة ، بسبب الجو الحار للقاء ولكون ليوفا كان يستعد للانتقال الى برلين . كل العائلة كانت مأخوذة بطفل زينا ، الذي كانت ثثثغته وحيله تضفي طابعاً غير معتاد على حياة البيت الصارمة والجادة . يبدو أنها كانت المرة الاولى التي يمكن فيها تروتسكي ، الذي كان لديه الآن خمسة احفاد ، ان يشعر بحرية كاملة بأفراح الجد .

بعد وصول زينا بقليل ، شب حريق في المنزل في عز الليل ، ملتهماً معظم محتوياته العائدة الى العائلة ، بما فيها مكتبة تروتسكي . وبصعوبة انتزع من اللهيب المحفوظات ، ومخطوطة الجزء الاول من **تاريخ الثورة الروسية** ، الذي كان قد انهاه لتوه . كان الشك بوجود جريمة وراء الحريق في اذهان الجميع . الم تكن ثمة محاولة من جانب الغيبيو لإتلاف كل المحفوظات ؟ . جرى فتح تحقيق ، واستجواب الشهود ، لكن دون جدوى . وقد كتب احد سكرتيري تروتسكي : « كنا نشعر جميعاً بالغم الشديد والتضايق ، جميعنا باستثناء تروتسكي بالذات . انتقل الجميع الى فندق قريب ، ولم نكن قد استقررنا بعد حين نشر تروتسكي كل مخطوطاته على الطاولة ، ونادى كاتبة الاختزال ، وبدأ يملي فصلاً من كتابه كما لو لم يحصل شيء ليلاً[٢٢] » . وبعد عدة ايام ، انتقلوا الى كوديكوف ، وهي ضاحية يقيم فيها انكليز واميركيون ، في الأطراف الشرقية من القسطنطينية ، في بيت خشبي محاط بسياجات عالية من الشريط الشائك ، حيث اقامت العائلة وسكرتيروها وشرطيوها وصيادوها طوال عام ، الى ان تم ترميم البيت في بويوك آدا وامكن سكنه من جديد .

بعد عدة اشهر من مغادرة كوديكوف ، شب حريق آخر . ومرة اخرى ، جرى الاسراع في انقاذ الارشيفات واضطرت العائلة للجوء الى اهراء واكواخ قريبة ، ومرة اخرى فكر الجميع بحريق وراءه نية سيئة . لكن تم اكتشاف ان سبب النار هو ولد زينا الذي لعب بعيد ان ثقاب وخرق ونشارة خشب في الأنبار . وبعد كل الرعب كان ذلك مثاراً للارتياح ، وضحك الجميع وراحوا ينكدون « عميل الغيبيو الصغير » .

---

(٢٢) يان فرانكل ، في « **Militant** » ، ٢ ينائر ١٩٣٢ . انظر كذلك « صحيفة الشرق » ، ٨ نيسان / ابريل ١٩٣١ .

الا انه مع مضي الأسابيع ، عاد مرض زينا . كانت تتألم من رئتيها، وقد اجريت لها عدة عمليات ، وما كان بامكانها تحمل حرارة البحر المتوسط الشرقي ، والقلق بخصوص زوجها وولدها الذي تركته وراءها كان يعذبها بلا انقطاع . والضغوطات الناجمة عن مرضها وهمها اجتمعت لتفسد توازنها العقلي .

فالتوترات والتنازعات المكتومة ، المتأصلة على الأرجح في بؤس طفولتها والتي غذتها تجارب لاحقة ، كانت تطلع الى السطح . غدا سلوكها متفجراً وغير متماسك . مضت تطلق العنان لذكريات ورغبات ومآخذ كانت قد بقيت حتى ذلك الحين مدفونة على حافة وعيها . كانت واقعة ضمن هاجس انها فتاة غير مرغوب فيها ، فتاة لم يردها والدها الذي كانت تعبده بكل ما لديها من شغف وحماس كالنابغة المخصب للثورة . وقد كتبت ان ايمانها به هو الذي كان يبقيها على قيد الحياة ويعطيها القوة لتحمل مصيرها الحزين ، من دونه كانت الحياة فارغة ، ومع ذلك كانت تشعر كما بحاجز لا يمكن تجاوزه يقف بينها وبينه ، وقد أطلقت في وجهه هذه الكلمات: « أعرف ، أعرف ان الاولاد غير مرغوب فيهم ، وانهم لا يأتون إلا كعقاب على الخطايا المقترفة[٢٣] . . . » كان الامر كما لو أن الصدمة ، التي ربما عانت منها في طفولتها ، يوم لم تجد بدلاً من والدها غير مجرد دمية في سريره ، تنعكس الآن في هذا التأنيب . وفي تلك العاصفة العاطفية ، كافحت لتكبت نفورها الداخلي من زواج والدها الثاني . كان موقفها إزاء ناتاليا ايفانوفنا ، إذا تم النظر اليه من الخارج ، مفعماً بالمودة والاندفاع ، ومع ذلك كان يسع المرء ان يميز شيئاً من التعبير المبالغ به في ذلك الاندفاع ، ولم يكن من النادر رؤ ية زينا تدور حول خالتها على رؤ وس الاصابع ، مبدية قلقها بشكل ملح وحتى الازعاج البالغ ، ومبالغة بالمداعبات والاعذار . الا ان النفور كان ظاهراً بما يكفي ليدركه الوالد والخالة ، وهو كان ينبجس من حين لآخر ويصدمهما مواجهةً . لذا بقيت العلاقات متوترة ، رغم جهودهما المتواصلة لمحاولة تجاهله أو تلطيفه . وكان تروتسكي يحاول تحاشي تفاقم تلك العلاقات عن طريق الانطواء على نفسه ، لكن بقدر ما كان يفعل ذلك اكثر ، كانت تنكبت لدى زينا رغبتها الحادة بثقة ابيها وبالعلاقة الحميمة معه . كانت قد أملت أن تتمكن من العمل في خدمته ، على الاقل بصفة مساعدة ؛ لكنه ، هو ، لم يشجع هذا الطموح ، لأنه

---

(٢٣) رسالة من زينا في ٢٦ شباط / فبراير ١٩٣٢ .

كان شديد القلق على صحتها ، ولم يكن ينسى أنه يمكنها أن تعود إلى طفلتها في روسيا . كان يتمنى ان تستفيد من اقامتها في الخارج لشفاء نفسها ، وفي غضون ذلك لتحاشي التورط سياسياً ، كما لو ان واقع كونها ابنته لم يورطها بصورة نهائية ولا علاج لها . كان يشعر بأن تفاقم مرضها يتطلب من جانبه تحفظاً أكبر ايضا ، ويجعل اي عمل مشترك شبه مستحيل . لم يكن في وسعه أن يكشف لها اسرار شؤون المعارضة في روسيا . وهذه الشؤون هي بالضبط ما كان يثير أشد اهتمامها . وفي تلك الحقبة ، كانت مراسلة تروتسكي مع اتباعه الروس لا تزال وفيرة ، وكان جزء من تلك المراسلة يتم علانية ، بينما يحاط جزء آخر بالسرية ، وتكتب التواقيع والعناوين بالشيفرة . كان من الضروري اعتماد أقصى الحذر بصدد تلك الشيفرة ، ومضاعفة السرية حيال شخص مريض وفاقد للاتزان ، يمكن اخضاعه لدى عودته الى روسيا لاستجوابات ذات طابع جنائي . كانت القواعد الأولية للاتصال السري تجعل تلك الاحتياطات ضرورية ، لكن المسكينة اعتبرتها كما لو كانت اهانة ، كعلامة تحدٍّ أبوي . كانت تردد في الغالب : « بالنسبة لوالدي ، أنا لا انفع في شيء » . كان النفور والتأنيب وتوبيخ الضمير المتزايد ، والجو الاكثر فأكثر قتامة والاضطرابات الذهنية المتزايدة حدة ، تفاقم أوضاع كل فرد من افراد العائلة . وحين اتى الصيف ، خضعت زينا لعدد من العمليات الرئوية في مصح قريب ، وعادت احسن صحة ، لكن دون أن يخف شقاؤها .

كان تروتسكي ، المكروب شديد الكرب والذي تهز مشاعره الشفقة ، واقعاً تحت وطأة الشعور بالذنب وبالعجز في آن . كان أسهل بما لا يقاس أن يميز المرء طريقة مكافحة أمراض المجتمع الكبرى ، من أن يخلص فتاة لا علاج لها من آلامها، اسهل بما لا يقاس تشخيص اضطرابات الوعي الجماعي لدى البورجوازية الصغيرة الالمانية من النفاذ الى الزوايا المعذبة في شخصية زينا . وكم كان فهمه الماركسي لعلم النفس الاجتماعي أرقى من فهمه لاضطرابات النفس الفردية ! كان يتأمل ملامح زينا وعينيها اللتين اضفى الجنون عليهما دكنة وقتامة . كانت تانك العينان عينيه ، وتلك الملامح ملامحه ، وبالنسبة اليه ، هو ، معجزة الوضوح الفكري والتحكم بالذات ، كانت رؤيتها غير متماسكة الى ذلك الحد ومجنونة لتلك الدرجة امراً لا يطاق . كما لو أن العقل بالذات وجد في الجنون سليله الاكثر مباشرة ومزدوجه . كان يتصادم في ذاته الحنان والاستهوال ،

الشفقة والنفور ، الكبرياء والاذلال . كان جريحاً ، يشعر بالعجز ، وغدا سريع الاثارة. فأحياناً ، حين كانت غيرة زينا تنفجر بهدف النيل من ناتاليا ايفانوفنا ، كان يرفع صوته طالباً منها التصرف بذوق ولياقة . وحين كان يرفع صوته كانت تسقط في حالة انهيار كامل . وقد كتبت اليه بعد عام ، متذكرة تلك المشاهد : « لا تصرخ بوجهي يا أبي ، لا تصرخ . . . فصيحاتك هي الشيء الوحيد الذي لا أطيقه ، وفي هذا أشبه والدتي » . وأضافت : « لا شيء اتمناه اكثر ، لو كان لدي ما يكفي من القوة ، من تلطيف ما صدر عني من ذنب لست مسؤولة عنه تجاه ناتاليا ايفانوفنا[٢٤] » .

لما كان كلٌّ في قمة التوتر العصبي ، وكان مرض زينا يصل الى حدود مفزعة (بدأت تعاني من نوبات جنون) ، بدا مستحيلاً ان تواصل الاقامة معهم . كان تروتسكي بدأ يفكر منذ مدة بأن عليها ان تخضع لعلاج نفسي ، وبعث برسالة بهذا الصدد إلى بفمفرت في برلين . أما هي فقاومت . قالت انه ليست لديها اية رغبة في الغوص في قذارة ما تحت شعورها ، ولا يمكنها تحمل فكرة الاضطرار الى الانفصال عن ابيها ، بعد أن انتصرت على ذلك العدد الكبير من الحواجز ، وتحملت تضحيات ليست اقل عدداً للالتحاق به . كان عليها كذلك أن تنفصل عن ولدها ، لأنه كان يصعب عليها كثيراً ان تتحمل مشقة تربيته . ومع ذلك خضعت للاقناع ورحلت في خريف ١٩٣١ الى برلين ، تاركة سيفا خلفها . كان الانفصال عذاباً حقيقياً ، وقد نقلت الصورة التالية عنه الى ليوفا : قال لها والدها في حديثهما الاخير « انتِ شخص خارق ، وأنا لم ألتق شخصاً مثلك » وكان يقول ذلك ـ حسبما أضافت ـ بصوت معبر وصارم .

كان ذلك صوت العقل ، الذي يتصدى له ويُضِلُّه الجنون .

حين وصلت زينا الى العاصمة الالمانية ، كانت الحياة فيها تصعيداً من الخواء والفوضى . وصلت بعد اسابيع من اجراء استفتاء ، جرى تنظيمه بمبادرة من هتلر وغوبلز ، وكان هدفه اطاحة الـ Landes regierung الاشتراكي ـ الديمقراطي في بروسيا. كان النازيون شنوا حملة شوفينية وحشية داعين الى ثورة الشعب على الحزب الذي وافق على العبودية والاذلال اللذين ترتبا على معاهدة فرساي . ورد

---

(٢٤) العبارة الروسية هي : Bez viny vinovata . والرسالة غير مؤرخة .

الحزب الشيوعي بأن وجه الى الوزراء الاشتراكيين ـ الديمقراطيين في بروسيا ، برون وسيغيرينغ ، إنذاراً يعرض فيه الدفاع عن حكومتهم إذا قبلوا الاستجابة لبعض المطالب ، لكنه هدد بالتصويت ضدهم إذا رفضوا الاستجابة لها . كان ثمة ، للوهلة الاولى ، ابتعاد ملحوظ عن تكتيكات الحقبة الثالثة، ،على الاقل من حيث توجه الشيوعيين مباشرة . . بالكلام الى القادة الاشتراكيين ـ الديمقراطيين . لكنهم كانوا يركزون نارهم في الواقع على الاشتراكيين ـ الفاشيين، وحين ردت الحكومة البروسية برفض مطالبهم ، دعوا الشغيلة الى التصويت ضدها . هكذا بدل ان يعمدوا إلى ارساء جبهة موحدة مشروطة او غير مشروطة مع الاشتراكيين الديمقراطيين ، اقاموا جبهة متحدة ضمنية ، لكن للاسف حقيقية وغير مشروطة ، مع النازيين . ولانقاذ ماء الوجه سموا تلك المبادرة : Der Rote Volksentscheid ، الاستفتاء الأحمر .

مذاك ظهر التباس مشؤوم ومحبط في سياسة الشيوعيين . هذا الالتباس سوف يستمر حتى استيلاء هتلر على السلطة وحتى بعد أخذه السلطة . لم يعد من النادر أن ترى الشعارات ذاتها على رايات الشيوعيين والرايات النازية . فالنازيون الذين كانوا يحاولون الحصول على دعم العناصر الراديكالية والمستاءة من وجهة النظر الاجتماعية ، كانوا يسمحون ان تصفي « ثورة الشعب » الخاصة بهم حساباتها مع رأس المال المالي . والحزب الشيوعي الذي كان يحترس من الدعوة لثورة اشتراكية بروليتارية كان يتكلم على ثورة للشعب تؤدي الى تحرر المانيا القومي والاجتماعي وتقطع سلاسل فرساي . كانت الروح القومية تتسلل اعمق فأعمق الى دعاوتهم ، في حقبة لم يكن هناك ما هو الح فيها داخل المانيا من تعطيل المد الصاعد للتعصب الشوفيني والعرقي . ولقد انتهى الاستفتاء لصالح الاشتراكيين ـ الديمقراطيين ، لكن كانت نتيجته توسيع الهوة اكثر داخل الطبقة العاملة ، وزيادة حدة الاختلاط والفوضى بعض الشيء .

هاجم تروتسكي « الشيوعية القومية » الخاصة بتالمان والكومنترن بكل ما اوتي من قـوة ، فاضحاً سخافات الاستفتاء الاحمر . اعلن ان « المغامرة بكاملها كانت مثيرة للاشمئزاز ، لا سيما ان الشيوعيين والنازيين ظلوا ، وما كان يمكنهم الا ان يظلوا ، اعداء الداء » . اما الستالينيون فبرروا انفسهم بالقول ان الاشتراكيين ـ الديمقراطيين يشقون الطريق للنازية . وقد كتب تروتسكي : « إن هذا صحيح تماماً ، لكن اذا كان الاشتراكيون ـ الديمقراطيون يشقون الطريق

لانتصار النازية ، هل على الشيوعيين ، من جانبهم ، أن يقصروا ذلك الطريق ؟ احياناً يحدث ان تهاجم احزاب الثورةوالثورة المضادة العدو « المعتدل » نفسه من مواقعها المتعاكسة ، لكن لا يمكن حزباً ماركسياً أن يسمح لنفسه بهذا إلا اذا كان المد الصاعد يدفعه، وليس إذا كان المد الصاعد يدفع بالثورة المضادة ، كما الحال في المانيا . « إن النزول الى الشارع والهتاف بشعار : فلتسقط حكومة برونغ وبرون ! هو مغامرة غير معقولة ، بينما علاقة القوى هي بحيث لن يمكن ان تحل محل حكومة برونغ وبرون إلا حكومة هتلر وهوغنبرغ . والشعار ذاته يتخذ معنى مختلفاً تماماً لو كان يسمح بتوقع النضال المباشر لاستيلاء الطبقة العاملة على السلطة » . لا شك انه لم يكن يشك في تلك الفترة بالذات بالنوايا الطيبة للحزب الشيوعي ، لكن

« للاسف ، فإن البيروقراطية الستالينية تحاول . . العمل ضد الفاشية ، مستخدمة اسلحة هذه الاخيرة ؛ انها تستعير ألوان مَلْوَن النازية السياسي وتحاول تجاوز النازيين بالمزايدة القومية . ليست هذه طرائق صراع طبقي يخاض وفقاً لمبادىء محددة بوضوح ، بل هي حيل تجار صغار يتنافسون . . . خيانة للماركسية . . . عرض لحماقات بيروقراطية مكثفة . اولئك الذين يتكلمون على ثورة الشعب وتحرير المانيا من سلاسل فرساي ينسون مبدأكارل ليبكنخت الاساسي الذي يقول انه بالنسبة للطبقة العاملة « عدونا بيننا » . ان الاختراق القومي للفكر الشيوعي بدأ مع الاشتراكية في بلد واحد الخاصة بستالين ، وهو ينجب الان اشتراكية تالمان القومية . ليس للافكار فقط منطقها الخاص بها ، بل كذلك قواها المتفجرة وقلة تردد الكومنترن في محاولة المزايدة على ديماغوجية هتلر القومية ، تظهر جيداً فراغ الستالينية الروحي[٢٥] » .

بالنسبة لتروتسكي ، لم تكن مكاسب حركة الشغيلة الالمان المحققة بعد تضحيات جلى هي وحدها المهددة ، بل كذلك مستقبل الحضارة . فمع النازية ، كان ظل قرون الظلام يمتد مجدداً على اوروبا . فاذا انتصر هتلر ، فهو لن يكتفي بحماية الرأسمالية ، بل سيحولها الى الهمجية . إن الـ Kleinbürger الهائج ، « لم

(٢٥) « Protiv Natsjonal- Kommunizma » العدد ٢٤ .B.O و(URoki Krasnovo Referenduma) وقد جرى نشر المقال بشكل كراس داخل المانيا .

يكن ينبذ الماركسية فقط ، بل كذلك الداروينية » ، وكان يطرح بمواجهة عقلانية القرون الثامن عشر والتاسع عشر والعشرين وماديتها صوفية العرق والدم . وهذا التفوق العرقي المزعوم كان سينفخ اكثر فأكثر كبرياءالطبقات المتوسطة الدنيا في المانيا ويقدم لها وسيلة خيالية للهرب من بؤس حياتها . « إن النازية ، بعدائها الشرس للماركسية ورفضها للفهم الاقتصادي للتاريخ ، تنحط أدنى فأدنى ، من المادية الاقتصادية إلى المادية الحيوانية . . . لقد جمعت النازية « كل رفضها للفكر السياسي الاممي . . . . لتصنع منه الكنز الفكري للمسيحية الجرمانية الجديدة » ، إنها تخض كل قوى الهمجية اللابدة تحت السطح الرقيق لمجتمع الطبقات « المتحضر » وتضمها اليها ، تستغل الاحتياطي الذي لا ينفد للتوحش والجهل والظلامية .

ويصف تروتسكي جوهر النازية في جملة لا يمكن نسيانها يرتعش فيها الحدس بالاعدامات بالحرق وبغرف الغاز في الرايخ الثالث : « كل ما كان المجتمع نبذه كحثالة الثقافة وبرازها ، لو هو تطور بصورة طبيعية (اي لو اتجه نحو الاشتراكية) ، ها هو يدفقه من حلقومه . تتقيأ الحضارة الرأسمالية الهمجية غير المطحونة . هذه هي فيزيولوجيّة النازية[٢٦] » .

لا ينبغي ان يفاجىء المؤرخ ان الرأي الشيوعي ، وغير الشيوعي ايضاً ، في الثلاثينات ، كان حساساً حيال هكذا وجهة نظر تاريخية ـ فلسفية للنازية . الا ان ما سيجده أصعب على الفهم ، إنما هو ان يكون أمكن قادة الاتحاد السوفياتي والجمهور الواسع لشيوعيي العالم اجمع ان يديروا أذنهم الصماء لما كان يقوله تروتسكي بالنسبة للتهديد الذي ينزل بثقله على الاتحاد السوفياتي . فقد كتب في تشرين الثاني/نوفمبر **١٩٣١** ، قبل معركة موسكو بعشر سنوات : « ان انتصار الفاشية في المانيا يعني ان الحرب ضد الاتحاد السوفياتي ستكون محتومة[٢٧] » .

في تلك الحقبة ، كانت موسكو لا تزال ترى في فرنسا العدو الغربي الرئيسي للاتحاد السوفياتي ، وتخشى هجوماً وشيكاً من جانب اليابان التي كانت قد شنت لتوها حملة لاحتلال منشوريا . ولم يكن تقدم النازية قد أثار الا القليل

---

(٢٦) الكتابات ، ج ٣ ، ص ٣٩١ ـ ٣٩٩ . ما هي الاشتراكية ـ القومية ؟

(٢٧) المرجع المذكور ، ص ١٠٠ ـ ١٠١ .

من الخوف لدى ستالين ومستشاريه ، رغم ان هتلر كان يصيح بأعلى صوته انه ينوي تدمير البلشفية وغزو بلدان الشرق . كان ستالين يعتقد أن الامر يتعلق بهذيان هتلر العاصي ، لكن هتلر المستشار قد لا يتخلى بسهولة عن المنافع التي تحصل عليها المانيا من علاقاتها بروسيا بفضل معاهدة راپالو . وكان ستالين يعتقد ايضاً ان جهود هتلر لاعادة تسليح المانيا قد تثير نزاعاً بينه وبين فرنسا ، وان ذلك قد يضطره الى تخفيف عدائه للاتحاد السوفياتي . لم تكن الكومنترن تشجع الشيوعيين الالمان من اجل لا شيء على تقديم دعمهم لحملة هتلر ضد معاهدة فرساي ، على اساس ان هذه الحملة ستحرف هتلر عن طموحه لخوض حرب صليبية غربية ضد البلشفية .

ناضل تروتسكي ضد هذا الجهل لما يترتب عالمياً على إنتصار النازية . لم يكن يعتقد أن فرنسا كانت دائماً عدو روسيا الرئيسي ، كما كانت الحال خلال سنوات التدخل : « ليس هناك في الوقت الحاضر حكومة برلمانية بورجوازية عادية واحدة يمكن ان تخاطر بحرب ضد الاتحاد السوفياتي ، ذلك ان مغامرة كهذه قد تجرها الى تعقيدات داخلية غير محسوبة النتائج ، لكن إذا استولى هتلر على السلطة . . وفتت مذاك الطبقة العاملة الالمانية وأفقدها معنوياتها لسنوات عديدة ، ستكون حكومته عندئذ الوحيدة القادرة على شن الحرب على الاتحاد السوفياتي »[٢٨] . لم يكن يعتقد كذلك ان الاتحاد واقع جدياً تحت تهديد اليابان ، وكان يتوقع أن يورط غزو منشوريا اليابان في حرب طويلة ومنهكة مع الصين ، وهو ما قد يؤدي الى حرف القوة اليابانية عن الاتحاد السوفياتي ويسرّع الثورة في الصين . « إن الظروف الاساسية للشرق ، المسافات الشاسعة ، والحجم الجبار لعدد السكان والتخلف الاقتصادي ، تجعل سيرورة الغزو الياباني طويلة وطويلة جداً ومكلفة جداً . في كل حال ، ما من تهديد خطير ومباشر للاتحاد السوفياتي في الشرق الاقصى ، فالاحداث الحاسمة للحقبة الآتية ستتم في اوروبا ، وبالتحديد في المانيا حيث تكتسب التناقضات الاقتصادية والسياسية حدة لا سابق لها . . والحل قريب جداً » . وقد كتب ايضاً : « خلال سنوات قادمة عديدة ، سوف يحسم في المانيا ، لا مصير المانيا وحدها ، بل مصير اوروبا ، ومصير العالم اجمع » . « إن البناء الاشتراكي في الاتحاد السوفياتي ، ومسيرة

---

(٢٨) استشهاد مذكور

الثورة الاسبانية ، ونمو وضع سابق للثورة في انكلترا ، ومستقبل الامبريالية الفرنسية ، ومصير الحركة الثورية في الصين والهند ، كل هذه المسائل تتوقف على هذا السؤال البسيط : من سينتصر في المانيا خلال الاشهر القادمة ، الشيوعية أم الفاشية ؟ »[٢٩] .

كان تروتسكي يعتقد ان هتلر قادر على ضمان دعم الرأسمالية العالمية من اجل حرب صليبية معادية للسوفيات ، وان ذلك قد يؤدي الى عزلة رهيبة للاتحاد السوفياتي والى ضرورة صراع حتى الموت ضمن اقسى الشروط واخطرها . « إذا نجحت الفاشية في سحق الطبقة العاملة الالمانية ، سيعادل ذلك نصف انهيار لجمهورية السوفياتات . ولن تنجو المانيا والاتحاد السوفياتي والعالم من الكارثة إلا إذا نجح الشغيلة في الحيلولة دون وصول هتلر الى السلطة » . كانت سياسة ستالين في المانيا موجهة بالتالي ضد المصالح الحيوية للاتحاد السوفياتي ، كما ضد الشيوعية الالمانية . وكان أمن الاتحاد السوفياتي ومصلحة البروليتاريا العالمية وثيقي الارتباط انطلاقاً من ذلك بالذات . خلال سنوات طويلة ، كان ستالين والكومنترن قد اطلقا الصرخات معلنين ان حرباً صليبية معادية للسوفيات اصبحت وشيكة ، لكنهما سكتا الآن وقد اصبح الخطر حقيقياً . « ومع ذلك ينبغي ان نطرح هذه البديهية ، وهي ان كل محاولة نازية لأخذ السلطة يجب ان تتبعها تعبئة الجيش الاحمر ، لأنه سيكون ذلك مسألة دفاع ثوري عن الذات بالنسبة للدولة العمالية . . . فالمانيا ليست فقط المانيا ، إنها قلب اوروبا ، وهتلر ليس فقط هتلر ، إنه مرشح لدور سوبر ـ فرانغل ، لكن الجيش الاحمر ليس فقط الجيش الاحمر ، انه اداة الثورة البروليتارية العالمية »[٣٠] .

بعد ذلك بعدة اشهر ، اي في نيسان / ابريل ١٩٣٢ ، اعاد تروتسكي عرض هذه الافكار بصورة أكثر صعقاً . لقد كتب : « كان الدبلوماسيون والسياسيون الغارقون في الروتين عمياناً بصدد ما سيحصل بقدر ما كانوا عمياناً عشية الحرب العالمية الاولى . إن علاقاتي بحكومة موسكو الحالية ليست الآن في حالة تسمح لي بان اتكلم باسمها ، او بان استند الى نواياها . . . لكنني سأكون بالغ الصراحة حول الطريقة التي ارى ان على الحكومة السوفياتية ان

(٢٩) استشهاد مذكور ، ص ٩٥ .

(٣٠) المرجع ذاته ، ص ١٠١ .

تتصرف وفقاً لها في حالة انتفاضة فاشية في المانيا . ففي مكانها ، كنت أوقع امرأ بالتعبئة يستدعي مفارز من مختلف الاعمار ، في الوقت ذاته الذي اتلقى فيه اخباراً برقية عن هذا الحدث . فبوجه عدو لدود ، وحين يبدو أن منطق الوضع ينبىء بحرب محتومة ، سيكون دليلاً على انعدام للمسؤولية لا يغتفر أن تعطي العدو الوقت لترسيخ أقدامه وتوطيد مواقع وعقد تحالفات . . . ووضع خطته للهجوم » . واضاف بعد قليل : « ستكون الحرب بين المانيا الهتلرية والاتحاد السوفياتي محتومة وذلك ضمن مهلة ولا أقصر» ، لذا فإنه ليس لمعرفة من سيهجم قبل الآخر إلا أهمية ثانوية في الواقع . وإذ كان تروتسكي يفكر باولئك الذين كانوا يأملون ، في فرنسا وفي انكلترا ، ان يصونوا الوضع القائم Statu Quo في الغرب ونظام فرساي عن طريق صرف الامبريالية الالمانية الى الشرق ، كتب يقول انه « ايا تكن الاوهام التي يغذونها في باريس بهذا الصدد ، يمكن التنبوء بكل يقين بأن نظام فرساي سيكون اول ماستلتهمه نيران حرب بين البلشفية والفاشية »(٣١) .

للحال نددت صحافة الكومنترن بتروتسكي « المحرض الغدار على الحرب » الذي يحاول زرع الخصام بين روسيا والمانيا ، وكان كبيراً عدد الذين وجدوا ، من خارج الكومنترن ، ان تلك التصريحات مجنونة في تجاسرها . لكن موقفه لن يظهر بتلك الجسارة ، إذا تذكرنا انه حتى في بداية الثلاثينات ، كان الاتحاد السوفياتي ، مع المانيا وبريطانيا ، والولايات المتحدة منزوعة السلاح ، أقوى قوة عسكرية في العالم . وفي الواقع ان تروتسكي لم يكن يدفع الحكومة السوفياتية الى الحرب ضد المانيا ، حتى لو كانت المانيا نازية . ففي عام ١٩٣٣ ، بعد ان اصبح هتلر مستشاراً ، اعلن تروتسكي أن تعبئة الجيش الاحمر لن تفيد في شيء ، إذا جرى أخذ الظروف بالاعتبار . فهو كان أوصى بتلك التعبئة لأنه كان يعتقد أنه سيكون على هتلر ان يقاتل للوصول الى السلطة ولأنه رفض الاعتقاد بأن الحركة العمالية الالمانية ستترك هتلر يرسي سلطته من دون طلقة رصاص . ضمن ذلك السياق ، سياق حرب اهلية محتملة في المانيا ، كان ان شدد على ان من واجب الجيش الاحمر أن يتدخل(٣٢) . ولقد كان الجميع يعترفون بأن هكذا مشروعاً

---

(٣١) المرجع ذاته ، ص ١٠٤ - ١٠٥ .

(٣٢) ظهر المقال اولاً في الـ Forum الاميركية في ١٥ / ٤ / ١٩٣٢ ؛ الكتابات ، ج ٣ ، ص ٢٣٣ - ٢٤٠ . أنظر ايضاً « هتلر والجيش الأحمر » ، B.O ، عدد ٣٤ جيار / مايو ١٩٣٣ .

ينطوي على الخطر ، لكن على خطر أقل في كل حال من الانتظار دون حراك حتى إرساء سيطرة هتلر وإعادة تسليح المانيا . ان موقف تروتسكي ، الثوري من وجهة النظر السياسية ، كان يشبه من وجهة النظر العسكرية الموقف الذي سيتبناه ونستون تشرشل بعد اربع سنوات او خمس ، حين حث الحكومتين الانكليزية والفرنسية على الرد على دخول قوات هتلر إلى رينانيا عن طريق تدابير تعبئة واعداد للحرب . وقد عاد هذا الموقف على تشرشل بالسلطة الادبية التي لا جدال فيها ، الضرورية لذلك الذي سيغدو زعيم انكلترا خلال الحرب العالمية الثانية . لكن كل ما عاد به الموقف ذاته على تروتسكي إنما هو طليه بالوحل .

في غضون ذلك ، كان الجُرف النازي يتحرك . ففي ربيع ١٩٣٢ ، كان على المانيا ان تنتخب رئيساً ، وقد قدم هتلر ترشيحه . وفي تلك الفترة ، كان مرشح اشتراكي ـ شيوعي لا يزال في وضع يسمح له ، بالتأكيد ، بالحصول على قدر من الأصوات اكبر مما يمكن ان يحصل عليه هتلر ، أو أي منافس آخر . فخلال الانتخابات البرلمانية التي جرت في ذلك العام ، حصل الشيوعيون والاشتراكيون ـ الديمقراطيون على اكثر من ١٣ مليوناً من الاصوات ، لكن الاشتراكيين ـ الديمقراطيين قرروا دعم ترشيح هندنبورغ ، الرئيس المغادر لسدة الرئاسة ، وكان يقارب التسعين من العمر . وهم وقفوا ضده في الانتخابات السابقة ، لأنه كان يرمز بالنسبة اليهم الى الرجعية الامبراطورية القديمة ، إلا انهم كانوا يسعون الآن وراء ملجأ في ظل شيخوخته . اما الحزب الشيوعي فدعا الشغيلة للتصويت لصالح تالمان . لكن أعيد انتخاب هندنبورغ ، الذي أطلق للفور رصاصة الرحمة على النظام البرلماني وضرب الاشتراكيين ـ الديمقراطيين . اقال بروننغ الذي كان قام للتو بمحاولة مائعة لحظر زمر هتلر الهجومية ، والذي اجتذب كذلك عداء الارستقراطية الجرمانية في بروسيا الشرقية . وقد رفع مستشار هندنبورغ الجديد ، فون بابن ، الحظر عن زمر الهجوم ، واقال في ٢٠ تموز / يوليو ١٩٣٢ ، بواسطة مرسوم ، حكومة بروسيا الاشتراكية ـ الديمقراطية ، التي كان حاول النازيون عبثاً اطاحتها عن طريق استفتاء . كان لهذا الحدث طابع مأساوي ـ هزلي ملحوظ : فقد تولى ملازم يقود زمرة من الجنود طرد رئيس الوزراء ووزير الداخلية البروسيين من مكتبيهما ، علماً انه كانت بإمرتهما ، على الأقل رسمياً ، كل الشرطة البروسية . وهنا تحرك الشيوعيون ، لكن بصورة متأخرة جداً ، ودون حماس ، فنصحوا الاشتراكيين ـ الديمقراطيين باصدار أمر بالاضراب

العام ، وعرضوا مساعدتهم . ومرة اخرى ، رفض الاشتراكيون التعاون مع اعدائهم اليساريين ، ودغدغوا انفسهم بوهم ان تقوم بطانة هندنبورغ وفون بابن (بطانة كان الجنرال شلايشر محركها الأساسي) بكشف مناورات هتلر وافشالها . وكان هذا الوهم هو الاوسع انتشاراً في الشهور الاخيرة من حياة جمهورية وايمار ، وكان فون بابن قد بدا بالغ القوة بعد أن استولى بتلك السهولة على القلعة الاشتراكية ـ الديمقراطية الممثلة ببروسيا . كان كما لو أنه سرق من هتلر رعده ، وفقدت الحركة النازية اندفاعتها مؤقتاً(٣٣) .

إزاء ذلك ، لا شيء يثير الدهشة والاعجاب اكثر من دقة تحليلات تروتسكي وتنبؤاته ومن وضوحها . فهو كتب أنه « بقدر ما كان الشغيلة اقل استعداداً للقتال ، كانت حكومة فون بابن توحي بالقوة . . . مع ذلك ليس هذا بعد هو الانتفاضة الفاشية ، والانتفاضة الفاشية ستأتي لاحقاً . لن يستطيع بابن أن يحبط خطط هتلر ويحول دون ديكتاتورية نازية ، لأنه لا يملك حتى القوة المحدودة التي كان يتمتع بها برونغ ، ولا تدعمه الا العناصر الأكثر قدماً في البيروقراطية البروسية ، ولن يكون قادراً على التحكم بجنون ملايين الاشخاص الذين يتبعون هتلر وهياجهم . فقط روح العزم النضالي لملايين الشغيلة يمكنها ان تتولى ذلك ، لكن كيف يمكن الشغيلة ان يُبدوا هكذا عزماً ، حين يرون ان حكومة بروسيا الاشتراكية تترك نفسها تطاح بنقرة على الانف ، وحين يطالبهم الشيوعيون الآن ، بعد ان ظلوا يعلنون خلال سنوات ان المانيا غدت فاشية ، بالقيام باضراب عام ضد انقلاب بابن الفاشي وللدفاع عن حكومة بروسيا الاشتراكية ـ الفاشية ؟ مع ذلك ، ورغم الارتباك الذي يسود الشغيلة ، يبقى مطروحاً الخيار : إما انتصار النازية ، او انتصار الطبقة العاملة ، **Tertium non datur** » . كان تروتسكي يصر على واقع أن بابن لن يستمر في الحكم اكثر من مئة يوم ، وسيحصل الامر ذاته مع شلايشر ، الذي قد يليه كمستشار ، وعندئذ سيشكل الرايخسفهر واليونكرز ائتلافاً مع النازيين بأمل كبح جماح هؤلاء ، ولكن عبثاً . « كل الائتلافات الحكومية الممكن تصورها مع هتلر ، ستؤدي الى امتصاص الفاشية لبيروقراطية المحاكم والشرطة والجيش » . لكنه اعلن أنه لم يفت بعد وقت تشكيل جبهة موحدة للشغيلة ؛ لكن ـ « كم من

(٣٣) انظر و . ل . شيرر ، **الرايخ الثالث** ، ص ١٥٨ ، ١٦٠ ، ١٧٠ ، ١٧٢ وغيرها (الطبعة الانكليزية) .

الوقت جرى تبذيره من دون هدف وتصميم ، وبحماقة وبصورة مخزية ! »[٣٤] .

في الفترة ذاتها تقريباً ، كان تروتسكي يساجل الكومنترن حول موضوع الثورة الاسبانية . فعام ١٩٣٠ شهد نهاية ديكتاتورية پريمو دي ريڤيرا ، التي تلاها انهيار الملكية ، في نيسان / ابريل ١٩٣١ . في حين كانت الديمقراطية البورجوازية في المانيا تتحول الى نظام تسلطي ، كان يحدث العكس في اسبانيا . الا انه في كلا البلدين، كانت الكومنترن تتشبث بسياسة الحقبة الثالثة . فيما كان الحزب الالماني يعلن انه لا مجال للكلام على تضاد بين الفاشية والديمقراطية البورجوازية ، كان الحزب الاسباني يعامل النزاع بين الملكية والجمهورية بخفة . وفي موسكو أعلن مانويلسكي امام اللجنة التنفيذية للكومنترن في شباط / فبراير ١٩٣٠ ، بعد سقوط پريمو دي ريڤيرا : « إن حركات من هذا النوع تمر على شاشة التاريخ كمجرد احداث تافهة ، ولا تترك آثاراً عميقة في روح جماهير الشغيلة . . . يمكن إضراباً بسيطاً . . . أن يكتسب اهمية اكبر من اهمية ثورة « كثورة اسبانيا . . . »[٣٥] . ان الثورة التي سوف تجذب طوال عقد تقريباً انتباه العالم أجمع ، لم تكن تجري الاشارة اليها حتى ذلك الحين الا بين مزدوجين ، وقد فاجأ الحزب تنازل الملك الفونس الثالث عشر عن العرش . وحين دوت فيما بعد المطالبة بكورتيس منتخبة ديمقراطياً في كل اسبانيا ، ظل الشيوعيون الرسميون ، مثلهم مثل الفوضويين ـ النقابيين ، يؤكدون أن اي برلمان لن يقدم شيئاً للشغيلة والفلاحين ، وشجعوا مقاطعة الانتخابات . لكن في الوقت ذاته ، كانت الكومنترن تعلن ان على الثورة الاسبانية ، بحكم تخلف البلد ، ان تبقى ضمن الحدود الديمقراطية البروجوازية ، وان ديكتاتورية البروليتاريا ليست على جدول الاعمال . ويتعرف المرء هنا بسهولة على القاعدة الستالينية التي جرى ارساؤها كنقيض لنظرية الثورة الدائمة الخاصة بتروتسكي ، تلك القاعدة التي تم تطبيقها في الصين في اعوام ١٩٢٥ ـ ١٩٢٧ . وسوف تبقى القاعدة المذكورة وراء مختلف مراحل السياسة الستالينية في اسبانيا . وفي طور لاحق ،

---

(٣٤) Der Jin Zige Weg . انظر أيضاً B.O العددان ٢٩ و٣٠، أيلول/سبتمبر ١٩٣٢ .

(٣٥) مع ذلك ، فإن صحيفة الهيئة التنفيذية لكومنترن لامت في السنة ذاتها وبتاريخ لاحق ، الشيوعيين الاسبان لأنهم لم يدركوا المعنى الثوري للأحداث . أنظر Kommunisticheskii Internatsional ، ١٩٣٠ ، العددان ٣٤ ، ٣٥ .

عام ١٩٣٧ - ١٩٣٨ ، جرى التذكير بها لتبرير تحالف الشيوعيين مع الاحزاب الجمهورية البورجوازية في الجبهة الشعبية ، والسياسة المعتدلة الخاصة بالحزب الشيوعي ونشاطه القمعي حيال الـPOUM ، والتروتسكيين والفوضويين - النقابيين المتطرفين ، ومع ذلك جرى في بداية الثلاثينات دمج القاعدة ذاتها ، بالصورة الأكثر فظاظة ، مع تكتيك يساري متطرف ، ومع نبذ المطالب المتعلقة بالجمعية التأسيسية والحريات الديمقراطية ، وهي المطالب الكلاسيكية للثورة البورجوازية .

اكد تروتسكي ان على الثورة الاسبانية ان تنتقل ، كما حصل مع الثورة الروسية ، من الطور البورجوازي الى الطور الاشتراكي ، إذا لم ترد ان تمنى بالهزيمة . بين كل البلدان الاوروبية الاخرى ، كانت اسبانيا البلد الاقرب الى روسيا ما قبل عام ١٩١٧ ، بالنسبة للبنية الاجتماعية ولاصطفاف القوى السياسية . وفي اسبانيا كما في روسيا ، كانت المجالس العمالية او الجونتا معدة لتصبح أدوات الثورة . وفي حين كان تروتسكي يلح على « ديمومة » الثورة ، حث الشيوعيين على تبني تكتيك اكثر واقعية ، وعلى استثارة - او دعم - مطالب تتعلق بالاقتراع العام ، والجمعية التأسيسية ، وتقرير المصير للقشتاليين والباسكيين وفوق كل شيء على دعم الفلاحين في نضالهم من اجل الأرض . كان على الفلاحين ، بالضرورة ، ان يعتمدوا على الكورتيس من اجل حل لمشكلات الارض ، وكان على الشيوعيين ان يعرضوا برنامجهم الزراعي على البرلمان ، إذا لم يكن لشيء فلدفع العمل الفلاحي غير البرلماني . والحال انهم لم يكونوا قادرين على القيام بذلك فيما هم يتمسكون بسياسة الحقبة الثالثة ، وفي حين كانوا يميلون الى تجاهل البرلمان ومقاطعته . لقد كتب تروتسكي : « إن الحماقة البرلمانية مرض كريه ، لكن الستالينية المعادية للبرلمان ليست بأفضل » . ألم يدعُ البلاشفة جمعية تأسيسية في عام ١٩١٧ ؟ إن السياسة البرلمانية هي أهم في اسبانيا مما كانت في روسيا ، لأن وتيرة الثورة ستكون أبطأ ، وعلى الشيوعيين الاسبان ان يأخذوا بالحسبان في عملهم التجربة الروسية اقل بكثير مما الثورة الفرنسية الكبرى . لقد سبقت الديكتاتورية اليعقوبية ثلاث جمعيات برلمانية ، ويمكن ان يحدث شيء مماثل في اسبانيا(٣٦) .

لم يكن الحزب الاسباني محدوداً وضعيفاً ومبلبلاً فحسب ، بل كانت

---

(٣٦) الكتابات ، ج ٣ ، ص ٤٥١ - ٤٧١ ، وغيرها ، B.O ، العددان ٢١ ، ٣٢ ، ١٩٣١ .

تفككه كذلك الانقسامات والانشقاقات التي تلازم سيطرة الاورثوذكسية الستالينية . حتى ذلك الحين ، كانت عدة مجموعات تروتسكية ونصف تروتسكية قد طردت منه ، بما فيها اندريه نين ، مؤسسه وقائده لفترة من الزمن . لا شك ان الانشقاقات كانت سبباً لاحباط كبير في اسبانيا الجمهورية ، في السنوات اللاحقة ، وقد انتهت الهجمات المتواصلة على نين باغتياله . وفي نيسان / ابريل ١٩٣١ ، اي قبل ايام فقط من اطاحة الملكية ، احتج تروتسكي في رسالة سرية موجهة الى المكتب السياسي في موسكو على مطاردة الهرطقات في اسبانيا . ذكّر المكتب بأن البلاشفة كانوا قد تضامنوا ، بناء على نصائح لينين ، في عام ١٩١٧ ، مع جميع الفرق القريبة اليهم ، وذلك بتناسي الخلافات السابقة (هو بالذات ايضاً ، ألم ينضم آنذاك الى الحزب البلشفي ؟) ، وبأنهم اكتشفوا أن ذلك ، مقروناً بقدرتهم على تأسيس الوحدة والانضباط على النقاش الداخلي الحر ، عزز بصورة حاسمة نضالهم من اجل الاستيلاء على السلطة . وتساءل : « هل هنالك طرق اخرى او مناهج اخرى تسمح للطليعة البروليتارية الاسبانية بتكوين افكارها وبأن تغدو عميقة الاقتناع ووطيدته بصحة افكارها وبعدالتها ؟ تلك القناعة ، وحدها ، ستسمح لهم بقيادة الجماهير الشعبية نحو الهجوم الحاسم على النظام الاجتماعي القديم » . كانت مطاردة الهرطقات تربك الجماهير وتحبطها وتسهل انتصاراً فاشياً سيكون له ، إذا تحقق ، « انعكاسات خطيرة في كامل اوروبا وفي الاتحاد السوفياتي » . طلب الى المكتب السياسي بأن ينصح ، « بأن ينصح بالضبط ، لا بأن يأمر » الشيوعيين الاسبان بالدعوة لمؤتمر من أجل الوحدة ، وعرض بأن ينصح اتباعه بالمشاركة في مؤتمر من هذا النوع : « إن مسيرة الاحداث في اسبانيا ستثبت يوما بعد يوم الحاجة الى الوحدة في الصفوف الشيوعية ، وإن مسؤولية تاريخية خطيرة ستقع على اولئك الذين يتسببون بالانقسامات »[٣٧] . اما موسكو فلم ترد على هذه الرسالة ، الا انها كانت تبذر بذور الهزيمة التي ستمنى بها الثورة الاسبانية بعد سبع سنوات او ثمان .

في اللحظة التي بلغت فيها تلك المساجلات ذروتها ، حرم ستالين تروتسكي من الجنسية السوفياتية ، ومن حق العودة يوماً الى روسيا . نشرت البرافدا في هذا الصدد مرسوماً في ٢٠ شباط / فبراير ١٩٣٢ يبرر هذا التدبير

---

(٣٧) نشرت الرسالة الى المكتب السياسي في B.O . أنظر الكتابات ، ج ٣ ، ص ٤٤٧ - ٤٤٨ .

بنشاط تروتسكي المعادي للثورة ، لكن دون تحديد جرائمه . وكان هذا الانتقام جديداً ، لا سابقة له . فالمهاجزون المناشفة والاشتراكيون الثوريون الذين كانوا في الاجهزة القيادية للاممية الثانية ، وخاضوا تحريضهم ضد البلاشفة بالمساعدة المادية والمعنوية لتلك الاممية ، لم يكونوا حتى ذلك الحين قد حرموا من الجنسية السوفياتية . ولتصحيح هذا الاغفال وطمس الهدف الحقيقي للعملية ، حرم مرسوم ٢٠ شباط كذلك ثلاثين مهاجراً منشفياً من مواطنيتهم .

وكان هذا « الخلط » يشهد على خبث قائم على التخطيط . خلافاً لتروتسكي لم يكن القادة المناشفة قد تعرضوا للنفي . ففي عامي ١٩٢١ - ١٩٢٢ ، جرى « نصح » معظمهم بالرحيل ، اذا شاؤوا تجنب الاضطهاد ، ورحلوا . كان لينين هو الذي قرر إعطاءهم هذه النصيحة ، ولاشك ان تروتسكي وافق على ذلك القرار . والنفي لم ينقص عداءه حيال المناشفة إطلاقاً ، بل دفعه لارتكاب خطأ ممض في الحكم ، قبل اشهر فقط من مرسوم ٢٠ شباط / فبراير . ففي عام ١٩٣١ ، خلال محاكمة المناشفة المشبوهة التي جرت في موسكو ، صدق تروتسكي الاتهامات الموجهة . جرى اتهام كل من سوخانوف وغرومان والآخرين بالتخريب الاقتصادي والتآمر مع رفاقهم المهاجرين ؛ وكانت التهم تستند الى شهادات واعترافات مزورة(٣٨) . وما كان يفسر جزئياً موقف تروتسكي ، انما هو العنصر الصحيح في تأكيد الاتهام بأن المتهم الرئيسي غرومان ، الذي كان في السابق مستشاراً اقتصادياً ، عضواً في لجنة الدولة للتخطيط ، سعى للحيلولة دون الخطة الخمسية الاولى . وفي الواقع ان غرومان كان قد ساند زمناً طويلاً سياسة ستالين وبوخارين ووقف بعناد ضد برنامج تروتسكي للتصنيع . وخلال محاكمة غرومان ، اعلن تروتسكي أنه تم بالتواطؤ مع ستالين تخريب غرومان ومجموعته للاقتصاد السوفياتي ، ولم يضع حداً لتواطؤ ستالين ، ويصل بالمناشفة الى قفص الاتهام الا المسار الجديد الى اليسار(٣٩) .

---

(٣٨) ادعى النائب العام أن المتهمين تلقوا الأوامر من ر . أبراموفيتش ، الزعيم المنشفي المهاجر ، وبان هذا الأخير كان قد جاء سراً الى روسيا لتفتيش منظمة المتآمرين . وقد تمكن أبراموفيتش آنذاك من إثبات أنه في الفترة التي زعم النائب العام أنه ذهب خلالها الى موسكو كان حاضراً دورات الهيئة التنفيذية للأممية الثانية في بروكسل وبأنه تكلم من على المنصة الى جانب ليون بلوم ، وفاندرفلد وقادة اشتراكيين ديمقراطيين آخرين .

(٣٩) ان أول رأي لتروتسكي حول محاكمة المناشفة موجود في الـ B. O ، العددان ٢١ و ٢٢ ، ١٩٣١ . بعد ذلك التاريخ بـ ٣٠ سنة ، في يوليو / سبتمبر ١٩٦١ ، نشرت الصحيفة المنشفية ، Sotsialisticheskii vestnik ذكريات ن . =

اذا كانت هذه الظروف تفسر قبول تروتسكي بملف الاتهام ، فهي لا تبرر مع ذلك هذا القبول . وفيما بعد ، اعلن تروتسكي ذاته أسفه لاقتراف ذلك الخطأ[٤٠] . إلا ان هذا الحادث يبين تماماً الى اي حد بقي عداؤه للمناشفة قوياً ، ويمكن تخيل المتعة المنحرفة التي شهَّر ستالين بها في الوقت ذاته بتروتسكي وبالمخربين المناشفة ، وذلك في مرسوم واحد حرمهم معاً من المواطنية .

تم هذا الحدث بعد قليل من حدث آخر غامض الى حد ما ، هو قضية توركول . ففي ٣١ تشرين الاول / اكتوبر ١٩٣١ ، نشرت **Rote Fahne** مقالاً يعلن ان الجنرال توركول ، وهو مهاجر كان القائد الاعلى للحراس البيض خلال الحرب ، على وشك تنظيم محاولة لاغتيال تروتسكي ، مستفيداً من ان تروتسكي لا يتمتع بحماية كافية في برنكيبو ، وأنه إذا نجحت تلك المحاولة يمكن من يكونون هيأوا لها ونفذوها أن يحملوا الحكومة السوفياتية مسؤوليتها . كانت تلك المزاعم معقولة ، لكن ما كان يترك المرء حائراً إنما هو تفرد **Rote Fahne** من بين كل الصحف بنشرها . وبايعاز من تروتسكي ، وجه اصدقاؤه ملاحظات الى سفارتي الاتحاد السوفياتي في برلين وباريس ، مذكرين الحكومة السوفياتية بأنها سبق أن وعدت بحماية حياته في المنفى ، وسائلينها ما الذي ستفعله للوفاء بهذا الالتزام . ولم ترد موسكو على ذلك السؤال ، واستنتج تروتسكي ان هدف Rote Fahne الوحيد هو اعطاء ذريعة لستالين في حال تمت محاولة من ذلك النوع . حينئذ وجه اتباعه بياناً الى الحكومة السوفياتية ، يحمل بوضوح سمات اسلوب تروتسكي ، يؤكدون فيه ان « ستالين لم يكن يهتم بمنع الحراس البيض من وضع خطتهم موضع التنفيذ ، بل فقط بمنعهم من إلقاء مسؤولية ذلك العمل الارهابي على ستالين وعملائه »[٤١] . وقد رد ستالين مداورة عبر الكومنترن ، مؤنباً تروتسكي على عقوقه تجاهه مقابل ما ابداه نحوه ستالين من عناية . ويوحي

= غاسني بصدد غرومان ، التي أكدت أن دور غرومان في الصراع ضد الكتل البلشفية ، كان بالضبط كما وصفه تروتسكي ، مع أنه كان بريئاً من الجرائم التي نسبت اليه .

(٤٠) أنظر B. O ، عدد ٥١ ، تموز / يوليو - آب / أغسطس ١٩٣٦ . اعترف تروتسكي بخطئه بإيحاء من ليوفا ، وقد قام بذلك قبل قليل من المحاكمة الكبرى لزينوفييف وكامينيف .

(٤١) ارسلت الرسالة الى موسكو بشكل برقية سرية . ولم ينشرها تروتسكي الا بعد حرمانه من مواطنيته السوفياتية . B.O ، آذار / مارس ١٩٣٢ .

الرد بأن حياة تروتسكي كانت واقعة حقاً تحت تهديد الحراس البيض(٤٢) . كان ستالين يعاقب الآن العقوق إذاً ، بحرمان تروتسكي من الجنسية ، وبحرمانه حتى من بقايا الحماية الشكلية تلك التي على كل حكومة أن توفرها لرعاياها في البلدان الاجنبية .

كانت النية من وراء ذلك الانتقام هي إنجاز ما لم ينجح في انجازه إعدام بلومكين ، اي قطع كل الصلات بين تروتسكي واتباعه في الاتحاد السوفياتي . ورغم الرقابة والاحتجازات ، ظل تروتسكي يتلقى الكثير من الرسائل من الجاليات الاصلاحية والسجون . وفي برلين ، كان ليوفا يحاول ، من جانبه ، ان يقيم اتصالات برفاقه القدامى الذين كانوايقيمون في تلك المدينة من اجل الاعمال ، ويرسل تقارير الى برنكيبو تتعلق بنجاحاته وإخفاقاته . هكذا في ربيع ١٩٣١ ، وجد نفسه فجأة وجهاً لوجه مع بياتاكوف ، لكن هذا الصديق الحميم في السنوات السابقة كان الآن « يهوذا ذا شعر احمر (هذه كلمات ليوفا في رسالته) ، اشاح بوجهه كما لو لم يرني قط » . وفي وقت لاحق ، في شهر تموز / يوليو ، فيما كان ليوفا يتجول في احد المخازن الكبرى في المدينة ، التقى صدفة ايفان سميرنوف الذي كان يشغل منذ استسلامه منصباً اداريا رفيعاً في الصناعة السوفياتية . وقد تلقيا الواحد الآخر بالاحضان واستعلم سميرنوف بحرارة عن تروتسكي وكل افراد العائلة . تكلم المستسلم على الوضع المشؤوم وعلى الاستياء العام في الاتحاد السوفياتي ، كاشفاً مكنونات قلبه المفعم بالمرارة . لكن رغم أنه فقد الآن كل اوهامه وآماله التي تعهدها في فترة استسلامه لستالين ، فهو لم يكن مستعداً لاستئناف المعركة ، وكان يفضل ان ينتظر ما سيحصل . إلا انه قال إنه واصدقاءه ربما استقبلوا بفرح مشروع تشكيل كتلة مع تروتسكي واتباعه ، كتلة يكون هدفها المباشر مجرد تبادل للمعلومات . كان يرغب ، على الأقل ، في إبقاء الصلة مع تروتسكي ؛ ولما كان على وشك العودة الى موسكو ، فقد وعد بأن يرسل بواسطة صديق موثوق وثيقة تحدد وضع الاقتصاد السوفياتي والجو السياسي في البلد . اتفقا عندئذ على كلمة سر على الرسول أن يستخدمها . وفي بداية الخريف ، حمل إ.س. غولزمان ، وكان بلشفيا قديما وأحد

---

(٤٢) اتخذ الرد شكل تعميم سري ، أرسلته الهيئة التنفيذية للكومنترن الى اللجان المركزية لشتى الأحزاب الشيوعية . وقد وقعت نسخة من ذلك التعميم بين يدي تروتسكي ، وهي موجودة في المحفوظات ، القسم المقفل .

المستسلمين ، مذكرة من سميرنوف ستظهر في Bulletin oppozitsii بعد سنة من ذلك التاريخ ، وتكشف للمرة الاولى الحقيقة بكل حجمها حول تدمير الماشية خلال التجميع ، وحول التفاوتات الخطيرة القائمة في الصناعة ، ونتائج التضخم على الاقتصاد عموماً ، الخ . . . وكانت المذكرة تنتهي بالخلاصة التالية المثقلة بالمعاني : « لما كانت القيادة الحالية عاجزة عن الخروج من المأزق السياسي والاقتصادي ، فان القناعة بضرورة تبديل في قيادة الحزب تنضج شيئاً فشيئاً » وقد التقى ليوفا وغولزمان غالباً وناقشا ما يحصل في الاتحاد السوفياتي[٤٣] .

لم يكن سميرنوف وغولزمان يتكلمان فقط باسميهما ، بل كذلك باسم الكثير من المستسلمين الذين توجهوا مرة اخرى بأنظارهم نحو تروتسكي ، بحياء لكن بصورة اكيدة . ذلك ان العاصفة التي كانت تتجمع فوق المانيا ، والوضع الداخلي ، كانا يثيران قلقهم الشديد . كان شلل الحركة الشيوعية الالمانية يثير ذعرهم وكانوا يتابعون بتعاطفٍ حملة تروتسكي . كان معظمهم يفكرون بما سيعبر عنه رادك فيما بعد عام ١٩٣٢ ، حين دل شيوعياً المانياً كان يثق به في معرض حديثه اليه ، على مكتب ستالين في الكرملين وقال له : « هنا يقيم اولئك المسؤولون عن انتصار هتلر »[٤٤]. لما كان المستسلمون لا يرون أي وسيلة لتعديل سياسة الكومنترن ، وكانوا ساخطين ومحبطين ، فقد كانوا يعودون ادراجهم الى جانب المعارضة التروتسكية . وكان ذلك لا يخفى على ستالين الذي كان مشغولاً اكثر من أي وقت مضى في عزل الحزب عن تأثير تروتسكي ؛ وكان يأسف الآن لكونه نفى تروتسكي الى خارج روسيا ، لأن ذلك النفي يسمح لتروتسكي بنشر أفكاره في العالم اجمع . وقد قرر ستالين إذاً ان يستفيد من « خطئـ » ـه . إن تروتسكي ، المحروم من الجنسية السوفياتية ، كان قد اصبح يحمل سمة المنبوذ ، مرة وإلى الابد . مذاك ، كان كل مواطن سوفياتي يحاول الاتصال بتروتسكي ، لا يتعرض فقط للاتهام بالتشارك مع قائد للمعارضة الداخلية مغضوب

---

(٤٣) تستند روايتنا الى مراسلة ليوفا مع والده والى شهادته أمام لجنة التحقيق الفرنسية التي اضطلعت عام ١٩٣٧ بالاستقصاءات التمهيدية للمحاكمة المضادة التي تمت في المكسيك . أنظر المحفوظات ، القسم المقفل .

(٤٤) كتب إ . وولنبرغ ، الذي كان سابقاً رئيس تحرير Rote Fahne ، وزعيم الرونفرونتبوند،في The Red Army ، ص ٢٧٨ : قال لي زينوفييف في بداية ١٩٣٣ : « إذا وضعنا جانباً الاشتراكيين ـ الديمقراطيين ، يتحمل ستالين بشكل رئيسي مسؤولية انتصار هتلر ، أمام التاريخ » .

عليه ، بل بخاصة مع متآمر اجنبي .

رد تروتسكي برسالة مفتوحة الى بريزيديوم اللجنة المركزية التنفيذية ، التي باسمها جرى نشر مرسوم ٢٠ شباط فبراير[٤٥] . ندد فيها بلا شرعية المرسوم ، الذي وصفه بأنه « مزيج بارع من الأسلوب الترميدوري ، وعمل انتقام شخصي عاجز وحتى مثير للشفقة » من جانب ستالين . في الوقت ذاته ، وضع جردة بعقد من الصراع الداخلي في الحزب : « هل تعتقدون بأنكم توقفون ، بهذه الخرقة الزائفة من الورق ، نمو النقد البلشفي ، وتحولون بيننا وبين القيام بواجبنا ، وترهبون اولئك الذين يفكرون مثلنا . . . سوف تمر المعارضة من فوق مرسوم ٢٠ شباط / فبراير كما يمر شغيل ذاهب الى المصنع من فوق بركة من الوحل . . . » كان يعي أن ذلك الانتقام ليس كلمة ستالين الاخيرة « اننا نعرف ما في جعبته من طرائف ، وانتم تعرفون ستالين كما اعرفه انا . هناك الكثيرون بينكم من الذين اعطوا بصراحة ، ودون اوهام ، رأيهم بستالين ، وذلك مراراً خلال محادثات معي او مع اناس قريبين مني » . كان يخاطب هنا من هم حول ستالين ، « اناس الجهاز » ، يخاطب ضميرهم ، لكن كذلك مصلحتهم ، يحاول إقناعهم بأنهم ، هم ايضاً ، ليس لديهم ما يكسبونه ، لكن اشياء كثيرة يخسرونها تحت حكم ستالين الاوتوقراطي . كان يصف بتعابير شديدة الوقع ، ما يعانيه من اذلال على يدي ستالين ، هو والحزب بأسره .

« لقد بدأتم المعركة ضد التروتسكية تحت راية الحرس البلشفي القديم . كنتم تعارضون المطامح الخيالية الصرفة الى السلطان الشخصي لدى تروتسكي ، تلك المطامح التي اخترعتموها بأنفسكم ، بالقيادة الجماعية للجنة المركزية اللينينية . ما الذي بقي من تلك القيادة الجماعية ؟ ما الذي بقي من اللجنة المركزية اللينينية ؟ إن الجهاز ، المستقل عن الطبقة العاملة والحزب ، اعد المسرح لديكتاتورية ستالين ، المستقلة عن الجهاز ، والآن ، إذا تعهد اي كان بالولاء للجنة المركزية اللينينية عُدَّ ذلك نداء مكشوفاً ، من جانبه ، الى الانتفاضة . فقط ، القسم بالولاء لستالين هو المسموح به ، إنها الصيغة الوحيدة المسموح

---

(٤٥) B.O ، العدد ٢٧ ، آذار / مارس ١٩٣٢ .

بها . فالخطيب والدعاوي ، والصحفي ، والمنظِّر ، والمربي ، والرياضي ، كلهم مجبرون على أن يُضمِّنوا خطبهم أو مقالاتهم ، او محاضراتهم ، الجملة القائلة . . . « بقيادة ستالين » ، على الجميع أن ينادوا بعصمة ستالين ، الذي يمتطي ظهر اللجنة المركزية . على كل عضو في الحزب وكل موظف سوفياتي ، من رأس الحكومة حتى أدنى المستخدمين في الوظائف المغمورة ، أن يقسم . . . بأنه في حال وقعت خلافات بين اللجنة المركزية وستالين ، سوف يقدم دعمه ، هو الموقع ادناه ، لستالين ضد اللجنة المركزية » .

كان ستالين بصدد الغاء زمرته الخاصة به ، التي ساعدته وكانت لا تزال تساعده على إلغاء كل معارضيه . كان قد اقام داخل زمرته الخاصة به زمرة اكثر ولاء له والتصاقاً به ، تعمل بواسطة عملاء سريين ، وكلمات سر ، وشيفرة ، الخ . . . كان عليه ، مهما يكن الثمن ، ان يصل بتدمير المعارضة الى النهاية . من هنا كان ذلك المرسوم المؤرخ في ٢٠ شباط / فبراير ، الذي كان يطلق يديه في تسوية حساباته مع أنصاره الخاصين به ، ومحيطه الخاص به . كان من مصلحة رجال الجهاز ، إذاً ، ان يرفضوا القيام بما كان يأمرهم به ستالين ؛ بهذه الطريقة فقط ، كان يمكنهم انقاذ انفسهم .

« لقد كمنت قوة ستالين ، دائماً ، في آليات الحزب . . . فاذا قُطع ستالين عن تلك الآليات ، لا يعود يمثل شيئاً . . . آن أوان التخلص من اسطورة ستالين ، آن الأوان من اجل ان تضعوا ثقتكم في الطبقة العاملة وفي حزبها ، غير المزور بل الأصيل . . . هل تريدون اذاً أن تمضوا أبعد على الطريق الستالينية ؟ لكن ليس ثمة ما هو أبعد ، وستالين قادكم إلى مأزق . . . آن الأوان لاخضاع كل النظام السوفياتي للفحص ولتنظيفه دون رحمة من كل القذارة التي اكتسحته ، آن الأوان لتضعوا موضع التنفيذ نصيحة لينين النهائية والآمرة : « تخلصوا من ستالين ! » » .

كان تروتسكي يوجه النداء هنا بالحاح إلى قادة البيروقراطية الستالينية ، لا الى بلشفيي القاعدة . لما كان تعهد بالعمل على إصلاح الحزب الحاكم ، لا على إطاحته ، كان ينبغي ان يتوجه اليهم بندائه ، لأن اللجنة المركزية ،

وحدها ، المؤلفة بكاملها تقريباً من ستالينيين ، كان يمكنها القيام باصلاح دستوري . في الواقع ، كان تروتسكي يحث قادة الزمرة الستالينية القديمة على أخذ المبادرة ، عام ١٩٣٢ ، ونزع الستالينية الذي سيتولاه بعضهم بعد بضع وعشرين سنة ، إثر وفاة ستالين . هذا النداء رغم كونه بقي مجهولاً ، لم يكن غير ملائم ، لأن النزاع بين ستالين وشركائه وأتباعه القدامى سوف ينتهي بصورة مشؤومة بالنسبة لمعظمهم ، وتروتسكي ، الذي كان يراقب النزاع بينهم لم يكن ميالاً ابداً للتقليل من اهميته ، حتى إن كان يقزمها في كتاباته الاكثر شعبية . معروف ان ذلك الوقت كان الأخطر والاكثر قتامة في التاريخ السوفياتي ، لأنه كان على الأمة ، آنذاك ، أن تتحمل كل ثقل الكارثة التي حلت بالزراعة ، إذاً ثقل المجاعة ، وكذلك لأن فوضى التضخم كانت تهدد ، في الوقت ذاته ، بإفساد التقدم الحثيث في التصنيع . وكنا وصفنا في مكان آخر(٤٦) تلك الفترة الخاصة بالعبارات التالية : « كانت المحن والحرمانات تتراكم ، وكانت شعبية ستالين في أسفل نقاطها ؛ وكان يرى ، مشدود الاعصاب الى ابعد الحدود ، نمو أمواج الاستياء ، التي كانت تأتي لتلطم جدران الكرملين » . ونضيف الى ذلك آنذاك أنها لم تلطم جدران الكرملين وحسب ، بل شدختها .

ظهر الخلاف بين ستالين ومحيطه منذ عام ١٩٣٠ ، حين جحد بصورة توضيحية ، في بيان بعنوان « **حول دُوار النجاح** » ، استخدام العنف في التجميع ، وصوّر نفسه للبلاد ، من فوق رأس اللجنة المركزية ، كالحامي الوحيد للفلاحين . وقد احتجت اللجنة المركزية ، واضطر ستالين للاعلان امام الامة ان اللجنة المركزية بكاملها ، لا هو وحده فقط ، قررت ايقاف العنف . أما الخلاف اللاحق فسببه الكسوف المؤقت لياروسلافسكي في السنة ذاتها . كان ياروسلافسكي احد أعمدة الزمرة الستالينية ، والحارس الأشرس لاورثوذكسيتها ، ومؤلف كتاب عن تاريخ الحزب ، هو قمة حقيقية للتزوير جرى تقريظها كدليل أمين يسمح للمرء بأن يتخلص من تخبطه وسط الفوضى المذهبية لصراعات الحزب الداخلية ، وتم تبليعها للحزب بجرعات كبيرة . كان هذا الكتاب بالضبط هو الذي تسبب بفقد ياروسلافسكي حظوته ، ذلك ان ستالين اكتشف فجأة أنه محشو بالهرطقات ، وأمر بحظره . فياروسلافسكي الذي ألف كتابه ما بين ١٩٢٠

---

(٤٦) دويتشر ، ستالين ، ص ٣٣٢ .

و١٩٣٠ لم يستطع الوصول بالتزوير الى النقطة التي كانت تلائم ستالين عام ١٩٣١ . إن مزور التاريخ لا يعمل في الفراغ ، فالحقل الذي يمكن أن يعطيه لنفسه ، والوقاحة التي يمكن أن يسمح لنفسه بها ، يتوقفان على الاتساع والوزن اللذين يبلغهما النسيان الذي نزل بثقله على الناس والاحداث الزمنُ واللامبالاة والتزويرات السابقة . ففي سنوات ١٩٢٠ ـ ١٩٣٠ ، كان على ياروسلافسكي ان يأخذ بالحسبان واقع أنِ معظم قرائه كانت لا تزال لديهم ذكريات حديثة نسبياً عن سنوات الثورة والحرب الاهلية . إلا ان ستالين كان يطالب في عام ١٩٣١ بتزويرات اكثر كثافة بكثير ، وكلما كانت سلطته الخالصة تزداد ، كان يشترط بأن يفصَّل لباس التاريخ باستمرار على مقاسه . فقبل سنوات قليلة ، كان يكفي اي نوع من النصوص الستالينية ان يفضح في تروتسكي « منحرفاً » عن البلشفية ويحيي في ستالين المفسر الأمين للينينية . لكن كان على مؤلف أي كتاب أن يشهِّر وهو يتحدث عن تروتسكي بذلك الذي كان على الدوام مضاداً للثورة هائجاً ، وأن يصفه كخائن ، حتى في الفترة التي كان فيها رئيساً لسوفييت بتروغراد ومفوضاً للحرب ، وأن يجعل الشعب ينسى ان المجرم كان قد شغل في السابق هكذا مناصب رفيعة ، ويضفي على ستالين كل الألق الذي جرى نزعه عن تروتسكي ، ويرسي بما لا يقبل النقاش التعاقب الرسولي لماركس ـ انجلز ـ لينين ـ ستالين . لم يكن يجري دفع التزوير إلى أقصى مداه لمصلحة الزمرة الستالينية بوجه العموم ، بل فقط لمصلحة سلطة ستالين الاوتوقراطية . كان تاريخ ياروسلافسكي قد مثل وجهة نظر الستالينيين في الحقبة التي كانوا لا يزالون يعاملون فيها ستالين كـ**Primus inter pares**(*) ، وهو امتدح ، بالتالي ، الستالينية ، لكنه لم يمجد ستالين بالذات وتلك العبقرية ما فوق البشرية التي كانت تعطيه الحق في أن يضع نفسه فوق زمرته الخاصة به . كان يجب ، بالتالي ، جندلة ياروسلافسكي ، لكن ما سببه ذلك من ذهول وخوف ، حتى بين اعوان ستالين وصل الى الدرجة التي كان لابد معها من وضع حد لزوال حظوته ، وبسرعة(٤٧)

إن إقالة ريازانوف من منصبه كمدير لمعهد ماركس ـ انجلز ، وهي إقالة

(*) جملة لاتينية بمعنى الأول بين متساوين(م) .

(٤٧) كان المؤلف في تلك الفترة في موسكو وسمع العديد من التعبيرات المحمومة عن ذلك الذهول من أعضاء الحزب الأكثر أورثوذكسية .

تمت ايضاً في عام ١٩٣١ ، كانت اكثر درامية . إن العلاّمة الماركسي المشهور ، كان قد اعتزل منذ زمن بعيد كل نشاط سياسي ، ورغم الصداقة القديمة التي كانت تجمعه بتروتسكي ، كان قد تصرف حيال ستالين بولاء كامل ، مكرساً كل طاقته للمحفوظات بالغة الغنى ولمكتبة المعهد . إلا أنه ، بمجرد وجـوده في المعهد ، كان يُبقي على حياة تراث من العلم خاص بالماركسية الكلاسيكية في الوقت ذاته الذي كان يهتم فيه ستالين بتحويل المعهد الى هيكل مخصص لعبادة شخصه . جرى طرد ريازانوف ، بالتالي ، ونفيه من موسكو ، بحجة انه تآمر مع المناشفة لإتلاف بعض كتابات كارل ماركس غير المنشورة[٤٨] .

يرتبط بكل القضايا أيضا الهجوم المشهور الذي شنه ستالين على محرري Proletarskya Revolutsia الذين اتهمهم بالمتاجرة غير المشروعة ضمن « عصابة التهريب التروتسكية » . كانت الصحيفة قد نشرت بحثاً تاريخياً حول الموقف البلشفي حيال روزا لوكسمبورغ قبل عام ١٩١٤ ، وهو بحث اعترف بالمميزات الماركسية والثورية التي كانت تتحلى بها المذكورة ، ولم يكن ثمة شيء غير مألوف في كل ذلك ، لأنه منذ اغتيال روزا لوكسمبورغ في عام ١٩١٩ ، كان الشيوعيون يكرمون بانتظام ، وبصورة احتفالية ، ذكراها . وبعد عـام ١٩٢٤ ، كانت الاذكارات السنوية لوفاة لينين ، وكارل ليبنخت ، وروزا لوكسمبورغ ، تتم سنوياً في احتفال مهيب واحد بـ « الثلاث لامات(*) » ، وهوذا الآن ستالين يندد بأفكار روزا لوكسمبورغ كمعادية في جوهرها للبلشفية ، وتمتّ بـالقرابـة الى التروتسكية كانت القرابة اكيدة ، لكن حتى ذلك الحين كان الستالينيون قد قاتلوا قائد المعارضة الحي لا شبحاً ، وقد توصل ستالين الى الاشتباه بأنهم إذ يكرمون الشبح يحاولون سراً أن يعيدوا اعتبار تروتسكي .

---

(٤٨) إن دفاع تروتسكي عن ريازانوف موجود في الـ B.O ، العددين ٢١ و ٢٢ لشهري أيار / مايو وحزيران / يونيو ١٩٣١ . كان ريازانوف ، بوصفه مديراً لمعهد ماركس ـ انجلز قد بذل أكثر من أي شخص آخر ليجمع في المعهد أوراق ماركس وانجلز . كان استحصل ، بين ما استحصل عليه ، على عدد من رسائل ماركس الى كاتسكي ، وقد تخلى له هذا الأخير عنها شرط أن لا يتم نشر بعضها ، وتضم ملاحظات كتبها بخط يده ، طالما هو على قيد الحياة . وقد امتنع ريازانوف الوفي لتعهداته عن نشر تلك الرسائل ، ولم يفكر أحد في أن يأخذ عليه ذلك ، الى حين احتاج ستالين للذريعة كي يطرده من المعهد ويشهّر به .

(*) انطلاقاً من الحرف الأول ، حرف « ل » ، لكل من أسماء الشخصيات الثلاث . (م) .

كتب يقول

« اعتقد انه تحرك الناشرين تلك الليبرالية العفنة الشائعة جداً في الوقت الراهن في صفوف بعض البلاشفة . يعتقد البعض ان التروتسكية مدرسة فكرية داخل الشيوعية ، تكتل لا شك انه اقترف اخطاء وقام ببعض الأمور الصغيرة البلهاء ، لا بل تصرف احياناً بشكل معاد للسوفيات ، لكن هذا التكتل يبقى مع ذلك تكتلاً شيوعياً . ويكاد يكون ضرورياً لفت النظر الى ان هكذا طريقة في النظر الى التروتسكية خاطئة عميق الخطأ ومضرة . ان التروتسكية هي في الواقع رأس حربة البورجوازية المعادية للثورة حين تخوض نضالها ضد الشيوعية ، والتروتسكية هي طليعة البورجوازية المعادية للثورة ، وهذا هو السبب في أن اعتماد الليبرالية تجاهها يقارب الجريمة وخيانة الطبقة العاملة(٤٩) .

لم يكن ستالين على عداء شديد مع « الليبرالية العفنة » لمحيطه الخاص به ، وحسب : كان عليه أن يرد على تحديات اكثر مباشرة . ففي داخل اللجنة المركزية بالذات ، وحول تلك اللجنة المركزية ، كانت تتشكل دون انقطاع مجموعات من المستائين ، وكانت قضايا ريوتين وسليبكوف وسيرتسوف ولومينادزه تراوح آنذاك في المكان منذ اكثر من عامين . فالأربعة جميعهم كانوا قد تعرضوا الواحد بعد الآخر لإنزال الرتبة والتنديد ، ثم اعيد اعتبارهم جزئياً ، ثم جرى التشهير بهم مجدداً كمتآمرين . لم يكن في وسع ستالين واللجنة المركزية الاتفاق على درجة جرم هؤلاء الرجال ، وعلى ما يجب إنزاله بهم من عقاب . وفي عام **١٩٣٢** جرى كشف مجموعات عديدة جديدة « من المتآمرين » ، وكانت احدى المجموعات بقيادة أ . سميرنوف ، المفوض السابق للزراعة ، وايسمونت ، مفوض التموين ، وتولماشيف مفوض النقل وتم اكتشاف مجموعة اخرى ، هي مجموعة كونور وكوفارسكي وڤولف ، في مفوضية الزراعة ، وانه كانت توجد « شبكات للمعارضة » في النقابات وشتى المفوضيات(٥٠) . لم يكن قادة تلك المجموعات قد انخرطوا في مؤامرات

---

(٤٩) ستالين ، سوشينيا ، ص ٩٨ - ٩٩ .

(٥٠) بوبوف ن . Outline History of the C. P. S. U. (b) ، ج ٢ ، ص ٣٩١ ، ٣٩٩ ، ٤١٨ ، ٤١٩ ، ٤٣٤ ؛ K. P. S. S. v Rezolutsiakh ج ٢ ، ص ٧٤٢ . وقد شكلت حالات كل من هؤلاء المنحرفين موضوعات لاعترافات شتى خلال =

حقيقية . واولئك بينهم الذين كانوا اعضاء في اللجنة المركزية لم يفعلوا اكثر من ممارسة حقوقهم الحزبية ، بمحاولتهم اقناع زملائهم بأن سياسة ستالين ضارة ، وبأنه يسيء استخدام السلطة ، وبأن على اللجنة المركزية ان تقيل هذا الأمين العام . كانوا قد سيّروا لهذه الغاية مذكرات وحاولوا الحصول على الدعم المعنوي للمعارضات السابقة . هكذا استشار ريوتين زينوفييف وكامينيف ، في حين طلب ايسمونت وتولماشيف النصح من ريكوف وتومسكي . وخلال عامي ١٩٣١ و ١٩٣٢ طلب ستالين بإلحاح من المكتب السياسي واللجنة المركزية اطلاق يديه في مواجهة تلك الانتقادات ، وقد كانت ثمة مقاومة من داخل اللجنة المركزية ، وحتى الغيبيو أبدت نفورها من التحرك باتجاه القمع [٥١] .

ولم يتمكن ستالين ، إلا بعد العديد من التأجيلات ، وبالتحديد في تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٣٢ وكانون الثاني / يناير ١٩٣٣ ، من طرد بعض المستائين ، واصدار حُرم جديد ضد زينوفييف وكامينيف ، اللذين طردا مرة اخرى من موسكو ، وجرى ارسالهما في هذه المرة الى سيبيريا . ويبدو أن زينوفييف اعلن خلال هذا النفي الثاني ان اكبر خطأ في حياته - وهو اكبر أيضاً من معارضته للينين خلال ايام ثورة اوكتوبر - يتمثل بالقرار الذي اتخذه بفك تحالفه مع تروتسكي والاستسلام لستالين في عام ١٩٢٧ . ولم يمر عير وقت قصير حتى كان برايو براجنسكي ، وايفان سميرنوف ، ومراشكوفسكي ، ومورالوف ، وترفاغانيان ، والعديد من المستسلمين الآخرين ، يُطردون مرة اخرى من الحزب ويسجنون وقد جرى اضطهادهم بصورة اشرس من الطريقة التي اضطهد بها من لم يستسلموا يوماً . وحوالى نهاية العام ، بدا أن المعارضة استعادت كل القوة التي كانت فقدتها منذ عام ١٩٢٧ . ويصف تقرير يعود لتلك الفترة ، بالصورة التالية ، الآثار التي خلّفها اضطهاد المستسلمين : « هؤلاء الثوريون القدامى ، هؤلاء القادة السياسيون المجربون ، قاموا بمحاولةلايجاد لغة مشتركة مع رجال الجهاز . دامت المحاولة

= محاكمات موسكو في ١٩٣٧ - ١٩٣٨ . أنظر محاضر المحاكمات . أنظر كذلك سرج ، مذكرات ثوري ، ص ٢٨٠ - ٢٨١ . والعدد ٣١ من B.O .

(٥١) في التقرير السري الذي قدمه نيكيتا خروتشوف أمام المؤتمر العشرين كشف الستار عن برقية وجهها ستالين وإيفانوف الى المكتب السياسي في ٢٥ أيلول / سبتمبر ١٩٣٦ ، يعنفان فيها الغيبيو بسبب تأخرها أربع سنوات في نزع القناع عن المتآمرين التروتسكيين والزينوفييفيين . . . نيكيتا خروتشوف : كيف جرى خلع ستالين عن العرش ، ص ١٢ .

اربع سنوات تقريباً ، وآلت الى الفشل . حين استسلموا ، جرى إعلام خلايا الحزب بأن « كل البلاشفة القدامى قطعوا صلتهم بالمعارضة ». وقد احدثت تلك الحجة ، بلا جدال ، تأثيراً أقوى ، لكن في الاتجاه المعاكس . « حسنا ، أعلن البعض ، لقد كانت المعارضة اليسارية على حق ، مهما يكن ، لأن هذا العدد الكبير من الذين كانوا تخلوا عنها يعودون الآن اليها[٥٢] » . وفي الواقع انهم لم يكونوا يعودون الآن طوعاً ، بل كان ستالين يلقي بهم خارج الحزب ، لأنه كان يخشى حضورهم خلال الطور الأولي من النزاع الذي كان يضعه بمواجهة اتباعه الخاصين به ، وحالة الاضطراب والبلبلة في محيطه . وبالضبط في فترة النفي الثاني لزينو فييف وكامينيف ، انتحرت ناديا أليلوييفا ، زوج ستالين . كانت قد انهارت عقلياً تحت وطأة وخز الضمير إزاء الطريقة التي كان يقود بها زوجها شؤون الحزب والدولة .

تلك كانت اذاً الظروف التي حث فيها تروتسكي الجماعة المحيطة بستالين كي تنفذ أخيراً وصية لينين و « تتخلص من ستالين » . ولم يكن ذلك ، من جانبه ، مجرد رد فعل انفعالي على المرسوم الذي حرمه من صفته كمواطن . كان يراهن على امكانية ان يرى الطموح الاوتوقراطي لستالين يشكك أخيراً مجموعة الناس القياديين ، وكان يحرضهم على العمل من أجل الدفاع عن أنفسهم . وحين نرى كيف ان ستالين سيأمر بعد خمس سنوات أو ست باعدام ٩٨ عضواً وعضواً احتياطياً في اللجنة المركزية على ١٣٩ ، (و ١١٠٨ مندوبين على ١٩٦٦ مندوباً كان يضمهم المؤتمر السابع عشر للحزب) ، مستأصلاً هكذا غالبية الكوادر الستالينيين وحوالى ثلاثة أرباع نخبتهم ، يمكن الموافقة كلياً على ان تروتسكي كان على حق ، وهو يتوجه الى هؤلاء الكوادر ، متذرعاً لا بمصالحهم فقط ومصالح المعارضة والحزب ، بل كذلك بالقواعد الملزمة لصيانة حياتهم هم : « إنها فرصتكم الأخيرة للنجاة ، استفيدوا منها » ، هذا ما قاله في الواقع لاولئك الستالينيين بالذات الذين سيكونون بعد قليل ضحايا إرهاب ستالين . وكان يحث اناساً كخروتشوف وميكويان على « تنظيف الدولة السوفياتية من القذارة الزاحفة » قبل اربعة وعشرين عاماً من الوقت الذي اصبحوا مستعدين فيه لفعل ذلك . وفي حين كان ثمة قذارة أقل بكثير مما سيكون هنالك فيما بعد ، كان

(٥٢) أنظر المراسلات الآتية من موسكو في الـ B.O ، عدد ٣٣

يعرف ، بالتأكيد انهم اذا قرروا العمل ضد ستالين ، فهم لن يفعلوا ذلك الا بحياء ، وانه سيقف دونهم الف كابح، الا إنـه كان يتصـور « جبهة مـوحدة » معهم ، ويعرض عليهم دعمه النقدي ، معولاً على أنه ما ان تنطلق الحركة ضد ستالين حتى يعود هو واتباعه الـى واجهة المسرح(٥٣) .

لقد بذل كل ما يستطيع من أجل تشجيع المستائين الستالينيين . أما ليوفا الذي كان يتابع عن كثب من برلين اضطراب موسكو فكان يبدو متلهفاً لأن يفعل ذلك . وكانت التقارير الواردة من موسكو مستمرة في التشديد على السخط السائد بين الستالينيين وعلى واقع انهم كانوا يتكلمون على ضرورة التخلص من ستالين ، لكن التقارير ذاتها كانت تشير الى ان المستائين الستالينيين كانت ترعبهم مجرد فكرة عودة تروتسكي . كانوا يقولون : « إذا عاد تروتسكي فسوف يطلق الرصاص علينا جميعاً ، او سينتقم من كل ما فعلناه بحقه وحق أتباعه ، ويصفّنا بالآلاف امام مفارز الاعدام » . وكان ستالين ينقر على وتر ذلك الخوف ، ويستثيره ، وقد كتب تروتسكي لولده :

«هـذا يعيّن لنـا الخط الـذي ينبغي أن نتبعـه، فعلينـا ألا نخيف في اي من الحالات الناس بشعارات أو صيغ يمكن تفسيرها كتعبير عن نية الانتقام . وكلما اقتربت لحظة الحسم ، كلما كان على طريقتنا في الكلام ان تغدو لطيفة ومصالحة ، مع انه ليس وارداً طبعاً تقديم اي تنازل على صعيد المبادىء(٥٤) » . وفي الـBulletin وفي منشور معد خصيصاً للتوزيع

في روسيا ، سعى تروتسكي لطمأنة الخائفين من انتقامه ، بالطريقة التالية :

« ينبغي طبعاً وضع حد للنظام البونابرتي لزعيم فرد يجبر الجميع على عبادته ، ينبغي وضع خاتمة لهذا التشويه المخجل لفكرة حزب ثوري ، لكن ما يهم ، إنما هو تغيير النظام ، لا نفي الأفراد . تبدو الزمرة الستالينية مثابرة على نشر الاشاعة القائلة ان المعارضة اليسارية ستعود . . . شاهرة سيفها ، ومهتمة قبل كل شيء بأن تروي دون شفقة او رحمة شهوة الانتقام من خصومها . . . ينبغي طرح هذه الكذبة المسمومة جانباً . . . ليس الانتقام عاطفة سياسية ، وهذه العـاطفة لم تقـد يومـاً

---

(٥٣) المرجع ذاته ، العدد ٢٧ : خلال عام ١٩٣٢ ، عاد تروتسكي الى هذا الموضوع مراراً في رسائله الى ليوفا .
(٥٤) رسائل تروتسكي الى ليوفا في ١٧ ، و ٢٤ ، و ٣٠ تشرين الأول / أوكتوبر ١٩٣٢ .

البلاشفة اللينينيين ، ولن تقودنا نحن بالأحرى ، فنحن نعرف تماماً . . . الاسباب التي رمت بالآلاف من اعضاء الحزب في المأزق . . . ونحن مستعدون للعمل يداً بيد ، مع كل الذين يرغبون في اعادة بناء الحزب ، وتحاشي وقوع كارثة(٥٥)» .

إلا أن ذلك كان في عام **١٩٣٢** ، لا في عام **١٩٥٣** او **١٩٥٦** . ورغم البشائر ، لم تتحول الحركة ضد ستالين الى واقع مادي ملموس . كان رجال الجهاز عاجزين عن العمل ضد زعيمهم ، ولم يكن الخوف من تروتسكي ومن الانتقام الكابح الاهم الذي حال بينهم وبين العمل ، إنما كان التفكك بالذات الذي أصاب التكتل الستاليني هو ما جعلهم عاجزين عن الاتيان بأي حركة . كان ستالين يسودهم عن طريق بث الفرقة بينهم ، مشكلاً لجاناً منافسة ، ومقيماً حرسه البريتوري ، الذي كان اعضاؤه يجهلون اي عاطفة صدق واخلاص تجاه رفاقهم سابقاً، ولم يكونوا يرغبون الا في إرساء حكمه الشخصي . كانت تلك « هيئة الاركان السرية » ، العاملة بواسطة عملائها الخاصين بها الممتلكين « كلمات سر وشيفرات سرية » اتى تروتسكي على ذكرها ، وتلك كانت « الخمسيات والسداسيات والسباعيات » ، التي ركزها ستالين ، حسب كلام خروتشوف ، داخل المكتب السياسي واللجنة المركزية ، والتي كان يستخدمها لشل هذين الأخيرين . ان الحيل التي استولى على السلطة بواسطتها نجحت أيضاً في تثبيته فيها . استطاع هكذا أن يرصد ، داخل اللجنة المركزية ، كل نوع من الاهتزاز العدائي ، حتى قبل أن يتاح لذلك الاهتزاز الوقت للامتداد . ما كان في وسع اي جماعة من المستائين ، ولا حتى تلك المؤلفة من الستالينيين الاكثر نفوذاً ، أن تصوغ اي نقد ، او تحاول التأثير على شخصيات اخرى من الهرم ، لأنها ما ان كانت تحاول القيام بذلك حتى كان يتم كشفها والتشهير بها كخائنة .

الا ان اللجان السرية ، « والخماسيات » ، و« السداسيات » ، والاجهزة الأخرى للمتآمرين الذين كان يستخدمهم ستالين ، كانت بقيت دون ادنى اهمية ، لو انه لم يشل المستائين خوفٌ كان قد سلب كل المعارضات السابقة فعاليتها. ما كانوا يخشونه هو أن تعطي أي حركة موجهة ضد ستالين الاشارة لانفجار استياء شعبي

---

(٥٥) B.O ، العدد ٣٣ .

وتهيىء لثورة مضادة تبتلع ستالين وخصومه البلاشفة في آن معاً . كان ذلك الخوف هاجس تروتسكي أيضاً ، وكان لم يتوصل بعد الى حل للمأزق الذي حاصره بين عامي ١٩٢٠ و ١٩٣٠ : وهو لم يكد يطلق نداءه الدرامي الذي ختمه بكلماته : « تخلصوا من ستالين » ، حتى تراجع جزئياً عما قاله . ففي تشرين الأول/ اوكتوبر١٩٣٢ ، كتب لولده :

« إن شعار «تخلصوا من ستالين» سليم بمعنى خاص ومحدد تماماً ، هو المعنى الذي قصده لينين حين نصح اللجنة المركزية بانتخاب امين عام آخر . ولو كنا اقوياء الآن لما كان ثمة اي خطر في رفع هذا الشعار ، لكن في الوقت الراهن ، سوف يتجاوب ميليوكوف والمناشفة والترميدوريون من كل الأنواع ، مع هذه الصيحة « تخلصوا من ستالين » . ومع ذلك ربما اضطر ستالين ، من الآن لغاية بضعة اشهر ، الى الدفاع عن نفسه في وجه ضغوط ترميدورية ، وكان علينا عندئذ ان ندعمه مؤقتاً . فنحن لم نتجاوز بعد هذه المرحلة . ازاء ذلك ، فان شعار « فليسقط ستالين » ملتبس ، ولا يجب الهتاف به كصيحة حرب في هذا الوقت المحدد(٥٦) » .

في الوقت ذاته ، اعلن تروتسكي في **نشرة المعارضة** : « اذا جرى قلب توازن الاتحاد السوفياتي البيروقراطي ، اي حكم ستالين ، في الوقت الراهن ، فإن قوى الثورة المضادة هي التي ستستفيد من ذلك ، على الأرجح(٥٧) . وبالنسبة للمستائين الستالينيين في موسكو ، ناهيك بالمستسلمين ، كانت هذه التورية تعني نصحهم بألا يطلقوا طلقة واحدة . فإذا كان تروتسكي ذاته يعتقد ان شعار « ليسقط ستالين » خطر للغاية ، فكم كانت تلك الصرخة تظهر لهم اكثر خطورة . وحينئذ ما العمل ؟ « تريدون المضي أبعد على طريقكم مع ستالين ؟ لكن ليس ثمة أبعد ، لقد رمى بكم أيضاً ستالين في مأزق » . هذا ما كان قاله لهم تروتسكي في آذار / مارس ، وكانوا يسمعون الآن انه ليس امامهم كذلك طريق للعودة ، وان كل ما في وسعهم ان يفعلوه هو ان يحاولوا البقاء على قيد الحياة داخل مأزق ، ويأملوا

(٥٦) المحفوظات ، القسم المقفل .

(٥٧) B.O ، المرجع ذاته . من المفيد الاشارة الى أن تروتسكي انساق الى جحد شعار ليسقط ستالين ! تحت تأثير ليوفا جزئياً .

أن يخرجهم الزمنُ وتقدمُ الأمة من هناك . وقد استنتجوا أنه في غضون ذلك ، ينبغي الانحناء أمام المحتوم ، وسوف ينحنون امام ذلك المحتوم طيلة اكثر من عقدين ، اي حتى وفاة ستالين .

كان زينوفييف اوكامينيف قد أخبر تروتسكي في الماضي بأن ستالين سينتقم منه ومن اولاده واحفاده حتى الجيل الثالث والرابع . وهـوذا الانتقام التـوراتي يضرب الآن عائلة تروتسكي . فالمرسوم الذي حرمه من الجنسية السوفياتية ، كان يمنعها كذلك عن اقربائه الذين كانوا يشاركونه النفي ، ويحظر عليهم العودة الى الاتحاد السوفياتي : وقد اصاب ذلك زينا على الفور ، التي وجدت نفسها مقطوعة عن زوجها وطفلها الاصغر ، دون أمل في أن تستطيع لقاءهم فـي يوم من الأيام .

كانت مرت أربعة اشهر على إقامتها في العاصمة الالمانية ، ولقد شغلها في البدء وجه تلك المدينة الجديد كلياً ومأساتها السياسية إلى حد انها بدت كما لو هي استعادت توازنها ، وهو ما أدى الى ارتياح اطبائها . لكن ذلك التحسن كان سطحياً ، ومن الممكن أن تكون ضللت الاطباء مريضة معتزة بنفسها لدرجة لم تكشف لهم معهـا ما في شخصيتهـا من اختلال . فلقـد قاومت بعنـاد عمليات الاستقصاء المستندة الى التحليل النفسي واعترفت فيما بعد ان « الاطباء لم يفعلوا غير بلبلتي ، لكنني بلبلتهم اكثر بكثير أيضاً ، هؤلاء المساكين . . » كانت نوبات التوتر العصبي على حالها ، ولم يتوقف التنازع بين عبادتها لوالدها ونفورها منه . ففي افكارها كما في مراسلاتها ، كانت تعود إلى انفصالهما الأخيـر ، فتبدي امتعاضها من بروده الغريب ، وموقفه المتحفظ وعليائيته الأولمبية، مرددة كلماته : « انت شخص مدهش ، لم أصادف من قبل شخصاً مثلك . . . » . وكانت صرامة تلك الكلمات العصية على الفهم تحفر في نفسها . كانت تتطلع الى اتصال أكثر حرارة عن طريق المراسلة ، لكنه نادراً ما كان يكتب ، وبشكل بالغ الندرة بما يخصها ، وكانت تحسه من خلال تلك الرسائل بارداً وجافاً ، مع ان تلك الرسائل ذاتها كانت تمتلىء بالمراعاة تجاهها .

كانت هنالك أيضاً مسألة خلافها مع ليوفا ، فهي لم تكن تستطيع التفاهم معه ، مع أنه لم يكن ثمة شخص أقرب منه في برلين ، وذلك رغم ان والدهما كان يسألهما دائماً ان يعينا الواحد الآخر في الملمات . وكانت تأخذ أيضاً على ليوفا قلة عطفه ، ومجرد رؤيته كانت تحرك فيها غيرة قاسية . « في كل مرة أراه ـ هكذا

كتبت بعد وصولهـا الى برلين بقليـل ـ اعاني من انهيـار عصبي(٥٨) » . كانت تتحاشى لقاءه ، وهو كان في كل حال مأخوذاً في عمله السياسي ومتابعته للـ Hochschule . حتى نشاطه ، الذي كان ناجماً عن الصلات الوثيقة التي كانت تشده لوالده ، كان يثير غيرتها . كانت تُبرز عن طريق المقارنة سلبيتها وعدم جدواها ، وتحتقر نفسها على انها « زينا التي لا نفع منها » .

زاد الاوكاز Ukaze الذي حرمها من أي أمل في العودة الى روسيا من وحدتها وانعدام أمنها ، وقد نصحها والدها بالاحتجاج لدى السفارة السوفياتيـة بهدوء واتزان . ربما إذا ادركوا في مـوسكو أنهـا غير متـورطة في أي نشـاط سياسي ، وأنها كانت تحاول فقط استعادة صحتها ، يعفونها من مفاعيل هـذا المرسوم (٥٩) . ولا نعرف اذا كانت تبعت نصيحته ، لكنها في كل حال لم تستعد جنسيتها . وفي غضون ذلك ، توصل أطباؤ ها الى استنتاج انها بحاجة ، من أجل الإبلال ، لأن تنضم مجدداً الى عائلتها في روسيا ، وتستأنف في اقرب وقت ممكن حياة طبيعية في بيئتها الخاصة بها ، وهو بالضبط ما كانت تعجز عن القيام به . كانت منفية ومتوحدة في مدينة ضخمة وغريبة ، تشعر بنفسها مفصولة عن نصف عائلتها وتؤاخذ نفسها على كونها تخلت عن النصف الآخر ، وكل ذلك أدى بها الى أن تغدو انهياراتها العصبية ونوبات شرودها الكامل اكثر تواتراً . لم يكن لديها أي خيار ، إذا استثنينا ان تعود رغماً عنها إلى أريكة المحلل النفسي ، التي كانت تنهض عنها لتتأمل الجنون السياسي الهائل الذي كان يستولي على الأمة التي ألقى بها القدر بين ظهرانيها .

إنها تصف في رسائلها بؤس المانيا وهمومها ، ناثرة بين اوصافها ملاحظات سياسية حادة و Galgenhumor لاذعة ، حين كتبت الى والدها للمرة الأولى لتصف له كل الازعاج الذي يسببه لها كونها مقطوعة عن روسيا واقربائها . روت له أيضاً كم أكمدها « الاستفتاء الأحمر » والبلبلة والاحباط السائدان على صعيد الطبقة العاملة الالمانية(٦٠) . تابعت بشغف « الحملة الألمانية » التي شنها تروتسكي ،

---

(٥٨) أنظر مثلاً رسائل زينا وبطاقاتها البريدية الى والدها في ٢٦ شباط / فبراير ، و ٣٠ أيار / مايو و ٧ حزيران / يونيو ١٩٣٢ .

(٥٩) أنظر تراسل تروتسكي مع ولديه ، في آذار /مارس ١٩٣٢ .

(٦٠) أنظر رسالتها المؤرخة في ٢٦ شباط / فبراير ١٩٧٢ .

لكن أفسد الارتياح الذي أشعرها به ذلك إحساسها بأنها مقصاة عن عمله واهتماماته السياسية . « إن التراسل مع پاپا لا يفيد شيئاً ، مع پاپا . . توما هذا الشكّاك ، إنه أكثر فأكثر فوق الغيوم ، في مناطق السياسة العليا ، وأنا لاصقة في المقام الأول في قاذورة التحليل النفسي(٦١) » كانت رؤياها الخاصة للزوبعة السياسية للحقبة تكتسب كثافة أشد في وميض فطنتها وذكائها المختلين . إننا نقع في مراسلاتها على جمل غنية وساخرة. كما لو أنها كتبت بريشة والدها ، تتكرر دون انقطاع كلازمة صورة لبرلين جائعة وسكرى ومسحوقة بضجيج الجزمات الثقيلة ، مفعمة باليأس وعطشى للدم . « تغني برلين طيلة الوقت ، وغالباً ما يبح صوتها من السكر أو من الجوع . . هذه المدينة مرحة ، نعم مرحة جداً . . فكيف جرؤ العجوز كريلوف على القول أنه لا احد يغني ابداً ومعدته فارغة(٦٢) » .

كانت المدينة ذات القدر المثقل تسحرها ، تعلقت بها كما لو كانت جزءاً منها ، ومرت بكل ارتعاشاتها ونوبات حُمّاها . وحين ظهرت من جديد، في بداية حزيران / يونيو١٩٣٢ ، زمر الهجوم الهتلرية ، التي لم ينلها إطلاقاً حظر برونـنغ ، حين ظهرت في شغبها المظفر ، حثها ليوفا على مغادرة برلين الى فيينا ، وعلى ان تواصل هناك علاجها النفسي في جو اكثر هدوءا. لما كانت الشرطة تضايقه ، هو نفسه ، كان يخشى أن تضايقها هي أيضاً ، إلا أنها اخذت النصيحة على محمل سيىء، ورفضت كل مخاوفه وتذمرت في رسائلها الى برنكيبو من ان ليوفا يتصرف كوصي عليها ويسيء معاملتها : وحين أيد والدها نصيحة ليوفا ، اجابته بلهجة غريبة لشدة ما يلازمها من احترام أنها لا تجروء حتى على الاحتجاج . لكنها اصرت عندئذ على التعلق الذي تشعر به حيال برلين ، ورفضت ان تتزحزح . حتى قلق والدها وأخيها كان يذلها ، ألم يردد والدها غالباً أن مصير اوروبا ، وحتى مصير البشرية ، في العقود الآتية يقرر في برلين ؟ ألم يكن ذلك هو السبب وراء تمنيه أن يتواجد ليوفا هناك ؟ ألم يرفض تروتسكياً المانياً كسكرتير ، معلناً أن من العار في هكذا لحظة ان يكون أحد اتباعه غائباً عن ساحة المعركة ؟ إذاً . . . لماذا يُطلب منها ان تغادر ؟ . كانت تحس بنفسها منبوذة ومهانة(٦٣) .

---

(٦١) رسالة مؤرخة في ٣٠ أيار / مايو .

(٦٢) رسالتان مؤرختان في ٧ حزيران / يونيو و ٧ آب / أغسطس ١٩٣٢ .

(٦٣) المرجع ذاته .

لما كانت الوحدة تطحنها اكثر فأكثر ، طلب الاطباء استقدام الطفل الذي تركته في برنكيبو ، على الاقل ، بهدف ان يشغلها ويعطيها بعض المسؤوليات لكن الولد كان مشمولاً أيضاً بآثار المرسوم الصادر في ٢٠ شباط / فبراير . ففي سن السادسة ، كان سيفا مهاجراً سياسياً من دون وطن ، مسجلاً هكذا رسمياً ، مُشْكلة بالنسبة لأولئك الذين يمنحون في القنصليات التصريحات بالسفر والتأشيرات . وقد جرى رفض الطلبات ، بحجة انه لا يمكنه السفرالا بصحبة أحد ابويه أو جديه . وكان الولد متأثراً جدياً لغياب والدته وبرسائلها التي تتوسل اليه فيها ان لا ينساها وتعده بأنها ستعود قريباً . كان من الصعب دائماً إقناعها بعدم إرسال رسائل كهذه ، وكان انتظار اللقاء مجدداً والقلق المصاحب لذلك الانتظار يشدان الآن اعصاب الطفل واعصاب العائلة بكاملها .

في حالة الشدة التي كانت تعيشها زينا ، غدت أقل فأقل قدرة على العناية بنفسها ، وحتى على استخدام مخصَّصها الشهري استخداماً عاقلاً . كانت تأخذ على نفسها كونها عبئاً على والدها ، وقد مضت تقيم في نزل من الدرجة الدنيا حيث عاشت بين متشردين وأنذال كانت تضطر غالباً للتدخل بينهم لفصل الواحد عن الآخر حين كانوا يتشابكون . وكل المحاولات التي بذلها اخوها وحتى والدها لانقاذها من ذلك الوضع ، وللاهتمام من أجلها بتلك المسائل المالية ، حركت مجدداً نفورها وتسببت بنوبات عصبية . وقد كتبت لوالدها ، بعد انهيار عصبي ، بطاقة بريدية تلومه فيها معتبرة إياه مسؤولا عن النوبة ، وطالبة منه أن يتركها وشأنها(٦٤) .

عكرت آلام زينا ، والهموم التي سببتها لتروتسكي ، علاقاته أحياناً بليوفا ، الذي كان يريد منه أن يبدي المزيد من الصبر والعطف تجاه زينا . إلا أن ثقته بليوفا وانشداده إليه اصبحا اشد فأشد قوة وأكثر فأكثر قابلية للعطب . كان يكيل له المديح على الطريقة التي كان يهتم بهابالـBulletin وبالعمل السياسي ، واستمر في جعله مستودع افكاره ، وفي استشارته او مطالبته بصياغة انتقاداته . كان متأثراً بتفاني ليوفا وإخلاصه ، وهما تفان واخلاص كان لديه الف إثبات عليهما ، لكنه كان مستمراً في اخذه على ليوفا فرط وساوسه بخصوص الحسابات ، وكذلك كونه ينفق مخصصه على الـBulletin(٦٥) إلا أنه كان يعود فيشتبه باستمرار ان الاتفاق

(٦٤) من زينا الى تروتسكي ، في ٥ و ٢٤ تشرين الأول / اوكتوبر ١٩٣٢ .
(٦٥) أنظر مثلاً رسالة تروتسكي المؤرخة في ١١ أيار / ١٩٣٢ .

في وجهات نظرهما وافكارهما ليس مصدره الا ورع ليوفا البنوي ، ذلك الورع البنوي الذي كان يجده مشجعاً جداً ومثيراً جداً للسخط .وكلما زاد التعب والتوتر كلما اتخذت متطلباتـه من ولده طابعاً ملزماً وحتى نزوياً بعض الأحيان. وقد لاحظت ناتاليا أن وحدته وانعزاله كانا يظهران في انعدام الصبر الذي كان ينتظر به رسائل ليوفا . فحين لم يكن ثمة بريد من برلين لعدة ايام ، كان ينفجر من الغضب متهماً ليوفا باللامبالاة ، لا بل متوصلاً إلى شتمه ، ثم يغضب على نفسه ويمتلىء شفقة على ابنه ، فيصبح اكثر قابلية للاثارة ايضاً(٦٦).

وكانت حصة ليوفامن المشاكل الشخصية ثقيلة أيضاً بما فيه الكفاية. فمن موسكو ، كتبت زوجه رسائل مدمية للفؤاد حول حياتهما المحطمة ، وحول واقع ان ولدهما تعيس بائس . ذكرّتـه بأنـه رحل الى الخـارج ، رغم احتجاجـاتها ودموعها ، كي يكون مع أهله ويحمي والده ، والآن لم يكن لا مع اهله ولا مع زوجه وولده . لم يكن من المجدي ان يشرح لها ما عساه يكون مصيره لو هو بقي في روسيا، فلقد كانت عاملة بسيطة ، مريضة وفقيرة ، وغارقة في اليأس ، وكانت تهدد بالانتحار(٦٧) . لم يكن في وسعه ان يفعل شيئاً لإثلاج صدرها في تلك المحنة ، إذا استثنينا إرسال المال اليها. ولم تكن علاقته بجان مولينييه اكثر نجاحاً . ولم يكنْ يسمح له بالتخلص من همومه ومن احباطاته الشخصية غير اخلاصه لقضية والده . هكـذا من دون ان ينحني لحظة واحـدة ، كان ينفـذ التعليمات التي لا تنتهي الواردة من برنكيبو ، ويبقي الاتصال بكل مجموعات التـروتسكيين المشتتـة ، ويـلاحق الـطابعين الروس كي تصدر الـ Bulletin في موعدها ، ويحرص على ان تترجم كراسات والده ، التي تتناول قضايا الساعة ، سريعاً الى الالمانية وتنشر ، ويساوم النـاشرين ، ويتشـرد ساعـات في شوارع برلين ، وهو يتضورجوعاً في اغلب الأحيان ، على امل مصادفة مواطن له يقوم بمهمة في الخارج ، او سائح غربي في طريقه الى روسيا ، بهدف ان يحصل منه على خبر او يرسل معه رسالة. بالاضافة الى ذلك ، كان مستمراً في متابعة دروس الرياضيات والفيزيـاء، وفي ساعـات الليل القليلة كـان يحادث والـديه

---

(٦٦) يستند هذا الوصف الى مراسلات ناتاليا ، ولا سيما رسالتها الى ليوفا في ٢٧ تموز / يوليو ١٩٣٢ ، القسم المقفل من المحفوظات .

(٦٧) الرسالة المتضمنة هذا التهديد موجودة بين رسائل العائلة في القسم المقفل من المخطوطات .

بالمراسلة . وما كان شيء يجعله اكثر تعاسة من المزاج السيىء لوالده ، او كل ما يجعله يفهم ان جهوده ليست على مستوى ما ينتظر منه . كان يستصعب تبديد الاستياء الابوي ، وتبرير سلوكه ، وطلب توضيح او اعتذار . كانت والدته وحدها من يشتكي إليه ويوجِّه المآخذ .

كانت ناتاليا ، سريعة العطب والمتألمة ، المتورطة في التشوش الخطير لانفعالات زينا والممزقة أحياناً بين الابن والوالد ، تبذل كل ما في وسعها . كان لديها ما يكفي من الفطنة لتفهم بوضوح إلى أي حد كان قدر كل واحد صعباً ، وما يكفي من المحبة للتعاطف مع كل منهم ، وما يكفي من قوة النفس لمحاولة مساعدتهم جميعاً. كانت تشرح لليوفا في رسائلها مشكلة زينا ، ولا تنفك تخبر ليوفا وزينا في اي توتر لا يُحتمل كان يعيش والدهما ، لأنه كان عليه دائماً ان يواجه ببطولة عالماً معادياً . ومذاك ، هل ينبغي ان ندهش إذا انكسرت ، بين الحين والآخر ، قدرتها على التحمل ؟ كتبت تقول : « كما تعلم ، فإن مصاعب والدك ليست أبداً بمواجهة القضايا الجسام ، بل مع الأمور التوافه » . فإزاء المشكلات الكبرى ، كان صبره لا متناهياً ، لكن تفاصيل تافهة كانت تثير عصبيته ، لا بل تجعله بالغ الحساسية . وكانت ناتاليا تتوسل لليوفا وزينا ألا ينسيا بسبب ذلك المحبة العميقة والمحمومة التي يكنها لهما ، او يشكّا في ذلك . كتبت لليوفا راجية إياه ان يكتب اكثر الى والده وان يكتب رسالة متوقدة ، وان يكون كذلك أكثر حرارة ومراعاة مع زينا . كتبت تقول : « إن ألمك هو ألمنا نحن الثلاثة جميعاً » . إلا أن الضربات كانت أحياناً بالغة القسوة ، حتى بالنسبة لقوة النفس اليقظة لدى ناتاليا . « ما العمل ، لا يمكن عمل شيء . . . » ، ليس من النادر أن نصادف هذه الكلمات المستسلمة في رسائلها لليوفا ، « اكتب اليك كما أنت ، بمشاعر مغلقة وعينين مغلقتين[٦٨] » .

كل ذلك كان يحدث في نهاية صيف ١٩٣٢ ، وكان قد مر ثلاثة اعوام ونصف على وصول تروتسكي إلى برنكيبو . وخلال كل تلك الفترة ، كان قد اشتغل بقساوة ، مواصلاً الانشغال بموضوعات متنوعة كانت تهمه ، غير مهمل ايا من مراسليه ، مالئاً صفحات الـ Bulletin وكاتباً ، بالاضافة الى دزينة من الكتب

(٦٨) الكثير من رسائل ناتاليا غير مؤرخة .

والكراسات ذات الأهمية الضئيلة ، **حياتي** والاجزاء الثلاثة الضخمة من **تاريخ الثورة الروسية** (كان قد ارسل الملحق الأخير ، الذي يختم الجزء الثالث ، الى الكسندرا رام في **٢٩** حزيران / يونيو) . كانت تلك السنوات سنوات عمل عجيب ، وذلك لا سيما أن تروتسكي ، الرافض اي نوع من الكتابة السهلة ، كان قد اعاد مراراً كتابة كل فصل تقريباً في كل كتبه ، منكباً بصبر العبيد على كل صفحة وعلى كل جملة تقريباً .

هذا الجهد العظيم كان قد أتعبه ، وكان رأسه ممتلئاً بخطط ادبية جديدة . كان ينوي كتابة **تاريخ للحرب الأهلية** ، وسيرة عن **حياة لينين** ، **وسيرة مشتركة لماركس وانجلز** ، وكتب اخرى أيضاً . لكن الظروف لم تكن مناسبة لانصرافه لعمل بتلك الضخامة ، وكان يحتاج الى الراحة ، وكان انزواؤه في برنكيبو يجعله نافد الصبر اكثر من أي شيء آخر(٦٩) . وكانت الاحداث السياسية تقض مضجعه ، والنزر اليسير من الانباء الواردة من روسيا كان كافياً لإغاظته . وفي المانيا ، كان الشيوعيون والاشتراكيون يواصلون السير على الطريق ذاتها التي تقودهم الى الهاوية . ولم تكن حملته تحدث أي أثر ، فقوة المجموعة التروتسكية هناك كانت **تافهة** . كانت هنالك مصاعب وشيكة في المنظمة الأممية للمعارضة : ففي أمانة سره ببرلين ، كان الاخوان سوبوليفيسيوس ، اللذان سانداه حتى تاريخ قريب في مساجلته ضد اللينينبوند اليساري المتطرف ، يتبنيان الآن موقفاً توفيقياً مقلقاً حيال الستالينية . أوه ، لو كان في وسعه أن يفر من تلك الجزيرة المسحورة والملعونة ويتقرب أكثر من التيارات الرئيسية للحياة السياسية والحضارة !

في بداية الخريف ، دعاه الطلاب الاشتراكيون ـ الديمقراطيون الدانمركيون للمجيء الى كوبنهاغن وإلقاء محاضرة عن الذكرى الخامسة عشرة لثورة اوكتوبر . كان قد تلقى عدداً كبيراً من الدعوات المماثلة من قبل . لكن لم تتح له ادنى فرصة للظهور امام الجمهور في اي من بلدان أوروبا(٧٠) . كان يشك جداً في ان تعطيه الحكومة الاشتراكية ـ الديمقراطية تأشيرة ، لكنه قبل الدعوة في هذه

---

(٦٩) خلال السنوات التي أمضاها تروتسكي في برنكيبو ، لم يذهب الى اسطمبول الا مرة أو مرتين لزيارة كنيسة القديسة صوفيا ، ولعيادة طبيب الأسنان .

(٧٠) interalia ، كانت مجموعة من طلاب ايدنبورغ طلبت منه الاذن بتقديم ترشيحه لانتخابات رئيس الجامعة . وقد رفض هذا الشرف بتهذيب . أنظر المحفوظات .

المرة . وحين استلم التأشيره ، اعلن فوراً عن استعداده للسفر . كان في اعماقه الأمل الغامض بألا يحتاج ربما للعودة مع انه استحصل من قبيل الاحتراس ، على تأشيرة دخول تركية جديدة . وكان هو وناتاليا ، يأملان أيضاً أن يتمكنا من اصطحاب سيڤا الى كوبنهاغن وارساله من هناك الى زينا ، لكنهما لم يستطيعا الحصول للطفل على تصريح بالانتقال، واضطرا لتركه في برنكيبو في رعاية أحد السكريتيرين .

في ١٤ تشرين الثاني نوفمبر ، ابحر تروتسكي من القسطنطينية بصحبة ناتاليا وثلاثة سكريتيرين . سجل نفسه باسم السيد سيدوف ، مسافر من دون وطن ، لكنَّ تَخَفِّيه لم يكن كافياً لحمايته من فضول الجمهور . كان فقط يجعل هالة الغموض والفضيحة التي تحيط به اشد كثافة. نشرت البرافدا في معرض توسعها بعبارة برنارد شو ، ملاحظات ساخرة حول الاسد الذي أفلت من قفصه ، وكانت تلك السخرية تكشف من دون علم اصحابها العصبية التي كانت الحكومات ، وقيادات الشرطة ، والصحافة في العديد من البلدان ، تنظر بها الى تلك الرحلة . ما كانت رحلته اثارت ارتجاجاً اكبر لو انه انتقل عبر اوروبا كقائد مؤامرة حقيقية وقديرة ، ولو هتفت له حشود من الانصار ، بينما كان يسافر كمنبوذ محروم من حماية أية حكومة يصحبه فقط امرأة مسنة ومتألمة وبضعة شبان مخلصين له ، واكثر من ذلك ، كان هدفه الوحيد القاء محاضرة . كانت تسبقه الاشاعات الاشد جنوناً . كانت الصحف تنصرف لشتى انواع المراهنات على الهدف الحقيقي من وراء رحلته ، ولا تشك لحظة في ان المحاضرة محض ذريعة . كان بعضها يعلن انه سيلتقي سراً رسولاً لستالين في مكان ما من اوروبا ، والبعض الآخر انه على وشك حوك مؤامرة نهائية ضد ستالين . وفي موانىء التوقف اليونانية والايطالية حاصره المراسلون ورفض الكلام اليهم. لم يحصل على التصريح له بزيارة أثينا. وفي نابلولي غادر المركب تخفره الشرطة فزار اطلال بومبي Pompéi . أما الفرنسيون فمنعوه من النزول في مارسيليا . تلقى الأمر من شرطتهم ، وهو في أعالي البحار ، بالنزول الى مركب صغير بمحرك انزله على رصيف صغير مهجور ، خارج مارسيليا . وقد اضطر الى عبور فرنسا بسرعة ، في سيارة او في القطار ، ولم يسمح له بالتوقف في باريس اكثر من ساعة ، بحيث لم يستطع مخبرو الصحف ، الذين كانوا يطاردونه من مارسيليا ، ان يقعوا مجدداً على أثر له إلا في دنكرك في اللحظة التي كان يبحر فيها الى الدانمرك . وقد لاحقته أيضاً لعنة

صحف اليمين الفرنسي على امتداد فرنسا كلها . كانت مقالاتها الاساسية تفيض بالغضب والجنون إزاء فكرة ان خائن برست ليتوفسك ، الرجل الذي سرق مدخرات أرامل اصحاب الريع الفرنسيين وايتامهم، قد سُمح له بالنزول على أرض فرنسا . وقد حاول تهدئة ذلك الهياج البالغ بأن اكد للمخبرين الصحفيين ان الامر يتعلق برحلة خاصة بوجه الحصر ، خالية من أي معنى سياسي[٧١] .

في ٢٣ تشرين الثاني / نوفمبر وصل الى الدانمرك ، وتلقى الأمر بالنزول في ايسبجارغ ، بهدف « التمكن من ادخاله الى كوبنهاغن عبر باب سري » حسب تعبير Politiken . كان حشد من الشيوعيين قدجاء للصياح والصفير ،لكن استناداً الى الصحيفة ذاتها « حين ظهر تروتسكي ، ساد صمت عميق سببه معنى الشخصية التاريخية وربما ظرف تاريخي[٧٢] ». لاحظ مخبرو الصحف « الهدوء التام » من جانب تروتسكي ، وعصبية سكرتيريه ومنظمي الرحلة . لم يكد يدخل كوبنهاغن حتى ندد أحد افراد العائلة المالكة ، الامير آج ، بقاتل عائلة القيصر ، وتجاوب قسم من الصحف مع هذا التشهير. لم يكن البلاط الدانمركي قد نسي أن والدة آخر قيصر كانت اميرة دانمركية . في الوقت ذاته ، أبلغ السفير السوفياتي عما تسببه له تلك الزيارة من قلق. اما الاشتراكيون ـ الديمقراطيون فاستقبلوا تروتسكي بحرارة ، لكن هذه الحرارة لم تدم . ولما كانت العائلة الملكية والسفارة السوفياتية تواصلان التعبير عن استيائهما ، شرع الوزراء الاشتراكيون ، شديدو الإرباك ، ينتظرون رحيلاً مبكراً بفارغ الصبر .

بذل تروتسكي جهده كي لا يلاحظه الجمهور : مضى يقيم في مكان غريب ، وبالتحديد في فيلا استأجرها ريمون مولينييه من راقصة مشهورة ، كانت في جولة لها . كانت الغرف محشوة بالتفاهات ، والجدران مغطاة برسوم مغرية للمضيفة الغائبة. في ذلك الحين كشفت صحيفة مَبيت تروتسكي بان نشرت صورة فوتوغرافية للفيلا . وللحال انتقل هو وصحبه الى نزل في الضاحية . وقد حدثت حوادث صغيرة متنوعة . اختفت سيارة مولينييه ، التي كان تروتسكي يستخدمها، بصورة غامضة ، وبعد ذلك بساعات اعادتها الشرطة دون اي توضيح ، واخذت . . بصمات اصابع المالك ، وراجت شائعات تقول ان اعداء

---

(٧١) أنظر تصريحات الصحف الفرنسية في ٢١ ـ ٢٢ نوفمبر ١٩٣٢ ـ المحفوظات .

تروتسكي يستعدون لافساد لقاء كان تروتسكي سيلقي خلاله محاضرة . ظل تحت حراسة الشرطة ، وحماية اتباعه ، طيلة الوقت ، ولم يخرج الا مرة او مرتين للقيام بجولة في المدينة بالسيارة .

القيت المحاضرة من دون تشويش ولا عوائق . طيلة ساعتين ، تحدث بالالمانية امام جمهور من حوالى ألفي شخص ، وكان موضوع محاضرته : « الثورة الروسية » . ولما كانت السلطات سمحت بالمحاضرة شرط تحاشي المساجلات ، تكلم تقريباً على طريقة أستاذ محاضر ، مقدماً للسامعين زبدة الاجزاء الثلاثة من **تاريخ الثورة الروسية** ، الذي كان أنجزه لتوه . الا ان رزانته لم تخف مع ذلك عمق قناعته وقوتها ، وقد شكلت تلك الكلمة تبريراً فعالاً لثورة اوكتوبر ، لا سيما انها كانت بعيدة عن كل دفاع عقائدي ، وتعترف بصراحة بالاخطاء والاخفاقات الجزئية . وبعد اقل بقليل من ربع قرن ، كان الذين سمعوا تلك المحاضرة ولا يزالون يذكرونها ، مستمرين في التقدير الشديد لها ، كعمل بطولي خطابي[٧٣] . وقد كانت تلك هي المرة الأخيرة التي يخاطب فيها تروتسكي شخصياً حضوراً حاشداً .

بين نشاطاته الأخرى في كوبنهاغن ، يمكن التنويه بالمقابلات معه وبحديث إذاعي بالانكليزية موجه للولايات المتحدة . اعلن خلال ذلك الحديث : « إن انكليزيتي ، انكليزيتي التعيسة ، ليست اطلاقاً على مستوى اعجابي بالثقافة « الانكلو-سكسونية» . وفي وجه اولئك االذين توقفوا عند بعض الانكفاءات التي عرفها مسار الاشياء في الاتحاد السوفياتي (وعند مصيره الشخصي) ، لينكروا مبرر وجود ثورة اوكتوبر ، بيّن ان « ثمة حاجة الى النظرة المستقبلية ، في النقد كما في النشاط الخلاق » . فالسنوات الخمس عشرة المنصرمة منذ ثورة اوكتوبر ليست غير « دقيقة في ساعة التاريخ » . ان الحرب الأهلية الاميركية ، هي ايضاً ، كانت قد شككت معاصريها ، ومع ذلك « فالولايات المتحدة الحالية خرجت من الحرب الأهلية ، بمبادرتها العملية غير المحدودة ، وتقنيتها المعقلنة ، وانطلاقتها الاقتصادية ، وهذه الفتوحات . . . ستكون عناصر مكونة في اساس المجتمع

---

(٧٢) **Politiken** ، ٢٤ نوفمبر ١٩٣٢ . انظر ايضاً **Berlingsketidende** و **Information** ، اليوم ذاته .

(٧٣) في عام ١٩٥٦ ، ألقيت محاضرة في كوبنهاغن ، وقد جاء عدد كبير من الناس ، الذين سبق أن استمعوا لمحاضرة تروتسكي ، فحدثوني عن ذلك اللقاء الذي لا يُنسى ، الذي تم في عام ١٩٣٢ .

الجديد[٧٤] » . وقد أعلن لصحافيين اميركيين اجروا مقابلة معه انه إذا كان الجمود الاقتصادي لعام ١٩٢٩ قد اصاب بلادهم بشدة، فإن وضع الولايات المتحدة مقارناً بسائر العالم الرأسمالي قد تعزز رغم كل شيء . وصرح لمخبري صحف فرنسية أنه لا يرفض ابداً التعاون مع ستالين إذا كان الدفاع عن الاتحاد السوفياتي يجعل ذلك ضرورياً La Politique ne connait ni ressentiment personnel .ni esprit de vengeance , La politique ne connait que L'efficacité[٧٥] .

بعد سنوات أربع ، وخلال التطهيرات الكبرى ، وبتحديد اكثر خلال محاكمات زينوفييف وكامينييف وآخرين ، أسند الاتهام الجزء الأساسي من حججه ضد تروتسكي والمتهمين الى مزاعم تقول انه ، من كوبنهاغن وخلال ذلك الاسبوع الأخير من عام ١٩٣٢، سحب خيوط مؤامرة ضخمة وأمر المنضمين الى حركته باغتيال ستالين ، وفوروشيلوف واعضاء آخرين في المكتب السياسي ، وبتخريب الصناعة ، وتسميم مجموعات من الشغيلة الروس ، وبتهديم قوة البلد العسكرية والاقتصادية بهدف اعادة الرأسمالية . ووفقاً للمدعي العام ، فيشنسكي ، استقبل تروتسكي في كوبنهاغن ، بحضور ابنه ، كلا من غولزمان وفريتز دافيد وبرمان يورين ، وكانوا رجالاً ثلاثة جالسين على مقعد الاتهام بجانب زينو فييف وكامينيف ، بعث بأوامره عن طريقهم . ولا حاجة هنا للتكرار المفصل لتلك الاتهامات ، ولاعترافات المتهمين التي جاءت تدعم هذه الاتهامات ذاتها . إن من خلفوا ستالين ، وظلوا يرددون تلك الاتهامات طوال عشرين عاماً ، لم يعودوا يفعلون ذلك اليوم . ففي المؤتمرين العشرين والثاني والعشرين للحزب الشيوعي السوفياتي ، وصف خروتشوف، الذي بقي شبح تروتسكي هاجساً لديه ، طريقة اختلاق تلك الحجج ، وكيفية انتاج اعترافات من ذلك النوع . لكن قبل ذلك بكثير ، وخلال المحاكمات بالذات ، كان تروتسكي قد فنَّد ملف الاتهام فاضحاً ما فيه من هذيان وتناقضات . ففندق بريستول مثلاً، الذي لم يتبصر فيشنسكي فوصفه بأنه مقر قيادة تروتسكي في كوبنهاغن كان قد زال من الوجود قبل عام ١٩٣٢ ، اذ جرى هدمه قبل سنوات عديدة . وليوفا الذي صوره

---

(٧٤) اعطى هذا التصريح لـ Columbia Broadcasting . وقد رفضت الاذاعة الدانمركية بث محاضرته . المحفوظات .

(٧٥) المرجع ذاته ، بالفرنسية في النص الانكليزي الأصلي ، وتعني : السياسة لا تعرف حقداً شخصياً ، ولا روح انتقام ، السياسة لا تعرف غير الفعالية (م) .

فيشنسكي في دور رئيس اركان قائد الارهابيين ، في كوبنهاغن ، لم يكن مع والده في العاصمة الدانمركية . وقد تمكن تروتسكي من اعادة تكوين اصغر حدث في رحلته الى الدانمرك ، انطلاقاً من تقاريره المنهجية الى حد الحذلقة ، ومن إيراد العديد من شهود العيان لصالحه(٧٦) .

كان المحيطون به في الدانمرك اكبر عدداً من المعتاد . فبالاضافة لأمناء السر الثلاثة الذين رافقوه في رحلته ، كان قد وصل ٢٥ من اتباعه ، فرنسيين والماناً وايطاليين ومن جنسيات اخرى ، وبينهم مولينييه وناڤيل وسنيفلييت وجيرار روزنتال ، محامي تروتسكي الفرنسي . وكان جَمْعٌ من طلاب هامبورغ اتوا للقائه ليؤمنوا حراسته ، وكان بين الزائرين الآخرين أوسكار كوهن ، المحامي الالماني المرموق الذي كان شريك كارل ليبكنخت ومحامي تروتسكي في المانيا . ان حضور هذا العدد من الأنصار اعطى تروتسكي فرصة عقد مؤتمر تداولي اممي مرتجل نوقش خلاله الوضع في المانيا وشؤون مختلف المجموعات التروتسكية . لم يكن شيء يشبه اجتماع متآمرين اقل من تلك الجمعية الصغيرة من النصراء المتحمسين المنتمين لبدعة فاقدة للفعالية ، المتوقدين كلهم انفعالاً وبالأحرى الثرثارين . صرح احد المشاركين ، وكان بريطانياً : « كان الجميع يتكلمون بلا توقف ، باستثناء تروتسكي الذي كان منكباً طيلة الوقت تقريباً على العمل في غرفته ، إما كاتباً او مملياً(٧٧) . » وبعد ذلك بخمس سنوات كان كل من الحاضرين - اذا لم يكن في سجن نازي او في معسكر اعتقال - سيشهد على ان أياً من الرجال الذين ، وفقاً لفيشنسكي ، تلقوا اوامر تروتسكي في كوبنهاغن ، لم يكن هناك وما كان بإمكانه ان يتسلل دون ان يُرى بين الحراس الكثيرين . ان الرجل الوحيد الذي استقبله تروتسكي ، وكانت له علاقات بروسيا ، كان سينين سوبوليفيسيوس . وكان قد جاء ليبرىء نفسه من شبهة العمل للمخابرات الستالينية ، وأمضى ساعة او اثنتين مع تروتسكي الذي لم يعامله كعميل استفزازي بل كمعارض سياسي . وفي المراسلة بين الرجلين ، كان سوبوليفيسيوس انتقد تروتسكي بصراحة ، وبصورة سليمة جزئياً ، لأنه بخس قدر انجازات ستالين

---

(٧٦) The case of Leon trotsky ، ص ١٣٥ - ١٧٣ . انظر ايضاً المحفوظات القسم المقفل .

(٧٧) كان المشارك البريطاني الذي أدين له بتلك الانطباعات هو هاري ويكس . وقد حاول نقل كتابات تروتسكي في الاتحاد السوفياتي بواسطة بحارة روس يتوقفون في الموانىء البريطانية ، وذلك بموجب رسالة من تروتسكي تسمح له بذلك .

الصناعيــة والاثر الدائم للتجميع . وقد انتهى لقاؤهما في كوبنهاغن ، بمقدار ما يسعنا ان نحكم انطلاقـاً من الرسـائل التي تلت ذلـك اللقاء ، بتسـوية عـامة للخلافات . في كل حال ، لم يأت سوبوليفيسيوس ليشهد في اي من محاكمات موسكو ، ومن البديهي انه لم يقدم شيئاً لتلك المحاكمات لانه لو فعل ذلك لكان اعطى للاتهام وصفاً لجو تروتسكي في كوبنهاغن اكثر واقعية بكثير من ذلك الذي قدمه فيشنسكي .

هكذا كانت إقامة تروتسكي في الدانمرك قليلة الاحداث ، فبعد محاضرته العلنية ، لم يتكلم الا مرة واحدة الى مجموعة صغيرة من الطلاب الـدانمركيين الذين دعوه ، وينقل مضيفه هذا الحادث المثير :

« كان تروتسكي وخمسة او ستة آخرون لدي ، حين تلقيت فجأة هاتفاً من صديق اخبرني ان صحيفة قد صدرت ناشرة برقية تقول إن زينوفييف قد مات . وقد نهض تروتسكي ، عميق التأثر وقال : لقـد ناضلت ضد زينوفييف . كانت هناك وحدة مـوقف بيننا بصـدد بعض المسائل . اني اعرف اخطاءه ، لكن في هذه اللحظة بالذات لا اريد التفكير فيها، اريد ان افكر فقط في انه حاول دائماً العمل لاجل الحركة العمالية . . واستمر تروتسكي يمتدح بجمل بليغة ذكرى خصمه ورفيق معركته الميت . كان شديد التأثير ان يكون المرء ضمن تلك المجموعة الصغيرة ويستمع الى حديثه الاحتفالي(٧٨)» .

ما من اجنبي ، ولا حتى اصدقاء تروتسكي وأمناء سره ، ادركوا عمق الالم والاحباط اللذين عانى منهما فيكوبنهاغن .فلقد كان ممضاً بالنسبة اليه الى حد بعيـد ان يجتاز كـل اوروبا وسط ذلـك الهرج والمـرج المعادي (ووسط أي احتياطات !) ، كي يلقي فقط محاضرة في الدانمرك ، ثم ان يضطر للعودة الى برنكيبو . بذل جهوداً تدعو للرثاء كي يؤخرعودته ، اذا لم يكن لعدم العودة . وفي حضور الصحفيين الاميركيين ، صدرت عنه هذه الملاحظةالمتأمّلة بأنه كان بوده لو « يستطيع ان يتأمل للحظةٍ البانوراما العالمية من نيويورك . سيكون ذلك كمـا لو عانق المرء الافق بكامله من اعالي ناطحة سحاب،وانا أسألكم هل هو حلم طوباوي التفكير بانني قد اتمكن من العمل شهراً أو شهرين في احدى المكتبات الاميركية

(٧٨) The Case of L. Trotsky ، ص ١٧٤ . في الغد جرى تكذيب الاشاعة عن وفاة زينوفييف .

الكبرى؟ لن يكون المثل الذي اعطته الحكومة الاميركية ضائعاً، حسبما آمل، بالنسبة للبلدان الأخرى[٧٩]». إلا ان هذا المثل كان بعيداً عن ان يكونموجِبَ العبرة: فلقد رفضت حكومة الدانمرك أن تمنحه اي نوع من اللجوء، حتى قصير الأمد. عبثاً خاطب اوسكار كوهن نخوة ستوننغ، الوزير الاول الاشتراكي، صديقه الشخصي، عبثاً التمس تروتسكي بالذات من ستوننغ تمديدا للتأشيرة لمدة ١٥ يوماً فقط، كي يتمكن هو وامرأته من الخضوع لعلاج طبي في كوبنهاغن. وعبثاً أيضاً طلب تأشيرة سويدية: فقد تم رفض إعطائه تلك التأشيرة، بحجة أن السفير السوفياتي، الذي لم يكن غير الكسندرا كولونتاي، الزعيمة السابقة للمعارضة العمالية، قدم اعتراضاً عل ذلك.

لكن ما كان يضغط عليه اكثر من العداء الشرس الذي اصطدم به من جديد، إنما هو القلق الذي كانت تسببه له زينا: فصحتها كانت تسير من سيىء إلى أسوأ. ومن المرجح ان تروتسكي تلقى تلك الرسالة اللاهبة التي تدوي كوداع اتهامي، خلال رحلته الى الدانمرك. كتبت تقول له: «إنك تتصرف.. بنفاد صبر شديد، وأحياناً بصورة متهورة. هل تعرف معنى شيء معقد قدر ما هي الغريزة، ومع ذلك بدائي بقدر ما هي بدائية، شيء لا ينبغي المزاح معه... من قال إن الغريزة عمياء؟ هذا غير صحيح، فللغريزة عينان حادتان بشكل مذهل تريان في الظلمة، و... تتغلبان على المسافة والزمن، وليس للاشيء ان الغريزة هي ذاكرة الاجيال وتبتدىء حيث تبتدىء الحياة، يمكنها أن تتجه نحو كل أنواع المقاصد، وما يرعب هو انها تضربب‌شكل لا يخطىء ولا يرحم اولئكالذين في طريقها». وتوسعت حول «الهواجس»، وحول «الاوهام الشكاكة»، وحول «الحساسية المشحوذة بصورة رهيبة»، التي تؤلف الغريزة. وواصلت تقول: «لا ترتعب اذا قلت لك انه جاء وقت احسست فيه بشيء من هذا القبيل يلامسني، لكنني انخرطت في الكفاح بجنون مريع ولم يساعدني احد. لم يفعل الأطباء غير بلبلتي.. وهل تعرف ما الذي ساعدني؟ **الايمان بك**، رغم كل ما كان بالغ الوضوح، بالغ البداهة، رغم كل شيء... أو ليست تلك هي الغريزة؟[٨٠]».

---

(٧٩) استناداً لتصريح الى الصحفيين الأميركيين. المحفوظات.

(٨٠) هذه الرسالة غير مؤرخة، لكن ثمة اثباتات ملازمة كما جاء فيها تشير الى أنها كتبت في تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٣٢.

كـان ليوفـا يستعد للمجيء الى كـوبنهـاغن ، بهـدف استشـارة والـديه بصددزينا ، لكن صعوبات لا يمكن تجاوزها تتعلق بجواز السفر والتأشيرة ابقته في برلين في غضون ذلك ،ظل يبعث رسائل مقلقة جداً حول سلوك زينا . كانت نفسها اكثر فأكثر ضياعاً وتبلبلاً ، وقد تكون عاجزة عن الاهتمام بسيفا إذا أرسلاه اليها . اضف الى ذلك انها كانت اقل فأقل قدرة على الاهتمام بنفسها ، وكانت تحليلاتها السياسية الغريبة تضايقه ، فلقد اتصلت ، كما يبدو بالحزب الشيوعي الالماني ، لكنه كان يخشى ان تعرض نفسها لاضطهاد الشرطة . قالت له في الايام التي تلت استقالة پاپن: « الا ترى ، الا ترى ان المانيا تسير مباشرة باتجاه ثورة شيوعية (٨١) » . نصح والديه ببذل كل ما في وسعهما لارسالها الى النمسا . ويوماً بعد يوم ، واحيانا مرتين يومياً ، كان تروتسكي ، أو ناتاليا ، يتحدث هاتفياً بقلق شديد مع ليوفا ، طالباً منه دائماً المزيد من الاخبار ، مبدياً قلقه لمعرفة ما إذا كان الأطباء ، بدورهم، يعتبرون ان ثمة خطراً في أن تترك لزينا العناية بولدها ، وحاثاً ليوفا على المجيء الى كوبنهاغن .

مرت ثمانية ايام على هذه الحال ، وهي الايام ذاتها التي سيقال للعالم بعد قليل أن تروتسكي استخدمها لتدبير مؤامرته الرهيبة ضد الحكومة السوفياتية . امضى تلك الايام يتآمر على المظالم التي تسلطها الانظمة المعتادة المتعلقة بالجوازات وتأشيرات السفر على من ليس لهم بلد ولا مأوى . استخدم كل نفوذه ، وكل الظروف العرضية ، وكل الحيل البريئة والمهارات الاعلانية الممكنة لكسب عدة اسابيع او حتى عدة ايام اضافية في الدانمرك ، او في بلد اوروبي آخر . في غضون ذلك ، ناشدت ناتاليا ادوار هيريو ، الوزير الاول الفرنسي ، راجية اياه ان يسمح لليوفا بلقائها في فرنسا ، حين تكون عائدة ، هي وتروتسكي ، الى تركيا . الا انه لما كـانت الايام الثمـانية ، وهي مـدة التأشيـرة الدانمـركية الممنـوحة لتروتسكي ، قد انصرمت ، اعلن انه اخطأ باخرته ، وانه لم يكن جاهزاً بعد للسفر . ربما كان يفكر بأن ليوفا سيصل ، وانه قد ينتظرعندئذ المركب القادم؟ ربما أمكنهما اتخاذ قرار حول ما اذا كانا سيرسلان الطفل الى زينا وكيف ؟ ربما . . ربما حنَّ قلب حكومة ما فحصلا عليٍ تأشيرة في مكان ما من تلك القارة غير المضيافة ؟ لكن الوزير الدانمركي كان يذكّره بإلحاح بأن مدة اقامته قد انتهت

(٨١) استناداً لرسالة من ليوفا الى والديه في ٢٦ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٣٢ .

وأن عليه الرحيل . وقد جرى اقتياده بسرعة الى خارج البلاد في سيارة ، بحيث يستطيع الابحار قبل انقضاء مدة تأشيرته . هكذا إذاً غادر تروتسكي وناتاليا وأمناء السر الدانمرك في ٢ كانون الاول/ ديسمبر . في تلك المرة لم يأت احد للصياح او الصفير على رصيف الميناء ، ولم يأت احد ايضاً للوداع .

حين دخلت الباخرة مرفأ آنفر ، كان المرفأ الموضوع في حالة حصار مزدحماً بالناس ، صعد حراس الحدود الى الباخرة ليستجوبوا تروتسكي ، وقد رفض الرد على الاسئلة ، معلناً انه لما كان لن ينزل الى الارض البلجيكية ، فالاستجواب غير شرعي . وقد حصلت مشادة ، وكانت ثمة تهديدات بالتوقيف ، ولم يُسمح لأحد من صحبه بالنزول الى اليابسة .

في تلك اللحظة ، استعاد ذكرى ترجع به عشر سنوات الى الوراء : فعام ١٩٢٢ ، حين حوكمت دورا كاپلان في موسكو لأنها حاولت اغتيال لينين ، طلب آميل فاندرفلد ، الاشتراكي البلجيكي المشهور ، رئيس الاممية الثانية ، القبول به كمدافع عنها . وقد استجيب التماسه ، واستفاد ڤاندرفلد من تلك الفرصة ليهاجم امام محكمة سوفياتية النظام الحكومي السوفياتي . وقد فعل الشيء ذاته في رسالة مفتوحة الى تروتسكي ، وبما أن تروتسكي لم يرد على الرسالة عام ١٩٢٢ ، فقد قرر أن يفعل ذلك الآن ، في حين كان مركبه في المياه البلجيكية. بين التاريخين كان فاندرفلد الوزير الاول للملك ، وحتى كمعارض، كان يشغل مكانة رفيعة جداً في السياسة البلجيكية. كتب تروتسكي يقول :

«لقد سمحت لك الحكومة التي كنتُ عضواً فيها، لا فقط بالمجيء الى الاتحاد السوفياتي ، بل كذلك بالعمل في المحكمة بصفتك وكيلاً للذين حاولوا اغتيال قادة اول دولة عمالية . وفي خلاصات دفاعك التي نشرناها في صحافتنا ، تذرعت مرارا بمبادىء الديمقراطية وكان ذلك حقك . وفي ٤ كانون الاول / ديسمبر ١٩٣٢ ، توقفنا، صحبي وانا ، ونحن نمر في ميناء آنفر . لا أنوي إطلاقاً الدعوة الى ديكتاتورية البروليتاريا هنا ، او العمل بصفة مدافع عن المضربين او الشيوعيين البلجيكيين المسجونين الذين لم يقترفوا ، على حد علمي، محاولة اغتيال للوزراء . ومع ذلك فالقسم من المرفأ الذي توقف فيه مركبنا تعرض لحصار كامل . ومن كل الجهات ، عن يسار السفينة كما عن

يمينها ، تقف زوارق الشرطة في حالة استنفار . ومن الميناء الذي نحن فيه ، تمكّنا من استعراض موكب لرجال **الشرطة** الديمقراطية . . يا له من مشهد مثير! ثمة هناك ـ واعذرني اذا استخدمت عبارات بهذا الابتذال ، حباً بالاختصار ـ رجال شرطة اكثر مما هناك من بحارة وحمالين . يشبه مركبنا سجناً مؤقتاً ، والقسم المتاخم من المرفأ ساحة سجن(٨٢) » .

كان يعرف ، بالتأكيد ، ان هذا الاستقبال والتنكيدات المرافقة له لم تكن غير توافه اذا قورنت بالاضطهادات التي كان يتعرض لها الشغيلة المناضلون والشيوعيون باستمرار. وهو لم يكن يشير الى الوقائع الا ليعطي لڤاندر فلد الجواب(الذي انتظره طويلاً) ، على خطابه التقريعي لعام ١٩٢٢ ، المتعلق بالبلشفية والديمقراطية :

« اعتقد اني لا اخطىء حين أحسب بلجيكا في عداد الديمقراطيات . ان حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨ التي قمتم بها ، كانت حرباً لأجل الديمقراطية ، اليس كذلك؟ ومنذ الحرب ، كنت على رأس بلجيكا كوزير وكرئيس للوزراء . ماذا كان ينبغي اكثر من اجل ان تتحقق الديمقراطية ؟ . . . لكنني أسألكم لماذا تفوح من ديمقراطيتكم بقوة الرائحة الكريهة لشرطة الدولة البروسية القديمة ؟ من يمكن اذا ان يتخيل ديمقراطية تصاب بصدمة عصبية حين يقترب بلشفي بالصدفة من حدودها ، من يمكن ان يتخيل ان هكذا ديمقراطية ستكون قادرة يوماً على تحييد صراع الطبقات وضمان التحول السلمي للرأسمالية الى اشتراكية ؟» .

نعم ، نعم ، هو،تروتسكي كان يعرف كل شيء عن الغيبيو والاضطهاد السياسي في الاتحاد السوفياتي . لكن الحكومة السوفياتية لم تمتدح نفسها ، على الاقل ، على فضائلها الديمقراطية . لقد ماثلت نفسها بشكل مكشوف مع ديكتاتورية البروليتاريا ، والامتحان الوحيد الذي يسمح بالحكم عليها كان التالي : هل كانت تضمن ، نعم ام لا ، الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية ؟

« تمتلك الديكتاتورية طرائقها الخاصة بها ومنطقها الخاص بها ،

---

(٨٢) B.O ، العدد ٣٢ ، كانون الأول / ديسمبر ١٩٣٢ .

وهي لا شك صارمة. ليس نادراً . . . رؤية ثوريين ارسوا الديكتاتورية يسقطون هم ذاتهم ضحايا منطقها . . . لكن امام الاعداء الطبقيين، أتحمل كل مسؤولية، لا فقط عن ثورة اوكتوبر . . . بل كذلك عن الجمهورية السوفياتية، كما هي اليوم، بما فيها الحكومة التي نفتني وحرمتني من المواطنية السوفياتية. لكن انت، انت تدافع عن الرأسمالية باسم الديمقراطية المزعومة. فأين هي هذه الديمقراطية إذاً؟ في كل حال، لسنا لنجدها في ميناء آنفر».

رغم كل ذلك، غادر مياه آنفر «من دون ادنى تشاؤم»، كان امام عينيه مشهد عمال احواض السفن البلجيكيين الاقوياء والصارمين، الذين يغطيهم غبار الفحم، والذين كانوا يراقبون المشهد بصمت، وبينهم وبين مركبه شريط من رجال الشرطة، ويقيسون كل العالم ويتعرفون الى من هم من جانبهم ويغمزون باعينهم ساخرين من رجال الشرطة. كانوا يتبادلون ابتسامات ودية مع المسافر الخطر الذي كان على متن السفينة، ويلمسون باصابعهم المحبوكة طرف قبعاتهم لتحيته،

«وحين خرج المركب من الشلدت، في الضباب، ماراً على امتداد المرفاعات التي جمدتها الازمة الاقتصادية، دوت على رصيف الميناء تحيات وداع يطلقها اصدقاء مجهولون لكنهم مع ذلك مخلصون. وانا انهي هذه السطور بين آنفر وفليسنغ، أوجه تحياتي الاخوية الى شغيلة بلجيكا».

في ٦ كانون الاول / ديسمبر، نزل تروتسكي وناتاليا في باريس، وفي محطة الشمال احاط بهم مجدداً شريط من رجال الشرطة فصلهم عن جمهور المسافرين. كان ليوفا هناك، وكان ينتظرهم. فلقد استجاب هيريو لالتماس ناتاليا. وعند الحدود، جرى ابلاغ تروتسكي انه حالما يصل الى مرسيليا سيكون عليه انتظار السفينة المبحرة الى القسطنطينية خلال تسعة ايام، وقد أمتعه ذلك التأخير. استأجر مولينييه مسكناً قرب مرسيليا وطلب تروتسكي الى اصدقائه المجيء الى هناك وقضاء الايام القليلة معه. وما كاد يصل الى مرسيليا حتى اعلمته الشرطة بأنه لا يمكنه ان يبقى ولو يوماً واحداً وان عليه الابحار فوراً على سفينة شحن إيطالية كانت ستنطلق بالضبط في تلك الليلة. وقد صعد الى السفينة على

مضض ، لكن حين اكتشف انه ليس فيها مكان مخصص للركاب ، وان الرحلة ستطول خمسةعشر يوماً ، ولما كان يخشى ان يكون قد دفع به الى فخ ، نزل مجدداً إلى الأرض . كان الوقت نصف الليل ، وقد حاولت الشرطة إرجاعه لكنها فشلت في ذلك . وفي حين كانت المجموعة الصغيرة تتبادل الكلام القارص مع رجال الأمن ، عسكرت في الميناء، في عز الليل ، وفي ريح الشتاء . ومن المرفأ بالذات ، وجه تروتسكي برقيات احتجاج الى هيريو ، ووزير الداخلية ، والى بلوم وتوريز ، ووجه أيضاً التماساً الى روما للحصول على تأشيرة ايطالية بالعبور . وقبل بزوغ الفجر ، سيق هو وناتاليا الى احد الفنادق،وجرى اعلامهما بان ينتظرا هناك ارتحالا وشيكاً .

طلع النهار ، ومضت الساعات من دون اي جواب من هيريو أو أي شخص آخر في باريس ، لكن وزير خارجية موسوليني ـ يا للسخرية !ـ اجاب على الفور مانحاً تأشيرة المرور.عندئذ دفعت الشرطة تروتسكي وناتاليا بسرعة بالغة إلى أول قطار ماض نحو ايطاليا ، وقد عانقا ليوفا عبر شريط رجال الامن . لم يكونا قضيا معه غير نهار واحد ، نهار ممتلىء بالاضطراب الى حد انهم لم يقيض لهم حتى ـ كما قالت ناتاليا ـ النظر الواحد للآخر ، واقل أيضاً ابلاغ الواحد الآخر بالهموم التي كانت تقض مضاجعه. فقط تنكيدات وضيعة وحالات سوء فهم ناجمة عن الظروف جاءت لتقف بينهم .

في القطار ،تأمل تروتسكي وناتاليا في ما ينطوي عليه كل ذلك من عبث . كانا يشعران بنفسيهما مجروحين وتعبين ، كما لو ان اثقال حياتيهما ، والخبث الثقيل والبليد للحكومات ورجال الأمن ، وتعاسة زينا والحيرة بصدد ولدها ، كما لو ان كل ذلك سقط دفعة واحدة على صدريهما . وقد كتبت ناتاليا الى ليوفا في قلب ايطاليا بالذات : « بقينا طويلاً ، جالسين طويلاً ، والدك وأنا ، في المقصورة وبكينا . . .[٨٣] » . وفي الصباح الباكر استيقظا في البندقية ، التي لم يكونا رأياها من قبل ، وتطلعا عبر دموعهما ، ووسع عينيهما ، الى ألق سان ماركو ومجده .

في ١٢ كانون الأول / ديسمبر نزلا في برنكيبو . كان « الاسد المفلت » قد

---

(٨٣) من ناتاليا الى ليوفا ، ١٦ كانون الأول / ديسمبر ١٩٣٢ . **المحفوظات ، القسم المقفل** . أنظر كذلك تصريح تروتسكي الى الصحافة في برينديزي في ٨ كانون الأول / ديسمبر . **المحفوظات** .

عاد الى « قفصه » . بدا أنه اعتاد على فكرة عودته ربما جمال الجزيرة هدأ أعصابه ، أو اللطف الذي أبداه الموظفون الاتراك حياله على الحدود ، أو الوجوه الشريفة لصيادي بويوك آدا ، التي كانت تشع بالصداقة لاستقباله لدى عودته . كانت الرفوف والمكاتب المكدسة فوقها الرسائل والصحف تحثه على الانكباب مجدداً على العمل . وقد كتب فيما بعد في يومياته : « حسنٌ ان يعمل المرء ، والريشة في يده ، في برنكيبو ، لا سيما في الخريف وفي الشتاء حين تكون الجزيرة مقفرة ويظهر دجاج الأرض في البستان » . تحت الشبابيك ، كان البحر بأسراب السمك الآتية مباشرة الى الشاطىء يشبه بحيرة هادئة . بعد كل الاضطراب والجلبة في الاسابيع الاخيرة ، كان هدوء الجزيرة ، الذي لم تعكره يوماً منبهات السيارات او جرس الهاتف ، يوفر استراحة ويستثير التأمل والتفكير .

وهكذا انقضت الاسابيع الأخيرة من العام في جو من الهدوء والاسترخاء . الحادث الوحيد النشاز ، وان كان ذا اهمية ضئيلة ، كان القطيعة النهائية مع سينين سوبوليفيسيوس الذي قدم في برلين اقتراحاً بفصل الامانة العامة الاممية للمعارضة عن احدى اشد هجمات تروتسكي حدة ضد ستالين(٨٤) . فاجأ الحادث تروتسكي ، مع انه كان قد كتب قبل اشهر الى سوبوليفيسيوس : « ان الحزب يمارس عليك جاذبية قوية » ، لكنه كان يعتقد ان اتفاقاً متبادلاً كان قد تم اخيراً في كوبنهاغن . كتب الى سينين في ١٨ كانون الاول / ديسمبر : « قلت لي ان رحلة الى الاتحاد السوفياتي اقنعتك اخيراً بان المعارضة على حق » . حتى آنذاك ، لم يكن تروتسكي يستشعر مع ذلك الغدر ، لكنه كان يفكر ان سينين يرضخ لجاذبية الحزب ، وان ذلك قد يؤدي به الى الاستسلام . وقد وجه الى سينين هذا التحذير : « الاستسلام هو الموت السياسي » . نصحه إذاً بان ياخذ

---

(٨٤) أنظر مراسلة تروتسكي مع الأخوين سينين وسوبلن سوبوليفيسيوس في ١٥ و ١٦ و ١٨ و ٢٢ كانون الأول / ديسمبر ١٩٣٢ . نُشر هجوم تروتسكي ضد ستالين (Obcini Rukami) ، الذي أثار اعتراضاتهما ، في الـ B.O ، العدد ٣٢ في الشهر ذاته . في ذلك المقال ، اتهم تروتسكي ستالين بالتخلي عن المبادىء في مغازلة الراسمالية الأميركية ، واسس اتهامه على مقابلة أعطاها ستالين للمدعو توماس كامبل ، وكان مهندساً اميركياً ، خبيراً في مسائل الميكانيك ومؤلفاً لكتاب عن روسيا . استشهد كامبل بستالين ، الذي اعلن ان السبب الاول للقطيعة بينه وبين تروتسكي كان الحماس الذي أبداه تروتسكي لنشر الثورة في البلدان الأخرى ، بينما كانت رغبته هو ، أي ستالين ، تكمن في حصر جهوده في بلده الخاص به . فيما بعد ، أنكر ستالين التصريح ، لكن التكذيب بقي قليل الاقناع . وكان الأخوان سوبوليفيسيوس يعتبران هجوم تروتسكي يسارياً متطرفاً وغير عادل .

وقته ويتفحص المشكلة بانتباه . تأسف بالطبع لخسارة تلميذ ذكي ومخلص ، لكن القطيعة كانت منجزة وقد اختفى سينين بعد قليل من أفق تروتسكي » [٨٥] .

خلال تلك الاسابيع من الراحة ، وجد تروتسكي في الصيد « التسلية القديمة الجيدة ضد الحزب والمهدىء لافكاره القلقة » . وفي صفحات يومياته ، المكتوبة قبل مغادرته برنكيبو مباشرة، يصفها على طريقة اسحق والتون الى حد ما ، وصوره السريعة للصيادين الذين كانوا يرافقونه مفعمة بالمودة تجاههم ، لا سيما صورة يوناني أمي شاب ، هو خارالامبوس ، كان يخاطر معه غالباً في البحر[٨٦] . هذا الشاب اليوناني « كان الصيد في دمه » . وبقدر ما يمكن ان نبتعد في سلالته ، نجد ان اجداده القدامى كانوا دائماً من الصيادين . وقد كتب تروتسكي : « ان شعاع عالمه الشخصي لا يزيد تقريباً عن اربعة كيلومترات ، مركزها برنكيبو ، لكنه يعرف هذا العالم ويجد فيه سحراً كافياً لملء حياته (« شيئاً ما ») ، على منوال والتون ، « يشبه من بعض النواحي الشعر ، ومن نواح اخرى الرياضيات التي لا يمكن معرفتها كلياً ابداً ») . كان يمكنه ، على غرار فنان ، ان يقرأ في الكتاب الجميل لبحرمرمره » . ونحو ذلك البحر كان يحرف ذهن الثوري العجوز ، الواقع فريسة هذيانات ابعد . كانا يكلمان الواحد الآخر بالاشارات والتكشيرات وبواسطة بعض الكلمات ذات المقطع الواحد ، الروسية او اليونانية او التركية ، لكن ذلك كان يكفي خارالامبوس ليعرّف بما كان يحصل في اعماق البحر وليحدد انطلاقاً من الافق ، والسماوات ، والفصل ، والرياح ، الطريقة التي ينبغي رمي الشباك بها ، بشكل مستقيم ، او لولبياً ، او بشكل نصف دائرة ، وكيف ينبغي رمي اثقال من المركب لاستجلاب سرطان البحر الى العلب، وكيف ينبغي حماية الغنيمة من الدلافين الكامنة حولها . راضخاً ومنتبهاً ، كان مؤلف **الثورة الدائمة** يتعلم هذا الفن الاساسي والمعقد الذي لم يتغير طوال آلاف السنين ، وكان يلاحظ النظرة الصاعقة التي كان يوجهها اليه خارالامبوس في كل مرة كان يسيء فيها رمي ثقل ما . « من قبيل اللياقة وحس الانضباط الاجتماعي ، يعترف بأني، اجمالا ، لا ارمي الاثقال بشكل بالغ السوء ، لكن يكفيني ان اقارن عملي بعمله كي اتخلى فوراً عن كل كبرياء » . بعد كل شيء ، لم يكن عاطلاً

(٨٥) المحفوظات ، القسم المقفل .

(٨٦) هذه الصفحات من اليوميات بتاريخ ١٥ / يوليو موجودة في المحفوظات .

جداً ان يعود المرء الى خارالامبوس ، ويقـرأ بصحبته في كتاب بحر مرمـره ويكتب كذلك كتابه الخاص به .

انتهت هذه الاستراحة المثالية بصورة مفاجئة ومشؤومة ، ففي الخامس من كانون الثاني / يناير ، ابرق ليوفا لوالديه بان زينا انتحرت . لقد قتلت نفسهابعد أسبوع من جلب ولدها أخيراً اليها .ويبدو ان حضور الطفـل ، بدل أن يهدىء اعصابها حطمها نهائياً . بين الاوراق التي تركتها ، تم العثور على هذه الملاحظة المكتوبة بالألمانية :

« احس بمرضي الرهيب آتياً . ضمن هذه الشروط ، لا اعود اعرف ان اكون مسؤولة عن نفسي ، حتى حين اهتم بولدي . لا ينبغي في اي حال من الاحوال المجيء به الى هنا ،فهو حساس جداً وعصبي جداً ، ويخاف كذلك من فرو ب (المـالكـة) ، انـه مـع فـرو ك (يلي العنوان) . . . لا يتكلم اي كلمة المانية، خابروا أخي[٨٧] » . كانت قد عاودتها هذياناتها بقوة وتواتر متعاظمين. كانت تشعر بنفسها غير مجدية، حتى مع ولدها ، ولم تقو على مواصلة الكفاح . وفوق كل ذلك ، كانت قد ابلغتهاالشرطةان عليها ان تغادر المانيا كانت تلك هي الايام الاخيرة من حكومة الجنرال شلايشر ، وقبل نهـاية الشهـر ، كان هتلرسينصَّب مستشاراً . كانت برلين تدوي اكثر من اي وقت مضى بقرع الجزمات العسكرية وبالاناشيد الجافـة والمخمورة ، واحـد تلك الاناشيـد الفظة والقـاسيـة ، Die Strassen Frei fur die braunen Batallionen كـان يسيطرعلى كل الاخرى . كانت الدبابة الرهيبة للنازية بدأت تتقدم بصخب لتـطحن الشغيل الالمـاني ، كانت الـHorst Wessel Lied تدوي في اذنيها ، وكان بلدها مقفلاً في وجهها ، وهي نفسها كانت منتزعة من عائلتها ، يضاف الى ذلك قرار طردها من المانيـا ، وعجزها ، هي المريضة جداً ، عن البحث عن ملجأ آخر . . كل ذلك جعلها تقفل على نفسها بالمفتاح وتفتح حنفيات الغاز . كـان الحاجز الذي رفعته خلف الباب قوياً لدرجة ان كل محاولة لانقـاذها كان محكوماً عليها بالفشل ، وقد اذهلت طبيبها الطاقة الخارقة التي

(٨٧) ملاحظة مكتوبة بالألمانية وغير مؤرخة .

برهنت عنها في فعل موتها بالذات . في الدقائق الاخيرة ، حمل الشعور بنوع من الاسترخاء ابتسامة ضعيفة الى شفتيها ، هي تعبير عن الانفراج والهدوء كان عمرها ثلاثين عاماً(٨٨) .

كانت رسالة ليوفا المتعلقة بالانتحار مقتضبة ، لكن وفقاً لكلمات تروتسكي كان توتر اخلاقي لا يُحتمل ينبثق من كل سطر في تلك الرسالة ، لأن ليوفا كان وحده مع جثة اخته البكر . كيف كان سيقال للولد ما الذي حصل ؟ وكيف ابلاغ الخبر لالكسندرا سوكولوفسكايا ، والدة زينا التي كانت آنذاك في لينينغراد ؟ حاول ليوفا ان يحصل على خط موسكو الهاتفي ليخابر اخاه . « هل أخذت الغيبيو على غفلة منها ، او ربما كانت تأمل اقتناص سرٍّ ما المهم أنه خلافاً لكل توقع ، حصل ليوفا على المخابرة . . وأمكنه نقل الخبر المأساوي . . . تلك كانت المحادثة الأخيرة بين ولدينا ، الاخوين اللذين وسمهما القدر ، فوق جثمان اختهما الذي كان لا يزال حاراً(٨٩) » .

بعد ستة ايام على انتحار زينا ، كتب تروتسكي « رسالة مفتوحة » الى قادة الحزب في موسكو ، وصف الطريقة التي حطم بها مرسوم ٢٠ شباط/ فبراير نفس زينا ، « لم تختر بنفسها الموت ، انما دفعها اليه ستالين ، لم يكن هناك حتى ظل معنى سياسي في اضطهاد ابنتي ، لم يكن ثمة غير انتقام صرف بدون هدف » . وانهى الرسالة بإشارة يخنق فيها الألم الغضب : « اكتفي بهذا الخبر ، دون ان استخلص منه نتائج اخرى ، فوقت استخلاص نتائج اخرى منه سيأتي ، وسوف يستخلصها حزب مجدَّدٌ بذاته(٩٠) » .

من لينغراد ، اطلقت والدة زينا صيحة ألم وتأنيب ويأس . كانت قد فقدت الآن ابنتيها ، اللتين ولدتا كلاهما خلال النفي الأول لوالدهما ، واللتين سقطتا كلاهما خلال نفيه الأخير . كتبت لتروتسكي في ٣١ كانون الثاني / يناير ، طالبة توضيحات بصدد كل الظروف التي احاطت بموتها : «سأجن أنا أيضاً ، اذا لم يتم قول كل شيء لي » . واوردت ما كتبته لها زينا قبل اسابيع فقط : « إنه لأمر

(٨٨) ثمة وصف مثير عن موت زينا ودفنها في رسالة فرانز بفمفرت الى تروتسكي بتاريخ ٢٠ كانون الثاني / يناير ١٩٣٣ ، المحفوظات ، القسم المقفل . أنظر كذلك برقية ليوفا .

(٨٩) من نعي تروتسكي لليوفا بعد مرور ست سنوات على ذلك التاريخ . B.O العدد ٦٤ ، آذار / مارس ١٩٣٨ .

(٩٠) B. O ، آذار / مارس ١٩٣٣ .

محزن للغاية ، لكنني لا استطيع بعد الآن ان اعود الى مقربة من أبي . انت تعرفين اني عبدته ، واني قدسته منذ طفولتي الأولى .لكن الخلاف الآن كلي ، وهنا يكمن اصل مرضي بالذات» . كانت زيناتشكو برودته حيالها . وتقول والدتها : « فسرت لها كل شيء ، اوضحت لها ان كل هذا ناجم عن طبعك، وعن واقع أنه يصعب عليك دائماً ان تعبر عن عواطفك ، حتى حين تود ان تعبر عنها » (بالنسبة لأولئك الذين لا يعرفون غير الوجه الذي يقدمه تروتسكي للجمهور ، تروتسكي سيد البلاغةالمتوقد ، ستكون شهادة زوجه الاولى عن طبعه الحميم ، المتحفظ في التعبير عن مشاعره ، مفاجأة قوية) . ثم يلي هذا التقريع الموجع : « لم تأخذ بالحسبان غير وضع زينا الجسدي ، لكنها كانت راشدة وكان كيانها المتفتح كليا بحاجة لتعامل فكري . كانت تمنت بحماس ان تشارك في نشاط سياسي وكانت بحاجة لحقل عمل ، لأنها كانت ابنة ابيها ، وانت ، اباها ، كان في وسعك ان تنقذها » . بالاضافة الى ذلك ، تساءلت الكسندرا : ما الذي كان وراء ذلك النزاع بين زينا وليوفا ، الذي كلمتها زينا عليه في احدى رسائلها؟ ولماذا الح تروتسكي على ان يعالجها محلل نفسي ، بينما كانت « منطوية على ذاتها ، كما نحن الاثنين . ما كان ينبغي حثها على الحديث عن اشياء لا تريد الكلام عليها» . الا انه في الوقت ذاته الذي كانت الأم تنهال فيه تقريعاً على تروتسكي جاءت الفكرة التي خلاصتها انه لو بقيت زينا في روسيا لماتت أيضاً في كل حال ، بسبب السل ، جاءت تخفف من ذلك التقريع . وقداضافت الكسندرا : « كانت ابنتانا موسومتين بختم القدر » . ووصفت خوفها حين كانت تنظر الى احفادها الذين ظلوا معها

« لم اعد أؤمن بعد الآن بالحياة ، لا اعتقد انهم سيكبرون ، واتوقع باستمرار كارثة جديدة . وفي الختام ، كان صعباً بالنسبة لي ان اكتب هذه الرسالة ، واضعها في البريد . اعذر قساوتي تجاهك ، لكن انت أيضاً ، يجب ان تعرف كل شيء يتعلق باصدقائنا وأقاربنا » (٩١) .

لا نعرف اذا كان تروتسكي رد على هذه الرسالة ، وكيف . ربما كانت الكلمات مستهلكة جداً بالنسبة لجرح بذلك العمق . بعد فترة من الزمن ، كتب

---

(٩١) رسالة من أ . سوكولوفسكايافي ٢٠ كانون الثاني / يناير ١٩٣٣ . المحفوظات ، القسم المقفل .

الى اصدقائه يستميحهم العذر لأنه لم يرد على تعزياتهم ، موضحاً لهم انه كان تحت وطأة المالاريا ، وانه كان «نصف ميت»[٩٢] .

حتى اللحظة الأخيرة، رفض تروتسكي الاعتقاد بأن الحركة العمالية الالمانية كانت معدومة الحيوية الدفاعية ، الى درجة ان لا تواجه النازية بأية مقاومة وتنهار بصورة مخزية امام هجومها الاول كان قد أكد طوال سنوات ثلاث تقريباً انه لا يمكن المرء ان يفكر بأن في وسع هتلر الانتصار من دون حرب اهلية ، وكان ما لا يمكن التفكير به يحدث الآن. ففي ٣٠ كانون / يناير ، تم تعيين هتلرمستشاراً ، حتى قبل ان يبدأ الاشتراكيون والشيوعيون بتعبئة امكاناتهم الضخمة لأجل المعركة . وقداعلن تروتسكي بعد اسبوع : « إن وصول هتلر الى السلطة ضربة مريعة للطبقة العاملة ، لكن ليس هذا لغاية الآن هزيمة نهائية ولا يمكن اصلاحها . ان العدو الذي كان يمكن إنزال الهزيمة به حين كان في بداية صعوده ، يحتل الآن سلسلة من مراكز القيادة . لقد أمسك إذاً بميزات كبرى ، لكن المعركة لم تشنَّ بعد » . قال إنه حتى آنذاك ، كان الأوان لم يفت بعد ، لأن هتلر لم يكن قد استولى كلياً بعد على السلطة . كان عليه ان يتقاسمها مع هوجنبرغ والـ Deutschnazionale . كان ذلك الائتلاف الذي يقف في رأسه ائتلافاً غير مستقر وممزقاً بالتناقضات . كان لا يزال عليه ان يجرد شركاءه من كل نفوذ ، ويحصل على الاشراف الكامل على كل امكانات الدولة. حتى ذلك الحين كان وضعه لا يزال قابلاً للعطب ، وكان لا يزال في وسع الاشتراكيين والشيوعيين ان يردوا . لكن كان الوقت متأخراً جداً ، متأخراً بشكل ميئوس ، « إن الهدف هو رأس الطبقة العاملة الالمانية ، رأس الاممية الشيوعية . . . ورأس الجمهورية السوفياتية[٩٣] » .

نعرف اليوم ، استناداً للعديد من المحفوظات واليوميات الواردة من المانيا كم كان وضع حكومة هتلر الاولى قابلاً للعطب في فترة تشكيلها[٩٤] . حتى

---

(٩٢) أنظر رسالة تروتسكي الى فرانتز بفمفرت في شباط / فبراير ١٩٣٣ . المرجع ذاته . وفقاً لرواية بيير فرانك الذي كان آنذاك في بويوك آدا ، انزوى تروتسكي أياماً عديدة في غرفته . كانت ناتاليا معه ، وهي وحدها كانت تخرج من وقت لآخر ، وحين خرج اخيراً ، لاحظ سكريتيروه الى أي حد شاب شعره خلال تلك الأيام .

(٩٣) B.O ، العدد ٣٣ ، ١٩٣٣ .

(٩٤) أ . بولوك ، هتلر ، ص ٢٢٩ - ٢٣٣ .

بعد مرور شهر ، في ٥ آذار / مارس ، بعد الهجوم النازي على بيت كارل ليبكنخت في برلين ، وبعد حريق الرايخستاغ ، وخلال انتخابات تمت في حين كان الارهاب النازي يستفحل ، جمع الشيوعيون والاشتراكيون ١٢ مليون صوت ، بغض النظر عن ستة ملايين صوت تقريباً لصالح المعارضة الكاثوليكية لهتلر. نعرف كذلك ان المشاحنات والمخاصمات والتحديات المتبادلة بين هتلر وشركائه كان يمكنها ان تتسبب بفسخ ائتلافهم لو ان ملايين الشيوعيين والاشتراكيين هؤلاء انتقلوا الى العمل. منذ ٦ شباط/ فبراير ، لاحظ تروتسكي ان الطبقة العاملة لا تخوض أي معركة دفاعية ، وأنها تتقهقر ، وان هذا التقهقر يمكن أن يتحول في الغد إلى اندحار مذعور. وقد كان استنتاجه بطريقة بالأحرى فظة ، وكما يلي :

« لكي يتم بشكل اوضح فضح المعنى التاريخي لقرارات الحزب . . . خلال هذه الايام وهذه الاسابيع ، ينبغي ، في رأيي ، طرح المشكلة بالصورة الاقوى والاكمل للشيوعيين . . . ان الرفض [المستمر] من جانب الحزب لتشكيل جبهة موحدة ، وخلق لجان محلية للدفاع ، لجان يمكن أن تصبح غداً سوفييتات ، لن يكون اقل من استسلام للفاشية ، جريمة تاريخية تعادل تصفية الحزب والاممية الشيوعية . اذا قيض لهكذا كارثة ان تحصل ، على الطبقة العاملة ان تختار طريقها ، اممية رابعة ، وعليها ان تفعل ذلك على جبال جثث وسنوات آلام ومصائب لا تحتمل(٩٥) » .

حتى قبل ان تطبع هذه الكلمات ، كانت المنظمات الكبرى الجماهيرية للشغيلة الالمان ، واحزابهم ونقاباتهم وصحفهم الكثيرة ، بالاضافة الى مؤسساتهم الثقافية ومنظماتهم الرياضية ، كانت كلها قد اصبحت اطلالا .

وللحال ، طالت تلك الهزيمة الكبرى مصير عائلة تروتسكي. حُظرت الـ Bulletin في برلين ، واضطر ليوفا للاختباء وعبور الحدود خفية . وفي ٢٤ آذار/ مارس ، كتب تروتسكي الى آل بفمفرت ، الذين نهب النازيون بيتهم وعاثوا فيه خراباً :

« طيلة الوقت ، كان بالنا مشغولاً على ل.ل. (اي ليوفا) . يعتقد

---

(٩٥) B.O ، المرجع المذكور .

أصدقاء المان انه لو وقع بين ايدي الفاشيين لما خرج حيا ، واعتقد الشيء ذاته ، لكننا تلقينا بالامس برقية منه ، يقول فيها : « أنتقل الى باريس ». فلنأمل ان يحالفه الحظ حتى النهاية في هذا الانتقال. حتى الآن لم تصل اخبار عنه[٩٦] » .

خلال تلك الاسابيع، قطع تروتسكي كل علاقة له بالاممية الثالثة. وفي مقال بعنوان : **مأساة البروليتاريا الالمانية** (مع عنوان اصغر : **سوف ينهض الشغيلة الالمان اما الستالينية فلن تنهض أبداً**) حلل الوضع كالتالي : إن ما منيت به الحركة العمالية في المانيا ، ليس ضربة مؤقتة ، او تراجعاً تكتيكياً ، بل هو هزيمة استراتيجية حاسمة ستترك الطبقة العاملة خاضعة ومشلولة طوال حقبة كاملة . كانت الامميتان الثانية والثالثة ترفضان معاً الاعتراف بذلك وتتكلمان على نجاح هتلر « العابر ، اما الآن فقد اصبح متأخراً جداً الاندفاع في كلام مفخّم حول الجبهة الموحدة » . لكن « قبل ان يصبح صراع حاسم ممكناً مجدداً في المانيا ، على طليعة الطبقة العاملة ان تعيد تحديد وجهتها ، وان تفهم بوضوح ما الذي حصل ، وتحدد المسؤوليات . . . عن الهزيمة ، وتفتح طرقاً جديدة ، وتستعيد بذلك الثقة بنفسها واحترام نفسها » . خلال سنوات ، كان « مفتاح الوضع » في أيدي الشيوعيين ، لكن هذه المرحلة انتهت . فكل المواقع في المانيا سقطت للسنوات الآتية ، ومذاك ، اصبح بالغ الاهمية بالنسبة للطبقة العاملة ان تعزز قلاعها وتكافح في البلدان التي تحيط بالمانيا ، اي في النمسا ، وتشيكوسلوفاكيا وبولندا وهولندا وفرنسا . « إن النمسا هي المهددة اكثر من غيرها بانتفاضة فاشية وشيكة ، انها الآن حصن متقدم » . كانت الكومنترن في ذروة اللامسؤولية حين اعلنت ان الشغيلة الالمان على مشارف معارك كبرى لأنهم اعطوا ٥ ملايين صوت للشيوعيين .

« نعم ٥ ملايين شيوعي كان لا يزال يمكنهم ان يجدوا وسيلة ، كلٌ بصورة فردية ، لشق طريق الى صناديق الاقتراع ، لكن في المصانع وفي الشوارع لم يعد يشعر احد بوجودهم . انهم مضعضعون ، مشتتون ، محبطون . . . لقد شل ارهاب الستالينية البيروقراطي ارادتهم ، حتى قبلَ

---

(٩٦) المحفوظات ، القسم المقفل .

ان يبدأ إرهاب قطاع الطرق الفاشيين يحدث مفاعيله[٩٧] » .

استنتج من ذلك ان الستالينية شهدت ٤ اغسطس/ آب الخاص بها ، ومنيت بانهيارمخز قدر خزي انهيار الاممية الثانية حين اندلعت الحرب العالمية الأولى . في ذلك الحين ، كان لينين وتروتسكي وروزا لوكسمبورغ وكارل ليبكنخت ورفاقهم قد اعلنوا ان الاممية الثانيةقضت نحبها ، واطلقوا فكرة الاممية الثالثة. كانت المماثلة مع ٤ آب/ اغسطس توحي بان تروتسكي سيطلق الآن فكرة اممية رابعة . إلا ان شيئاً من ذلك لم يحدث ، بل اكتفى بطلب تشكيل حزب شيوعي جديد في المانيا .

« بعد الآن لن يتكلم العمال الالمانيون المتقدمون على الحقبة التي كانت تسيطر فيها البيروقراطية الستالينية على الشيوعية الالمانية الا وهم يشعرون بأن الخجل يفترسهم . . . لقد تلقى الحزب الشيوعي الالماني الرسمي الحكم عليه .ومنذ الآن ، سوف يتفكك ويتفتت ويتحول رماداً ويغور في العدم » .

إلا أنه كان يعتقد ان هذه الهزيمة قد يكون لها على الاحزاب الشيوعية الأخرى تأثير صدمة ملائمة قد تدفعها الى البحث عن الاسباب وتحديد المسؤوليات ، وربما القطع مع الستالينية . اذا قيض لذلك ان يحصل ، ربما أمكن الكومنترن ، آنذاك ، او قسماً من الكومنترن على الاقل ، ان ينقذ شرفه الثوري ومبرر وجوده . « لكن في المانيا ، مهما يكن ، فإن الاغنية المشؤومة للبيروقراطية الستالينية تشهد نهايتها . . . وعلى الشغيلة الالمان المتقدمين الذين تنهال ضربات العدو الرهيبة عليهم ، ان يبنوا حزباً جديداً » . كان بالامكان الاحتجاج بأن من غير المنطقي المطالبة بتكوين حزب شيوعي جديد ، من دون تكوين اممية جديدة ، لكن الاحداث التاريخية لم تكن تتم كلياً وفقاً لقواعد المنطق ، وكان يجب الانتظار لرؤية ما اذا كانت احزاب شيوعية اخرىستستخلص دروس التجربة الالمانية[٩٨] .

إذا كانت قد تكونت لدى تروتسكي هكذا آمال فقد تبددت سريعاً ، إذ

---

(٩٧) مأساة البروليتاريا الألمانية ، في ١٤ آذار / مارس ، في أعداد أيار من الـ B.O ، العدد ٣٤ .

(٩٨) المرجع ذاته .

اعلنت الهيئة التنفيذية للكومنترن ، خلال الدورة الأولى التي تلت انتصار هتلر ، ان هذا النصر خال من اي معنى ، واكدت ان استراتيجية الحزب الالماني وتكتيكه كانا سليمين تماماً من البداية حتى النهاية ، وحظرت على كل الاحزاب الشيوعية الأخرى فتح نقاش حول هذا الموضوع (٩٩) ، ولم يجرؤ حزب واحد على أن يتحدى هذا الحظر . وقد كان المشهد مهيناً وصفيقاً لدرجة ان تروتسكي اعلن ما يلي : «إنمنظمة لم يوقظها قصف رعد الفاشية قد ماتت ، ولا شيء سوفيعيدها الى الحياة» . وفي تموز/ يوليو ، اعلن انه ليس كافياً بناء حزب شيوعي جديد في المانيا ، لقد آن اوان وضع اللبنات الأولى لاممية جديدة(١٠٠) .

إلاأنه لم يكن يتوصل دائماً الى حسم مسألة معرفة إذا كان على الاممية الجديدة ان توسع نشاطاتها لتشمل الاتحاد السوفياتي ، اي اذا كان على اتباعه في ذلك البلد أن يتوقفوا عن اعتبار انفسهم تكتلاً تابعاً للحزب القديم ويؤسسواحزباً جديداً ظل طيلة اشهر عديدة يحذرهم من هكذا نمط في العمل . وكان يصر على ضرورة ان تتوقف نشاطات الاممية الرابعة عند حدود الاتحاد السوفياتي . كان لا يزال يرى في الاحتكار البلشفي للسلطة ، ورغم الاستخدام السيء لذلك الاحتكار على يد ستالين ، الشرط اللازم Sine Qua Non لكل بقاء للثورة حية. ظل يؤكد انه لن يصبح من واجب المعارضة ان تتشكل في حزب مستقل الا اذا تخلت عن كل امل باصلاح النظام ، واذا اعادت توجيه نفسها في وجهة كفاح ثوري ضد الستالينية . وهذا ما لم يكن عليها ان تقوم به. كان بإمكان اممية جديدة الامتناع عن العمل داخل الاتحاد السوفياتي ، لان مفتاح الوضع في الحركة العمالية لم يعد مذاك في الاتحاد السوفياتي ، ولم يكن لدى المعارضة اي حظ في تطوير نشاطها هناك ، على الاقل في المستقبل القريب. هكذا كانت مسألة حزب شيوعي جديد اكاديمية بحتة . وإن اصطفاف القوى لم يكن ليتغير في الاتحاد السوفياتي ، إلا اذا اتخذت الاممية الجديدة ، خلال نموها ، طابع قوة سياسية حيوية في بلدان اخرى . وقبل كل شيء ، قد يكون تقدم الثورة في الغرب(تقدم لم يكن يمكن ان يتحقق بقيادة الستالينية) هو الذي سيحل المضغطة التي كانت

(٩٩) Kommunisti cheskii International ، ١٩٣٣ ، العدد ٣٦ ، ص ١٧ B.O ، العدات ٣٦ ـ ٣٧ ، ١٩٣٣ .

(١٠٠) B.O ، استشهاد مذكور .

تشد الستالينية بها الاتحاد السوفياتي ، ويعطي المعارضة الشيوعية مجدداً قوة جديدة[١٠١] .

لا شك ان ذلك الموقف لم يكن متماسكا ، وسرعان ما رجح منطق هذا المشروع الجديد كفة الميزان لدى تروتسكي . كان من غير المعقول التوصية بتشكيل حزب جديد من دون تشكيل اممية جديدة ، وكان من غير المعقول ايضا ان تمتنع هذه الاممية الجديدة عن كل عمل داخل الاتحاد السوفياتي . وهكذا توصل تروتسكي في تشرين الاول أوكتوبر **١٩٣٣** إلى استنتاج ان على المعارضة أن تشكل حزباً جديداً ايضاً في الاتحاد السوفياتي[١٠٢] . تطلّب الأمر ستة أشهر ليتوصل الى هذه الخلاصة . واذ فعل ذلك ، كان عليه أن يعيد النظر في بعض وجهات النظر التي تمسك بها بحزم طوال ست سنوات . لم يعد مذاك نصيراً للاحتكار السياسي للحزب الحاكم . سيكون علي الحزب الجديد ، منذ ولادته ، ان يعمل لا على الاصلاح واستبدال الحكومة الستالينية بالطرق الدستورية ، بل على اطاحتها ثورياً . مذاك ، هل كان لا يزال يعتبر الاتحاد السوفياتي دولة عمالية ، او كان يرى الآن في نظامه نوعاً ترميدوريا بونابرتيا من الثورة المضادة ؟ هل كان على المعارضة ان تواصل اولا تواصل ، التعهد بالدفاع غير المشروط عن الاتحاد السوفياتي ؟

بيّن تروتسكي انه بعد كل تجارب السنوات الأخيرة ، سيكون صبيانياً ان يعتقد المرء بامكانية اطاحة ستالين خلال مؤتمر للحزب او مؤتمر للسوفييتات. « لم يعد هنالك طريق دستوري للتخلص من الزمرة الحاكمة ، والقوةوحدها يمكن ان تجبر البيروقراطية على تسليم السلطة للطليعة البروليتارية » . الا ان تلك الطليعة كانت مطحونة ومشتتة ، ولم تكن قادرة على الكفاح من أجل السلطة في مستقبل قريب . لذا كانت مسألة الاصلاح او الثورة ، في الاساس ، مسألة توجه على المدى البعيد . لم يكن في وسع المعارضة ان تطالب بالسلطة ، الا اذا

---

(١٠١) يروي بيير فرانك أن تروتسكي حاول خلال أسابيع واشهر أن يتخذ قراراً بصدد هذه النقاط . شاهده سكريتيروه يذرع الغرفة كل يوم جيئة وذهاباً ، طوال ساعات ، صامتاً ، متوتراً ، مأخوذاً بمأزقه . « كان وجهه مغطى بالعرق الغزير ، وكان يمكن الشعور بالجهد البدني لفكره المتردد . »

(١٠٢) استشهاد مذكور . مارس تروتسكي إعادة النظر تلك في بحثه بعنوان : **الطابع الطبقي للاتحاد السوفياتي** ، الذي أنهى كتابته ، وفقاً **للمحفوظات** ، في أول تشرين الأول / أوكتوبر ١٩٣٣ . اما تاريخ اول اوكتوبر ١٩٣٢ ، المعطى لهذا البحث في الـ B.O ، العددان ٣٦ ـ ٣٧ ، فليس غير خطأ مطبعي .

ضمنت دعم غالبية الطبقة العاملة ، ولم يكن في وسعها الحصول على تلك الاغلبية ، من دون تحولات اجتماعية تمهيدية في روسيا ، وتغيرات جذرية على المسرح العالمي، وقبل كل شيء من دون تقدم الثورة خارج الاتحاد السوفياتي. بعدهكذا تحولات وتبدلات ، سيجد الجهاز الستاليني نفسه ، على الارجح ، معلقاً في الفراغ ، وستتمكن المعارضة ، مدعومة بالضغط الشعبي ، من الانتصار عندئذدون ثورة او حرب اهلية. وإذا ظل ستالين والمتعصبون له ، رغم انعزالهم يتشبثون بالسلطة ستتمكن المعارضة، عندئذ ، من طردهم بمجرد « الاستعانة برجال الشرطة » . فإزاء هذا المد الصاعد للطاقة السياسية للطبقة العاملة ، ستكون الستالينية ضعيفة للغاية ، « وذلك بالضبط لأنها كانت تمد جذورها في الطبقة العاملة لا في مكان آخر ». لم يكن ستالين قوياً الا برضوخ الشغيلة وخضوعهم ، كي لا نقول بدعمهم النشط ، وبدون هؤلاء ، تكفي نفقة صغيرة لاطاحته(١٠٣) .

لقد اعاد تروتسكي تأكيد أن الاتحاد السوفياتي لا يزال دولة عمالية . لما كان التملك الاجتماعي لوسائل الانتاج يتغلب على اي شيء آخر فالمجتمع السوفياتي كان قد دخل في مرحلة انتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية ، حتى اذا كان يدفع ثمناً باهظاً لكل خطوة يخطوها الى الامام. ومهما تكن اهمية امتيازات البيروقراطية ، فلقد ظلت « زائدة رديئة على جسم الطبقة العاملة لا طبقة مالكة جديدة » . لم تكن امتيازات انعدام المساواة الاجتماعية المتنامية انعكاساً لنموذج جديد من الاستغلال، كما كان يدعي الراديكاليون المتطرفون ، بل عواقب الفقر والقلة . لكن بما أن الامتيازات وانعدام المساواة كانت محرضاً على الانتاج والمردود ، فقد كانت الى حد ما ، « الادوات البورجوازية للتقدم الاشتراكي » . قد يُعرِّض حكم البيروقراطية الطغياني والطفيلي للخطر كل مكاسب الثورة ويتسبب بالثورة المضادة ، لكن قد يمكنه أيضاً ان يصبح « الأداة ـ اداة تافهة ومكلفة في كل حال للتطور نحو الاشتراكية » . « في الوقت الذي تبذر فيه .. البيروقراطية السوفياتية جزءاً عظيماً من الدخل القومي ، تجد مصلحتها في دفع النمو الاقتصادي والثقافي للأمة فكلما كان الدخل القومي ، في الواقع مرتفعاً ، كلما كانت اوفر وأغزر نسبة امتيازات البيروقراطية ، الا ان التقدم الاقتصادي والثقافي لجماهير الشغيلة ، الذي تحقق على الأسس الاجتماعية

(١٠٣) B.O ، استشهاد مذكور .

للاتحاد السوفياتي ، لا بد ان يهدم قاعدة حكم البيروقراطية » . هكذا قبل عشرين عاماً من نهاية الحقبة الستالينية ،كان تروتسكي قد توقع انه، بتصنيع الاتحاد السوفياتي ونشر التعاليم في صفوف الشعب ، يمكن ان تدمر الستالينية الأرض التي نمت عليها وكانت تغذيها ، ارض الفقر والجهدوالهمجية البدائية(١٠٤) .

إذ توقف تروتسكي عن الدفاع عن نظام الحزب الواحد في الاتحاد السوفياتي ، كرر مع ذلك تحذيراً سابقاً : « إذا امكن هز التوازن البيروقراطي للاتحاد السوفياتي في الوقت الحاضر ، فسيكون ذلك بصورة شبه مؤكدة لصالح القوى المضادة للثورة » . وقد جدد التزامه بالدفاع غير المشروط عن الاتحاد السوفياتي . « على الاممية الجديدة . . قبل ان تتمكن من اصلاح الاتحاد السوفياتي ، ان تضطلع بواجب الدفاع عنه . وكل تجمع سياسي يجحد هذا التعهد ، بحجة ان الاتحاد السوفياتي لم يعد دولة عمالية ، يخاطر بان يصبح اداة سلبية في يد الامبريالية . . . » ، وقد اضاف ان على المنضمين للاممية الجديدة « ان يقاتلوا في ساعة الخطر المميت حتى آخر متراس » ، دفاعاً عن الاتحاد السوفياتي (١٠٥) .

إلا أنه في حين كان يلح بكل قوة على واقع ان الاتحاد السوفياتي لا يزال دولة عمالية ، اذا حكمنا عليه على اساس بنيته الاقتصادية ، فقد كان يرى الآن انه لم يعد غير بركان هامد ، بما هو عامل من عوامل الثورة العالمية : « منذ بداية الحرب العالمية الأولى ، وبصورة أوضح منذ ثورة اوكتوبر ، لعب الحزب البلشفي دوراً موجهاً في النضال الثوري الاجمالي ، لكنه فقد الآن هذا الوضع الموجِّه » . فلقد كانت البلشفية الرسمية ، هذه « المحاكاة الساخرة للحزب » ، لكن كذلك المعارضة البلشفية ، عاجزتين ، بحكم الشروط الصعبة التي تعملان ضمنها « عن ممارسة وظيفة قيادية على المستوى العالمي » . « لقد انزلق مركز الثقل الثوري بوضوح نحو الغرب ، حيث الامكانات المباشرة لبناء

---

(١٠٤) B.O ، استشهاد مذكور . « واضح أن البير وقراطية لن تظهر ، في هذه المصادفة التاريخية الملائمة ، الا كأداة ـ أداة تافهة ومكلفة ـ للدولة الاشتراكية . » لكنه لم يكن يعتبر إطلاقاً كأمر اكيد أن تكون هذه المصادفة الملائمة قادرة على التحقق فعلاً .

(١٠٥) B.O ، استشهاد مذكور .

حزب جديد أوفر بكثير » . لقد اطلق فكرة اممية رابعة وهو مقتنع بأن الاندفاعات الثورية الجديدة ستأتي من الغرب لا من الاتحاد السوفياتي(١٠٦) .

رأينا الى اي حد تردد تروتسكي قبل ان يتخلى عن كل اشكال الولاء للامية الثالثة . لم تكن أسباب تردده صعبة الاكتشاف لأنه هو ذاته كان قد صاغ اعتراضاته مراراً على ما كان يفعله الآن . كان يؤكد ان شغيلة كل البلدان يتطلعون الى الأممية الثالثة لتدلهم على الطريق ، وكان يقول إنهم يرون فيها الوريثة الشرعية للامميتين الأولى والثانية والتجسيد بالذات لفكرة الثورة الروسية .

وطالما بقي الاتحاد السوفياتي دولة عمالية ، وبقيت الكومنترن متضامنة معه ، فالنخبة الواعية من الشغيلة على حق في البقاء على ولائها للكومنترن . ولم يكن الآن أكيداً تماماً ان هذا الاستدلال فقد كل صحته ، كما لم يكن سهلاً بالنسبة اليه ، نظراً للدور الذي لعبه في الاممية الثالثة ، ان يعلن قطيعته النهائية معها .

إنه من النادر جدا ان يجد أحد المهندسين الرئيسيين لحركة كبيرة حية، ان يجد في نفسه القوة للاعلان بان هذه الحركة لا تساوي شيئاً. وبالنسبة لتروتسكي، كانت إدارة الظهر للاممية الثالثة اصعب بكثير مما كان التخلي عن الثانية في عام ١٩١٤. وفقط إخفاق الكومنترن المذهل دفعه الى فعل ذلك، كان يوافق على ان ثمة فرقاً بين ١٩١٤ و١٩٣٣. ففي عام ١٩١٤، كان قادة الاممية الثانية قد خانوا، بدعمهم الحرب الامبريالية، عن سابق تصور وتصميم وبعينين مفتحتين كلياً، الوكالة المعطاة لهم. بينما في عام ١٩٣٣ سهلت الكومنترن انتصار هتلر نتيجة لعماها وبفعل انعدام صرف للمسؤولية. الا ان كارثة ١٩٣٣ كانت من نواح اخرى اسوأ من كارثة ١٩١٤. فخلال الحرب العالمية، الأولى، أبلَّ الماركسيون الثوريون سريعا من تلك الضربة: كانت زيمرفالد وكيينتال والثورة الروسية تشهد على احتجاج شديد ضد الافساد الاشتراكي- الامبريالي للماركسية. بينما لم يرتفع اي احتجاج مماثل ضد فداحة ما جرى عام ١٩٣٣، ولم يكن سيرتفع من الحركة الشيوعية. لم تساهم سياسة الكومنترن فقط في خسارة كل ما كانت ربحته الحركة العمالية الالمانية خلال نضالات امتدت على أربع وعشرين سنة، ولم تؤد تلك السياسة فقط الى تحول خطر حرب عالمية اخرى، بل اليقين بتلك الحرب، لواقع

(١٠٦) المرجع ذاته .

ملموس . بل اكثر من ذلك ، جرى كل ذلك بالتلازم مع حذر ولا مبالاة غامضين من جانب الحركة بكاملها . تساءل تروتسكي : ما الذي جرى لفهم الجمهور الاوسع للشيوعيين ولوعيهم السياسي ؟

خلص الى نتيجة مفادها ان الاصلاحية والستالينية افسدتا معاً نفوس الشغيلة وضربتا ارادتهم . وكان يعزز تلك القناعة لديه كون تحذيراته الواضحة جداً ، والمدوية جداً ، والتي أثبتتها الأحداث بصورة مذهلة للغاية ، مرت دون ان يلحظها احد . لم يكن احد يعرف افضل منه الى اي حد مرت تحذيراته دون ان يلحظها احد ، لأنه في رسالة وجهها الى سوبوليفيسيوس ، لاحظ في بداية عام **١٩٣٢** ان المعارضة التروتسكية اخفقت في ان تستقطب في المانيا حتى عشر شغيلة مصنع حقيقيين ، وانها لم تجتذب الا بعض المثقفين ، وبعض المهاجرين [١٠٧] . على الاقل ، خلال الحرب العالمية الأولى ، انضم عدة آلاف من الشغيلة الالمان الى حزب سبارتا كوس السري وتجاوبوا مع التشهير بـ ٤ آب/ اغسطس ، الذي كانت روزا لوكسمبورغ وكان كارل ليبكنخت يزعقان به من زنزانتيهما . لكن الآن ، بعد انتصار هتلر ، كانت كل الاحزاب الشيوعية في العالم تستقبل التبريرات الذاتية والتهانيء الذاتية للكومنترن في صمت بارد . ألم يكن باقياً هنالك شرارة ذكاء ، وتضامن اممي ومسؤولية في كل تلك الاحزاب ؟ ذلك كان السؤال الذي يطرحه تروتسكي ويعيد طرحه باستمرار . واذا كان الامر كذلك ، فالستالينية قد جعلت الحركة الشيوعية بكاملها تنحط إذاً ، بصورة لا مجال معها للعلاج ، بحيث اية محاولة لاصلاحها كانت قد غدت عملاً مستحيلاً . كان تروتسكي قد امضى حتى ذلك الحين عشر سنوات من عمل سينريف هذا ، وكان يرفض الاستمرار في دفع الصخرة الثقيلة نحو اعلى ذلك الجبل الكئيب .

وكان ممضاً أكثر بالنسبة إليه ان يتخلى عن الحزب السوفياتي ، الحزب الذي أسسه لينين ، والذي أنجز الثورة ، والذي ارتفع تروتسكي داخله الى العلى . في السنة السابقة ، بعد النفي الثاني لزينوفييف وكامينيف وسميرنوف ، وبريوبراجنسكي ، وآخرين ، كان يبدو أن المعارضة الموحدة لاعوام **١٩٢٥** -

---

(١٠٧) رسالة الى سينين سوبوليفيسيوس في ٦ آذار / مارس ١٩٣٢ : المحفوظات ، القسم المقفل .

١٩٢٧ ستولد من جديد . كانت كل رسالة واردة من موسكو تشير الى انه ، في الهزة التي كانت تتم آنذاك على مستوى الامة ،حتى حاشية ستالين كانت تتطلع الى التخلص منه . لكن منذعام ١٩٣٢ ، كان ستالين قد استعاد مرة اخرى هيمنته . نجح في ذلك لأنه تبنى مرة جديدة أيضاً بعض التدابير التي كان تروتسكي قد دعا اليها . اعطى الاقتصاد برهة للتنفس ، في نهاية الخطة الخمسية الأولى . وجاءت الاهداف التي حددها للخطة الثانية أقل ارتفاعاً واكثرواقعية ، وقدم تنازلات للفلاحين المجمَّعين . وهكذا هدأ الخواء والاضطرابات وحتى الجَيَشَان الداخلي للحزب . وبدل أن تضعف الكارثة الالمانية ستالين وطدت سلطته . فلقد احس اولئك الذين ادركوا ما يترتب على تلك الكارثة بان ذلك الوقت لم يكن مناسباً لتهديم استقرار حكومة موسكو . اعطى إرساء نظام كلياني في المانيا اندفاعة جديدة للتوجه نحو الكليانية في الاتحاد السوفياتي . وفي حين كانت صيحة Ein Fuhrer . eine Partei , ein Volk ! تدوي في المانيا ، شعرت الهرمية السوفياتية ، والعديد من مناضلي القاعدة انه قد لا يمكن الثورة والاتحاد السوفياتي ان يستمرا على قيد الحياة الا بقيادة زعيم أوحد . وفي ايار/ مايو ١٩٣٣ ، استسلم زينوفييف وكامنيف مرة اخرى ، وعادا من المنفى . كانا قد استسلما للستالينية في المرة الأولى في عام ١٩٢٧ ، ولم يركعا امام شخص ستالين . وفي كل حال ، لم يكن احد ينتظر منهما ان يفعلا ذلك . وحين طلب منهما ذلك بالحاح في ١٩٣٢ ، لم يتمكنا آنذاك من الرضوخ للطلب ، الا انهما توصلا الى فعل ذلك في عام ١٩٣٣ . واذ انكرا نفسيهما مَجَّداً في الوقت ذاته عصمة ستالين عن الخطأ ، وعبقريته الفريدة .

كل هذا قد تم في الفترة التي كان تروتسكي ينطلق فيها في مشروع الاممية الرابعة ، لكنه لم يكن مستعداً بعد لطلب تكوين حزب جديد في الاتحاد السوفياتي . ان الطريقة الظافرة التي عام بها ستالين فوق الازمة ، والهالة الاوتوقراطية الجديدة التي احاطت به ،ومشهد الاستسلامات الاخيرة ،كل ذلك دفع تروتسكي الى قطع الصلات التي كانت لا تزال تربطه نظرياً الى الحزب القديم . كتب معلقاً على « قدر زينوفييف وكامينيف المأساوي » ، « إن المؤرخ القادم الذي سيرغب في اظهار كيف تخرِّب فترة من الهزات الكبرى الطبائع دونما شفقة ، سوف يتخذ زينوفييف وكامينيف كمثلين . . . أصبح الجهاز الستاليني آلة تطحن العمود الفقري لأولئك الذين كانوا ثوريين في الماضي . . » . وكتب أيضاً : مثل

بطل غوغول ، يجمع ستالين الأرواح الميتة ، بما انه لا يجد ارواحاً حية[١٠٨] » . كل امل في تجديد الحزب السوفياتي كان انهار الآن لدى تروتسكي. كان من السذاجة الاستمرار في التوجه الى اناس مكسوري الظهر ، الى الروح الميتة . في كل حال ، لم تعد التقاليد الماركسية اللينينية موجودة في حزب يمكن ان ينحني امام اوتوقراطي. لن يمكن البلشفية ان تنبعث من جديد الا فقط بالاستقلال الكامل تجاهه ،وبتجاوزحدوده .

ذلك كان بايجاز شديد دفاع تروتسكي لصالح اممية جديدة . بعد أن تولى ذلك ولما كان حصل ، بعد النقاش ، على موافقة كل مجموعات انصاره ، لم يمض مع ذلك الى حد اعلان ان تلك المجموعات تشكل الاممية الرابعة . لما كان يدرك ضعفها،اكتفى باطلاق الفكرة ، أملاً بان تجلب له عدداً اكبر بكثير من المنتسبين ، وكان يكرر هكذا بصورة ما تجربته الخاصة به لمرحلة زمرفلد التي نلمح ذكراها في كتاباته وسلوكه آنذاك . بين اللحظة التي بدأ هو ولينين يناديان خلالها بضرورة بناء اممية ثالثة عام ١٩١٥ وتلك التي جمعا فيها مؤتمراً لتأسيس الاممية ،كانت قد انقضت اربع سنوات من العمل الاعدادي . على منوال ذلك ، لم يكن « وارداً ، في الحاضر ، إعلان فوري للاممية ، بل فقط عمل تمهيدي . . التوجه الجديد يعني ان كل ثرثرة حول الاصلاح [للمنظمة الستالينية] ، وكل طلبات عودة المعارضين المطرودين من الحزب ، ينبغي ان يجري التخلي عنها نهائياً . . . لقد توقفت المعارضة اليسارية عن النظر لنفسها والعمل كمعارضة من داخل الحزب[١٠٩] » . سوف يلزمه اربع سنوات قبل ان يعلن عن استعداده للدعوة لمؤتمر تأسيسي .

لم تكن الآمال التي وضعها في اممية جديدة عام ١٩٣٣ بالجموح الذي بدت عليه فيما بعد . ففي القضية الالمانية ، فقدت الكومنترن حظوتها كلياً ، بينما سجلت التروتسكية انتصاراً معنوياً مذهلاً . إذا كانت كل النداءات التي اطلقها تروتسكي ، حتى ذلك الحين ،ـ ونستعيد هنا فكرة تروتسكي ـ نحو الرأي الشيوعي الاوروبي لم تجد غير القليل القليل من الاصداء ، فلقد كان ذلك ، الى حد بعيد ، لأن النقاط الاساسية في مساجلته مع ستالين ، الشؤون الداخلية

---

(١٠٨) B.O ، العدد ٣٥ ، ١٩٣٣ .

(١٠٩) B.O ، العدد ٣٦ ، ١٩٣٣ .

السوفياتية ومسألة الثورة الصينية ، كانت بعيدة جداً عن الشيوعيين الاوروبيين او غامضة جداً بالنسبة اليهم . لكن خلال الطور الأكثر قرباً ، كانت المساجلة قد تمحورت حول المانيا ، قلب اوروبا . اصاب صعود هتلر كل حزب شيوعي بصورة مباشرة ، طرح مشكلات الحياة او الموت ، اعاد وضع الحرب على جدول الاعمال وهدد بازالة الشيوعية من الوجود . زد على ذلك ان تروتسكي والكومنترن خاضا النقاش علانية، وبكل قوة، حتى الوقت الذي تكفلت فيه الاحداث بحسم الخلاف . لم يكن هنالك ادنى شك حول نتيجة الامتحان . كانت الحجج مع والحجج ضد ،- او كان يجب ان تكون - ، حاضرة جداً في ذهن كل واحد . كان يمكن كل شيوعي ان يعود اليها الآن ويفكرفيها من جديد ، ولم تكن الخلاصة التي تستنتج منها موضع شك هي الاخرى . كان اولئك الذين قادوا الحزب الشيوعي الأقوى في الغرب الى هزيمة مشينة إلى ذلك الحد مدانين بعدم صلاحية تلامس الخيانة ، وفقدوا أي جدارة بالقيادة السياسية . من هنا أثبتت المعارضة ، او كان يمكن ان تثبت ، انها تطالب بالقيادة السياسية بصورة مشروعة .

ما من شك أبداً في ان وعي ذلك كله بدأ ينتشر في صفوف الستالينيين . كان قد امكن الكومنترن مهاجمة تروتسكي بلهجة حاقدة ، والهزء به « لأنه كان يلعب لعبة بعبع الاطفال » ، « يبالغ في الخطر النازي » ، و « يدفع نحو تشكيل جبهة موحدة مع الاشتراكيين- الفاشيين » . اما الآن فكانت تلك السخرية تنقلب على اصحابها بقوة . كان الارتباك والخجل يستوليان على العديد من خلايا الحزب وكان الموقف الواعي والجريء الذي اتخذه تروتسكي يفعم حتى بعض الستالينيين المتصلبين باعجاب غير معترف به(١١٠). تشكلت مجموعات تروتسكية او شبه تروتسكية جديدة بين اللاجئين الالمان الذين افلتوا من الارهاب الهتلري وبين الشيوعيين البولنديين والتشيكيين والهولنديين والاميركيين وغيرهم . كانت تلك المجموعات صغيرة ، لكن لم يكن يمكن تجاهل تأثيرها ، وكانت تجذب نحوها اعضاء في الحزب متوقدي الذهن وممتلئين اخلاصاً ، وتقتحم وعي الشيوعية وتجبر الستالينية على الوقوف موقف الدفاع. ولم يستطع القادة ان يهدئوا الاستياء في

---

(١١٠) انهم سيعجبون هم أنفسهم بهذا « الاعجاب غير المعترف به » ، بعد ذلك بوقت طويل ، حين سيصبحون أحراراً في فعل ذلك . البعض خرجوا من المعبر الذي اختاروه ليتمكنوا من التكلم عليه لمؤلف سيرة تروتسكي هذه .

الصفوف الا عن طريق نداءات مجنونة الى الوطنية الحزبية وتهديدات بالطرد وعمليات طرد فعلية . ولم تستطع الكومنترن ، من جهتها ، ان تبدد هذا الاستياء ذاته الا عن طريق قلب مواقفها ، رامية في البحر الشعارات المتعلقة بالاشتراكية ـ الفاشية ، ومتبنية تكتيك الجبهة المتحدة ، لا بل ذاهبة ابعد ، الى حد تبني تكتيك الجبهة الشعبية . بالاضافة الى ذلك ، هز انهيار جمهورية وايمار الاحزاب الاشتراكية ـ الديمقراطية . كان ايمانها بالديمقراطية البرلمانية قد تلقى صدمة قاسية ، ولم يعد هناك حزب اشتراكي في اوروبا لم يسجل في برنامجه بصورة احتفالية ، تحت تأثير التجربة الالمانية ، شكلاً ما من الديكتاتورية البروليتارية . داخل تلك الاحزاب ، كانت المجموعات اليسارية او الراديكالية تدير وجهها نحو تروتسكي وتجد افكاره اكثر عقلانية بكثير ، واكثر جاذبية بكثير ، من تلك التي تقدمها الشيوعية الرسمية . تلك الفترة سجلت اذا حقاً ذروة نفوذه السياسي في المنفى ، واذا كانت وجدت فرصة ما لتكوين حزب شيوعي مستقل ، فقد وجدت في تلك الفترة بالذات .

إلا ان الحجج التي كان قدمها هو بالذات ، بصورة متواصلة ومقنعة للغاية ، ضد نمط العمل الذي كان يتبناه الآن لم تكن فقدت شيئاً من قوتها . كان لا يزال صحيحاً ، طالما بقيت الملكية القومية لوسائل الانتاج دون مساس في الاتحاد السوفياتي ، وبقيت راية البلشفية ترفرف فوق موسكو ، ان اتحاد الشيوعية الاممية بالاتحاد السوفياتي لا يمكن ان ينفصم . وبالنسبة لكتلة الذين كانوا يتعاطفون مع الشيوعية، كانت لا تزال دولة الشغيلة الأولى متراس الثورة الاممية . كانت الاحزاب الشيوعية الرسمية تمارس عليهم جاذباً لا يقاوم . لم يكونوا يجدون بديلاً من القيادة الستالينية التي كانت تمثل بالنسبة اليهم الثورة الروسية والتراث البلشفي . كانت البيروقراطية الستالينية نجحت حقاً في التماثل مع اللينينية والماركسية عموماً . كان عمال أحواض السفن الفرنسيون المناضلون وعمال مناجم الفحم البولنديون ورجال الغوار الصينيون مجمعين على أن يروا في حكام موسكو أفضل من يحكمون بشأن المصلحة السوفياتية ، ومستشارين للشيوعية العالمية يمكن الوثوق بهم . هكذا نفهم الطاعة غير العقلانية التي كانوا يقبلون بها غالباً بالانعطافات والانقلابات والأوامر الاكثر عبثية للسياسة الستالينية . وكان المعارضون يظهرون لهم كأعداء للاتحاد السوفياتي والشيوعية ، تماما كما كان اعداء الكرسي الرسولي ، بالنسبة للكاثوليك المتعبدين ، هم اعداء المسيحية .

كل ذلك كان يثير التطير من مشروع تروتسكي . كانت افكاره وشعاراته من

النوع الذي لا يمكن أن يتأثر به غير المتعاطفين مع الشيوعية . ومع ذلك ، فإن هؤلاء الناس كانوا اولئك الذين قد يشعرون بأنهم اقل الناس اندفاعاً للالتحاق بأممية جديدة ؛ كانوا قد ظلوا طويلاً من دون الاستجابة لنداءات تروتسكي لاصلاح احزابهم ، بحيث كانوا كذلك أقل استعداداً لأن يحركهم نداؤه الداعي بالحاح إلى القطع مع تلك الاحزاب .

ولم يكن يمكن انعكاسات الكارثة الالمانية ان تشجع قيام الاممية الشيوعية الجديدة ، مهما تكن بلغت الامميتان القديمتان من فقد للاعتبار . كانت كل من الامميتين القديمتين قد ولدت من صعود الحركة العمالية ، وقامت عليه ؛ وفي لحظة تكوين كل منهما ، لم يكن عليها أن تكافح ضد منافس قائم(١١١) . اما الاممية الرابعة فكان عليها ان تواجه منافستين قائمتين وقويتين ، في فترة جمود عميق للحركة العمالية . في المانيا ، كانت الطبقة العاملة حقاً ، كما توقع تروتسكي ، عاجزة عن النهوض من كبوتها خلال السنوات العديدة التي تلت . لكن بالضبط بسبب ذلك ، لم يكن يمكن التروتسكية أن تستخلص اي مكسب عملي من الميزة المعنوية التي حصلت عليها في القضية الالمانية . وفي البلدان الأوروبية الأخرى، كانت الطبقة العاملة ستستمر في الانكفاء خلال ما بقي من العقد، رغم رجفة النشاط التي عرفتها فرنسا واسبانيا في عام ١٩٣٦ . هذه السلسلة الطويلة من الانكفاءات والهزائم ولدت وباء اخلاقياً لم تجد معه المرافعات الاكثر اقناعاً لصالح اممية جديدة اي صدى . كان تروتسكي يبرهن على أن الطبقة العاملة بحاجة لقيادة جديدة ، وذلك بالضبط بهدف ايقاف الانكفاء واعادة التجمع من اجل الدفاع والهجوم المضاد . لكن جمهور الاشتراكيين والشيوعيين ، على الاقل اولئك الذين احتفظوا بشجاعتهم ، لم يكونوا يريدون تبديل المربط وسط المجازة . هكذا استمرت الامميتان القائمتان تزدهران ، وذلك حتى بأخطائهما وهزائمهما ؛ ورفض اتباعهما ، مهما تكن مخاوفهم ، السعي وراء قادة جدد وطرق نضال جديدة ، تحت الضربات التي كانت تنهال بها عليهم النازية والفاشية . كانوا مستعدين ، في ظل الرايات القديمة المألوفة ، للانتقال في وحل الهزائم المتلاحقة ، اكثر من الالتحاق براية جديدة لا يمكنهم ان يروا من ورائها الصورة

(١١١) من أجل تتمات هذا الصراع ولا سيما قضية التروتسكيين البولنديين المعارضين لتأسيس الأممية الرابعة، أنظر الفصل الخامس .

العملاقة ، لكن الملغزة أو المشبوهة لحامل الراية .

كان تروتسكي مقتنعاً بأن الكومنترن ، كمنظمة ثورية ، لم تعد تلعب أي دور . وهو لم يكن مخطئاً تماماً . فبعد ذلك التاريخ بعشر سنوات ، سوف يحل ستالين المنظمة ويعلن انها لم تعد تفيد في شيء . لكن خلال تلك السنوات سوف تضيف الكومنترن إلى الافلاس الالماني اخفاقين جديدين في فرنسا وفي اسبانيا ، بالاضافة الى التباسات سياستها خلال فترة المعاهدة الالمانية - السوفياتية ، بين ١٩٣٩ و١٩٤١ . ومع ذلك ، لم تكن الحركة خلف الكومنترن ميتة أبداً ، وكل ما فعله ستالين لتدميرها معنوياً لم يتمكن من قتلها . وفي الفترة ذاتها التي حل فيها ستالين الكومنترن ، كانت احزاب اوروبا الغربية تلك تستمد قوى جديدة من مقاومتها الاحتلال النازي ، وتحت الرايات الستالينية ايضاً كانت الثورتان اليوغسلافية والصينية ستحققان النصر ، مع ان النزاع مع ستالين كان ضمنياً . هكذا رغم كل ما فعله ستالين لإذلال كل الاحزاب الشيوعية والحط منها عن طريق تحويلها إلى دور مجرد بيادق ، احتفظ الحزب اليوغسلافي والحزب الصيني واحزاب اخرى بحيوية كافية لتعيش حياتها الخاصة بها ، وخوض نضالها الخاص بها وتغيير قدر بلادها والعالم . اضف الى ذلك ان انتصار الاسلحة السوفياتية خلال الحرب العالمية الثانية سيعطيها دفعاً جديداً ، واندفاعة ثورية جديدة .

كانت الفكرة التي تقول إن الموجات الثورية الجديدة ستأتي من الغرب لا من الاتحاد السوفياتي لازمة مرافعة تروتسكي لصالح الاممية الرابعة . لم ينفك يؤكد من جديد ان الستالينية ، اذ تواصل لعب دور مزدوج ، تقدمي وتراجعي في آن معاً ، في الاتحاد السوفياتي لم تكن تمارس على المستوى العالمي غير تأثير مضاد للثورة . وهنا بالذات كان يفتقد فهم الواقع ، إذ كانت الستالينية تواصل لعب دورها المزدوج ، سواء على الصعيد الاممي أو على الصعيد القومي . كانت تحفز صراع الطبقات خارج الاتحاد السوفياتي وتعيقه في الوقت ذاته . في كل حال لم تكن الموجات الثورية لتأتي من الغرب في العقود الثلاثة او الاربعة التي تلت . هكذا فإن المقدمة المنطقية الاساسية التي استند اليها تروتسكي لتأسيس الاممية الرابعة كانت غير صحيحة . إلا انه لما كانت كل محاولاته لاصلاح الكومنترن غير مجدية ، رأينا انه لم يكن في وسعه الاستمرار زمناً اطول في عمل سيزيف هذا . كان عليه البحث عن حل آخر ، الا ان مهمته الجديدة سوف

تتكشف بعقم المهمة القديمة . لم يفعل سيزيف غير الانتقال مفعماً بالأمل من منحدر للجبل الكئيب إلى منحدر آخر ، وهناك استأنف دفع صخرته .

كنا رأينا كيف أن تروتسكي ، إذ أدار ظهره للكومنترن ، جعل مع ذلك أتباعه يتعهدون بالبقاء خندق الدفاع الاخير عن الاتحاد السوفياتي . هو ذاته ، حين كان يتوجه الى الرأي البورجوازي الغربي كان يسعى عبر مقالاته لأن يلفت انتباههم الى ان الرايخ الثالث يسرِّع تفجير الحرب العالمية . ومنذ ربيع ١٩٣٣ ، كان يحث الدول العظمى الغربية على عقد تحالف مع الاتحاد السوفياتي . خلال تلك الاسابيع الاولى والشهور الاولى من حياة الرايخ الثالث ، لم يكن ثمة رجل دولة غربي واحد يفكر في ذلك . كان هتلر يأخذ الآن مواقف داعية الى السلم، وإبان مؤتمر دولي لنزع السلاح ، وافق على خطط نزع السلاح التي وضعها اوستن تشامبرلن وجون سيمون، مثيراً ارتياح العالم الرسمي واستمتاعه العظيمين . وفي حزيران / يونيو ١٩٣٣ ، كتب تروتسكي بحثاً عن هتلر ونزع السلاح قال فيه : « إن الخطر العظيم يكمن في بخس تقدير العدو . . . لم يكن قادة الحركة العمالية الالمانية يريدون أخذ هتلر على محمل الجد . . . والخطر ذاته يمكن ان يتكرر على صعيد السياسة العالمية » . اشار الى اي حد كانت الحكومة البريطانية مستعدة للرد على « النوايا السلمية » و « الاعتدال » التي كان هتلر يبرهن عنها . « إن للروتين الدبلوماسي منافعه الخاصة به طالما تتبع الاشياء مجراها العادي والمألوف ، لكنه يتبلبل فوراً حالما يكون عليه أن يواجه وقائع جديدة مهمة . كان اوستن تشامبرلن وجون سيمون يتوقعان أن يجدا في هتلر مجنوناً شاهراً فأسه ؛ وعوضاً عن ذلك التقوا رجلاً يخبىء مسدساً في جيبه ، فأثلج ذلك صدرهما ! » كان ذلك أول نجاح دبلوماسي كبير يحققه هتلر . كان يهدف إلى اعادة تسليح المانيا استعادت منذ معاهدة فرساي موقعها كالأمة الصناعية الاقوى في كل اوروبا ، لكن غير المسلحة . « إن ذلك المزيج من القوة الكامنة والضعف الفعلي يحدد في الوقت ذاته الطابع المتفجر للمقاصد النازية والحذر الاقصى الذي يخطو هتلر به خطواته الاولى المفضية إلى تلك المقاصد والاهداف » . كان هتلر وافق على خطط نزع السلاح البريطانية ، وهو يعرف تماماً ان فرنسا لن تستطيع القبول بها ، وكان يعطيه ذلك الفرصة لجعل انكلترا في مواجهة فرنسا ولأن ينزل على هذه الاخيرة الاستنكار الذي سيثيره سباق التسلح لاحقاً . « ليس حب السلام لدى هتلر ارتجالاً دبلوماسياً عرضياً بل عنصر ضروري لمناورة اوسع ، معدة لجعل

ميزان القوة يميل بوضوح لصالح المانيا ولتهيئة زحف الامبريالية الالمانية على اوروبا والعالم » . كان تروتسكي يتوقع ان تقود المناورات الهتلرية حتماً إلى حرب عالمية خلال خمس سنوات او عشر ، إذا لم تتم الحيلولة دونها ، « وهتلر يرغب في الزحف على الاتحاد السوفياتي بالذات . لكن إذا لم يظهر أن خط المقاومة هذا هو الاضعف ، يمكن عندئذ أن ينقلب الاندفاع نحو الاتجاه المعاكس . . والاسلحة التي يمكن استخدامها ضد الشرق يمكن أن تستعمل ايضاً ضد الغرب(١١٢) » . وقد لفت تروتسكي الانتباه الى انه لا يشعر بنفسه « مضطراً للعمل كحارس لمعاهدة فرساي . ان اوروبا بحاجة لتنظيم جديد ، وويل لها إذا سقطت هذه المهمة في ايدي الفاشية ! »

خلال التصريحات المعطاة للصحافة الاميركية ، حث تروتسكي حكومة الولايات المتحدة (التي لم تكن اعترفت حتى ذلك العام ، السادس عشر للثورة ، بالحكومة السوفياتية) على التقارب مع الاتحاد السوفياتي بغية مواجهة تهديدات اليابان والمانيا(١١٣) . ونحن لا نعرف اذا كان لهذا التحريض تأثير ما على القرار الذي اتخذه الرئيس روزفلت بعد ذلك بقليل ، باقامة علاقات دبلوماسية مع موسكو . ومن المؤكد أن وجهات نظر تروتسكي اثرت على الدبلوماسية الستالينية التي سارعت الى التقاط موضوعة التحالف المعادي للنازية . حين كان الامر يتعلق بأمن حكومة ستالين بالذات ، كان هذا راغباً كلياً بالاستفادة من نصيحة خصمه ، حتى إن هو فعل ذلك في الغالب متأخراً ، وبطريقته الفظة والمحرفة دوماً .

في غضون ذلك ، كان الاتحاد السوفياتي يمدد اتفاقيات راپالو مع المانيا ، ومرة اخرى خضع متطرفو العداء للستالينية لاغراء فضح خيانة جديدة من جانب ستالين . أما تروتسكي فوجد القضية بالغة الجدية بحيث لا يَحْسُن جعلها موضوعاً للجدال ، واذ كان لا يكل من نزع القناع عن مسؤوليات كل من ستالين

(١١٢) () B ، العدد ٣٥ ، ١٩٣٣ . ظهر هذا المقال في المانشستر غارديان الصادرة في ٢١ ـ ٢٢ حزيران ١٩٣٣ ، بعد ثلاثة أسابيع على كتابته . ومن هذا المقال استعار ليتفينون ، وزير خارجية ستالين الجملة المستشهد بها غالباً ، التي تقول : « يمكن مدفعاً قادراً على إطلاق حممه نحو الشرق أن يطلقها كذلك نحو الغرب » .

(١١٣) أنظر مثلاً مقابلة تروتسكي مع النيويورك وورلدتلغرام في ٤ تموز / يوليو ١٩٣٣ .

والكومنترن في ارساء التفوق الهتلري ، كان مع ذلك لا ينكر على ستالين حقه في التصرف على الساحة الدبلوماسية وفقاً لمبررات نفعية . رأينا قبل عامين انه حث الحكومة السوفياتية على تعبئة الجيش الاحمر إذا هدد هتلر بالاستيلاء على السلطة . لكن فعل ذلك وهو يتصور أن اليسار الالماني سيكون واقفاً على سلاحه ضد النازية وأنه سيكون على الجيش الأحمر في هكذا حالة أن يقدم الدعم له . لكن تروتسكي كان يلاحظ الآن ان الانتصار الذي حققه هتلر من دون اراقة دماء والتدمير الكامل لليسار الالماني ، رجحا كفة الميزان لغير مصلحة الاتحاد السوفياتي ، لا سيما ان الاتحاد السوفياتي كانت قد اضعفته داخلياً حملة التجميع الستالينية . كان من حق الدبلوماسية الستالينية ، بالتالي ، ان تتحفظ وتدخل في مفاوضات وحتى ان تسعى لتسويات مؤقتة مع هتلر . أعلن تروتسكي بتجرد مذهل تقريباً ، انه إذا اخذت المعارضة السلطة في الظروف الراهنة لن تكون قادرة على التصرف بشكل مختلف . «سيكون على المعارضة ، في **اعمالها الفعلية المباشرة** ، ان تنطلق من توازن القوى القائم . ستكون مضطرة ، بوجه خاص للابقاء على علاقاتها الاقتصادية والدبلوماسية مع المانيا هتلر . في الوقت ذاته ، يكون عليها ان تهيىء ردها ؛ ستكون تلك مهمة عظيمة تتطلب الكثير من الوقت ، مهمة لا يمكن انجازها بحركات مذهلة ، بل تتطلب اعادة تركيب جذرية للسياسة في كل الحقول[١١٤] » . هكذا لم يترك حكمه يتغشى بأي انفعال شخصي ضد ستالين وبقي موضوعياً الى حدود الصرامة .

كانت تلك الشهور هي الاخيرة التي أمضاها تروتسكي في برنكيبو . منذ وقت ، كان اصدقاؤه الفرنسيون ، ولا سيما موريس باريجانين ، المترجم له ، قد طلبوا بالحاح الى الحكومة الفرنسية ان تلغي التدبير الذي طرد تروتسكي بموجبه ، عام ١٩١٦ ، إلى الأبد ، ومنحه حق اللجوء . كان تروتسكي متشككاً ، ويعتقد أن الحكومة الراديكالية التي شكلها ادوار دالادييه لتوه ستكون مهتمة بتحسين علاقاتها مع الاتحاد السوفياتي ولن تسمح بوجوده في فرنسا . لكنه بذل ما في وسعه لتسهيل الامر . كان قد اتخذ لتوه ترتيبات لينشر في نيويورك دراسة لا تملق فيها حول شخصية ادوار هيريو ، كان كتبها بعد قليل من اصطدامه بالشرطة في مرسيليا . فامتنع عن نشرها مخافة أن تضع الماء في طاحونة من يعارضون

(١١٤) B.O ، العدد ٣٥ ، ١٩٣٣ .

دخوله الى فرنسا . وقد كتب ايضاً الى هنري غيرنو ، وزير التعليم العام الذي دافع كعضو في الحكومة لأجل منح تروتسكي حق اللجوء ؛ ووعد رسميا بالتصرف بأقصى الحذر في فرنسا وبأن لا يسبب اي مشكلة للحكومة(١١٥) .

انقضت اسابيع من دون أن يُتخذ قرار ، اسابيع كتب خلالها تخطيطاً اولياً لافكاره حول الاممية الرابعة ، وكتب ايضاً عدة أبحاث صغيرة حول موضوعات حاليات سياسية وادبية تتعلق بفرنسا . جعله التردد النسبي حيال المستقبل القريب يبتعد عن مخططات ادبية اوسع بكثير ، وهو ما تسبب بأزمة مالية لم يعرفها منذ عام **١٩٢٩** . فالرحلة الى كوبنهاغن ، ومرض زينا ، وانتقال ليوفا للاقامة في فرنسا ، وتحويل الـ Bulletin الى فرنسا ، كل ذلك كان قد تطلب نفقات ضخمة في الوقت ذاته الذي كان فيه دخله قد نقص نقصاً كبيراً . ففي المانيا حيث لاقت مؤلفاته الكبرى جمهوراً واسعاً من القراء ، منع النازيون كتاباته وأحرقوها هي وكل الادب الماركسي والفرويدي ، وذلك فوراً بعد صدور الجزء الثالث من **تاريخ الثورة الروسية** ؛ وفي الولايات المتحدة ، لم يكن **تاريخ الثورة الروسية** يجد هناك أيضاً، عدداً وافراً من القراء. كان قد كتب منذ آذار/مارس الى **معجب بريطاني** : « اصبحت ازمة العالم المالية أزمتي انا أيضا ، خصوصاً لأن مبيعات **تاريخ الثورة الروسية** مثيرة للرثاء » . من حين لآخر ، كان يعطي مقالاً **للمانشستر غارديان** وصحف اخرى،لكن كان المردود هزيلاً.ولتسريع القرار المتعلق بتأشيرته الفرنسية ، كتب في ٧ تموز / يوليو الى هنري مولينييه يقول له إنه يكتفي بتصريح بالاقامة يسمح له بالبقاء ، لا في فرنسا المتروبولية بل في كورسيكا ، لأنه حتى في ذلك المكان سيكون على احتكاك اكثر وثوقاً بالسياسة الاوروبية ، ومهما يكن ابعد عن الغيبيو مما في برنكيبو(١١٦) . إلا ان اصدقاءه الفرنسيين طلبوا له حق اللجوء الى فرنسا ، وسرعان ما تمت الاستجابة لإلحاحهم ، فقبل منتصف تموز / يوليو حصل على التأشيرة . لم يكن ذلك ، بالتأكيد ، إذنا بالاقامة دون تحفظ ، بل جرى الترخيص له بالاقامة في إحدى المقاطعات الجنوبية ، بحيث لم يكن من حقه المجيء الى باريس ، حتى في زيارة خاطفة . كان عليه البقاء في حالة تخفٍّ كامل ، وان يخضع لرقابة صارمة من جانب الشرطة .

---

(١١٥) المحفوظات ، القسم المقفل .

(١١٦) المحفوظات ، القسم المقفل .

وافق على هذه الشروط على انها فرصة لا تُصدَّق . كان سيخرج اخيراً من تلك المستنقعات التركية الراكدة ، ويمضي الى فرنسا تلك التي كان اسلوب حياتها وثقافتها ينسجم عميقاً مع ذاته ، فرنسا تلك التي كانت الآن المركز الرئيسي للسياسة العمالية الغربية . لما كان يستعد للسفر ، مفعماً بتوقعات سعيدة ، ألقى نظرة الى الوراء على السنوات التي قضاها في برنكيبو ، فكتب في يومياته : « منذ اربع سنوات ونصف ، حين وصلنا إلى هنا ، كانت شمس الرخاء لا تزال تشرق على الولايات المتحدة ، اما الآن فتبدو تلك الايام بعيدة بعد ايام ما قبل التاريخ ، أو بعد رواية من روايات الجن . . . هنا ، على جزيرة الهدوء والنسيان هذه ، تصلنا أصداء العالم الواسع خافتة ومتأخرة تقريباً » . لم يستأذن الق بحر مرمره ورحلات الصيد البحرية إلا وهو يستشعر انقباضاً في القلب . كان يفكر بالانفعال ذاته في اولئك الصيادين الأمناء ، الذين كان بعضهم ممن « حفر عظامهم ملح البحر » قد مضوا قبل قليل يرتاحون بسلام في مقبرة البلدة ، بينما كان على الآخرين ان يناضلوا خلال سنوات الجمود تلك بصورة أقسى وأقسى لبيع نتاج صيدهم .

«اصبح البيت فارغاً. جرى إنزال الصناديق الخشبية، وتدق فيها المسامير أيدٍ فتية . كانت أرض الڤيلا المتداعية القديمة قد دهنت بدهان غريب في الربيع. الى حد أنه حتى الآن، بعد اربعة اشهر، لا تزال الطاولات والكراسي واقدامنا تلتصق بها. . . أشعر كما لو كان لدي الاحساس الغريب بأن قدميَّ ارسلتا جذورهما في أرض برنكيبو(١١٧)» .

لم يكن القدر قد وفر عليه في تلك الجزيرة الخيبات والآلام ؛ هنا كان ظلُّ الموت قد غشّى بالنسبة إليه اكثر من نهار ، وحتى ساعات الرحيل . الشيء الاخير الذي كتبه في برنكيبو ، إذا استثنينا رسالة وداع وتشكرات للحكومة التركية ، كان نعياً مرفقاً بترجمة موجزة لحياة البلشفي القديم ، سكريبنيك ، احد قادة انتفاضة اوكتوبر ، ثم ذلك الستاليني المتحمس فيما بعد ، الذي اصطدم بستالين وانتحر(١١٨) .

إلا انه رغم كل المحن ، كانت السنوات التي امضاها تروتسكي في برنكيبو الأكثر هدوءاً وخلقاً والاقل تعاسة في منفاه .

---

(١١٧) Pered Otyezdom ، ١٥ تموز / يوليو ١٩٣٣ .

(١١٨) يحمل النعي تاريخ ١٥ تموز / يوليو ، وظهر في الـ B.O لشهر تشرين الأول / أكتوبر ، العدد ٣٦ ـ ٣٧ .

الفصل الثالث

الثوري كاتب التاريخ

تماماً كتوسيديد ودانتي وماكيافللي وهاينه ، وماركس وهرزن ، ومفكرين وشعراء آخرين ، لم يبلغ تروتسكي الكاتب أوجه إلاخلال النفي ، خلال سنوات برنكيبو القليلة . فالاجيال اللاحقة ستتذكره كمؤرخ مثلما ستتذكره كقائد لثورة اوكتوبر . ما من بلشفي آخر انتج ـ أو كان بإمكانه أن ينتج ـ رواية بهذا الاتساع وهذا الألق لاحداث ١٩١٧ ؛ وما من احد بين الكتاب العديدين المنتمين للاحزاب المعادية للبلشفية قدم نسخة معاكسة لهذه الرواية تتمتع ببعض القيمة . كان يمكن ، باكراً جداً ، تمييز الوعد لدى تروتسكي برائعة من هذا الطراز . تشكل اوصافه لثورة ١٩٠٥ حتى اليوم البانوراما الأكثر حيوية للتمرين العام لعام ١٩١٧ . لقد كتب روايته الاولى ، تحليله الاول لجَيَشان عام ١٩١٧ ، بعد أسابيع فقط على انتفاضة اوكتوبر ، خلال الاستراحات بين جلسة وأخرى من مؤتمر السلام في برست ليتوفسك . وفي السنوات التي تلت ، استمر يشتغل في تفسيره التاريخي للأحداث التي كان بطلها الرئيسي . كانت فيه Vis historica مزدوجة : حاجة الثوري الآمرة لصنع التاريخ ، والحافز الخاص بالكاتب لوصفه وادراك كنهه .

كل المبعدين يتأملون ماضيهم ، لكنْ عددٌ صغير فقط ، عدد صغير منهم يغزون المستقبل . إلا انه ما من واحد بينهم تقريباً كان عليه ان يكافح من اجل حياته ادبياً ومادياً كما كان على تروتسكي أن يفعل . باديء ذي بدء ، أنزل ستالين به النفي على طريقة الرومان ، اي كبديل من الحكم بالموت . لكنه لن يكتفي بهذا البديل . فحتى قبل أن يتم اغتيال تروتسكي مادياً ، اجتهد قتلته الادبيون طيلة سنوات ، فمحوا في البدء اسمه من حوليات الثورة ، ثم اعادوا إدخاله مورطاً بشكل مزدوج في المعركة : دافع عن الثورة ضد اعدائها ، ودافع عن المكانة التي شغلها فيها . ما من كاتب خلق عمله الأهم ضمن شروط مماثلة ، معدة جيداً لالهاب كل عواطفه ، ولحرمانه من كل فكر هاديء وتشويه رؤيته . كانت كل الاهواء ملتهبة لدى تروتسكي ،لكن فكره ظل هادئاً وظلت رؤياه شفافة . كان يذكرّ غالباً بحكمة سبينوزا : « لا تبكِ ، أو لا تضحك ، لكن

افهم » . هو ذاته لم يكن في وسعه الامتناع عن الضحك او البكاء ، ومع ذلك كان يفهم .

قد لا يكون صحيحاً كلياً القول إنه ، كمؤرخ ، جمع الى الروح المتحزبة المتطرفة موضوعية صارمة . لم يكن بحاجة الى الجمع بينهما : كانتا تشكلان في الواقع حرارة عمله وضوأه . وكما الحرارة والضوء كانتا تشكلان زوجاً لا ينفصم . كان يزدري حياد العالِم وعدالته التوفيقية ، العالِم الذي يزعم الوقوف عند سور مدينة مهددة وتأمل المحاصِرين والمحاصَرين في الوقت ذاتـه[1] . كان موقعه الخاص به تماماً كما كان في سنوات ۱۹۱۷ ـ ۱۹۲۲ ، داخل الاسوار المهدَّدة لمدينة الثورة . ومع ذلك ، فإن واقع المشاركة في النضال ، بدل أن يعكر رؤ يته يجعلها اكثر حدة ونفاذاً . إن عداءه للطبقات القديمة التي كانت تحكم روسيا وحيال داعميها طوعاً او بدون ارادتهم ، يجعله يرى بوضوح ، لا نقاط ضعفهم أو مساوئهم وحسب ، بل كذلك فضائلهم الهزيلة وغير الفعالة . هنا كما في افضل الفكر العسكري ، تسير الروح الحزبية المتطرفة والملاحظة الموسوسة في إنصافها جنباً الى جنب . فبالنسبة للجندي الجيد لا شيء أهم من تكوين صورة واقعية عما في الجانب الآخر من التلة ، صورة يغشيها الانفعال او الاماني الورعة . ولقد عمل تروتسكي كقائد عام لثورة اوكتوبر متبعاً هذا المبدأ ، ويفعل تروتسكي المؤرخ الشيء نفسه . يتوصل في رسمه للثورة الى اقامة الوحدة بين العناصر الموضوعيّة والذاتية .

إن كتاباته التاريخية هي ديالكتيكية اكثر بكثير من اي مؤلَّف انتجته المدرسة الفكرية الماركسية منذ ماركس ، وهو يدين لماركس بمنهجه واسلوبه . وبالمقارنة بين مؤلفات ماركس التاريخية الصغرى ، **كصراع الطبقات في فرنسا** ، و**۱۸برومير لويس بونابرت** ، **والحرب الاهلية في فرنسا** ، **وتاريخ** تروتسكي ، تظهر الأولى كمصغرَّات إلى جانب لوحة جدارية واسعة . لكن في حين يتفوق ماركس على تلميذه بقوة التجريد لديه وبخياله القوطي ، يتفوق التلميذ على معلمه كفنان ملحمي ، ولا سيما كسيد للتصوير النابض حياة للجماهير والأفراد وهم يعملون . ثمة انسجام بين تحليله الاجتماعي ـ السياسي ورؤ ياه الفنية ، بحيث لا

---

(۱) يرجع تروتسكي بوجه خاص ، في هذا الصدد ، الى لويس مادلين ، وكان مؤرخاً فرنسياً رجعياً ، وبالتالي رائجاً . أنظر مقدمة تاريخ الثورة الروسية ، الجزء الأول .

نجد أبداً اثراً لأي تنافر ؛ ينطلق فكره وخياله معاً ، وبتناغم تام . يعرض نظريته عن الثورة خلال توتر السرد بالذات واندفاعه ، ويستمد سردُه عمقَه من افكاره . إن مشاهده ، ورسومه ، وحواراته ، ذات الغلاف الملموس والساطع ، تضاء كذلك من الداخل بفضل مفهومه للسيرورة التاريخية . والعديد من النقاد غير الماركسيين أثرت فيهم هذه السمة المميزة لمؤلِّفه . هوذا مثلاً ما كتبه المؤرخ البريطاني أ . ل . رووز :

« لا تكمن الاهمية الحقيقية لتاريخ تروتسكي في المقدرة على الرسم التي تتميز بها كلماته ، او في طابع المشهد الذي يقدمه ، علماً أن هذه الموهبة هي في الواقع متألقة للغاية وقاطعة للغاية بحيث تذكّر دائماً بكارليل . ثمة شيء من تقنية هذا الاخير وحتى من تكلفه ، في الطريقة التي تمر بها الاضواء الخاطفة على المشاهد ، والتي تُنقل بها الاحداث الغريبة بوجه خاص بوضوح فريد وبحيث تُبرِز المعنى العام . نجد لديه أيضاً الصعوبة نفسها في متابعة تعاقب الاحداث ، لأن الأضواء باهرة تعْشي النظر ! لكن حيث لم يكن كارليل يستدل الا بقدرة الحدس الرائعة عنده ، يمتلك تروتسكي نظرية عن التاريخ تسمح له بالتقاط ما هو ذو معنى ، وبربط الاشياء فيما بينها . ويمكن إبراز هذه الملاحظة بصورةاكثرملاءمة عن طريق مقارنة عمل تروتسكي بكتاب **الازمة العالمية** لونستون تشرشل ، لأن الرجلين يتشابهان من حيث الطبع والمواهب الذهنية . لكن ثمة ايضاً ، سنلاحظ الفرق ، إذ ان تاريخ السيد تشرشل لا ينطوي على فلسفة للتاريخ ، رغم شخصيته وإشراقه وحيويته[٢] » .

إن الملاحظة بصدد التشابه القائم بين تروتسكي وتشرشل سليمة . فمن طرفين متعاكسين ، يمثل الرجلان المزيج ذاته من الواقعية والرومانسية ، والمشاكسة ذاتها ، والميل ذاته للنظر وللانطلاق أبعد من طبقتيهما ووسطيهما ، والحاجة الآمرة ذاتها لصنع التاريخ وكتابته . ولا حاجة لأن ننكر على تشرشل « فلسفة للتاريخ » ، حتى إن لم يكن يعتنقها إلا بصورة غريزية ؛ لكنه صحيح أن فلسفة تروتسكي للتاريخ هي نظرية مكتملة التكوّن والتبلور . ما يهم هو أن هذا الـ **Weltanschauung** النظري يخترق حساسيته ، ويوسع حدسه ويمنح رؤيته حدة خارقة .ومع أنه يشارك كارليل قوة الصور واشراقها الباهر ، فهو يمتلك كذلك

---

(٢) أ . ل . رووز ، **End of an Epoch** ، ص ٢٨٢ - ٢٨٣ .

القدر الاكبر من الكثافة والوضوح في التعبير والتوازن بين المؤرخين الكلاسيكيين . وفي الحقيقة أنه المؤرخ العبقري الوحيد الذي انتجته حتى الآن المدرسة الفكرية الماركسية ، لكن الذي نبذته ايضاً حتى الآن[٣] .

من بين مؤلفات تروتسكي التاريخية الكبرى : **حياتي** و**تاريخ الثورة الروسية** ، لا شك ان الأول هو الاقل طموحاً . فلقد كتبه مبكراً جداً ، مع انه لو لم يكتبه عام **١٩٢٩** او بعد قليل ، كان يمكن أن لا يكتبه على الاطلاق . إنه يروي ، اجمالاً ، نصف تاريخه ، النصف المتعلق بانتصاره الثوري ، وهو لا يفعل اكثر من تخطيط بداية النصف الثاني الذي كان لا يزال في طريق النمو . وقد أنجز هذا الكتاب خلال عدة اشهر من النفي ، وبعد حوالى خمس سنوات فقط من بدء صراعه حقاً مع ستالين . كان النزاع لا يزال حديثاً جداً ، وإذ كان يرويه أعاقته اعتبارت تكتيكية وافتقاد المنظورات . إن ما سيحياه خلال الاحدى عشرة سنة اللاحقة لن يكون ذا وزن كبير في ذاته وحسب ، بل سينعكس كذلك على تجربته السابقة . وكل حياته كانت ستتخذ وهج المأساة من نهايتها الخطيرة والقاتمة . لقد ختم كتابه **حياتي** بتحدٍّ موجه لأولئك الذين كانوا يتكلمون على مأساته : « إنني أستمتع بعرضٍ أفهم كل مشهد من مشاهده . . . » هذا ما كان يردده بعد برودون . « ما هو بالنسبة للآخرين سبب في جفافهم يسمو بي . . . ويلهمني ويقويني ؛ هكذا إذاً . . . كيف يمكنني أن اشكو من القدر[٤] . . . ؟ هل كان كرر هذه الكلمات بعد سنوات ؟ بمعنى ما ، إذا كان علينا ان نؤكد أن المأساة تتضمن بالضرورة كفّارة البطل ، لم يكن ثمة في الواقع اي مأساة في حالة تروتسكي . لم يكن ثمة في حالته أي كفّارة ، وذلك حتى النهاية . فمثل شيلي ، لم يكن يمكنه تحمُّل أن ينتهي بروميثيوس الخاص به بإذلال نفسه أمام جوبيتر . كان « تروتسكي يشمئز من كارثة بهذا الهزال » . كانت مأساته المأساة الحديثة للرائد المتنازع مع معاصريه ، المأساة التي كان يرى مثالاً لها في بابوف ، في حين كانت مأساته ، بالتأكيد ، أوسع بكثير ، وذات قوة اشد كارثية بما لا يقاس . ومع ذلك ، لا تنطوي سيرته الذاتية على اي حدس بهذا النوع من

---

(٣) إلا أن هذا ليس صحيحاً إلا بمقدار ما يمكن وصف الحركة الشيوعية في ظل ستالين وفي ظل خروتشوف كحركة ماركسية .

(٤) حياتي ، ج ٢ ، ص ٣٣٨ .

المأساة ، وهو ما يساهم في إعطائنا الانطباع بنوع من السطحية في الطريقة التي يتصور بها الكاتب قدره ، سطحية نموذجية للبطل التراجيدي ، عشية الكوارث التي ستنهال عليه من كل الجهات .

إن الجزء الاقل إقناعاً في **حياتي** هو ذلك الذي يضم الفصول الاخيرة ، التي يسرد فيها قصة نضاله ضد ستالين . حتى هنا يقدم لنا غنى في نفاذ البصيرة ، وفي الحادثة ، كما في تصوير الشخصيات ؛ لكنه لا يأخذ الاشياء من جذورها ، ولا يفسر سيطرة ستالين إلا نصف تفسير . يبالغ في وصف ستالين كمجرم **Ex machina** ، ويستمر في رؤ يته كما كان يراه قبل سنوات ، تافهاً للغاية بحيث لا يمكن ان يكون منافسه ، وبالأحرى أن يضطلع بالدور الأول على مسرح الاتحاد السوفياتي والشيوعية الأممية طوال ثلاثة عقود . كتب يقول : « بالنسبة للمجموعة القائدة للحزب (لأنه في الدوائر الاوسع ، لم يكن معروفاً إطلاقاً) ، بدا ستالين دائماً رجلاً معداً للعب دور العازف الثاني والثالث » ، وقد أوحى بأنه رغم واقع وصول ستالين لموقع العازف الأول ، فهو سيخطىء في العزف قريباً ، وقريباً جداً(٥) . والكل يذكر ان لينين كان قد وصف ستالين في وصيته كـ « احد الرجلين الأكثر مقدرة في اللجنة المركزية » ، على اساس ان الآخر هو تروتسكي ، وانه حذر الحزب من ان التنافر القائم بين هذين الرجلين هو الأفدح بين الاخطار التي تهدد الثورة . لم يكن في وسع تروتسكي أن يسكت عن الاسباب السياسية الأعمق لنفوذ ستالين ، وقد صوّر ستالين كتجسيد لجهاز الحزب وللبيروقراطية الجديدة المتعطشة للنفوذ والامتيازات . ومع ذلك كان يعجز عن أن يفسر بصورة مقنعة لماذا قدم الكوادر القياديون البلاشفة دعمهم لهذا الاغتصاب ، ثم تواطؤوا معه ، ولماذا اوصل كل ذلك إلى أشكال خارقة الى هذه الدرجة على صعيد الصراع الداخلي للحزب . إن تروتسكي يتجاهل عملياً ، سواء كمؤلف لسيرته الذاتية او كقائد للمعارضة ، العلاقة الجوهرية القائمة بين حظر البلشفية كل الاحزاب ، وحظر ستالين له بشكل أساسي . لم يكن يرى لماذا سيدير الحزب ضد نفسه الاسلحة التي كان استخدمها بصورة اقل وحشية بكثير ضد اعدائه ؛ وان يكون فعل ذلك ظهر له كنتيجة لمؤامرة محضة(٦) .

---

(٥) المرجع ذاته ، ص ٢٤٧ ، ج ٢ .

(٦) المرجع ذاته ، ص ٢٢٧ - ٢٣٤ .

إلا أن كتاب **حياتي** يبقى رائعة من روائع السيرة الذاتية . ويقارن فرانسوا مورياك ، بحق ، فصوله الأولى بأوصاف للطفولة نجدها لدى تولستوي وغوركي[٧] . إن تروتسكي يمتلك نداوة الرؤية الطفولية ذاتها ، والذاكرة البصرية التي لا تنفد ذاتها ، والقوة ذاتها في استرجاع جو ومحيط ، والسهولة الظاهرة ذاتها في إحياء الطباع والمشاهد . تكفي لمسة صغيرة أو لمستان لوصف تكشيرة ، حركة ، ألق نظرة ، ولتعريفنا هكذا بالطبيعة الروحية لكائن بشري ولصفته الاخلاقية . هكذا يصوّر مجموعات كاملة من الاقارب والخدم والجيران ومعلمي المدارس وهكذا دواليك . . . وإليكم بعض الأمثلة ، علماً أن لنثره حبكة مكثفة ، وانه لا يمكن أي مقتطف أن يمتلك ، بأي درجة من الدرجات ، الاهتزاز الحيوي ذاته الذي يمتلكه في سياقه . هوذا يصف مديره في مدرسة أوذيسا ، بالشكل التالي : « لم يكن يتطلع ابداً الى الشخص الذي يكلمه ، وكان يجول في المماشي والصفوف دون ضجيج على كعبيه المطاطيين . كان يتكلم بصوت رفيع ، وأجش ، وعالي الطبقة ، صوت يمكن أن يثير الرعب حتى لو لم يرفعه . . كان يكره البشرية بطبيعته . . . كان يبدو هادئاً معتدل المزاج ، لكنه كان داخلياً في حالة عصبية مزمنة » . ويضيف تروتسكي ان احد معلميه « كان رقيقاً ، ذا شاربين منتفشين على وجه أصفر مائل الى الخضرة ، وكانت مقلتاه شاحبتي اللون ، وحركاته بطيئة كما لو كان يستيقظ من نومه . كان يسعل بضجيج ويبصق في ارض الصف . . . وكان نظره يحدق دائماً بشيء ما أبعد من تلامذته . . . بعد عدة سنوات ، حزَّ عنقه بموسى حلاقة » . وهي ذي صورة معلم آخر : « رجل عالي القامة مهيب ، يضع نظارتين بإطارين ذهبيين على أنفه الصغير ، وله لحية رجولية فتية تحيط بوجهه الممتلىء . فقط حين كان يبتسم ، كان يُلاحَظ فجأة أنه فاقد للارادة ، خجول وممزق داخلياً » . وهذه ايضاً صورة اخرى : « هذا الالماني الضخم ، برأسه الضخم ولحيته التي كانت تصل إلى زناره ، كان يجر جسمه الثقيل ، الذي يشبه وعاء لطف وود ، على ساقين شبه طفوليتين ؛ كان شخصاً من أشرف الناس ، وكانت إخفاقات تلامذته تجعله يتألم حقاً[٨] . . . » .

يرينا تروتسكي ختم القدر على عائلات مالكي الاراضي الكبار ، جيرانه ،

---

(٧) ف . مورياك ، **Mémoires intérieures** ، ص ١٢٨ - ١٣٢ .

(٨) حياتي ، ج ١ ، ص ٦٧ - ٧١ .

تلك العائلات التي كانت تتطور كلها وبسرعة فائقة في الاتجاه نفسه ، اتجاه السقوط . « كان الريف بكامله ملكاً في الماضي لاحدى تلك العائلات ، لكن سليلها يعيش الآن على كتابة عرائض ، واسترحامات ورسائل للفلاحين . حين كان يزورنا ، كان معتاداً على حشو التبغ وقطع من السكّر في اكمامه ، وهو ما كانت تفعله زوجه ايضاً . كانت تروي لنا ، ولعابها يسيل ، قصصاً من شبابها عن أقنانها ، وبيانواتها المذيَّلة ، وألبستها الحريرية وعطورها . وقد كبر ولداهما وبقيا أميّين تقريباً . وكان أصغرهما ، فيكتور ، يتعلم المهنة في مشغلنا » . واليكم هذه الصورة السريعة لمالك ارض يهودي : « كان قد تربى على الطريقة الارستقراطية يتكلم الفرنسية بطلاقة ويعزف البيانو . . . كانت يده اليسرى ضعيفة ـ حسب قوله ـ لكن اليمنى جيدة بما يكفي للعزف في حفلة موسيقية ؛ غالباً ما كان يتوقف عن العزف وينهض ويذهب نحو المرآة، وإذا لم يكن احد هناك، كان يحمّص لحيته من كل الجهات بواسطة سيجارة مشتعلة . هكذا كان يجب العناية باللحيـة ، في نـظره » . وخلف تلك المجمـوعـات من مـالكي الاراضي المفلسين ، ومن المزارعين محدثي النعمة ، والشغيلة المهزولين ، والاقارب المتنوعين ، يحس المرء دائماً بنَفَس السهوب الاوكرانية : « كان اسم فالز ـ فاين (مالك ارض ، « ملك الخراف ») يدوي كخطوات عشرة آلاف خروف تتقدم ، كثغاء عدد لا يحصى من الخراف ، كصفير راع في السهوب . . . كنباح جوقة كلاب رعاة ، كان السهب بالذات يزفر اسمه ، سواء في حرارة الصيف أو في برودة الشتاء[٩] » .

ينتقل بنا تروتسكي من إطار طفولته هذا إلى الحلقات الثورية الاولى في نيكولاييف وسجون اوذيسا وموسكو ، وجاليات المنفيين في سيبيريا ، ثم يقدم لنا كوكبة محرري **الايسكرا** ، والشقاق في المؤتمر الثاني للحزب وولادة البلشفية . في كل الأدب العائد الى تلك الحقبة ، ليس من كتاب مذكرات واحد ، أو رواية شاهد عيان واحدة ، يركزان صورة حية عن الانشقاق كالصورة التي نجدها في **حياتي** . إن واقع أن تـروتسكي كان منشفيـاً عام ١٩٠٣ ، لكنـه يصف الآن كبلشفي ، لعب دوراً مهماً في طريقة نقل الاجواء ، ووصف الشخصيات . ففي عودته الى الوراء ، يأخذ جانب لينين ، لكن ينبغي كذلك أن يبرر نفسه وأن يبرر مارتوف واكسلرود وزاسوليتش ، وان يفسر لماذا عارضوا لينين . وبخلاف

(٩) المرجع المذكور ، ج ١ ، الفصل الثاني .

كل كتّاب المذكرات البلاشفة والمناشفة تقريباً ، يصور كلاً من الجماعتين المتعارضتين من الداخل ؛ ومع أنه يدين المناشفة ونفسه سياسياً ، فهو يفعل ذلك بتفهم وعطف . قبل أن يغوص بنا في المساجلة السياسية ، يجعلنا نحس بالتصادمات الضمنية في الأطباع :

«لما كان مارتوف، الرفيق الاقرب للينين في السلاح، يعمل جنباً الى جنب معه ، فقد بدأ يشعر بنفسه متضايقاً بعض الشيء . كانا لا يزالان يتخاطبان بصيغة المفرد ، لكن نوعاً من البرودة بدأ يتسلل الى العلاقات بينهما ، فمارتوف كان يعيش في الحاضر اكثر بكثير . . . بينما كان لينين يحاول باستمرار أن يشق حجب المستقبل ، مع انه كان متحصناً بقوة في الحاضر . كان مارتوف يضج بفرضيات واقتراحات وظنون غالباً ما كانت تنم عن ذكاء ، وسرعان ما كان ينساها ، بينما كان لينين ينتظر الوقت الذي يصبح فيه بحاجة اليها . كانت الرهافة المعقدة لافكار مارتوف تجعل لينين يهز برأسه . . . لقد كان لينين « صلباً » ومارتوف « مائعاً » . وكان الاثنان يعرفان ذلك . كان لينين يوجه إلى مارتوف ، وكان يقدره تقديراً رفيعاً ، نظرات نقدية ومتشككة بعض الشيء ؛ وتحت تلك النظرات ، كان مارتوف يحني رأسه ويهتز كتفاه النحيلان برجفات عصبية . وحين كانا يتلاقيان فيما بعد ويتحادثان بحضوري ، كنت أشعر بغياب الدعابة وبانعدام المودة في تقلبات الصوت . فيما كان لينين يتكلم ، كان يتطلع الى ابعد من مارتوف ، وتصبح عينا الأخير آنذاك زجاجيتين ، تحت نظارته الانفية المغشاة دائماً بالبخار ، والتي على وشك السقوط دائماً . وحين كان لينين يحدثني عن مارتوف ، كان صوته يتخذ نبرة خاصة ـ من قال ذلك ؟ جوليوس ؟ ـ وكان يلفظ اسم جوليوس بصورة خاصة مع تفخيم وكما لتوجيه تحذير : إنه رجل شجاع ، لا شك في ذلك ، لا بل إنه رجل مرموق ، لكنه رخو أكثر من اللزوم[١٠] » .

فجأة يشعر المرء بالقدر يقف في تلك اللحظة بين « رفيقي السلاح الحميمين » ، وبالهزيمة معلقة فوق شخص مارتوف الضعيف والمائع . ولا ينسى

(١٠) المرجع المذكور ، ج ١ ، ص ١٧٥ ـ ١٧٦ .

تروتسكي شيئاً مما يدين به شبابه لمارتوف . وحتى حين يعطي حكمه النهائي ، يفعل ذلك بنوع من الحزن الدافىء . « كان مارتوف احد الوجوه الأكثر مأساوية في الحركة الثورية . فككاتب موهوب ، وسياسي لبق ، ومفكر نفّاذ ، كانت قامته تسيطر من علٍ على الحركة التي أصبح زعيمها ، لكن كانت تنقص فكره الجرأة ، وكان نفاذ بصيرته خلواً من الارادة ؛ وما كان في وسع العناد الصرف أن يعوّض ذلك . كان رد فعله الأول امام الاحداث يميل دائماً الى ان يكون ثورياً . لكن بعد التفكير كان يعود في العادة الى الوراء ، لأنه كان ينقصه العون الذي تقدمه ارادة فاعلة » . هذا النقص في الارادة الفاعلة مصوَّر هنا كالعيب الاساسي الذي يعيق عمل روح جريئة وطبع نبيل . لكن كم هو مغاير هذا الرسم التخطيطي لبليخانوف الموضوع بنفور خفي !

« . . . في الظاهر ، كان يدرك شيئاً ما . . . على الاقل كان يقول لأكسلرود وهو يتحدث عن لينين : « انه من المعدن الذي يصنع منه امثال روبسبيير » . إن بليخانوف بالذات لم يلعب دوراً يحسد عليه في المؤتمر . لم أره وأسمعه إلا مرة واحدة ممتلكاً كل مقدرته ، وقد كان ذلك خلال جلسة للجنة البرنامج . إذ كانت صورة البرنامج الواضحة والدقيقة والعلمية حاضرة في ذهنه ، وإذ كان واثقاً من نفسه ، ومن معرفته وتفوقه ، تتوقد عيناه بمرح ساخر ويتنبه شارباه الشائبان ويقفّان ، وتصدر عنه حركات متوقدة ومعبرة ومسرحية بعض الشيء ، فقد شعت شخصية بليخانوف ، من موقعه كرئيس ، على التجمع الواسع بأكمله ، مثل ألعاب نارية حيّة من العلم والذكاء[11] » .

كم من التخريب ، تحت الظاهر المقرِّظ في هذه الصورة المرسومة للرجل ، باغتباطه بنفسه ، وبغروره الذي يخترق تألقه ، وبالايحاء بالالعاب النارية التي ما تلبث ان تنطفىء وتغيب في الظلمات .

وليست اقل ايحاء ورسوخاً في الذهن تلك الصور السريعة الموضوعة للقادة الاشتراكيين الاوروبيين خلال الحقبة السابقة لعام ١٩١٤ ، من امثال اوغوست بيبل ، وكارل كاوتسكي ، وجان جوريس ، وفيكتور أدلر ، ورودولف هيلفردنغ ،

---

(١١) المرجع المذكور ، ج ١ ، ص ١٨٩ .

وكارل رينر وآخرين غيرهم . ففي مقطع قصير ، ممزوج غالباً بالدعابة ، يعالج حوادث تبدو تافهة ، ينبئنا تروتسكي عن العصر ورجاله اكثر مما تفعل كتب عديدة متفقهة . يروي مثلاً كيف انه توقف عام ١٩٠٢ ، بعد هربه من سيبيريا ، ولا فلس معه ، والجوع ينهشه ، لكن متشبعاً بأهمية مهمته في فيينا ، ومر على القيادة العليا للاشتراكيين ـ الديمقراطيين ، ليسأل فيكتور آدلر المشهور أن يقدم له المساعدة التي يحتاجها لأجل رحلته الى لندن . كان يوم احد ، وكانت المكاتب مغلقة . على الدرج التقى عجوزاً ليس في ظاهره أبداً ما يدعو الى الود ، وقد قال له : « اود ان ارى أدلر » ؛ فأجاب الرجل بصرامة : « هل تعرف في اي يوم نحن ؟ نحن في يوم الأحد » ، وحاول ان يقطع حديثه مع الدخيل . قال تروتسكي : « لا يهم ، اريد ان أرى أدلر » . فرد الرجل بلهجة واحد يقود فرقة الى المعركة : « قلت لك انه لا يمكن رؤية الدكتور ادلر يوم الاحد » . فحاول تروتسكي عندئذ أن يؤثر على الرجل العجوز ، مشدداً على الطابع الملح للقضية ، لكن الاخير ارغى وأزبد قائلاً :

«حتى اذا كانت قضيتك اهم عشر مرات ، أتفهم ؟ حتى إذا كنت تنقل لنا النبأ ، هل تسمعني ؟ ، أنَّ قيصركم قد اغتيل وأن ثورة اندلعت في بلدكم ، هل تفهمني ؟ حتى هذا لن يعطيك الحق في إفساد راحة الدكتور الاسبوعية » . كان هذا الرجل العجوز فريتز أوسترليتز ، رئيس تحرير الـ Arbeiterzeitung ، المشهور ، الذي كان يرهب من في مكتبه ، والذي اصبح عام ١٩١٤ احد الدعاويين الشوفينيين الاكثر تميزاً(١٢) .

على ذلك الدرج ، قيِّض للثوري الشاب ، الخارج حديثاً من الحركة السرية الروسية ، أن يواجه مباشرة تجسيد البيروقراطية المهتمة بالنظام والهرمية والغارقة في الروتين ، بيروقراطية الاشتراكية الاوروبية . وقد كفته جمل قليلة لنقل صورة لقائه مع أدلر ، الذي نجح رغم كل شيء في رؤيته : « رجل صغير ، منحن جداً ، شبه محدودب ، مع عينين منتفختين في وجه متعب » . وقد اعتذر منه تروتسكي لأنه عكر راحته الأسبوعية ـ « واصل ، واصل » ، اجاب أدلر بصرامة ظاهرة ، لكن بلهجة شجعتني بدل ان ترهبني . كانت كل تجعدة في

---

(١٢) المرجع المذكور ، ج ١ ، ص ١٦٥ .

وجه تهتز ذكاء ، وإذ روى له تروتسكي قصة اللقاء الغريب على الدرج بقي مفكراً : « من يمكن أن يكون هذا ؟ رجل كبير ، وكلمك هكذا ؟ وصرخ ؟ آه ، لقد كان أوستر ليتز ! لقد قلت إنه صرخ ، آه نعم ، كان هذا اوسترليتز ! لا تجعل من الحبة قبة ، وإذا أتيتني يوماً بنبأ مفاده ان ثورة اندلعت في روسيا ، يمكنك ان تدق على بابي ، حتى ليلاً » . وهذه السطور القليلة تواجهنا فوراً بعنصر آخر من الاشتراكية الاوروبية في الحقبة التي سبقت عام ١٩١٤ : الذكاء المرهف لرائد قديم ، يصبح مع ذلك تدريجياً الأسير المبجّل للرقيب الأول للحزب . والكتاب يمتلىء بمئات الاحداث الصغيرة والحوارات المقتضبة والمعبرة بالقدر ذاته .

وحين يصل إلى النقطة الحاسمة في حياته ، الى ثورة اوكتوبر والحرب الأهلية ، يصفهما تروتسكي بأكبر قدر من التحفظ ، بلمسات متفرقة وفي الغالب تنقيطية . ولنأخذ مثلاً يوضح ما نقول ، هاكم الطريقة التي يصف بها تيار الشعور الشعبي الكامن تحت الانتصار القصير للرجعية خلال ايام الجوع والعواصف في تموز/يوليو ١٩١٧ ، حين بدت البلشفية على آخر رمقها ، واختبأ لينين الذي جرى التشهير به كجاسوس الماني . هوذا تروتسكي ينقلنا إلى مطعم سوفييت بتروغراد :

« لاحظت أن غرافوف ، وكان جندياً مسؤولاً عن المطعم اعتاد أن يخصني بقدح شاي أشد حرارة ، أو بساندويش افضل مما يحظى به الآخرون ، متحاشياً النظر إليّ . كان يتعاطف بالطبع مع البلاشفة ، لكن كان عليه ان يخفي ذلك عن رؤسائه . بدأت انظر حولي بانتباه اكبر . لم يكن غرافوف الوحيد من نوعه : فكل صغار العاملين في سمولني ، من بوابين ، ورسل ، وحراس ، كانوا بلا شك مع البلاشفة . عندئذ بالذات شعرت بأن قضيتنا منتصرة نصفياً ، لكن فقط نصفياً حتى ذلك الحين[١٣] » .

ملاحظة من طفل ؛ طوق قميص لينين المتسخ غداة انتفاضة اوكتوبر ؛ صورة ممشى طويل ، مظلم ، مكتظ ، نشيط كقرية نمل ؛ حادثة مضحكة تحدث فجأة وسط معركة حاسمة ، وحوار قصير ومتوتر ؛ بهكذا تفاصيل

(١٣) المرجع المذكور ، ج ٢ ، ص ٣٦ - ٣٧ .

بشكل أساسي ، ينقل لنا تروتسكي جو مشهد تاريخي وألوانه . تكمن موهبته الفنية في المقاربة غير المباشرة لأحداث واسعة جداً بحيث يصعب وصفها مباشرة (في سيرة ذاتية) ، وضخمة جداً بالنسبة لكلمات ضخمة .

قيل إن حياتي تكشف أنانية تروتسكي ، و« مسرحته الذاتية Self-dramatization » . ولما كانت السيرة الذاتية ذاتية من حيث تحديدها ، فهذا الانتقاد يعادل القول إنه كان عليه أن لا يلجأ الى هذا النوع من الكتابة . هو ذاته ساورته وساوسه « الماركسية » التي استمرت حتى اللحظة ذاتها التي اعطى فيها عنواناً لكتابه . أعلن في ما يشبه الاعتذار : « لو اني كتبت هذه المذكرات في ظروف اخرى (مع اني لم اكن على الارجح لأكتبها في ظروف اخرى) لكنت ترددت في ادخال هذا القدر الكبير من الاشياء التي وضعتها في هذه الصفحات » . لكنه كان يشعر بنفسه مضطراً لوضع سد امام جُرْف التزويرات الستالينية التي كانت تغطي كل جزء من تاريخ حياته . « أصدقائي في السجن او في المنفى ، وانا مضطر للكلام على نفسي . . . ليست هذه مسألة حقيقة تاريخية وحسب ، إنها كذلك مسألة تتعلق بالنضال السياسي الذي لا يزال مستمراً » . كان موقفه موقف رجل امام القضاء ، متهم بكل انواع الجرائم التي يمكن - والتي لا يمكن - تصورها ، يحاول أن يبرر نفسه بأن يقدم للمحكمة تقريراً كاملاً عن أعماله ، فيقابل بالصياح بحجة أنه يهتم بذاته .

لسنا في صدد إنكار وجود أثر واضح للذاتية لدى تروتسكي . كان هذا جزءاً من طبيعته كفنان ، ونما في نفسه خلال السنوات السابقة للثورة ، حين كان يسير وحيداً ، لا مع البلاشفة ولا مع المناشفة ؛ ولقد اضطره التشويه الستاليني لتبني موقف دفاع عن الذات ، شخصي إلى ابعد الحدود ، وهو مادى الى دفع هذا الميل الى الواجهة . لكن قد لا يحق لنا ان نتكلم على « مسرحة ذاتية » إلا اذا كان من شأن سيرته الذاتية ، او اي سيرة حوله ، ان تظهر حياته ، من اي جهةكانت ، اكثر درامية مما كانت في الواقع . وربما كان اكثر صحة ان نقول انه قلل من درامية حياته الى حد ما ، لأنه لم يكن قد وعى بعد ، حين كتب **حياتي** ، الطابع التراجيدي لقدره . وسوف نرى فيما بعد انه لا يمكن القول إنه بالغ في ابراز الدور الذي لعبه في الثورة . فالبطل الحقيقي ، سواء في **حياتي** او في **تاريخ الثورة الروسية** ، ليس هو بل لينين ، الذي وضع نفسه طوعاً في ظله .

تتناول انتقادات اخرى لـ**حياتي** قلة استبطانه ، وفشل المؤلف في كشف أعماقه اللاواعية . صحيح ان تروتسكي لا يقدم لنا أي « مناجاة داخلية » ، ولا يقف عند احلامه وعقده ويَلْزَم تحفظاً شبه بوريتاني حول المسألة الجنسية . فنحن ، فوق كل شيء وقبل كل شيء ، ازاء سيرة ذاتية سياسية ، وسياسية بمعنى واسع جداً . إلا أن احترام المؤلف للنواة العقلانية في التحليل النفسي يظهر في العناية التي يصف بها طفولته ، غير مسقط أيا من الاشياء التي قد تكون لها قيمة المؤشر بالنسبة للمحلل النفسي : التجارب وأحداث سنوات الطفولة الاولى ، الالعاب ، الخ . . . ويبتدىء السرد بهذه الكلمات : « يبدو لي احياناً أن في وسعي تذكر العهد الذي كنت اثناءه في أحشاء أمي » . وهو يفسر لنا عرضاً حذره حيال الاستبطان الفرويدي . يقول في مقدمته : « ليست . . . الذاكرة متجردة ، فليس من النادر أن تلغي ، أو تُرجع إلى زاوية مظلمة ، احداثاً تعاكس الغريزة الحيوية المسيطرة لدى الفرد . . . وهذه مع ذلك مسألة تكون احياناً مبتكرة ومثقفة ، لكن في اغلب الاحيان وهمية واعتباطية » . كان قد تفحص التحليل النفسي بما يكفي من العمق والعطف بحيث يمكنه التعرف على احبولاته ؛ ولم يكن لديه لا الوقت ولا الصبر للانصراف الى تخمينات اعتباطية بصدد لاوعيه . وبدل ذلك ، قدم صورة لذاته تتميز بصدقها الواعي وبحرارتها الانسانية .

وكعمل سياسي ، لا ينجح كتاب ، **حياتي** ، في بلوغ هدفه المباشر . لم يحدث اي تأثير في الجمهور الشيوعي الذي كان يتوجه اليه في المقام الاول . فبالنسبة للاعضاء المتوسطين في الحزب ، كانت مجرد قراءته تشكل نوعاً من الكفر ، وهم لم يقرأوه . والاشخاص القليلون الذين قرأوه أحسوا بأنهم أُسيء اليهم او عوكسوا . فهم إما كانوا قد نذروا انفسهم لعبادة ستالين ، أو كان الكتاب يثبت في نظرهم الادعاءات الستالينية حول طموح تروتسكي الشخصي . صدمهم ان يروا قائداً للثورة يمارس فن الصورة الذاتية . « هاكم تروتسكي النرجسي ، في قمة تملقه لنفسه » : هذا هو التعليق النموذجي الذي كان يُسمع آنذاك . وهكذا كان الشيوعيون يهملون المادة التاريخية الغنية التي يقدمها لهم تروتسكي ، ووجهات نظره العميقة حول الثورة وتفسيره للبلشفية ، كل تلك الاشياء التي كان امكنهم ان يستمدوا منها العديد من الدروس لتكوينهم الشخصي . بالمقابل ، وجد الكتاب جمهوراً واسعاً من القراء البورجوازيين الذين اعجبتهم ميزاته الادبية ، في الوقت ذاته الذي لم تكن تهمهم فيه الرسالة التي يحملها ، وكان

بامكان تروتسكي ان يقول عن ذاته : Mein Leid ertönt der unbekannten Menge,
Ihr Beifall selbst macht meinem Herzen bang...» .

يتوّج **تاريخ الثورة الروسية** أعماله ، سواء باتساعه أو بقوته ، وكذلك لانه يعطي التعبير الاكمل عن افكاره بصدد الثورة . وبما هو قصة الثورة بقلم أحد أبطالها الرئيسيين ، يحتل مكانة فريدة في الادب العالمي .

يدخل بنا الى مسرح احداث عام **١٩١٧** عبر فصل بعنوان : « خصائص تطور روسيا » ، يعيد وضع الاحداث في عمق اعماق المنظور التاريخي . ونتعرف في هذا الفصل على رواية انضج واغنى من عرضه الاكثر قدماً الذي يتناول **الثورة الدائمة** ويعود الى عام **١٩٠٦**(١٤) . نرى فيه روسيا داخلة في القرن العشرين دون ان تكون تخلصت من العصر الوسيط ، أو دون ان تكون مرت بإصلاح وثورة بورجوازية ، لكنها تمتلك عناصر حضارة بورجوازية حديثة ، جرى ادخالها قسراً في نمط وجودها القديم . لما كانت مضطرة للمضي قدماً تحت الضغط العسكري والاقتصادي المتفوق للغرب ، فهي لم تكن تستطيع المرور بكل مراحل الدورة «الكلاسيكية» للتقدم الاوروبي الغربي . «يرمي المتوحشون بسهامهم واقواسهم ليقبضوا فوراً على البنادق،دون اجتياز الطريق التي تصل هذين السلاحين في الماضي ». لم يكن في وسع روسيا الحديثة أن تقرر إصلاحاً خاصاً بها ، أو ثورة بورجوازية بقيادة بورجوازية . كان تخلفها ذاته يمنعها من التقدم سياسياً ، دفعة واحدة ، الى النقطة التي بلغتها اوروبا الغربية والمضي ما بعد هذه النقطة نحو الثورة الاشتراكية . لما كانت بورجوازيتها الضعيفة عاجزة عن التخلص من ثقل استبدادية شبه اقطاعية ، فإن طبقتها العاملة المحدودة ، لكن المتراصة ، والتي دعمتها اخيراً طبقة فلاحين في حالة تمرد ، انتقلت الى الواجهة كقوة ثورية قائدة . لم يكن في وسع الطبقة العاملة ان تكتفي بثورة تكون نتيجتها ارساء سيطرة بيروقراطية بورجوازية ، وكان عليها ان تقاتل لأجل تحقيق البرنامج الاشتراكي . هكذا،انطلاقاً من « قانون التطور المركب » ، كان التخلف الاقصى يتجه نحو التقدم الأقصى وقد ادى ذلك الى انفجار عام **١٩١٧** .

يفسر قانون التطور المركب قوة التوترات داخل البنية الاجتماعية في روسيا .

---

(١٤) أنظر النبي المسلح ، الفصل الخامس

ومع ذلك ، يتعامل تروتسكي مع البنية الاجتماعية كما مع عنصر في الوضع ثابت نسبياً ، لا يفسر بحد ذاته احداث الثورة . وخلال مساجلة مع بوكروفسكي بيَّن أنه لا في ١٩١٧ ولا خلال العقد السابق ، امكن حدوث تبدل اساسي في بنية روسيا الاجتماعية . كانت الحرب قد اضعفت تلك البنية وعرّتها ، لكنها لم تغيّرها(١٥) .
كان الاقتصاد القومي والعلاقات القاعدية بين الطبقات الاجتماعية ، عام ١٩١٧ ، هي ذاتها تقريباً التي كانت في ١٩١٢ - ١٩١٤ ، وحتى في ١٩٠٥ - ١٩٠٧ . ما الذي كان في وسعه ، مذاك ، أن يفسر مباشرة انفجاري فبراير واوكتوبر والحركة العنيفة للمد والجزر الثوريين في المرحلة الوسيطة ؟ يجيب تروتسكي : إنها التبدلات في علم نفس الجماهير . اذا كانت بنية المجتمع العامل الثابت ، فإن استعدادات الجماهير والتغيرات في مزاجها كانت تشكل العامل المتغير الذي كان يحدد مد الاحداث وجزرها ، وتيرتها وتوجهها . « إن الملمح الاكثر بعداً عن الشك في ثورة ما هو التدخل المباشر للجماهير في الاحداث التاريخية . ان الثورة هناك ، في اعصابهم ، قبل ان تنزل الى الشارع في وضح النهار » . إن **تاريخ الثورة الروسية** هو بالتالي ، الى حد بعيد ، دراسة لعلم نفس الجماهير الثورية . وإذ يسبر تروتسكي العلاقة المتبادلة بين العامل الثابت والعامل المتغير ، يثبت ان ما يسهّل ثورة ما ليس مجرد كون المؤسسات السياسية والاجتماعية هي منذ زمن بعيد في حالة انحطاط وتصيح بأعلى صوتها طالبة اطاحتها ، بل كذلك الظروف التي تجعل عدة ملايين من الناس يسمعون تلك الصيحة للمرة الأولى ، ويصبحون واعين لوجودها . ان الثورة في البنية الاجتماعية بوجه الحصر كانت ناضجة قبل عام ١٩١٧ بكثير ، لكنها لم تنضج في ذهن الناس إلا عام ١٩١٧ فقط . هكذا ، ومن قبيل المفارقة ، ان السبب العميق للثورة لا يكمن في حركية اذهان الناس ونفوسهم بل في نزعة المحافظة والجمود لديهم . فالناس ينهضون en masse* فقط حين يدركون فجأة تأخرهم الذهني بالنسبة لعصرهم ويريدون تداركه دفعة واحدة . هذا هو الدرس الذي يعلمنا إياه **التاريخ** : ما من انقلاب اجتماعي يتبع آلياً انحطاط النظام القديم . يمكن ان تعيش اجيال واجيال في عالم في كامل انحطاطه دون ان تدرك ذلك ، لكن حين تعي هذا الامر ، تحت

---

(١٥) مقدمة الجزء الأول والمدخل الى الجزأين ١ و ٢ من تاريخ الثورة الروسية .

(*) بالفرنسية في الأصل الانكليزي ، ومعناها بصورة جماعية (م) .

تأثير كارثة كبرى ، كالحرب والانهيار الاقتصادي ، يحدث عندئذ انفجار جبار لليأس والأمل والنشاط . وعلى المؤرخ ، بالتالي ، النفاد الى اعصاب ملايين الناس وأذهانهم ، ليحس بالجَيَشان العظيم الذي يطيح النظام القائم ، ولينقله .

إن المتحذلق الاكاديمي الذي يدفن نفسه تحت جبال من الوثائق ليبني انطلاقاً منها حادثة تاريخية بسيطة ، سيكون قادراً على القول انه ما من مؤرخ يستطيع « النفاذ الى اعصاب » ملايين الناس . وتروتسكي واع لهذه الصعوبات : فتجليات وعي الجماهير متشذرة ومشتتة ، ويمكن ان يقود هذا الواقع المؤرِّخ الى بناءات اعتباطية وحدوس زائفة . لكنه يبين ان في وسع المؤرخ ، مع ذلك ، التثبت من الحقيقة ، أو من غياب الحقيقة في الصورة التي يكوِّنها عن وعي الجماهير ، بواسطة عدد من الروائز الصارمة في موضوعيتها . عليه ان يتتبع بأمانةٍ الشهادة الضمنية التي تقدمها الاحداث ، يمكنه ـ وعليه ـ ان يتثبت مما إذا كانت حركة وعي الجماهير ، كما يراها ، منسجمة مع ذاتها ومتماسكة ؛ إذا كان كل طور من هذه الحركة ينطلق بالضرورة مما حدث من قبل ، وإذا كان يؤدي بوضوح الى ما تم فيما بعد . عليه كذلك تفحص مدى توافق وعي الجماهير مع حركة الاحداث . هل إن الاحداث تعكس الاستعداد الذهني للشعب ، وهل يعكس هذا الاستعداد بدوره تلك الاحداث ؟ إذا جرى التذرع بأن الاجوبة عن هكذا أسئلة ينبغي ان تكون غامضة وذاتية ، يرد تروتسكي عندئذ وفقاً للطريقة الماركسية ، مستنداً الى الممارسة العملية كمعيار نهائي . يبّين أن ما هو بصدد فعله كمؤرخ ، كان هو والقادة البلاشفة الآخرون قد فعلوه سابقاً كأبطال للثورة ؛ مستندين الى التحليل والملاحظة كانوا يكوِّنون حدوساً تتعلق باستعداد الجماهير الذهني ومزاجها الخاص ، وكل قراراتهم السياسية الحاسمة كانت ترتكز على تلك الحدوس والتخمينات . ومجرى الثورة يثبت انه رغم المحاولات والاخطاء ، كانت تلك التخمينات في محلها اجمالاً . اذا كان الثوري قادراً ، وسط احتدام المعركة ، على تكوين صورة صحيحة تقريباً عن انفعالات ملايين الناس وافكارهم السياسية ، ليس ثمة سبب واحد لكي لا يكون المؤرخ قادراً على ان يفعل الشيء ذاته لاحقاً .

إن الطريقة التي يصف بها تروتسكي الجمهور وهو يعمل تشترك في الكثير من النقاط مع طريقة ايزنشتاين في الفيلم الكلاسيكي المدرعة بوتمكين . يختار

من ضمن جمهور من الناس بعض الافراد ، ويلقي الضوء على لحظات حماسهم أو انهيار معنوياتهم ، ثم يتركهم يعبرون عن مزاجهم بجملة أو بحركة . وحينئذ ، يُظهر لنا الجمهور من جديد ، جمهوراً كثيفاً ومتوقداً ، يأخذه موج الانفعال والتأثير وينتقل الى العمل ، وندرك فوراً ان ذلك هو الانفعال او العمل الذي بشرت به الجملة او الحركة الفردية . يملك الموهبة الخاصة المتمثلة بمفاجأة كلمات الجموع حين تفكر بأعلى صوتها ، ويجعلنا نسمع تلك الكلمات . في التصور كما في الفكرة ، يقود دائماً من العام الى الخاص ، والعكس بالعكس . والانتقال من هذا الى ذاك هو دائماً طبيعي ، وليس قسرياً ابداً . وهنا أيضاً تفرض المقارنة بين تروتسكي وكارليل نفسها ، لكن هذه المقارنة تسلط الضوء على مفارقة ، اكثر مما على تشابه . ففي تاريخي كل منهما ، يتوقف الكثير من روح الجماعة على مشاهد جماهيرية . كلاهما يشعراننا بالقوة البدائية لشعب متمرد ، الى حد اننا نرى ما كنا لنراه ونحن نراقب انهيال صخور أو جُرْفاً يتحرك . لكن فيما تتحرك جماهير كارليل فقط ، بنتيجة الانفعال ، تفكر جماهير تروتسكي وتتأمل ، ان لها طبع العناصر لكنها مع ذلك إنسانية . تتغلف الجماهير لدى كارليل بضباب الصوفية الارجواني ، وهو ما يوحي بأن شعب فرنسا الثوري الآفة العمياء لله ، الذي يُنزل العقاب المستحق على طبقة حاكمة تنهشها الخطايا . هذه الجماهير تفتننا وتثبطنا . إنه « ينفذ الى اعصابها » ، لكن فقط بعد أن يشق طريقه هو نفسه في نوع من الجنون ـ هو نفسه ليس غير اعصاب مشدودة وهلوسات حمّى . يرسم تروتسكي مشاهده الجماهيرية باندفاع ليس اقل خيالاً ، لكن كذلك بوضوح بللوري ، ويجعلنا نحس بأن الناس يصنعون تاريخهم الخاص بهم ، في اللحظة ذاتها ، وانهم يصنعونه بالتوافق مع قوانين التاريخ ، لكن ايضاً بأفعال واعية وارادية . إنه فخور بهكذا أناس ، حتى لو كانوا اميين واجلافاً ، ويريد أن نكون فخورين بهم . ان الثورة هي بالنسبة اليه هذه اللحظة ، القصيرة لكن المحملة بالمعنى ، التي يكون فيها اخيراً للمتواضعين والمضطهدين ما يقولونه . وهو يرى ان تلك اللحظة تعوض من قرون من الاضطهاد . واليهم يعود بحنين يعطي إعادة التمثيل وضوحاً كثيفاً وشديداً .

ومع ذلك فهو لا يبالغ في دور الجماهير ولا يعارض بها الاحزاب والقادة كما يفعل كروبوتكين مثلاً ، المؤرخ الفوضوي الكبير للثورة الفرنسية ، الذي يحاول اثبات ان كل تقدم للثورة ناجم عن العمل الشعبي العفوي ، وكل تراجع

ناجم عن مؤامرات السياسيين و « ادارتهم لشؤون الدولة » . أما تروتسكي فيرى في الجماهير القوة المحركة للانتفاضة ، ومع ذلك تحتاج تلك القوة للتركيز والتوجيه . والحزب وحده يستطيع تقديم التوجيه والقيادة . « من دون منظمة رائدة ، تتبدد طاقة الجمهور مثل البخار غير المحصور في حجرة المكباس ، لكن رغم كل شيء ، فإن ما يحرك الآلة ليس المكباس ولا حجرة المكباس ، بل البخار » . والمفارقة الكبرى التي يقيمها بين ثورتي ١٩١٧ تقوم على هذه الفكرة . كانت ثورة شباط قبل كل شيء عمل الجماهير بالذات ، إذ كانت طاقتها قوية بما يكفي لاجبار القيصر على التنازل عن العرش ، وتوليد السوفييتات ، لكنها تبددت قبل ان تحل ايا من المشكلات الكبرى التي كانت مطروحة ، وسمحت للامير لفوف برئاسة الحكومة . أما ثورة اوكتوبر فكانت قبل كل شيء من عمل البلاشفة الذين ركزوا طاقة الجماهير ووجهوها .

الا ان العلاقات بين الطبقات والاحزاب هي مع ذلك اكثر تعقداً بكثير في الصورة التي يقدمها تروتسكي ممّا يمكن ان يوحي به اي شكل من اشكال المقارنة الميكانيكية . يُظهر لنا التفاعل الدقيق للعديد من العوالم الذاتية والموضوعية . ان ما يوجه حزباً في عمله يتمثل ، في الاساس ، بمصلحة طبقية محددة ، لكن الربط بين الطبقة والحزب يكون في الغالب معقداً ، وملتبساً احياناً . وهو ، في مرحلة ثورية ، غير مستقر إلى ابعد الحدود ، وحتى إذا كان سلوك حزب ما محكوماً في التحليل الأخير بعلاقته بطبقة معينة ، يمكنه ان يستقطب أتباعه من طبقة اخرى معادية له بالقوة . او انه يمكن ان لا يمثل غير طورٍ من نمو بيئة اجتماعية ، طور يبقى متعلقاً به ذهنياً بعض القادة ، بينما تكون البيئة قد تخطته باشواط بعيدة . او أيضاً ، يمكن ان يكون حزب ما متقدماً كثيراً على طبقته ، وأن يعرض برنامجاً لم تصبح هذه الاخيرة مستعدة للقبول به ، لكن الاحداث تجعلها تقبل به قسراً ، وهكذا دواليك . وفي ثورة من الثورات ، ينهار التوازن التقليدي وترتسم حدود جديدة بصورة فظة . إن تاريخ الثورة الروسية لتروتسكي هو تحقيق عملاق في دينامية هذه السيرورات .

كنا قد قلنا إن تروتسكي لا يخفي عداءه لأعداء ثورة اوكتوبر . ولمزيد من الدقة ، هو يوجههم في محكمة التاريخ بصفة محامي الاتهام ، وهنالك يُنزل بهم للمرة الثانية هزيمة مماثلة لتلك التي كان انزلها بهم في شوارع بتروغراد . وليس هذا في العادة الدور الذي يلائم مؤرخاً . إلا انه سواء في الميدان التاريخي او

في الميدان الحقوقي ، يحدث أن تتوفر لمحامي الاتهام امكانية تسليط كامل الضوء على قضية ، وذلك بالضبط عن طريق تحميل المتهمين الجرائم التي اقترفوها بالفعل . حينئذ لا يبالغ في تجريمهم ، وحين يدرس وضعهم واسبابهم ويزن كما يجب الظروف المخففة ، حين يقدم اثباتات عديدة وقيِّمة لدعم كل فقرات الاتهام ويكون المتَّهمون اخيراً احراراً بالكامل في ان يدحضوا كل الاتهامات ، عندئذ إذا حدث ان فشلوا في ذلك ، وشرع يهاجم بعضهم البعض الآخر أمام القضاء ، فهم لا يفعلون غير إثبات الاتهام الموجه اليهم . بهذه الطريقة يضطلع تروتسكي بمهمته . لقد كان معظم قادة الاحزاب المعادية للبلشفية ، من امثال ميليوكوف وكيرنسكي وتسيرتيللي وتشيرنوف ودان وآبراموفيتش وآخرين أيضاً ، على قيد الحياة بعد حين نشر **تاريخ الثورة الروسية** ، واستمروا في نشاطهم في المهجر لمدة طويلة بعد ذلك التاريخ ، ومع ذلك ، فما من واحد بينهم استطاع ان يعثر على اي خطأ ذي معنى في حبكة الوقائع التي قدمها تروتسكي . واذا استثنياميليوكوف جزئياً ، لم يحاول احدجدياً ان يقدم رواية مناقضة لروايته[16] . إذاً ، بما انه ما من كتاب تاريخ جدير بهذه التسمية ابصر النور الى الآن في الاتحاد السوفياتي ، يبقى عمل تروتسكي في هذا العقد الخامس الذي يلي ثورة اوكتوبر التاريخ الكامل الوحيد للثورة . وليس في ذلك ما له علاقة بالصدفة : فكل الممثلين الآخرين الرئيسيين ، ونستثني مرة اخرى جزئياً حالة ميليكوف ، كانوا غارقين في تناقضاتهم واخفاقاتهم إلى حد أنهم كانوا عاجزين عن ان يقدموا بشكل كامل‌تصوراتهم المتماسكة الى هذا الحد او ذاك للوقائع . رفضواكمؤرخين العودة الى ميدان المعركة المشؤوم حيث يذكرهم كل شاخص علامي وحتى كل شبر من الأرض بهزيمتهم .اما تروتسكي فكان يزور ساحة المعركة من جديد صافي الذهن ومرفوع الرأس .

إلا انه ليس في هذا التاريخ أشرار حقيقيون . فعموماً ، هو لا يصف اعداء البلشفية كأناس فاسدين ومنحرفين ؛ لا ينزع عنهم فضائلهم الخاصة وشرفهم الشخصي . وإذا كانوا رغم كل شيء مدانين ، فلأنه صوّرهم وهم يدافعون عن

(١٦) إلا أن ميليكوف تخلى هو ذاته جزئياً عن العمل الذي كان بداه ، لأنه كان يشعر بانه غير ملائم من الناحية التاريخية . انظر ميليكوف Istorya Vtroi Russkoi Revolutsii (المقدمة). والنقطة الجوهرية الوحيدة التي يسعى كيرنسكي لدحض تروتسكي بصددها ، تتمثل بالاتهام القديم الذي يكرره، وهو أن لينين والحزب البلشفي كانا من الجواسيس الذين تدفع لهم المانيا . انظر كيرنسكي ، صَلبُ الحرية ، ص ٢٨٥ وما بعدها .

قضايا لا تحتمل الدفاع عنها ، لاهثين وراء عصرهم وقد حملتهم الاحداث الى مسؤوليات عليا ، لم يكونوا قد ارتفعوا الى مستواها ، لا اخلاقياً ولا ذهنياً ، وكانوا ممزقين اخيراً باستمرار بين الكلام والفعل . إن الشر الذي يفضحه يكمن في النظام الاجتماعي القديم اكثر مما يكمن في الافراد . إن فهمه الحتمي للتاريخ يسمح له بمعاملة خصومه ، لا بشفقة وعطف بل بصدق وأحياناً بشهامة وكرم . حين يصف عدواً في مواقع السلطة ، يُظهره راضياً عن نفسه ، متبجحاً ، مبدداً اهميته ونفوذه بغير حساب ، وهو يسحقه بسخريته أو بسخطه ونفوره . وليس من النادر مع ذلك انه يتوقف ليحيي انجازات قيّمة سالفة لخصم ، ونزاهة ذلك الخصم وحتى بطولته . وهو يتحسر أسفاً إزاء انحطاط شخص كان اهلاً لمصير أفضل . وحين يصف عدواً مهزوماً ، يلح على ان ما حدث كان ضرورياً ويتهلل ، وهو يفكر بالعدالة التاريخية . لكن هذا الشعور بالابتهاج يخمد احياناً ، ويكتفي بالقاء نظرة كلها شفقة ، هي على العموم نظرته الاخيرة ، على الضحية المنهارةوالخاضعة .

وهو لا يسوّد أبداً صفحة اعداء الثورة اكثر مما كان سوّد بعضهم صفحة البعض الآخر والعكس بالعكس . لا بل غالباً ما يسوّدهم اقل بكثير ، لأنه يشرح عداواتهم المتبادلة وغيرتهم بعضهم من بعض ، ويأخذ بالحسبان المغالاة الملازمة للشتائم القاسية التي كانوا يتبادلونها . لا يتحدث عن القيصر والقيصرة بصورة اكثر قسوة مما يفعل ويت وميليوكوف ودنيكين ، وحتى ملكيون اكثر اورثوذكسية . لا بل يصل الى « الدفاع » عن القيصر في وجه النقاد الليبراليين الذين اكدوا انه كان بامكان القيصر ان يتلافى الكارثة عن طريق تنازلات ملائمة . يرد تروتسكي فيقول ان نقولا الثاني قدم غير قليل من التنازلات ، لكنه لم يكن يستطيع ان يتخلى عن الأرض التي يقف عليها الا ضمن الحدود التي تقبل بها غريزة البقاء . ان القيصر ، لدى تروتسكي ، هو عبد التاريخ ، تماما كما في **الحرب والسلام** لتولستوي . « كان نقولا الثاني قد ورث من اجداده ، لا امبراطورية عملاقة وحسب، بل ثورة أيضاً ، وهم لم يورثوه صفة واحدة تجعله صالحاً لحكم امبراطورية ، او حتى مقاطعة او كونتية . كان آخر آل رومانوف يواجه بلامبالاة صامتة فيضان التاريخ هذا الذي كانت كل موجة منه تتقدم باستمرار فتضرب اكثر فأكثر ابواب قصره[١٧] » . هنا يقيم تروتسكي مماثلة لا تُنسى بين ثلاثة ملوك

(١٧) تروتسكي ، المرجع المذكور ، ج ١ ، ص ٧١ .

عاثري الحظ ، هم شارل الاول ولويس السادس عشر ونقولا الثاني ، كما بين ملكاتهم . ان ما كان يتميز به نقولا بشكل رئيسي ، ليس القساوة التي كان قادراً عليها ، او الحماقات ، بل « تمزق قواه الداخلية ، وضعف في رد الفعل العصبي وفقر واضح في الامكانات الذهنية » . « يعطي نقولا ولويس السادس عشر ، كلاهما ، انطباعاً بانهما كائنان تسحقهما مسؤوليتهما ، لكنهما يرفضان في الوقت ذاته ان يتخليا حتى عن جزء من تلك الحقوق التي يعجزان عن ممارستها » . كان كل واحد منهما يتقدم مباشرة الى الهاوية « وتاجه مضغوط على رأسه الى الأسفل » . « لكن ـ يلاحظ تروتسكي ـ هل كان اكثر سهولة . . . ان يمضي المرء مفتوح العينين مباشرة الى الهاوية التي لا يمكن الافلات منها في اي من الحالات ؟» . يبيّن لنا تروتسكي انه في اللحظة الحاسمة التي يفاجىء القدر فيها الملوك الثلاثة ، يتشابهون الى حد انه يبدو أن ملامحهم المميِّزة تتلاشى كلياً ، لأن « الناس ينفعلون بالدغدغة بطريقة مختلفة ، لكن رد فعلهم متشابه تماماً إزاء نار كاوية » . اما القيصرة وماري انطوانيت فكانتا ، كلتاهما ، جريئتين ، لكن « طائشتين ، قصيرتي النظر ، وكانتا تحلمان بأقواس القزح في ساعة الغرق بالذات » (١٨) .

وهاكم كيف يصوّر الكاديت والمناشفة والاشتراكيين الثوريين ، «ميليوكوف ، استاذ تاريخ ، مؤلف دراسات مرموقة بعلمها ، مؤسس لحزب الكاديت . . . خالص كلياً من نزعة الهواية السياسية غير المحتملة ، نصف الارستقراطية نصف الثقافية التي تتصف بها غالبية السياسيين الروس من ذوي الآراء الليبرالية . كان ميليوكوف ينظر الى عمله بجدية بالغة ، وهذا كاف وحده لتمييزه عن الآخرين » . لم تكن البورجوازية الروسية تحبه لأنه « من دون زخارف ، وبطريقة بسيطة وعادية ، كان يعبر عن الجوهر السياسي للبورجوازية الروسية . حين كان الرجل البورجوازي ينظر الى المرآة التي يمدها له ميليوكوف ، كان يرى نفسه رمادياً ، وأنانياً ، وخائفاً ، وكما يحدث غالباً كان يستاء مما تظهره له المرآة » . اما رودزيانكو ، الحاجب الاكبر للقيصر ، الذي اصبح احد قادة نظام شباط/ فبراير ، فيقدم صورة مضحكة .

« لما كان تولى السلطة من ايدي متآمرين ومتمردين وقتلة للطغاة ،

---

(١٨) المرجع ذاته ، ص ١٠٨ ـ ١١٨ .

فكان يبدو مطارداً باستمرار في تلك الايام ، وكان يجول خفية ، وعلى رؤوس الاصابع ، حول موقد الثورة ، يخنقه الدخان ويعلن : ـ احرقوا بادىء ذي بدء كل هذا حتى يصبح جمراً ، وبعدئذ نحاول ان نطبخ شيئاًما[19] » .

وبالطبع ، فإن المناشفة والاشتراكيين الثوريين في كتاب تروتسكي ، لا يشتركون الا في القليل القليل مع الاشباح المعادين للثورة الذين لا وجوه لهم ، الذين يظهرهم لنا في العادة الأدب الستاليني وحتى ما بعد الستاليني . فكل واحد منهم يرتبط بنوعه ، لكنه يمتلك ملامح فردية تميز شخصه . هاكم في رسم مقتضب كله ايحاء ، صورة الرئيس المنشفي لسوفييت بتروغراد ، شخيدزه : « حاول ان يكرس لواجبات مسؤوليته كل طاقات ذهنه المنصف ، مخفياً تحت مرح لبق وذكي قلة ثقته الدائمة بنفسه . لكنه كان يحمل الوسم الذي لا يمحى لمقاطعته الاصلية : جورجيا الجبلية . . جيروند الثورة الروسية » . كان الوجه الأكثر تميزاً في تلك الجيروند ، تسيريتللي ، قد امضى سنوات عديدة في الاشغال الشاقة بسيبيريا ، ومع ذلك :

« . . بقي راديكالياً من النموذج الفرنسي والمتوسطي . ففي ظروف الروتين البرلماني العادي ، كان بدا كالسمك في الماء ، لكنه ولد خلال حقبة ثورية ، وكان قد تسمم في شبابه بأن أخذ جرعة من الماركسية . مهما يكن ، كان تسيريتللي ، من بين كل المناشفة . . ذلك الذي اظهر اكبر اتساع في الرؤية ، والرغبة الاقوى في خوض سياسة متماسكة . ولهذا السبب ، ساعد اكثر من أي شخص آخر على تدمير نظام شباط/ فبراير . وقد خضع شخيدزه كلياً لتسيريتللي مع انه ارتعب احياناً من هذه الاستقامة المذهبية التي كانت تقود الثوري القديم السابق المحكوم بالاشغال الشاقة الى الاتحاد مع ممثلي البورجوازية المحافظين[20] » .

ويشبه سكوبيليف ، الذي كان تلميذاً لتروتسكي في الماضي ، طالباً في السنة الاولى ، يلعب دور رجل دولة على منصة مسرح للعائلة . وبشأن ليبر :

---

(١٩) المرجع ذاته ، ص ١٩٧ ـ ١٩٨ .

(٢٠) المرجع المذكور ، ج ١ ، ص ٢٤٣ .

« اذا كان تسيريتللي . . عازف الكمان الاول في الاوركسترا ، فلقد كان الشبابة حادة الصوت ليبير ، الذي كان يجهد رئتيه من فرط الصياح ، وعيناه ناتئتان . كان هذا منشفياً ينتمي الى اتحاد الشغيلة اليهود (البوند) ، وكان وراءه ماض ثوري طويل ، صادق جداً ، مندفع جداً ، بالغ الفصاحة ، محدود للغاية وشديد الرغبة في ان يظهر بملامح وطني عنيد ورجل دولة ذي ارادة من حديد . . يضاف الى ذلك انه كان ممتلئاً حقداً على البلاشفة » .

وبخصوص تشيرنوف ، احد المشتركين سابقاً في حركة زيمرڤالد ، والوزير فيما بعد في حكومة كيرنسكي :

« كان رجلاً كثير القراءة كي لا نقول جيد الثقافة ، لديه معلومات كثيرة لكن غير متمثّلة جيداً . كانت لديه دائماً تشكيلة لا تنتهي من الاستشهادات الملائمة ، وهو ما فتن لمدة طويلة خيال الشبيبة الروسية ، لكن لم يعلمها شيئاً كثيراً . لم يكن هناك غير سؤال واحد لا يمكن هذا القائد الذي ينضب ان يجيب عنه : من يقود والى اين ؟ ان صيغ تشيرنوف الانتقائية المزينة بأقوال اخلاقية وبيوت شعر ، وحّدت خلال فترة من الزمن العناصر الاكثر تنوعاً لجمهور معين ، كان يتجه في اللحظة الحاسمة في اتجاهات مختلفة . ما الذي يدهش ، بالتالي ، اذا ابرز تشيرنوف ، وهو راض عن نفسه ، المفارقة بين طريقته في تكوين حزب و « عصبوية » لينين . . قرر أن يتملص من كل القضايا ، وأصبح الامتناع عن التصويت شكلاً من الحياة السياسية بالنسبة اليه . واذا وضعنا على حدة كل الفروق بين تشيرنوف وكيرنسكي (اللذين كانا يكرهان الواحد الآخر) ، فقد كانا كلاهما متأصلين كلياً في الماضي السابق للثورة ، في المجتمع الروسي القديم المترهل ، في تلك الانتلليجنسيا فقيرة الدم والمدعية ، المتوقدة رغبة بتعليم جماهير الشعب ، وبأن تكون حارستها والمحسنة اليها ، لكن غير القادرة اطلاقاً على فهمها والاصغاء اليها وتعلم اي شيء منها[٢١] » .

---

(٢١) المرجع ذاته ، ص ٢٤٤ - ٢٤٦ .

إن ما يميز بلاشفة تروتسكي عن كل الاحزاب الاخرى ، هو بالضبط هذه القدرة على تعلم شيء ما من الجماهير ، تماماً كما على تعليمها شيئاً ما . لكنها لا تتعلم من دون نفور ومن دون مقاومة داخلية لترتفع الى مستوى مهمتها . وحين يختتم تروتسكي بتمجيد للثورة وحزبها ، نستمر في التساؤل كم من الوقت سيظل البلاشفة فيه « يتعلمون شيئاً ما من الجماهير » . ان الحزب الذي يظهره لنا مختلف تماماً عن « الزمرة الحديدية » التي تسير في الاسطورة الرسمية بخطى منتظمة نحو هدف محدد مسبقاً ، لا يستطيع شيء ما مقاومتها ، وهي متحررة من كل ضعف بشري . هذا لا يعني انه ينقص بلاشفة تروتسكي جرأة وتصميم حديدي . لكن هذه الصفات لديهم تبقى في حدود ما تسمح به الطبيعة البشرية ، وهي تتوزع بشكل متفاوت بين اعضاء القيادة وجمهور القاعدة . نراهم في افضل اوقاتهم ، حين يواصلون الامل والنضال بينما هم معزولون ومشتومون ومعرضون للهجمات من كل الجهات . لا احد يعادلهم من حيث الاخلاص المنزَّه لقضيتهم . وعظمة مقصدهم وطبعهم حاضرة دائماً في تلك الصور ، لكننا نرى فيهم كذلك الاضطراب والبلبلة ، نرى القادة قصيري النظر او الجبناء ، والاعضاء القاعديين ، المتوترين وغير الحاذقين ، الذين يتلمسون طريقهم في الظلام . ولهذا السبب جرى اتهام تروتسكي بأنه يقدم كاريكاتوراً للبلشفية . لكن لا شيء ابعد من هذا الاتهام عن الحقيقة . فبالضبط ، لأنه يسلط الضوء على كل ما هو ضعف وشك وتردد في البلشفية ، تتصف الصورة التي يقدمها بالامانة الرائعة للحياة . في اللحظة الحاسمة ، يتراجع التردد والانقسامات ، او تجري السيطرة عليها ، وتحل الثقة محل الشك . واذا كان الحزب اضطر للنضال ضد نفسه ، تماماً كما ضد اعدائه ، كي يكون على مستوى دوره ، فذلك لا ينقص اطلاقاً من العمل المنجز ، بل يضيف ، على العكس ، عظمة على عظمته. وتروتسكي لا يمس بتاتاً الشرف السياسي لأناس مثل زينوفييف وكامينييف وريكوف وكالينين وآخرين ، ممن تراجعوا في فترة اوكتوبر امام القفزة العظيمة التي كان ينبغي القيام بها . واذا كانت روايته تنقص من حظوتهم واعتبارهم، فذلك فقط لأنهم فيما بعد ، وضعوا انفسهم في مواقع القادة العنيدين للزمرة الحديدية .

يضيء تاريخ الثورة الروسية بشكل ساطع ازمتين كبريين داخل البلشفية خلال عام الثورة . خلال الازمة الاولى ، قدَّم لينين ، الواصل لتوه من سويسرا، موضوعات نيسان واعاد تسليح حزبه سياسياً لأجل الحرب ضد نظام شباط/

فبراير . وخلال الثانية ، في الطور ما قبل الأخير الذي سبق الثورة ، يتواجه محامو الانتفاضة وخصومها في اللجنة المركزية للحزب البلشفي . ابان هاتين الازمتين ، تتوقف الكشافات طويلاً جداً عند مجموعة صغيرة من القادة ، ومع ذلك تنحفر المشاهد في ذهننا بالعمق الذي كانت انطبعت به الصور الاكثر اتساعاً وفخامة لانتفاضة شباط / فبراير ولثورة اوكتوبر ، او حتى صور المشهد القاتم لأيام تموز يوليو حين تظهر الحركة في نقطتها الدنيا . وهاتان الازمتان تجعلاننا نحس بأن مصير الثورة يتوقف على بعض اعضاء اللجنة المركزية . ان تصويتهم هو الذي سيقرر اذا كانت طاقات الجماهير سوف تنهزم او ستجري تقنيتها باتجاه النصر . ان مشكلات الجماهير والقادة مطروحة بكل حدتها ، وللحال تقريباً يسلط الكشّاف على قائد واحد ، هو لينين ، أنواره بصورة اشد كثافة وحصراً .

سواء في نيسان / ابريل أو في اوكتوبر ، نجد لينين وحيداً ، لا يفهمه تلامذته ولا يعترفون به . ثمة اعضاء في اللجنة المركزية على وشك حرق الرسالة التي يحثهم فيها على الاعداد للانتفاضة . يقرر « شن الحرب » عليهم ، واذا قضت الحاجة الاحتكام الى القاعدة ، خلافاً للانضباط الحزبي . ويعلق تروتسكي فيقول : « لم يكن لينين يثق باللجنة المركزية من دون لينين ، ولم يكن لينين على خطأ كبير في حذره وانعدام ثقته[٢٢]» ، إلا انه في كل ازمة كان يكسب الحزب الى استراتيجيته ويطلقه الى المعركة . ففطنته وواقعيته وإرادته المركزة ، هي الصفات التي يبرزها السرد على انها العناصر الحاسمة في السيرورة التاريخية ، المساوية على الاقل في اهميتها للنضال العفوي لملايين الشغيلة والجنود. فاذا كانت طاقتهم « البخار » ، فالحزب البلشفي « مكباس القاطرة الثورية » ، ولينين ، من جهته ، هو الميكانيكي .

هنا يتصدى تروتسكي للمشكلة الكلاسيكية المتعلقة بدور الفرد في التاريخ . وربما كان هنا الأقل نجاحاً. ان عرضه الواقعي لنشاط لينين لا غبار عليه ، فمن المستحيل القول ، في اي وقت كان ، ان لينين لم يتصرف على هذا المنوال في هذه النقطة التي يصورها لنا او تلك ، وان البلاشفة الآخرين لم يتصرفوا بهذه الطريقة. وهو لا يعمد أيضاً الى تصوير لينين كمنتج مستقل

(٢٢) المرجع المذكور ، ج ٣ ، ص ١٣١ .

للاحداث. انه يؤكد لنا ان « لينين لم يكن يعارض الحزب من الخارج ، بل كان هو التعبير الاكمل عنه » ، وهو يبرهن مراراً على ان لينين لم يكن يفعل الا ترجمة الافكار والاستعدادات التي تشغل الجمهور الحزبي الى صيغ واعمال واضحة ، وانه بسبب ذلك كان ينتصر اخيراً . ان القائد والجمهور يعملان هنا متفقين . ثمة انسجام عميق بين لينين وحزبه ، حتى حين يكون على تعارض مع اللجنة المركزية . وكما لم تدخل البلشفية الى المسرح التاريخي صدفة ، هكذا لم يكن دور لينين عرضياً . كان « ناتج ماض بأكمله . . . وكان متمرساً فيه بجذوره الاكثر عمقاً. لم يكن « خالقاً للسيرورة الثورية » ، بل فقط حلقة ، « حلقة رئيسية » ، في سلسلة اسباب تاريخية موضوعية[٢٣] » .

بعد أن حدد تروتسكي موقع لينين كحلقة في هذه السلسلة ، يخبرنا الآن انه من دون تلك الحلقة ، كانت السلسلة تساقطت قطعاً . يتساءل ما الذي كان حصل لو لم ينجح لينين في العودة الى روسيا في نيسان / ابريل ١٩١٧ . « هل من الممكن . . القول بثقة ان الحزب كان وجد طريقه من دونه ؟ لايمكن المغامرة بأي شكل من الاشكال بقول ذلك . من الممكن تماماً ان نتصور ان حزباً فاقداً التوجيه ومنقسماً ربما كان فوّت الفرصة الثورية لسنوات عديدة ايضاً » . إذا كان تروتسكي يعبر عن وجهة النظر هذه باحتراس ، فهو يضع النقاط على الحروف في مكان آخر . ففي رسالة كتبها من ألما ـ آتا إلى بريوبراجنسكي ، يقول« انت تعرف افضل مني انه لو لم ينجح لينين في المجيء الى بتروغراد في نيسان /ابريل ١٩١٧ ، ما كان قيّض لثورة اوكتوبر ان تتم » . وفي **يوميات المنفى** المكتوبة في السنوات التي أمضاها في فرنسا ، يبدو جازماً بما يخص هذه النقطة : « لو لم اكن موجوداً في عام ١٩١٧ في بتروغراد، كانت ثورة أوكتوبر تمت مع ذلك ، **شرط ان يكون لينين حاضراً ويقودها** . ولو لم يكن لينين ، ولم أكن انا ، في بتروغراد ، لما كان هناك شيء اسمه ثورة اوكتوبر . كانت قيادة الحزب البلشفي حالت بينها وبين ان تتم . ليس لدي ادنى شك في هذا الصدد»[٢٤]. إذا لم يكن لينين بعد خالق التاريخ، هنا ،فليس هذا الا فقط بمعنى انه لم يصنع الثورة ex nihilo . إن تفتت البنية الاجتماعية ، بخار طاقة

(٢٣) المرجع المذكور ، ج ١ ، ص ٣٤١ ـ ٣٤٢ .

(٢٤) أنظر تروتسكي ، يوميات المنفى ، ص ٥٣ ـ ٥٤ . كتبت الرسالة الموجهة الى بريو براجنسكي في عام ١٩٢٨ وهي موجودة في محفوظات تروتسكي .

الجماهير ، كبّاس آلة الحزب البلشفي التي ركبّها لينين ، كل ذلك كان يجب ان يكون هناك كي يتمكن من لعب دوره . لكن يقول تروتسكي حتى لو كانت كل تلك العناصر موجودة هناك ، لكان البلاشفة، من دون لينين ، فوّتوا الفرصة الثورية لسنوات عديدة . خلال كم من الوقت ؟ خمس سنوات ؟ عشر سنوات ؟ أو ربما ثلاثين أو أربعين عاماً ؟ لا نعرف شيئاً من كل ذلك. في كل حال ، لولا لينين لكان أمكن روسيا أن تعيش في ظل النظام الرأسمالي ، وحتى في ظل قيصرية مرممة ، ربما خلال حقبة غير معروفة نهايتها ، ولكان التاريخ العالمي مختلفاً جداً ، في هذا القرن على الأقل ، عما قيض له أن يكون .

تلك بالنسبة لماركسي خلاصة تجفِّل المرء. ولا ادنى شك في انه تفوح من الاستدلال رائحة سكولاستيكية ، ولا يمكن المؤرخ ان يحلها بالعودة الى بداهة تجريبية : لا يمكنه ان يعيد تكوين الثورة ، فيستبعد لينين من المشهد ويرى ما الذي يحصل آنذاك . واذا كانت القضية قد دفعت هنا الى الامام اكثر قليلاً ، فليس ذلك حباً بالجدال ابداً ، لكن بسبب الضوء الذي تسلطه على بطلنا المركزي . فحول هذه النقطة الخاصة تأثرت وجهات نظر تروتسكي المؤرخ تأثراً وثيقاً بتجربة تروتسكي ، زعيم المعارضة المهزومة وحالته النفسية . من المشكوك به انه كان عبّر،في تاريخ سابق من حياته السياسية ، عن وجهة نظر تعاكس الى هذا الحد التراث الفكري الماركسي .

من ضمن هذا التراث ، معبِّر كثيراً هو بحث بليخانوف المشهور حول **دور الفرد في التاريخ** . وككل كتابات بليخانوف النظرية الأخرى ،مارس تأثيراً تكوينياً على عدة اجيال من الماركسيين الروس . ان بليخانوف يناقش المشكلة بتعابير هي تعابير التناقض الكلاسيكي ، الحرية ـ الضرورة . لا ينكر دور الشخصية ، ويوافق على حكم كارليل بأن الرجل العظيم هو رائد . يقول ان « الكلمة موفقة الى ابعد الحدود ، فالرجل العظيم هو رائد بالضبط لأنه **يرى ابعد مما يرى الآخرون ويريد اقوى** مما هم يريدون » . من هنا « المعنى العملاق » للزعيم العظيم ، في التاريخ ، و « المقدرة الرهيبة » التي يمتلكها . ويلح بليخانوف على ان القائد ليس غير اداة ضرورة او حاجة تاريخية ، وهذه الضرورة تخلق الاداة حين تُستشعَر الحاجة الى ذلك . ما من رجل عظيم لا يمكن ، بالتالي ، ان يحل محله آخر ، وكل اتجاه تاريخي ، اذا كان له ما يكفي من الاتساع ، والعمق ، يعبر عن نفسه عبر عدد من الناس ، لا فقط عبر فرد واحد . ان بليخانوف الذي

يسترجع ذكرى الثورة الفرنسية خلال النقاش يطرح سؤالاً مماثلاً لسؤال تروتسكي : ما كان مجرى الثورة لولا روبسبيير او نابوليون ؟

« فلنفترض ان روبسبيير كان في حزبه قوة لا غنى عنها إطلاقاً . لكن في كل حال ، لم يكن يصنع قوته وحده . لو انه قتل ، مثلاً ، في كانون الثاني / يناير ١٧٩٣ ، نتيجة سقوط قرميدة ، لأخذ مكانه آخر ، بالطبع . ومع ان هذا الآخر ربما كان ادنى منه على الصعد كافة ، فالاحداث كانت ستجري مع ذلك في الاتجاه ذاته . من المؤكد تماماً ، مثلاً ، انه حتى آنذاك ما كان الجيروندیون تحاشوا الهزيمة ، لكن كان من الممكن ان يفقد حزب روبسبيير السلطة بصورة مبكرة أكثر . . او متأخرة قليلاً ، لكن ما كان يمكن الا أن يسقط[٢٥] » .

إن ما يلّمح اليه تروتسكي هو انه لو قتلت قرميدةٌ لينين ، في مارس / آذار ١٩١٧ مثلاً ، ما كانت تمت ثورة بلشفية في ذلك العام ، وخلال سنوات عديدة لاحقة . وهذا يعني ، بالتالي ، أن سقوط القرميدة كان حرف تياراً تاريخياً عملاقاً في اتجاه آخر . يصبح هكذا النقاش حول دور الفرد نقاشاً حول حدث عارض في التاريخ ، نقاشاً علاقته بالفلسفة الماركسية وثيقة جداً . وقد اختتم بليخانوف نقاشه معلناً ان « هكذا تغيرات عرضية في مجرى الاحداث كان يمكن ان تؤثر ، إلى حد ما ، على الحياة السياسية اللاحقة في اوروبا ، لكن « ان المخرج النهائي للحركة الثورية ما كان تعارض في اي من الاحوال مع ما حصل . يمكن الاشخاص النافذين ان يعدلوا ، بفضل خصائص ذهنهم وطبعهم ، **الهيئة الخاصة للاحداث وبعض نتائجها الجزئية** ، لكن لا يمكنهم تغيير **منحاها** العام ، الذي تحدده قوى اخرى » . لكننا نفهم من قراءة تروتسكي ان شخصية لينين لم تعدل فقط « **الهيئة الخاصة للاحداث** » ، بل كذلك منحاها العام : بدون لينين كانت القوى الاجتماعية التي صنعت هذا الاتجاه او ساهمت في تكوينه بقيت عديمة الفعالية . هذا الاستنتاج لا يتوافق مع الـ Weltanschaung الخاص به ومع اشياء كثيرة اخرى لديه . اذا كان صحيحاً ان كبرى الثورات ما كان يمكن ان تتم من دون قائد خاص ، فإن عبادة القائد عموماً لا تعود عندئذ مدعاة للسخرية . هل ان

(٢٥) بليخانوف ، **Izbrannye Filosofskie Proizvedenia** ، ج ٢ ، ص ٣٢٥ ، أو دور الفرد في التاريخ ، ص ٤٦ - ٤٧ (الطبعة الانكليزية) .

فضح هذه العبادة من جانب الماديين التاريخيين ، بدءاً بماركس ووصولاً لتروتسكي ، ورد فعل كل الفكر التقدمي ضدها ، كانا من الحماقات ؟

لا شك ان تروتسكي يسقط هنا في « خداع البصر » الذي يتكلم بليخانوف عليه في جداله ضد المؤرخين الذين يصرون على ان دور نابوليون كان حاسماً ، وذلك لأنه ما كان تمكن شخص آخر من اخذ مكانه واحداث اثر مشابه، او الأثر ذاته. وهذا «الخداع» يكمن في ان قائداً يبدو غير ممكن الاستبدال لأنه إذ اضطلع بدوره يحول دون ان يضطلع به آخرون :

« إذ اضطلع نابوليون بدور منقذ النظام الاجتماعي . . أبعد عن هذا الدور كل الجنرالات الآخرين . ربما كان لعب البعض هذا الدور بالجودة ذاتها ، أو بالجودة ذاتها تقريباً . ما أن جرى إرضاء الحاجة الاجتماعية لديكتاتور عسكري نشيط حتى سدت المنظمة الاجتماعية الطريق الى هذا الوضع . . . امام كل العسكريين الموهوبين الآخرين . . . اننا نكوّن عن قدرة نابوليون الشخصية فكرة مغالى بها كثيراً ، لأننا ننسب اليه كل القوة الاجتماعية التي كانت تدفع به الى الواجهة والتي كانت تدعمه . اذا كانت تبدو لنا خارقة كلياً ، فلأن القوى الأخرى المشابهة لها لم تنتقل من حقل الممكن الى حقل الواقع . وحين نُسأل: ما كان حصل لنابوليون ؟ تضيع مخيلتنا ويبدو لنا انه من دونه ما كان امكن ان تتم كل الحركة الاجتماعية التي استند اليها **نفوذه وقوته** »[٢٦] .

بالصورة ذاتها ، يمكن ان نبرهن ان تأثير لينين على الاحداث يبدو لنا مضخماً بشكل بالغ لأنه إذ اضطلع لينين بمنصب القائد ، انتزع من امام الآخرين إمكانية القيام بذلك. يستحيل بالطبع التكهن بمن كان حل محله لو لم يكن هناك . ربما كان تروتسكي بالذات ، فليس للاشيء ان ثوريين بأهمية لوناتشارسكي واوريتسكي ومانويليسكي ناقشوا، في صيف ١٩١٧ ، ميزات لينين وتروتسكي واتفقوا على واقع ان تروتسكي كسف في تلك الفترة لينين (وذلك في حين كان لينين هناك ، في المكان نفسه) . ومع ان نفوذ لينين على الحزب البلشفي كان حاسماً ، فان انتفاضة اوكتوبر قد تمت وفقاً لخطة تروتسكي ، لا وفقاً لخطة

---

(٢٦) بليخانوف ، المرجع المذكور ، ص ٣٢٥ ـ ٣٢٦ ، الطبعة الانكليزية .

لينين . فاذا افترضنا ان لينين وتروتسكي ، كليهما ، لم يكونا هناك ، لا بد ان شخصاً آخر كان انتقل الى الواجهة. ان الواقع المتمثل بان أحداً من البلاشفة ، له قامته وسمعته ، لم يكن موجوداً في الظاهر ، لا يثبت ان هكذا رجلاً ما كان طفا على السطح في غيابهما . في الحقيقة انه ليس لدى التاريخ غير عدد محدود من المناصب الشاغرة للقادة الكبار والقادة العامين ، وما ان يتم شغل تلك المناصب حتى تنعدم امام المرشحين الكامنين فرصة التطور والتوصل الى تحقيق الامكانية التي ينطوون عليها . هل من الضروري ان نؤمن بأنهم ما كانوا ليصلوا الى ذلك في اي ظرف من الظروف ؟ وهل لم يكن بالامكان ان يلعب دور لينين وتروتسكي قادة ذوو اهمية أقل ، مع هذا الفرق ـ ربما ـ انه بدل ان يسمح أناس بذلك القوام « للقدر بأن يوجههم » ، كان ذلك القدر« جرهم » خلفه ؟

انه لواقع ثابت ، ان كل قائد عظيم او ديكتاتور يبدو ، دائماً تقريباً ، وطالما هو على قيد الحياة ، كما لو كان متعذر الاستبدال. فقط بعد وفاته يملأ احدهم مكانته ، احد يبدو عموماً لزملائه المرشح الاقل ترجيحاً ، شخصاً عادياً معداً للعب دور عازف ثان او ثالث . من هنا دهشة العديد من الناس حين رأوا في البدء ستالين كخليفة للينين ، ثم خروتشوف كوريث لستالين ، دهشة ليست غير ناتج ثانوي لخداع البصر بصدد« الجبار متعذر الاستبدال » . ان تروتسكي يؤكد ان عبقرية لينين ، وحدها ، كانت قادرة على التحكم بمهام الثورة الروسية ، ويحذرنا في الغالب من ان على الثورة ، في بلدان اخرى أيضاً ، ان يكون لها حزب مماثل للحزب البلشفي ، وقائد كلينين ، اذا ارادت الظفر . لا يتعلق الأمر بإنكار شخصية لينين وقدراته الخارقة ، او انكار واقع انه كان من حظ البلشفية وجوده على رأسها . لكن الم تنتصر في ايامنا الثورتان اليوغسلافية والصينية في ظل حزبين مختلفين جداً عن حزب البلاشفة عام ١٩١٧ وبقيادة زعيمين اقل اهمية بكثير ؟ في كل مرة وجد الاتجاه الثوري اداته او خلقها ، مستعينا بالمادة البشرية المتوفرة . واذا لم يكن مقبولاً أبداً اعتبار انه من الثابت ان ثورة اوكتوبر كانت تمت من دون لينين ، فمع ذلك يبقى هذا معقولا بالنسبة للافتراض المعاكس ، الذي يعتبر ان قرميدة سقطت من سطح في زوريخ في بداية عام ١٩١٧ ربما كانت غيرت مصير البشرية في هذا القرن .

فلنضف ان وجهة النظر الاخيرة هذه لم تكن تنسجم مع فلسفة تروتسكي الاساسية وفهمه للثورة، بحيث ما كان في وسعه التمسك بها بصورة متماسكة .

هكذا يؤكد في **الثورة المغدورة** ، المكتوبة بعد سنوات قليلة : « ان ميزات القادة هي ابعد ما تكون موضوعاً للامبالاة ، لكنها ليست العامل الوحيد ، وليست في التحليل الأخير العامل الحاسم . . . فالبلاشفة . . لم ينتصروا بنتيجة التفوق الشخصي لقادتهم ، بل عبر علاقة جديدة فيما بين القوى الاجتماعية . . . [ثمة ايضا في الثورة الفرنسية] وفي تعاقب ميرابو وبريسو وروبسبيير وباراس وبونابرت على السلطة شرعية موضوعية ، اقوى بما لا يقاس من الملامح الخاصة للابطال التاريخيين الاساسيين بالذات(٢٧) » .

كما سبق ورأينا ، ان خداع البصر لدى تروتسكي بصدد لينين يسلط الضوء على ذاته وعلى حاله النفسية في تلك السنوات ، اكثر مما يسلط الضوء على لينين . لقد كتب **تاريخ الثورة الروسية** بعد ان كانت بدأت المغالاة في عبادة شخصية ستالين ، والفكرة التي يكونها عن لينين هي انعكاس سلبي لتلك العبادة. ففي وجه ستالين المتعذر استبداله ، كان يلجأ الى لينين المتعذر استبداله . اكثر من ذلك ، امام حالة المجتمع السوفياتي الهزيل والخامد ، كانت صورة القائد تأخذ في تلك السنوات قواماً اكثر مهابة بكثير مما في عام ١٩١٧ ، حين كانت الامة بكاملها تغلي طاقة ونشاطاً سياسياً . فمن جهة ، كان ستالين يطفو كأوتوقراطي ، ومن جهة اخرى ، كان تروتسكي يمارس ، تحت سلطان الضرورة ، نوعاً من الاوتوقراطية الادبية المثالية ، بوصفه ناطقاً وحيداً بلسان المعارضة . هو ايضاً ، لاح في هزيمته ، كفرد خارق ، وفريد ، وعظيم . وكمؤرخ ، اعاد عرض الظهور العظيم للقائد على شاشة عام ١٩١٧ ، واستنتج هذه الحكمة المنطوية على دفاع عن الذات : « من المعنى الخارق الذي اتخذه مجيء لينين ، لن يمكن استنتاج غير ما يلي : لا يُخلق القادة بالصدفة ، انهم يُختارون تدريجياً ويتم تكوينهم طوال عقود متتالية ، ولا يمكن استبدالهم بمحض نزوة ، اذ ان طردهم الآلي من ساحة النضال يسبب للحزب جرحاً نازفاً ، يمكن في العديد من الحالات ان يشله على امتداد حقبة طويلة(٢٨) » . وفي يومياته ،

---

(٢٧) تروتسكي ، الثورة المغدورة ص ٨٧ ـ ٨٨ . (الترجمة الفرنسية لفيكتور سرج) . انه لمعبر ان يكون سيدني هوك ، في رد فعله ضد الماركسية والتروتسكية ، استند بقوة الى العامل الذاتي في معالجة تروتسكي لشخصية لينين واستنتج منه أن ثورة أوكتوبر كانت « ناتج كل ماضي التاريخ الروسي أقل بكثير مما هي ناتج واحد من أكثر الوجوه صنعاً للأحداث في كل العصور » . هوك ، **البطل في التاريخ** ، ص ١٥٠ ـ ١٥١ .

(٢٨) **تاريخ الثورة الروسية** ، ج ١ ، ص ٣٤٢ . ثمة مع ذلك non sequitor في هذه الحكمة ، لأنه إذا لم يكن =

يستنتج حكمة اكثر وضوحاً :

« اعتقد ان العمل الذي انا منخرط فيه حالياً (معارضة ستالين وتأسيس الاممية الرابعة) ، هو بالرغم من طبيعته غير الكافية ، والمتشذرة الى حد بعيد ، اهم عمل في حياتي ، اهم من عام ١٩١٧ ، وأهم من فترة الحرب الاهلية او اي فترة اخرى . . لا يمكنني الكلام على الطابع الذي لا غنى عنه لعملي ، حتى في الفترة الممتدة بين ١٩١٧ و ١٩٢١ ، لكن عملي الآن هو عمل لا غنى عنه بكل معنى الكلمة . ليس ثمة ادنى صلف في هذا الادعاء . لقد طرح سقوط اميتين مشكلة لا يمكن أياً من قادتهما ان يحلها ، بسبب الافتقار للادوات المناسبة . كان من نتائج تقلبات قدري اني اضطررت لمواجهة هذه المشكلة ، وقد سلحتني بتجربة مهمة من هذه الزاوية . ليس هناك اليوم شخص آخر غيري يمكنه الاضطلاع بمهمة تسليح الجيل الجديد بمنهج ثوري . . انا لا ازال بحاجة الى خمس سنوات ، على الاقل ، من العمل المتواصل كي يتم ضمان الخلافة(٢٩) .

كان بحاجة للشعور بان القائد (لينين عام ١٩١٧ او هو ، بالذات في سنوات ٣٠ ـ ٤٠) ، متعذر الاستبدال ، وكان يستمد من هذا الايمان القوة الضرورية لجهوده البطولية والمتوحدة . والآن وقد اصبح الوحيد من جيل البلاشفة بكامله الذي يتكلم ضد ستالين ، لم يكن هنالك احد ، حقاً ، في وضع يمكنه من الحلول محله . لكن لأنه بالضبط كان وحيداً ولا بديل منه جرى تبديد جزء كبير جداً من عمله .

بغض النظر عن سلبيات هذا الاستدلال وايجابياته ، تتطلب مشاعر تروتسكي حيال لينين جلاءها بصورة اكمل . يمكن الاستشهاد بآراء اثنين من معاصريه . لقد كتب لوناتشارسكي في بداية الحملة المعادية للتروتسكية عام ١٩٢٣ : « تروتسكي آمر وحساس سريع الغضب ، وهو لم يُبْدِ إلا في علاقاته بلينين ،بعد اتحادهما ، احتراماً دائماً حنوناً

= القادة يخلقون صدفة ، فهم لا يُصَفّون ايضاً بالصدفة أو « نتيجة لنزوة » .

(٢٩) يوميات المنفى ، ص ٥٤ (الطبعة الانكليزية)

ومؤثراً . كان يعترف بأولوية لينين ، بالتواضع الذي يميز الرجال العظام الحقيقيين[٣٠] » . اما كروبسكايا ، التي كانت تتحادث في بداية سنوات ١٩٣٠ - ١٩٤٠ مع اجنبي مشهور لم يكن شيوعياً ، وكانت تعرف ان ثمة من يصغي على الابواب وسينقل كلماتها الى ستالين ، فأبدت هي الاخرى ملاحظات حول طبع تروتسكي المستبد والصعب ، لكنها اضافت : « كان يحب فلاديمير ايليتش حباً عميقاً، وحين علم بوفاته اغمي عليه ولم يستعد وعيه الا بعد مرور ساعتين[٣١] » . إن كل الكلمات التي تلفظ بها تروتسكي بعد الثورة بصدد لينين تكشف تلك المحبة وذلك الاعتراف بأولوية لينين كأمرين بديهيين . منذ ايلول / سبتمبر ١٩١٨ ، بعد ان حاولت دورا كابلان اغتيال لينين ، وجه تحية اكبار للقائد الجريح :

« كل ما كان افضل في المثقفين الثوريين في أزمنة سابقة ، روح التفاني لديهم ، جرأتهم ، كرههم للاضطهاد ، كل ذلك تجمّع في وجه هذا الرجل. مستنداً الى البروليتاريا الثورية الشابة في روسيا ، ومستخدماً التجربة الغنية للحركة العمالية العالمية ، انتصب بكل قامته . . . كالرجل الاعظم في عصرنا الثوري . . ما مرة بدت لنا الحياة الفردية لهذا او ذاك من بيننا ثانوية الى هذا الحد الا في لحظة تعرضت فيها حياة اعظم رجل في عصرنا للخطر[٣٢] » .

لم يكن ثمة ادنى اثر للتملق في هذه الكلمات . لم يكن قداحيط لينين بعد بأي هالة عبادة . وقد اعلن تروتسكي مراراً ايضاً انه يختلف مع لينين بصدد بعض النقاط. في عام ١٩٢٠ ، بمناسبة العيد الخمسين لميلاد لينين ، نشر بحثاً ذا لهجة اكثر اعتدالاً حول لينين كنموذج قومي، يجسد افضل وجوه الطبع الروسي[٣٣] . وفي المنفى ، بعد رحيله من برنكيبو ، بدأ العمل في سيرة كاملة للينين ، لم ينجز الا فصولها الأولى . ويعوّض فشله في انجاز هذا العمل تعويضاً جزئياً غنى المسوَّدات السيرية التي كتبها ونشرها في بداية السنوات

(٣٠) لوناتشارسكي ، Revolutsionnye Silouety .

(٣١) مذكرات ميشال كاروليي ، ص ٢٥٥ .

(٣٢) تروتسكي ، لينين ، ص ٢١١ - ٢١٨ .

(٣٣) المرجع المذكور ، ص ٢٠٥ - ٢١٠ .

١٩٢٠ - ١٩٣٠ . وهذه المسوّدات تتناول مرحلتين حاسمتين من حياة لينين ، سنتي ١٩٠٢ - ١٩٠٣ وسنتي ١٩١٧ - ١٩١٨ ، وتقدم صورة تهتز بالحياة ، ويغمرها ذلك الحنان الذي تكلم عليه لوناتشارسكي[٣٤] . ان ما كان يعجب تروتسكي لدى لينين انما هو الـ Tseleustremlennost الخاص به ، او واقع تمحوره كلياً حول هدفه الكبير ،His tension vers le but[*٣٥] ، لكن كذلك شخصيته ، التي يتلازم فيها سمو العقل والنفس مع الحماس للحياة ، رصانة الحديث مع دعابة غنية ، الوفاء المتعصب للمبادىء مع مرانة الفكر ، الحيلة والكدح في العمل مع حساسية مرهفة، والذكاء الرفيع مع البساطة . إنه يُظهر اعظم رجل في عصرنا ككائن غير معصوم عن الخطأ ، وهكذا يخرب الايقونة الستالينية المصنوعة للينين . ومع ذلك فهو ذاته يقترب من لينين حاسر الرأس ، اذا صح التعبير ، ويوقره دون ادنى ارتباك ، لكنه لا يسجد امامه . يرفع تحية رجولية للرجل الذي عرفه ، لا لمعبود . وحتى حين يصف الطبع البطولي للينين ، لا يجعل منه نصف اله . يقدم لنا وجهاً بالحجم الطبيعي وعادياً ، لا تمثالاًرسمياً . يستخدم النوع الوقتي اكثر من غيره، الرسم الصحفي ، ليخلق صورة دائمة . ان الصورالتي رسمهاللينين تحدث أثراً فنياً اعظم بكثير مما تحدثه تلك التي رسمها الروائيان المعاصران المرموقان غوركي وويلز . انه يلاحظ لينين من مختلف الزوايا فيلتقط روحه اثناء العمل ، الطريقة التي يبني بها حجة ،مظهره الخارجي وتصرفاته وهو على منصة الكلام، تشويراته وحركات جسده ، نبرات ضحكه وحتى مزحاته .نرى جبين لينين يدلهم من الغضب والاشمئزاز ، ونراقبه يلاعب بلطف كلباً في لحظة درامية ، بينما ياخذ قراراً بصدد نقطة خطيرة . نلمحه يركض كتلميذعبر ساحة الكرملين حتى قاعة مؤتمرات الحكومة ، نافذالصبر ليمرِّر حيلة مسلية على رفاقه المفوضين . وعلى الدوام يعبر في عين الرسامالمتفحصة الق من المحبة لعبقري الثورة الواقعي » .

ويعبر عين الرسام أيضاً ومضٌ من وخز الضمير . فتروتسكي لم يكن بجانب لينين ، كشريكه الحميم ، الا خلال حوالى ست سنوات ، افضل سنواته، تلك

---

(٣٤) المرجع المذكور . (*) - أي ، انشداده نحو الهدف (م) .

(٣٥) بالفرنسية في النص الأصلي .

الصانعة عهداً جديداً . كان قد أمضى الثلاث عشرة أو الاربع عشرة سنة السابقة في الصراع التكتلي ضد لينين ، مهاجماً إياه بشتائم شخصية وشرسة ، من مثل : « الوكيل المهمِل » ، و « الكاريكاتور البشع لروبسبيير ، الخبيث والمنفِّر اخلاقياً » و « المستغل تخلف روسيا » ، و «مثبط معنويات الطبقة العاملة الروسية » ، الخ . . . » ، وهي شتائم اذا قورنت بها ردود لينين تبدو متحفظة ومعتدلة لطيفة تقريباً . ومع ان لينين لم يلمّح من بعيد او من قريب منذ عام ١٩١٧ الى تلك الشتائم ، فقد كانت جارحة جداً بحيث ما كان يمكن الا ان تترك ندوباً . حتى بين عامي١٩١٧ و ١٩٢٣ ، حين كان اتحادهما السياسي وثيقاً إلى أبعد الحدود ، افتقدت علاقاتهما دائماً سمة حمامة شخصية . كان هناك نوع من التحفظ لدى لينين(٣٦) . وكان تروتسكي يصلح ما أفسدته اهاناته للينين بصورة ضمنية ومرهفة الذوق ، وذلك بتوقيره المؤثّر له . وفي كتاباته نراه منشغلاً ايضاً ، ربما بصورة نصف واعية بتعويض لينين بعد الوفاة من كل تلك الاهانات.انه يسلّم بأنه في عام ١٩٠٣ ، حين قطع علاقته بلينين ، كانت لا تزال الثورة في قسم كبير منها تجريداً نظرياً بالنسبة اليه ، بينما كان لينين قد فهم كلياً كل حقائقها . وهو يعود دائماً للحديث عن مقاومته الداخلية الخاصة به ، التي كان عليه ان يتخطاها حين « بدأيتجه نحو لينين » . لكن حتى حين انتصر عليها وانضم الى لينين ، وضع نفسه في ظله ، وهو كمؤرخ يبقي نفسه هناك دائماً . ينقل بصورة دقيقة كل خلافاتهما ، لكن ذاكرته تنفر من التذكر ، فتقصّر غريزياً زمن انفصالهما ، وتلطف من حدة تضادهما، وتتوقف طويلاً باستمتاع عند سنوات الصداقة بينهما ، ساعية لاطالتها ، سواء الى الامام او الى الوراء . وفي احلام يقظته احياناً ، يخيّل اليه انه يحيا حياته من جديد ، بالتناغم التام والمتواصل مع لينين . يفكر بكتابة كتاب بصدد الصداقة الحميمة والخصبة والممتدة على كامل حياة ماركس وانجلز ، وهي مثل اعلى عن الصداقة لم يقيض له ان يحققه في حياته الخاصة به . بعد احدى عشرة سنة على وفاة لينين ، يكتب في يومياته :

(٣٦) النبي المسلح ، الفصل الثالث . حين لفت انتباه ناتاليا سيدوفا الى غياب تلك الحمامة الشخصية من علاقات لينين وتروتسكي ، ولمّحت الى أن الطابع الجارح لمساجلات تروتسكي جعل ذلك مستحيلاً ، ردت بأنها لم تفكر يوماً بالأمر بهذه الطريقة . لكنها أضافت : ربما كان ذلك في الحقيقة سبب نوعاً من التحفظ من جانب لينين . لقد خيضت تلك الصراعات التكتلية القديمة بصورة حيوانية ووحشية . » (Eto byla zverimaya borba) .

« في الليلة السابقة . . حلمت بأني كنت اتحادث مع لينين . اذا حكمنا على اساس المكان المحيط ، كان ذلك على ظهر مركب ، في حجرة من الدرجة الثالثة . كان يطرح عليّ اسئلة قلقة بصدد مرضي . لقد راكمت تعباً عصبياً كما يبدو لي ، عليك ان ترتاح . . . أجبته بأني ابللت دائماً بسرعة من التعب ، لكن . . . كان يبدو هذه المرة ان شيئاً ما ليس على ما يرام في العمليات الأكثر عمقاً . . . عندئذ قال لي : عليك جدياً ، - واصر على الكلمة -، ان تستشير اطباء (تلي عدة اسماء) . اجبت بأني استشرت عدة اطباء . . لكن حين نظرت الى لينين تذكرت أنه كان قد توفي : حاولت على الفور ان اطرد هذه الفكرة وحين انتهيت من رواية قصة الرحلة التي قمت بها الى برلين عام ١٩٢٦ للخضوع للمعالجة ، اردت ان أضيف : كان ذلك بعد وفاتك ، لكني تماسكت وقلت ، بعد أن وقعت فريسة للمرض[٣٧] » .

هنا يبقي الحلم وحلم اليقظة تروتسكي ، في قابليته للعطب ، وفي تحقيق أمنيته ، يرى نفسه بحماية اهتمام لينين وعطفه .

إن خداع البصر ، بما يخص لينين ، هو المثل الوحيد على الفكر الذاتوي في **تاريخ الثورة الروسية** . بمعنى آخر ، يقدم تروتسكي الاحداث بوصفه مفكراً موضوعياً . طبعاً ، ما كان يمكن غير ممثل او شاهد عيان ان يحس بالقدر من الحمامة الذي كان يحس به بالصفة الداخلية لكل مشهد ولكل واقعة وبلونهما وطعمهما . لكنه كمؤرخ ، يرتفع كثيراً فوق الممثل وشاهدالعيان ، ولا يمكننا ان نقول عن تروتسكي ما يقال عن قيصر، أي أنه كمؤلف لم يكن غير ظل للقائد العام وللسياسي . يُخضِع تروتسكي عمله للمقاييس الأكثر تطلباً ، ويستعين لدعم روايته بالشهادات الاكثر دقة ، التي يسعى وراءها ، في العادة ، لدى اعداء اكثر مما لدى اصدقاء . لا يرجع ابداً الى سلطته الخاصة به ، وفقط في النادر النادر ان يُدخل نفسه كـdramatis persona. لا يكرس مثلاً غير جملة واحدة ، قصيرة وجافة ، لسرد واقعة اضطلاعه برئاسة سوفييت بتروغراد احد اكبر المشاهد وأهم الاحداث في العصر[٣٨] . ربما كان ذلك عيباً في **تاريخ الثورة الروسية** انه اذا حاول

(٣٧) يوميات المنفى ، ص ١٣٠ - ١٣١ .

(٣٨) تاريخ الثورة الروسية ، ج ٢ ، ص ٣٤٧ .

المرء ان يستنتج منه ما كانت أهمية دور تروتسكي في الثورة ، فسوف يكوّن فكرة خاطئة . ان وجه تروتسكي يظهر في كل صفحة من صفحات **البرافدا** وكل صحيفة معادية للبلشفية او في تقارير السوفييت والحزب ، عام **١٩١٧** ، محاطاً بهالة من العظمة أكبر بكثير مما يبدو في الصفحات التي كتبها بنفسه . إن خياله هو المكان شبه الفارغ الوحيد على لوحته الواسعة والمفعمة بالحياة .

كان هازليت يعتبر أن العبقرية الخطابية والعظمة الادبية لا تلتقيان ، ومع ذلك فان تروتسكي الذي كان يمتلك الى ابعد الحدود سرعة الملاحظة لدى الخطيب ، وفصاحته العفوية وسرعة استجابته حيال جمهور السامعين ، كان موهوباً بالدرجة ذاتها عادات التفكير العميق والمدعَّم ، وعدم الاكتراث بالاكتفاء العابر ، وصبر النفس الضروري للكاتب الحقيقي . يصف لوناتشارسكي، الذي كان بدوره خطيباً بليغاً ، يصف تروتسكي كخطيب عصره الاول وكتاباته كـ « خطب مجمَّدة » . « إنه ادبي حتى في فنه الخطابي ، وخطابي حتى في الأدب[٣٩] » . وينطبق هذا الرأي تماماً على كتابات تروتسكي الأولى ، وقد صاغه لوناتشارسكي عام **١٩٢٣** قبل ان يبلغ تروتسكي الكاتب اوجه . في **حياتي** وفي **تاريخ الثورة الروسية** ، تُخضِع العنصر البيانيَّ لنظام صارم حاجاتُ السرد والتفسير. إننا دائماً امام خطاب مجمَّد لكن بالمعنى الذي يكون فيه اي سرد روائي خطاباً مجمَّداً .

خلال عشرات السنين ، لم تُقرأ مؤلفات تروتسكي إلا مترجمة . وبما أن الرجل قد تعرض للنفي فقد عبرت عبقريته الادبية عن نفسها في المنفى باللغات الاجنبية . وجد مترجمين مخلصين وصادقين في شخص كل من ماكس ابستمان ، والكسندر رام ، وموريس باريجانين ، الذين عرّفوا الجمهور الاميركي والاوروبي الى اعماله الكبرى . الا ان شيئاً ما في اسلوبه وروحه ينقص تلك الترجمات ، وذلك رغم واقع ان تروتسكي ، الذي كان استيعاب التراث الادبي الاوروبي متقدماً عنده ، كان الاكثر كوسموبوليتية بين كل الكتاب الروس . لكنه كان ينهل اعمق ما ينهل من ينابيع بلد المنشأ ، متشبعاً بقوة اللغة الروسية ورهافتها وتلوينها ودعابتها . إنه المعلم الاكبر للنثر الروسي بين ابناء جيله . يمكن ان يبدو احياناً لأذن انكليزية ان اسلوبه يعاني من ذلك « الافراط » الذي كان يرى فيه

(٣٩) لوناتشارسكي ، المرجع المذكور .

كولريدج عيب الاسلوب الالماني أو القاري الافضل . ونحن هنا أمام مسألة ذوق ومعايير اسلوبية مقبولة ، تتفاوت لا فقط بين امة وامة ، بل أيضاً داخل الامة ذاتها ، من حقبة لأخرى . ان القوة الانفعالية والمغالاة التكرارية تتلازمان مع اسلوب حقبة ثورية حيث يعرض الخطيب والكاتب للجماهير الواسعة الافكار التي يدور لأجلها صراع حياة أو موت . وبالطبع فإن الاصوات المرتفعة لاناس يخاطب بعضهم البعض الآخر على أرض المعركة ، او في ثورة ، لا يحتملها انكليزي قابع قرب النار في قصره . إلا أن **حياتي** و **تاريخ** .. بعيدان كل البعد عن الافراط . يبرهن تروتسكي هنا عن اقتصاد كلاسيكي في التعبير ، إنه خالق كلمات موضوعية يجتهد في أن يبلغ الدقة القصوى في نقل المعنى او الجو ، كادح قاس على نفسه في حقل الادب. يقولب عمله منتبهاً للبنية الاجمالية ولنُسب الاجزاء بحس رفيع دوماً بالوحدة الفنية . إن محاجّته النظرية مخروطة بقوة في حبكة السرد ، بحيث إذا حاولنا فصل هذه عن تلك ، يفقد النسيج في آن معاً حبكته وهدفه . ثمة القليل من القصاصين الذين يعرفون مثله تقصير روايتهم او توسيعها حين يكون ذلك ضرورياً . الا ان هذا التقصير او التوسيع ليسا نتيجة تصميم كيفي ، فنبض الاحداث بالذات هو الذي يقيس الخطو والايقاعات ، واثر السيل الجارف هذا الذي ينتجه المجموع يناسب تقديم ثورة . لكن على امتداد مقاطع طويلة ، تكون الايقاعات متساوية ومنتظمة وذلك حتى اقتراب لحظة حاسمة . عندئذ تغدو اقوى واكثف ، تغدو محمومة وعاصفة ، بحيث أن هجوم الحراس الحمر على قصر الشتاء ، وصفارات السفن الحربية في النيفا ، والصدام الأخير بين الاحزاب في السوفييت ، وانهيار نظام اجتماعي وانتصار الثورة ، كل هذه الاشياء تُنقل إلينا بقوة سمفونية(٤٠) . وفي كل هذا النصر الكبير ، لا يفقد ابداً ما يتميز به من Sachlichkeit ، فرادته التي تكمن في الجمع بين العظمة الكلاسيكية والحداثة المقتصدة .

ان صفحاته مزروعة بالتشبيهات والاستعارات الباهرة ، تنبجس عفوياً من خياله ، لكنه لا يفقد أبداً تحكمه بها . وصوره دقيقة ، مفاهيمياً ، بقدر ما هي حيوية . إنه يستخدم الاستعارة عن سابق تصور وتصميم بهدف تسريع الفكرة ،

---

(٤٠) قارنوا مع الصفحات ٣٠١ ، ٣٠٥ ، ٣١٣ ، ٣١٥ - ٣١٦ ، ٣٧٧ - ٣٧٨ ، في تاريخ الثورة ... ، ج ٣ ، (الطبعة الانكليزية) .

واضاءة وضع ، او الرابط الوثيق بين سلسلتين من الافكار . يمكن وميض هذه الفكرة ان يولد من جملة بسيطة ، او ان هذه الصورة ذاتها يمكن ان تتطور ببطء أكبر على امتداد مقطع ما ، او انه يمكنها ان تنبت في احد الفصول مثل نبتة : يظهر برعم في البدء ، ويزهر بعد صفحات ، ويثمر قبل نهاية الفصل . لاحظوا ، مثلاً ، استخدام الاستعارة في مقطع يصف بدء ثورة فبراير / شباط . يصور المشهد مظاهرة تضم الفين وخمسمئة شغيل في بتروغراد يصطدمون في ساحة ضيقة بفرقة من القوزاق ، « هؤلاء الكابحون والمعاقبون القدامى للانتفاضات الشعبية » !

« في البدء اقتحم الضباط صفوف الحشد ، شاقين طريقهم بصدور جيادهم . وخلفهم كان القوزاق يجرون مالئين عرض الشارع الواسع . انها للحظة حاسمة ! ها هم الفرسان يتسربون حذرين في شريط طويل عبر الممر الذي كان الضباط قد شقوه . ويتذكر كايوروف ، ان بعضهم كانوا يبتسمون وان احدهم غمز الشغيلة بود . تلك الغمزة لم تكن بلا معنى . ان نوعاً من الثقة بالنفس ، ودياً وغير عدائي ، شجع العمال وانتقل الى حد ما الى القوزاق ، وذلك الذي غمز بعينه حذا حذوه آخرون . ورغم جهود الضباط المتجددة ، لم ينجح القوزاق ، الذين لم ينتهكوا الانضباط علانية ، في تشتيت الجمهور عنوة ، وانسابوا عبره كالجداول . وقد تكررت هذه اللعبة ثلاث مرات أو اربعاً ، ولم يؤد ذلك الا الى ازدياد التقارب بين القوى المتواجهة . هنا وهناك ، بدأ القوزاق يجيبون عن اسئلة الشغيلة وحتى يحادثونهم لفترة من الوقت . لم يبق من الانضباط غير غطاء رقيق شفاف كان على وشك التفتت ، فسارع الضباط الى فصل دورياتهم عن الشغيلة ، وبعد أن تخلوا عن فكرة تفريق هؤلاء ، صفوا القوزاق في الخارج لاغلاق الطريق ومنع المظاهرة من بلوغ وسط المدينة. لكن حتى هذا لم يفد في شيء ، فالقوزاق الجامدون في اماكنهم في انضباط كامل لم يمنعوا العمال من الانزلاق من تحت بطون جيادهم . ان الثورة لا تختار طرقها ، والخطوات الأولى التي تخطوها تمر من تحت بطن جواد قوزاقي[٤١] » .

---

(٤١) تاريخ . . . ص ١٢٢ ـ ١٢٣ .

إن الصورة الاجمالية للثورة التي تنزلق من تحت بطن جواد قوزاقي تطفو بشكل طبيعي من هذا المقطع الوصفي : تسلط ضوءاً ساطعاً على عنصر الجدَّة والامل والحيرة الذي يشكل خلفية الوضع . نحس ان العمال لن يداسوا هذه المرة بالاقدام مع ان وضعهم لم يصبح بعد مضموناً تماماً . لكن بعد عشرين صفحة وصفت التطور التدريجي للانتفاضة ، تظهر الاستعارة من جديد ، بصورة معدلة ، كما لتذكيرنا بالطريق الذي اجتازته الثورة : « كانت نشرات فرحة تنقل النصر تصل الواحدة بعد الأخرى . لقد ظهرت سياراتنا المصفحة الخاصة بنا ! تحت العلم الأحمر المرفوع ، هي ذي تزرع الرعب في الاحياء التي لم تستسلم بعد .. لا حاجة بعد الآن للزحف من تحت بطن حصانٍ قوزاقي ، لقد انتصبت الثورة بكل سموها[٤٢] » .

وليس أقل تميزاً نوع آخر من الصور ، حيث يصف الكاتب مشهداً خاصاً بقوة وكثافة تجعلان هذا المشهد ذاته يتحول الى رمز أخاذ ، انه يصور التعارض بين الضباط والجنود في الجيش القيصري الذي يتفكك :

« كان لذلك الصراع الأعمى مده وجزره ، فالضباط كانوا يحاولون التكيف ، وكان الجنود يتحفظون مرة اخرى بصدد العمل اللاحق . لكن خلال تلك الاستراحة المؤقتة ، إبان ايام الهدنة واسابيعها تلك ، اصبح الحقد الاجتماعي الذي كان يفكك جيش النظام القديم اقوى فأقوى . وكان يشتعل اكثر فأكثر كشحنة من البارود. ففي موسكو ، في احد المدرّجات ، جرى تنظيم اجتماع للجنود والضباط الذين لم يعودوا صالحين للخدمة . تكلم احد المشوهين فبدأ يشهر بالضباط ، فارتفعت جلبة احتجاج ، وسُمِع ضربٌ للأرض بالأرجل والعصي والعكازات . « وانت ايها السيد الضابط ، منذ كم وانت تهين الجنود بضربات سوطك وقبضاتك ؟» كل اولئك الاناس المشوهين، والجرحى ، والذين صدمتهم القذائف كانوا يشكلون ما يشبه جدارين يتواجهان . جنود مشوهون ضد ضباط مشوهين، الاكثرية في وجه الاقلية، العكازات مقابل العكازات هذا المشهد الكابوس في المدرّج كان ينبىء بشراسة الحرب

(٤٢) المرجع ذاته ، ص ١٤٣ .

الأهلية [٤٣]» .

المشهد منقول في ست جمل قصيرة ومقطعة ، وبضع كلمات تنقلنا الى المدرّج وتدوي في آذاننا الارجل التي تضرب الأرض،وجلبة العصي والعكازات. ان تشبيها عادياً يبيّن الطابع غير العادي للمشهد . فالمشوهون هم هناك كجدارين يتواجهان . اي مأساوية وأي طابع مؤثر جُمِعا في هذه الجمل القليلة ، المجردة في الظاهر من كل صفة .

ان التهكم والسخرية والدعابة تنفذ الى كل كتابات تروتسكي . لقد وقف في وجه النظام القائم ، لا نتيجة سخط ، وقناعة نظرية وحسب ، بل كذلك لأنه كان يشعر بما فيه من عبث . في قمة صراع حاد ولا هوادة فيه ، يلتقط نظره الحادثة المضحكة او الهزلية ، وبدهشة متجددة دائماً ينظر الى حماقة الناس ، ودناءتهم ونفاقهم . واذ يتذكر في **حياتي** رد فعل الاشتراكيين الروس ـ الاميركيين ، في نيويورك في بداية عام ١٩١٧ ، على احدى تنبؤاته التي رأت ان الثورة الروسية ستنتهي الى اطاحة البورجوازية ، لا القيصرية وحدها ، يكتب ما يلي :

« كل الذين كنت اتحدث اليهم ، تقريباً ، اعتقدوا اني امزح . خلال لقاء خاص باشتراكيين ـ ديمقراطيين روس ، « شرفاء وبين الاكثر شرفاً » ، القيت محاضرة اكدت فيها ان الحزب البروليتاري سيضطلع حتماً بأعباء السلطة في الطور القادم من الثورة الروسية. كان اثر ذلك شبيهاً بما يحدثه حجر القي به في مستنقع مليء بالضفادع المنفوخة وباردة الطبع . لم يتردد د. انغرمان في ابداء ملاحظة مفادها اني اجهل حتى اوليات الحساب السياسي ، وأنه لا حاجة لتبذير خمس دقائق لدحض احلامي المجنونة[٤٤]» .

بهذا النوع من الاحتقار المستمتع يسخرتروتسكي في اغلب الاحيان من خصومه . ليست ضحكته عطوفاً الا في مناسبات نادرة، او حين يتذكر طفولته وصباه ، تلك الحقبة التي كان لا يزال بوسعه ان يضحك فيها بصورة لا مبالية .

---

(٤٣) تاريخ . . . ، ج ١ ص ٢٧٣ .

(٤٤) حياتي ، ج ١ ، ص ٣١٥ .

لكن فيما بعد ، شغلته كلياً معركة شرسة ، واذا كان يجلد الناس والمؤسسات فلكي يؤلب الشعب ضدهم : « ماذا إذاً ، هل سنسمح لضفادع منفوخة وباردة بان تعمل كيفما تشاء ، وبأن تدير لنا شؤون البشر؟» . سوف يحرض هجاؤه اولئك الذين كانوا مداسين بالارجل ومضطهدين كي ينظروا باحتقار الى الاقوياء الجالسين على عروشهم ، بينما الاقوياء يتشنجون ألماً تحت ضربات السوط . تماماً كما لسينغ في الصورة المشهورة لهايني ، لا يقطع فقط رأس عدوه ، بل كذلك « يلتقطه بمكر كاف ، ويرفعه ويبيّن للجمهور انه فارغ تماماً » . وهو لا يقطع ابداً هذا العدد العظيم من الرؤوس ليبين ما فيها من فراغ ، الا عندما يعود مع كليو الى الميدان العظيم لمعركة اوكتوبر .

الفصل الرابع

عــدو الشعـب

كتب تروتسكي في يومياته : « بالضبط ، لأنه كان من نصيبي أن أشارك في أحداث كبرى ، يحرمني ماضيَّ الآن من حظوظ العمل . لم يعد لي اكثر من شرح الأحداث ومحاولة توقع مجراها القادم »(1) . ويبدو أن هذه هي الملاحظة الوحيدة من هذا النوع التي أبداها حول نفسه ، وهي تقول اكثر بكثير مما كان ينوي قوله . وإذا حكمنا انطلاقاً من السياق الذي أتت ضمنه هذه الملاحظة ، فهو كان يفكر آنذاك بالنفي الذي كان ضحيته ، وهو نفي كان يجعل مستحيلاً كل نوع من الانخراط في نشاط سياسي على مستوى واسع . زد على ذلك أن ماضيه كان يقطعه أيضاً عن كل حظ عملٍ له معنى أكثر عمقاً . كانت افكاره وطرائقه وشخصيته السياسية تنتمي لحقبة يقف منها الحاضر ، اي حقبة نفيه ، موقفاً معادياً وبسبب ذلك لم يكن لها تأثير . كانت افكاره وطرائقه افكار الماركسية الكلاسيكية وطرائقها ، وكانت ترتبط بمنظور ثورة في الغرب الرأسمالي المتقدم . كانت شخصيته السياسية قد تكونت في جو الثورة« من تحت » والديمقراطية البروليتارية ، الجو ذاته الذي نمت فيه الماركسية الروسية والعالمية . لكن الثورة العالمية كانت راكدة رغم صراعات طبقية حادة ، في الحقبة التي فصلت الحربين العالميتين . بدت القدرة على المقاومة لدى الرأسمالية الغربية اكبر بكثير مما توقعته الماركسيات الكلاسيكية ، وقد تقوَّت ايضاً بواقع ان الاصلاحية الاشتراكية ـ الديمقراطية والستالينية نزعتا سلاح الحركة العمالية سياسياً ومعنوياً . والثورة العالمية لم تستأنف سيرها إلا فقط عبر انعكاسات الحرب العالمية الثانية . لكن مسرح هذه الثورة كان آنذاك الشرق المتخلف . واشكال هذه الثورة ومضمونها سوف تكون ، على الأقل جزئياً ، مختلفة جداً عن تلك التي توقعتها الماركسية الكلاسيكية . ففي اوروبا الشرقية ، سوف تأتي الثورة إجمالاً من أعلى

(1) تروتسكي ، يوميات المنفى ، ص ٢١ .

ومن الخارج ، من الغزو والاحتلال ؛ بينما تطورت في الصين ، لا وفقاً لشكل الديمقراطية البروليتارية الممتدة من المدن الى الريف ، بل كتمرد عملاق منبجس من الأرياف وآخذ في اندفاعته المدن ، ومنتقل فقط فيما بعد من الطور الديمقراطي البورجوازي الى الطور الاشتراكي . في كل حال ، كانت سنوات تروتسكي في المنفى ، من وجهة النظر الماركسية ، حقبة مشوشة ، فجوة تاريخية ، وقد تقوضت الأرض تحت قدمي بطل الثورة الاشتراكية الكلاسيكية . فبالنسبة للاحداث الصاخبة لسنوات ١٩٣٠ - ١٩٤٠ ، ولا سيما تلك التي تمت خارج الاتحاد السوفياتي ، كان تروتسكي ، بصورة جوهرية ، اللامنتمي الكبير .

ومع ذلك ، فإن ماضيه الذي قطعه عن كل حظ بالعمل ، لم يكن يسمح له بأن يبقى عديم النشاط . لم يكن في وسع رجل اوكتوبر ، ومؤسس الجيش الأحمر ، وسلهم الأممية الشيوعية سابقاً ، أن يعتاد بأي حال من الأحوال على دور اللامنتمي . وهذا لا يعني أن هكذا دوراً كان لا يتلاءم مع تصوره الماركسي ، فماركس وانجلز بالذات ، كانا بعيدين ، طوال فترات مديدة ، عن السياسات « العملية » ، لشدة ما كانا منهمكين بعملهما النظري الاساسي ، وكانا يكتفيان آنذاك بتفسير الأحداث . كانا بمعنى ما لا منتميين . لَيْساهما من قادا اول حركة اشتراكية جماهيرية في المانيا بل لاسال ، وليساهما من ألهما الاشتراكية الفرنسية بل بلانكي وپرودون . وكان تأثيرهما على الحركة العمالية البريطانية ضئيلاً واكثر من سطحي . لم يكونا يأخذان مسلَّمتهما الفلسفية حول « وحدة النظرية والممارسة » بسالمعنى الضيق للغاية بحيث يحسان بضرورة أن يشاركا في النشاط السياسي الرسمي في مختلف الاوقات[٢] . لما لم يكن امامهما أي حظ

(٢) في شباط / فبراير ١٨٥١ ، بعد أن غدا واضحاً ان الثورة في اوروبا قد انهزمت ، كتب انجلز الى ماركس : « أخيراً لدينا الان من جديد . . . فرصة تبيان أنه لا حاجة بنا الى الشعبية او لدعم حزب ما اينما وجد ، وان موقعنا مستقل كلياً عن هكذا تفاهات . . . في الحقيقة انه ليس علينا حتى ان نتذمر حين يخشانا هؤلاء Petits grands hommes* (قادة مختلف البدع ومختلف الاحزاب الاشتراكية) . منذ زمن طويل جداً ونحن نتصرف كما لو كان الرعاع حزبنا ، بينما لم يكن لدينا في الواقع اي حزب وكان الناس الذين اعتبرناهم من حزبنا ، على الأقل رسمياً Sous réserve de les appeler des betes incorrigibles entre nous** لا يفهمون حتى أوليات المشكلات التي نطرحها . منذ الأن لسنا مسؤولين الا عن نفسينا ، وحين سيحين الوقت الذي يحتاج فيه هؤلاء السادة الينا سنكون في وضع يسمح لنا بإملاء شروطنا . حتى ذلك الحين ، سنحظى على الاقل بالهدوء . لا شك ان ذلك سيترافق ببعض العزلة . . . ومع ذلك ، كيف يمكن اناساً مثلنا ، يهربون من كل نوع من المناصب الرسمية كما من الطاعون ، ان ينخرطوا في حزب . . . اي زمرة من الحمير الذين يحلفون باسمنا =

لبناء حزبهما والنضال لأجل السلطة ، فقد انسحبا الى مملكة الافكار وكان العمل الذي انجزاه فيها ، في اعلى درجات الأهمية العملية ، لا على الفور بل على المستوى التاريخي ، لأنه مدَّ جـذوراً عميقة في تجـربتهما الغنيـة في النضال الاجتماعي واشار الى طرق العمل القادم . وبما يخص تروتسكي ، لا طبعه ولا الظروف كانت تسمح له بالتخلي عن نشاط سياسي حقيقي ، وهو لم يكن يريد - ولا يستطيع - الانسحاب من النضال اليومي . لم تكن حقبة نفيه فاصلاً سياسياً فارغاً من كل حدث ، على طريقة العقود التي تلت عام ١٨٤٨ وكتب ماركس فيها DasCapital(*) . لقد كانت تلك الحقبة ، على الصعيد العالمي ، عصر معارك اجتماعية وكوارث ، لم يكن رجل له ماضي تروتسكي قادراً على أن يبقى خلالها على حدة . كما لم يكن حراً بالتخلي ، ولـو للحظة ، عن معـركته الشـرسة والمتواصلة ضد ستالين . كان ماضيه يدفعه دون هوادة الى العمل ، مثلما كان يحرمه دون هوادة ايضاً من أي أفق للعمل .

هكذا يحمل كل سلوكه في المنفى سمة هذا النزاع بين ضرورة العمل واستحالته . إنه يحس بهذا النزاع ، لكنه لا يعيه أبداً بوضوح . وحتى حين يلمح تلك الاستحالة فكشيء من الخارج ، شيء مؤقت ، ينتج فقط عن الاضطهاد والانعزال الجسدي . هذا الجهل بمأزقه الأعمق يعطيه القوة لمواصلة النضال ضد خصوم ربما كانوا أرعب مما مثله اي وجه تاريخي عبر الأزمان . إن الضرورة تشده نحو نشاط سياسي حقيقي ومع ذلك نلاحظ التراجع مراراً ، لا على مستوى روحه الواعية ، المفعمة دومـاً بالامـل ، بل في حـالاته النفسيـة غير الاراديـة

= لأنهم يعتقدون اننا من نوعهم . . . في المناسبة القادمة ، يمكننا - وعلينا - ان نتبنى هذا الموقف . لا نشغل اي منصب رسمي في الدولة ، ولأطول وقت ممكن لا نشغل ايَّ منصب رسمي في الحزب ايضاً ، ايَّ منصب في اللجان ، الخ . . . أي مسؤولية عن الحمير . [لكن بدل ذلك نمارس] نقداً لكل شيء دون هوادة ، وهذا يعود علينا بفرح لا يمكن ان تحرمنا منه مؤامرات جميع الحمقى . . . ان الشيء الاهم بالنسبة الينا الآن هو أن يكون لنا ان ننشر ما نكتبه . . . إما في مجلات فصلية او في مجلدات . . . . وما الذي سيبقى من كل الثرثرة التي يمكن ان ينصرف اليها كل هذا الحشد من المهاجرين على حسابك ، حين تكون قد نشرت ، بمثابة رد ، بحثك الاقتصادي ؟ » ماركس - انجلز ، Briefwechsel ، ج ١ ، ص ١٧٩ - ١٨٢ .

(*) بالفرنسية في النص الانكليزي الاصلي ، ومعناها الرجال العظام الصغار . (م) .

(**) بالفرنسية في النص ، ومعناها مع التحفظ بالنسبة لتسميتهم ، فيما بيننا ، بالبهائم التي لا تقبل الاصلاح .

(*) رأس المال (م) .

وارتكاساته الغريزية . تكافح ارادته تلك الحالات النفسية ولا تستسلم ابداً . لكننا أمام تصادم شرس ويائس ومنهك للغاية .

خلال سنوات برنكيبو ، كان الاعتزال الجسدي الصرف يجعل هذا المأزق أقل ضغطاً . كان تروتسكي نافد الصبر ويتطلع للاقتراب من مسرح العمل السياسي ، مقتنعاً بأن ذلك قد يسمح له بالتدخل بصورة فعالة . في غضون ذلك ، لم يكن لديه خيار غير الغوص في العمل التاريخي ـ الأدبي . اعتزل ، لكن بصورة غير كاملة في كل حال ، في مملكة الأفكار النظرية ، حيث كانت تقيم الآن قوته الدائمة . وهذا هو السبب في ان سنوات برنكيبو الأربع كانت حقبته الأكثر خلقاً في المنفى . لكن خروجه من برنكيبو زاد بالضرورة من حدة ذلك المأزق وفاقمه بشكل بالغ . لن يعاني فقط ، بعد قليل ، من الضربات القاسية لذلك العداء الفظ الذي كان الاعتزال قد حماه منه جزئياً ، بل سوف يشعل فيه اقترابه من مسرح العمل السياسي شغفه بالعمل الذي غدا الآن نقطة الضعف لديه . سوف يكتشف ـ او يعيد اكتشاف ـ ان مجرى الأحداث كان يمر دون ان يتأثر به ، ومع ذلك سيبذل كل جهده لقلبه . خلال السنوات الثماني التي بقيت من عمره ، لن ينتج اعمالاً لها الوزن والنوعية الدائمان لـ تاريخه او حتى لسيرته الذاتية ، رغم أن يده لم تفارق الريشة ابداً . غادر برنكيبو وهو مزمع كتابة تاريخٍ للحرب الأهلية ، كان يمكن أن يكون ، بسبب سلطته الفريدة ، بأهمية **تاريخ الثورة** ، وربما اغنى بالأضواء . شرع بكتابة سيرة كبرى لحياة لينين وأسرَّ لماكس ايستمان وفيكتور غولانكز انها قد تكون العمل الأهم في حياته وتقدم له الفرصة لعرض كامل ، « إيجابي ونقدي » لفلسفة المادية الديالكتيكية(٣) . وإذا هو لم ينفذ هذين المشروعين (ومشاريع اخرى) فذلك يعود جزئياً للتبديلات الدائمة في مكان الإقامة وللاضطهاد ، وهي امور لم تترك مجالاً للتركيز الضروري ، لكن بوجه خاص لأنه ضحى بهما لصالح نشاطه السياسي الفعلي ، جهده الذي لم يكن يكل لأجل الأممية الرابعة .

هكذا كانت حياته بكاملها ممزقة بين ضرورة العمل واستحالته ، وفي الفترة

(٣) من تروتسكي الى ايستمان في ٦ نوفمبر ١٩٣٣ . تروتسكي الى غولانكز ، ٢٨ سبتمبر ١٩٣٣ . المحفوظات ، القسم المقفل . في رسالته الى غولانكز كتب عن رغبته في رؤية ارتور رانسوم يهتم بالاصدار الانكليزي لهذا العمل .

ذاتها لرحيله من برنكيبو ، كان لديه ما يشبه الحدس بخطورة هذا النزاع . انطلق بمعنويات عالية ، مفعماً بالأمل وبالتوقعات العظام ، لكن كذلك بما يشبه خوفاً مميتاً في اعماق كيانه .

في ١٧ تموز / يوليو ١٩٣٣ ، أبحر من برنكيبو ، بصحبة كل من ناتاليا وماكس شاختمان ، وأمناء سره الثلاثة : ڤان هايجنكورت ، وكليمان وسارا ڤيبير، وذلك على متن مركب ايطالي صغير بطيء ، اسمه بلغاريا . وقد دامت الرحلة الى مارسيليا اسبوعاً كاملاً . ومرة أخرى ، اخفقت كل الاحتياطات المأخوذة لكي يبقى ذلك الانتقال سرياً . فكما إبان رحلته إلى الدانمارك ، سافر تحت اسم عائلة امرأته وفعل كل ما في وسعه لكي لا يلحظه أحد . لكن حين توقف المركب في مرفأ پيريه ، كان في انتظاره العديد من مخبري الصحف المتلهفين لمعرفة أخباره . وقد أعلن لهم أن رحلته خاصة تماماً ، وأنه وزوجه سوف يكرسان الأشهر القادمة للعلاج الطبي ، ورفض الانجرار للأدلاء بأي تصريح سياسي . « لا ينبغي لرحلتنا ، بأي صفة من الصفات ، ان تجذب الانتباه العام ، لا سيما في هذا الوقت الذي يهتم فيه العالم بمسائل أهم بما لا يقاس » . لكن مرة أخرى بقيت الصحافة ، الشكاكة ، متيقظة وراحت تطلق التخمينات بصدد مشاريعه . انتشرت اشاعة تقول إنه جاء الى فرنسا بإيحاء من ستالين ليلتقي هناك ليتفينوف ، المفوض السوفياتي في الشؤون الخارجية ، وليناقش معه شروط عودته إلى روسيا . وقد كانت الإشاعة قوية ، ولا تتزحزح ، واخذت أحجاماً دفعت معها الـ Vossische Zeitung وكانت صحيفة المانية جدية ، إلى سؤاله إذا كان ذلك صحيحاً ، وجعلت الوكالة البرقية السوفياتية تصدر تكذيباً رسمياً(٤) .

خلال الرحلة ، امضى معظم الوقت في حجرته ، واضعاً افكاره بصدد الأممية الرابعة ومبلوراً إياها . ولقد كتب مقاله : **لا يمكن البقاء في أممية واحدة مع ستالين . . وشركاه** . وكتب ايضاً نقداً قصيراً وحاراً لرواية كان قد نشرها للتو أحد اتباعه الشباب الايطاليين ، اينيازيو سيلوني ، بعنوان : **فونتامارا**(٥) . وبعد

---

(٤) اشتبه تروتسكي بأن الـ vossische Zeitung ، التي كانت قد اصبحت نازية ، اجرت التحقيق بأمر من هتلر ، وبأن ستالين عجّل في تطمين هتلر حول واقع انه لم يكن يتصور اطلاقاً اي نوع من المصالحة مع الرجل الذي اقترح بأن ترد الحكومة السوفياتية على اخذ هتلر السلطة باعلان التعبئة العامة في الجيش الاحمر . انظر الملحوظة : ستالين يطمئن هتلر ، في ١٩ تموز / يوليو ١٩٣٣ ، المحفوظات .

(٥) المحفوظات ، B-O ، العددان ٣٦ ـ ٣٧ ، ١٩٣٣ .

عدة ايام من النشاط الكثيف، مرض في حين كان المركب يقترب من فرنسا. سمّرته في الفراش نوبة لومباغو قوية للغاية.[٦]

تروي ناتاليا: «كان الجو حاراً جداً، في حين كان الألم يعذبه... وكان عاجزاً عن النهوض. جرى استدعاء طبيب المركب. كانت الباخرة تقترب من مكان وصولها، وكنا خائفين من النزول الى اليابسة». لكن الألم، الذي كان يجعل حتى التنفس صعباً، خف قليلاً حين جرى ايقاف المركب فجأة في عرض البحر قريباً من مارسيليا، وأمرته الشرطة الفرنسية بالنزول هو وامرأته في سفينة سحب صغيرة، في حين كان على أمناء سره أن يواصلوا السفر الى مارسيليا. ضايقه ان ينفصل عن هؤلاء وكان على وشك الاحتجاج حين لاحظ أن ليوڤا وريمون مولينييه ينتظرانه في سفينة السحب. نزل ببطء، لاهثاً من الألم. كان ليوڤا هو الذي اتخذ الاجراءات المناسبة لنزوله بهذه الطريقة، ليسمح له بالافلات من نظر الجمهور وحشد مخبري الصحف الذين كانوا ينتظرونه في المرفأ، ومعهم بالطبع عملاء لحساب الغيبيو. نزل تروتسكي بهدوء في كاسي Cassis قرب مرسيليا، حيث قدّم له ضابط في الأمن العام ورقة رسمية تلغي القرار الذي كان جرى طرده بموجبه، عام ١٩١٦، من فرنسا الى الأبد. وقد كتب تروتسكي: «منذ زمن طويل لم استلم وثيقة رسمية بكل هذا السرور[٧]».

لكن هذا السرور أفسدته على الفور ضجة الصحف اليمينية ضد قبوله في الأرض الفرنسية[٨]. وفي يوم وصوله، ٢٤ تموز/يوليو، احتجت لومانيتيه، أيضاً ـ يا للسخرية! ـ ضد الغاء قرار الطرد الصادر عام ١٩١٦، وهو القرار الذي تم اتخاذه بناء على تحريض الكونت ايسڤولسكي، آخر سفير للقيصر، كتدبير انتقامي ضد نشاطات تروتسكي المعادية للحرب. نشرت لومانيتيه ايضاً قراراً للمكتب السياسي للحزب الشيوعي الفرنسي يدعو كامل اعضاء الحزب الشيوعي لمراقبة تحركات تروتسكي. وهكذا كان لمخاوف ليوڤا واحتياطاته ما يبررها. من كاسي، توجهوا بصحبة بعض التروتسكيين الفرنسيين الشباب الى بوردو، ثم الى

---

(٦) وفقاً لقاموس بلاك الصحي، يمكن الا تنجم نوبة لومباغو عن مرض ما في عضلات الظهر، بل عن خلل انفعالي، يمنع الفرد من مواجهة التوترات وحالات الارهاق والصمود أمامها.

(٧) المحفوظات.

(٨) انظر مثلاً le Matin، و le Journal، في ٢٤ ـ ٢٥ ـ ٢٦ تموز / يوليو ١٩٣٣.

الشمال نحو سان پاليه ، قرب رويان على الساحل الاطلنطي ، حيث كان مولينييه قد استأجر ڤيلا . خلال ذلك ، انزل امناء السر ، الذين كانوا غادروا المركب في مرسيليا ، المكتبة والمحفوظات والأمتعة الخاصة بتروتسكي ، وارسلوا بها جميعا الى باريس حيث كانوا ذاهبين هم بالذات . فاستنتج مخبرو الغيبيو ، ان تروتسكي ذهب ايضاً الى باريس ، وعلى هذا الظن سوف يبني فيشنسكي ، بعد أربع سنوات ، خلال محاكمات موسكو ، قسماً اساسياً من اتهاماته المتعلقة بنشاطات تروتسكي الأرهابية في فرنسا . اتجه تروتسكي ومجموعته الصغيرة ببطء نحو رويان ، وبسبب آلامه المتواصلة توقف الجميع في فندق صغير في إحدى قرى مقاطعة الجيروند . خلال الليل ، أمَّن ليوقا وشاب فرنسي الحراسة على باب تروتسكي . ولم يصلوا الى سان باليه الا بعد ظهر اليوم التالي ، ومذ وصلوا أصيب تروتسكي بحمى مرتفعة . لكن بعد ذلك بساعة على الاكثر ، كان عليه ان يغادر سريره ويرتدي ثيابه ويغادر البيت بسرعة . فلقد اندلعت النار ، وكانت الغرف ممتلئة بالدخان ، بينما كانت الشرفة والبستان و السياجات تشتعل جميعا .
كان شيء ما رمزي في ذلك الحادث الذي وسم بداية إقامته . فأكثر من مرة خلال إقامة تروتسكي في فرنسا ، سوف تشتعل الأرض تحت قدميه ويضطر الى الفرار . لكن هذه الحادثة المؤسفة في سان پاليه كانت عرضية تماماً . فالصيف كان شديد الحرارة ، وعدد الغابات والبيوت التي اشتعلت كان كبيراً جداً . كان يمكن الحادث ان يصبح مربكاً لو أن هوية تروتسكي اكتشفت حينذاك ، لأنه كان مضطراً للبقاء في السرية . كان جمهور قد تجمع خارج الڤيلا ، ولكي يتجنب ان يتعرف إليه احد ، اجتاز الطريق بسرعة ، واختبأ في سيارة مولينييه في الجانب الاسفل من الطريق ، وانتظر هناك الى حين يكون ابنه وامرأته واصدقاؤه اطفأوا النار ، بعد ان يكون سهَّل مهمتهم تبدلٌ في اتجاه الريح . اقترب اناس منه ، لكنه تظاهر بأنه سائح اميركي يكاد يتكلم الفرنسية . ولاحظ بارتياح ان لهجته لم تخنه . في اليوم التالي ، نقلت الصحيفة المحلية الخبر فأشارت إلى أن « زوجين أميركيين عجوزين ، كانا قد اقاما لتوهما في الفيلا ، حين اندلعت النار » .

بقي في سان ـ پاليه من ٢٥ تموز/يوليو الى اول تشرين الأول/اوكتوبر ، ولم يغادر البيت طيلة ذلك الوقت ، لا بل كان في أغلب الاحيان في السرير . ووفقاً لما قالته ناتاليا ، كانت صحته تنحرف في كل مرة يحدث فيها شيء ما . كان مصاباً بالأرق وبأوجاع رأس ونوبات حمّى . لم يكن يستطيع النهوض للنظر

الى الجنينة او الخروج للشاطىء الرملي ، وكان يؤجل هذا الأمر من يوم ليوم . وحين تحسنت صحته قليلاً استقبل زائرين ، لكنه تعب سريعاً وأمضى ساعات طويلة على ديوان في الداخل او على مقعد طويل في الجنينة . كان على الزائرين ان يتذكروا انه ليس في وسعه أن يمضي في محادثة لأكثر من ١٥ دقيقة او ٢٠ ، وأنه كان يعرق كثيراً في تلك الحالة ويكاد يغمى عليه ، بحيث بقي بعضهم عدة أيام في سان ـ پاليه ، ليحصلوا على عدة لقاءات قصيرة معه[٩] .

ومع ذلك ، لم يستقبل اقل من ٥٠ زائراً في ذينك الشهرين اللذين أمضاهما في سان ـ پاليه . بين هؤلاء (اذا وضعنا على حدة الفرنسيين وغيرهم من التروتسكيين) : جيني لي (امرأة أنورين بيڤان) وأ.ث. سميث من حزب العمل المستقل البريطاني ، وجاكوب والشر وپول فروليش ، من القادة السابقين للحزب الشيوعي الالماني ، وكانا آنذاك من قادة Sozialistisch Arbeiter Partei ، ومارينغ سنيفليت ، الذي كان لفترة ممثلاً للكومنترن في اندونيسيا والصين ، وآنذاك عضواً في البرلمان الهولندي وزعيماً لحزب اشتراكي مستقل ، وبول هنري سباك ، السكرتير العام لاحقاً لحلف الناتو ، الذي كان في تلك الفترة زعيماً للشبيبة الاشتراكية البلجيكية ، والى حد ما تلميذاً لتروتسكي ، يحس بالرهبة امام المعلم ، ويمتلىء خضوعاً مثابراً لكن خائفاً . بالاضافة الى روث فيشر ، كارلو روسيللي ، المعادي للفاشية الايطالي المرموق ، اندريه مالرو وآخرين .

كان سبب زيارة معظم هؤلاء مؤتمر تداولي كان سينعقد في باريس في نهاية آب/اغسطس ، تشارك فيه احزاب ومجموعات تثير اهتمامها فكرة اممية جديدة . وإذ كان تروتسكي عاجزاً عن حضور ذلك المؤتمر فقد شارك بنشاط في الاعداد له ، كتب موضوعات وقرارات ، واهتم كثيراً بالتفاصيل التنظيمية . كان يأمل في كسب الكثير ممن ظلوا خارج الامميتين القائمتين . لكن من بين الأحزاب والمجموعات الصغيرة الاربعة عشر التي تمثلت في المؤتمر ، لم ينضم الى التروتسكيين في عملهم من اجل اممية رابعة غير ثلاثة اطراف هي الـ Sozialistische Arbeiter Partei الالماني ومجموعتان هولنديتان . اما الاطراف الباقية فأرعبها الطابع الشرس لمعارضة تروتسكي ، سواء للاصلاحية او للستالينية ،

---

(٩) انظر تصريح ناتاليا سيدوفا امام لجنة ديوي ، اول آذار / مارس ١٩٣٧ ، وشهادات كليمانت و« ايرد » في ٣١ آذار / مارس ١٩٣٧ . المحفوظات القسم المقفل .

وحتى الثلاثة التي انضمت اليه لم تفعل ذلك الا مع التحفظ . ولم تتشكل منها اممية بل محض منظمة تمهيدية . وقد اعجبت هذه البداية تروتسكي ، في الظاهر ، ورأى فيها حدثاً معبراً بقدر ما كان مؤتمر زيمرقالد التداولي في أيامه(١٠) .

ومع ذلك ، لم يكن في وسعه الا ان يشعر كم كانت تلك الانطلاقة ضعيفة . ذلك كان ، جزئياً ،سبباً من اسباب إحباطه . ونحن نجد التعبير الحميم عن هذه الحالة النفسية خلال تلك الاسابيع في مراسلته مع ناتاليا التي مضت في بداية ايلول/سبتمبر الى باريس لاستشارة أطباء . فرسائلهما ، الحنونُ والحزينة ، تظهره في حالة استسلام وتبعية معنوية حيالها ، وهو أمر كان من الصعب تصوره خلال احدى الفترات الأكثر نشاطاً من حياتهما السابقة . كانت إقامتها في باريس تذكرّه بسنوات غدت الآن بعيدة ، عاشا فيها معاً هناك ، وكان لديه شعور ممض بقوته الآفلة وبتقدمه في السن . بعد يوم او يومين من رحيلها ، كتب لها : « لدي حنين مؤلم إلى صورتك القديمة ، صورتنا التي نظهر فيها ونحن لا نزال في عز الشباب . . . أنتِ في باريس و . . . في اليوم الذي مضيتِ فيه . . . لم اكن على ما يرام . ذهبت الى غرفتكِ ولمست كل اشيائك . . . » يحاول مراراً ان يستعيد صورة شبابهما ويشكو من قلة النوم ، ومن الأرهاق ، وفقدان الذاكرة بسبب آلام السنوات الاخيرة . لكنه يطمئنها بقوله لها إنه يشعر بأن قدراته الفكرية لم تتغير ، وأن طبيباً ممتازاً ، رفيقاً أتى من باريس ليسكن معه ، يعتني به جيداً . كتب لها في ١١ أيلول / سبتمبر :

> « ايتها العزيزة ، العزيزة جداً ، كانت برنكيبو اكثر هدوءاً . يبدو الماضي القريب أفضل مما كان من قبل ، ومع ذلك كنا ننتظر بفارغ الصبر والأمل إقامتنا في فرنسا ! هل هذا هو العمر الذي يتقدم ، او إن الامر لا يتعلق الا بانحدار مؤقت ، وإن مفاجىء ، سوف أبرأ منه ؟ سنرى . البارحة ، جاء شغيلان مسنّان ومعلم مدرسة يزوروني . كان نافيل هنا أيضاً . . كنت أحس بالتعب وكان الحديث يفتقد الصلة بموضوع ،

---

(١٠) B · O ، العدد ٣٦ ـ ٣٧ ، ١٩٣٣ . وقع تروتسكي بعضاً من القرارات والموضوعات التي كتبها للمؤتمر ، بالاسم المستعار ج . غوروف .

لكنني كنت انظر بفضول الى الشغيلين الريفيين العجوزين[11] » .

بعد أسبوع أبلَّ بعض الشيء ، ووصف لناتاليا كيف استقبل ، وهو لا يزال مسمّراً على سريره ، رهطاً من انصاره وناقش معهم بقوة ونشاط ، وكيف ان ليوفا عاد اليه ، بعد ان رافقهم الى الباب ، فأخذه بين ذراعيه من فوق الغطاء ، وعانقه وهمس : « أحبك ، يا أبي » . كان هذا الحب البنوي وذاك الاعجاب يهزان عواطفه بعد سنوات من الانفصال . لكن بعد ايام قليلة ، كتب من جديد يقول إنه يحس بنفسه عجوزاً جداً ، بين الشباب الذين يزورونه ، وانه يستيقظ ليلاً « كطفل متروك » وينادي ناتاليا . ردت ناتاليا : « كم أنت حزين ، لم تكن في يوم من الايام على هذه الحال . . . أراك شاحباً ، ومتعباً وكئيباً . إن هذا لموهن بشكل مخيف . لا يشبهك هذا إطلاقاً . . انت تتطلب من نفسك أشياء فوق طاقة البشر وتتحدث عن العمر بينما ينبغي الذهول إزاء الثقل الذي لا زلت قادراً على حمله على كتفيك » . كان يتراجع ، داخلياً ، امام استحالة مهمته ؛ والزيارات والمحادثات التي كان معظمها يدور في حلقة مفرغة ، ومكائد الزمر الصغيرة ما كان يمكن ان تلامس شغاف قلبه[12] .

في بداية تشرين الأول/اوكتوبر ، كانت صحته تحسنت حقاً ، ولكي يرتاح كلياً ، مضى هو وناتاليا إلى بانيير- دو- بيغور ، في جبال البيرينيه ، حيث أمضيا ثلاثة أسابيع ، قاما بجولات وزارا لورد ، التي أمتعته وأغاظته بوصفها نصباً مقدَّماً للسذاجة البشرية . وقد استعاد عزيمته وكان يتطلع لاستئناف العمل . ومن بانيير ، كتب الى غولانكز ، الذي كان يحثه على تنفيذ مشروعه حول سيرة لينين ، فأعلمه أنه سوف يركز جهده الآن على هذا الكتاب ، ويضع جانباً مشروع كتابة **تاريخ الجيش الأحمر**[13] .

هكذا كانت ثلاثة شهور قد مرت على وصوله الى فرنسا . والاحتجاجات ضد دخوله الأراضي الفرنسية كانت قد انطفأت ، فهو رتب اوضاعه بحيث يبقى متخفياً . كانت الصحافة تجهل مكان إقامته ، وحتى بين الأصدقاء والأنصار الذين

---

(۱۱) المحفوظات ، القسم المقفل .

(۱۲) المرجع ذاته .

(۱۳) رسالة الى غولانكز في ٢٥ تشرين الاول/اوكتوبر ١٩٣٣ . رداً على تلك التأكيدات ، عرض غولانكز على تروتسكي سلفة مقدارها ١٥٠٠ ليرة بصدد سيرة حياة لينين . المرجع ذاته .

كانوا يزورونه في سان ـ پاليه ، لم يكن هنالك من يعرفون تماماً عنوانه ، بسبب الاحتياطات التي كان يتخذها ليوفًا وهو ينظم زياراتهم . كان الستالينيون عاجزين عن اقتفاء اثره ، وتنظيم المظاهرات المتوقعة ضد وجوده . جاء متعاطف تروتسكي ، كان لا يزال عضواً في الحزب ، إلى رويان ليطلّع على ما كان يجري في خلايا المكان ، وتحذير سان پاليه إذا دعت الحاجة . لكن الستالينيين المحليين لم يكونوا يشتبهون إطلاقاً بوجود تروتسكي في جوارهم . وإذ اطمأنت الحكومة إلى كتمانه ، رفعت بعض القيود على حرية حركته ، وسمحت له بأن يقيم حيث يريد ، باستثناء باريس ومحافظة السين . هكذا انتقل في اول تشرين الثاني/ نوفمبر الى باربيزون ، المدينة الصغيرة بالقرب من باريس ، التي اعطت اسمها لمدرسة رسم شهيرة . هناك عاش في بيت واقع خارج المدينة ، في منتزه صغير على حدود غابة فونتينبلو ، بعيداً عن الأعين المتقصية،بحماية حرّاس وكلاب حراسة .وظل على اتصال وثيق بأنصاره في باريس ، فكان رسل يؤمنون بانتظام الرسائل منه وإليه . وفي الشتاء ، قام برحلتين أو ثلاث الى العاصمة ، يرافقه احد الحراس . كان يأمل في باربيزون ان يتمكن من العمل على كتابة سيرة لينين ، دون أن يعكره احد ، طوال عام على الاقل .

بدا أن كل أثرٍ لتعبه الأخير قد اختفى ، واستعاد روتينه المعتاد . فعند السادسة صباحاً ، في حين لا يزال الجميع في البيت نائمين ، يكون هو بدأ العمل ولا يتوقف إلا للفطور ، ليستأنف فيما بعد عمله حتى الظهيرة . بعد الغداء و ساعة استراحة ، كان يعود الى العمل مجدداً ، وعند الرابعة بعد الظهر يأخذ هو وناتاليا وامناء السر الشاي واقفين . ثم كان كل واحد يستأنف عمله حتى العشاء ؛ وفي المساء كان افراد المنزل والزائرون يؤلفون حلقة نقاش يترأسها هو بالطبع . لقد استأنف ابحاثه المثابرة وعمله الأدبي . جمع مواد لكتابة سيرة لينين . غاص في الوسط العائلي لآل اوليانوف وفي طفولة لينين ومراهقته ، ودرس روسيا في سنوات ١٨٧٠ ـ ١٨٨٠ والمراحل التكوينية في التطور الفكري للينين . وهذه المواضيع جميعا تملأ القسم الأول من السيرة ، الوحيد الذي تم انجازه . كان يعد نفسه للتصدي لكتابات لينين الفلسفية ، ولما كان واعياً ثغرات معرفته الخاصة به ، انكب مجدداً على كلاسيكيي المنطق والديالكتيك ، على ارسطو وديكارت ، لكن بوجه خاص على هيغل ، ولم يترك اي مشروع آخر يحرفه عن موضوعه . في تلك الفترة تقريباً ، سأله هارولد لاسكي بإلحاح أن يكتب كتاباً

يكون موضوعه **إلى أين تمضي اميـركا ؟** تقـريباً على طـريقة **الى أين تمضي انكلترا ؟** كتب مرشد حزب العمل البريطاني ، الذي كان مرجعاً مشهوراً في السياسة والتاريخ الدستوري الاميركيين : « لا أعرف احداً يمكن ان يكون كتابه حول هذا الموضوع اكثر اثارة لاهتمام الجمهور الانكليزي ـ الاميركي[١٤] » . لكن تروتسكي لم يكن يريد أن يصرف انتباهه عن موضوعه .

كـان يتابـع الآن ، اكثر من اي وقت مضى ، **Con amore**(*) ، السيـاسة والآداب الفرنسية . وقد كتب ، من اجل الاسترخاء ، أو كتب مجدداً ، صوراً سريعةً لشخصيات من أمثال بريان ، وميلران ، وبوانكاريه ، وهيريو ، ونقد بعض الروايات الفرنسية . بين هذه الكتابات الصغرى يستحق بحثه حول **Voyage au bout de la nuit**(**) لسيلين ومذكرات بوانكاريه أن نلخصه باقتضاب[١٥] . كانت مناسبة هذا البحث بدايات سيلين مع Voyage : « دخل سيلين الى الأدب الكبير كما يدخل آخرون بيتهم » ، هذا ما قاله تروتسكي ، ممتدحاً لامبالاة الكاتب تجاه المحترمية ، وتجربته الواسعة ، وسمعه المرهف ولغته الجسور . « لقد هز مفردات الأدب الفرنسي هزاً شديداً وأعاد إليه كلمات كانت الصفائية الأكاديمية استبعدتها منذ زمن طويل . ولما كان متأصلاً في تراث غني يعـود الى رابليه ، كتب **Voyage** كما لو كان اول من يستخدم الكلمات الفرنسية» . كان يتحدى أيضاً كل قواعد البورجوازية الفرنسية التي كان بوانكاريه يجسدها تماماً . اوحى لتروتسكي جمع سيلين وبوانكاريه المشهد الأول من Voyage ، الذي يصوّر بوانكـاريه مدشناً معرضاً لكلاب صغيرة . « لدى كاتب عدل البورجوازية الفرنسية العفيف ، وشفيع الجمهورية الثالثة القديس ، لا أمارة واحدة فردية وشخصية . كل شيء فيه اصطلاحي وتقليدي . إن شخصيته ، كما تظهر في احاديثه ومـذكراتـه ، تشبه هيكلاً من الاسلاك الحديدية الشائكة مغلفاً بزهور من ورق وبـرْقَيْقات ذهبيـة لمّاعة . كان في وسع بوانكاريه القول : « انا بورجوازي ولا شيء مما هو بورجوازي غريب عني » . كان جشعه ، الذي تكشفه طريقته في ابتزاز

---

(١٤) من لاسكي الى تروتسكي ، ١٥ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٣٣ . المحفوظات ، القسم المقفل .

(*) بحب ، او بحماس (م) .

(**) رحلة الى نهاية الليل (م)

(١٥) هذا البحث مؤرخ في ١٠ ايار / مايو ١٩٣٣ ، لكن تروتسكي كان يشتغل عليه دائماً بعد انتقاله الى فرنسا .

تعويضات من المانيا المهزومة ، ونفاقه المطلق لدرجة انه اصبح من جانبه نوعاً من الصدق ، كانا يتقنّعان بالعقلانية الفرنسية التقليدية . ومع ذلك ، كان منطق فرنسا البورجوازية ووضوحها بالنسبة لذلك التراث الفلسفي الرّفيع « ما كانت مدرسية العصر الوسيط بالنسبة لأرسطو » . « لم يكن يرى في العالم ابعاد الواقع الثلاثة ، بل بُعْدَي الوثائق الرسمية ، وحسُّ التناسب الفرنسي المشهور كان لدى بوانكاريه حسَّ النِّسَب الصغيرة » . فالبورجوازية الفرنسية « كانت ورثت من جدودها صُواناً غنياً بالأزياء التاريخية ، تستخدمه لتمويه نزعة المحافظة العنيدة لديها . وبالترتيب الثاني بعد العقلانية ، كانت ديانة الوطنية بالنسبة اليها ما كان الدين للطبقات الوسطى البريطانية » . إن البورجوازي الفرنسي الملحد ، الذي كان يتكلم باسمه بوانكاريه ، « يعكس على امته الخاصة به كل الصفات التي يتسم بها ، في نظر الشعوب الأخرى ، الآب ، والابن والروح القدس . وفرنسا بالنسبة اليه هي العذراء مريم ، وطقس الوطنية هو جزء ، حتماً ، من الطقسية السياسية » .

إن ميزة سيلين هي انه كان يفضح المقدسات وينبذها . كان يصور نمط حياة لم يكن القتل فيه من اجل الكسب الحقير الاستثناء النادر أو التجاوز ، كما كانت تدعي الاخلاق التقليدية ، بل حدثاً طبيعياً تقريباً . ومع ذلك فإن سيلين ، المجدد على صعيد الأسلوب اكثر مما على صعيد الأفكار ، كان هو ذاته بورجوازياً ، متعباً ، ويائساً و« قرفاً من صورته التي تريه اياها المرآة ، إلى حد انه يحطم الزجاج الى حين تنزف يداه » . وكان تروتسكي يخلص الى القول إنه إذا لم يكن لدى سيلين غير هذا الحقد الشديد على الكذب وهذا التحدي لكل حقيقة ، فربما لن يكون قادراً على كتابة كتاب آخر مثل **Voyage** . اذا لم يحدث اي تبدل راديكالي فيه ، سيغوص في الظلمات (في الواقع ، تم‌اسر سيلين فيما بعد ، وأخذه بعيداً تيار النازية) .

وملاحظات تروتسكي حول مالرو جديرة هي الأخرى بالانتباه ، لأنه إذا لم يكن الأول ، فقد كان من اوائل الذين قاموا بنقد رواية La Condition humaine(*) ، التي حيّا فيها تجلي موهبة كبرى فريدة من نوعها . الح على ناشر

(*) الشرط الانساني (م)

من نيويورك كي تصدر طبعة اميركية للكتاب ، وأوصى به بالعبارات التالية : « فقط هدف عظيم فوق بشري ، يكون الانسان مستعداً لافتدائه بحياته ، يعطي معنى للوجود الشخصي . هذا هو المعنى النهائي لهذه الرواية ، الخالصة من كل نزعة تعليم فلسفية ، والتي تبقى من بدايتها حتى نهايتها عملاً فنياً حقيقياً[١٦] » . ومع ذلك ، ففي دراسة نقدية سابقة ، كان يتكلم على اثر من ماكيافلية رخيصة لدى مالرو ، الذي لم تكن تفتنه الثورة ومقاتلوها الشرعيون بقدر ما يفتنه ثوريون زائفون وبيروقراطيون فوق البشر يحاولون ان يتحكموا بالطبقة العاملة ويسيّروها بالعصا . إن الافتتان بهذا النوع من « السوبرمان » كما نعلم الآن ، هو الذي جعل من السهولة بمكان بالنسبة لمالرو أن يتضامن في البداية مع الستالينية ، ثم مع الديغولية . الا انه في تلك الفترة ، كان لا يزال يسعى للتوفيق بين ميوله نحو الستالينية وتعاطفه مع تروتسكي وإعجابه به[١٧] .

في باربيزون، كان تروتسكي قادراً على ان يمتحن عن كثب أنصاره الأوروبيين الغربيين ، وبوجه خاص الفرنسيين . وقد حاول تجاوز الحدود الضيقة لزمرته ، عن طريق استقطاب منضمين إلى الاممية الرابعة . أولى أهمية كبرى لانضمام روث فيشر وماسلوف ، اللذين كانا قد هاجرا إلى فرنسا . غالباً ما كان يستقبل فيشر في باربيزون ، وقد أدخلها ، بصفة عضو ، في أمانة السر الاممية ، مثيراً استياء التروتسكيين الالمان الشديد . كتب مقدمة حماسية لكرّاس ماريا ريز ، العضو الشيوعي سابقاً في الرايخستاغ ، التي شهّرت بالارتباك والذعر اللذين سقط فيهما الحزب الالماني عام ١٩٣٣ واعلنت انضمامها الى التروتسكية . إلا أنه بعد قليل ، تخلت ريز عن التروتسكيين وعادت الى المانيا واعلنت تأييدها للنازية[١٨] . كان استقطاب منضمين جدد يسير بشكل رديء ،

---

(١٦) من تروتسكي الى سيمون وشوستر ، نيويورك ، ٩ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٣٣ . المحفوظات ، القسم المقفل .

(١٧) كتب تروتسكي للمرة الاولى عن مالرو عام ١٩٣١ . **B.O** العدد ٢١ ـ ٢٢ . بعد وصول تروتسكي الى فرنسا بمدة من الزمن ، كان مالرو عضواً في لجنة للمساهمة في أمن تروتسكي . قامت هذه اللجنة بجمع التبرعات لتغطية نفقات حراس لتروتسكي . وفي نداء وقعه interaliaمالرو ، يتوجه الى كل الذين يرفضون تسليم منفي ، كانت حياته كلها في خدمة مجيء مجتمع أفضل ، لرصاص الرجعية » . وبين من قدموا آنذاك دعمهم لهذا النداء رومان رولان ، الذي برر مع ذلك ، فيما بعد ، تطهيرات ستالين . استناداً الى **les Humbles** ، ايار ـ حزيران ١٩٣٤ .

(١٨) **B - O** ، العدد ٣٨ ، ٣٩ ، ١٩٣٤ .

والمجموعات القليلة ، التي اتفقت على العمل معاً من اجل تشكيل الاممية الجديدة ، كانت تتخاصم فيما بينها . وبعض التروتسكيين القدامى كنين واصدقائه قطعوا صلتهم بهدف تشكيل حزب مستقل ، هو الـ POUMالكاتالوني . وفي فرنسا ، كل المجموعات التروتسكية كانت لا تتعدى من حيث الحجم المئة عضو ، وكانت جريدة La Vérité تصدر أقل من ٣٠٠٠ نسخة . وكان روسمر متنحياً ، وقد أعلن : « طوال السنتين اللتين أقام تروتسكي خلالهما في فرنسا ، لم نلتق أبداً ، ومن المرجح انه كان ينتظر أن أقدم على الخطوة الأولى ، فيما كنت انتظر من ناحيتي ، أن يقوم هو بتلك الخطوة[١٩]» . في تلك الفترة ، كان تروتسكي يكتشف أن روسمر كان على حق حين رفض العمل مع ريمون مولينييه . لا شك أن عائلة مولينييه كانت تبذل قصارى جهدها لمساعدته أثناء تجولاته في فرنسا ، لكن انعدام المسؤولية السياسية لدى مولينييه كان يخيفه . وكان التجاسر والافتقار للروح والمبادرة الثوريين لدى نافيل يزعجانه كثيراً أيضاً[٢٠] . أمضى ساعات طويلة يتناقش مع سيمون فايل ، التي كانت تروتسكية في تلك الفترة ، لكنه وجد أنها مشوشة فكرياً ولا تفهم شيئاً من سياسة الطبقة العاملة والماركسية . وهي ستشتهر فيما بعد كمهتدية فلسفياً الى الكاثوليكية والصوفية . وتعبر رسالة كتبها الى فيكتور سرج بعد عامين عن الانطباع الذي تولد لدى تروتسكي بشأن غالبية المثقفين الفرنسيين من انصاره . يصفهم في تلك الرسالة كأناس مبتذلين . « ذهبت الى بيوتهم وشممت رائحة حياتهم كبورجوازيين صغار . ولم تخدعني حاسة شمّي » . لم يعد في وسعه التعويل الا على القليل من المتحمسين ، من الشغيلة الشباب والطلاب . إلا أنه حتى هؤلاء كانت تنقصهم التجربة والمعرفة السياسية ، وكانوا يحيون خاملين خارج الحركة العمالية . وخلص الى ما يلي : « ينبغي البحث عن طرق الوصول الى جماهير الشغيلة ، وخلال ذلك تحاشي الثوريين ـ السابقين وحتى تنحيتهم دون أدنى مراعاة[٢١] » .

---

(١٩) يتوافق هذا مع ما كتبه تروتسكي فيما بعد ، في ٢٩ نيسان / ابريل ١٩٣٦ ، الى فيكتور سرج : « ان روسمر ، الذي على خلاف معي بشأن مسألة ذات أهمية ثانوية، قد احتدم أكثر من اللازم. لهذا لم يتم أي لقاء بيننا خلال اقامتي في فرنسا . لكن احترامنا للاثنين معاً ، الفردومارغريت ، وتعاطفنا معهما ، لم يتغيرا . فروسمر إنسان يمكن التعويل عليه دائماً حين تعترضنا الصعوبات . » المحفوظات ، القسم المقفل .

(٢٠) من تروتسكي الى ليوفا ، ٢٧ كانون الاول / ديسمبر ١٩٣٥ . المحفوظات ، القسم **المقفل** . وقد وصف آخر من أنصاره الفرنسيين ، هو دافيد روسيه ، كما يلي : « مزيج من الانتهازية والفوضوية » المرجع ذاته .

(٢١) من تروتسكي الى سرج ، ٣٠ تموز /يوليو ١٩٣٦ . المرجع ذاته .

كانت تلك فترة قضية ستافيسكي، تلك الفضيحة التي كشفت فساداً فاضحاً داخل الجمهورية الثالثة ، على صعيد وزرائها ونوابها وقادة شرطتها وصحافتها . كان الحزب الراديكالي ، الدعامة البرلمانية الرئيسية للجمهورية ، متورطاً في القضية بشكل خطير ، وقد خنقت الابخرة المنتنة والسامة المتصاعدة منها الحكومة تقريباً . وقد استفادت روابط فاشية ، او شبه فاشية ، ولا سيما صلبان النار ، وعلى رأسها الكولونيل دو لاروك ، من الاستياء والسخط الشعبيين ، وكانت تهدد باطاحة النظام البرلماني . وفي ٦ شباط ـ فبراير ١٩٣٤، نظمت نصف انتفاضة ، وعلى صيحة « دالادييه إلى المقصلة » هاجمت مجلس النواب . إلا أن الانقلاب فشل ، وتسبب بعد أقل من أسبوع باضراب عام لشغيلة باريس ، شكل خلاله الشيوعيون والاشتراكيون جبهة موحدة للمرة الأولى منذ سنوات . وقد حدث ذلك في اللحظة ذاتها التي كانت فيها الكومنترن تتخلى عن تكتيكها اليساري المتطرف . وشكلت الجبهة الموحدة لـ ١٢/شباط فبراير سابقة . ففي تموز/يوليو ، توصل الشيوعيون والاشتراكيون الى اتفاق رسمي للدفاع معاً عن الجمهورية ضد اي هجوم فاشي . ولم يشاركهما الحزب الراديكالي حتى ذلك الحين في الجبهة . فالجبهة الشعبية التي سيدخل فيها لن تولد قبل السنة اللاحقة ، لكن فصلاً جديداً قد انفتح . وحكومة دالادييه انقذت رأسها الجبهة الموحدة ، وكان بقاؤها يتوقف اكثر فأكثر على دعم الجبهة . كان هنالك نهوض في طاقة الشغيلة وقوتهم ، وانبعاث لصراع الطبقات .

وقد اكد تروتسكي أنه في مثل تلك الظروف ، كان اكثر الحاحاً بكثير أن يتمكن انصاره من الانخراط في حركة الجماهير . ولما لم يكن في وسعهم ان يعودوا الى الحزب الشيوعي ، الذي كان يفتري عليهم ويضطهدهم بلا هواده ، فقد نصحهم بالانضمام إلى الحزب الاشتراكي (S.F.I.O.) ، الذي كان يقوده ليون بلوم ، والذي كان لا يزال يهيمن على غالبية الشغيلة . لم يكن الحزب الاشتراكي قد أصبح بعد حزب الياقات البيض والبورجوازية الصغيرة كما الحال بعد الحرب العالمية الثانية . لم ينصح تروتسكي انصاره بالانضمام لهذا الحزب ، بهدف القبول بأفكاره ، بل على العكس بهدف مجابهة الاصلاحية في قلعتها بالذات ، وحمل برنامجهم الثوري الى الجماهير . لم يكن الحزب الاشتراكي منظمة ممركزة ، بل فدرالية مجموعات وتكتلات شتى كانت تخوض صراعاتها على النفوذ بصورة مكشوفة . في هكذا منظمة، كان لا بد ان يتمكن التروتسكيون

من اكتساب أناس لفكرة اممية رابعة . ذلك كان « المنعطف الفرنسي » الذي كانت كل المجموعات التروتسكية تناقشه في عامي ١٩٣٤ - ١٩٣٥ ، وقد نصح تروتسكي أخيراً الجميع تقريباً بأن يفعلوا الشيء ذاته في بلدانهم ، أي بأن ينضموا كجماعة متميزة إلى الاحزاب الاشتراكية - الديمقراطية(٢٢) .

بذلك بالذات ، كان تروتسكي يعترف ضمناً بأن مشروعه لانشاء اممية جديدة غير واقعي . كان المنعطف الفرنسي محاولة يائسة لإنقاذه . ولم يكن في وسع تلك المحاولة أن تنجح . فالتروتسكية ما كان يمكن أن تجتذب جماهير الحزب الاشتراكي - الديمقراطي ، إلا بصورة عرضية . كانت تناقض بشدة عاداتهم الفكرية وتقاليدهم الاصلاحية المتأصلة بعمق . لم يكن في وسع تروتسكي أن يحبط تأثير بلوم على مسقط رأس بلوم ، الأمر الذي كان يبادر اليه بصورة غير مباشرة . دخل انصاره الحزب الاشتراكي كزمرة صغيرة لا حول لها ولا قوة ، تعلن سلفاً عداءها للقادة القائمين والمبادىء المتلقاة . توصلوا الى كسب البعض في صفوف الشباب ، لكنهم سرعان ما اصطدموا بجدار من العداء . إلا أن المنعطف الفرنسي أبعد التروتسكيين اكثر فأكثر عن جمهور الشيوعيين ووضع الماء في طاحونة الدعاوة الستالينية . فبالنسبة للأعضاء العاديين في الحزب الشيوعي ، بدت الحجة التي بموجبها انضموا الى الحزب الاشتراكي لشن الحرب على الاصلاحية ، بدت حجة تافهة . كل ما كان يراه الشيوعيون هو ان الاشتراكيين - الديمقراطيين كانوا يثمّرون ، مؤقتاً ، انضمام التروتسكيين هذا ، وكانوا يسمعون هؤلاء الاخيرين يرغون ويزبدون ضد الستالينية ، من على المنبر الاشتراكي - الديمقراطي . حينئذ تحول كرههم للتروتسكية إلى حقد اعمى على « الخونة والمرتدّين». صحيح انهم سرعان ما رأوا التروتسكيين يهاجمون القادة الاشتراكيين والديمقراطيين وسياستهم ، ويُطردون من الحزب الاشتراكي . لكن ذلك تم خلال فترة الجبهة الشعبية ، وقد صفق الحزب الشيوعي لهذا الطرد وحتى كان محرضاً عليه . رغم كل شيء ، ساعد « المنعطف الفرنسي » على تحول النفور الذي كان يشعر به الشيوعي الفرنسي العادي تجاه التروتسكية إلى عداء شديد . وحتى إذا لم يكن في ذلك غير فرق في الدرجة ، فما كان هذا من

---

(٢٢) الدخولية ، هذا هو التعبير الذي كان الترتسكيون لا يزالون يصفون به تلك الحركة ويناقشونها ، بعد ثلاثين عاماً ، في حين كانوا مستمرين في الدخول ، فالخروج ، فالدخول مجدداً الى احزاب أخرى ، مكتلين جماعاتهم الخاصة بهم عبر هذه السيرورة ومشتتين اياها ، ومواصلين بناء الامية الرابعة .

دون أهمية ، لأنه بهكذا تدرجات غير مرئية تحول مزاج الشيوعيين الفرنسيين ، المحمّى على نار شديدة ، إلى ذلك المقت المجنون للتروتسكية ، الذي سوف يستقبلون به نبأ التطهيرات الكبرى . .

لم تكن ستة اشهر قد انصرمت منذ وصول تروتسكي الى باربيزون ، حين تدمر فجأة السلام النسبي الذي كان يعيش فيه . من جديد ، احتفظ بسرية دقيقة وأخفى مكان إقامته جيداً بحيث حتى اصدقاؤه لم يكونوا يعرفون أين يوجد وكانوا يراسلونه على عنوان غلاف . وما من رسالة واحدة من رسائله وضعت في بريد باربيزون . كان سكرتير يلعب دور رسول ويحمل الرسائل من باربيزون الى باريس . لكن حادثة تافهة وضعت حداً لكل تلك التدابير الوقائية . ففي احدى امسيات نيسان/ابريل ، اوقفت الشرطة حامل رسائل تروتسكي ، بسبب مخالفة بسيطة لقوانين السير . حيّرتها اجوبته الغامضة ولهجته الاجنبية (كان الرسول هوكليمان ، مهاجر سياسي الماني) ، فاكتشفت صدفة ان تروتسكي يقيم في باربيزون . ولما كانت الدوائر العليا للأمن قد أخفت هذه الحقيقة عن رجال الدرك المحليين ، فقد اعلن هؤلاء الخبر بالكثير من الضجة ، بعد أن أسكرتهم بطولاتهم الاستقصائية . وجاء المدعي العام المحلي ، تتبعه مفرزة من رجال الدرك ومخبرو صحف باريسية ليستجوب تروتسكي . وللحال استأنفت الصحافة اليمينية صخبها ، تنافسها في ذلك جريدة **لومانيتيه** . وخافت الحكومة ، فلقد كانت الروابط الفاشية هاجمتها من قبل لكونها منحت تروتسكي حق اللجوء . فهذه الاخيرة كانت تصيح بأعلى صوتها ، قائلة إن ذلك هو احدى الجرائم التي اقترفها نظام متعفن ومنحط ، كشفت قضية ستافيسكي وجهه الحقيقي . ومن برلين ، روّجت وزارة الدعاوة ، التي كان يستلمها غوبلز ، اشاعة مفادها ان تروتسكي في طور الاعداد لانتفاضة شيوعية . وسارعت البورجوازية الصغيرة ، التي ارعبتها الازمة الاقتصادية ، وكانت حاقدة على الجمهورية الثالثة ، ومتخمة بعناوين الصحف المثيرة بصدد نشاطات تروتسكي الغامضة ، الى الاعتقاد بأن « غول اوروبا » في اعقابها . وأكدت **لومانيتيه** ان تروتسكي يتآمر ضد المصلحة القومية الفرنسية . حينئذ عمدت الوزارة الى تهدئة تلك الضجة العدائية بإعلان أنها على اهبة طرد تروتسكي ، ووجهت إليه أمراً بالطرد . لكنها لم تنفذ هذا الامر ، بما أنه لم يكن هناك اي بلد مستعداً لاستقبال تروتسكي .

في ١٦ أو ١٧ نيسان/ابريل ، اعلمته الشرطة بضرورة مغادرة باربيزون.

كانت مجموعات من الناس تحاصر منزله ، وكـان يخشى من هجوم يقـوم به إما مشاغبون من أقصى اليمين أو ستالينيون. وقد حلق لحيته وفعل ما في وسعه كي لا يعود من السهل التعرف اليه وانسلّ الى خارج المنزل . مضى يومئذ الى باريس وبقي هناك عدة ايام بصحبة ابنه ، في سقيفة بائسة لأحد الطلاب . لكن باريس ، الخطرة جداً بالنسبة اليه ، كانت محرّمة عليه . هكذا ترك ناتاليا خلفه وتابـع طريقه . توجه بالسيارة ، مع هنري مولينييه وڤان هايجنورت ، نحو جنوبي فرنسا ، دون ان تكون له وجهة محددة . كان سيبقى في فرنسا اربعة عشر شهراً أخرى ؛ لكن كان عليه ، إما ان يعيش حياة تشرد أو أن يلجأ الى قرية بعيدة في جبال الألب ، مضطراً لأن يخفي طيلة الوقت رأسه العالي والمميز إلى أبعد الحدود .

كان يتبعه احد مخبري الشرطة ،وهكذا مضى من مكان لآخر ومن فندق لفندق ، إلى ان وصل إلى شامونيكس . وللحال تقريباً ، اعلنت صحيفة محلية هذا النبأ المثير لآخر ساعة . كتب تروتسكي : « في الظاهر ، كانت الشرطة تشتبه بأن لدي مشاريع تتعلق بسويسرا او ايطاليا ، ووشت بي . . . » . وكان عليه أن يغادر . حظرت عليه الشرطة الاقامة في منطقة حدودية ، وامرته بأن يجد ملجأ في مدينة صغيرة أو قرية ، على بعد ٣٠٠ كم ، على الاقل ، من باريس . وجاءت ناتاليا تنضم اليه في شامونيكس . وفي حين كان مولينييه وڤان هايجنورت يبحثان عن محل إقامة جديد ، توجّب تأمين سكنهما مؤقتاً في فندق عائلي . ولكي يقبله فندق عائلي كان عليه أن يقوم بعملية بالغة التعقيد ، لأنه لم يكن يستطيع تقديم نفسه باسمه الحقيقي ، ولم تكن الشرطة تسمح له باستخدام اي اسم مستعار . في الاخير ، قدّم نفسه باسم السيد سيدوف ، مواطن فرنسي من اصل اجنبي ، ولكي يحصل ، هو وناتاليا ، على اقصى درجات السرية ، زعما أنهما في حالة حداد ، وكانا يأكلان في غرفتهما . كان ڤان هايجنورت ، يراقب المنطقة المحيطة ، آخذاً دور ابن الاخ . ومن قبيل المأساة الهزلية ان الفندق كان مركزاً للفاشيين والملكيين المحليين . وقد انطلق « الجمهوري الطيب » ، عميل الأمن ، الذي ظل يخفر تروتسكي ، انطلق معهم ، في ساعات الطعام ، في نقاشات مليئة بالفظاظة . « بعد كل وجبة طعام ، كان « ابن اخينا » يروي لنا تلك المشاهد الموليبرية(*) ، وكان نصف ساعة من الضحك المكظوم (لأننا كنا ، كما

(*) نسبة الى موليير ، الهزلي الفرنسي المشهور (م) .

هو معلوم ، في حالة حداد !) يعوّض ، جزئياً على الأقل ، من رداءة إقامتنا . يوم الاحد ، كنا نخرج ، ناتاليا وأنا ، « لسماع القداس » ، وفي الواقع للقيام بنزهة . وكان ذلك يوطد هيبتنا في المنزل » . ومن ذلك الفندق العائلي ، انتقلا الى شاليه ريفي ، لكن ما أن تنسّم المدير المحلي العنوان ، حتى فرك يديه يأساً . « لقد اخترتما المكان الاقل ملاءمة ! إنه مهد الاكليروسية . والعمدة هو احد أعدائي الشخصيين » . ولما كان تروتسكي قد استأجر الشاليه لعدة اشهر ، وكان آنذاك في حالة عسر شديد ، فقد رفض مغادرته الا اذا اضطرته قلة احتراس جديدة في جريدة محلية الى الرحيل بسرعة[٢٣] .

بعد أن تاهوا هكذا ثلاثة اشهر تقريباً ، وصلوا اخيراً ، في بداية تموز/يوليو ، الى دومسن ، قرب غرينوبل ، حيث سكن هو وناتاليا لدى معلم المدرسة في القرية ، السيد بو Beau . بقيا هناك ما يقارب الأحد عشر شهراً ، في عزلة تامة ، من دون سكريتير أو حارس . فقط زائران أو ثلاثة ، جاؤوا خصيصاً من الخارج ، مروا ليروهما في دومسن . وكانت تمضي عدة اسابيع قبل ان يصل سكريتير من باريس . ومن حين لآخر ، كان بعض معلمي المدارس ، في الجوار ، يزورون السيد بو ، وكان المستأجران ينضمان حينئذ إليه لمناقشة القضايا المدرسية المحلية . وقد كتب تروتسكي : « إن حياتنا هنا تختلف قليلاً جداً عن حياة السجن . فنحن محاصران في بيتنا وساحته ، ولا نرى الناس اكثر مما كنا لنراهم في ساعات الزيارة بأحد السجون . استحصلنا على مذياع ، لكن من المرجح ان توجد هكذا اشياء أيضاً في الاصلاحيات » . وحتى نزهتهما اليومية كانت تذكّرهما بساعات الرياضة في ساحة سجن . كانا يلتفان حول القرية لتجنب الناس ، وما كان في وسعهما المضي أبعد من دون أن يضلا في دسكرة مجاورة . ولم يكن يأتي بريد باريس الا مرتين في الشهر . كان لديهما في فرنسا الديمقراطية اقل بكثير من الحرية التي كانا يتمتعان بها في برنكيبو ، وحتى في ألما ـ آتا[٢٤] .

اشتغل اقل من المعتاد ، وبصورة أقل إثماراً ، ولم يتقدم عمله في **لينين** ابداً تقريباً . كتب في تشرين الأول/اوكتوبر كراساً يتعلق بالسياسة الفرنسية عشية الجبهة الشعبية ، بعنوان **الى اين تمضي فرنسا ؟** وكان هذا الكراس ينطوي على

---

(٢٣) يوميات المنفى ، ص ١٠٤ (الطبعة الانكليزية) .

(٢٤) يوميات المنفى ، ص ٣٧ ـ ٩٢ وما بعدها . انظر ايضاً بيار نافيل : تروتسكي حياً .

عدة مقاطع بارعة ، لكنه لم ينجح في الاجابة عن السؤال الذي طرحه العنوان . ذلك ان كان يرى مسرح السياسة الفرنسية عبر الموشورة ذاتها التي استخدمها لرؤية المانيا . الا ان هذه الموشورة التي كان رأى عبرها بوضوح بالغ صعود هتلر ، أربكت رؤيته للمنظورات الفرنسية . مرة أخرى كان على حق في تشخيص ازمة الديمقراطية البورجوازية ، لكن مرة اخرى رأى ، خطأً ، الشرائح الدنيا في الطبقة الوسطى تسقط في سخطها المجنون ، فتولدُ حركة جماهيرية فاشية نشطة وتجابه الطبقة العاملة بعنفها . بدا أن المحاولة التي نفذتها صلبان النار في شباط/فبراير تعطي حداً ما من الصحة لهذه الطريقة في رؤية الاشياء . لكن الكولونيل دولاروك لم يكن الهتلر الفرنسي ، والبورجوازية الصغيرة الفرنسية لم تولدُ حركة شبيهة بالنازية ، إما لأن الجبهة الشعبية استدركتها ، أو لأن تصورها للاشياء وتقاليدها كانت مختلفة عن تصورات الـ Kleinbürgertum الالمانية وتقاليدها . لقد كان من الملامح الفريدة للتاريخ السياسي الفرنسي في الثلاثينات والاربعينات والخمسينات ، انه جرت محاولات متكررة لاطلاق حركات جماهيرية فاشية ، لكن تلك المحاولات أحبطت تكراراً . وحين انهارت الجمهورية الثالثة عام ١٩٤٠ ، حدث ذلك نتيجة للغزو الالماني ، لكن حتى آنذاك لم يتم إرساء فاشية محلية فوق انقاضها ، بل ديكتاتورية بيتان المتحجرة ، المهتزة . وبعد ثماني عشرة سنة سقطت الجمهورية الرابعة بدورها نتيجة انقلاب عسكري . اتخذ رد الفعل الفرنسي ضد الديمقراطية البورجوازية ، كما سبق ان فعل في القرن التاسع عشر ، شكلاً شبه بونابرتي أو بونابرتياً مزيفاً كانت نتيجته حكم السيف ، حكماً اختلفت طرائقه وآثاره كثيراً عن طرائق الفاشية الكليانيةوآثارها(٢٥) .

انطلاقاً من هذه المقدمات ، عرض تروتسكي افكاره بخصوص استراتيجية الحركة العمالية الفرنسية وتكتيكها . انتقد الجبهة الموحدة ، كما كان يمارسها

---

(٢٥) كان تروتسكي ، في أيامه ، المنظّر السياسي الوحيد الذي بلور تحديداً دقيقاً للفاشية . إلا انه طبقه في بعض المناسبات تطبيقاً غير دقيق . رأى ان الفاشية وشيكة في فرنسا ، واصر على ان يصف ديكتاتورية بيلسودسكي البونابرتية المزيفة ، في بولندا ، على انها فاشية ، مع ان بيلسودسكي لم يحكم بصورة كليانية واضطر الى الخضوع لنظام تعدد الاحزاب . من جهة اخرى ، وصف تروتسكي ، بصورة قليلة الاقناع ، حكومتي شلايشر وباپن سريعتي الزوال ، وحكومة دومرغ الضعيفة عام ١٩٣٤ ، كحكومات بونابرتية . (وهو لم يصف نظام بيتان اخيراً ، إلا عام ١٩٤٠ ، كنظام بونابرتي زائف لا كنظام فاشي. وقد تناقشت وتروتسكي حول هذه النقاط المحددة في الثلاثينات ، لكن ربما كانت هذه المسألة معقدة جداً وليس لها الا القليل القليل من المعنى التاريخي ، بحيث لن نعود اليها هنا .

بلوم وتوريز ، بحجة ان عملها كان يقتصر على تحالفات انتخابية ومناورات برلمانية وأنها لم تكن تسعى لايقاظ الشغيلة نحو القيام بنضال خارج البرلمان ضد الفاشية ، نضال قد يفتح ايضاً منظور ثورة اشتراكية . وأمعن سخرية بالكومنترن ، التي كانت قد شهرّت به حين اوصى الاشتراكيين والشيوعيين الالمان بأن يسدوا معاً طريق هتلر الى السلطة ، والتي كانت تتبنى الآن الجبهة الموحدة ، دون كلل ، محولة اياها الى تكتيك هروب وتبلد برلماني وانتهازية . ومن دواعي السخرية ، ان توريز هو الذي كان يحث الآن بلوم على توسيع التحالف بحيث يشمل كذلك الراديكاليين ، وذلك بهدف اشراك البورجوازية الصغيرة في نضال الطبقة العاملة ضد الفاشية . وكان تروتسكي يزعم ان ذلك (اي الجبهة الشعبية) قد لا يضم الشرائح الدنيا من الطبقة المتوسطة الى الشغيلة ، بل يفتح هاوية بينهما ، لأن الشرائح الدنيا من الطبقة المتوسطة كانت تدير ظهرها للحزب الراديكادلي ، حزبها التقليدي . وقد دعا الشيوعيين والاشتراكيين لتشكيل ميليشيات من الشغيلة واعداد النفس للمعارك ضد الفاشية ، شاهرين السلاح إذا اقتضى الامر . وقد كرر وجهات نظره في كراس آخر بعنوان « مرة اخرى ، الى اين تمضي فرنسا ؟ » ، كتبه في آذار/مارس ١٩٣٥ .

سوف يبرهن الفشل النهائي للجبهة الشعبية عن صحة معظم انتقادات تروتسكي . الا ان العمل المشترك بين الاشتراكيين والشيوعيين نجح مع ذلك ، مؤقتاً ، في ابعاد الخطوط الفاشية ، التي لم تنهض ابداً من هزيمتها . ولا شك ان الجبهة الشعبية ايقظت لفترة من الزمن الطبقة العاملة ، واعطت حركتها دفعاً عظيماً . ولم تحطم سياسة الجبهة الشعبية طاقة الشغيلة وتعزل البورجوازية الصغيرة وتدفع هكذا البلاد الى جو الانحطاط والردة ، الذي انفجرت في ظله الحرب العالمية الثانية ، الا فيما بعد . لكن لما كان خطر الفاشية تراجع في عامي ١٩٣٤ ـ ١٩٣٥ ، فقد ظهر نداء تروتسكي باتجاه عمل خارج البرلمان ، وتكوين ميليشيات شغيلة ، في غير محله ولم يثر أي تجاوب . وقد كتب في يومياته ، وهو يلاحظ من خلوته في جبال الألب اولى مناورات الجبهة الشعبية ، أن « هذا النظام الاجتماعي كان قد قوّض أسسه بصورة لا علاج لها . سوف ينهار ورائحة النتن تفوح منه[٢٦] » . كانت سنوات قليلة تفصل انتصارات الجبهة

---

(٢٦) يوميات المنفى ، ص ٤٨ .

الشعبية عن نتن انهيار عام ١٩٤٠ .

حتى نهاية عام ١٩٣٢، كان تروتسكي احتفظ بصلته بأنصاره في الاتحاد السوفياتي ، وكان يتلقى رسائل ونشرات واردة من العديد من المستعمرات الاصلاحية والسجون . كانت تلك الرسائل ، المكتوبة بالروسية ، أو بالالمانية ، أو بالفرنسية ، على أوراق خشنة للتعبئة أغلب الاحيان ، وأحياناً حتى على اوراق السجائر ، والمعالجة لقضايا نظرية وسياسية، أو الناقلة اليه تحيات شخصية ، كانت ترسل إليه بطرق خارقة المهارة والذكاء . ففي احدى المرار ، مثلاً ، حطت على مكتب تروتسكي علبة عيدان ثقاب ، ووجد داخلها دراسة سياسية كاملة مكتوبة بأحرف بالغة الصغر . تلك الرسائل التي جرى حفظها في أرشيفاته ، كانت تحمل الى برنكيبو لهاث الرياح السيبيرية وما تحت القطبية ، ورائحة الزنزانات ، واصداء نضالات وحشية ، وصيحات اناس محكوم عليهم ويائسين ، لكن كذلك افكاراً واعية وآمالاً لم تُمَس . وطالما بقيت تصله ، كان يحس باختلاج الواقع السوفياتي . لكن المراسلة انخفضت تدريجياً فأضحت تياراً ضعيفاً ، وحتى قبل ان يغادر برنكيبو ، توقفت كلياً .

خلال إقامته في فرنسا ، لم يتم اي اتصال بينه وبين المعارضة في الاتحاد السوفياتي . هذا الصمت ، الذي جعلته اكثر عمقاً ايضاً عدولات المستسلمين التي لا تنتهي ، كان يشغل نفسه ، حين اعلن ان الحركة الروسية فقدت كل قدرة على المبادرة الثورية وان اممية جديدة هي وحدها التي يمكنها أن تعيد كسبها . وفي شباط/فبراير ١٩٣٤ ، حين كان لا يزال في باربيزون ، وصله نبأ استسلام راكوفسكي . ويمكن ان نتصور الى اي حد أثر ذلك في نفسه ، فراكوفسكي كان اقرب إليه ، كصديق ومقاتل ومفكر ، من أي مؤتمن وحليف . ورغم سنه، كان قد صمد في وجه ستالين، فلم يترك الاضطهاد يحطم شكيمته ، وذلك بعد أن استسلم كل قادة المعارضة الآخرين تقريباً . وفي المنافي والسجون ، لم يكن ثمة سلطة ادبية أعلى من سلطته ، باستثناء سلطة تروتسكي . وفي كل عدد من اعداد الـ Bulletin ، كان قد نشر تروتسكي شيئاً من راكوفسكي ، أو شيئاً بصدده : مقالاً ، او رسالة ، او مقتطفاً من خطاب قديم ، او احتجاجا ضد الاضطهاد الذي كان عرضة له . بعد كل هزيمة للمعارضة ، وكل سلسلة من الاستسلامات ، اشار إلى راكوفسكي على أنه المثل الساطع والبرهان

الأكيد على حياة المعارضة . لذا فإن ارتداد راكوفسكي ملأه ، بالتالي ، بحزن عميق ولا حدود له . كان ذلك يمثل بالنسبة اليه نهاية حقبة . وقد كتب : « كان راكوفسكي ، عملياً ، صلتي الاخيرة بالجيل الثوري القديم . بعد استسلامه ، لم يعد هناك أحد[٢٧] » . كان يتساءل : هل التعب هو الذي انتهى الى الاجهاز على المناضل القديم ؟ او أنه كانت توجهه ، كما اعلن هو ذاته ، قناعته بأنه حين يهددالرايخ الثالث الاتحاد السوفياتي ، عليه هو أيضاً أن يرص الصفوف خلف ستالين ؟ في كل حال ، ما كان يمكن انتصار ستالين أن يكون أكمل . وفي الاشهر القليلة التي تلت ، بدت المصالحة بين ستالين والعديد من المعارضين التائبين أصدق مما في أي وقت مضى ، رغم واقع ان الحزب كان مستمراً دون هوادة في طرد « العناصر الغدارة » من صفوفه .

وفجأة ، قبل نهاية العام ، انهار تماماً هذا الذي بدا كما لو كان مصالحة . ففي أول كانون الاول/ديسمبر ، جرى اغتيال سرجي كيروف ، الذي حل قبل تسع سنوات محل زينوفييف على رأس منظمة لينغراد وفي المكتب السياسي . اكدت الرواية الرسمية الأولى حول القضية أن عصابة من المتآمرين الحراس البيض كانت وراء نيكولاييف ، القاتل ، وأن قنصلاً ليتونياً حبك خيوط المؤامرة . لم يكن هنالك اي حديث عن تورط معارضة داخل الحزب في القضية . إلا أن رواية اخرى وصفت القاتل كأحد أتباع زينوفييف وكامينيف ولم تعد تشير اطلاقاً الى الحراس البيض .وقد جرى إعدام نيكولاييف وأربعة عشر شاباً آخرين ، كلهم من الكومسو موليين . وللمرة الثالثة ، جرى طرد زينوفييف وكامينيف من الحزب . وقد سُجنا بانتظار تحويلهما أمام مجلس الحرب . وجمعت الصحافة والاذاعة بين تروتسكي وزينوفييف وكامينييف ، وهاجمت في شخصه المحرض الحقيقي على الجريمة . وأفلت الارهاب الجماعي من عقاله ضد قتلة كيروف ، التروتسكيين والزينوفييفيين والستالينيين المستائين . جرى نفي آلاف وآلاف الاشخاص إلى معسكرات اعتقال . واخيراً ، اتهم العديد من الضباط الكبار في فرع لينغراد من الغيبيو بتقاعس عن القيام بالواجب ، وحكم عليهم ، بوداعة مفاجئة ، بسنتين او ثلاث سنوات من السجن .

كان تروتسكي ، الملتصق بالمذياع ، والمصغي إلى إذاعة موسكو ، يتابع

(٢٧) المرجع المذكور ، ص ٤١ ـ ٥٣ . انظر ايضاً B.O ، العدد ٤٠ ، ١٩٣٤ .

من مسكنه في جبال الألب التوضيحات حول المؤامرة ويكتب تعليقاته[٢٨] . وانطلاقاً من الصخب الذي كان يتصاعد في موسكو ، ميز فوراً تمهيداً لاحداث اوسع ، وأعظم شؤماً بكثير من قضية كيروف . كان مقتنعاً بأن زينوفييف وكامينيف لم يكونا متورطين في اغتيال كيروف . فلم يكن ينبغي أن يتوقع المرء من ماركسيين قديمين ، مثلهما ، ان يحبكا مؤامرات روكامبولية لا تنال إلا من الشاغل الفردي لمنصب ما ، دون ان تبدل النظام بالذات . بالنسبة إليه ، لم يكن هناك ادنى شك في ان ستالين يستخدم الاغتيال كذريعة لهجوم جديد ضد المعارضة . وفي ٣٠ كانون الاول/ديمسبر ، قبل خمسة عشر يوماً من اذاعة خبر محاكمة قادة فرع لينغراد للغيبيو ، أكد تروتسكي ، بالاستناد الى الاثباتات الضمنية التي قدمتها البيانات الرسمية ، ان الغيبيو كانت على علم بالاعدادات للاغتيال وانها وجدت لها اعذاراً ، لأسباب تخصها هي دون غيرها . ما كانت تلك الاسباب ؟ كان نيكولاييف احد الكومسومولیين الذين كبروا بعد تصفية شتى المعارضات ، ولما كان قد خاب ظنه وزالت اوهامه ، وكان محروماً من كل طريقة تعبير شرعية ، ولم يكن لديه تراث ماركسي يمسكه ، فقد سعى للاحتجاج بالقنبلة والمسدس . اكد تروتسكي ان المسؤول عن ذلك ليس المعارضة بل المجموعة القيادية . كانت الغيبيو تعرف نوايا نيكولاييف واستخدمته كبيدق . ما الهدف الذي كانت تسعى اليه ؟ يبدو أن نيكولاييف اعترف بأن القنصل الليتوني حثه على الاتصال بتروتسكي وكتابة رسالة اليه . وقد لفت تروتسكي الانتباه الى ان القنصل كان يعمل لحساب الغيبيو التي رتبت الامور بحيث تكتشف مؤامرة نيكولاييف ، فقط عندما يصبح في وسعه تقديم اثباتات على انه كان على اتصال بتروتسكي . وطالما لم تحصل على تلك الاثباتات تركت نيكولاييف حراً ، متأكدة من انها ستعرف كيف تراقبه بشكل وثيق وتوجه كل اعماله . إلا ان الحساب كان خاطئاً ، إذ وجه نيكولاييف نار مسدسه الى كيروف قبل ان تنجح الغيبيو في مشاريعها . من هنا السرية التي احيطت بها محاكمة نيكولاييف ، ومن هنا محاكمة ضباط الغيبيو لإهمال في الخدمة ، والطابع المعتدل للاحكام الصادرة بحقهم .

استخلص تروتسكي انه لكون الغيبيو فشلت في الحصول من نيكولاييف

---

(٢٨) B.O ، العدد ٤١ ، كانون الثاني/ يناير ١٩٣٥ . وقد اقتصر هذا العدد على تعليق تروتسكي يوماً بيوم على قضية كيروف .

على شهادات زائفة ضده ، فهي قد تحاول الحصول عليها من زينوفييف وكامينيف . في غضون ذلك ، كان حكم على زينوفييف وكامينيف بعشر سنوات سجن للأول وخمس للثاني ، وسُمح لهما بالادلاء بتصريح علني مفاده أنه لم تكن ثمة علاقة لهما ، اطلاقاً ، بنيكولاييف ، وانه ما كان يمكن أن يعتبرا مسؤولين الا بصورة غير مباشرة ، بمقدار ما أمكن أن تؤثر انتقاداتهم لستالين ، في السنوات السابقة ، على الأرهابي . وقد قبلت المحكمة دفاعهما ، واستنتج تروتسكي من ذلك أن صفقة تمت وراء الكواليس بين ستالين وزينوفييف وكامينيف . لا بد أن يكون ستالين وعدهماباعادة الاعتبار لهما إذا وافقا على التشهير بتروتسكي كقائد مؤامرة ارهابية . كتب تروتسكي : « بمقدار ما في وسعي أن احكم على الاستراتيجية التي نشرها ستالين حول جثة كيروف ، فهي لم تضع الغار على جبينه . وما في القضية من فظاظات ، أثار تعليقات واشعات تلقي اللوم على ستالين ومن حوله . وبالضبط لأن ستالين غير قادر لا على التوقف ولا على التقهقر ، عليه أن يموّه فشل هذا الخليط بخلائط اخرى ينبغي تصورها على مدى اوسع بكثير ، على مدى عالمي وبصورة اكثر . . . نجاحاً[٢٩] » . وإذ شرّح تروتسكي قضية كيروف ، كان يتنبأ بالمحاكمات الكبرى ، التي سوف يتم تصورها ، بالفعل ، على المستوى العالمي ، مع الاستعانة ، عوضاً عن القنصل الليتوني ، بهتلر الذي سيسند اليه ستالين دور حليف تروتسكي .

أصابت قضية كيروف مباشرة مصير اعضاء عائلة تروتسكي . فلقد تم توقيف صهريه ، نيفلسون وڤولكوف ، المنفيين منذ عام ١٩٢٨ ، وتمديد نفيهما أو سجنهما من دون محاكمة . وزوجه الاولى ، التي كان عمرها الآن اكثر من ٦٠ عاماً ، أُبعدت عن لينينغراد ، أولاً الى توبولوسك ، ثم الى مستعمرة بعيدة في مقاطعة أومسك . اما احفاده الثلاثة ، الذين كانت تهتم بهم ، فقد اصبحوا الآن في عهدة خالة عجوز وتحت رحمة القدر . كتبت الكسندرا الى ليوفا : « اتلقى رسائل من الصغار، لكني لا أعرف بوضوح كيف يعيشون . من المرجح ان اختي تعاني الأمرّين . . . مع انها ما تزال تطمئنني . صحتي بين بين . لا طبيب

(٢٩) انظر « رسالة الى أصدقاء اميركيين » ، ٢٦ تموز / يوليو ١٩٣٥ . المحفوظات B. O و العدد ٤٢ ، شباط / فبراير ١٩٣٥ .

هنا ،لذا يجب ان تكون صحتي على ما يرام[٣٠] » . وفي هذه المرة أصاب الارهاب ايضاً سرجي ، ابن تروتسكي الاصغر ، الذي كان عالماً ، كما سبق ان قلنا ، وكان يتحاشى السياسة وأي اتصال بأبيه . طوال السنوات التي انقضت منذ عام١٩٢٩ ، كان اكتفى بالكتابة لأمه ، مقتصراً عل موضوعات كصحته وتقدمه في مجال الاعمال الجامعية ، ومبدياً قلقه على وضع العائلة . لم يكن هناك أدنى تلميح سياسي في رسائله وبطاقاته البريدية . بعد ايام فقط على اغتيال كيروف ، كتب إلى والدته بصدد عمله المهني واصفاً تنوع الموضوعات التي كان يلقي محاضرات حولها في المعهد الاعلى للتكنولوجيا في موسكو ، والجهد الذي يتطلبه منه ذلك ، الخ . . . وفقط في الاسطر الاخيرة لمّح إلى ان شيئاً ما بغيضاً يحاك . « حتى الآن ، لم يتخذ هذا إلا شكل اشاعات ، لكن كيف سينتهي كل ذلك ، لست ادري » . بعد ذلك بأسبوع ، في ١٢ كانون الاول/ديسمبر ، كتب مجدداً بشأن عمله الاكاديمي وخلص الى القول بلهجة مثيرة للذعر : « إن الوضع العام خطر للغاية ، اكثرخطورة مما يمكن تخيله[٣١] » . وتساءل الاهل القلقون بالغ القلق : هل يمكن ان تأخذ الغيبيو سرجي كرهينة ؟ وخلال اسابيع عديدة ، عاشوا بانتظار رسالة اخرى منه . لكن شيئاً لم يأت . استعلمت صديقة قديمة للعائلة ، هي ارملة ل.س كلياشكو ، المقيمة في فيينا ، والتي كانت في زيارة لموسكو ، استعلمت عن سرجي ، فكانت النتيجةالوحيدة انها أمرت بمغادرة البلاد فوراً ، دون اعطائها أي توضيح .

طوال اسابيع وشهور ، وخلال الكثير من الليالي المؤرقة ، اتجهت افكار الاهل نحو سرجي . كان يعذبهما الشك . ربما كان اضطرابه ذا طبيعة شخصية وخاصة ، وغير سياسية ؟ ربما طردته الغيبيو فقط من موسكو ، دون ان تسجنه ؟ لا شك انهم عرفوا أن سرجي لم يكن مهتماً بالسياسة . هل يمكن أن يكونوا سجنوه من دون أن يعرف ستالين ؟ هكذا تساءلت ناتاليا كما لو كانت تغذي املاً ضعيفاً غير معبر عنه هو أنه ربما يساعد نداء موجه الى ستالين . وأجاب تروتسكي : كلا ، فقط امر من ستالين يمكن أن يؤدي إلى سجنه . فقط ستالين يمكن أن يستنبط هكذا عملاً انتقامياً . هل سيحاول ان ينتزع من سرجي اعترافاً

---

(٣٠) يوميات المنفى ، ص ٧٩ (الطبعة الانكليزية) .

(٣١) المحفوظات ، القسم المقفل .

يتضمن اتهامات ضد والده ؟ لكن ما فائدة ذلك بالنسبة لستالين ؟ ألن يكون زيف تلك الاعترافات بديهيا ؟ ومع ذلك ، لأي سبب يمكن أن يكون جرى توقيفه ؟ هل سيعذبونه ؟ وهل سيرضخ[٣٢] ؟ .

خلال ايام وليالٍ ، كانت تؤرق الوالدين صورة ابنهما في مواجهة المحققين معه . كانا يخشيان الا يكون قادراً في براءته السياسية على تحمل الضربات . كانا يتصورانه مبلبلاً ومسحوقاً . وراحا يؤنبان نفسيهما لأنهما لم يصرّا على أن يلحق بهما الى المنفى . لكن هل كان في وسعهما محاولة انتزاعه من اهتماماته ومن الروتين الجامعي ، بينما هما بالذات لم يكونا يعرفان ما ينتظرهما ؟ كان الأمر مختلفاً مع ليوفا ، لأن ذهنه واهواءه كانت منخرطة كلياً في النضال السياسي . وكانا يتذكران زينا التي عجزا عن إنقاذها بعد أن التحقت بهما في الخارج . كانا يتذكران طفولة سرجي البهجة ، وردود فعله ضد والده واخيه البكر ، وقرفه من السياسة ، ومراهقته المضطربة ، لكن المرحة مع ذلك ، وكيف ركزّ اهتمامه اخيراً على العلوم ونذر نفسه لها جدياً . كلا ، ما كان امكنهما أن يطلبا اليه التورط في قضايا والده ، لكن هل كان يفكر الان انهما تخليا عنه ونسياه ؟ كانا يفتشان في الصحف الروسية ليريا اذا كان ثمة شيء بشأنه ، وفي الجُرْف المتضخم من الشتائم ضد « رغوة الزينوفييفيين والتروتسكيين ، والامراء القدامى والكونتات ورجال الدرك » ، كانا يعبران احيانا على اسماء أقارب واصدقاء . لكن بشأن سرجي ، كان هنالك صمت الموت . كتب تروتسكي : « ستالين ذكي بما يكفي ليدرك أني حتى اليوم لا أبادل مكاني بمكانه . . . لكن إذا كان الانتقام على مستوى معنوي وسياسي أرفع لم ينجح - وواضح انه لن ينجح -، يظل دائماً ممكناً [بالنسبة لستالين] أن يرفه نفسه بضرب القريبين مني »[٣٣]

كان الشعور بأن ستالين وضع يده على الابن لانه لم يستطع الوصول الى الوالد يولدّ لدى تروتسكي عقدة ذنب . ففي **يومياته** ، وبين ملاحظات تتعلق بسرجي ، يروي خارج السياق في الظاهر قصة إعدام القيصر وعائلته . وفي قلقه الشديد لرؤية سرجي ضحية نزاعة هو ، تروتسكي ، مع ستالين ، لا بد انه كان يفكر ايضاً بأولئك الاطفال البريئين ، اطفال القيصر ، الذين ارتدّت عليهما خطايا

---

(٣٢) يوميات المنفى ، ص ٦١ - ٧٢ .

(٣٣) المرجع المذكور ، ص ٦٦ - ٦٧ .

والدهم . يروي في **يومياته** انه لم يكن إطلاقاً على علاقة بالقرار المتعلق بإعدام القيصر ، إذ إن المسؤول الأساسي عن ذلك القرار كان لينين ، وانه صُعِق حين عرف بمصير عائلة القيصر . ومع ذلك فهو لا يذكرٌ بهذا الأمر ليتحلل من لينين أو ليبرىء نفسه . فبعد سبعة عشر عاماً على الحادث ، يدافع عن قرار لينين كقرار ضروري وجرى اتخاذه لمصلحة الثورة . فوسط الحرب الأهلية ، لم يكن يمكن البلاشفة ان يتركوا للجيوش البيضاء « راية حية يمكنها ان تلتحق بها » . وبعد موت القيصر ، كان يمكن احد اولاد القيصر أن يشكل بالنسبة لها رمزاً تلتحق به . لقد سقط أولاد القيصر ضحايا المبدأ الذي يشكل محور المَلَكية : التعاقب السلالي .

والخلاصة غير المعبر عنها لهذا الاستطراد واضحة كفاية . حتى لو جرى التسليم لستالين بحق إبادة خصومه (وبالطبع كان تروتسكي بعيداً عن التسليم له بذلك) فهو لم يكن لديه ادنى تبرير حين كان يضطهد ابناء خصومه . لم يكن سرجي منشداً الى والده بأي مبدأ من مبادىء التعاقب السلالي . وحالاً بعد هذا الاستطراد يكتب تروتسكي : « لا خبر عن سيريوجا وربما لن يكون هنالك أي خبر خلال زمن طويل . لقد فلَّ انتظارٌ طويلٌ القلق الشديد للأيام الأولى »[٣٤] .

ومع ذلك ، بدأ القلق والغم يصيبان تروتسكي . كان مكموداً ويغرق مجدداً في اجترار أفكار حول العمر الذي يتقدم ، والموت. لم يكن قد بلغ بعد الخامسة والخمسين ، لكنه كان يذكرٌ باستمرار بكلمة لينين ، او بالاحرى كلمة تورغنيف : « هل تعرفون ما هو أسوأ الآفات ؟ أن يكون سن المرء اكبر من الخامسة والخمسين » . وقد لاحظ في نوع من الغيرة : « لكن لينين لم يعش ما يكفي ليصاب بهذه الآفة » . « ليس وضعي مشجعاً . أصبحت نوبات المرض اكثر تواتراً . العلامات اكثر حدة ، ولا شك ان مقاومتي أضعف فأضعف ؛ يمكن المنحى أن يصعد الى الاعلى ، لكن لديّ الاحساس ، عموماً ، بأن التصفية تقترب » . كان يلاحظ ، بوعي مسبق واضح بما سيحدث ، أن « ستالين لن يدفع غالياً ليتمكن من العودة عن قراره بنفيي . لا شك انه سيلجأ لعمل ارهابي . . . ذلك في حالتين : . . . إذا كان هناك تهديد بالحرب ، او اذا تدهور وضعه الخاص به الى حد بعيد . وبالتأكيد ، يمكن ان تكون هناك حالة ثالثة

(٣٤) المرجع المذكور ، ص ٨٢ .

ورابعة ... سوف نرى ... واذا لم يكن نحن،فآخرون» . بدأ يفكر بالانتحار ، وكان يعتقد انه قد يكون عليه ان ينتحر إذا خانته قوته الجسدية ولم يعد قادراً على مواصلة النضال . وجاءته حينئذ فكرة انه ربما تكون تلك وسيلة لانقاذ سرجي ؟ لكن كانت تلك افكاراً عابرة . ومع أن طاقته كانت مهدّمة ، سوف يبدي حيوية وقوة مدهشتين خلال السنوات اللاحقة حين ستضعه الاحداث بصورة اكثر مباشرة إزاء التحدي . في غضون ذلك ، كان يختبر شيئاً عادياً وانسانياً قدر ما هي ازمة الاكتهال . وكان يعاني من نوبات سويداء ومن تعب عزلةٍ وجمود مديدين(٣٥) .

كان الآن في الدرك الاسفل من حياته . فالخطط الطّموح والآمال المتفائلة التي كانت لديه حين غادر تركيا ، كانت تغرق في ركود كامل . لم تعد عليه حملته الكبرى ضد الاستسلام الستاليني لهتلر بأي مكافأة سياسية . لا بل كانت الستالينية تستغل هذا الاستسلام لتستمد منه رأسمالاً سياسياً جديداً . فباللعب على الخوف من النازية ، كانت تكسب عطف اليسار الاوروبي . وكان تروتسكي يحس بأن الاممية الرابعة ماتت مع الولادة ، مع انه لم يستطع التسليم بذلك ، والتسليم به حتى في عمق اعماقه . ما كان في وسعه الافلات من ظروف حياته السياسية ، ولا أن يسالمها . لذا كان يجد بعض الراحة في تأملات حول رسالته التاريخية كمؤسس للأممية الرابعة . وضمن هذا السياق كان يفكر بما عساه كان مجرى الثورة الروسية من دون لينين ومن دونه هو ، وكان يؤكد ان عمله من أجل الاممية الجديدة كان ، بمعنى ما ، ضرورياً اكثر حتى مما كان عمله خلال انتفاضة اوكتوبر والحرب الاهلية . وقد كتب :

«ليس ثمة أي تجاسر في هذا التأكيد . لقد طرح انهيار الامميتين مشكلة لا يمكن اياً من قادة هاتين الامميتين ان يحلها ، لأنه ليس مجهزاً لذلك ... ليس ثمة حالياً شخص آخر غيري ، لتنفيذ مهمة تسليح جيل جديد بمنهج ثوري وهذا من فوق رأس قادة الامميتين الثانية والثالثة . و . . الآفة الاخطر هي ان يكون سن المرء اكبر من خمسة وخمسين عاماً . انا بحاجة إلى لا اقل من خمس سنوات اضافية من العمل المتواصل لضمان الخلافة ، اي لتشكيل اممية قادرة على قيادة الطبقة

---

(٣٥) يوميات المنفى ، ص ٥٥ ـ ١٠٩ وما بعدها .

العاملة الى الثورة »[٣٦] .

في الدرك الاسفل من حياته ، كان يتحدى القدر ، الذي سوف يمنحه بالضبط خمس سنوات اضافية ، لكنه لن يسمح له مع ذلك بضمان الخلافة .

طوال سنوات الحياة المشتركة لتروتسكي وناتاليا (وكان عدد تلك السنوات الأن ثلاثاً وثلاثين) ، لم يكونا وحيدين يوماً قدر ما كانا في الاحد عشر شهراً التي قضياها في دومسن . وكان الالم والوحدة يقربـانهما أكثـر أيضاً ، الـواحد من الآخر . كان يقول انه في الساعات المأساوية ، كان يدهشه دائماً ما في طبعها من احتياطي الطاقة . كان حبهما قد تغلب على الانتصار والهزيمة ، والنيران الأخيرة لسعادتهما الماضية كانت تأتي لتضيء الجو القاتم لتلك الايام الحزينة . اصبح وجه ناتاليا مجعداً ومتوتراً بفعل الهم والقلق ، وكان يفكر بألم بصباها اللامع والمطبوع بالتحدي والمرح .

«اليوم، خلال نزهتنا، صعدنا إلى احدى التلال، فتعبت ناتاليا وجلست فجأة ، بالغة الشحوب ، على الأوراق الميتة . . حتى الآن ، لا تزال تسير بصورة بهية ومن دون تعب ، وتبدو مشيتها بالغة الفتوة ، مثل كل شخصها. لكن خلال الشهرين الاخيرين، بدأ قلبها يحس بالانهاك بين الحين والآخر. فهي تعمل كثيراً. . جلست إذاً فجأة. بديهي انها كانت عاجزة عن مواصلة الطريق وقد ابتسمت معتذرة. أي شعور ممض بالشفقة على شبابها تولَّد لديّ إذاك. . . . ».

كانت تحمل عبئها بشجاعة هادئة ، وكانت حياته تستغرق حياتها كلياً . كل عاصفة تهب عليه تهزها ، وكل موجة انفعال تصيبه كانت تنفذ الى اعماق كيانها ، وكل ارتكاسة لفكره كانت تنعكس كذلك عليها . لم تكن بالنسبة إليه نموذج الرفيقة السياسية الذي كانت تمثله كروبسكايا بالنسبة للينين ، لأن كروبسكايا كانت من دون ولد ، وكانت بقرار ذاتي كادحة سياسية ، وقد شغلت مركز عضو في اللجنة المركزية للحزب . لم تكن ناتاليا اقل نشاطاً فقط ، بل أقل توجهاً نحو السياسة . « حتى إذا كانت تهتم بوقائع السياسة اليومية الصغيرة (هذه كلمات تروتسكي بالذات) فهي لا تجمع بينها لتؤلف صورة متماسكة » . لم يكن في وسع الزوج المفعم محبة أن يعبر بوضوح أكبر عن شكوكه بخصوص الحكم

(٣٦) المرجع ذاته ، ص ٥٤ .

السياسي لامرأته . لكن لم يكن ذلك هو الشيء المهم . « . . .حين تنْفذ السياسة عميقاً جداً ، وتتطلب رداً كلياً ، تجد ناتاليا دائماً حينذاك في موسيقاها الداخلية النوطة التي تناسب »[٣٧] .

غالباً ما كان يرجع الى « موسيقاها الداخلية » ؛ لنقل عابرين إنه اكثر ما كان يصفها في يومياته حين كانت تستمع الى الموسيقى . كانت الفنون ، كما دائماً ، هي ما يهمها بصورة خاصة . وكانت لديها مواهب غير عادية من نفاذ البصيرة وشدة الملاحظة ورهافة التعبير ، تكشفها بصورة مدهشة يومياتها الخاصة بها . كانت ملاحظاتها السياسية تجعل تلامذة زوجها يغضنون حاجبيهم أحياناً ، وهو ما كان يدفع تروتسكي الى القول إن :

«الناس الحساسين كانوا يشعرون غريزياً بعمق طبيعتها. وعن اولئك الذين يمرون بجانبها بلا مبالاة أو تعطُّف، دون ان يلاحظوا قواها المخبوءة ، يمكن القول دائماً تقريباً إنهم سطحيون وتافهون . . . ورغم رفقها الاستثنائي حيال كل العيوب الانسانية الصغيرة ، لا يمكن أن يخفي أحد عنها الجهل والابتذال والجبن . اما بصدد قواها الداخلية فلا مجال للشك إطلاقاً » .

ففي اقسى اللحظات وأسوئها ، حين كانت تنفد تقريباً قدرته على التحمل ، كانت هي التي تعيده الى رباطة جأشه وتنعش في ذاته القوة الضرورية لحمل العبء الثقيل . وهو يذكر في يومياته ، بعرفان بالجميل ، أنها لم توجه إليه يوماً ، حين كانا في دومسن ، أي تأنيب بصدد مصاب سرجي وأنها أخفت عنه المها . لم يظهر قلقها وغمّها إلا بصورة استثنائية جداً، في ملاحظة كهذه: «لن ينفوا سرجي . . سوف يعذبونه بهدف الحصول على شيء ما ، ثم سيقتلونه بعد ذلك » . كانت تخفي عواطفها تحت غطاء العمل والعناية بالمنزل ، والمساعدة المقدمة لزوجها في اعماله الكتابية ونقاش الروايات الفرنسية والروسية التي كانا يقرآنها معاً . كتب ملاحظاً :

« صوتها يجعلني اشعر في القلب بوخزة مفاجئة وغريبة . . . هذا الصوت الأجش قليلاً يأتي من عمق اعماقها . حين تتألم ينسحب هذا

---

(٣٧) المرجع المذكور ، ص ٥١ ـ ٥٦ .

الصوت اكثر فأكثر الى الداخل ، كما لو كانت روحها تتكلم عندئذ مباشرة . كم أعرف جيداً صوت الحنان والألم هذا . . »

وقد لاحظ مرة أنها فكرت خلال أيام عديدة بامرأته الاولى اكثر مما فكرت بسرجي ، معلنة انه ربما لم يكن سرجي يعاني أبداً من الصعوبات ، بينما هي تخشى ألا تستطيع الكسندرا ، التي كانت قد اصبحت في عمر متقدم ، البقاء على قيد الحياة في منفاها(٣٨) .

لما كان لديها امل ضعيف في ان ينقذ نداء موجه الى الضمير الانساني العالمي حياة سرجي ، فقد كتبت رسالة مفتوحة تدافع فيها عنه ونشرتها في الـ Bulletin(٣٩) . شرحت في تلك الرسالة براءة سرجي الكلية ، وكظمت الى حد كبرياءها فروت كيف أن قرفه من السياسة تحول إلى رد فعل ضد أبيه. هل ان المنحى الأخير الذي اتخذته الاحداث غيّر موقف سرجي ودفعه نحو المعارضة ؟ « كان يسعدني ذلك لو أمكنني أن افكر به ، لأنه ضمن هذه الظروف ، قد يكون أسهل بكثير بالنسبة لسريوجا أن يتحمل الصدمة . . » . للأسف فقد كان هذا الافتراض دون أساس . فقد كانت تعرف من مصادر متعددة أنه

« . . . ظل في السنوات الاخيرة كما كان في السابق بعيداً عن السياسة . لكن قد لااكون بحاجة شخصياً الى هذه الشهادة . . . فالغيبيو والسلطة الجامعية لا بد انهما تعرفان هذا ، لأنهما راقبتاه من دون ادنى شك » . كما أن ستالين « الذي غالباً ما كان يُدعى ابنه الى غرفة ابننا ، كان يعرف ذلك ايضاً . . »

وقد توجهت بندائها الى شخصيات انسانية مشهورة واصدقاء للاتحاد السوفياتي ، من مثل رومان رولان واندريه جيد وبرنارد شو وآخرين ايضاً وطلبت اليهم ان يتكلموا لصالحه . واقترحت ان تكلف لجنة عالمية بالقيام بتحقيق حول اعمال الانتقام الجماعية التي تلت قضية كيروف .

«لا يمكن البيروقراطية السوفياتية أن تضع نفسها فوق رأي الطبقة العاملة العالمية . بمقدار ما يتعلق الأمر بمصالح الدولة العمالية ، لا يمكن هذه

---

(٣٨) المرجع ذاته ، ص ٥١ - ٧١ - ١٢١ و ١٢٢ .

المصالح الا ان تستفيد من تفحص جدي لأعمال الدولة المذكورة . اني اقدم . . . كل المعلومات والوثائق الضرورية المتعلقة بولدي . واذا كنت اطرح علانية قضية سرجي ، بعد أن ترددت طويلاً ، فليس ذلك فقط لأنه ولدي . فهذا السبب ، الذي يكفي أماً قد لا يكون مع ذلك ملائماً . . . لعمل سياسي . لكن حالة سرجي مثل واضح تماماً ، وبسيط ولا جدال فيه ، على استغلال للسلطة واعٍ واجرامي ، وحالة يمكن تفحصها بسهولة كبرى » .

إلا ان هذا النداء بقي دون جواب .

من قبيل الصدفة المثيرة للفضول ، ان تروتسكي كان ، في الفترة ذاتها تقريباً التي اطلقت فيها ناتاليا نداءها ، يعيد قراءة السيرة الذاتية لكبير الكهنة آڤا كووم ، وكان كارزاً روسياً ، مشهوراً ونابضاً بالحياة ، بالايمان القديم ، عاش في القرن السابع عشر بعد فترة الاضطرابات . كان آفا كووم يدافع عن الاورثوذكسية اليونانية الحقيقية ضد البطريرك نيكون ، منافسه الشرس الذي عَدَّل ، لأسباب دنيوية ، طقوس الكنيسة وكتاب الصلوات . وكان يندد بفساد الهرمية الاكليروسية ويتضامن كلياً مع الفلاحين المضطهدين . وقد جرى تجريده من الرتبة الكهنوتية ، وسُجن ، ونفي في البدء إلى سيبيريا ، ثم الى حدود منغوليا ، وتعرض للتجويع والتعذيب . لكنه رفض جحد مبادئه . وقد تألمت عائلته إلى جانبه ، ولما كان زوجاً وأباً ممتلئاً عطفاً ، تساءل للحظة إذا لم يكن عليه ان يتخلى عن النضال من اجل انقاذ أقربائه . مات اولاده جوعاً ومرضاً في المنفى . وقد كتب سيرته الذاتية في سيبيريا ، وهي عمل بارز في الادب الروسي . وواصل وعظه ، وكان اثر ذلك عظيماً لدرجة ان شهرته كبطل وشهيد للحقيقة تنامت في البلاد بأسرها . كان اكثر خطراً على اعدائه ، وهو منفي ، مما كان وهو قريب من العرش. وقد أعيد الى موسكو حيث هلك على المحرقة(٤٠) . وأبعد من هاوية القرون والايديولوجيات ، لم يكن في وسع تروتسكي الامتناع عن الارتعاش لدى فكرة القرابة بينه وبين المتمرد الاسطوري . كم تبدلت الاشياء وكم كان تبدلها طفيفاً في الوقت ذاته

---

(٣٩) B.O ، العدد ٤٤ ، تموز / يوليو ١٩٣٥ .

(٤٠) صدرت في موسكو عام ١٩٦٠ طبعة جديدة من Zizhn Protopopa AvaKuma ، مع مقدمة مثيرة للاهتمام لا تخلو من تلميحات نموذجية .

في روسيا ! وحتى روح امرأة آفا كووم كانت قائمة أمامه ، متجسدة بناتاليا :

«فيما أنا أفكر بالضربات التي خصنا بها القدر ، ذكرَت ناتاشا قبل أيام بحياة كبير الكهنة آفا كووم. كان الكاهن المتمرد والزوج المخلصة يمضيان متعثرين على طريقهما القاسية في سيبيريا . كانت قدماهما تغوصان في الثلج ، وتسقط الامرأة البائسة المنهكة دون انقطاع تحت الثلج المذرّى . ويروي آفا كووم : « وكنت اتقدم نحوها ، وهي ، الروح البائسة ، بدأت تؤنبني قائلة : ـ كم سيدوم هذا العذاب ، يا كبير الكهنة ؟ ـ واجبتها : حتى موتنا يا ماركو ڤنا ـ وأجابت متنهدة : فليكن ذلك يا بتروفيش ، ولنواصل طريقنا »[٤١] .

وسوف يحصل الامر ذاته بالنسبة لتروتسكي وناتاليا : سيستمر العذاب « حتى موتنا » .

لم يكن في وسعهما البقاء زمناً أطول في دومسن . فكل تأرجح سياسي الى اليمين يأتي بالروابط الفاشية إلى مقدمة المسرح ، او كل تأرجح الى اليسار يقوي الحزب الشيوعي ، كان يهدد بانتزاع تروتسكي من ملجئه العطوب . أما الذي حدث فكان التأرجح الى اليسار . منذ قضية كيروف ، كانت العدوانية ، التي يغذيها الستالينيون ضد « قائد الثورة المضادة العالمية » ، قد غدت غادرة وشرسة إلى درجة أنها كان من المرجح ان تتسبب بعمل من اعمال العنف[٤٢] . لم يكن في وسعه أن يشعر بالأمن حتى في تلك القرية البعيدة في جبال الألب . وهو يصف الطريقة التي أصغى بها ، هو وناتاليا ، وكانا وحيدين في المنزل ، في أحد الايام ، إلى رجلين كانا يقتربان وهما يغنّيان النشيد الأممي . في الماضي ، كان صديق فقط يمكن ان يصل وهو ينشد هذا النشيد ، لكن كان يمكن ان يكون الآن عدواً أو مهاجماً . . كانا يشعران بما كان يشعر به بالذات اولئك النارودنيون القدامى ، الذين كانوا يمضون قبل جيلين الى الريف ليوقظوا الموجيك

---

(٤١) يوميات المنفى ، ص ١٢١ .

(٤٢) كان مقال لجاك دوكلو ، نشر في لومانيتيه في كانون الاول / ديسمبر ١٩٣٤ . يتكلم على « يدي تروتسكي الملطختين بدم كيروف » . وكانت النجدة الحمراء الأممية ، الفرع الفرنسي في الـ M. O. P. R. (المنظمة العالمية للدفاع عن المنفيين والسجناء السياسيين) تطالب بأعلى صوتها بأن يتم ابعاد تروتسكي الى خارج فرنسا .

ويحرروهم ، فينهال عليهم هؤلاء ذاتهم بالضرب والعقاب الشديد .

لم يكن في وسع الحكومة ان تتجاهل اكثر الصخب الستاليني . ففي ايار/ مايو ١٩٣٥ ، كان لاڤال قد ذهب الى موسكو يتفاوض لعقد تحالف فرنسي ـ سوفياتي مع ستالين ، وعاد من هناك مع الاعلان المذهل الذي مفاده ان ستالين يتفهم سياسة دالادييه ولاڤال للدفاع القومي ويدعمها . أما القادة الشيوعيون الفرنسيون ، الذين عارضوا حتى ذلك الحين هذه السياسة مبدئياً ، فتبنوا على الفور خطاً وطنياً ، وأخذت الجبهة الشعبية شكلها . كان لدى تروتسكي ما يبرر اعتقاده بأن الحكومة ستضع موضع التنفيذ قرار الابعاد الذي ابلغته إياه في السنة السابقة . ولما لم يكن اي بلد آخر يوافق على استضافته ، فقد كان يخشى نفيه الى مستعمرة فرنسية بعيدة ربما كانت مدغشقر .

في ربيع عام ١٩٣٥ ، كان قدم طلباً باللجوء إلى النروج . فلقد تمت الانتخابات في ذلك البلد ووصل حزب العمل الى السلطة . كان ذلك حزباً اشتراكياً ـ ديمقراطياً لكن مع فرق واحد : كان قد انتسب سابقاً إلى الكومنترن . ومع أنه انفصل عن الاخيرة في عام ١٩٢٣ ، إلا أنه لم ينخرط مجدداً في الاممية الثانية . كان طبيعياً أن يأمل المرء بأن يقدم حزب كهذا ملجأ لتروتسكي . اتصل والتر هيلد ، وكان تروتسكياً المانياً يعيش كمهاجر في اوسلو ، بأولاف شوفل ، احد القادة المرموقين اكثر من غيرهم في الحزب ، وكان على رأس الجناح المتقدم فيه ويحدوه الاخلاص العميق لتروتسكي . وقد مرت عدة اسابيع قبل أن يعطى جوابٌ رسمي . كان تروتسكي يفترض ان النروجيين استاؤوا من احد مقالاته ، وفيه كان قد أخذ عليهم ، بلهجة ساخرة ، كونهم تخلوا ، إذ أخذوا السلطة ، عن تراثهم الجمهوري وسالموا الملك . إلا أنه تبلغ في حزيران/ يونيو منحهم إياه حق اللجوء . هكذا غادر دومسن في ١٠ حزيران/ يونيو الى باريس حيث كان سيحصل على التأشيرة . لكن كانت هنالك عقدة . فكبار الموظفين النروجيين ، المستائين من القرار الحكومي ، كانوا يحاولون وضع العراقيل في الطريق . لم يحصل على تأشيرته واضطر لالغاء كل التدابير المتخذة للقيام بالرحلة ، فاشتبهت الشرطة الفرنسية بأنه استخدم هذه الذريعة للمجيء الى باريس ، وأمرته بمغادرة فرنسا فوراً ، في الاربع والعشرين ساعة او الثماني والاربعين ساعة اللاحقة كحد أقصى . أبدى استعداده للعودة الى دومسن ، لكن لم يُسمح له بذلك . فعرض انتظار جواب نهائي من اوسلو في عيادة خاصة ،

لكن الشرطة التي تخيلت أنه يلعب عليها لعبة جديدة عارضت ذلك ايضاً . خلال يوم أو يومين ، وجد ملجأ لدى الدكتور روزنتال ، وكان جرّاحاً باريسيا مشهوراً . وفي ١٢ حزيران/ يونيو ارسل برقية توبيخ الى الوزير الاول في النروج منبئاً إياه بأنه ترك مكان إقامته وهو يولي ثقته للوعود النروجية ، وبأن

« الحكومة الفرنسية تعتقد الآن اني خدعتها ، وهي تطلب إليّ ان اغادر فرنسا في الاربع والعشرين ساعة القادمة . انا مريض وزوجي مريضة . الوضع يائس ، وانا التمس قراراً ايجابياً على الفور[٤٣] . » .

كان الوضع يتفاقم أيضاً ، لأنه كان يفتقر كلياً إلى المال ، واضطر الى الاستدانةمن أجل الرحلة . وقبل ان يسمح له النروجيون بالدخول الى بلادهم ، طلبوا إليه الحصول على اذن جديد بالاقامة في فرنسا . وهو ما لم يكن يأمل أبداً الحصول عليه . اخيراً ، بفضل جهود شوفل ، منحوه التأشيرة مع اذن بالاقامة ستة اشهر فقط . وقد ودّع اتباعه الفرنسيين بسرعة . « كنت التقي العديد من الرفاق الباريسيين . تحول مسكن الطبيب الغني ، بصورة غير متوقعة ، الى مركز قيادة للمجموعة البلشفية ـ اللينينية . كانت هنالك اجتماعات تنعقد في كل الغرف. وكان يرن الهاتف فيما يستمر الاصدقاء بالوصول ، اكبر فأكبر عدداً »[٤٤] . والطريقة التي وصف بها هذا المشهد كانت تذكره بلحظة نفيه خارج موسكو ، عام ١٩٢٨ . لكن في هذا الوصف نوعاً من المعارضة . فوداع موسكو ختم حقبة كبرى من نضاله ، وفتح حقبة اخرى . اما وداع باريس فلم يكن يختم شيئاً ولا يفتح شيئاً .

مرة اخرى كتب ، كما كان فعل قبل طرده من فرنسا عام ١٩١٦ ، رسالة مفتوحة الى الشغّيلة الفرنسيين . قال لهم فيها انه كان محكوماً عليه بالصمت طوال إقامته .

«إن الوزراء الاكثر «ديمقراطية» ، مثلهم مثل الوزراء الاكثر رجعية ، يجدون من واجبهم الدفاع عن العبودية الرأسمالية . والحال اني انتمي لحزب ثوري

---

(٤٣) استناداً لبرقية تروتسكي الى نيڤارد سڤولد ، وزير النروج الاول ، في ١٢ حزيران / يونيو ، ١٩٣٥ . المحفوظات ، القسم المقفل .

(٤٤) يوميات المنفى ، ص ١٢٥ ـ ١٢٦ .

يرى ان واجبه يكمن في إطاحة الرأسمالية » .

واندفع يسوط الستالينيين :

«منذ عامين ، كانت لومانيتيه تنشر في كل يوم ان الفاشستي دالادييه دعا إلى فرنسا الاشتراكي ـ الفاشي تروتسكي بهدف أن ينظم بمساعدته التدخل العسكري ضد السوفييتات . . . واليوم شكل السادة ذاتهم . . . جبهة شعبية معادية للفاشية مع الفاشي دالادييه . توقفوا عن الكلام . . . على اي نوع من التدخل الامبريالي الفرنسي ضد الاتحاد السوفياتي ، وهم . . . يعلنون ان سياسة تروتسكي لا تخدم هيريو و دالادييه ، بل هتلر » .

واختتم ، بحدة ، معلناً ان الستالينية جرح متعفن في الحركة العمالية ينبغي كيُّه بالحديد المحمّر وان على الشغيلة التجمع مجدداً تحت راية ماركس ولينين .

«أمضي مفعماً حباً عميقاً للشعب الفرنسي، وايماناً لا يتزعزع بمستقبل الطبقة العاملة. عاجلاً أو آجلاً، سوف يمنحني هؤلاء الضيافة التي تحجبها البورجوازية عني »(٤٥) . هكذا بعد عامين كئيبين ومفسَدين ، غادر فرنسا التي لن يراها مرة أخرى .

إن الرواية عن إقامة تروتسكي في النروج تُقرأ كتكرار واسع ـ مع بعض التغيير ـ لـ **عدو الشعب** لإبسن . فإبسن يقدم دراما الدكتور ستوكمان ، الذي يوقره كل مواطنيه لنبله ، حتى الحين الذي يهدد فيه بتدمير ازدهارهم عن طريق كشف الحقيقة بشأن الينبوع المسموم لثروتهم . عندئذ بالذات ، ينقلب اخوه ، عمدة المدينة ، وأصدقاؤه « المتقدمون » الخاصون به ، ضده بغضب بارد ومجرم . ونحن الان مجدداً في بلد إبسن ، وليس من المهم أن يكون عدو الشعب ، هذه المرة ، شارداً أجنبياً ، وان يتكلم ، لا على تلوث قنوات ماء الشرب لمحطة نروجية ، بل على ثورة مشوّهة . فالدراما والمشهد هما ذاتهما في الجوهر . تماماً كما الملامح العائلية الخاصة بالممثلين ولا سيما ابناء « راديكاليي » إبسن المزيفين واحفادهم . وحتى **رسول الشعب** الخاص لا يزال

(٤٥) B.O ، العدد ٤٤ ، تموز / يوليو ، ١٩٣٥ .

هنا كما في الايام الخوالي ، مبدلاً معسكره في ليلة واحدة ومتلاعباً بالرأي العام . ويمكن ان نميز كذلك في الجمهور سليلاً أو سليلين للكابتن هورستر المتواضع والشجاع ، الذي تضامن مع عدو الشعب . تغير الزمن فقط ، كانت القوى الداخلة في الحبكة أقوى بما لا يقاس ، وكان النزاع أقسى وأشد .

منذ البدء ، لم يكن ثمة ما يبشر بالخير . فالنروجيون لم يكتفوا فقط بإظهار الفتور حين منحوا تروتسكي اللجوء ، بل زادوا على ذلك بفرض قيود لم تكن تختلف إطلاقاً عن تلك التي عاش في ظلها في فرنسا ، واحتفظوا بحق تحديد مكان إقامته على مسافة معينة من العاصمة . فما كاد يضع قدميه على اليابسة في ١٨ حزيران/ يونيو ، حتى احتج الاتحاد القومي للمزارعين ضد قبوله لاجئاً ، وفي ٢٢ حزيران/ يونيو ، كان الستورتنغ بدأ نقاش ذلك الاحتجاج . لم يستتبع ذلك نتائج مباشرة ، لكن كان واضحاً مذاك ان المعارضة ستستخدم وجوده لارباك الحكومة . كان « الغول » يثير هلع البورجوازية المحافظة ، وقد استحال ايجاد مسكن له . فما من مالك كان يجرؤ على قبوله كمستأجر . طلبت الحكومة منه الالتزام بالامتناع عن اي نشاط سياسي ، وهو ما فعله ، معتبراً ان ما كانت تشترطه إنما هو عدم التدخل بشؤون النروج الداخلية . لكن الحكومة أكدت فيما بعد أنها طلبت إليه الامتناع عن كل شكل من النشاط السياسي ، وهو اشتراط لا يمكن اي لاجىء سياسي ان يخضع له في العادة ، لذا لا يطالب به عموماً . وواقع أن الناس الذين كانوا يعاملونه هكذا كانوا لا يزالون يعتبرون انفسهم منشقين عن الشيوعية الرسمية كان يزيد في ابراز الطابع البائس لسلوكهم .

إلا أنه لدى وصوله ، راح قادة الحكومة وحزب العمل يظهرون أريحيتهم . وقد استقبلته صحيفتهم الـ Arbeider bladet بالشكل التالي :

« لقد ابهج قرار الحكومة الطبقة العاملة في هذا البلد وكل الناس الذين يفكرون بشكل صحيح ومن دون مسبقات . يجب ألا يبقى حق اللجوء حرفاً ميتاً وان يصبح حقيقة . إن حضور تروتسكي في البلد ليشرِّفُ الشعب النروجي » . ومن دون أن تدخل الصحيفة في الحجج الى جانب صراعه مع ستالين وضده ، ذلك الصراع الذي لم تكن لديها أفكار جاهزة بصدده ، انكرت على ستالين «حق اضطهاد رجل كليون تروتسكي ونفيه ، ذلك الرجل الذي سيبقى اسمه متلازماً مع اسم لينين في تاريخ

الثورة الروسية . والآن وقد نفي من بلاده رغم خدماته العظيمة والتي لا تزول ، على كل أمة ديمقراطية ان تعتبر تقديم ملجأ له واجباً عليها ومدعاة للغبطة . . . »[٤٦] .

وتمنى له مؤسس الحزب وقائده ، مارتن ترانمال ، إقامة طيبة ، وذلك بصورة علنية وشخصية . وترك العديد من الوزراء مجالاً لكي يفهم المرء ان شروط قبول تروتسكي في النروج ، ومهلة الستة اشهر ، والقيود الموضوعة على حرية حركته ليست غير شكليات . وقد طلبت الحكومة الى كونراد كنودسن ، وكان صحفياً اشتراكياً ، ان يساعد تروتسكي في الحصول على مسكن . ولما كان كنودسن قد رأى من المستحيل استئجار منزل ، فقد دعا ناتاليا وتروتسكي للاقامة في بيته هو[٤٧] .

بعد ذلك بوقت قصير ، قام قادة الحزب الثلاثة ، ترانمال ، وتريغفي لي ، وزير العدل ، ورئيس تحرير الـ Arbeiderbladet ، بزيارة مجاملة لتروتسكي . الا ان المقابلة كانت صعبة بالأحرى ، فلقد ذكّر النروجيون تروتسكي بأنهم قصدوا موسكو عام **١٩٢١** ،وتفاوضوا معه ومع لينين وزينوفييف بصدد شروط انضمامهم الى الكومنترن . لكن قبل الذهاب أبعد في الحديث ، اراد تريغفي لي التأكد من علم تروتسكي بضرورة الامتناع عن كل نشاط سياسي . فأجاب تروتسكي بأنه لا ينوي إطلاقاً التدخل في الشؤون النروجية . لكن أكد تريغفي لي فيما بعد أنه اشترط فوراً ان يمتنع تروتسكي عن اي عمل عدائي « تجاه أي حكومة صديقة » . ويتذكر شاهد عيان أن « تروتسكي رفض الانجرار الى اي نوع من النقاش السياسي معنا ولم يتكلم إلا على الطقس » . لكن لما كان الزائرون قد انتهوا من الشكليات الرسمية ، فقد كانوا يرغبون جداً في التحول نحو اللهجة الرفاقية ، والتحدث في السياسة ، والاستدفاء بعظمة الرجل الذي منحوه اللجوء السياسي . سألوه تشريفهم بإعطاء مقابلة طويلة وشاملة للـ Arbeiderbladet ، حول القضايا الكبرى للسياسة العالمية . ويقول شاهد العيان ذاته ان تروتسكي اجاب بلهجة باردة جداً أن وزير العدل حظر عليه ، قبل قليل ، أي انصراف لأي من اشكال

---

(٤٦) هـ . كروغ ، مينتجر ، ص ٢٢٠ . اشكر السيد كروغ والسيد م . ك . داهل على الترجمة الانكليزية لمقاطع من هذا الكتاب ووثائق نروجية اخرى سيرد ذكرها بعد قليل . يوميات المنفى ، ص ١٢٨ - ١٢٩ .

(٤٧) هذا ما رواه لي كونراد كنودسن بذاته .

النشاط السياسي . فهز محاوروه اكتافهم وافهموه ، وهم مستغرقون في الضحك ، ان كل مسألة الحظر تلك لم تكن غير كوميديا اضطروا لأن يمثلوها pro forma بهدف تهدئة خصومهم البرلمانيين . واهتم وزير العدل بطمأنة تروتسكي الى انه إذ يعبر عن آرائه ، لن يخل اطلاقاً بالشروط التي تم تحديدها لاقامته . وتحول وزير العدل ذاته عندئذ إلى محاور صحفي بالغ الحماس . فأجاب تروتسكي طويلاً عن أسئلته ، مستفيداً من المناسبة التي توفرت له لفضح سياسة ستالين وإفلات الارهاب من كل قيد منذ اغتيال كيروف . وفي ٢٦ تموز/ يوليو ، نشرت الـ Arbeiterbladet المقابلة ، مع افتتاحية مطرزة بزهور البلاغة ، مما لم يدع اي شك لدى القراء في أن وزير العدل ساهم شخصياً في ايصال وجهات نظر تروتسكي اليهم . هكذا بدا أن سوء التفاهم الذي حصل في الايام الاولى تبدد كلياً . كان الحزب الحاكم يعامل تروتسكي كضيف مجيد لا كلاجىء شقي . وكان البرلمانيون ورجال الصحافة يتنافسون في إبداء كل انواع التوقير والاجلال تجاهه . وخلال فترة من الزمن ، لم يكن هناك ما يمنح شخصاً ما من الحلقات اليسارية في أوسلو اكبر قدر من التمييز كإمكانية الاعتزاز بأن المنفي العظيم قد استقبله .

قبل نهاية حزيران/ يونيو ، كان تروتسكي وناتاليا قد اقاما في منزل كنودسن في ڤيكسهال ، وهي قرية قريبة من هونفوس ، على بعد ٥٠ كلم تقريباً شمالي أوسلو . هكذا في هدوء الريف وسلامه ، وإذ كانا يشاركان عائلة كبيرة العدد نسبياً ، ومتواضعة ، وكلها مودة ، حياتها المنزلية ، تمكنا من الابلال من متاعبهما الاخيرة . كان كنودسن اشتراكياً ـ ديمقراطياً لذيذاً ومعتدلاً ، وبالغ البعد عن التروتسكية . وإذ دعا الى بيته رجل ثورة اوكتوبر ، لم يصغ الا الى صوت إحساسه وعدائه للابتذال . وفي ما يشبه الاتفاق الضمني ، لم يكونا يتناولان ابداً المسائل المتعلقة بخلافاتهما السياسية . هكذا (يقول كنودسن ذاته) « **طوال اقامته معنا ، لم يعكر صفونا اي سوء تفاهم** » .

> كان تروتسكي منهمكاً جداً بعمله بحيث لم يكن ليبذر وقته في مناقشات عقيمة . كان يعمل بقساوة شديدة . لم أر يوماً شخصاً بهذا الانضباط والدقة والتحذلق في عاداته . حين لم يكن مريضاً ، كان ينهض في الخامسة والثلث او الخامسة والنصف صباحاً ، وينزل إلى حجرة الطعام فيأكل قليلاً ويبدأ بالعمل . وكان يفعل ذلك بهدوء شديد ، على رؤوس الاصابع ، بحيث لا يضايق احداً . لا يمكن الكلمات ان تعبر عن مدى

الذوق والاحترام اللذين برهن عنهما حيال كل من كانوا يعيشون في بيتنا . وكان سلوك ناتاليا مشابهاً . وقد سميناها ، على سبيل المودة ، « السيدة الصغيرة للمنزل الكبير » . كانت حاجاتهما متواضعة بشكل لا يصدَّق »[٤٨] .

للمرة الاولى منذ عام ١٩١٧ ، كان يمكن تروتسكي أن يعيش من دون حماية حراس مؤلفين من رفاق ، ومن دون ان يكون تحت رقابة الشرطة أو أن يلزم السرّية . كانت بوابة الفناء مفتوحة ليل نهار ، وحتى اناس من البلدة كانوا يمرون من حين لآخر ، لتبادل كلمات ودية . واحياناً كان يصل زوار من الخارج ، لاجئون الماني يعيشون في اسكندينافيا ، وفرنسيون وبلجيكيون وأميركيون . وبين الاميركيين كان هارولد ايزاكس الذي عاد لتوه من الصين بعد إقامته هناك عدة سنوات ، وكان مصدر معلومات قيِّمة حول ذلك البلد وحركته الشيوعية . (كان بصدد كتابة مؤلَّف بعنوان **مأساة الثورة الصينية** ، سوف يكتب له تروتسكي مقدمة) . وجاء ايضا الى ڤيكسهال كل من شاختمان وموست ، الاشتراكيان الاميركيان المعروفان جيداً اللذان انضما الى التروتسكيين . ووصل الفرنسيون مراراً حاملين معهم خصوماتهم ومشاحناتهم ، وطالبين الى تروتسكي أن يحكم فيما بينهم . لم يكونوا يتوصلون الى الاتفاق حول هل عليهم مغادرة صفوف الحزب الاشتراكي (S . F . I . O .) وتشكيل حزب مستقل . كان ريمون مولينييه قد اطلق صحيفته الخاصة به ، **الكومونة** ، التي كانت تدعو الى الخروج من الحزب . وقد فجر ذلك الخلاف ، ودفع تروتسكي الى قطع علاقته بمولينييه في الاخير . وما كانت تجدر الاشارة للحادثة لولا ان المعركة ستتواصل خلال سنوات عديدة وتتداخل بصورة غريبة مع مصائر عائلة تروتسكي . وسط كل ذلك ، وفي حين كانت مراسلته مع اتباعه ، التي لم يتمكن من مواصلتها كما يجب في فرنسا ، تتخذ أحجاماً عظيمة ، بدأ تروتسكي يكتب كتاباً جديد : **الثورة المغدورة**[٤٩] .

---

(٤٨) مرة اخرى ، اورد محادثتي مع كنودسن ، ومقدمته ايضاً للطبعة النروجية لكتاب تروتسكي ، حياتي .

(٤٩) تعكس ملفات **المحفوظات** ، **القسم المقفل** ، هذا التنامي الضخم في مراسلة تروتسكي مع الفرنسيين ، والالمان ، والبلجيكيين ، والهولنديين ، وللنمساويين والاميركيين ، واليونانيين ، وغيرهم من الاتباع . انظر كذلك تقرير هارولد ايزاكس حول الصين، **المرجع ذاته** .

إلا أنه حوالى نهاية الصيف ، في ١٩ أيلول/ سبتمبر ، دخل الى مستشفى أوسلو البلدي بسبب استمرار ارتفاع حرارته وحالة ضعف معمَّم . وفي هدوء غرفته في المستشفى ، كان يستسلم لأحلام يقظة كئيبة . فلقد كتب :

« منذ عشرين سنة ، كنت على فراش صغير ، في سجن بمدريد ، وكنت اتساءل مذهولاً ما الذي أمكن ان يصل بي الى ذلك المكان . أتذكر اني انفجرت آنذاك بالضحك . . . واني ضحكت وضحكت وضحكت حتى استغرقت في النوم . والآن أيضاً اتساءل بذهول ما الذي أمكن ان يصل بي الى هذا المستشفى بأوسلو »(٥٠) . وأعادته توراة على الطاولة بجانب سريره الى الوراء ، الى زنزانة في سجن اوذيسا حيث تعلم قبل ثلاثين عاماً لغات اجنبية في نسخة من التوراة متعددة اللغات . « من المؤسف انه لا يسعني ان اعد بأن هذا اللقاء الجديد مع كتاب قديم ومألوف الى هذا الحد سوف يساعدني على خلاص روحي ، لكن قراءة الانجيل بالنروجية سوف تساعدني على تعلم لغة البلد الذي منحني الضيافة ، وادبه الذي . . احببته منذ نعومة اظفاري » .

وبعد العديد من الروائز والفحوص، غادر المستشفى من دون أن ينقذ روحه ومن دون ان يكون جسده استعاد صحته ، وأمضى الجزء الاكبر من كانون الاول/ ديسمبر في السرير . وقد اعلن فيما بعد ان ذلك الشهر « كان أقسى شهر في حياته » .

كانت ازعاجات قديمة وجديدة تكبح إبلاله من المرض . يمضه هزال عمله التنظيمي . كان التروتسكيون الفرنسيون الذين ما انفكوا يزعجونه بخصوماتهم يغيظونه ، وقد كتب الى ليوڤا :

« من الضروري اطلاقاً ان احصل على اربعة اسابيع على الاقل من الراحة ، دون ان ارى ، من قريب او من بعيد ، اي رسالة من الفروع . . . وإلاسيكون مستحيلاً ان استعيد قدرتي على العمل . هذه السخافات المقرفة (eckelhafter Kleinkramm) لا تحرمني فقط من القدرة على الاهتمام بأمور اكثر جدية ، بل تتسبب لي أيضاً بالأرق والحمى ، الخ . . . اسألك بالحاح أن تكون بالغ الصرامة في هذا

---

(٥٠) استناداً الى مقدمة تروتسكي للطبعة النروجية من حياتي ، والى المحفوظات .

الصدد . فيما بعد، سيكون في مقدوري أن اضع نفسي بتصرفك ، فلنقل حوالى أول شباط / فبراير »[٥١] .

الا انه خلال الاسابيع والأشهر التي تلت انّب ليوفا مراراً على ملاحقته بتلك **التفاهات المقرفة** وعبر عن عظيم يأسه إزاء الدسائس البلهاء للزمر الفرنسية[٥٢] . كما ان مراسلته تبين كذلك بوضوح ان الامور لم تكن افضل في الفروع الاخرى للاممية الرابعة . . . اللاحقة . وكان هنالك القلق الشديد الذي تسببه الاحداث الروسية والحيرة بصدد مصير سرجي . وقد ادت تحقيقات مداورة تمت في موسكو الى توضيح رسمي مفاده ان سرجي ليس مسجوناً ، لكنه موضوع تحت رقابة الشرطة لمنعه من الاتصال بأبيه . لكن حين حاولت ناتاليا تحويل حوالة مالية صغيرة لامرأة سرجي في موسكو ، اعيدت لها تلك الحوالة على عنوان مصرفي في أوسلو مع الملاحظة التالية : « غير معروفة على العنوان المذكور » . بالاضافة الى كل ذلك ، كانت هناك المشاكل المالية . فتسليفات الناشرين سمحت له فقط بتغطية تكاليف إقامته في النروج ، وسداد دين لهنري مولينييه، وهو أمر كان يرغب فيه بشدة قبل ان يقطع العلاقة مع جماعة مولينييه . صوّرت رسالة الى هارولد ايزاكس في أي ضائقة قاسية كان يجد نفسه : طلب في الرسالة المساعدة لتحاشي كارثة مالية . كان عليه ان يدفع عشرة كرونات يومياً للمستشفى ، ولم يكن باقياً معه غير مئة كرون[٥٣] .

قبل عيد الميلاد بقليل ، مضى هو وكنودسن وبعض النروجيين الى المقاطعة الصخرية والمتوحشة في شمال هونفوس ، آملاً أن تتمكن عدة ايام من النشاط البدني في الهواء الطلق من تحسين صحته . ومن الضروري الاشارة الى الفترة التي تمت فيها تلك الجولة ، لأنه بعد عام من ذلك الحين ، سوف يزعم فيشنسكي ، خلال محاكمة رادك وبياتاكوف ، ان بياتاكوف قام آنذاك بزيارة سرية لتروتسكي ، واعترف بياتاكوف ذاته بأنه وصل الى اوسلو بطائرة قادمة من برلين ومضى من المطار بالسيارة مباشرة للقاء تروتسكي . وقد دحضت السلطات

---

(٥١) الرسالة المؤرخة في ٢٧ كانون الاول /ديسمبر ١٩٥٣ . وُجِّهت الى ليوفا ، كما الى عضو اخر ، حسبما يبدو ، في السكريتارية الأممية ، المحفوظات ، القسم المقفل .

(٥٢) رسائل في ١٤ كانون الثاني /يناير و ٢٢ آذار / مارس ١٩٣٦ . المرجع ذاته .

(٥٣) المراسلة مع هارولد ايزاكس ، المحفوظات ، القسم المقفل .

النروجية تلك المزاعم ، مؤكدة بصورة جازمة انه ما من طائرة المانية حطت في مطار اوسلو في نهاية كانون الاول/ ديسمبر ١٩٣٥ ، والامر ذاته يصح بالنسبة لعدة أشهر سبقت ذلك التاريخ او تلته . كما ان صحب تروتسكي اعطوا البرهان على انه ما من شخص كان بوسعه ان يصل بالسيارة الى المكان الذي اقاموا فيه مع تروتسكي .

« كان الشتاء قارساً جداً . والريف الذي لم يكن فيه اي طريق ، كانت تتراكم فوقه الثلوج ويطغى عليه جليد القطب الشمالي . ونحن نتذكر هذا جيداً لأنه في احدى المرار خلال الجولة ، وقع تروتسكي في فخ الثلج والجليد . كنا على زلاجاتنا ، وهو لم يكن يتقن التزلج . وقد اضطررنا لتنظيم عملية انقاذ حقيقية ، وأصبنا بجراح ثخينة »(٥٤) .

بعد ذلك بقليل ، وبنتيجة واحد من تلك التغيرات الفظة في صحته التي كانت تحيّر الاطباء كثيراً باستمرار ، استعاد عافيته واستأنف كتابة **الثورة المغدورة** . وقد شغله ذلك طيلة الستة اشهر اللاحقة ، التي استفاد منها لانجاز كتابه .

يحتل كتاب **الثورة المغدورة** مكانةً على حدة في عمل تروتسكي الأدبي . إنه الكتاب الأخير الذي نجح في انجازه ، وبمعنى ما وصيته السياسية . قدم فيه تحليله النهائي للمجتمع السوفياتي ورؤية اجمالية لتاريخه ، حتى منتصف الحقبة الستالينية . انه الأكثر تعقيداً بين مؤلفاته ، فهو يجمع كل ما في فكره من ضعف وكل ما فيه من قوة . ينطوي على تأملات عديدة جديدة وفريدة حول الاشتراكية ، وحول الصعوبات التي ينبغي أن تتصدى لها ثورة بروليتارية وحول دور البيرقراطية في دولة عمالية . وفيه يقوم كذلك بتحليل إجمالي لوضع الاتحاد السوفياتي الدولي قبل الحرب العالمية الثانية ويحاول النفاذ الى المستقبل ، في توقعات جريئة ، وخاطئة جزئياً . إن هذا الكتاب دراسة نظرية معمقة ومنشور للأزمنة القادمة ؛ إعادة عرض خلاقة للمفاهيم الماركسية الكلاسيكية ، وبيان التروتسكية الجديدة ، الداعي الى الثورة في الاتحاد السوفياتي . يظهر فيه تروتسكي بكل ما

---

(٥٤) هذا ما يرويه السيد والسيدة ن. ك . داهل اللذان رافقا تروتسكي خلال تلك الرحلة . انظر كذلك **The Case of Leon Trotsky** ، ص ٢٠٤ - ٢٢٣ .

لديه من قدرات ، تلك الخاصة بقائد المعارضة المهزوم ، وتلك الخاصة بالهجّاء وبالمساجل المحموم . ويشكل اسهام المساجل الجزء الاكثر خفاء في المؤلَّف ، ويتجه إلى كسف المحاجّة التحليلية والموضوعية . وبسبب غنى هذا الكتاب بالأفكار وقوته التخيلية ، كان احد أغنى الكتب بالبذار في هذا القرن ، كتاباً مثقِّفاً بقدر ما يحتمل توريط قارئه في الخطأ ، ومعد اكثر من اي كتابة سياسية اخرى ليفيد باستمرار في استخدامات طارئة . حتى عنوانه سيصبح احدى الكلمات الاساسية لفهم عصرنا .

الثورة المغدورة ، هذا هو رد الفعل النقدي التروتسكي في مرحلة حاسمة من الحقبة الستالينية . كانت الدوائر الرسمية في موسكو قد اعلنت ان الاتحاد السوفياتي انجز بناء الاشتراكية . حتى تاريخ قريب ، كانت قد اكتفت بالتأكيد ، بصورة اكثر تواضعاً ، بأن أسس الاشتراكية هي وحدها التي أُنجز وضعها . وما كان يشجع ستالين على الا يكتفي الا بالمناداة بأن الاشتراكية قد أنجز بناؤ ها ، إنما هو تقدم التصنيع ، والعلامات السطحية الأولى على توطيد الزراعة الجماعية وارتياح الامة الحديث الى كونها تركت خلفها المجاعات والمجازر العائدة لبداية الثلاثينات . إن دستوراً جديداً ، « الاكثر ديمقراطية في العالم » ، سوف يمثل الحقبة الجديدة بصورة مقتضبة ، دستوراً الغى ، على الاقل شكلياً ، كل تمييز ضد اعضاء الطبقات المالكة ، وأدخل الاقتراع الشامل والمتساوي . كان ذلك يفترض مسبقاً أن ديكتاتورية البروليتاريا لم تعد بحاجة بعد الآن لضمانات دستورية خاصة لأن مجتمعاً بلا طبقات ، بالقوة ، قد ابصر النور . الا انه في حين منح الدستُور كل المواطنين المساواة في حق التصويت فقد حرمهم من حق اختيار من يصوتون له ، وخلافاً لكل الدساتير السوفياتية السابقة ، كرس رسمياً نظام الحزب الواحد . هذا النظام ونظام الحزب وحيد الاتجاه كانا يتوافقان ، حسب تأكيدات الدعاويين ، مع طبيعة مجتمع اشتراكي لا يمزقه اي نزاع بين مصالح الطبقات ، بينما يعكس نظام تعدد الاحزاب التضاد الملازم للمجتمع البورجوازي .

الا ان تلك الفترة كانت فترة لا مساواة متزايدة ، فقد كان التباعد بين الاجور الدنيا والاجور المرتفعة يزداد بسرعة ، وينحط التنافس الاشتراكي الى تدافع وحشي نحو الامتيازات والمنتجات الضرورية للحياة ؛ كانت الستاخانوفية تمد ذلك التدافع إلى كل مشغل صناعي وكل منجم فحم في البلاد ، وكانت المفارقة بين غنى البعض والفقر المدقع للغالبية الكبرى ترتدي الأشكال الأكثر

صَدْماً . وإذ كان ستالين يشن هجوماً شرساً على المسوّين ، كان يضع نفسه على رأس الاغنياء الجدد ، ويشحذ جشعهم ، ويسخر من الوساوس الخفيفـة التي كانت تكبحهم ، ويمجد اللامساواة الجديدة على انها نجاح للاشتراكية . كان تنظيم هرمي جديد يتخذ شكلاً له ، وينطوي على تدرجات متكوِّنة ، برتبٍ والقاب وامتيازات متفاوتة جداً ، وبحيث أن كل درجة صغيرة على كل السلالم المتعددة شديدة الانحدار للسلطة كانت محددة بدقة غريبة . وذلك التقهقر من الاشكال الديمقراطية البروليتارية للمرحلة الاولى إلى سلطوية جديدة لم يكن في اي مكان بالحدة التي بدا فيها في القوات المسلحة ، حيث اعيـدت الرتب والتمييزات الخاصة بالحقبة القيصرية . هكذا بين الاحتفالات بقيام الاشتراكية ، كانت تفوح في الجو رائحة شيء يشبه إعادة للنظام القديم . تأثر بذلك عميق التأثر النظام التربوي والحياة الروحيـة للأمـة ، والاصلاحـات المدرسيـة التقدميـة للسنوات ١٩٢٠ ـ ١٩٣٠ ، التي كانت اثارت إعجاب العديد من المربين الاجانب ، وجرى التنديد بها على أنها ضلال يساري متطرف . هكذا فإن نزعة تقليدية ثقيلة ، اكثر فأكثر قومية ، وانضباطاً امبريالياً على الطريقة القديمة ، اكتسحا الصفوف وقاعات المحاضرات ، خانقين روح جيل الشباب . اصبحت الوصاية البيروقراطية على العلوم والآداب والفنون طاغية ومستبدة بشكل لا يُحتمل . كانت الدولة تمارس في كل حقل سلطة مطلقة بصورة وقحة ومستفِزة ، ممجدة نفسهـا كالحـارس الاسمى للمجتمع . ورُفع إلى السحاب الممسك الاوتـوقراطي بـالسلطة ، أبو الشعوب ، ينبوع كل حكمة ، المحسن للبشرية وخالق الاشتراكية .

أخذ تروتسكي على نفسه مهمة دحض مزاعم ستالين ، وقد فعل ذلك عن طريق مجابهة وقائع الستالينية بالفهم الماركسي الكلاسيكي للاشتراكية . . لفت الانتباه الى أن هيمنة الاشكال الاجتماعية للملكية لم تكن تشكل الاشتراكية بعد ، حتى ولو كانت شرطها الأساسي . فالاشتراكية تفرض مسبقاً اقتصاد وفرة ، ولا يمكن ان تقوم على الحاجة والفقر اللذين كانا لا يزالان مسيطرين في الاتحاد السوفياتي ، واللذين قادا إلى تزايد اللامساواة الصارخة . كان ستالين قد اشار الى الرأي الذي عبر عنه ماركس بصدد طوري الشيوعية : الطور الادنى حيث يكافىء المجتمع « كلاً من اعضائه وفقاً لعمله » ، والطور الاعلى حيث يكافئه « وفقـاً لحاجاته » . وقد اعلن ستالين ان الاتحاد السوفياتي كان في الطور الادنى ، بينما بيّن تروتسـكي أن ستالين يقترف استغلالاً للثقة حين يسخّر سلطة ماركس ليبرر

اللامساواة التي يقف وراءها . ففي حين كان صحيحاً أن ماركس سبق أن توقع استمرار اللامساواة خلال الطور الأول من الشيوعية ، لم تخطر بباله أبداً الفكرة القائلة إن تلك اللامساواة قد تزداد ، لا بل قد تزداد بقفزات ، كما فعلت في ظل حكم ستالين . كان المجتمع السوفياتي لا يزال في منتصف الطريق بين الرأسمالية والاشتراكية ، وكان يمكن ان يتقدم أو يتراجع ، وكان في وسعه ان يتقدم ، فقط بمقدار ما قد يتغلب على اللامساواة ، أما تزايد اللامساواة فكان يشير بالأحرى إلى التقهقر الى الوراء .

كان تهتك الاستبدادية الستالينية يشكل جزءاً لا يتجزأ من تلك النزعة التراجعية بالذات . لقد سبق أن انتزع لينين من النسيان ، في كتابه **الدولة والثورة** ، المفهوم الماركسي عن اضمحلال الدولة وجعل منه الفكرة المألوفة اكثر من اي فكرة غيرها لدى البلشفية ، وكان تروتسكي يدافع الآن عن هذه الفكرة في وجه التآمر الستاليني . ألحَّ على واقع أنه لا يمكن تصور الاشتراكية من دون اضمحلال الدولة . فالدولة كانت قد انبثقت من صراع الطبقات ، واستمرت كأداة للسيطرة الطبقية . والحالة هذه ، فإن الاشتراكية تعني ، حتى في طورها الأدنى ، زوال التضادات الطبقية والقمع السياسي ؛ فقط الوظائف الادارية للدولة ، « إدارة الأشياء لا إدارة الناس » ، يجب ان تستمر في ظل الاشتراكية . كان لينين تصور ديكتاتورية البروليتاريا كنوع من نصف الدولة وحسب ، على شاكلة كومونة باريس ، دولة يكون موظفوها منتخبين ويجري اقصاؤهم بالتصويت ، ويقبضون أجوراً لا تزيد عن اجور الشغيلة ، بحيث لا يتمكنون من تشكيل بيروقراطية منفصلة عن الشعب . هذه الخطة تكشفت في روسيا المتخلفة والمعزولة مستحيلة التطبيق ؛ إلا انه كان ينبغي قياس التقدم في اتجاه الاشتراكية على اساس مستوى انحدار سلطة القمع لدى الدولة . وقد كان الاضطهاد السياسي الكثيف ، وتمجيد الدولة ، يدحضان في ذاتهما التأكيد الستاليني بشأن تحقيق الاشتراكية . كان ستالين يزعم انه لا يمكن ان تضمحل الدولة في بلد واحد ، أما تروتسكي فكان يرى ان هذا الكلام ليس غير اعتراف غير مباشر بأن الاشتراكية ، هي الأخرى ، لا يمكن أن تتحقق في بلد واحد . لكن لم يكن التطويق الرأسمالي هو السبب الرئيسي لسلطةالدولة المتزايدة ، لأن الارهاب الستاليني كان يستهدف بشكل أساسي الاعداء الداخليين ، اي المعارضة الشيوعية .

بالنسبة لغير الماركسي ، لا بد ان يظهر جزء كبير من هذا النقد

« مذهبياً » ، اما بالنسبة للماركسي فقد كان حيوياً لأنه يجرد الستالينية من ادعاءاتها الايديولوجية ويفصل الماركسية عن ممارسات ستالين . كان تروتسكي يسعى ليقيم لحساب مدرسة الفكر الماركسي وضعاً يمكنها ان ترفض منه الاعتراف بكل الديون الادبية التي كانت الستالينية تتعهد بها باسمها ، ومن حيث يمكنها الاعلان ان افكارها ليست مسؤولة عن حكم الارهاب الستاليني اكثر مما كانت وصايا الله العشر أو الموعظة على الجبل مسؤولة عن جرائم محاكم التفتيش ؛ وليس معنى هذه المحاجة ادبياً وتاريخياً وحسب ، لأن لها دوماً صلات بالغة العمق بالفكر الشيوعي . إن الفكرة التي عرضها خروتشوف في نهاية الخمسينات وبداية الستينات ، التي فحواها ان الاتحاد السوفياتي في طور الانتقال من الاشتراكية الى الشيوعية ، تستند الى التأكيد الستاليني المتعلق بإنجاز الاشتراكية خلال الثلاثينات ، وهي ليست أقل بعداً عن الصحة من هذا التأكيد . اذا نظرنا للمجتمع السوفياتي من وجهة نظر تروتسكي ، فهو لا يزال الى الآن ابعد ما يكون عن إنجاز الاشتراكية ، رغم الخطوات الواسعة الى الامام ؛ وكل فكر المفكرين الاقتصاديين ، وعلماء الاجتماع والفلاسفة والمؤرخين السوفيات لا يزال يقيده هذا القانون الكنسي المتعلق بانجاز الاشتراكية ، ويتحرك في دائرة من الأوهام المحبوكة حول هذا القانون . إذاً فإن تطبيق مقاييس تروتسكي على الواقع السوفياتي الحالي يتطلب اعادة نظر في الارث الستاليني ، اكثر جذرية بكثير من تلك التي تمت في الاتحاد السوفياتي خلال العقد الاول الذي تلا وفاة ستالين .

يشكل كتاب الثورة المغدورة اتهام تروتسكي الكلاسيكي للبيروقراطية . مرة أخرى ، يصطف في « النزاع بين الامرأة العاملة العادية والبيروقراطي الذي يمسك بخناقها » إلى جانب «الامرأة العاملة » . رأى أن الحافز الرئيسي للستالينية يكمن في الدفاع عن الامتياز ، الذي كان يعطي ، وحده ، نوعاً من الوحدة لكل الجوانب المتنوعة لسياسة ستالين ، رابطاً « روحه الترميدورية » بديبلوماسيته وبانحطاط الكومنترن . إن الجماعة القائدة تحمي مصالح أقلية من محققي المكاسب في وجه الاستياء الشعبي في الداخل وصدمات صراع الطبقات الثوري في الخارج . يحلل تروتسكي التركيب الاجتماعي للجماعات التي تقود آلة الحزب ، وللموظفين وسلك الضباط ، الذين يشكلون من ١٢ الى ١٥٪ من السكان . ونحن هنا امام شريحة كثيفة ، واعية وزنها ، جعلها الامتياز محافظة ، وهي تصارع بكل قواها للحفاظ عل الوضع القائم Statu quo القومي والعالمي .

وبما ان تروتسكي لا يكتفي باتهام البيروقراطية ، فهو يبحث من جديد ليحدد كيف ولماذا حصلت على مقدرتها في الاتحاد السوفياتي ، وإذا لم يكن تفوقها عاملاً ملازماً للثورة الاشتراكية بوجه العموم . يمضي أبعد من اجوبته السابقة ، ويُبرز بشكل اكثر حدة ووضوحاً الاسباب الموضوعية لنمو اللامساواة الشديد وسط تلك المناطق الواسعة من الحاجة والفقر في الاتحاد السوفياتي . لكنه يعلن كذلك بقوة أن بعض تلك العوامل سوف تظهر في اي ثورة اشتراكية ، لأنه ما من واحدة منه ستكون قادرة على الغاء اللامساواة على الفور . حتى الولايات المتحدة ، الأغنى بين كل الامم الصناعية ، لا تنتج الى الآن ما يكفي لمكافأة العمل وفقاً للحاجات ؛ إنها تعاني حتى اللحظة من قلة نسبية سوف تضطرها ، في ظل حكومة شيوعية ، الى الابقاء على أجور ومرتبات متفاوتة ؛ وبالتالي ، فإن التوترات والنزاعات الاجتماعية ستتواصل ، علماً انها ستكون أخف بكثير مما في بلد متخلف . إذاً ستظهر نزعات التبقرط في كل مكان ، حتى بعد ثورة بروليتارية(٥٥) . ولقد كان ماركس ولينين واعيين كل ذلك . تكلم ماركس على « قوانين بورجوازية ، حامية لتوزيع لامتساو للسلع » على انها « محتومة خلال الطور الأول من المجتمع الشيوعي » . وكان لينين وصف الجمهورية السوفياتية على انها من بعض النواحي دولة بورجوازية من دون البورجوازية ، حتى لو كانت محكومة بروح الديمقراطية البروليتارية . فقط تجربة العهد الستاليني كشفت كل أبعاد المشكلة وسمحت بفحص عميق لتناقضات المجتمع اللاحق للرأسمالية . لقد اضطرت حكومة ثورية إلى الابقاء على اللامساواة والنضال ضدها ، واضطرت لفعل هذين الشيئين لأجل الاشتراكية ؛ كان عليها أن تعطي علاوات مردود للتقنيين ، والعمال المتخصصين ، والمدراء ، بهدف ضمان سير ملائم وتوسع سريع للاقتصاد ، ومع ذلك كان عليها أن تتطلع الى خفض الامتيازات والغائها النهائي .

هذا التناقض لن يمكن حله في نهاية المطاف إلا بتنام للثورة الاجتماعية يفوق كل ما أمكن البشرية ان تحلم به حتى ايامنا ، وبارتفاع مستوى التعليم الى قدر من العلو والشمولية بحيث تزول الهوة بين العمل اليدوي والعمل الذهني . لكن في غضون ذلك ، وقبل أن تستوفي هذه الشروط ، تتلبس الدولة الثورية

---

(٥٥) الثورة المغدورة ، ص ٥٧ ـ ٥٩

مباشرة ومنذ البدء طابعاً مزدوجاً : فهي اشتراكية بمقدار ما تدافع عن الملكية الاجتماعية لوسائل الانتاج ، وهي بورجوازية بمقدار ما تقود عملية توزيع متفاوتة ولا متساوية للسلع بين اعضاء المجتمع . إن الصياغة الواضحة لهذا التناقض وهذه الازدواجية على انهما ملازمان للانتقال نحو الاشتراكية ، تشكل احد الاسهامات الرئيسية التي اضافها تروتسكي للفكر الماركسي في زمنه(٥٦) .

وإذ عاد الى تحليل المجتمع السوفياتي ، سلمٌ بأنه ولينين لم يتوقعا ان دولة بورجوازية من دون البورجوازية قد تتكشف عن انعدام توافق مع ديمقراطية سوفياتية أصيلة ، وان الدولة لن تضمحل طالما ثمة **الضرورة الحديدية** لتشكيل أقلية ذات امتيازات وتعهُّدها. هكذا لم يكن تدمير الديمقراطية السوفياتية ناجماً فقط عن تآمر ستالين ، الذي لم لم يكن غير الوجه الذاتي لسيرورة موضوعية ؛ وواصل فأعلن ان الحكومة الستالينية احتفظت ، بالطابع المزدوج اللازم لكل حكومة ثورية ، لكن العنصر البورجوازي في هذه الحكومة اتخذ وزناً وقدرة عظيمين على حساب العنصر الاشتراكي . كانت البيروقراطية بفعل طبيعتها بالذات «زارعة للامساواة وحامية لها » ، تعمل على طريقة رجل شرطة يحافظ ، في حالة افتقار حاد الى السلع ، على النظام بينما تصطف جماهير واسعة تنتظر دورها امام مخازن الاغذية ؛ لكن حين يكون ثمة وفر من المؤن ، لا يعود هناك اصطفاف ، ويصبح رجل الشرطة نافلاً . ومع ذلك فان « من يوزع الخيرات لم يُغْفِل نفسه في اي من المرار » ؛ هكذا انبثق من حاجة المجتمع جهاز يتخطى من بعيدٍ وظيفته الاجتماعية الضرورية ، وبذلك اصبح عاملاً مستقلاً وفي الوقت ذاته مصدر اخطار كبيرة لكامل الجسم الاجتماعي . . . إن الفقر وأمية الجماهير يتجسدان من جديد متخذين الاشكال المهدِّدة للقائد المسلح بهراوة ضخمة(٥٧) » .

هل إن العنصر البورجوازي في الدولة السوفياتية وصل الى درجة من القوة دمّر معها العنصر الاشتراكي ؟ هكذا تساءل تروتسكي . ومرة اخرى رفض بصورة جازمة النظرة التي ترى في البيروقراطية طبقة جديدة ، أو تعتبر أن الجماهير السوفياتية خاضعة لاستغلال رأسمالية دولة . كانت رأسمالية الدولة من دون طبقة

---

(٥٦) انظر بوجه خاص المرجع المذكور سابقاً ، الفصل ٢ ، الاشتراكية والدولة .

(٥٧) المرجع المذكور ، ص ١١١ .

رأسمالية ، في عرف الماركسية ، تنطوي على تعارض في التعابير . فبشأن البيروقراطية ينقصها التجانس الاجتماعي الذي تتمتع به طبقة تدين بموقعها في المجتمع لامتلاك وسائل الانتاج وادارتها. فممارسة وظائف محض ادارية لم تحول مدراء الصناعة السوفياتية والدولة إلى هكذا طبقة ، حتى لو هم عاملوا الدولة والصناعة في آن معاً كما لو كانتا حقلهم الخاص . إن اللامساواة التي أطلقت الستالينية لها العنان ، كانت تنحصر باستمرار في دائرة الاستهلاك الخاص ، ولم يكن مسموحاً للجماعات ذات الامتيازات بأن تتملك وسائل الانتاج . وخلافاً لكل الطبقات المستغلة لم يكن في وسع هذه الجماعات ان تراكم الثورة بالشكل الذي يضمن السيطرة على عمل الاخرين ويسمح لها بأن تتملك ثروة متنامية باستمرار . حتى امتيازاتها وقدرتها كانت مرتبطة بصورة وثيقة بالملكية القومية لموارد الانتاج . هكذا إذاً ، كان عليها ان تدافع عن تلك الملكية وبالتالي ان تمارس وظيفة ضرورية وتقدمية ، من وجهة النظر الاشتراكية ، رغم واقع ان تلك الممارسة تكلف المجتمع ثمناً باهظاً .

ويواصل تروتسكي فيرى ان التوازن الاجتماعي للدولة الستالينية غير مستقر . . على المدى الطويل ، إما أن ينتصر العامل الاشتراكي أو ينتصر العامل البورجوازي ، فنمو اللامساواة المتواصل علامة خطر ، والجماعات الادارية لن تكتفي الى ما لا نهاية له بالتمتع بامتيازات المستهلك ؛ عاجلاً أو آجلاً ، ستحاول أن تشكل طبقة مالكة جديدة ، عن طريق مصادرة ملكية الدولة والتحول الى القادة المساهمين في تروستات وكونزرنات Konzerns .

> « ربما جرى الرد بأنه لاتهم البيروقراطية كثيراً اشكال الملكية المسيطرة بشرط ان تضمن له الدخل الضروري ؛ وفي هذا تجاهلٌ ، لا فقط لانعدام استقرار حقوق البيروقراطي ، بل كذلك لمشكلات الوراثة . . . فالامتيازات التي لا يمكن ان يورثها البيروقراطي لأولاده تفقد نصف قيمتها ؛ والحال ان حق الايصاء لا ينفصل عن حق الملكية . ولا يكفي ان يكون المرء مديراً للتروست ، يجب ان يكون مساهماً . وإن انتصار البيروقراطية في هذا القطاع الحاسم سيعني تحولها الى طبقة مالكة جديدة » .

ويقول تروتسكي إنه لا يمكن ستالين أن يقود هذا التحول لأن نظامه يقوم

على الملكية القومية لوسائل الانتاج وعلى اقتصاد مخطط . وبتحول البيروقراطية الى بورجوازية جديدة ، ستصل إذاً بالضرورة الى التنازع مع الستالينية ؛ وإذ كان ستالين يشجع قدرتها على الكسب ، فقد كان يحطم من دون علم منه ، لا سيطرته الخاصة وحسب بل كذلك كل مكاسب الثورة . وكان هذا الخطر يبدو لتروتسكي داهماً لدرجة أن لم يتردد في اعلان ان دستور عام ١٩٣٦ « يخلق المقدمات المنطقية السياسية لولادة طبقة مالكة جديدة » . كان يعتبر ، في الثلاثينات تماماً كما في العشرينات ، ان البيروقراطية أو قسماً من هذه البيروقراطية ، هي الاداة الكامنة لاعادة الرأسمالية . لكن في حين كان يرى فيها سابقاً مساعداً للكولاك والنيبمان ، اصبح ينظر اليها مذاك ، وبعد تصفية تينك الطبقتين ، كأداة مستقلة(٥٨) .

تبدو وجهة النظر هذه خاطئة تماماً ، إذا نظرنا إليها الآن . فبدل أن تضع البيروقراطية السوفياتية يدها على وسائل الانتاج وتتملكها ، بقيت في العقود اللاحقة حارسة الملكية الجماعية . الا أنه ينبغي ملاحظة ان تروتسكي كان يتكلم على تحول البيروقراطية الى بورجوازية جديدة على اساس ان هذا احتمال بين احتمالات عديدة ؛ وكان يهتم كثيراً بلفت النظر إلى انه لا يجب الخلط بين هذا الطابع الاحتمالي والواقع الراهن ، وشدد على ان يتصدى هنا لظاهرة ملغزة ومعقدة ولا سابق لها ، في وقت كان فيه العداء الستاليني للمساواة ورد الفعل ضد كل ما اتصفت به البلشفية في سنواتها الاولى ، يصلان الى اوجهما . لم يكن يمكن المنظِّر أن يسلّم بشيء على انه بديهي ، لكنه لم يكن في وسعه ايضاً ان يستبعد امكانية أن تطلق هذه الميول قوى مستقلة جبارة ، معادية كلياً للاشتراكية . فستالين الذي كان يجسد مزيجاً غامضاً من الاورثوذكسية اللينينية ورد الفعل ضد المبدأ الثوري ، كان يبدو انه يقود روسيا احياناً ، بالفعل ، الى حافةالعودة للنظام القديم . ولم يكن تروتسكي يشك في انه عاجز عن القيام بهذه الخطوة ، لكنه كان يخشى ان يتمكن آخرون من فعل ذلك ، وعلى انقاض ستالين عند الاقتضاء(٥٩) .

الا ان الخوف ذاته كان يتملك ستالين أيضاً ، وهذا هو السبب في انه كان

---

(٥٨) المرجع المذكور ، ص ٢٤٠ - ٢٥٧ وما بعد .

(٥٩) الثورة المغدورة ، ص ٢٣٦ - ٢٣٧ .

يستثير غيظاً ضد بيروقراطيته الخاصة به ، وبحجة مقاتلة التروتسكية والبوخارينية ، يستأصلها كما فعل اثناء التطهيرات المتعاقبة . فمن بين آثار التطهيرات أنها كانت تمنع الجماعات الادارية من توطيد مواقعها كشرائح اجتماعية . كان ستالين يشحذ غرائز الكسب لديها ثم يلوي عنقها . وكانت تلك إحدى النتائج الأكثر قتامةوالاقل نقاشاً ، ومع ذلك الاكثر أهمية ، للإرهاب الدائم . ففي حين كان الارهاب يقضي من جهة على الكادرات البلشفية القديمة ويكبح الطبقة العاملة والفلاحين ، كان يبقي ، من جهة اخرى ، جُماع البيروقراطية في حالة تميع وتموج ، مجدداً على الدوام تركيبها وغير سامح لها بالخروج من وضعها الاميبي او البروتوبلاسمي بحيث تشكل جسماً متماسكاً له القدرة على التعبير ويمتلك بالاضافة الى ذلك هويته الاجتماعية ـ السياسية . في مثل هكذا ظروف ، لم يكن في وسع الجماعات الادارية ان تصبح طبقة مالكة جديدة ، حتى لو رغبت في ذلك ، ولم يكن بامكانها ان تشرع في مراكمة رأس المال من تلقاء نفسها ، فيما كانت تتأرجح بين مكاتبها ومعسكرات الاعتقال . فمثلما كان ستالين يصفي الكولاك ، كان يصفي كذلك باستمرار جنين البورجوازية الجديدة ، وكان يتصرف بذلك مرة اخرى ، بطريقته الهمجية والأوتوقراطية وفقاً للمقدمات المنطقية التي يقبلها تروتسكي ضمنياً . في كل حال ، لم تكن تلك البيروقراطية المتطلعة لأن تكون بورجوازية نتاجاً محضاً لخيال تروتسكي ، لكنه كان يبالغ في إبراز حيويتها وقدرتها على تأكيد نفسها ، تماماً كما كان بالغ في تقدير قوة الكولاك . ومرة اخرى كان يبخس تقدير خداع ستالين ، وصلابته ، وفظاظته التي لا تلين . إن الطريقة التي كان ستالين يشجع بها العنصر البورجوازي في الدولة ويقمعه في الوقت ذاته ، كانت أمراً غريباً تماماً وحتى غير مفهوم بالنسبة لتروتسكي ، الذي كان يعتقد ، كما فعل دائماً ، انه ليس في وسع احد غير طبقة عاملة نشطة وواعية ان يكبح كل الاتجاهات المعادية للاشتراكية في الدولة .

إلا أن تروتسكي كان يدرك ايضاً أن الشغيلة السوفيات ينفرون من الانتفاض ضد البيروقراطية ، لأنهم حتى لو كانوا معادين لها بغالبيتهم الساحقة ، الا انهم كانوا يخشون « بطردهم البيروقراطية ان يفتحوا الباب امام عودة الرأسمالية . . . » كان الشغيلة يشعرون بأن « البيروقراطية مستمرة في الاضطلاع (على الاقل مؤقتاً) بوظيفة ضرورية » ، وظيفة حارس يحمي بعضاً من مكاسبهم . « سوف

يطردون حتماً هذا الحارس عديم الشرف ، والوقح ، وغير الجدير بالثقة، مذ يلمحون امكانية اخرى » . اية مفارقة ! ان الجماعة الاجتماعية ذاتها التي قد تتحول الى طبقة حاكمة جديدة وتقضي على الثورة كانت ، الى حد ما ، حامية الثورة . كان تروتسكي يعرف تماماً ان المذهبيين لن يرضيهم هكذا تقويم للوضع . « ربما كانوا يحبون صيغاً جازمة ، نعم ، نعم ، لا ، لا ، وبالطبع فان التحليل السوسيولوجي قد يغدو بسيطاً لو كان للظاهرات الاجتماعية ، دائماً ، طابع منجز » ، لكنه كان يرفض ان يدخل الحقائق بالقوة في مخطط محكم ، وان يعطي ، كُرمى للكمال المنطقي ، تحديداً منجزاً لظاهرة غير منجزة . إن المنظِّر ، الواقف امام تكوين اجتماعي حركي ، جديد كلياً ، لم يكن يستطيع ان ينتج إلا فرضيات للعمل وان يترك الاحداث تمتحن مدى صحتها(٦٠) .

كانت الاحداث قد كذّبت في الثلاثينات فرضية تحول البيروقراطية الى طبقة حاكمة جديدة ، وقد زادت على ذلك خلال الحرب العالمية الثانية وبعدها . ففي تلك الفترة ، دعمّت حاجات الدفاع القومي وتدمير النظام البورجوازي في اوروبا الشرقية والصين البنية المؤممة للاقتصاد السوفياتي تدعيماً عظيماً . فإذ حركت الدولة الستالينية الثورة في اوروبا الشرقية وآسيا ، أو ساعدتها ، لأسباب خاصة بها ، خلقت عقبات عظيمة في وجه الميول البورجوازية الكامنة فيها . فتصنيع ما بعد الحرب ، والتوسع لهائل للطبقة العاملة السوفياتية وتطور تعليم الجماهير ، بالاضافة الى الثقة بالذات التي شرعت تولد من جديد في نفوس الشغيلة ، كل ذلك كان يميل الى قمع العنصر البورجوازي في الدولة ، وقد اضطرت الدولة بعد وفاة ستالين الى تقديم التنازل تلو التنازل للمساواة بين الجماهير . لا شك ان التوترات بين العناصر الاشتراكية والعناصر البورجوازية في الدولة استمرت ، ولما كانت ملازمة لبنية كل مجتمع لاحق للرأسمالية ، فهي ستستمر بالضرورة خلال حقبة طويلة جداً . بقي المديرون والتقنيون والعمال المتخصصون مجموعات ذات امتيازات ، لكن الهاوية بينهم وبين الجمهور الواسع من الكادحين ضاقت في منتصف الخمسينات وفي بداية الستينات . هكذا إذاً يختلف توازن العناصر المتعارضة في الدولة اختلافاً كبيراً عما كان حين كتب تروتسكي **الثورة المغدورة** . ان تروتسكي ذاته استبق هكذا تطوراً حين كتب :

---

(٦٠) الثورة المغدورة ، ص ٢٤١ ـ ٢٤٢ ـ ٢٦٩ ـ ٢٧٠ .

« ينمو اتجاهان متعارضان داخل النظام ، لأنه بتطويره وتنميته للقوى المنتجة ـ على النقيض من الرأسمالية الراكدة ـ يخلق الاسس الاقتصادية للاشتراكية . وهو ، بمحاباته للمسؤولين وذهابه بالقواعد البورجوازية في التوزيع إلى ابعد الحدود ، يهيىء لعودة الرأسمالية . ان هذا التناقض بين اشكال الملكية وقواعد التوزيع لا يستطيع ان ينمو دونما نهاية ، فلا بد من أن تمتد القواعد البورجوازية بهذا الشكل أو بشكل آخر الى وسائل الانتاج أو أن تتوافق القواعد الاشتراكية مع الملكية الاشتراكية[٦١] » .

هذا المسار الاخير هو ما ستتبعه الاحداث بعد عشرين او خمسة وعشرين عاماً ، حين بدأ خلفاء ستالين ، رغماً عنهم ، لكن بصورة فعلية مع ذلك ، يوفقون اكثر فأكثر بين نظام الملكية الاشتراكية وقواعد التوزيع . هكذا فإن فرضية تروتسكي المتعلقة بصعود طبقة مالكة جديدة تبدو مغالية في تشاؤمها ، حتى اذا كانت تعكس آنذاك وضعاً بدا الميزان فيه يميل بقوة ، وبصورة خطرة ، على حساب العناصر الاشتراكية ؛ الا انه رغم ذلك التشاؤم ، يقدم تحليل تروتسكي للتناقضات الحركية للدولة ما بعد الثورية افضل دليل الى الآن للتطور الاجتماعي اللاحق .

ضد هذه « الفئة المغلقة من السادة الجشعين ، والكاذبة والوقحة » ، ضد هذا الجنين لطبقة مالكة جديدة ، صاغ تروتسكي برنامجه للثورة السياسية ، في الاتحاد السوفياتي . كتب يقول :

« ليس من حل سلمي ، فالبيروقراطية السوفياتية لن تتخلى عن مواقعها من دون معركة . . . لم ير أحد حتى الآن الشيطان يقضم مخالبه بكامل رضاه . . . » « كان على بروليتاريا بلد متخلف ان تقوم بالثورة الاشتراكية ، الأولى ، وإن عليها ، على الارجح ، ان تدفع ثمن هذا الامتياز التاريخي ثورةً اضافية ضد الاستبداد البيروقراطي » .

وقد دعا الى « **ثورة سياسية لا الى ثورة اجتماعية** » ، اي ثورة تطيح النظام الستاليني للحكم لكنها لا تبدل علاقات الملكية القائمة[٦٢] .

---

(٦١) المرجع المذكور ، ص ٢٣١ ـ ٢٣٢ .

(٦٢) المرجع المذكور ، ص ٢٧١ ـ ٢٧٢ .

كان ذلك منظوراً جديداً تماماً : فالماركسيون لم يتخيلوا يوماً انه سيكون عليهم ، بعد ثورة اشتراكية، ان يدعوا الشغيلة للانتفاض من جديد ، لأنهم اعتبروا أمراً نهائياً ان دولة عمالية لا يمكن ان تكون غير ديمقراطية بروليتارية ، بينما برهن التاريخ ، الآن ، ان الامر ليس على هذا المنوال ، وانه مثلما خلق النظام البورجوازي العديد من اشكال الحكومات ، من ملكية وجمهورية ودستورية واوتوقراطية ، هكذا ايضاً يمكن ان توجد اشكال سياسية متعددة للدولة العمالية ، تنطلق من الاستبدادية البيروقراطية لتصل الى الحكم القائم على المجالس الديمقراطية . ومثلما كان على البورجوازية الفرنسية ان « تكمل » الثورة الاجتماعية للاعوام ١٧٨٩ ـ ١٧٩٣ بالثورتين السياسيتين في عامي ١٨٣٠ و١٨٤٨، اللتين جرى خلالهما تبديل الجماعات الحاكمة ، لا بنية المجتمع الاقتصادية ، هكذا فإن على الطبقة العاملة ، هي ايضاً ، ان « تكمل » ثورة اوكتوبر . كانت البورجوازية قد تصرفت بصورة متماسكة من ضمن مصلحتها الطبقية ، حين اكدت نفسها في وجه قادتها المستبدين ، وسوف تفعل الطبقة العاملة الشيء نفسه بصورة شرعية ، عن طريق تحرير دولتها من القبضة المستبدة التي تخنقها . هذا النوع من الثورة السياسية لا علاقة له طبعاً ، بأعمال الارهاب . « ان الارهاب الفردي هو سلاح الافراد نافدي الصبر والبائسين الذين ينتمون في أغلب الأحيان لجيل البيروقراطية الشاب » . أما بالنسبة للماركسيين ، فمن المسلمات ان عليهم الا يقوموا بثورة إلا اذا كانوا يحصلون على الدعم المكشوف لغالبية الشغيلة . من هنا ، لم يكن تروتسكي يطلق نداء الى العمل الفوري ، لأنه طالما يجد الشغيلة في البيروقراطية حارسة لمكاسبهم ، لن ينتفضوا ضدها . كان تروتسكي يقدم فكرة ثورة ، لا شعارها ، توجهاً على المدى الطويل للنضال ضد الستالينية لا دليلاً للعمل المباشر .

هاكم الطريقة التي صاغ بها برنامج تلك الثورة :

> « ليست الغاية ان نبدل عصبة حاكمة بعصبة اخرى ، ولكن الهدف هو تغيير طرق الادارة الاقتصادية والثقافية نفسها ، كما ينبغي للتعسف البيروقراطي أن يخلي مكانه للديمقراطية السوفياتية . ان إعادة حق النقد والحرية الانتخابية الحقيقية شرطان ضروريان لتطوير البلاد ، كما ان عودة حرية الاحزاب السوفياتية ، بدءاً من حرية الحزب البلشفي ، وبعث حرية النقابات أمران مطلوبان . فالديمقراطية تقودنا في الاقتصاد الى اعادة

النظر جذرياً في كل الخطط لصالح الشغيلة ، كما ان المناقشة الحرة للمسائل الاقتصادية ستخفف من النفقات العامة التي فرضتها اخطاء البيروقراطية وتعرجاتها . فلا بد من ان نستبدل المشاريع الضخمة وقصور السوفيات والمسارح الجديدة والمتروات المبنية للادهاش ، بالمساكن العمالية . اما « مقاييس التوزيع البورجوازية » فينبغي ان يعاد النظر فيها وتتحكم الضرورة بنسبها وفروقها الى ان تحل محلها المساواة الاشتراكية مع ازدياد الثروة الاجتماعية . اما الرتب فينبغي الغاؤها فوراً، ويستغنى عن الاوسمة . عندها تستطيع الشبيبة ان تتنفس بحرية وان تنتقد وان تخطىء وتنضج ، وينفض العلم والفن اغلالهما، كما ان السياسة الخارجية تعيد علاقاتها مع تقاليد الاممية الثورية[٦٣] » .

وقد جدد كل التمنيات المألوفة للفترة التي كان لا يزال يجعل من نفسه فيها بطل الاصلاحات ؛ وهو لا يأخذ منطلقاً جديداً الا في نقطة واحدة ، في مطالبته بحرية انتخابية حقيقية . الا انه كان عليه ان يواجه هنا مأزقاً : لقد نحّى مبدأ الحزب الواحد ، لكنه لم يناد بحرية الاحزاب غير المشروطة . عاد الى صيغة سابقة لعام **١٩٢١** ، فتكلم على « إعادة إرساء حرية الأحزاب السوفياتية » « التي كانت قد وضعت نفسها في مواقع ثورة اوكتوبر » . لكن من كان عليه ان يحدد أيا منها كانت احزاباً سوفياتية ، وأيّا لم تكن ؟ هل كان سيجري ، مثلاً ، السماح للمناشفة بالاستفادة من اعادة إرساء تلك الحرية ؟ لقد ترك هذه المسائل معلقة ، ولا ريب انه فعل ذلك لأنه كان يعتقد انه لا يمكن تسويتها سلفاً ، من دون مراعاة الظروف ؛ وقد أبدى النوع ذاته من الاحتراس حين ناقش قضية المساواة . فهو لم يتكلم على اي نوع من الغاء قواعد التوزيع البورجوازية ؛ كان يجب الابقاء على هذه القواعد ، لكن فقط ضمن النسب الدقيقة التي تفرضها الضرورة ، وسيجري الاستغناء عنها تدريجياً مع نمو الثروة الاجتماعية . إذاً كانت الثورة السياسية ستترك بعض الامتيازات للمدراء والتقنيين والعمال المتخصصين ، وبما انه كان يحصل احياناً ان يتكلم في مساجلاته ، بصورة فضفاضة طليقة ، على « اطاحة » البيروقراطية و « إلغائها »، فإن هذا الشرح يعيد وضع المشكلة في منظور اكثر واقعية . إن ما كان يتصوره بهدوء وصفاء ، إنما هو تضييق صارم ، لا الغاء ،

---

(٦٣) المرجع المذكور ، ص ٢٧٣ .

للامتياز البيروقراطي والاداري .

بعد اكثر من ربع قرن من صياغة هذا البرنامج ، احتفظ بكل راهنيته ، ومعظم الافكار التي يضمها ظهرت مجدداً في حركة الاصلاح ما بعد الستالينية . الا انه ينبغي طرح مسألة معرفة ما اذا كان تروتسكي ، بإلحاحه على ضرورة ثورة سياسية في الاتحاد السوفياتي ، لم يتصور منظوره هذا بصورة دوغمائية للغاية ، ولم يعط ، خلافاً لنصائحه ، هو ، تحديداً جاهزاً جداً لسيرورة غير منجزة . ان مضمون **الثورة المغدورة** يبين بشكل كاف انه لم يكن يرى أي حظ للاصلاح من فوق ، وفي الواقع انه لم يكن في حياته وفي ما تبقى من الحقبة الستالينية اي حظ من هذا النوع ؛ كما انه لم يكن هناك اي حظ ، خلال الحقبة ذاتها ، للثورة السياسية . فخلالها بقيت الامور في النقطة الميتة ، وكان مستحيلاً قطع معضلات الستالينية العويصة أو حلها . كان اي برنامج تغيير وهمياً ، سواء كان ثورياً أو كان اصلاحياً . لكن ذلك لم يكن يمنع مناضلاً كتروتسكي من السعي للخروج من تلك الورطة ، لكن سعيه بقي يدور ضمن حلقة مفرغة ، لم تبدأ بقطعها بعد سنوات الا الاحداث التي هزت العالم . وحين حدث ذلك ، ابتعد الاتحاد السوفياتي بادىء ذي بدء عن الستالينية بإصلاح من اعلى ، وما ادى بالقوة الى هذا الاصلاح ، انما هو العوامل التي راهن تروتسكي عليها بالضبط : التطور الاقتصادي ، الرقي الثقافي للجماهير ، ونهاية العزلة السوفياتية . ما كان يمكن القطع مع الستالينية أن يكون إلا جزئياً ، بما انه لم تكن توجد في نهاية الحقبة الستالينية ـ وما كان يمكن ان توجد ـ اية قوة سياسية قادرة على العمل بصورة ثورية وراغبة في ذلك . اضف الى ذلك ، انه خلال العقد الاول الذي تلا وفاة ستالين ، لم تصعد من القاعدة اية حركة جماهيرية مستقلة وقادرة على إسماع صوتها ، حتى لأجل الاصلاح ؛ وبما أن الستالينية كانت قد غدت مفارقة تاريخية من وجهة النظر القومية والاممية ، وكانت قد غدت القطيعة معها ضرورة تاريخية بالنسبة للاتحاد السوفياتي ، فقد كان على الجماعة القيادية ان تتخذ بذاتها المبادرة الى تلك القطيعة . هكذا بدأ خلفاء ستالين ، بنوع من سخرية التاريخ ، يصفّون الستالينية ، جاعلين بذلك بالذات من انفسهم ، المنقذين رغماً عنهم لبعض اجزاء وصية تروتسكي السياسية[٦٤] .

---

(٦٤) اشرت الى هذا الظرف في كتابي ، روسيا بعد ستالين ، ١٩٥٣ ، وفي العديد من المقالات المنشورة في =

لكن هل يمكنهم مواصلة هذا العمل وانجازه ، أو أن ثورة سياسية لا تزال ضرورية ؟ في الظاهـر أن حظوظ قيام ثورة لا تزال ضئيلة بقدر ما كانت كذلك في حياةتروتسكي ، بينما إمكانات القيام بإصلاحات هي اكثر واقعية بكثير . إن شروط ثورة ما كما صاغها لينين هي التالية : أ ـ ألا يكون القادة قادرين على الحكم كما اعتادوا أن يفعلوا ؛ ب ـ أن يرفض المحكومون، بفعل بؤسهم ويأسهم وغيظهم ، مواصلة الحياة كما في السابق ؛ ج ـ ان يوجد حزب ثوري قادر على تجربة حظه وعازم جدياً على أن يفعل ذلك . وليس معقولاً إطلاقاً أن تتوفر هذه الشروط بصورة ملموسة في بلد مزود باقتصاد مفعم حيوية ومتوسع ، وحيث يرتفع مستوى المعيشة ، بلد تحصل فيه الجماهير على التعليم بصورة لا سابق لها وترى كيف تنفتح امامها آفاق تقدم اجتماعي ثابت . في هكذا أمة ، سوف يولِّد كل نزاع بين التطلعات الشعبية وأنانية جماعة قيادية ، على الارجح ، ضغوطاً لأجل اصلاح متواصل ، بدل ان يؤدي الى انفجار ثوري . هكذا يمكن ان يعطي التاريخ الحق لتروتسكي ناضل خلال اثني عشر عاماً او ثلاثة عشر من اجل الاصلاح ، بدل اعطاء الحق لتروتسكي دعا خلال سنواته الاخيرة الى الثورة .

ليس في ذلك ، بالتأكيد ، غير محاولـة الخرُوج بـاستنتاج : إن معضلة البيروقراطية في بلد عمالي هي ، في الواقع ، مستجدة ومعقدة ، بحيث لا تسمح بالوصول الى قناعات اكيدة إطلاقاً ، أو لا تسمح إلا ببلوغ القليل القليل من هذه القناعات . لا يسعنا ان نحدد سلفاً إلى اين ستمضي البيروقراطية في تنازلاتها عن الامتيازات ، اي قوة وأية فعالية يمكن ان يتخذ الضغط الشعبي لأجل الاصلاح ، في ظل نظام الحزب الواحد ، واذا كان نظام وحيد الاتجاه يمكن ان ينـحل تدريجياً ويتحول الى نظام يسمح بحرية التعبير وبالتجمع على اساس اشتراكي .

= نهاية الحقبة الستالينية . وقد كرس التروتسكيون الاميركيون آنذاك عدداً كاملاً من صحيفتهم النظرية The Fourth International (شتاء ١٩٥٤) حول موضوعة TroTsky Or Deuthscher ، وقد شهّر بي جيمس پ . كانون ، قائدهم ، بعبارات حادة . فقد كنت بنظره التحريفي وبرنشتاين التروتسكية . كانت خطيئتي أني توقعت أن السنوات اللاحقة لن تشهد اي حظ لثورة سياسية في الاتحاد السوفياتي ، وان فترة من الاصلاحات من فوق في طور الانفتاح (وقد كانت تلك بالضبط الخصيصة الرئيسية للعقد الاول الذي تلا وفاة ستالين) . ركزت حجتي interalia على واقع ان إبادة كل المعارضات ، ولا سيما المعارضة التروتسكية ، تركت المجتمع السوفياتي عديم الشكل ، وعاجزاً سياسياً عن التعبير وعن اتخاذ مبادرات سياسية من القاعدة . ولقد كان غريباً أن يجهل التروتسكيون في الغرب الى هذا الحد واقع استئصال التروتسكيين (وبلاشفة آخرين معادين لستالين) في الاتحاد السوفياتي .

الى أي حد تخف التوترات الاجتماعية الملازمة للتراكم الاشتراكي البدائي أو تلتغي حين يفقد التراكم طابعه البدائي ، والقسري ، والقائم على التناقض ؟ الى اي حد يخفف رفع مستوى الرفاه الشعبي والتعليم التضادات بين البيروقراطية والشعب ؟ إن التجربة وحدها ، التي ربما كانت تنطوي على مفاجآت اكبر عدداً من تلك التي يمكن ان تحلم بها أية فلسفة ، هي التي ستقدم الجواب عن ذلك . في كل حال ، يفضل كاتب هذه السطور أن يسلم الأمر ، بما يخص الحكم النهائي على تروتسكي وفكرة الثورة السياسية لديه ، الى مؤرخ الجيل القادم .

ينبغي الاشارة هنا الى إعادة النظر التي قام بها تروتسكي في **الثورة المغدورة** لمفهومه عن الترميدور السوفياتي . كنا وصفنا ، في مؤلَّف سابق ، الاهواء والغليانات التي أثارتها هذه المماثلة التاريخية الصعبة في الحزب البلشفي خلال العشرينات ، وقلنا انه كانت في ذلك حالة حيث Le Mort saisit Le vif(٦٥) . بعد ذلك بعشر سنوات تقريباً ، نجد تروتسكي تحت سقف بيت ريفي في النروج ، يصارع باستمرار هذا الشبح الفرنسي لعام ١٧٩٤ . ونذكر انه طالما كان يرفع راية الاصلاح في الاتحاد السوفياتي ، رفض التصور (الذي كان تصور المعارضة العمالية في الاصل) الذي كان يرى ان الثورة الروسية دخلت في طور ترميدوري أو ما بعد ترميدوري من الانحدار . كان يؤكد أن الترميدور هو الخطر الذي تحبل به سياسة ستالين ، لكنه لم يكن قد غدا امراً ناجزاً . ودافع عن هذا الموقف ، سواء في وجه اصدقاء او في وجه اعداء ، خلال السنوات الأولى من نفيه . الا انه إذ قرر أن على المعارضة أن تصبح حزباً مستقلاً وأن الثورة السياسية محتومة في الاتحاد السوفياتي ، عاد عما سبق ان قاله واعلن ان الاتحاد السوفياتي يعيش منذ مدة طويلة في حقبة ما بعد ترميدورية(٦٦) .

كان يسلِّم بأن هذه المماثلة التاريخية فعلت لبلبلة الاذهان اكثر مما

---

(٦٥) النبي الاعزل . بالفرنسية في النص الانكليزي الاصلي ، ومعناها ان الوريث يحصل فوراً على املاك الميت (م) .

(٦٦) كانت المرة الاولى التي اعاد تروتسكي فيها النظر بمماثلته مع الترميدور في بحث بعنوان **الدولة العمالية ، والترميدور والبونابرتية** ، كُتب في الردح الاخير من اقامته في فرنسا ونشر في الـ **B.O** ، العدد ٤٣ ، نيسان / ابريل ١٩٣٥ . وكان هذا البحث ينطوي على المحاجة الرئيسية **للثورة المغدورة** .

لإنارتها ؛ الا انه استمر في تعميقها . ادعى انه ، هو واصدقاؤه ، اخطأوا حين اعتقدوا ان الترميدور يعادل ثورة مضادة وعودة الى النظام القديم ، وبما أنهم حددوه هكذا فقد كانوا على حق حين ألحوا على واقع انه لم يحدث اي ترميدور في روسيا . لكن التحديد كان خاطئاً ومضاداً للتاريخ ، إذ لم يكن الترميدور الاصلي ثورة مضادة ، بل فقط « طوراً من الردة داخل الثورة » . فالترميدوريون لم يدمروا الاساس الاجتماعي للثورة الفرنسية ، اي العلاقات الجديدة للملكية البورجوازية التي اتخذت شكلها في ١٧٨٩ ـ ١٧٩٣ ، لكنهم اقاموا على تلك القاعدة حكومتهم المضادة للشعب وهيؤوا المسرح للقنصلية والامبراطورية . لقد حدثت سلسلة من الاحداث المشابهة في الاتحاد السوفياتي منذ عام ١٩٢٣ ، حين الغى ستالين المعارضة اليسارية واقام نظامه المضاد للبروليتاريا على الاسس الاجتماعية لثورة اوكتوبر . وواصل تروتسكي تحليله ، وعيناه مستمرتان في النظر الى روزنامة الثورة الفرنسية ، فقال إنه لما كان حكم ستالين قد اتخذ طابعاً بونابرتياً ، فلقد كان الاتحادالسوفياتي يعيش فترة القنصلية الخاصة به . ضمن هذا المنظور ، كان خطر عودة النظام القديم حقيقياً بما فيه الكفاية . ففي فرنسا ، انقضت عشرون سنة بين الترميدور وعودة آل بوربون وكان النداء الذي اطلقه تروتسكي لأجل ثورة جديدة وعودة الى الديمقراطية السوفياتية يتطابق مع الصيحة التي اطلقها تآمر المتساوين لأجل عودة الى الجمهورية الأولى .

هكذا كان تروتسكي يغوص أعمق فأعمق في ذلك الاسترجاع لأشباح الماضي الذي كان ماركس يعتبره ملمحاً خاصاً بالثورات البورجوازية . فالبوريتانيون الانكليز استحضروا اشباح انبياء العهد القديم ، واليعاقبةُ أبطالَ روما الجمهورية وفضائلها ، وبذلك لم يكونوا يكتفون ، حسب تعبير ماركس ، بـ « المحاكاة الساخرة للماضي ، بل كانوا يناضلون بصورة اصيلة ليعيدوا اكتشاف روح الثورة[٦٧] » . كان ماركس واثقاً من أن ثورة اشتراكية لن تحتاج لاستعارة أزيائها من الماضي ، لأنها ستكون على وعي تام بطابعها وبهدفها . وفي الواقع ان البلاشفة لم « يتزيوا » بتلك الثياب ، عام ١٩١٧ ، ولم يستخدموا الابهة الفارغة للثورات السابقة ورموزها . الا انهم استمدوا ، فيما بعد ، من اليعقوبية كل كوابيسهم ومخاوفهم ، كوابيس التطهيرات والمخاوف من الترميدور ؛ وقد

---

(٦٧) ١٨ برومير لويس بونابرت .

جاءت افعالهم الخاصة بهم وتخيلاتهم تضخم تلك الكوابيس والمخاوف . ولم يكن ذلك نتيجة محاكاة صرفة ، بل نتيجة انهم كانوا إزاء اوضاع صعبة ومشابهة ، وكانوا يسعون لحلها بشكل مختلف . استجوبوا تجارب الماضي القاتمة كي يتحاشوا تكرارها ، ومع أنه صحيح القول ان البلاشفة لم يفلتوا من اهوال الاقتتال الاخوي داخل صفوفهم، إلا أنه يجب ان نضيف انهم نجحوا في تحاشي اجتياز كل الدورة المشؤومة التي قادت اليعقوبية الى نهايتها المأساوية والثورة الفرنسية الى ضياعها . كان الخوف من الترميدور الذي هجس به البلاشفة ارتكاسة دفاع عن النفس وحماية للذات،لكن الارتكاسة كانت تفعل في الغالب بصورة لاعلاقلانية ، وكان تروتسكي يسلمٌ الآن بأن المعارضة دقت جرس الانذار طوال اكثر من عشر سنوات بصدد الترميدور دون ان ترى بوضوح المعنى الذي كان الترميدور السابق يمثله . الا انه هل كان ، من جانبه ، أكثر وضوحاً بصدد هذا الموضوع الآن ؟

كان الترميدور الأصلي أحد الاحداث ذات الوجوه الاكثر تعدداً ، والاكثر تعقيداً ، والاكثر تلغيزاً في التاريخ الحديث ، وهذا يفسر جزئياً البلبلة السائدة بهذا الصدد . لقد اطاح الترميدوريون روبسبيير بعد سلسلة من الصراعات الدموية الداخلية ، التي دمر خلالها روبسبيير ، الذي كان يقود جناح الوسط في حزبه ، كلاًّ من يمينه ويساره ، اي الدانتونيين والهيبيرتيين في آن معاً . وقد مثلت نهاية حكمه سقوط تكتله والحزب اليعقوبي بوجه عام . فبعد الترميدور بوقت قصير ، جرى تشتيت نادي اليعقوبيين وتوقف عن الوجود . احل الترميدوريون محل حكم روبسبيير الارهابي حكم النظام والقانون ، وأنزلوا هزيمة نهائية بشعبيي باريس ، الذين عانوا في كل حال ، من قبل ، من ضربات عديدة . ألغوا التوزيع شبه المتساوي للغذاء الذي كان روبسبيير حافظ عليه ، عن طريق تحديد أسعار الحد الأقصى . مذاك كانت البورجوازية حرة في ان تتاجر بربح ، وتجمع ثروات وتكسب السيطرة الاجتماعية التي ستحتفظ بها حتى في ظل الامبراطورية . هكذا انتقل النظام الثوري ، على خلفية جَزْر للطاقات الثورية ، وزوال اوهام الجماهير وخمودها ، من طوره الشعبي الى طور مضاد للشعب .

يكفي أن نرسم باقتضاب هذه الوجوه المختلفة للترميدور كي نرى الى اي حد كان تروتسكي مخطئاً حين اكد ان روسيا مرت بتروميدورها عام ١٩٢٣ . لم تكن هزيمة المعارضة خلال ذلك العام تشكل بأي صورة من الصور حدثاً شبيهاً

بانهيار الحزب اليعقوبي وحله ؛ لقد كانت تتوافق بالاحرى مع هزيمة اليعاقبة اليساريين ، التي تمت قبل الترميدور بكثير . ففي حين كتب تروتسكي **الثورة المغدورة** ، كان الاتحاد السوفياتي على اعتاب المحاكمات الكبرى ، او **التطهيرات** . اما في فرنسا فكانت **التطهيرات** جزءاً لا يتجزأ من الحقبةاليعقوبية . ففقط بعد سقوط روبسبيير ، توقف استخدام المقصلة . كان الترميدور ، في الواقع ، انفجاراً يائساً ضد التطهير المتواصل ، وكان معظم الترميدوريين دانتونيين سابقين وهيبرتيين سابقين بقوا على قيد الحياة بعد المجازر التي تعرض لها جناحهم . ان وضعاً مماثلاً لهذا في روسيا ، كان تطلب انقلاباً ناجحاً ضد ستالين ، تقوده بعد محاكمات ١٩٣٦ ـ ١٩٣٨ بقايا المعارضتين التروتسكية **والبوخارينية** .

وثمة فرق آخر اكثر اهمية ايضاً : فالترميدور وضع حداً لتحويل المجتمع الفرنسي ولزعزعة اسس الملكية ؛ اما في الاتحاد السوفياتي ، فلم يتوقف ذلك مع ارساء هيمنة ستالين . على العكس ، فإن الهزات الاكثر عنفاً ، وتجميع الزراعة ، تمت في ظل حكمه ، ولم يكن النظام ولا القانون ، حتى بشكل معاد للشعب ، هما اللذان سادا ، سواء في عام ١٩٢٣ ، او في فترة أخرى من الحقبة الستالينية . إن ما كانت تشترك به بداية العشرينات مع الحقبة الترميدورية ، كان انحسار طاقات الشعب الثورية ، واحباط الجماهير وخدرها ، وفي هكذا سياق حاول روبسبيير ان يبقي في السلطة بقايا الحزب اليعقوبي وفشل ، بينما حاول ستالين ان يحتفظ بديكتاتورية بقايا الحزب البلشفي (اي كتلته الخاصة به) ونجح في ذلك .

لا شك أنه كانت هنالك رائحة ترميدورية في لا مساواتية ستالين ، لكن ألم تكن تلك الرائحة موجودة ايضاً في النيب التي كان وراءها لينين ؟ من المثير للفضول ان يلاحظ المرء انه حين وصف المناشفة عام ١٩٢١ النيب بهذه العبارات : « الترميدور السوفياتي » ، لا لينين ولا تروتسكي احتجا على ذلك . على العكس ، هنآ نفسيهما بأنهما انجزا شيئاً مماثلاً للترميدور بصورة سلمية ، دون ضرب وحدة حزبهما ودون فقدان السلطة . وكتب تروتسكي عام ١٩٢١ يقول انه « ليس المناشفة ، بل نحن الذين صغنا هذا التشخيص ، وما هو أهم من ذلك ايضاً أن التنازلات لمزاج البورجوازية الصغيرة وميولها الترميدورية ، وهي تنازلات ضرورية للحفاظ على سلطة البروليتاريا ، جرى تقديمها على يد الحزب

الشيوعي ، دون إحداث كِسْر في النظام ودون التخلي عن دفة المركب[٦٨] » . وستالين ، هو ايضاً ، قدم تنازلات الى ابعد الحدود « للأمزجة والميول الترميدورية الخاصة » ببيروقراطيته وجماعاته الادارية ، دون كسْر في النظام ودون التخلي عن دفة المركب . في كل حال ، إن مماثلة تاريخية دفعت تروتسكي ، عام ١٩٢١ ، الى امتداح النفس تقريباً بأنه نفذ ، هو ولينين ، نصف ترميدور ، ثم الى انكار ان يكون اي ترميدور سوفياتي قد حصل ، واخيراً في عام ١٩٣٥ ، إلى التأكيد بأن الاتحاد السوفياتي عاش منذ اثني عشر عاماً في ظل الترميدور ، دون ان يكون هو ذاته ، اي تروتسكي ، قد أدرك ذلك . إن هكذا مماثلة كانت تساهم في بلبلة الاذهان بدل أن تنيرها . كان يمكن تروتسكي ان يطلق بوجه ستالين اتهاماً اكثر صحة تاريخية بكثير مفاده ان هذا اقام حكم ارهاب يشبه حكم روبسبيير ، وتجاوز روبسبيير بصورة بالغة البشاعة .

الا ان ماضي تروتسكي الخاص به والتراث البلشفي لم يكونا يسمحان له بقول ذلك . ينبغي تذكر انه حين انفصل للمرة الاولى عن البلشفية في عامي ١٩٠٣ ـ ١٩٠٤ ، اطلق الاتهام باليعقوبية ضد لينين ، وفي الرد الذي قدمه لينين قبل باعتزاز هوية اليعقوبي البروليتاري للقرن العشرين[٦٩] . كان الرجلان يفكران بروبسبيرين مختلفين : لينين بذلك الذي ضمن انتصار الثورة ضد الجيروند ، وتروتسكي بذلك الذي ارسل رفاقه الى المقصلة . وليس فقط في نظر لينين ، بل كذلك في نظر معظم الماركسيين الغربيين ، امّحى صانع التطهيرات بعد قرن خلف الرجل العظيم غير القابل للافساد الذي يتم تبجيله في بانتيون الثورة . لقد أسف تروتسكي البلشفي ان يكون اطلق الاتهام ضد لينين بأنه روبسبيير ، وكان يحذر الآن ان يطلقه ضد ستالين ، لأنه قبل في غضون ذلك تمجيد البلشفية لليعقوبية ، وكان يماثل نفسه ، ضمنياً ، بروبسبيير ، وأدى به ذلك الى ان يرى في اعدائه ترميدوريين ، بينما لم يكونوا كذلك اطلاقاً . صحيح ان صيحات الانذار التي اطلقها فعلت الكثير لايقاظ كل البلاشفة ، بمن فيهم الستالينيون ؛ زد على ذلك ان شيئاً من الجو الترميدوري لا يزال موجوداً في الاتحاد السوفياتي ، وهذا الشيء موجود (مع العنصر البورجوازي وقواعد التوزيع البورجوازية) في كل

---

(٦٨) تروتسكي ، بين الاحمر والابيض ، ص ٧٧ (انجز تروتسكي كتابة هذا الكتاب في شباط /فبراير ١٩٢٢) .
(٦٩) انظر النبي المسلح .

دولة عمالية . وبالنسبة الينا ، نحن الذين رأينا في الاربعينات والخمسينات الثورة الروسية ، بكل قوتها المتقلبة ، تتخطى الثورة الفرنسية كثيراً باتساعها وديناميتها ، ثمة ما يدهش في هذا الـ Quid pro quo* ، الذي توصل به الشبح الترميدوري الى أن يتيه على مسرح روسيا السياسي ويبقى على ذلك المسرح طوال حقبة كاملة من التاريخ .

إن التشاؤم الحقيقي والظاهر الذي نجده في اساس **الثورة المغدورة** ، يظهر كذلك في الصفحات التي حاول فيها تروتسكي أن يتوقع ما سيكون تأثير الحرب العالمية الثانية على الاتحاد السوفياتي . لاحظ ان النظام الاجتماعي الجديد « قدم للدفاع القومي ميّزات لم يكن بامكان روسيا القديمة حتى ان تحلم بها » ، وانه يسهل نسبياً ، في اقتصاد مخطط ، الانتقال من الانتاج المدني الى الانتاج الحربي ،و« وضع النفس ، من وجهة نظر الدفاع ، في بناء منشآت جديدة وتجهيزها » . أبرز التقدم الذي حققته القوات المسلحة السوفياتية في كل فروع التسليح الحديث ، واعلن انه يمكن اعتبار « العلاقة بين القوة الحية والقوة التقنية للجيش الاحمر على مستوى افضل الجيوش الغربية[٧٠]» . لم تكن تلك النظرة ، في عام ١٩٣٦ ، نظرة يقبلها عموماً الخبراء العسكريون الغربيون ، ولا شك أن القوة التي كان تروتسكي يعبر بها عن ذلك كانت محسوبة للتأثير على الحكومات وهيئات الاركان العامة الغربية . لكنه كان يرى نقاط الضعف في الدفاعات السوفياتية في الروح الترميدورية لسلك الضباط ، والبنية الهرمية الصارمة للجيش ، التي حلت محل تنظيمه الثوري الديمقراطي ، وفوق كل شيء في سياسة ستالين الخارجية . أكد ان ستالين ، الذي اهمل الخطر الذي يمثله الرايخ الثالث ، كان يثق الآن بصورة جوهرية ، بهدف مواجهة ذلك الخطر ، بالتحالفات مع الحكومات البورجوازية الغربية ، وبعصبة الامم والامن الجماعي ، وكلها أمور سيمتنع لأجلها ، في حالة الحرب ، عن اطلاق نداء ثوري اصيل للفلاحين والعمال المسلحين في الامم المتحاربة .

تساءل تروتسكي :

« هل يمكن أن نأمل أن يخرج الاتحاد السوفياتي من الحرب

(*) سوء التفاهم (م) .

(٧٠) الثورة المغدورة ، ص ١٩٦ - ١٩٧ .

الكبرى الآتية من دون هزيمة ؟ فلنجب بشرف عن سؤال مطروح بشرف كلي . إذا اقتصرت الحرب على كونها حرباً ، فستكون هزيمة الاتحاد السوفياتي محتومة . فمن زاوية التقنية والاقتصاد والفن العسكري ، تُعد الامبريالية اقوى من الاتحاد السوفياتي بما لا يقاس ؛ فإذا لم تشلّها الثورة في الغرب ، سوف تأخذ في طريقها النظام المنبثق من ثورة اوكتوبر[٧١] » .

وقبل أزمة ميونيخ بكثير ، كان تروتسكي يلاحظ أن فرنسا تتعامل مع تحالفها والاتحاد السوفياتي كـ « خرقة ورق » ، وسوف تواصل فعل ذلك مهما تكن جهود ستالين لضمان هذا التحالف عن طريق الجبهة الشعبية . وقد لا يصبح هذا التحالف حقيقياً إلا إذا قدم ستالين تنازلات اكبر بكثير امام الضغوط السياسية والاقتصادية للفرنسيين والانكليز والاميركيين . لكن حتى حينذاك ، سيستفيد **الحلفاء من صعوبات الاتحاد السوفياتي المنخرط في الحرب، ويحاولون تحطيم** الاسس الاشتراكية لاقتصاده وانتزاع تنازلات لصالح الرأسمالية ، ذات أهمية عظيمة . في الوقت ذاته ، ستهدد فردية الفلاحين ، التي ايقظتها الحرب ، بأن تدفع الزراعة المجمّعة الى الانهيار . وخلص تروتسكي الى القول إن كل هذه الضغوط الداخلية والخارجية ستقرب اكثر أيضاً مخاطر الثورة المضادة وعودة النظام القديم في روسيا . الا ان الوضع لم يكن مع ذلك يائساً ، لأن الحرب ستجعل الثورة اقرب ايضاً من اوروبا ، وهكذا قد يتمتع النظام السوفياتي باستقرار اكبر مما تتمتع به أنظمة اعدائه المرجحين . « **لن تنجح البورجوازية البولندية الا في تسريع الحرب التي ستجد فيها . . . موتها الاكيد** » وإن « **هتلر يتمتع بحظ أقل من ذلك الذي تمتع به غليوم الثاني في ان يصل بالحرب إل تحقيق النصر** » . كانت ثقة تروتسكي بثورة اوروبية بقوة احباطه بصدد مستقبل الاتحاد السوفياتي في حال عدم قيام هكذا ثورة :

« ان خطر الحرب وخطر هزيمة الاتحاد السوفياتي فيها امران محتملان . لكن الثورة هي ايضاً أمر محتمل . فإن لم تمنع الثورة الحرب فالحرب قادرة على خلق الظروف الملائمة للثورة . وعملية ولادة

---

(٧١) المرجع المذكور ، ص ٢١٦ .

ثانية اسهل عموماً من ولادة اولى . ولن تدعنا الحرب المقبلة ننتظر عامين ونصفاً أول انتفاضة ، كما كانت الحال اثناء حرب ١٩١٤ ، وما ان تبتدىء الثورة حتى لا يعود مجال لأن تتوقف في منتصف الطريق . سوف يتقرر مصير الاتحاد السوفياتي في نهاية المطاف ، لاعلى خارطة هيئات الاركان ، بل على خارطة صراع الطبقات . وفقط البروليتاريا الاوروبية ، المنتصبة في وجه بورجوازيتها . . . يمكنها ان تحول دون أن يُدمَّر الاتحاد السوفياتي او يطعنه حلفاؤه في الظهر ، وحتى هزيمة عسكرية للاتحاد السوفياتي لن تكون اكثر من حدث قصير الامد ، إذا تغلبت البروليتاريا في بلدان اخرى . بالمقابل ، ما من انتصار عسكري سينقذ ميراث ثورة اوكتوبر إذا استمرت الامبريالية في الصمود في بقية اجزاء العالم . . . من دون الجيش الأحمر ، كان تعرض الاتحاد السوفياتي للسحق والتجزئة على منوال الصين . وفقط مقاومته الطويلة البطولية والعنيدة في وجه العدو الرأسمالي لاحقاً يمكن ان تخلق الشروط الملائمة لنمو صراع الطبقات في البلدان الامبريالية . إن الجيش الاحمر هو هكذا عامل ذو اهمية تاريخية لا تقدر بثمن ، لكن ذلك لا يعني انه العامل التاريخي الوحيد . وإذا كان يمكن الشغيلة الاوروبيين والشعوب المستعمرة ان تنتفض فلن يتم ذلك تحت راية الوضع الراهن Statu quo (التي دافعت عنها ديبلوماسية ستالين خلال الثلاثينات) . . . ليست مهمة البروليتاريا الاوروبية تأبيد الحدود ، بل على العكس إلغاءها ثورياً . هل هذا يعني حماية الوضع الراهن ؟ كلا ، بل إرساء الولايات المتحدة الاوروبية(٧٢) .

سوف تكون نهاية الحرب العالمية الثانية اقل وضوحاً بكثير من بنود هذا الخيار . ولن يكون شيء اسهل من أن نجمِّع في الثورة المغدورة لائحة بالأخطاء التي اقترفها تروتسكي في تشخيصاته . إلا ان كل واحد من اخطائه ينطوي على عناصر مهمة للحقيقة ، وينبثق من مقدمات منطقية تحتفظ بكامل صحتها ؛ وهذا يعني إذاً انه يمكن أن نتعلم من اخطائه اكثر بكثير مما نتعلم من التفاهات الصحيحة لمعظم الكتّاب السياسيين . وبهذا الصدد ، يشبه تروتسكي ماركس بما

(٧٢) المرجع المذكور ، ص ٢١٩ ـ ٢٢٠ .

فيه الكفاية . ففكره صحيح « جبرياً » ، حتى حين تكون استنتاجاته « الحسابية » خاطئة ؛ وقد كانت توقعاته مغلوطة ، وذلك بالضبط حين تصور الحرب العالمية الثانية من زاوية الحرب الأولى ؛ لكن نظراته العامة بشأن العلاقات بين الحرب والثورة كانت بالغة العمق ، وتشكل دوماً ما هو جوهري لفهم النتائج الثورية للحرب العالمية الثانية(٧٣) .

مارست **الثورة المغدورة** تأثيرها بصورة غريبة ، محبطة للذات في الغالب - **pro captu Lectoris** . فقد صدرت في ايار/مايو ١٩٣٧ ، في اوج فترة المجازر بحق البلاشفة القدامى ، مباشرةً بعد محاكمة رادك وبياتاكوف وسوكولنيكوف وعشية إعدام توخاتشيفسكي والجنرالات الآخرين. لقد اعطت صليات مفارز الاعدام الستالينية دوياً خاصاً لعنوان هذا الكتاب . دوّي كصرخة احتجاج حادة ويائسة . ولما كان يركّز في ذاته كل قدح تروتسكي المأساوي ، فقد كان يوحي بأن ثورة اوكتوبر منيت بهزيمتها النهائية والتي لا علاج لها ، وبأن تروتسكي وأنصاره انفصلوا نهائياً عن الاتحاد السوفياتي . هكذا غدت « الثورة المغدورة » شعاراً مثيراً ، وجديراً بالذكر ، لكنه فارغ ، وقد أحدث عنوان هذا الكتاب انطباعاً أقوى من الكتاب بالذات . غالباً جداً ما جعل الاذهان مغلقة حيال الافكارالدقيقة والتعقيدات في محاجة تروتسكي . استحوذت على انتباه القراء تأملاته بصدد احتمال نمو طبقة مالكة جديدة ، اكثر مما كان يلازمها من تحفظات وأفكار مضادة . فرأى العديد العديد من تلامذته بمثابة أمور فعلية ما كان يعتبره احتمالات ؛ وقد ساهم ما في اسلوبه السجالي من تألق في احداث رد الفعل التشويهي هذا ، لأن جماعات واسعة من الكتّاب الرديئين وقعوا هكذا تحت إغراء تقليد قَدْح المعلم ، وكان ذلك اسهل بما لا يقاس من تعميق فكره بصورة نقدية . ولم تغْدُ **الثورة المغدورة** الكتاب المقدس للبدع والكنائس التروتسكية حديثة العهد (بدع وكنائس يواصل اعضاؤ ها دندنة آيات **الثورة المغدورة** بعد وفاة تروتسكي بزمن طويل) وحسب ، بل ظهرت آثار هذا الكتاب بصورة عميقة في ادب الاحباط الذي كتبه الشيوعيون الغربيون السابقون خلال الاربعينات والخمسينات . تعيَّش بعضهم على فتات طاولة تروتسكي ، الحافلة ، وليس على افضل ما في ذلك الفتات ، واستثاروا

(٧٣) سوف نفصّل هذا الاستدلال بصورة اكثر منهجية في ذيل هذا الجزء .

لأنفسهم شهرة بالفرادة بأن مزجوا ذلك الفتات بصلصة من تأليفهم . أسس جيمس بورنهام ، وكان تروتسكياً في الثلاثينات ، كتابه **La révolution directoriale*** على بعض شذرات من نظرية تروتسكي ، منتزعة من سياقها(٧٤) . ويترجّع صدى **الثورة المغدورة** في الكتابات الأولى لإينيازيو سيلوني وأرثور كوستلر . وقد تأثر جورج أورويل الى حد بعيد بـ**الثورة المغدورة** ، فشذرات « **الكتاب** » ، التي تحتل عدداً كبيرا من صفحات كتابه **١٩٨٤** ، جرى تصورها كشرح مسهب **للثورة المغدورة** ، تماماً كما ان ايمانويل غولدستاين ، المنافس الملغّز **لبيغ بروذر** ، يقلّد تروتسكي . واخيراً وليس آخراً ، وهنا يطفح الكيل حقاً ، حيث رأينا في الأربعينات والخمسينات العديد من المهتمين بالكتابة عن القضايا السوفياتية ودعاويي الحرب الباردة ، الممتلئين طموحات فكرية ، يستمدون حججهم وصيغهم الناجحة من هذا المصدر ، سواء مباشرة او مداورة(٧٥) .

بالرغم من الاستخدامات العرضية لكتاب **الثورة المغدورة** ، فهو يبقى من كلاسيكيات الأدب الماركسي . لكنه يشكل الكتاب الاصعب بين كتب تروتسكي ، ولا يمكن ان يستفيد منه غير القارىء الذي يقترب منه بوعي ، دون ان يقبله أو يرفضه ككل . لقد اعلن غوته يوماً انه لما كان ليسينغ اعظم مفكر في جيله ، لم يكن يمكن تأثيره على معاصريه الا ان يكون خفيفاً ، وحتى مشؤوماً جزئياً : فما كان يمكن غير عقل بذكاء عقل ليسنغ ان يستوعب كل تعقيد فكره ، وهو لم يكن يؤثر ، بالتالي ، على عقل المانيا الا بصورة مداورة وبعد الوفاة ؛ وهذا ينطبق ايضاً على مؤلف **الثورة المغدورة** ، ويفسر التأثير المشوَّه والمشوِّه لهذا الكتاب في الغرب . إلا أن أفكاره ترفرف اليوم في فضاء الاتحاد السوفياتي ، حيث لا تزال كتابات تروتسكي محظورة ؛ والسادة جوردان من الجنسية السوفياتية الذين يتكلمون اليوم نثره دون علم منهم كثرة . نجدهم في الجامعات وفي المصانع ، وفي النوادي الادبية ، وخلايا الكومسومول ، وحتى في الدوائر

(*) ثورة المديرين ، نسبة الى احدى المراحل الاولى من انحطاط الثورة الفرنسية (م) .

(٧٤) أنظر الصفحات الاخيرة من هذا الفصل .

(٧٥) عام ١٩٦١ اصدرت وكالة حكومية اميركية كراساً بعنوان الثورة المغدورة ، كان مضمونها تبريرياً للحملة الاميركية ضد كوبا . كان فيدل كاسترو هو الرجل الذي شهِّرت به وزارة الدولة ، والبنتاغون ، والمالكون السابقون لمزارع قصب السكر في كوبا ، وبعض الراديكاليين ، على أنه خائن للثورة . كان غزوٌ لكوبا ، أوحى به الاميركيون ، يستهدف بالطبع اعادة النقاء الأصلي للثورة الكوبية !

القيادية . فلنورد بعض الامثلة التوضيحية بهذا الصدد ، مأخوذة صدفة . فحكم تروتسكي ، الذي فحواه ان العهد الستاليني سيدخل تاريخ الابداع الفني على انه الحقبة بامتياز للرديئين والفائزين بمباراة والمتملقين ، هذا الحكم يقبله الجميع اليوم . ومن لا يسلِّم اليوم بواقع ان المدارس الادبية خُنقت الواحدة بعد الأخرى في ظل الستالينية ، وبأن :

« سيرورة الاستئصال حدثت في كل الدوائر الايديولوجية وبصورة حاسمة لا سيما أنها كانت نصف لاواعية . إن الشريحة الحاكمة الحالية تعتبر نفسها كما لو لم تكن مدعوة فقط لأن تراقب الخلق الروحي سياسياً بل كذلك لأن تحدد طرق تطوره ونموه . إن طريقة الأمر من دون اعتراض تُمارس بصورة مماثلة في معسكرات الاعتقال ، وفي الهندسة الزراعية وفي الموسيقى . تنشر الصحيفة المركزية للحزب افتتاحيات غير موقعة لها طابع الاوامر العسكرية ، وتتناول الهندسة المعمارية والأدب والفن المسرحي وفن الباليه ، ناهيك بالفلسفة والعلوم الطبيعية والتاريخ . يمتلك البيروقراطية خوف موسوس من كل ما لا يخدمها مباشرة ومن كل ما لا تفهمه(٧٦) » .

وإذا كان من حسن الحظ انه لم يعد كل ذلك وارداً في أيامنا هذه ، إلا ان القسم الاكبر منه لا يزال كذلك . وبوصف تروتسكي ، الميت منذ زمن بعيد ، ناقداً لميراث الستالينية ، فهو لا يزال يتكلم بصورة أقوى مما يفعل كل نازعي الستالينية الاحياء :

«إن التعليم وحياة التلامذة والطلاب الاجتماعية متشبعان بالنزعة الشكلية وبالنفاق ، فلقد تعلم الأولاد أن يشاركوا في ما لا يحصى من الاجتماعات المضجرة لأقصى الدرجات ، مع رئاستهم الفخرية المحتومة، واناشيدهم على شرف القادة المحبوبين، ونقاشاتهم الامتثالية المدروسة سلفاً التي يقولون خلالها شيئاً ويفكرون في شيء آخر ، تماماً كما يفعل الراشدون . . . إن الاكثر تعمقاً في التفكير بين المربين ومؤلفي كتب الاطفال ، لا يسعهم رغم تفاؤلهم الرسمي ان يخفوا دوماً

---

(٧٦) تروتسكي ، الثورة المغدورة ، ص ١٧٣ .

هلعهم ازاء روح الاكـراه والزيف وإثـارة الضجر تلك . . . فـالـطبـع المستقل ، مثله مثل الفكر المستقل ، لا يمكن ان يتطور بدون روح نقدية . والحال ان الشعبية السوفياتية محرومة من ابسط امكانيات تبادل الافكار ، والوقوع في الخطأ ، والتحقق من ذلك ، وتصحيح الأخطاء ، سواء اخطائها هي أو أخطاء الآخرين . . . كل المسائل . . . تُحسم بالنيابة عنها ، وليس مسموحاً لها الا ان تنفذ القرارات وتسبِّح بحمد من اتخذوها . . . هكذا يمكن ان نفسر واقع كون الآلاف المؤلفة من اعضاء الشبيبة الشيوعية لم تكوّن حتى اليوم شخصية مميَّزة واحدة .

« إن الشبيبة إذ تلقي بنفسها في خضم التقنيـة والعلوم والادب والرياضة والشطرنج تبدو كما لو أنها تتمرن على نشاطات اعظم . ففي كل الدوائر ، تتنافس مع الجيل الجديد غير المعد جيداً ، والذي غالباً ما تبلغ الحد الذي بلغه وتتخطاه ، لكنها في كل مرةتحتك بالسياسة تحرق اصابعها » .

وكم ان الغضب والايمان والرؤ يا النبوية التي الهمت كلمات كهذه لا تزال حية الى الآن ، بالغة الحيوية :

« . . . إن التوطيد الحقيقي للمجتمع الاشتراكي يمكن ان يتم ، ويجب ان يتم ، لا عبـر هذه الـطرائق المذلـة ، الجديـرة برأسمـالية متخلفة ، التي تلجأ اليها الحكومة السوفياتية ، بل بطرائق اكثر جدارة بإنسانية محررة ، وقبل كل شيء من دون هراوة البيروقراطي ، لأن هذه الهراوة هي بالذات التركة الاكثر اثارة للقرف للعالم القديم ، وينبغي تحطيمها وحرقها علانية على نار فرح لكي يغدو بالامكان الكلام على الاشتراكية من دون أن يحمر وجه المرء خجلاً(٧٧) » .

كانت الاشهر التي كتب تروتسكي خلالها الثورة المغدورة فترة استراحة ، رغم عمله المكثف . كانت الحياة في فكسهال هادئة ولا حوادث فيها . ونادراً ما كان يقطع الروتين اليومي زُوّار ونزهات في الريف الصخري والمقفر الذي كان يمتد باتجاه الشمال . كان الزوجان تروتسكي والزوجان كنودسن يذهبان مرة كل اسبوع الى السينما ، فيحضران فيلماً اميركياً قديماً . كان عمل تروتسكي يتقدم

(٧٧) المرجع المذكور ، ص ١٢٥ .

بصورة مرضية لدرجة أنه ما أن انهى الثورة المغدورة حتى عقد العزم على استئناف كتابة سيرة لينين على الفور. كان قد وجد أخيراً، كما يبدو، الأمن الذي يوفره ملجأ حقيقي. إلا أنه من وقت لآخر كانت سحابة صغيرةتأتي لتجعل السماء تدلهم. كانت ستتم انتخابات في الخريف، ومنذ الصيف كان حزب صغير ممالىء للنازية يدعى National Sammling قد بدأ يهاجم الحكومة، متهماً اياها بأنها تعرض سلام البلد وازدهاره للخطر، بمنح تروتسكي الملجأ. كان زعيم الحزب الميجور كيسلينغ الذي سيترأس بعد سنوات، وفي ظل الاحتلال الالماني، حكومة عميلة، وسيصبح اسمه رمزاً للتعاون مع المحتل. إلا انه في تلك الفترة، لم تكن تضم حركته إلا عدداً صغيراً من الاعضاء، وكان معتبراً من المسعورين. لذا لم تجر إعارة أي اهتمام لضجيجه. إلا أن هجمات Arbeideren، الصحيفة الشيوعية كانت اكثر إثارة للقلق. فمع أنه لم يكن يقرأها غير القليلين، فقد كانت تعبر عن وجهات نظر السفارة السوفياتية حين اتهمت تروتسكي باستخدام النروج «كقاعدة نشاطات ارهابية موجهة ضد الاتحاد السوفياتي وقادته، وقبل كل شيء ضد القائد العظيم للبروليتاريا العالمية في عصرنا: ستالين . . .» وتساءلت الصحيفة: «طوال كم من الوقت سوف يسمح الشغيلة النروجيون بذلك؟ ما هو رأي المكتب المركزي لحزب العمل النروجي في هذا الصدد؟ ما هو رأي الحكومة النروجية؟» كانت تلك المرة الاولى التي يجري فيها الزعم بأن «تروتسكي يستخدم النروج قاعدة لنشاطات ارهابية»، وسوف يستعيد فيشنسكي هذا الاتهام بعد أشهر.

رفض حزب العمل هذا الادعاء بحزم. وردَّ شوفل: «ما الهدف من وراء كل ذلك؟ جعل الشغيلة النروجيين يعتقدون بصحة كِذْبةٍ وإجبار الحكومة العمالية على توقيف تروتسكي؟ لكن ايها السادة، لن يحصل لا هذا ولا ذاك، ولن تنجحوا بهذه السهولة في أن تهزأوا سواء بالشغيلة النروجيين أو بالحكومة العمالية النروجية . . .». وكانت ردود ناطقين آخرين باسم الحزب الحاكم من النوع نفسه(٧٨).

إلا أن الشرطة النروجية أبقت تروتسكي تحت رقابتها وكانت تقدم تقريرها بانتظام لوزير العدل، لا فقط بصدد اكتشافاتها الخاصة بها، بل كذلك بصدد

---

(٧٨) Arbeideren، ١٢ كانون الاول / ديسمبر، و Soerlandet، ١٦ كانون الاول ١٩٣٥.

المعلومات التي كانت تتلقاها من الشرطة البلجيكية والفرنسية . كان شرلوك هولمز من بروكسل قد اكتشف ان تروتسكي هو القائد الحقيقي للاممية الرابعة وملهمها ، وقام موسوسون مدققون في القيادة العامة لشرطة أوسلو بتحقيقاتهم لمعرفة إذا كانت هذه المعلومات المقلقة صحيحة . وقد أكدتها الشرطة الفرنسية وعبرت عن قلقها بشأن روحات أمناء سر تروتسكي ومجيئاتهم ، وكلهم منتدبون للأممية الرابعة . وما كان يمكن الوزراء النروجيين الا أن يتسلُّوا ببطولات الاستقصاء تلك ؛ فقبل قليل ، هم ذاتهم او بعض انصارهم كان يمكن ان يشعروا بالاستعداد للانضمام الى تلك المنظمة التخريبية . إلا أن حرص وزير العدل على تهدئة قلق شرطته جعله يصدر امره بإبعاد جان فرانكل ، احد امناء سر تروتسكي . إلا أن هذا سرعان ما حل محله أروين وولف، الذي بقي في ڤيكسهال طوال سنة دون أن يكدِّر صفوه احد ، وتزوَّج ابنة كنودسن . وبهدف تحاشي أي خلاف لا فائدة منه ، طلب تروتسكي الى انصاره أن يمحوا اسمه من لائحة الهيئة التنفيذية الاممية لمنظمتهم ؛ ونشر مقالات حول الشؤون الداخلية التروتسكية غير موقعة ، او موقعة باسم مستعار(٧٩) . ورفض إعطاء مقابلات لصحف اجنبيةوتحاشى التورط بأي شكل من الاشكال في السياسة النروجية ، بحيث حين دعاه كنودسن ، الذي رشح نفسه للانتخابات البرلمانية ، لأن يحضر اجتماعاته الانتخابية كمشاهد ، رد على ذلك بالرفض . في العادة ، كان يرافق كنودسن وينتظره في الخارج في عربته حتى ينتهي الاجتماع(٨٠) .وكانت الشرطة تنقل الى الوزير بأمانة أن سلوك تروتسكي لا غبار عليه من هذه الزاوية . وقد اعلن كوهت ، وزير الخارجية :

« لا شك اننا كنا نعرف ان تروتسكي ظل يكتب تعليقاته حول الشؤون الدولية ، لكننا كنا نعتبر ان واجبنا يقضي باحترام حقه في فعل ذلك ، انسجاماً مع المبدأ الديمقراطي لحق اللجوء(٨١) » .

إلا أنه حين مضى كوهت بمهمة الى الاتحاد السوفياتي في صيف ١٩٣٦ ،

---

(٧٩) كان كروكس هو الاسم المستعار الذي استخدمه تروتسكي في الغالب في تلك الايام . كما ان رسائله الى انصاره في باريس وامستردام كانت مكتوبة ايضاً بالشيفرة . ومفتاح تلك الشيفرة محفوظ في المحفوظات ، القسم المقفل . انظر ايضا كروغ ، المرجع المذكور ، ص ٢٤٥ ـ ٢٤٦ .

(٨٠) اعطاني كنودسن شخصياً وقائع هذه العلاقة .

(٨١) اعطى البروفسور كوهت هذا التصريح في عام ١٩٣٧ ، وكرره على مسمعي بالكثير من القوة اثناء زيارتي لأوسلو في عام ١٩٥٦ .

وجرى استقباله بحفاوة علنية ، انتظر تروتسكي عودته بقلق . قال لكنودسن : « إنهم يساومون على رأسي في الكرملين » ، فأجاب كنودسن ، غير مصدق ، ومتشككاً : « هل تعتقد إذاً أننا ، في حزب العمل النروجي ، مستعدون لبيع رأسك ؟ » . اجاب تروتسكي ، وهو مهتم بمراعاة مشاعر مضيفه : « كلا ، لكن اعتقد أن ستالين مستعد لشرائه(٨٢) » . واذا عدنا لعبارات كوهت بالذات ، فقد قال إنه ذهب الى موسكو في زيارة مجاملة . فلما كان من قبل ضيفاً على الحكومة البولندية في فارصوفيا ، أبدى اهتماماً بألا يترك لدى الروس انطباعاً بأنه متواطىء مع البولنديين ، وقد قال إنه لم تُثر اطلاقاً خلال زيارته مسألة اللجوء الممنوح لتروتسكي . ومرة واحدة في جينيف ، اثناء دورة لعصبة الامم ، لمَّح ليتفينوف الى الموضوع في محادثة خاصة(٨٣) . ولا يصعب على المرء ان يقبل شهادة كوهت . فستالين ما كان ليفكر اطلاقاً بأن يساوم على رأس تروتسكي مع كوهت ، الدبلوماسي الناعم والمدرسي ؛ كان عليه ان يجد شخصاً ذا طبيعة أخرى للخوض معه في امور من هذا النوع .

إن الصعود الرهيب للارهاب المعادي للتروتسكية في الاتحاد السوفياتي هو ما كان يثير شكوك تروتسكي . فبهذا الخصوص ، كان قد تلقى منذ وقت قصير تقارير مباشرة من ثلاثة من انصاره ، خرجوا لتوهم من السجون والمعتقلات السوفياتية ؛ كانت اسماؤهم ، على التوالي ، أ . تاروف ، وهو عامل روسي ، و « بلشفي قديم » ، وأنطون سيليغا ، وكان عضواً في المكتب السياسي للحزب الشيوعي اليوغسلافي ، وفيكتور سرج الذي غالباً ما جرى ذكر دوره في المعارضة الروسية ، هنا بالذات(٨٤) . وقد حصل سرج على حريته بنتيجة تدخل رومان

---

(٨٢) تروتسكي ، Stalins Verbrechen The Case of leon Trotsky ، ص ٣٣ . انظر تصريحات كنودسن لكاتب هذه السطور .

(٨٣) هذا هو التفسير الذي اعطاني إياه كوهت عن اسبابه الخاصة به (مضيفاً أنه كان على احتكاك منذ زمن بعيد مع الدوائر الجامعية في موسكو ، لأن ابحاثه كانت تنصب على بداية تاريخ العلاقات الروسية ـ النروجية .

(٨٤) المحفوظات ، القسم المقفل . رسالة بلشفي لينيني فار ، نشرت في الـ B.O ، العدد ٤٥ ، ١٩٣٥ . اما رواية سيليغا عن الأرهاب الستاليني ففي الاعداد ٤٧ ـ ٤٨ ـ ٤٩ من الـ B.O . وقد ظهرت رسالة فيكتور سرج المفتوحة الى اندريه جيد ، التي يفضح فيها النظام الستاليني بوجه جيد ، الذي كان لا يزال ايجابياً تجاه ستالين ، ظهرت في العدد ٥١ من B.O ، عام ١٩٣٦ . وكان هذا العدد يضم وفرة من المعلومات الحديثة الواردة من الاتحاد السوفياتي . انظر كذلك المراسلة بين ليوفاوسرج في نيسان / ابريل ١٩٣٦ ، في المحفوظات ، القسم المقفل .

رولان الشخصي لدى ستالين . اما سيليغا فأطلق سراحه بناء على الحاح اصدقاء من اوروبا الغربية . واجتاز تاروف الحدود سراً . وقد روى تاروف أنه تحت تأثير الخوف من صعود النازية ، كان مستعداً لمسالمة الستالينية وتفاوض مع الغيبيو على شروط استسلامه. كانت الصيغة التي غدا يُجبر المستسلمون على القبول بها هي التالية : « **ان تروتسكي هو زعيم طليعة الثورة المضادة البورجوازية ، فهل أنت موافق على ذلك أم لا ؟** » وقد رد تاروف بأنه يعتقد في عمق اعماقه ان « **تروتسكي هو اكثر الناس إخلاصاً لقضية البروليتاريا العالمية ، ثوري لا يهادن ، أعتبره كصديق لي ورفيق في قضيـة مشتركـة** » . وطوال ليالٍ كثيرة ، جرى استجوابه وحثه على التخلي عن تروتسكي ، لكنه لم يستطع الوصول إلى فعل ذاك(٨٥) .

وصف الثلاثة العنف الجديد والكارثي للارهـاب الستاليني : المعتقـلات الضخمة المنشأة في كل مكان من الاتحاد السوفياتي ـ الشراسة الخارقة التي كان يُعامَل بها اولئك الذي اوقفوا منذ اغتيال كيـروف ـ عمليات التعـذيب واعمال الخداع التي كانت الغيبيو تنتزع الاعترافات بواسطتها . لم يكن تروتسكي ادرك كليا المرحلة التي وصلت اليها الامور ، رغم كل صرامة انتقاداته لستالين . فككل مهاجر سياسي ، كان احتفظ الى حد ما بصورة بلاده كما كان يعرفها ، حين كان الارهاب لا يزال يسود في ميدان اكثر ضيقاً بكثيروبصورة اخف الى حد بعيد . هكذا فإن الروايات الجديدة (و **العودة من الاتحاد السوفياتي** التي نشرها اندريه جيد لتوه) كانت تملؤه خجلاً وغضباً ووطدت عزمه على التخلي عن كل وهم اصلاحي ، وعلى اعطاء قطيعته مع الكرملين طابعاً حاسماً بشكل خاص .

فلنضف أن تلك التقارير كانت تكاد تترك وميض أمل للمعارضة ، لأنها في حين كانت تشدد على فساد الجماعة القيادية ، وعلى الحقد والاحتقار اللذين كانا يحيـطان بها ، كـانت تصف ايضاً ، بعبـارات من بين الاشـد سـواداً ، تفتت المعارضة وعجزها الكلي(٨٦) . وبالنسبة لتروتسكي ، لا شك أنه كان يتعـزى

---

(٨٥) تاروف ، استشهاد مذكور .

(٨٦) نشر سيليغا فيما بعد وصفاً شاملا للوضع في كتابه ، في بلاد الكذبة الكبيرة . ووصف سرج ايضاً في مراسلته مع ليوفاتفككك المعارضة . واستناداً الى العجوز ايلزين وكان تروتـكياً مرموقاً استشهد به سرج ، كان الضيق وصل الى حد انه « يستحيل العثور على رفيقين يعتنقان الراي ذاته ، إن الغيبيو هي التي توحدنا » .

بالاخبار بأن اناساً كتاروف ظلوا يدافعون عن شرفه في الزنزانات ومعسكرات الاعتقال ، لكن تعزية مرة .بدا اولئك الناس كآخر موهيغانيي(*) المعارضة . إلا انه حتى قبل نهاية ١٩٣٥ ، جرى الاعلان عن عمليات طرد جديدة . ففي ٣٠ كانون الاول/ديسمبر ، أعلن خروتشوف، الذي كان آنذاك سكريتير لجنة موسكو ، ان عشرة آلاف عضو ، في العاصمة وحدها ، قد تم طردهم . أما على صعيد كامل البلاد ، فلا اقل من اربعين الف شخص حرموا من عضوية الحزب ، وأقصي عدد اكبر ايضاً من الكومسومول . ومعظم هؤلاء جرى التشهير بهم على انهم تروتسكيون او زينوفييفيون ، لكن حتى اذا كان نصف هذا العدد او ثلثه فقط يضم معارضين اصيلين ، فلقد كانوا اكثر بكثير من الاربعة الى الستة آلاف الذين وقعوا برنامج المعارضة الموحدة عام ١٩٢٧[٨٧] . وقد تساءل تروتسكي : هل كان ذلك إذاً مداً جديداً ؟ وهكذا كان في كتابته نبرة تفاؤل ، رغم التقارير المكمدة التي قدمها سرج وسيليغا :

« . . . تحت تأثير الصحافة الستالينية وعملائها (من نموذج لويس فيشر وامثاله) ، اعتاد اعداؤنا في الغرب ، لكن كذلك الكثيرون من اصدقائنا ايضاً ، على التفكير ـ من دون ان يتنبهوا إلى ذلك ـ بأنه إذا كان لا يزال البلاشفة اللينينيون موجودين الى الآن في الاتحاد السوفياتي ، فذلك فقط كمحكوم عليهم بالأشغال الشاقة . كلا ، ليس الأمر هكذا ، ويستحيل محو برنامج ماركسي وتراث ثوري عظيم بطرق بوليسية . . . إذا لم يكن لحركتنا الآن طابع جماهيري في الاتحاد السوفياتي ، على صعيد المذهب ، فلها ذلك الطابع بصفتها جواً ، على الاقل ، بصفتها تراثاً وراية . وبديهي أنها تستوعب قوى جديدة ومفعمة بالنسغ . بين العشرة آلاف ، و العشرين الف « تروتسكي » المطرودين من الحزب خلال الاشهر الاخيرة ، لم يعد هناك غير العشرات ، او ربما عدة مئات من المنتمين للجيل القديم ، عدة عشرات وعدة مئات من المعارضين الذين صهرتهم المرحلة ما بين ١٩٢٣ و١٩٢٨ ، أما الغالبية الساحقة

(*) الموهيغان قبيلة من الهنود الحمر في الجزء الجنوبي الشرقي من ولاية كونكتيكوت في الولايات المتحدة وقد تعرضت للابادة على ايدي البيض (م) .

(٨٧) النبي الاعزل .

فمن المنضمين الجدد . . . . وهذه الأمورتجعلنا نقول بثقة انه رغم الثلاثةعشر عاماً من التنكيد والافتراء والاضطهاد ، التي لا مثيل لها من حيث القسوة والوحشية ، رغم الاستسلامات والانهيارات الاكثر خطراً من الاضطهاد ، تمتلك الامية الرابعة اليوم الفرع الأكثر صلابة وقوة وعدداً ، في الاتحاد السوفياتي[٨٨] » .

كان ذلك يناقض ، كما يبدو ، التصريح الراضخ الذي جاء على لسان تروتسكي في تاريخ سابق ، وهو تصريح كان يرى انه لا يمكن توقع انطلاق اي مبادرة ثورية من الاتحاد السوفياتي ، وحتى من جانب انصاره الموجودين هناك . فبصفة التروتسكية « جواً وتراثاً وراية » ، وبغياب حزب منظم ، كانت اكثر حياة من اي وقت مضى ، وكان ستالين وترتسكي يعرفان ، كلاهما ، انه يمكن الجو والتراث ان يندمجا بسهولة في ظروف ملائمة ، ليعطيا حزباً . هكذا كان ستالين يستعد لاطلاق هجومه النهائي ضد التروتسكية . ومع ذلك ، ففي ربيع عام **١٩٣٦** وبداية صيفه ، كانت هنالك هدنة مهدّدة .

ففي اوروبا الغربية ، كانت تلك هي الفترة التي بلغت فيها الجبهة الشعبية أوجها . كانت احزاب الجبهة قد حصلت على نصر انتخابي ساحق في فرنسا ، وكان ذلك يشجع الشغيلة على تقديم المزيد من المطالب ، والانضمام الى النقابات بالملايين ، واحتلال المصانع ، وتفجير مظاهرات وإضرابات على مستوى الامة . اعلن تروتسكي في عنوان مقال كتبه للمجلة الاميركية **Nation** (كانت الصحيفة المحافظة Le Temps تتكلم على «Les grandes mauœuvres de la révolution»*) **أعلن أن الثورة الفرنسية قد بدأت** . شدد تروتسكي على انهيار الاقتصاد الفرنسي ، وتفاقم التناقضات الطبقية ، وذعر الطبقات المالكة واحزابها واندفاع حركة الجماهير

« الطبقة العاملة بكاملها تهتز ، هذه الكتلة العملاقة لن توقفها الكلمات ، والنضال معد للانتهاء إما بالنصر الاكبر ، أو بإحدى ارهب الهزائم » . بدا أن قادة الجبهات الشعبية يبحثون عن الهزيمة ؛ فقد فعلوا

---

(٨٨) **B.O** ، العدد ٤٨ ، ١٩٣٦ .

(*) « المناورات الكبرى للثورة » (م) .

كل ما في وسعهم لاضعاف طاقة الشغيلة وتخفيف ثقتهم بذاتهم ، ولطمأنة البورجوازية . « سعى الاشتراكيون والشيوعيون بأيديهم وارجلهم لتشكيل وزارة يرئسها هيريو ، أو حتى دالادييه الاكثر سوءاً ، فماذا فعلت الجماهير ؟ فرضت عليهم وزارة بلوم . الا يعادل ذلك تصويتاً مباشراً ضد سياسة الجبهة الشعبية ؟ » .

كانت الثورة المضادة مستكينة ، مؤقتاً ، بانتظار أن تمر العاصفة ، وكانت تعد لعودتها الى المسرح .

« سيكون من الخفة ان يؤكد المرء ان هذه الحسابات لا اساس لها . فبمساعدة بلوم وجوهو وكاشين ، لا يزال يمكن الثورة المضادة ان تنفذمشاريعها » .

كانت الاحزاب الشيوعية صاحت طوال سنوات : **السوفياتات في كل مكان** ، لكن الآن وقد أزفت ساعة الانتقال من الكلمات الى الافعال ، وتجميع الشغيلة وتسليحهم ، وتشكيل المجالس العمالية ، اصبحت الاحزاب المذكورة تصف الشعار بأنه غير ملائم . كان تروتسكي يوجه التحذير ذاته لأنصاره .

« إن الحزب او الجمع الذي لا يمكنه ان يجد قاعدة في حركة الاضراب الحالية ويقيم علاقات وثيقة مع الشغيلة الذين اصطفّوا في وضع القتال ، ليس جديراً بتسمية منظمة ثورية » .

لم تكن تلك هي المرة الاولى ولا الاخيرة التي سيبدو فيها انصاره عاجزين عن ايجاد تلك « القاعدة » .

في ٤ آب/اغسطس ، بعد أن وضع تروتسكي في البريد مقدمته لكتاب **الثورة المغدورة** ، موجهاً إياها لناشريه ، ذهب للحال مع كنودسن لقضاء العطلة . كانا ينويان قضاءها في جزيرة صغيرة برية ومقفرة ، قائمة في زقاق بحري ، جنوبي البلاد . كانا في السيارة ، وقد لاحظ كنودسن على الطريق ان بعض الرجال من اعضاء حركة كيسلنغ يطاردونهما . إلا انه نجح في التملص من مطاردتهم عند الوصول إلى المعبر البحري . وإذ أراح ذلك الرجلين ، عبرا الزقاق البحري وبلغا الجزيرة ، وأقاما في حجرة صيادين لقضاء الليل هناك .

في الصباح الباكر ، جاءتهما برقية طارئة من ڤيكسهال ، تخبرهما انه في

الليل ، اقتحم انصار كيسلنغ بيت كنودسن ، وكانوا متخفين في ثياب رجال شرطة ، وبعد أن تذرعوا بأنهم مكلفون بمهمة تفتيش حاولوا الدخول عنوة الى الغرف التي يشغلها تروتسكي . وقد قاومتهم ابنة كنودسن ، بعد أن اشتمت رائحة الخداع ، فيما نبه اخوها الجيران . عندئذ هرب الدخلاء ، ولم يستطيعوا الحصول إلا على بعض الاوراق المكتوبة بالآلة الكاتبة ، كانت موجودة على احدى الطاولات . وحين استجوبتهم الشرطة ، أعلنوا انهم عزموا على دخول المنزل خلال غياب تروتسكي ، وانهم تجسسوا على مخابرات كنودسن الهاتفية وعلموا هكذا متى سيتغيب هو وتروتسكي . لم يكن الامر يتعلق بمحاولة لاغتيال تروتسكي شخصياً ، إنما كانت نيتهم الحصول على اثباتات بشأن نشاط تروتسكي السياسي ، ومخالفاته لشروط اقامته في النروج ، وهي اثباتات كان حزب كيسلنغ ينوي استخدامها خلال الانتخابات ، وقد ادعى الدخلاء أنهم قاموا بمهمتهم بنجاح .

بدا الحادث مضحكاً ، فقد كان تروتسكي واثقاً من ان رجال كيسلنغ لم يستطيعوا في اي من الاحوال الحصول على اثبات على انتهاك لم يقم به ، وكان من المستحيل ايضاً ان يكونوا استولوا على شيء مهم في المحفوظات ، لأن كنودسن الذي اخذ الاحتياطات اللازمة وضعها في صندوق احد المصارف قبل رحيلهما . إذاً بعد فترة قصيرة من الاثارة ، عاد هو وكنودسن يتسلقان الصخور ويصطادان . بعد أسبوع من ذلك التاريخ ، اي في ١٣ أو ١٤ آب/اغسطس ، حطت طائرة صغيرة في الجزيرة ، وخرج منها قائد الشرطة الجنائية النروجية . كان قد جاء ، بناء على اوامر تريغفي لي ، يستجوب تروتسكي بشأن المحاكمة القريبة لرجال كيسلنغ . كانت الاسئلة تتعلق بالاوراق التي استولى عليها هؤلاء في منزل كنودسن ، والتي كانت تضم ما يلي : نسخة عن رسالة شخصية وجهها تروتسكي لأحد انصاره الفرنسيين . والمقال الذي سبق أن أشرنا اليه ، والذي عنوانه : **الثورة الفرنسية قد بدأت** . اجاب تروتسكي عن كل الاسئلة التي وجهت اليه ، وغادر ضابط الشرطة المكان ليصرح امام الصحافة انه وجد كل الاتهامات النازية ضد تروتسكي عارية تماماً عن الصحة[٨٩] .

---

(٨٩) تروتسكي ، **Staline's verbrechen** ، كروغ ، المرجع المذكور ، المحفوظات تصريحات كنودسن وشخصيات رسمية نروجية عديدة .

وفي صباح اليوم التالي ، استمع كنودسن باكراً ، وكالعادة ، الى اخبار الاذاعة . كان الصوت يُسمع بصعوبة لأنه لم تكن ثمة كهرباء في الجزيرة ، ولم يكن في حوزته غير جهاز صغير يمكن حمله ؛ لكن ما سمعه كان كافياً ليستدير نحو تروتسكي لاهثاً : كانت موسكو قد اعلنت للتو أن زينوفييف وكامينيف و ١٤ متهماً آخر سوف يحاكمون قريباً بتهم الخيانة والتآمر ومحاولة اغتيال لستالين . اذيع محضر اتهام طويل جرى التشهير فيه بتروتسكي على انه المحرض الرئيسي . لم يكن كنودسن واثقاً من التفاصيل ، لكنه لم يكن لديه ادنى شك حول واقع اتهام زينوفييف وكامينيف بالارهاب ، وبالتواطؤ ايضاً مع الغستابو . وذُهل تروتسكي تماماً ، وراح يردد دون توقف :

« إرهاب ؟ إرهاب ؟ طيب ، يمكنني ان افهم هذا الاتهام ، لكن ما شأن الغستابو ؟ قالوا الغستابو حقاً ؟ هل انت متأكد من ذلك ؟ هكذا تساءل مذهولاً ، فردكنودسن مؤكداً : « نعم ، هذا ما قالوه » . وفيما بعد ، خلال النهار ، سمعوا أن محضر الاتهام يزعم ايضاً أن تروتسكي كان يرسل من النروج بالذات ارهابيين وقتلة الى الاتحاد السوفياتي . كما لو أن صخوراً في تلك الجزيرة الهادئة ، ولهيباً وحمماً اندفعت فجأة . وقد عاد الرجلان بسرعة الى ڤكسهال .

في اليوم ذاته، الخامس عشر من آب/ اغسطس، دحض تروتسكي الاتهامات واصفاً إياها للصحافة على انها: «اكبر تزوير للتاريخ السياسي للعالم»: «إن ستالين يصطنع هذه المحاكمة بهدف خنق كل اشكال الاستياء والمعارضة. تعامل البيروقراطية الحاكمة كل نقد وكل معارضة على انهما تآمر». وقد قال إن اتهامه باستخدام النروج كقاعدة لنشاط ارهابي يهدف الى حرمانه من الملجأ ومن امكانية الدفاع عن نفسه ». أؤكد بصورة جازمة أنني لم اقم اي اتصال بالاتحاد السوفياتي منذ وصولي الى النروج. لا بل لم اتلق انا رسالة واحدة واردة من هناك، كما لم اكتب لأي كان، سواء مباشرة او بواسطة اشخاص آخرين. لم نتبادل، امرأتي وأنا، سطراً واحداً مع ولدنا الذي كان يشغل منصباً علمياً ولم يُقِمْ اي اتصال سياسي معنا».

وقد اقترح على الحكومة النروجية ان تحقق في هذه الاتهامات ، وابدى استعداده ليضع تحت تصرفها كل المواد والأوراق المتعلقة بالموضوع .

وأهاب أيضا بكل المنظمات العمالية في كل البلدان أن تشكل لجنة تحقيق عالمية غير متحيزة[٩٠] .

هكذا تم بلوغ النقطة العليا للارهاب ، التي توقعها مراراً كثيرة . كانت اكثر بشاعة وتهديداً من كل ما سبق ان توقعه . مرة اخرى ، استمع ، وأذنه ملتصقة بجهاز الراديو ، إلى محاضر المحاكمة ، وذلك من ٩ الى ٢٤ آب/اغسطس ساعة بعد ساعة ، كان يستوعب ما فيها من هول وبشاعة ، في حين كان النائب العام والقضاء والمتهمون يمثلون مشهداً مذهلاً بمازوشيته وساديته بحيث كان يتجاوز الخيال البشري . منذ البدء ، بدا واضحاً أن رهان المحاكمة كان يتمثل برؤوس الستة عشر متهماً ومعها رأسي تروتسكي وليوڤا (في قرار الاتهام يلعب ليوڤادور المساعد الرئيسي لوالده) .

وكلما كانت تتقدم المرافعات كان يصبح بديهياً أن تلك المحاكمة لا يمكن إلا أن تكون مقدمة لتدمير جيل من الثوريين بكامله . لكن الأسوأ من كل ذلك هو الطريقة التي كان يُسحب فيها المتهمون في الوحل ، مجبرين على الزحف الى موتهم وسط تشهيرات مقرفة وتشهيرات بالذات . وبالمقارنة مع كل ذلك ، كانت كوابيس الثورة الفرنسية ، بعرباتها ومقاصلها واقتتال الأخوة في صفوف اليعقوبيين ، كانت تبدو الآن دراما تنطوي على كرامة بسيطة واحتفالية . كان روبسبيير قد وضع خصومه في قفص الاتهام ، بين اللصوص والمجرمين ، وأثقلهم باتهامات وهمية ؛ لكنه لم يمنعهم من الدفاع عن شرفهم ومن الموت فيما هم يقاتلون ، وكان دانتون ، على الأقل ، حراً في أن يهتف : « سيأتي دورك بعدي يا روبسبيير ! » لكن ستالين كان يقذف بخصومه المحطمين الى اعماق الاذلال الذاتي التي لا قعر لها ؛ كان يجبر قادة البلشفية ومفكريها على التصرف كنساء بائسات من القرون الوسطى ، كن مضطرات لأن يروين لمحاكم التفتيش كل أعمال السحر المنسوبة إليهن وكل التفاصيل عن تهتكهن مع الشيطان . هوذا مثلاً الحوار بين فيشنسكي وكامينيف ، الذي تم امام العالم بأسره :

فيشنسكي : كيف تقوِّم مقالاتك وتصريحاتك المكتوبة التي كنت تعبر فيها عن ولائك للحزب ؟ هل كان ذلك خداعاً ؟

---

(٩٠) استناداً الى المستندات الاصلية في الأرشيفات .

كامينيف : كلا ، بل اسوأ من الخداع .
فيشنسكي : غدراً إذاً ؟
كامينيف : اسوأ من ذلك أيضاً .
فيشنسكي : اسوأ من الخداع ، أسوأ من الغدر ؟ جد بنفسك الكلمة المناسبة إذاً . هل كان ذلك خيانة ؟
كامينيف : لقد وجدت الكلمة المناسبة .
فيشنسكي : ايها المتهم زينوفييف ، هل تؤيد هذا الكلام ؟
زينوفييف : نعم .

وهاكم كيف ختم **كامينيف** اعترافه :

« مرتين اثنتين جرى العفو عني وأنقذت حياتي ، لكن لكل شيء حدوداً . هنالك حدود لشهامة البروليتاريا ، ونحن بلغنا هذه الحدود . . . اننا نجلس على هذا المقعد جنباً الى جنب مع عملاء مصالح الاستخبارات الاجنبية . كانت اسلحتنا هي الاسلحة ذاتها ، وقد اتحدت ايدينا قبل أن تتوحد مصائرنا هنا في قفص الاتهام . لقد خدمنا الفاشية ، ونظمنا الثورة المضادة ضد الاشتراكية . هذا هو الطريق الذي سلكناه ، وهذه هي هاوية الغدر الحقيرة التي سقطنا في قاعها(٩١) » .

ثم جاء زينوفييف فقال :

« أنا مذنب ، لكوني نظمت ، بصفتي مساعد تروتسكي ، الكتلة التروتسكية ـ الزينوفييفية التي حددت لنفسها هدفاً هو اغتيال ستالين وفوروشيلوف وقادة آخرين . . . اعترف بذنبي كالمنظم الرئيسي لاغتيال كيروف . لقد تحالفنا مع تروتسكي ؛ تحولت بلشفيتي الضعيفة عندئذ الى عداء للبلشفية ، ووصلت عبر التروتسكية الى الفاشية . إن التروتسكية نوع من الفاشية ، والزينوفييفية نوع من التروتسكية(٩٢) » .

أما إيفان سميرنوف ، الذي هزم كولتشاك خلال الحرب الاهلية ، وجلس

---

(٩١) Sudenyi Otchet po Delu trotskist kovo — Zinovievskovo terroristkovo Tsentra والاستشهادات مأخوذة من النسخة الانكليزية الرسمية عن المرافعات ، ص ١٦٨ ـ ١٦٩ ـ ١٧٠
(٩٢) المرجع المذكور ، ص ١٧٠ .

الى جانب تروتسكي في المجلس العسكري الثوري فأعلن :

« ليس هناك من طريق آخر لبلادنا غير ذلك الذي تتبعه حاليا . ليس هناك ، ولا يمكن ان يكون هناك ، اتجاه آخر غير ذلك الذي اعطانا إياه التاريخ . إن تروتسكي الذي يرسل توجيهاته وتعليماته الى الارهابيين ، ويعتبر دولتنا دولة فاشية ، هو عدو ، وهو في الجانب الآخر من المتراس[٩٣] » .

وأعلن مراشكوفسكي ، وهو رفيق قديم آخر لتروتسكي ، وأحد أبطال الحرب الاهلية :

« لماذا تبعت الطريق المعادية للثورة ؟ إن علاقتي بتروتسكي هي التي دفعت بي الى القيام بذلك . منذ اليوم الذي ارسيت فيه هذه العلاقة ، بدأت أخدع الحزب وأخدع قادته[٩٤] » .

واعترف باكاييف، القائد الشجاع لفرع التشيكا في لينتغراد خلال الحرب الاهلية وقائد مظاهرات المعارضة عام ١٩٢٧ ، كالآتي :

« إن الوقائع التي جرى كشفها امام هذه المحكمة تبيّن للعالم بأسره أن منظم هذه . . . الكتلة الارهابية المعادية للثورة ، وملهمها ومحركها هو تروتسكي . . . لقد خاطرت برأسي مرار وتكراراً لصالح زينوفييف وكامينيف ؛ وانا اشعر بكمد عميق حين افكر بأني اصبحت الاداة المطيعة بين يديهما ، وعميلاً للثورة المضادة ، ورجلاً رفع ذراعه ضد ستالين[٩٥] » .

وطوال ساعات ، أطلق فيشنسكي ، المنشفي القديم الذي لم ينضم إلى الموكب البلشفي إلا بعد الحرب الاهلية بزمن ، والذي كان يشغل الآن وظائف النائب العام ، أطلق العنان لغيظه وأرغى وأزبد ، في اصطناع متعمد للهستيريا :

« ـ هذه الكلاب الكَلِبة للرأسمالية حاولت أن تقتلع عضواً بعد الآخر من خيرة من

(٩٣) المرجع المذكور ، ص ١٧١ ـ ١٧٢ .
(٩٤) المرجع المذكور ، ص ١٦٥ .
(٩٥) المرجع المذكور ، ص ١٦٨ .

انتجتهم أرضنا السوفياتية . لقد قتلوا احد رجال الثورة الذي كان عزيزاً جداً على قلبنا ، ذلك الرجل المدهش ، المعْجِب ، الذي كان ساطعاً وفرِحاً بقدر ما البسمة على شفتيه فرحةوساطعة ، وما حياتنا ساطعة وفرحة . قتلوا حبيبنا كيروف ، جرحونا على مقربة من القلب . . . إن عدونا محتال ، ولا يمكننا الحفاظ على حياة عدو محتال . . . كل شعبنا يرتجف من الاستنكار ، وبصفتي نائباً عاماً ، أضم صوتي المفعم استنكاراً وغضباً إلى الأصوات المزمجرة للجماهير . . . . أطلب أن يجري اطلاق الرصاص على هذه الكلاب التي غدت كلِبةً ، كلها ، بلا استثناء[96] » .

في نهاية خمسة أيام ممتلئة تعنيفات فظة وشتائم فاحشة ، خمسة أيام لم يقدم الاتهام خلالها إثباتاً واحداً ، اصدرت المحكمة حكماً بالاعدام على جميع المتهمين ، تم تذييله بالجمل التالية :

« بناء على القناعة . . . بأن ليڤ داڤيدوڤيتش تروتسكي وولده ليڤ لڤوڤيتش سيدوف . . . أعدا مباشرة ، وقادا شخصياً تنظيم نشاطات إرهابية في الاتحاد السوفياتي . . . ينبغي إيقافهما فور اكتشافهما على الارض السوفياتية وتحويلهما الى المجلس العسكري للمحكمة العليا في الاتحاد السوفياتي[97] » .

لقد اختار ستالين وقت المحاكمة بعد دخول قوات هتلر مباشرة الى رينانيا ، وبعد قليل من تشكيل حكومة الجبهة الشعبية في فرنسا . وبتصرفه على هذا المنوال ، قام بابتزاز الحركة العمالية والانتليجنسيا اليسارية في الغرب اللتين كانتا تعتبرانه حليفاً لهما ضد هتلر ، لأنه كان يهددهما فعلياً ، في حال الاحتجاج ضد تلك التطهيرات ، بحل الجبهة الشعبية انتقاماً ، وبترك اوروبا الغربية وحدها في وجه الرايخ الثالث . وقد خدمته في هدفه هذا اللاعقلانية القاتمة للمحاكمة ؛ فهذه اللاعقلانية احدثت بلبلة عميقة في نفوس الناس الذين كان يمكن ان يرفعوا الصوت ضد ما كانوا يعرفون أنه خزي وعار ، لكن الذين كانوا ينفرون كلياً من

---

(٩٦) المرجع المذكور ، ص ١٢٠ ـ ١٦٤ .

(٩٧) المرجع المذكور ، ص ١٨٠ .

الاحتجاج ضد لغز دامٍ ومظلم قد يجدون انفسهم متورطين فيه بفعل ذلك الاحتجاج .

مع أن المحاكمة والاعدامات جعلت الجو ممضاً وقاسياً ، فقد أيقظت لدى تروتسكي روح المحارب .كان عازماً على مواجهة ذلك التحدي بكل قوةالتركيز والثقة اللتين قاد بهما المعارك الاولى في الحرب الأهلية . كان المتهم الرئيسي في محاكمة زينوفييف ـ كامينيف ، وكان يعرف أنه ستكون هناك محاكمات اخرى سوف يحملونه فيها عبئاً اثقل فأثقل من الاتهامات الاكثر فأكثر إذهالاً . كان يقاتل دفاعاً عن رأسه وعن شرفه ، وعن ولديه اللذين بقيا على قيد الحياة ، وعن كرامة كل البلاشفة القدامى المحكوم عليهم ، والعاجزين عن الدفاع عن انفسهم بأنفسهم . كشف القناع عن كل التناقضات والسخافات التي كانت المحاكمة حافلة بها. استنفر كل عصب من اعصابه ليكشف زيف ألغاز تلك المحاكمة وليمزقها إرباً . كان يعرف أنه وحده في وجه قدرة ستالين الفادحة وجحافل الدعاويين العاملين لحسابه . لكنه كان حراً ، على الاقل ، في الكلام وتنظيم هجومه المضاد ، وكان قد قرر استخدام تلك الحرية الى ابعد الحدود . في اليوم الثاني من المحاكمة ، اعطى مقابلة شاملة للـ Arbeiderbladet ، نشرتها في اليوم التالي ، ٢١ آب/اغسطس ، على الصفحة الأولى (تحت عنوان **تروتسكي يعلن ان اتهامات موسكو مزيفة**) ولم تكن تترك امام القراء اي شك في كونها تتعاطف مع تروتسكي في هذه القضية . وقد أعد تصريحات للوكالات البرقية الفرنسية ، والاميركية ، والانجليزية ، وللعديد من مخبري الصحف الذين هرعوا الى أوسلو . كان في معمعان المعركة ، وكان عليه ان يتحرك سريعاً ، فيدحض اتهامات ستالين قبل أن يتبلد احساس العالم المشدوه والمصدوم . وكل ما كان يحتاج إليه إنما هو حرية الدفاع عن النفس .

فجأة ، حُرم من هذه الحرية بصورة ماكرة غدارة ، والذين حرموه منها كانوا الناس الذين عبروا عن صداقتهم حياله ، وكرموه وتباهوا بأنهم منحوه اللجوء . ففي ٢٦ آب/اغسطس ، بعد يوم واحد ، بالضبط ، على نهاية محاكمة موسكو ، جاءه اثنان من ضباط الشرطة الكبار وأعلماه بأمر من وزير العدل بأنه خالف شروط الأذن المعطى له بالاقامة ؛ وسألاه أن يوقع التزاماً بألا يتدخل في المستقبل ، سواء مباشرة أو مداورة ، شفاهاً أو كتابة ، في موضوعات السياسة الراهنة العائدة لبلدان أخرى . طلبا إليه أيضاً ، بصفته مؤلفاً ، أن يحدَّ نشاطه ،

بصورة دقيقة ، بأعمال تاريخية وملاحظات نظرية عـامة ، دون أن تكـون هذه موجهة ضد اي بلد محدد(٩٨) . وكانت تلك الشروط تتخذ شكل سخرية مريرة ، فكيف يمكنه الامتناع عن التعبير عن موضوعات السياسة الراهنة العائدة لبلدان اخرى ، في ذلك الوقت بالذات الذي كان يشهِّر به فيه ستالين كشريك هتلر وزعيم عصابة من المخربين والقتلة ؟ كيف كان في وسعه ان يحد نفسه ضمن ملاحظات نظرية لا تكون موجهة ضد أي بلد بوجه خاص ؟ كان صمته إذاك سيعطي مصداقيه لكل الافتراآت ضده ، التي كان ستالين يطبِّل بها في آذان العالم أجمع . لذا رفض التوقيع رفضاً جازماً ، ففرضت الشرطة عليه الاقامـة تحت الرقابة ، ووضعت حراساً على كل الابواب ، ومنعته من القيام بأي تصريح يمكن أن يتم نشره .

كيف كان تفسير هذا التبدل المفاجىء في موقف الحكومة النروجية ؟ في ٢٩ آب / أغسطس ، سلَّم يعقوبوفيتش ، السفير السوفياتي ، السلطات في أوسلو مذكرة رسمية تطالب بطرد تروتسكي . وكانت المذكرة تلمح إلى كون تروتسكي يستخدم النروج كقاعدة للتآمر ، واستشهدت بالحكم الصادر عن المحكمة العليا في موسكو ، والأكثر من ذلك هو أنها انتهت بهذا التهديد الذي يكـاد يكون مموّهاً : « ترغب الحكومة السوفياتية في أن يكون واضحاً أن الاستمرار في منح اللجوء لتروتسكي . . . سيسيء الى علاقات الصـداقة بين الاتحـاد السوفيـاتي والنروج وينتهك . . . القواعد التي تسود العلاقات الدولية(٩٩) . » إلا أن هذا لم يحدث إلا بعد ثلاثة أيام على وضع تروتسكي في الاقامة تحت الرقابة ، وهو أمر سمح لتريغفي لي بتأكيد أنه لم يتخذ تدابيره ضد تروتسكي استجابة للتدخل السوفياتي . إلا أنه قبل أيام ، كان السفير السوفيـاتي قد قـام بمسعى شفهي للاستحصال على طرد تروتسكي . وقد أعلن كوهت «إن الصعـوبة في تحـديد التـاريخ الدقيق الذي طالبنا فيه السفير السـوفياتي للمـرة الأولى، برفض الاستمـرار في اعطاء تروتسكي حق اللجوء ناجمة عن كونـه فعل ذلـك بشكل اتصـال

---

(٩٨) وزارة العدل والشرطة النروجيتان ، تقرير ستورتينغ ، العدد ١٩ ، الذي قدمه تريغفي لي في ١٨ شباط / فبراير ١٩٣٧ ، كـروغْ ، المرجـع المذكـور . تروتسكي ، Ich fordere ein Gerichtsver fahren "uber nuih ! ، المحفوظات . انظر ايضاً St alins's verbrechen .

(٩٩) وردت هذه المذكرة كملحق في تقرير ستورتنغ ، العدد ١٩ . ولم تنشر الازفستيا في ٣٠ آب / اغسطس ١٩٣٦ ، إلا الى بيان للسفارة السوفياتية .

شفهي لم يعد منه، على ما يبدو، أي أثر خطي. لم أكن آنذاك في أوسلو، لأني كنت في جولة بدائرتي الانتخابية في أقصى الشمال؛ وقد حل محلي بالنيابة عني وزير الخارجية تريغفي لي(١٠٠)»

وفي الواقع أن السفير قابل تريغفي لي بعد قليل من نشر الـ Arbeiderbladet المقابلة مع تروتسكي بصدد محاكمة موسكو، ولا يُعقل أن يكون امتنع عن الاحتجاج ضد نشر تلك المقابلة في صحيفة الحزب الحاكم والمطالبة بحرمان تروتسكي من حق اللجوء. وقد كانت هناك شائعات كثيرة متداولة في أوسلو، فحواها أنه هدد بقطع العلاقات التجارية مع النروج؛ وكان يروي أيضاً أن شركات الملاحة والصناعات السمكية حثت الحكومة على ألا تعرض للخطر مصالحها في تلك الحقبة من الجمود الاقتصادي والبطالة. وقال كوهت أيضاً:

«خاف زملائي في الحكومة من العقوبات الاقتصادية، مع أن الروس لم يقولوا إنهم قد يلجأون اليها. لم أكن أعتقد أنهم قد يلجأون الى المقاطعة التجارية، وكان رأيي أنه مهما يكن فتجارتنا مع روسيا (كانت أسماك الرنكة هي السلعة الرئيسية التي نصدّرها) لم تكن مهمة لدرجة إثارة المخاوف لدينا. وكنت معارضاً، بالتالي، الاقتراح بالحجر على تروتسكي. ومع ذلك فقد تغلب زملائي في الحكومة.(١٠١)»

كان الوزراء يخشون قطيعة مع روسيا وهزيمة انتخابية بصدد هذه المسألة. لذا خضعوا للضغوط، رغم واقع أنهم كانوا يعرفون أن الزعم بأن تروتسكي يستخدم النروج كقاعدة للنشاطات الارهابية، كان مجرد هراء، ورغم التكذيب الذي واجهوا به بهذا الشأن المذكرة السوفياتية، في ردهم عليها. إلا أنه لم يكن في وسعهم طرد تروتسكي، لأنه ما من بلد كان مستعداً للقبول به، كما لم يكن بإمكانهم أيضاً أن يسلموه للحكومة السوفياتية، التي لم تطلب استرداده، رغم كون تروتسكي تحدى ستالين أن يفعل ذلك (كان هكذا طلب اقتضى رؤية علنية للقضية أمام محكمة نروجية وكان أعطى تروتسكي فرصة لدحض الاتهامات). هكذا فإن الوزراء، الذين خافوا إغضاب موسكو عن طريق السماح لتروتسكي بالدفاع عن نفسه علانية، قرروا احتجازه. إلا أن ضميرهم الديمقراطي والشعور

(١٠٠) تصريح كوهت للمؤلف.

(١٠١) المرجع ذاته.

بأهميتهم الوزارية لم يسمحا لهم بأن يوافقوا على الخضوع للتهديدات ، وعلى أنه ليس في وسعهم ، في بلدهم الخاص بهم ، أن يمنحوا الملجأ لرجل كانوا مقتنعين بأنه بريء وسبق أن امتدحوا عظمته . كان عليهم بالتالي أن يطعنوا ببراءته . لم يتجاسروا على استعادة اتهامات فيشنسكي ، لأنهم وإن افتقدوا الشجاعة الضرورية لاتخاذ موقف لصالح الحقيقة ، لم يكونوا يجرؤ ون أيضاً على تبني كذبة بتلك الضخامة ؛ لم يكونوا أكثر من رجال صغار ، قادرين فقط على التلفظ بكذبات صغيرة ، وقد قرروا اتهام تروتسكي بأنه استغل ثقتهم حين انخرط في نقد حكومات أجنبية وشارك في نشاطات الأممية الرابعة ، مع أنهم اعترفوا بأن ما من نشاط بين تلك النشاطات كان يفتقر الى الشرعية . راحوا يفتشون إذاً عن إثبات لسوء سلوكه ، لكن أين يجدونه ؟ شهر رجال كيسلينغ أمام محكمة أوسلو الأوراق القليلة التي نجحوا في الاستيلاء عليها حين هاجموا منزل كنودسن ، ولا سيما نسخة عن مقال تروتسكي **الثورة الفرنسية قد بدأت** . ألم يهاجم الجبهة الشعبية الفرنسية ووزراة بلوم ؟ ألم يكن ذلك نشاطاً موجهاً ضد حكومة صديقة ؟ الا أنه لم يكن هناك ما هو سري أو غير شرعي في ذلك ، فالمقال ظهر في **المجلة الأميركية** Nation ، وفي دوريتين تروتسكيتين صغيرتين ، **الحقيقة** وUnser Wort ، وكان من غير المشرِّف أن يستخدم وزراء عماليون الصحف التي سرقها رجال كيسلنغ من على مكتب تروتسكي . كانت في ملفات وزير العدل تقارير الشرطة المتعلقة بصلات تروتسكي بالأممية الرابعة . لكن الحكومة اعتبرت تلك الصلات مسلَّماً بها ، وأبدت قبل أشهر قليلة ، وبالتحديد في حزيران / يونيو ، لا مبالاة بتقارير الشرطة بهذا الصدد ، ومددت براحة بال رخصة الاقامة لتروتسكي . ولم يتركوا مجالاً لم يطرقوه ، إلا أنهم لم يجدوا أي مبرر جدير بالاعتبار لحرمانه من حق اللجوء .

إلا أنه كان عليهم أن يحرموه منه ، حتى لو كان المبرر القانوني غير مقنع . وكلما كانت تمضي الأيام وكان سخط موسكو يتفاقم ، كانوا يشعرون بأنفسهم أكثر فأكثر ارتعاباً لدى التفكير بأن مصالحهم وسمعتهم القزمة متورطة في ذلك الصراع بين الجبابرة ، وكانوا يلعنون الساعة التي سمحوا فيها للرجل ـ الجبل بدخول بلادهم . لكنه كان في متناول أيديهم ، وكانوا احراراً في أن يجعلوه أسيرهم ؛ إلا أنهم فعلوا ذلك بارتباك ، وكلهم خجل بأن يتحولوا الى شركاء لستالين . لكن ، وفقاً لما كتبه مؤلف نروجي ، «من النادر أن يدفع ضميرٌ مذنبٌ وشعور بالخجل من

أساء لأحدهم الى التكفير عن ذنبه . . . وعليه أن يستحصل على تبرير خيالي لأعماله الرديئة ، وليس من النادر رؤية أولئك المسيئين يعاملون ضحيتهم بكراهية(١٠٢)»

كان عنفوان الوزراء قد زها وتدغدغ ، حين لعبوا دور المضيفين للرفيق الأقرب للينين ، لدرجة أنهم أصبحوا نكدين نزقين في دور الجلادين .

في ٢٨ آب / أغسطس ، مثل تروتسكي بحراسة الشرطة أمام محكمة أوسلو ، لإعطاء إفادة ثانية في قضية رجال كيسلنغ . وقد رأى نفسه آنذاك ، على الفور تقريباً ، موضوعاً في موقع المتَّهم ، بدل أن يكون في دور الشاهد . ترافع رجال كيسلنغ زاعمين بأنهم كشفوا سلوكه « الغادر » في النروج ؛ وقد أخضعه رئيس المحكمة لاستجواب محكم : هل تراسل خلال إقامته في النروج مع رفاقه في الخارج ؟ هل قدم لهم توجيهات سياسية ؟ هل انتقد حكومة أجنبية في مقالاته ؟ وقد أجاب تروتسكي عن كل تلك الأسئلة بالايجاب مع أنه لم يكن لها أية علاقة قانونية مع القضية موضوع المحاكمة ، وهي قضية تنحصر في معرفة ما إذا كان الرجال الواقفون في قفص الاتهام جعلوا من أنفسهم مذنبين بأعمال خداع وبالسطو ، إذ تظاهروا بأنهم من رجال الشرطة ودخلوا هكذا الى منزل كنودسن . عندئذ أعلن القاضي أن تروتسكي انتهك ، كما بيّن هو بالذات ، شروط قبوله في البلد . ورد تروتسكي بأنه لم يلتزم يوماً بالامتناع عن كل تعبير عن الآراء الشخصية ، وعن كل اتصال برفاقه ، وبأنه مستعد لأن يثبت فوراً أنه لم يقم بأي نشاط غير شرعي أو تآمري . وهنا قاطعه القاضي وأمره بمغادرة منصة الشهود .

ومن قصر العدل اقتيد تروتسكي مباشرة الى وزير العدل ، الذي استقبله محاطاً بكبار موظفيه ، وطلب اليه بلهجة قاطعة أن يوقع فوراً البيان التالي :

« أنا الموقع اسمي أدناه ، ليون تروتسكي ، اصرِّح باسمي وباسم امرأتي وأمناء سري ، بأنني اتعهد بألا أقوم خلال إقامتي في النروج بأي نشاط سياسي موجه ضد أي دولة لها علاقات ودية مع النروج . أصرح بأني سأقيم في المكان الذي ستختاره الحكومة أو توافق عليه . . . وأني ، أنا نفسي ، وزوجتي وأمناء سري ، لن نسعى بأي شكل للتورط في

(١٠٢) كروغ ، المرجع المذكور ، ص ٢٢٠ .

قضية سياسية راهنة ، سواء في النروج أو في الخارج . . . وأن نشاطاتي كمؤلف سوف تقتصر على أعمال تاريخية ، وسير ومذكرات . . . وأن كتاباتي . . . النظرية . . . لن تُوجَّه ضد أي حكومة لدولة أجنبية . وأنا موافق أيضاً على أن تخضع كل مراسلاتي ، وبرقياتي ، واتصالاتي الهاتفية التي تصدر عني ، وعن امرأتي ، وأمناء سري ، أو يتلقاها أيٌّ منا ، للرقابة . . . (١٠٣) »

بعد عشرين عاماً ، كان شاهدو عيان لهذا المشهد لا يزالون يتذكرون وميض الاحتقار الذي كانت ترسله عينا تروتسكي ورعد صوته حين رفض الخضوع لتلك الشروط . تساءل كيف يجرؤ الوزير على تقديم وثيقة بتلك الحقارة ؟ هل اعتقد حقاً أن رجلاً مثلي ، أنا تروتسكي ، يملك الماضي الذي أملك ، سوف يوقعها ؟ ان ما يطلبه مني الوزير إنما هو الخضوع الكلي والتخلي عن كل حق في التعبير عن رأي سياسي . ولو كنت ، أنا تروتسكي ، مستعداً للقبول بهكذا شروط ، لما كنت اليوم في المنفى ، ولما كنت رهناً بالضيافة المشكوك بها للنروج . كان تريغفي لي يعتقد إذاً أن لديه ذلك القدر من القوة للاعتقاد بإمكانية أن يستحصل منه على ما لم يستطع ستالين أن يحصل عليه ؟ حين قبلته الحكومة النروجية في بلدها كانت تعرف من يكون ، فكيف تجرؤ مع ذلك أن تطلب اليه الآن ألا تكون حتى كتاباته النظرية موجهة ضد حكومة أجنبية ما ؟ هل سمح لنفسه بأتفه تدخل في شؤون النروج ؟ هل ثمة مأخذ واحد يؤخذ عليه بهذا الصدد ؟ لقد وافق الوزير على أنه لم يكن هناك أدنى مأخذ من هذا القبيل . هل يعتقد إذاً أنه يستخدم النروج كقاعدة لنشاطات إرهابية ؟ أجاب تريغفي لي سلباً، قائلاً إن الحكومة ترفض أن تؤمن بذلك رفضاً جازماً . هل هو متهم بنشاطات تآمرية أو غير شرعية ضد حكومة أجنبية ؟ كلا ، أجاب الوزير من جديد ، فلم يكن يتعلق الأمر بنشاطات غير شرعية أو تآمرية . إن حجة الحكومة ضد تروتسكي تكمن في كونه أخل بتعهده بالامتناع عن كل نشاط سياسي ، وتشكل مقالته **الثورة الفرنسية قد بدأت** وعلاقاته بالأممية الرابعة اثباتات على ذلك . وقد أنكر تروتسكي أن يكون أخذ على عاتقه يوماً ذلك التعهد . ما من شيوعي ، ما من اشتراكي يستطيع يوماً أن يمتنع عن كل نشاط سياسي ؛ أي نوع من الأفكار يكوّن الوزير إذاً عن

(١٠٣) تقرير ستورتنغ ، العدد ١٩ .

الاشتراكية والأخلاقية الاشتراكية ، ومن أي زاوية يمكن اعتبار المقال بصدد فرنسا أكثر استحقاقاً للشجب من المقابلة التي أعطاها، هو تروتسكي ، الى تريغفي لي شخصياً لنشرها في Arbeiderbladet ، في حين كان لي قد أكد له انه إذ يعبر عن رأيه السياسي لا ينتهك شروط الأذن المعطى له بالاقامة ؟ كيف تجروء الحكومة على تأسيس الاتهام ضده على وثيقة قدمها لها لصوص نازيون ؟ كانت تسمح إذاً لعصابة من أتباع هتلر بتحديد سلوكها ؟

عند هذه النقطة بالضبط ، أصبح صوت تروتسكي قوياً لدرجة أنه دوّى في قاعات الوزارة ومماشيها . « هذا العمل هو أول عمل استسلام للنازية في بلدكم . وسوف

> تدفعون ثمنه . أنتم تعتقدون أنكم في أمان واحرار في معاملة لاجىء سياسي وفقاً لرغباتكم ، لكن قريب هو اليوم ـ تذكّروا هذا جيداً ـ الذي سيطردكم فيه النازيون من بلدكم ، كلكم بالاضافة الى Pantoffel - Minister - President الخاص بكم . »

وقد هز تريغفي لي كتفيه إزاء هذه النبوءة التي بدت غريبة . إلا أنه لم تمر أربع سنوات حتى كانت الحكومة ذاتها تضطر بالفعل للهرب من النروج أمام الغزو النازي . وفي حين كان الوزراء وملكهم العجوز هاكون، المتجمعون كالقطيع على الشاطىء ، ينتظرون مركباً كان سيحملهم الى انكلترا ، تذكروا برهبة كلمات تروتسكي ، كما لو كانت لعنة نبوية تحولت الى حقيقة(١٠٤) .

بعد ذلك اللقاء، أخضع تريغفي لي تروتسكي لشروط احتجاز أكثر صرامة أيضاً ، وأبعد سكريتيريه ووضع حراساً في كل زاوية من بيت كنودسن ليمنع تروتسكي من الاتصال حتى بكنودسن . وإذ أمر بكل ذلك ، تجاوز صلاحياته ، لأن الدستور النروجي لم يكن يسمح له بأن يحرم من الحرية أحداً لم يصدر بحقه

---

(١٠٤) يصف البروفسور كوهت في مذكراته عن الحرب المشهد كالتالي : « بعد اللقاء مع الملك والسفير الالماني ، جمعت اعضاء الحكومة وشرحت لهم الشروط الالمانية الجديدة . لم يكن لديّ اي شك حول واقع ان الحكومة سترفض تلك الشروط ، وانه سيكون علينا ان نهرب من جديد ونخرج من البلد . وقد تذكرت كلمات تروتسكي الى تريغفي لي : « بعد سنوات قليلة ، ستكون انت وحكومتك في عداد اللاجئين السياسيين ، من دون وطن ولا بيت ، مثلما أنا الان » . لقد تعاملنا مع كلماته بخفة ، فهكذا امور كانت تبدو لنا آنذاك مستحيلة كلياً . توقفت مراراً عن الكلام لاحبس دموعي » . (Barricade to Barricade الطبعة النروجية ، ص ٤٧) . وقد وصف البرلمانيون النروجيون الذين حضروا ذلك المشهد ، وصفوه لي بتعابير مماثلة . لا بل اكد احدهم أن الملك هاكون هو الذي ذكّر تريغفي لي بـ « لعنة تروتسكي » .

حكم قضائي . والعديد من الاشخاص ، بمن فيهم محافُظون ، أحسوا بالفضيحة واحتجوا . لذا ، بعد ثلاثة أيام على الأمر بتوقيف تروتسكي ، حصل لي على توقيع الملك في أسفل مرسوم تقلد بموجبه سلطات غير دستورية في تلك المناسبة الاستثنائية ، وفي ٢ أيلول / سبتمبر ، أمر بنقل تروتسكي وناتاليا من بيت كنودسن الى سوندباي ، في هوروم ، وهو معبر بحري يقع على بعد ٣٠ كم أو أكثر قليلاً الى الجنوب من أوسلو ، حيث احتجزا في بيت صغير استأجرته الوزارة لهذه الغاية . وتحت الرقابة ليل نهار ، كان عليهما أن يتقاسما المنزل مع ٢٠ شرطياً ، وسط لعب الورق ، ودخان الغلايين ، والقرقعة المتواصلة للجزمات الضخمة . لم يكن مسموحاً لأحد بأن يزور تروتسكي ، خلا محاميه النروجي ، وحتى محاميه الفرنسي لم يكن يُسْمَحُ له برؤ يته . ووجه برفض الحق المعهود للسجين بأن يتريَّض أو يقوم بنزهة قصيرة في الخارج . وللحصول على صحيفة ، كان عليه أن يطلب إذناً خاصاً ، ويُخضع كل مراسلته للرقابة . وكان الرقيب عضواً في حزب كيسلنغ ، وكان الأمر ذاته بالنسبة لأحد الضابطين المسؤ ولين عن الحراسة ، جوناس لي ، الذي سيغدو قائد الشرطة في ظل حكومة كيسلنغ . ويتذكر كنودسن أن عزلة تروتسكي كانت صارمة لدرجة أن « تريغفي لي رفض مراراً أن يعطيني الاذن بالمضي الى هوروم ، حتى بعد أن غدوت نائباً في البرلمان . ولم يؤذن لي بأن أرسل لتروتسكي جهاز راديو إلا بعد الكثير من المضايقات والمراوغات ، لأنه حظر عليه في البدء حتى أن يستمع الى الراديو(١٠٥) » .

كان المقصود من كل ذلك منع تروتسكي من الرد على اتهامات ستالين . إلا أنه لم يرضخ أبداً . كتب مقالات تفضح بالتفصيل محاكمة زينوفييف وكامينيف ، وأعطى في رسائله الى أنصاره وإلى ليوڤا تعليمات حول خوض حملة ضد التطهيرات وتجميع شهادات وقائعية تدحض كل نقطة من قرار فيشنسكي الاتهامي . وقد عرض المقالات والرسائل على الرقيب ، في الوقت ذاته الذي احتج فيه على اجباره على ذلك ، ثم انتظر بفارغ الصبر أجوبة طوال أسابيع . فلم يأت أي جواب ، ذلك أن الرقيب صادر كل كتاباته دون أن يعلمه بذلك . في غضون ذلك ، كان تروتسكي وناتاليا يصغيان يومياً الى إذاعة موسكو ، وهي تزعق بالاتهامات وتجعلها تدوّي عبر العالم بأسره كأصوات متنافرة رؤ يوية ، وكان

(١٠٥) اورد هنا كلمات كنودسن بالذات في حديثه إليَّ .

تروتسكي يتساءل : كم من الناس بدأوا يتخلصون الآن من ذهولهم المتشكك الأولي ويصدقون ما لا يمكن تصديقه ؟ ألم تبدأ الغيوم الهائلة من الغبار المسموم التي أثارتها موسكو تترسب في ذهن الناس وتتصلب وتقسو ؟ إن كون حكومة النروج رأت من المناسب احتجازه يوجه اليه إساءة محتومة لدى العديد من الناس . فلقد كان هؤلاء يفكرون كالتالي : لو أنه كان بريئاً تماماً ، لما حرمه اصدقاؤه الاشتراكيون النروجيون من الحرية . حتى صمته بدا كما لو كان يزعق ضده ، واستفاد أعداؤه منه الى أبعد الحدود . ولم يكن مر خمسة عشر يوماً على ذلك الاحتجاز حتى لفت فيشنسكي الانتباه في البولشفيك الى أنه من البديهي أن لا يكون لدى تروتسكي ما يقوله للدفاع عن نفسه ، لأنه لو لم يكن الأمر كذلك لكان تكلم(١٠٦) .

ومع أن تروتسكي كان مكبلاً داخل ذلك الفخ ، فقد حاول أن يلاحق بتهمة القدح والذم رئيسي تحرير نروجيين ، أحدهما نازي والآخر ستاليني كانا قد رددا في صحيفتهما Vrit Volk و Arbeideren اتهامات فيشنسكي ؛ وفي ٦ تشرين الأول / أوكتوبر ، حرك بونترفولد ، محاميه النروجي ، الدعوى . كانت المحكمة قد أرسلت التبليغات ، وكانت ستنظر القضية أمام المحكمة قبل نهاية الشهر ، حين أوقفت الحكومة كل الاجراءات القضائية . فلما كانت احتجزت تروتسكي ، لوضعه أمام استحالة الرد على ستالين ، لم يكن بإمكانها الآن أن تسمح له باستخدام المحكمة كمنبر ، ومع ذلك فمن وجهة النظر القانونية لم يكن في وسعها منعه من القيام بذلك ، لأنه حتى شخص مستحقّ الشنق له الحق في الدفاع عن نفسه أمام المحكمة بوجه التشهيرات والافتراءات الكاذبة . لكن تريغفي لي لم يكن ليسمح بأن تربكه القضايا الحقوقية الحساسة ، وكما نجح في الحصول على المرسوم الذي قضى باحتجاز تروتسكي ، حصل كذلك في ٢٩ تشرين الأول / أوكتوبر على مرسوم ملكي مؤقت آخر ، يعلن بأن أجنبياً محتجزاً بموجب مرسوم ٣١ آب / أغسطس ١٩٣٦ (كان تروتسكي الأجنبي الوحيد الذي جرى احتجازه بموجب ذلك المرسوم) ، لا يمكنه المثول بصفته مدعيا امام

---

(١٠٦) **بولشفيك** ، ١٥ ايلول /سبتمبر ١٩٣٦ . وقد نقل ليوفا ذلك بلهجة غاضبة الى ابيه في رسالة بتاريخ ٢٦ تشرين الاول / اوكتوبر .

محكمة نروجية من دون موافقة وزارة العدل . وبالطبع رفضت الوزارة اعطاء الموافقة وحظرت على المحكمة ان تستمع الى قضية تروسكي بوجه رئيسي تحرير الصحيفتين .

حينئذ طلب تروتسكي الى محاميه الفرنسي أن يلاحق بجرم القدح والذم رؤساء التحرير الستالينيين في فرنسا ، وتشيكوسلوفاكيا ، وسويسرا وبلجيكا وإسبانيا ، على أمل أن يستطيع عرض قضيته بواسطة ممثليه الشرعيين ، حتى لو لم يتم استحضاره كشاهد . وهو ما لم يكن في وسع النروجيين ، كما يبدو ، أن يعترضوا عليه . لم يكن لديهم اطلاقاً أي مبرر قانوني لمنعه من الدفاع عن سمعته أمام المحاكم الأجنبية . لكن حماس الحكومة الآن لتهدئة ستالين لم يكن يعرف حدوداً . فقد أعلن تريغفي لي أن « وزارة العدل ، بعد أن تداولت مع الحكومة ، قررت الحؤول دون محاولات ليون تروتسكي التقاضي أمام محكمة أجنبية طالما هو باق في النروج[١٠٧] » . أكثر من ذلك ، حظر الوزير على تروتسكي الاتصال بأي محام مقيم في الخارج . كان الأمر مقضيّاً ، فقد وضعوه في القفص وكمّموه كلّياً .

في ١٩ تشرين الثاني / نوفمبر أعلم تروتسكي محاميه الفرنسي بما يلي :

> بالأمس تلقيت إشعاراً رسمياً يحظر علي ملاحقة أي كان في الخارج ، وأنا أمتنع عن أي تعليق كي أتأكد من أن هذه الرسالة ستصلك . » وكتب الى ليوڤا : « عليك أن تدرك أن وزير العدل صادر كل رسائلي المهمة المتعلقة بالدفاع عن نفسي ، علي الآن أن أواجه دسّاسين ولصوصاً وأنذالاً . . . وأنا الآن من دون وسيلة للدفاع . عليك أن تتصرف بمبادرة منك وأن تروي كل هذا لأصدقائك . » وفي الرسالة اللاحقة ، عبَّر عن سخطه بصورة أقوى وأشد أيضاً . لفت الانتباه الى أن Arabederbladet كانت تقوم آنذاك بحملة بهدف اطلاق سراح أوسيتزكي ، الكاتب التقدمي الشهير ، من معتقل نازي ، وأنه لم يكن لدى الصحيفة ما تقوله بصدد احتجازه هو في النروج . « على

(١٠٧) تقرير ستورتنغ ، العدد ١٩ ، كروغ ، المرجع المذكور ، رسالة من تروتسكي الى جيرار روزنتال ، في ١٩ و ٢٢ تشرين الثاني و **Stalin's Verbrechen**

الأقل ، أن سجّاني أوسيتزكي لم يَفْتروا عليه » . « هذه الرسالة ، هي أيضاً ، ستمر بالطبع على الرقيب ، لكني توقفت عن المبالاة بذلك ، فأنا أكتب هذه الكلمات بصورة شخصية وخصوصية الى ولدي الذي يلاحقه قطاع طرق في باريس والذي يمكن أن تكون حياته معرضة للخطر ، فيما أنا نفسي مسجون وموثق اليدين والرجلين . ثمة أمور معرَّضة للخطر ، أمور يمكن أن يتوقف عليها وجودنا المادي والمعنوي ، وعليّ أن أتكلم(١٠٨) . »

كان هنالك على الأرجح شيء يشبه الحيلة الحربية في تلك الرسائل . ويزعم تريغفي لي أن تروتسكي كان يتصل بابنه عبر وسائل غير قانونية . وأنه كان يكتب بعضاً من رسائله بالحبر السري ؛ وأنه يتصل سراً بأنصاره حين يسمح له بالذهاب الى طبيب الأسنان ؛ وأن أنصاره يسربون اليه رسائل في أطباق كاتو مرسلة الى هوروم . وهكذا دواليك . . . وقد تكون هذه الاتهامات مستندة الى وقائع ، مع أنه حين سئلت ناتاليا بعد عشرين سنة إذا كانت مزاعم لي صحيحة ، لم تعرف ما تقول بصدد هذا الموضوع . لكن السجناء السياسيين يستخدمون هذه الحيل للابقاء على الاتصال برفاقهم ، وقد يكون غريباً تماماً ألا يكون تروتسكي لجأ اليها ، في الوقت الذي كان فيه خاضعاً لكل تلك المكائد وأعمال العنف والتنكيدات .

إزاء الصمت المفروض على تروتسكي ، سقط عبء أول حملة علنية ضد محاكمات موسكو على كاهل ليوفا . كان خجولاً ، ومرتبكاً بعض الشيء ، ومعتاداً البقاء في ظل والده ، إلا أن هذه القضية العظيمة والمشؤومة دفعت به فجأة الى الواجهة . كان فيشنسكي قد وصفه بأنه عماد المؤامرة الارهابية ، والذراع الأيمن لأبيه ورئيس اركانه ، الذي يعطي بلاشفة مرموقين قدامى تعليمات حول طريقة خوض عملهم داخل الاتحاد السوفياتي . وكان حكم المحكمة يتناوله بتعابير مماثلة لتلك المستخدمة بصدد والده . كان يرى نفسه الآن مضطراً بالفعل للعمل عوضاً عن أبيه . كانت أسابيع قليلة قد انقضت منذ محاكمة زينوفييف ـ كامينيف ، حين نشر مؤلَّفه ، **الكتاب الأحمر حول محاكمات موسكو** ، أول دحض وقائعي للاتهامات الستالينية وأول تعرية مفصلة لتناقضاتها . أثبت أنه لم يكن يوماً مع

---

(١٠٨) المحفوظات ، القسم المقفل .

والده في كوبنهاغن وأن فندق بريستول حيث التقى المتآمرين ، حسب مزاعم فيشنسكي ، لم يكن موجوداً . وقد نفذ الى عمق لغز الاعترافات حين قال إنه بالنظر لإعلانات الاتهام الذاتي الصادرة عن المتهمين ، والمرتكزة الى الغياب الكلي للوقائع والاثباتات ، بالإضافة الى ترداده‍م الحرفي للأحكام التي كان يطلقها النائب العام ، واندفاعهم في التشهير بأنفسهم ، كانوا يقولون للعالم : « لكن ألا ترون أن هذا كله من قبيل الكذب ، كذبة لا تُصدَّق من ألفها الى يائها ؟[109] »

إلا أنه كان يهزه حتى أعمق أعماقه مصاب البلاشفة القدامى وإذلالهم الذاتي . فقد عرفهم منذ طفولته ، ولعب مع أولادهم في ساحات الكرملين ومماشيه . في مراهقته ، كان ينظر اليهم باحترام كرجال الثورة العظام وأصدقاء والده ، وكانت تلك المشاهد لا تزال حية تماماً في نفسه حين دافع عن شرفهم كالتالي : « كانت القوة المعنوية الداخلية لزينوفييف وكامينيف فوق الوسط

> بكثير ، مع أنها بدت غير كافية في ظروف استثنائية تماماً . إن مئات الألوف من الناس . . . لم يكونوا ليستطيعوا تحمل واحد على مئة من الضغط المتواصل والمخيف الذي أُخْضِع له زينوفييف وكامينيف وباقي المتهمين . » لكن « **ستالين يريد رأس تروتسكي ، وهذا هو هدفه الأساسي ، وسوف يلجأ الى الأحابيل القصوى والأكثر إجراماً للوصول الى هذا الهدف . . . إنه يكره في تروتسكي التجسيد الحي لأفكار ثورة أوكتوبر وتقاليدها . . .** » .

لما كانت الغيبيو غير مكتفية بانتصاراتها داخل روسيا ، فقد كانت تسعى ، في الواقع ، لابادة التروتسكيين في الخارج . كان رجالها يتهمون التروتسكيين الاسبانيين بتخريب الجبهة الشعبية وبمحاولة اغتيال قادتها ، ويشهِّرون بالتروتسكيين البولنديين على أنهم عملاء الشرطة السياسية البولندية وبالتروتسكيين الألمان على أنهم عملاء الغستابو .

> « يتمثل هدف ستالين في حصر كل التباينات السياسية داخل الحركات العمالية بهذه الصيغة : إما غيبيو أو غستابو . فمن ليس مع

---

(109) B.O ، العددان ٥٢ ـ ٥٣ ، اوكتوبر ١٩٣٦ . الكتاب الاحمر حول محاكمات موسكو .

الغيبيو هو مع الغستابو . وهو يستخدم اليوم هـذه الطريقـة ، بشكل رئيسي ، في صراعه ضد التروتسكية ، وسوف يتحـول بها غـداً ضد مجموعات أخرى في الطبقة العاملة . . . الويل للحركة العمالية العالمية إذا برهنت على أنها عاجزة عن الدفاع عن نفسها بوجـه هذا السهم القتّال . (١١٠) »

ويصف تروتسكي الارتياح الذي تلقى به في هوروم أول نسخة من **الكتاب الأحمر** : « ثمة اشكال من الشلل يمكن أن يرى فيها المرء ، ويسمع ويفهم كل شيء ، في الوقت الذي يكون عاجزاً فيه عن رفع خنصره لإبعاد خطر مميت ، هذا الشكل من الشلل السياسي هو ما أخضعتنا اليه حكومـة النروج الاشتراكية . أي هدية لا تقدر بثمن كان كتاب ليوفا بالنسبة الينا في هكذا ظروف . . .أتذكر أن الصفحات الأولى بدت لي باهتة ، إذ كانت تكرر تقويماً سياسياً مألوفاً بالنسبة لي . . . لكن ما أن بدأ المؤلف تحليله الخاص به للمحاكمة ، حتى انشغفت بصورة كلية . فكل فصل كان يبدو أفضل من سابقه ، وكنا نردده ، زوجتي وأنا : « يـا عزيـزنا الشجاع ليوفا ، إن لنا من يدافع عنا(١١١) . »

وفي المراسلات بين ليوڤا وبينهما ، المفعمة بالألم والقلق والحنان ، كان ليوڤا يصف كل ما يفعله من أجل القيام بحملة ضد التطهيرات ، وينقل الى والديه كل كلمة تشجيع وتعاطف تأتيه من الاصدقاء الحقيقيين ، القليلين جداً للأسف .

إلا أن المشهد الرهيب الذي كان متورطاً فيه ، كان يفوق على الأرجح ما يمكن حساسيته أن تتحمل . كان الهدف الأهم بالنسبـة للغيبيو ، بعـد والده مباشرة ، وكان الشعور بأن ثمة من يتجسس عليه ، وبأن بريده يقع في يد خفية ، لا يفارقه إطلاقاً . كان يخشى أن يتعرض للخطف ، وكان وحيداً ، دون دفاع ، ولم يكن يستطيع الاعتماد الا على رفاقية العصبة الصغيرة من التروتسكيين الذين كانوا يحيطون به . وجد بعض التعزية في صداقة ألفرد ومارغريت روسمـر ، اللذين هرعا لنجدة والده ، متناسيين كل سوء التفاهم في المـاضي وصافحين

---

(١١٠) المرجع ذاته .

(١١١) B. O ، العدد ٦٤ ، آذار / مارس ١٩٣٨ .

عنه . لكن الشخص الذي كان يحظى بثقته أكثر من الجميع في الدائرة الضيقة لرفاقه ، هو مارك زبوروفسكي ، وكان شاباً مثقفاً جداً ، درس الطب والفلسفة ، وكان يعمل في التنظيم باسم اتيان المستعار . كان يساعد في إصدار الـ Bulletin ويشغل دوراً في لجنة روسية صغيرة كان عليها أن تهتم بالمعارضة في الاتحاد السوفياتي ، وقد سمح له ذلك بأن يردَّ لتروتسكي العديد من الخدمات الصغيرة ويحظى بثقة ليوڤا .

إلا أن هذا « الصديق » الدال على ثقافة جيدة والمتحمس لم يكن غير عميل استفزازي ستاليني ، وكان فن النفاق والتمويه لديه يبلغ درجة لم يستطع معها كل من ليوڤا وتروتسكي أن يشعرا حياله بأدنى شبهة ، وكانت ثقة ليوڤا به كلية الى حد أنه كان يترك له مفتاح صندوق رسائله من حيث كان يأخذ البريد لنفسه . كانت اليد الخفية التي « احتجزت » مراسلات ليوڤا هي يد اتيان . وكان كذلك المستودع للملفات الأكثر سرية في محفوظات تروتسكي ، وكان يحتفظ بتلك الملفات لديه(١١٢) .

قبل أشهر من احتجاز تروتسكي ، طلب الى ليوڤا أن يودع قسماً من المحفوظات في المعهد الهولندي للتاريخ الاجتماعي . وقد فعل ذلك ، جزئياً لأنه كان بحاجة كبرى الى المال ولأن المعهد وافق على أن يدفع مقابل الأوراق التي عرضها مبلغاً متواضعاً قدره خمسة عشر ألف فرنك فرنسي (متدني القيمة) ؛ لكنه كان يحركه بوجه خاص خوفه من أن تحاول الغيبيو الاستيلاء على محفوظاته ، وكان متلهفاً لوضعها في مكان أمين . في أيام تشرين الثاني / نوفمبر الأولى ، أودع ليوڤا واتيان عدداً من الملفات في الفرع الباريسي للمعهد في ٧ ، شارع ميشليه . وكان يدير ذلك الفرع آنذاك بوريس نيكولاييفسكي ، المنشفي المعروف ، الذي كان مساعداً لفترة في معهد ماركس ـ انجلز في

---

(١١٢) فيما بعد ادلى اتيان (مارك زبوروفسكي) باعترافه ، وفي كانون الاول / ديسمبر ١٩٥٥ حكمت عليه محكمة اميركية بالسجن خمس سنوات بسبب اعطائه شهادات كاذبة . وتستند روايتي للعلاقات بين اتيان وليوڤا الى المراسلة مع تروتسكي ، والى الافادات التي اعطاها كل منهما للشرطة الفرنسية والقضاة الفرنسيين . وقد روى قصة اتيان في Newleader هـ . كاسون ، في ٢١ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٥٥ ، ودافيد ج . دالين (١٩ و ٢٦ آذار / مارس ١٩٥٦) . انظر ايضاً hearing before the U S Senate Subcommittee on Internal Security الجزء ٥١ ، ١٤ و ١٥ شباط / فبراير ١٩٥٧ ، ص ٣٤٢٣ ـ ٣٤٢٩ . انظر ايضا اسحق دون ليڤين : The Mind of an Assassin .

موسكو . وقد تمت المعاملة على سبيل التجربة ، بينما بقي الجزء الأكبر من المحفوظات ، بما فيها الأوراق الأكثر سرية ، لدى اتيان(١١٣) .

ما أن اودعت الملفات في شارع ميشليه حتى تمت عملية سطو هناك في ليل ٦ ـ ٧ تشرين الثاني / نوفمبر ، وسرقت بعض الملفات . وللحال جرى الاشتباه بأن الأمر من فعل الغيبيو . لم يضع مقترفو السطو يدهم على المال والاشياء الثمينة التي اكتشفوها ، واكتفوا بأوراق تروتسكي . من كان يمكن ان يفعل ذلك غير عملاء للغيبيو ؟ لقد حيّرت الشرطة الفرنسية المهارة التي رافقت عملية السطو وقررت أن ذلك لا يمكن ان يكون فعل اشقياء فرنسيين ، بل فقط فعل عصابة دولية قوية . وقد استجوبت ليوڤا الذي اتهم الغيبيو . لكن كيف وممن تمكنت الغيبيو أن تعرف بتلك السرعة ان الملفات أودعت في شارع ميشليه . من كان على علم بالمعاملة ؟ هنا اعلن ليوڤا انه بالاضافة اليه ، كان ثلاثة اشخاص فقط على معرفة بالموضوع : نيكولاييفسكي ، والمدعوة مدام استرين ، المستخدمة في المعهد الهولاندي واتيان ، وقد أكد تجرد الثلاثة ، مع انه اشتبه بأن يكون نيكولاييفسكي زوّد الغيبيو ، دون علم منه ، في محادثة غير محترسة ، بمؤشرات ساعدتها في عملها . وسألت الشرطة : وإتيان ؟ فأجاب ليوڤا ان إتيان فوق كل الشبهات ، وافضل دليل على ذلك هو انه في وقت السطو بالذات ، كان يحتفظ بالاقسام الأهم من المحفوظات في بيته(١١٤) . هكذا بدا ان معرفة من يمكن ان يكون اعلم الغيبيو بتسليم الملفات مسألة مستحيلة الحل .

لوحظ آنذاك ان الذين قاموا بعملية السطو لم يتمكنوا من أن يستولوا إلا على قصاصات صحف واوراق لا أهمية لها نسبياً ، لكن لم يكن احد يشك في ان الغيبيو التي لا بد ان يكون خيَّبها هزال ما اختلست ، قد تبادر الى عملية اخرى اكثر جدية ، وحتى نهاية حياة تروتسكي سوف يقلق على أمن محفوظاته بقدر ما سيقلق على امنه الشخصي ، تقريباً . الا ان الغيبيو لم تقم أبداً بتلك المحاولة الاخرى المتخوَّف منها الى ذلك الحد ، وكان في ذلك لغز آخر . لكن على ضوء الوقائع المذكورة اعلاه ، من الواضح انها لم تكن تحتاج للاستيلاء على المحفوظات ، لأنه كان في وسعها الحصول عليها او الحصول على نسخ عنها عن طريق زبوروفسكي مباشرة . لا بد انها اخرجت عملية السطو في باريس كخدعة لحماية اتيان وتعزيز ثقة تروتسكي وليوڤا به . ولا شيء في الحقيقة كان يمكن ان يبعد

(١١٣) ليوڤا ، مذكرة للتحقيق ، ١٩ نوفمبر ١٩٣٦ . المحفوظات ، القسم المقفل .

(١١٤) المرجع ذاته .

بصورة اكثر جزماً كل شبهة عنه ويوجهها في اتجاهات اخرى غير واقع انه احتفظ بالأرشيفات بأمانة في مسكنه ، بينما بدا ان الغيبيو تفعل المستحيل للاستيلاء عليها .

في هوروم ، كانت الأشهر تمر بطيئة وفي رتابة شديدة ، وما كان شيء يدعو الى توقع ان تنفتح الشبكة التي كان تروتسكي عالقاً بها ، او حتى ان ترتخي خيوطها . كان أنصاره الاميركيون يبذلون كل ما في وسعهم لكي تمنحه المكسيك حق اللجوء ، لكن لم يكن اكيداً إطلاقاً أنهم سينجحون في مهمتهم . ومع أن تروتسكي كان نافد الصبر لمغادرة النرُوج ، فقد كان يبدي بعض النفور في فترة بذلك الحرج من السعي وراء ملجأ في بلد بعيد الى ذلك الحد ، ومشهور الى تلك الدرجة من السوء بسياسته التآمرية (ذكره ليوڤا بأنه يمكن ان يجد المرء قاتلاً مقابل عدة دولارات)(١١٥) . كان لا يزال لديه وميض أمل بأن يتوصل لاسماع صوته حتى في النروج . ففي ١١ كانون الاول / ديسمبر ، كان سيمثل من جديد كشاهد في قضية كانت تتمادى في الطول ، قضية رجال كيسلنغ الذين اقتحموا بيته في هونفوس عنوة ، وكان يعوّل هذه المرة على ان الحكومة لن تجرؤ على توقيف اجراآت المحاكمة . إلا ان وزير العدل تدخل مرة اخرى لا لوقف الدعوى ، بل للأمر بالمحاكمة السرية . هكذا إذاً ، حين ظهر تروتسكي على منصة الشهود ، محاطاً برهط من رجال الشرطة ، أخرج من القاعة الجمهور ومخبرو الصحف ، وخلافاً لما حصل في الجلسة العلنية السابقة ، فبعد ان تم ترتيب كل شيء بحيث يجري إلغاء شهادة تروتسكي ، عامله الرئيس باحترام ولياقة لطيفين . وخلال عدة ساعات متواصلة ، دافع تروتسكي بنفسه عن قضيته ، داحضاً الاتهامات الستالينية بالقوة والوقار اللذين كان ظهرا لديه لو كان يتوجه لحضور عالمي . ولم يقاطعه الرئيس مرة واحدة ، حتى حين هاجم وزير العدل النروجي واصفاً إياه بشريك ستالين . كان شبه مضحك من جانب تروتسكي ان يقوم بتلك المرافعة ، وهي رائعة حقيقية من روائع الفصاحة امام القضاء ، في محاكمة شبه تافهة ، وفي قاعة مقفلة . لكن مستقبله كان يبدو له الآن مشكوكاً به الى حد بعيد ، وكان يشك كثيراً في ان تتوفر له يوماً إمكانية عرض قضيته ، بحيث استفاد من تلك المناسبة لعرضها ، حتى لو لم يكن ذلك إلا لمحضر جلسة محاكمة(١١٦) .

ترك لنا بعض شهود العيان لمحات حية جداً عن تروتسكي خلال احتجازه .

---

(١١٥) من ليوفا لأبويه في ٧ كانون الاول / ديسمبر ١٩٣٦ . المحفوظات ، القسم المقفل .

(١١٦) تروتسكي ، Stalin's verbrechen ، ص ٣٧ و ما بعدها (تكلم بالالمانية) .

وصف آسكفيك ، أحد الضباط المسؤولين عن الحراسة ، في مذكراته غير المنشورة، عنفوانه الهادىء وكبرياءه وتحكمه بنفسه. يقول آسكفيك إن تروتسكي كان يقدم، عند كل تقييد لحريته، احتجاجاً ويظهر حقوقه دون أن يسيء أبداً لحراسه الذين كان يكلمهم بلغة نروجية سليمة وطلقة[١١٧] . ويتذكر بونترڤولد ، المحامي النروجي ، الاهتمام المتواصل الذي تابع به تروتسكي الانتخابات . كان مهموماً إزاء فكرة ان كنودسن قد ينهزم ، لأنه تقدم للانتخابات البرلمانية في دائرة ذات غالبية محافظة ، وكانوا يهاجمون فيه مضيف تروتسكي . كان بونترڤولد في هورروم حين بلغه نبأ أن كنودسن انتخب بغالبية واسعة ، وهو ما لم يكن متوقعاً . وقد روى أن تروتسكي المفعم فرحاً أمسك بناتاليا بين ذراعيه وراح يرقص معها احتفالاً بنجاح صديقهما (الذي كان يشبه الى حد بعيد صفعة على وجهه الحكومة) . كان صدق كنودسن الذي لا يتزعزع ، والحملة النشطة واللامعة التي خاضها هلج كروغ ، وكان كاتباً راديكالياً ، في الصحيفة الليبرالية في اوسلو ، داغبلادت ، دفاعاً عن تروتسكي ، بين التعزيات القليلة التي بقيت له في تلك الأشهر الكئيبة[١١٨] .

زار تريغفي لي تروتسكي في هورروم ، ربما مرتين او ثلاث مرات . وصل المرة الاولى في ١١ أو ١٣ كانون الاول / ديسمبر ، لينذر تروتسكي بأنه سيجري نقله من هورروم الى مكان احتجاز ابعد الى الشمال ، واكثر استعصاء على البلوغ ، لأن الوزارة لا يمكنها ان تستمر في دفع تكاليف عدد كبير من رجال الشرطة كانوا يؤمنون حراسته في هورروم . حينئذ قال تروتسكي للي ان اصدقاءه ـ اشار هنا إلى اسم دييغو ريڤيرا ـ ينوون نقله الى المكسيك ، وانه قد يفضل المضي الى هناك بدل أن يؤخذ الى الصحراء في اقصى شمال النروج . وفي حين كانا يتحادثان ، لاحظ لي اعمال ايبسن على طاولة تروتسكي ، فسأله : « انت تقرأ إيبسن إذاً ؟ أجاب تروتسكي : ـ « نعم ، أعيد قراءة هذه المؤلفات . كنت مشغوفاً بإيبسن في صباي ، وقد عدت الآن اليه » .

والحوار الذي تلا جدير بايبسن بالذات . فقد لاحظ تروتسكي كم أن فكرة عدو الشعب يمكن أن تنطبق على الوضع الذي كان موجوداً فيه هو والوزير . فردَّ لي بصورة غامضة بأن ايبسن يمكن أن يفسَّر بطرق مختلفة .

(١١٧) أدين للطف السيدة آسكفيك ، ارملة ضابط الشرطة ، ببعض هذه التفاصيل . حين علمت في نيسان / ابريل ١٩٥٦ اني في اوسلو ، جلبت مذكرات زوجها الى كنودسن ، طالبة اليه ان يسلمها لي ، وقد عرف كنودسن باندهاش ، وهو يترجم لي المقاطع المتعلقة بدراستي ، أن تروتسكي كان يعرف النروجية جيداً . ففي هونفوس كانا يتحادثان بالالمانية في العادة .

(١١٨) تروتسكي ، **Stalin's verbrechen** ، ص ٧٧ ـ ٧٨ . وكل تفصيل في هذه الرواية تؤيده مصادر أخرى .

« مهما يكن التفسير الذي تعطيه إياه ، فسوف يشهد باستمرار ضدك . أتتذكر العمدة ستوكمان ؟ » فسأل الوزير عندئذ إذا كان تروتسكي ينوي حقاً مقارنته بالمجرم في عمل إيبسن ، الذي يدمر أخاه حباً بالسلطة وبالمصالح المالية . فقال تروتسكي : « بالعمدة ستوكمان ؟ ... في أحسن الأحوال ، أيها السيد الوزير ، في أحسن الأحوال . إن حكومتك تنطوي على كل مساوىء **الحكومة البورجوازية ، دون ان يكون لها فضائلها** . »

وقرصت هذه الملاحظة الوزير ، فاغتاظ لعقوق تروتسكي ، قائلاً انه ارتكب حماقة حين سمح لتروتسكي بالمجيء الى النروج . فرد تروتسكي : « **وانت تستعد الآن للتعويض عن هذه الحماقة باقتراف جريمة** » . ثم فتح المجلد الذي كان يضم دراما إيبسن وقرأ بصوت جهوري التحدي الذي وجهه الدكتور ستوكمان لأخيه المجرم . « **سنرى إذ كانت الدناءة والجبانة قويتين بما يكفي لإغلاق فم الانسان الشريف ، الانسان الحر** » . وقد أنهى ذلك المحادثة ، ونهض الوزير ، الا انه قبل ان يمضي مد يده لسجينه ، فرفض تروتسكي أن يصافحه(١١٩) .

بعد أسبوع ، عاد لي ليقول لتروتسكي ان المكسيك منحته اللجوء وانه هو ، لي ، قد استأجر ناقلة نفط سيبحر على متنها في الغد تروتسكي وامرأته ، بخفارة جوناس لي ، قائد شرطة الحراسة في هوروم . وقد أيقظت سرعة ذلك الإبعاد وتفاصيله حدوساً قائمة في نفس تروتسكي . فسأل لماذا لا يترك له الوزير اكثر من ٢٤ ساعة لاعداد نفسه لتلك الرحلة ؟ لماذا لا يحرَّر من حالة الاحتجاز التي كان يعاني منها ؟ طلب إليه ان يُسمح له بالرحيل كرجل حر ، وبرؤية أصدقاء ، وتسوية أموره وجمع أوراقه والاتصال بالحكومة المكسيكية ، واختيار الطريق التي سيسلكها والقيام بكل الاعدادات الضرورية لأمنه . ثم سأل ماذا سيحدث لو سمع ستالين بأمر ناقلة نفطك ؟ يمكن ان يجري تدميرنا في أعالي البحر وألا نبلغ المانش ابداً . وكان يريد حتى ان يعرف إذا كان المركب مزوداً بوسائل الدفاع . فرفض الوزير الاستجابة لأي من الاشياء التي طالب بها ، لكنه حاول ان يطمئنه بصدد أمن الرحلة . أعلن انه ما من احد يعرف بهذه الخطة ،

---

(١١٩) تروتسكي ، **Stalin's Verbrechen** ، ص ٧٧ و ٧٨ ويوميات تروتسكي في المحفوظات ، القسم المقفل . كروغ ، المرجع المذكور .

إلا هو ومجهز الناقلة . طلب إليه تروتسكي حينئذٍ ان يُسمح له بالسفر عبر فرنسا . لا شك ان الفرنسيين سيمنحونه تأشيرة عبـور ، بعد أن مُنـح حق اللجوء إلى المكسيك . إلا أن لي واجه هذا الطلب أيضاً بالرفض . كان مستعجلاً لإخراج تروتسكي من البلد ، قبل ان يجتمع البرلمان لمناقشة تلك القضية ، وبدت عجلته لتروتسكي مشؤومة اكثر مما كانت بالفعل ، فقال له :

« طبعاً ، أنت في وضع يسمح لك بأن تقضي علينا جسـدياً ، لكنـك ستكسر عنقـك ، معنويـاً ، تمـامـاً كمـا كسـر الاشتـراكيـون ـ الديمقراطيون الالمان عنقهم على كارل ليبكنخت وروزا لوكسمبورغ . »

وكرر نبوءته :

من الآن إلى ثـلاث سنـوات او خمس . . . ستكـونـون كلكم مهـاجـرين . . . » ومـرة اخـرى ، ادار ظهـره للوزيـر ورفض ان يصافحه[١٢٠] .

كان يشعر بأنهم يدفعون به من فخ الى آخر ، ولم يكن متيقناً مما يمكن ان يحدث في الطريق لناتاليا وله شخصياً . وفي حين كانت ناتاليا تعد الحقائب ، كتب بالحبر السري مقالاً بعنوان : « يا للعار ! » أعد ذلك المقال ليكون رداً على المفترين ، ولا سيما على المحامين الفرنسيين والانكليز المشهورين الذين كفلوا السلامة القانونية لمحاكمة زينوفييف ــ كامينيف . كان احد أولئك المحامين هو K. C.[١٢١] . وآخر كان رجلاً مرموقاً في رابطة حقوق الانسان ، والاثنان امتدحا محكمة موسكو لانها لم تحكم على تروتسكي غيابياً بالموت . وعلق تروتسكي على ذلك كالتالي : « كل امرىء يعرف شيئاً عن التاريخ الثوري ، وعلم النفس البشري و . . . سِيَر حياة الناس الداخلين في هذه القضية ، سيوافق على أن هناك مبررات للاعتقاد في هذه القضية ، سيوافق على أن هناك مبررات للاعتقاد بأن هذين المحاميين هما في خدمة ستالين اكثر الف مرة من مبرراتٍ للتسليم ، ولو لدقيقة واحدة ، بأن تروتسكي يمكن ان يكون حليفاً للغستابو . وهذا لن تستطيع كل روابط حقوق الانسان في النظام الشمسي بكامله ان تعطي البرهان عليه . . . سوف أرد بصورة نهائية على المتَّهِمين وخدمهم . . . في مكسيكو ، **إذا قيض لي**

---

(١٢٠) المرجع ذاته .

(١٢١) King's Counsel (محام لمجلس الملك في انكلترا) . (ملاحظة للمترجم الفرنسي) .

ان اصل الى هناك . » اراد قبل ان يبدأ الرحلة ان يترك هذا المقال وراءه ، مثلما يلقي البحار الغارق القنينة في البحر[١٢٢] . وكتب الى ليوڤا :

« يبدو أنهم سيبعدوننا غداً الى المكسيك ، وهذه الرسالة هي بالتالي الاخيرة بيننا من اوروبا . إذا حدث لنا شيء في الطريق او في أي مكان آخر ، ستكون انت وسرجي وريثيَّ ، وسيكون لهذه الرسالة قيمة الوصية . . . ما افكر به في هذه اللحظة إنما هي حقوقي كمؤلف في المستقبل ، فليس لديَّ شيء آخر ما عدا ذلك ، واذا قيض لك ان تلتقي سرجي مجدداً . . . قل له اننا لم ننسه يوماً واننا لا ننساه لحظة واحدة[١٢٣] »

وفي حين كان يكتب تلك الكلمات ، قدم له كل من طبيبه ومحاميه وجابي الضرائب فاتورته الخاصة به ، ولكي يحصلوا على ما يطالبون به حجزوا حسابه في المصرف[١٢٤] .

في ١٩ كانون الأول/ ديسمبر ، غادرت ناقلة النفط **روث** النروج ، وعلى متنها تروتسكي وناتاليا وحراسهم من رجال الشرطة وحسب . وقد بلغت السرية التي احيط بها ذلك الابعاد درجة انَّ خفراء من الشرطة ظلوا لعدة ايام بعد الرحيل يقفون خارج مكان الاحتجاز في هوروم ، ليعطوا الانطباع بأن تروتسكي لا يزال هناك . وفي البدء ، كان البحر هائجاً ، وقد قرأ تروتسكي وناتاليا ، في حجرتهما ، كتباً حول المكسيك ، وهما يتساءلان ما عسى يخبىء لهما المستقبل ؛ ثم حين بدأ يهدأ البحر ، شرع تروتسكي يكتب ، بشكل يوميات جزئياً ، تحليله لمحاكمة زينوفييف وكامينيف ، الذي جعله جزءاً من كتابه **جرائم ستالين** . عمل بقساوة خلال ثلاثة اسابيع ، في حين كانت السفينة تغيّر اتجاهها ، وتتحاشى الطرق العادية ، لكن العالم بأسره كان قد علم بذلك الابعاد ، وكانت وكالات الصحافة متحرقة لأخذ احاديث من تروتسكي عبر الراديو . إلّا ان قائد **روث** تلقى من أوسلو ، أمراً بأن يحظر عليه استخدام محطة الارسال . وكان تروتسكي وناتاليا لا يزالان يعاملان على متن تلك السفينة الفارغة كشخصين

---

(١٢٢) ظهر المقال في اول عدد من الـ B.O. ، العددان ٥٤ ـ ٥٥ ، آذار/ مارس ١٩٣٧ ، الصادران بعد ابعاد تروتسكي الى خارج النروج .

(١٢٣) هذه الرسالة المؤرخة في ١٨ كانون الاول/ ديسمبر ١٩٣٧ ، كُتبت بالفرنسية .

(١٢٤) المحفوظات ، القسم المقفل .

محتجزين ، وحتى اثناء طعامهما كان حراسهما يستمرون في البقاء ملتصقين بهما .

كتب تروتسكي في **يومياته** بتاريخ **٣١** كانون الاول ديسمبر **١٩٣٦** : « سيكون العام المنتهي في التاريخ عام قايين » . وفي الغد الباكر ، حيت روث السنة الجديدة بصفاراتها . لم يجب احد ، ولم يكن هناك تمنيات حارة من الفصل . فقط ضابط الشرطة الفاشي توجه نحو الطاولة التي كان تروتسكي وامرأته يتناولان طعامهما عليها ، مقدماً بأسلوب مزخرف افضل التمنيات التي تلقاها شخصياً من وزيره الاشتراكي . كان يبدو أن العالم يغوص في هوة من العبث . وبإحدى المصادفات الغريبة التي تحبك كل حياة تروتسكي ، كان قد مرّ عشرون عاماً بالضبط على مغادرة تروتسكي اوروبا للمرة الأخيرة ، عن طريق البحر ، منفياً أيضاً ، مطروداً من بلد كان قدم له ملجأ مؤقتاً(١٢٥) . لكن في عام **١٩١٧** ، كان العالم في حالة حرب ، وكانت البحار مبتلاة بالغواصات . امّا الآن فكان العالم يبدو في حالة سلام ، وما من غواصة كانت تختفي في المحيط . إلاّ ان توتراً شبيهاً بتوتر الحرب كان يسود على متن ناقلة النفط ، وكان تروتسكي يذكر في يومياته ان القبطان والبحارة لم ينفكوا يلمِّحون الى الغيبيو ، في الوقت الذي يتحاشون فيه التلفظ بهذا الاسم ، كما لو كانوا يشيرون بكلمات مموهة الى صخور تحت الماء . وقبل عشرين عاماً ، كان تروتسكي قد كتب اثناء رحلته : « انها المرة الأخيرة التي القي فيها نظرة على اوروبا القديمة السافلة هذه » ، لكن ليعبر المحيط مرة اخرى ، بسرعة ، بعد ثلاثة اشهر . كان الآن قد القى في الواقع نظرته الاخيرة على تلك السافلة العجوز ، لكن فيما كان يغادر اوروبا ، كان رأسه وقلبه ممتلئين بجلبتها الجهنمية ، وكانت افكاره ترفرف فوق القبور التي تركها خلفه ، قبري ابنتيه الاثنتين ، وقبور عدد كبير من الاصدقاء والأنصار ، وقبور عدد كبير من الآمال .

---

(١٢٥) النبي المسلح ، ص ٢٦٣ .

الفصل الخامس

ليل الجحيم الأسود

في اللحظة التي دخلت روث فيها الى ميناء تامبيكو النفطي الكبير ، في ٩ كانون الثاني/يناير ١٩٣٧ ، كان تروتسكي وناتاليا لا يزالان يخشيان ما يمكن ان ينتظرهما في المكسيك ، الى درجة انهما رفضا النزول الى اليابسة ، إلا اذا اتى اصدقاء يستقبلونهم . كانت الشرطة تهدد بإنزالهما عنوة حين اقترب مركب صغير من السفينة وخرج منه جنرال مكسيكي يصحبه موظفون ، حاملاً رسالة ترحيب من لازارو كارديناس ، رئيس المكسيك . (كان الرئيس قد أرسل قطاره الشخصي لحمل تروتسكي وناتاليا من تامبيكو) . على رصيف الميناء ، كان تروتسكيان أميركيان ، هما جورج نوفاك وماكس شاختمان ، يحيّيان بمودة ، وكانت فريدا كاهلو ، زوج دييغو ريڤيرا ، تنتظر كذلك لعرض الضيافة عليهما . كان التناقض بين استقبال المكسيك الحار والرحيل الجليدي من النروج فظاً وجافياً الى درجة انه بدا وهمياً . حين دخل تروتسكي وناتاليا القطار الرئاسي ، وجدا نفسيهما وجهاً لوجه مع رجل شرطة وجفلا مجدداً . كتبت ناتاليا : « استولى علينا الخوف . . . فربما كانوا يقودوننا الى مكان أسر آخر . » . وفي محطة صغيرة قرب مكسيكو ، استقبلهما دييغو ريڤيرا بفيض من الحماس ومضى بهما الى كويواكان ، وهي ضاحية من ضواحي العاصمة ، حيث « بيته الأزرق » الذي سيقيمان فيه طيلة العامين اللاحقين . كان يبدو ان ذلك المكان قد تم تصوره لتهدئة الاعصاب المتعبة : كان واسعاً ، ومشمساً ، ومغطى باللوحات ، وممتلئاً بالزهور والفنّيات الهندية والمكسيكية . لدى كل خطوة ، كان القادمان الجديدان يجدان علامات مشجعة على الاهتمام الذي اعد به أصدقاؤهما الاميركيون والمكسيكيون ذلك المسكن الجديد لهما ، وفكروا بحمايتهما الشخصية وقدموا لهما تسهيلات العمل . لذا فإن الايام الاولى التي امضياها في مكسيكو حملت اليهما تعزية غير متوقعة اطلاقاً ، ــ كان هنالك حتى ما يشبه جو الانشودة الرعوية

سريعة الزوال حولهما[١] .

كان لمناخ البلاد السياسي وجوه جذابة أيضاً ، فالثورة المكسيكية كانت لا تزال في أوجها . فكاردناس سبق ان وقّع قبل وقت قصير مرسوماً يتم بموجبه توزيع بعض الملكيات الزراعية الكبرى (لاتيفونديا) على الفلاحين الفقـراء ، وكان على وشك تأميم شركات النفط وسكك الحديد التي كان يملكها الاميركيون والبريطانيون . وكان المساهمون الاجانب ، ومُلّاك الاراضي في البلد ، والكنيسة الكاثوليكية ، يعارضون ذلك ، وكانت العلاقات بين المكسيك والولايات المتحدة متوترة ، لكن كان يؤازر كاردناس الفلاحون واتحاد الشغيلة المكسيكيين ، الذي كان قد غدا فجأة قوة سياسية كبرى .

إذ منح كاردناس تروتسكي حق دخول البلاد ، بناء على التماس ريفيرا وبمبادرة من محيطه ، كان يتصرف بوحي التضامن الثوري . فلقد أعلن انه لم يمنح تروتسكي فقط حق اللجوء ، بل دعاه للإقامة في المكسيك كضيف على الحكومة . ومنذ اللحظة الأولى ، بذل كل ما في وسعه لحماية مدعوِّه في وجه عواصف الحقد التي كانت تتراكم على رأسه ، وسوف يفعل ذلك حتى النهاية . ومع ذلك ، فقد كان وضعه الخاص به حساساً ؛ فمن جهة ، سرعان ما بدأ أعداؤه السياسيون يلمِّحون الى ان تروتسكي هو ملهم سياسته الثورية ، وانتشر هذا التعريض في الصحف الاميركية[٢] . من جهة اخرى ، لما كان اتحاد الشغيلة المكسيكيين (وكان دعمه ضرورياً لكاردناس) قلعة ستالينية ، فقد احتج زعيمه ، لومباردو توليدانو ، والحزب الشيوعي ، بشدة ضد الترخيص الممنوح لتروتسكي وأعلما الرئيس بأنه لن تكون هناك اية هدنة حتى يتم طرد « قائد الطليعة للثورة المضادة » . وقد اهتم كاردناس ذاته بعدم السماح بتصديق الاشاعة التي تتهمه بمصادرة الاسهم البريطانية والاميركية بناء على تحريض تروتسكي . وكان اكثر اهتماماً أيضاً بتهدئة اتحاد الشغيلة المكسيكيين . زد على ذلك انه هو ذاته كان

---

(١) يبرز هذا بوضوح في الرسائل الاولى التي وجهها تروتسكي الى ليوفا ، حيث يبلغه افتتانه بأرض اللجوء الجديدة تلك وبمناخها ، وحتى بخضارها وأثمارها .

(٢) في تاريخ لاحق ، رأى كاردناس ان من الضروري دحض ذلك التعريض.انظر La Prensa ، ١٢ نوفمبر ١٩٣٨ . وقد فكر تروتسكي بملاحقة صحيفة أميركية (النيويورك دايلي نيوز) اطلقت هذه هجمات عنيفة متهمة اياه بانه الروح الشريرة لكاردناس ، لكنه تخلى عن ذلك ، حين اعلمه اء غولدمان بأنه ليس له اي مبرر شرعي لاقامة دعوى . انظر مراسلة تروتسكي مع غولدمان ، كانون الاول / ديسمبر ١٩٣٨ . المحفوظات ، القسم المقفل .

من الناحية السياسية بعيداً جداً عن كل شكل من اشكال التروتسكية ، وحتى الشيوعية . كانت ترشد ابن الفلاح الفقير هذا الراديكالية الزراعية والتجربة العملية لنضاله الوطني ضد الهيمنة الاجنبية . لذا اهتم كثيراً بألا يتورط في الصراعات الداخلية للحركة الشيوعية . وضمن هذه الظروف الصعبة واجه بكرامة زعيق الستالينيين ضد قبول تروتسكي في الاراضي المكسيكية . بقي بعيداً عن مدعوِّه ولم يلتقيا إطلاقاً . وقد طلب الى تروتسكي ان يعطيه كلام شرف بأنه لن يتدخل بشؤون المكسيك الداخلية . وأعطى تروتسكي ما طلب منه في الحال ، لكن لما كانت علمته تجربته المرة في النروج ، فقد بقي على سلاحه وتحفظ بصراحة حول « حقه الادبي » بالرد علناً على أي شكل من اشكال الاتهام او الافتراء[٣] . اما كاردناس فأعلن عن رضاه ، ولم يتبادر الى ذهنه إطلاقاً ان يسأل تروتسكي الامتناع عن كل نشاط سياسي ؛ لا بل هو ذاته جعل من نفسه المدافع عن حق تروتسكي في الدفاع عن نفسه في وجه كل الهجمات الستالينية ، وقد واظب على هذا الموقف ، المتمثل بالشهامة البعيدة لكن اليقظة . وغالباً ما عبر له تروتسكي عن عرفانه بالجميل ، واذ كان اميناً جداً لالتزامه فقد امتنع كلياً عن الادلاء بأي تصريح حول السياسة المكسيكية ، حتى في مجالسه الخاصة . ومع ذلك فان رأيه بسياسة كاردناس ، التي لم تكن تتخطى « الطور البورجوازي من الثورة » كان ينطوي ، بلا شك ، على قدر كبير من النقد .

خلال السنة الأولى في مكسيكو ، كان دييغو ريفيرا الصديق والحارس الاكثر إخلاصاً لتروتسكي . ان الرسام الكبير ، المتمرد في السياسة كما في الفن ، كان أحد مؤسسي الحزب الشيوعي المكسيكي وعضواً في لجنته المركزية منذ عام ١٩٢٢ . في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٢٧ ، شهد المظاهرات التروتسكية في شوارع موسكو ، وطرْدَ المعارضة ، وهزه ذلك بعمق . فقطع علاقته فيما بعد مع الحزب ، ومع دافيد الفارو سيكيروس ، الرسام المكسيكي الكبير الآخر ، صديقه الاقرب اليه ورفيقه السياسي ، الذي اصطف الى جانب ستالين . وقد هز الطابع الدرامي المؤثر لقدر تروتسكي خيال ريفيرا : كان أمام وجه ذي ابعاد بطولية ، بدا معداً لأن يشغل موقعاً مركزياً في لوحاته الجدارية الملحمية . وقد وضع ، بالفعل ، تروتسكي ولينين في مقدمة اللوحة الجدارية المشهورة التي تمجد نضال

---

(٣) الى ممثلي الصحافة المكسيكية ، ١٢ كانون الثاني / يناير ١٩٣٧ . **المحفوظات** .

الطبقات والشيوعية ، وهي لوحة زيّن بها جدران مركز روكفلر في نيويورك ، أمام استهجان كل أميركا حسنة السمعة والمحتشمة . كانت لحظة نادرة ومجيدة بالنسبة لريڤيرا ، حين قادت صدف القدر زعيمه ونبيَّه الى تحت سقفه في كويواكان . أما تروتسكي فكان معجباً منذ زمن طويل بأعمال ريڤيرا . لقد رأى على الأرجح لوحاته للمرة الأولى في باريس ، خلال الحرب العالمية الاولى ، وثمة إشارات الى اعماله في المراسلة العائدة الى مرحلة ألما ـ آتا عام ١٩٢٨[٤] . ريڤيرا الذي كان يبحث بشكل محموم عن شكل جديد للتعبير الفني ، كان يعبر تماماً عن وجهة نظر تروتسكي التي كانت ترى ان أصل مشكلة الرسم المعاصر يكمن في الطلاق بين فن العِمارة والحياة العامة ، وهو طلاق ملازم للمجتمع البورجوازي ولا يمكن تخطيه الا في الاشتراكية . كان الجهد للجمع بين الرسم وفن العمارة والحياة العامة يحرك فن ريڤيرا ، حيث كانت تمتزج تقاليد النهضة وتأثيرات غويا وإل غريكو بما للفن الشعبي الهندي والمكسيكي وبالتكعيبية . هذا التفاعل بين التراث والتجديد كان يرضي ذوق تروتسكي ، الذي كانت تسحره جسارة ريڤيرا المتحدية ، واندفاعات خيال محموم ادخل في رسومه الجدارية عظيمة الحجم جوانب من الثورتين الروسية والمكسيكية . كما ان تروتسكي لم يكن في وسعه الامتناع عن الافتتان أيضاً بمزاج ريڤيرا البدائي ، وبنزعة السير في النوم لديه ، وبـ «الاحجام والشهوات الغارغانتوائية[*] » التي كانت تجعل منه معجزة صاخبة وهادرة ، شبيهة بتلك الوجوه الخيالية التي تبدو في رسومه . وعلى النقيض من دييغو ، كانت امرأته ، فريدا ، الرسامة بدورها ، ذات الكآبة المرهفة ، والاستبطانية والرمزية ، والمرأة ذات الجمال الفاتن . كانت تنبعث منها روعة غريبة وحالمة ، حين تسير في فساتينها المكسيكية الطويلة الواسعة ، المتظلِّلَة بأناقة وترف ، والمزخرفة ، التي تخفي ساقاً مشوهة . بعد شهور كئيبة من الاحتجاز كانت متعة حقيقية ، وحتى مشاعر لذيذة ، لتروتسكي وناتاليا ، ان يجدا ملجأ لدى هكذا اصدقاء .

كان بإمكان متطلع قادر على النفاذ الى الطبائع أن يتساءل كيف سيتفاهم

(٤) كان اندريه نين ارسل الى تروتسكي في المارآتا مجلداً يضم صوراً عن لوحات ريفيرا ومنحوتاته ، وقد رد تروتسكي شاكراً إياه إرساله ذلك الكتاب اليه ، ومُعْلماً إياه انه يقدر هذا الكتاب . **المحفوظات** .

* ـ نسبة الى غارغانتوا ، الشخصية المشهورة للكاتب الفرنسي فرانسوا رابليه (م) .

تروتسكي وريفيرا ، وإذا كان ليس من المحتم ان يحدث تصادم ما بين الاثنين ، لأن ريڤيرا غير المكتفي باحتلال الموقع الاكثر سمواً في مجال الفن ، كان يرى نفسه أيضاً بصورة القائد السياسي . ولم يكن ثمة ما يستغربه المرء في ذلك : فالرسامون والنحاتون كانوا يلعبون دوراً خارق الاهمية في السياسة المكسيكية ، ومعظم اعضاء المكتب السياسي للحزب الشيوعي كانوا رسامين . (يمكن ان يكون التحريض السياسي بواسطة الفرشاة والازميل جذب جماهير الـ Campesinos الاميين ، لكن الموهوبين إحساساً فنياً ، بصورة اكثر مباشرة من اي شكل تحريض آخر). إلا ان ريفيرا كان ، بوصفه رجل سياسة ، تحت مستوى الهاوي بكثير ؛ كان ضحية باستمرار لمزاجه الهائج ، لكنه كبح ، بحضور تروتسكي ، على الاقل في بداية علاقاتهما ، طموحاته السياسية واكتفى بالدور المتواضع للتلميذ . أما تروتسكي فكان برهن دائماً ، حيال نزوات الفنانين السياسية ، عن تفهُّمٍ لطيف ، حتى حيال تلك الصادرة عن فنانين صغار لا يدين لهم بشيء . وفي حالةِ ريفيرا ، كان مستعداً للاعلان بأن في استطاعة العبقري أن يفعل ما يحلو له .

هكذا كان أمكن تروتسكي ان يميل الى تقدير نِعَم ملجئه الجديد ، لو لم ينكفىء على الفور تقريباً ومن جديد ، إلى صراعه المشؤوم . فيوماً بعد يوم ، كان يتعرض لتهديدات الستالينيين المحليين وموسكو ، وقد توجب ان يصدر الرئيس كاردناس الأمر بوضع حراس من رجال الشرطة خارج البيت الازرق . وفي الداخل ، كان يؤمن الحراسة التروتسكيون الاميركيون ، الذين أتوا ليعملوا كأمناء سر وكحراس . قدم أنصار تروتسكي الاميركيون المساعدة بلا تحفظ ، في تنظيم الدفاع عنه وتنظيم حملته في وجه محاكمات موسكو : كانوا قلة وكانوا فقراء ، لكن بذلوا ما في وسعهم ليساعدوه على إعادة الاتصال بأصدقائه واتباعه في العالم اجمع ، وعلى استئناف عمله . وقد كتب الى ليوڤا في اول شباط/ فبراير ١٩٣٧ : « يا له من حظ أن نكون تمكنّا من المجيء الى مكسيكو قبل بدء محاكمة موسكو الجديدة »(٥) .

بدأت المحاكمة الجديدة بعد ١٥ يوماً من نزوله الى اليابسة في تامبيكو . اخذ رادك وبياتاكوف ومورالوف ومورالوف وسوكو لنيكوف وسيريبرياكوف واثنا عشر

(٥) المحفوظات ، القسم المقفل .

آخرون امكنتهم على مقاعد الاتهام ، ومرة اخرى كان تروتسكي المتهم الرئيسي in absentia(*) . تـراكمت الاتهامـات بصورة اكثر تنافـراً وفـظاظـة وبعـداً عن التصديق . كان فيشنسكي يتكلم الآن على اتفاق رسمي بين تروتسكي وهتلر وامبراطور اليابان . فمقابل مساعدتهما لتروتسكي - حسب زعمه - في صراعه ضد ستالين ، كان تروتسكي يعمل على إنزال الهزيمة العسكرية بالاتحاد السوفياتي وتجزئته ، لأنه التزم inter alia بالتخلي عن اوكرانيا السوفيـاتية لصـالح الـرايخ الثالث . في غضون ذلك ، كان ينظم - ويقود - التخريب الصناعي في الاتحاد السوفياتي ، والكوارث في مناجم الفحم والمصانع وخطوط السكة الحديدية ، والتسميمات الجماعية لشغيلة سوفيات ، ومحاولات الاغتيال المتكررة ضد شخص ستالين والاعضاء الآخرين في المكتب السياسي . وقد كرر المتهمون اتهامات المدعي العام وزايدوا عليها . اعترف احدهم ، روم ، الذي كان مراسل الازفستيا في فرنسا ، بأنه رأى تروتسكي في باريس في تموز / يوليو ١٩٣٣ ، وانه تلقى منه تعليمات من اجل القيام بأعمال الارهاب . واعلن بياتاكوف أمام المحكمة انه زارتروتسكي في اوسلو في كانون الاول / ديسمبر ١٩٣٥ لتلقي الاوامر(٦) .

وقد كتبت ناتاليا بهذا الصدد :

« أصغينا الى الراديو ، فتحنا البريد وصحف موسكو ، وشعرنا ان الجنون والعبث والاهانة والخداع والدم كانت تتفجر كالطوفان حولنا ، سواء هنا في موسكو او في النروج . . . كان ليف دافيدوفيتش ، البالغ أقصى درجات التوتر ، والمنهك ، والمحموم غالباً لكن الذي لا يكلّ رغم كل ذلك ، يضع لوائح بالتزويرات التي بلغ عددها درجة لم يعد بالامكان معها دحضها »(٧) .

وقد دامت المحاكمة اسبوعاً وتلتها اعدامات . الا انـه حكم على رادك وسوكولنيكوف بعشر سنوات من السجن لكل منهما .

كان دحض تلك الاتهامات بالنسبة لتروتسكي لا يختلف ، في الواقع ، عن الصراع بوجه مسوخ مخيفة والنقاش معها في كابوس . كانت المحاكمات اكثر

(*) غيابياً (م) .

(٦) Sudebenyi Otchet po Delu Anti- SovietsKovo Troskistkovo Tsentra

(٧) انظر ف. سرج ، حياة ليون تروتسكي وموته ، ص ٢٥٨ .

فأكثر اصطناعاً ووهماً في هولها ، وهولاً في اصطناعها ووهمها . كانت تبدو متصورة بهدف شل كل فكر نقدي أو جعل أي استدلال غير ملائم وغريباً . الا انه حتى قبل ان يتوافر لتروتسكي الوقت لجمع الحجج ، كانت بعض الاتهامات نفّست وبان كذبها . فلقد أخضع وزير خارجية النروج للفحص المعمّق الاعلان بأن بياتاكوف وصل الى أوسلو جواً من برلين في كانون الاول / ديسمبر **١٩٣٥** وقابل تروتسكي ، وتأكد الوزير من انه ما من طائرة قادمة من برلين هبطت في مطار اوسلو في ذلك الشهر وخلال عدة اسابيع قبله وبعده ؛ وقد اصدرت سلطات المطار بياناً بهذا الشأن ، ابرق تروتسكي بعده الى موسكو طارحاً السؤال التالي على المحكمة :

« متى بالضبط ، في أي يوم وفي اية ساعة حط بياتاكوف ؟ أين ومتى وفي اية ظروف استقبل هو ، تروتسكي ، بياتاكوف ؟ » .

وطرح اسئلة مماثلة بصدد لقاءاته المزعومة مع روم[٨] . إلا ان المدعي العام والقضاة تجاهلوا الاسئلة ، عارفين تماماً انه إذا حاول المتهمون الاجابة ، فسوف يضعونهم في تناقضات صارخة ويُفقدون المسرحية حظوتها . وفي **٢٩** كانون الثاني / يناير ، قبل نهاية المرافعات مباشرة ، تحدى تروتسكي ستالين مرة أخرى أن يطلب استرداده . وفي نداء الى عصبة الامم ، اعلن عن استعداده لعرض قضيته على لجنة الارهاب السياسي التي شكلتها العصبة بناء لطلب السوفيات . وكان وجه نداء مشابهاً من قبل ، حين كان في النروج . الا ان عصبة الامم بقيت صامتة ، ومرة اخرى تجاهل ستالين طلب الاسترداد[٩] . وقد بذل تروتسكي جهداً آخر لمواجهة متّهميه ، فأعلن في رسالة موجهة الى اجتماع عام في نيويورك :

« أنا مستعد للمثول أمام لجنة تحقيق علنية وغير متحيزة ، مع وثائق وشهادات ، ولكشف الحقيقة بكاملها . أعلن ما يلي : **إذا قررت هذه اللجنة اني مذنب بأدنى درجة من الجرائم التي ينسبها اليَّ ستالين ، فانا اتعهد سلفاً بتسليم نفسي طوعاً لمنفذي الاعدام في الغيبيو** . . . أصرح

(٨) B.O. ، العددان ٥٤ و ٥٥ ، ١٩٣٧ .

(٩) 'Trebovanie Moei Vidachy' ، الملحق ٢ ، للثورة المغدورة .

بهذا امام العالم بأسره . اطلب الى الصحافة ان تنشر كلماتي في كل الزوايا الممكنة من الكرة الارضية ، لكن اذا وجدت اللجنة ، هل تسمعون ؟ هل تسمعون ؟ أن محاكمات موسكو مكيدة مدبرة ، فلن أطالب متهميَّ بأن يضعوا انفسهم طوعاً امام مفرزة إعدام . كلا . سيكفيهم العار الابدي في ذاكرة الاجيال البشرية . أيسمعني متهمو الكرملين ؟ اني أتحداهم في وجههم ، وانتظر جوابهم »[١٠] .

في تلك الفترة تقريباً ، جرى إشراك ولدي تروتسكي ، نهائياً ، في محنته . هنا يتحول التاريخ إلى نسخة حديثة عن اسطورة لاوكون Laocoön . فبعد أن أحس ليوڤا بأن الغيبيو تلاحقه ، نشر في صحيفة فرنسية بياناً يقول فيه إنه إذا حصل ان توفي فجأة ، فعلى العالم ان يعلم انه قتل بأيد ستالينية ؛ لا ينبغي ان تُصدَّق أية رواية اخرى ، لأنه في صحة جيدة ولا ينوي الانتحار إطلاقاً . ووفقاً لما نشرته الصحافة الروسية ، اوقف سرجي في كراسنويارسك بسيبيريا ، وجرى اتهامه بأنه حاول تسميم جمهور واسع من شغيلة المصانع ، بناء لأوامر من والده . وقد كتب تروتسكي :

« ينوي ستالين انتزاع اعتراف من ولدي ضدي . ولن تتردد الغيبيو في دفع سرجي الى الجنون ، ثم سوف تطلق عليه الرصاص » .

ونشرت ناتاليا ، من جهتها ، نداء آخر موجهاً عبثاً « الى ضمير العالم »[١١] وفيما بعد ، كانت تتذكر « انه كانت هناك لحظات شعر فيها ل.د. بنفسه مثقلاً بمشاعر الذنب امام فكرة انه لا يزال على قيد الحياة . وقد قال لي مرة : « ربما امكن موتي ان ينقذ سرجي »[١٢] . هي وحدها كانت على علم بتلك اللحظات . بقي تروتسكي ، في نظر العالم ، عنيداً لا يمكن كبحه ، صامداً كالصخر وتحركه طاقة لا تقهر ؛ لم يتعب ابداً وهو ينادي انصاره الى العمل ويرفع معنويات اصدقاء منهاري القوى . هاكم مثلاً ما كتبه الى انجليكا بالابانوف ، شريكته القديمة في زيمرڤالد ، حين علم ان محاكمات موسكو دفعت بها الى تشاؤم عميق :

---

(١٠) I Stake my life ، الملحق ٢ ، للثورة المغدورة .

(١١) B.O. ، العددان ٥٤ ـ ٥٥ .

(١٢) فيكتورسرج ، المرجع المذكور ، ص ٢٦٦ .

« السخط والغضب والقرف ؟ أجل ، وحتى التعب المؤقت . لكن هذه مشاعر بشرية ، بشرية جداً ، ولا اريد ان اعتقد أنك استسلمت للتشاؤم . . . سيكون ذلك شبيهاً بالارتياب بالتاريخ ، بصورة سلبية ومتشكية . كيف يمكن فعل ذلك ؟ فالتاريخ ينبغي ان يأخذه المرء كما هو ؛ وحين يسمح باهانات خارقة وقذرة الى هذا الحد ، ينبغي أن يقاتله بقبضتيه العزلاوين »(١٣) . وبهذه الطريقة قاتل هو .

أخذ على عاتقه أن يكوّن ملف حججه الكامل ليبرهن أنه ما من واحد من الاتهامات الستالينية كان صحيحاً او يمكن ان يكون صحيحاً ، وليسلط الضوء على المعنى السياسي لتلك المكيدة الهائلة . كان البعض يعتقدون أن تلك مهمة مستحيلة . كان عليه أن يتذكر كل أماكن وجوده ، وكل نشاطاته خلال سنوات نفيه ، وان يجمع شهادات ، انطلاقاً من محفوظاته الضخمة والمشتتة جزئياً ، ومن صحف بلغات عديدة ، وان يجمع إفادات وبيانات يقدمها بعد القَسَم امناء سر أو حراس قدامى ، وانصار سابقون كان بعضهم قد تحولوا الى خصوم ، ووزراء وقناصل ، ومفوضو شرطة ، ووكالات سفر ، وملاّكون ومضيفون واصحاب فنادق ، ومعارف التقاهم في بلدان شتى . الا ان هذا المشروع الضخم والمكلف سوف يتكشف ، بمعنى ما ، انعدام جدواه . فمن كانوا يرغبون في معرفة الحقيقة ، كان في وسعهم فهمها تماماً من دون هذه الكتلة الواسعة من الشهادات التفصيلية ، بينما ذوو الذهن المغلق واللامبالي لن يتركوا أنفسهم يقتنعون. أما أن تشترط الاجيال اللاحقة هكذا مراكمة للشهادات بهدف ان تكوّن لنفسها رأياً ، فذلك أمر يصعب تصديقه . كان أمكن تروتسكي ، المساجل العظيم ، أن يكتفي بفضح المحاكمات استناداً إلى الاثباتات الجوهرية وحدها ، كما كان ليوفا وبعض الاصدقاء (وبرنادشو) يحثونه على ان يفعل(١٤) . لكن ما كان يميّز الدقة التي لا هوادة فيها لدى الرجل أنه ما أن يقرر تصحيح كامل المحضر حتى لا يعود يترك شيئاً للصدفة ، ولا يسمح بأن يبقى حادث واحد ذو معنى دون إسناده بالوثائق ؛ لم يكن يستبعد من الملف اي إفادة مأخوذة بعد القَسَم . تصرف كما لو كان

(١٣) من تروتسكي الى بالابانوف، التي كانت تعيش آنذاك في المنفى بنيويورك. رسالة في ٣ شباط / فبراير ١٩٣٧ . المحفوظات ، القسم المقفل .

(١٤) بصدد رأي برنارد شو ، أنظر ابعد قليلاً . عبّر ليوفا عن قلقه في رسالة الى والدته في ٨ آذار / مارس ١٩٣٧ .

يحسب ان تزويرات ستالين يمكن ان تدوم قرناً ، وكان يهيىء للقرون ملف دفاع دامغاً ولا يمكن دحضه او إتلاف إثباتاته الكاملة .

ذلك العمل المنهك لاعصابه كلفه عدة أشهر من العمل المتواصل ؛ كرس له كل قوّته ، وجر اليه بدون رحمة امناء سره وانصاره ، وقبل الجميع ليوفا الذي أنجز في باريس الجزء الأعظم من العمل . لم يقبل بأي إمهال ، بأي تناقض ، بأي عذر ،ولدى أول علامة فتور ،هدد في البدء شاختمان ، ثم نافيل ، بقطع كل علاقاته بهما وبـ« التشهير بتخريبهما او بما هو أسوأ ايضاً » مع ان الرجلين فعلا كل ما في وسعهما لمساعدته . في الرسالة الأولى الموجهة الى ليوڤا من مكسيكو ، عبر بمرارة عن خيبته لكونه لم يتلق رزمة من الشهادات التي كان يتوقع أن يجدها لدى وصوله . وبعد خمسة عشر يوماً ، او ما يقارب ذلك ، طفح انعدام الصبر لديه ، وكانت كل رسالة يوجهها الى ليوفا تحفل بتأنيبات مرة : لماذا لم تصل بعد الصحف التي تتحدث عن رحلته الى كوبنهاغن ؟ ألم يكن ذلك « جريمة صرفة » ؟ لماذا لم تكن بعض الشهادات مصدقة قانونياً عبر الموظفين الرسميين المولّجين بالبيانات المشفوعة بالقَسَم ؟ لماذا كانت بعض التواقيع تحت شهادات اخرى غير مقروءة ؟ لماذا لم تكن التآريخ دقيقة ؟ لماذا لم تكن بعض اسماء الامكنة محددة بطريقة تجعل اي سوء فهم مستحيلاً ؟ وبين اسبوع واسبوع ، كانت لهجته تصبح اكثر تذمراً وقسوة . كتب الى ليوڤا في ١٥ شباط / فبراير :

« تلقيت اليوم رسالتك . . . مع اعذارها . . . ومنذ زمن طويل توقفت عن الايمان بالوعود » .

كانت إهمالات ليوفا تقارب الخيانة ، بالنسبة اليه .

« عليّ ان اقول بعد كل تجارب الاشهر الاخيرة اني لم ار يوماً اكثر سواداً من هذا اليوم ، لأني حين فتحت ظرفك كنت واثقاً من اني سأجد فيه التصريحات المشفوعة بقسم ، فيما لم أجد عملياً غير اعذار وتأكيدات » . يصعب القول اي الضربات اسوأ ، تلك التي تأتي من موسكو او تلك التي تأتي من باريس »[١٥] .

---

(١٥) المحفوظات ، القسم المقفل ، رسالتان في اول شباط و١٥ منه ١٩٣٧ .

كان لديه مشروع محاكمة مضادة تُفتتح في الربيع ، وكان يخشى ألا يكتمل الملف في الوقت المناسب . كـان البيت الازرق في تلك الفترة يشبـه سجناً حقيقياً ، فقد كان المرء يرى امناء السر وتروتسكي وناتاليا وهم يترجمون أوراقاً لا تنتهي وينسخونها ويدقونها على الآلة الكاتبة . وفي الوقت ذاته ، كان تروتسكي يملأ صفحات الصحف الاميركية بتعليقاته ويحاول ان يجعل وجهات نظره مفهومة لدى الصحافة المكسيكية . كان يجري ترتيبات لانشاء لجان تحقيق في بلدان شتى . كان مأخوذاً بأهمية ما يعمله ، حساساً إزاء أي إخلال ، خائفاً من أن تتدخل الغيبيو بذلك العمل ، وربما يائساً من التوصل الى انجازه ، لـذا كان يتعقب ليوڤا ويزجره دون أي رادع ، ليوڤا الذي كانت حياته وشرفه ـ تماماً كما حياة تروتسكي وشرفه ـ معرضين للخطر . حقاً يمكن لاوكون Laocoön وبخ اولاده بالطريقة نفسها ، وحثهم على ان يكون الانشداد بكل ما لـديهم من اعصاب لمواجهة الافاعي العملاقة التي كانت تعتصرهم جميعاً ، أباً وأبناء ، بأنشوطاتها الخانقة .

كان ليوڤا مطعوناً ومجروحاً في اخلاصه البنوي . فحين احتجز والده في النروج ، نهض بالقسم الاعظم من العمل الشاق ، لكن الروح الشـريرة التي يكافحها كانت اقوى منه ، وقد انتظر اليوم الذي يُطلق فيه سراح أبيه ويستعيد الحمل الثقيل ليضعه على منكبيه العريضين . اما الآن فكان يمضّه كثيراً ان يرى اباه محتدماً وغاضباً الى ذلك الحد . كان لا يـزال يشك في قيمة المشروع بكامله ، وقد كتب الى ناتاليا يقول إن جرائم ستالين ، الكتاب الصغير الذي كتبه تروتسكي وهو في طـريقه الى المكسيـك ، كان رداً اكـثر فعاليـة بكثير من أي محاكمة مضادة ، او من عمل اية لجنة تحقيق ؛ ومع ذلك ، فمذ قرر والده تكوين ملف دفاعه ، انكب ليوڤا على العمل بكل جوارحه . وإذا كانت الامور تتقدم ببطء وتحصل حالات سوء فهم فلم يكن ذلك نتيجة خطأ من جانبه . فلقد كان أمره تروتسكي ، مثلاً ، حين كان لا يزال في هوروم ، باتخاذ تدابير لتنظيم محاكمة مضادة في سويسرا ، لكن تقرر فيما بعد أن تتم تلك المحاكمة في اميركا ، ولما كان ليوڤا على غير علم بالتغيير فقد ظل يقوم باعداداته على اساس سويسرا . وقد عاد عليه ذلك بتوبيخ عنيف من جانب والده الذي هدد بأن يقـطع عنه كـل لمصاريف المالية اللازمة وبانتزاع كل عمل لاحق من يدي ليوڤا والعهد به الى

نافيل (الذي كانت ثقته به خفيفة جداً على الدوام)[١٦] .

كانت تعيق جمع الشهادات العداوات بين الشلل التروتسكية . وكان على ليوڤا أن يحصل على العديد من البيانات من اعضاء في مجموعة مولينييه ، التي تبرأ تروتسكي منها ، وقد توجب ان يلجأ إلى الكثير من الرهافة والحس الدبلوماسي . كان مرهقاً ومكتئباً . هو ايضاً كان يشارك في الحملة الصحفية ضد المحاكمات ، وكانت مقالاته تظهر بين الحين والآخر في المانشستر غارديان ، وقد ظل يهتم بمصالح والده لدي الناشرين ، ويجمع حقوق التأليف ويحولها بانتظام الى المكسيك ، ويصفي ديون اهله في النروج وفرنسا ، ويصدر الـ **Bulletin** ولما كانت اغاظته انتقادات والده القاسية ، وكان يعي أن شباك الغيبيو تضيّق الخناق اكثر فأكثر عليه ، بالاضافة الى تعاسته العميقة في حياته العائلية ، فقد بدأ يعاني في الثلاثين من عمره من أرق متواصل . كان تعباً ومنهكاً ، وقد كشف لواعجه لأمه كالعادة : « أمي العزيزة ، أعرف انك الوحيدة التي لا تغضبين مني ، سواء لصمتي أو لأي شيء آخر » . لكنه كان يستقبل دائماً توبيخات والده بهذا التأنيب الموجع :

« كان عليَّ أن أؤدي ضمن ظروف بالغة الصعوبة قسماً من العمل الذي ، بغير ذلك ، كان وقع على كاهلك ؛ لكن توجب ان افعل هذا من دون السلطة الضرورية والدعم اللذين تتمتع بهما ؛ احياناً لا يكون معي حتى المال اللازم لشراء الطوابع البريدية ، وكنت اعتقد ان في وسعي الاعتماد على مؤازرتك . وبدلاً من ذلك ، تجعلني مرمى لسهامك وتتكلم مع الجميع على « إهمالي الاجرامي » . حتى إذا كنت أتحمل جزءاً من المسؤولية عن التأخر بصدد وثائق كوبنهاغن ، فذلك لا يبرر . . . إطلاقاً موقفك تجاهي »[١٧] .

وبقدر ما كان يشتد انهاك ليوڤا ووهن عزيمته كان يزداد ميله للركون كلياً الى إتيان الذي كان يبدو ان لا أحد غيره يساويه فطنة وحماساً وإخلاصاً للقضية .

---

(١٦) من تروتسكي الى ليوڤا ، ٢٤ شباط و٥ و١٦ آذار ١٩٣٧ . المرجع ذاته .

(١٧) من ليوڤا الى تروتسكي ، ٨ آذار / مارس ١٩٣٧ . المرجع ذاته .

في البدء كان تروتسكي يأمل أن تتم المحاكمة المضادة على مستوى يتوافق مع مستوى الاستفزاز، وانها قد تقاد بصورة تهز معها ضمير الحركة العمالية العالمية. حاول ان يُشْرِك بها الاممية الثانية والاممية التي كانت تسمى: **أممية استردام النقابية**. وبناء على نصيحته اتصل ليوفا بفريدريك ادلر، سكرتير الاممية الثانية الذي سبق ان ندد طوعاً بتطهيرات موسكو على انها «مطاردات للساحرات على طريقة القرون الوسطى». وقد فعل ادلر ما وسعه. الا ان كل ما تمكن من فعله هو انه استحصل، بعد الكثير من التأخر، على نشر الهيئة التنفيذية للاممية بياناً يدين التطهيرات؛ لكن الاممية ذاتها رفضت المشاركة بأي نوع من التحقيق او المحاكمة المضادة، والامر ذاته فعلته الاممية النقابية، كانت تانك المنظمتان رأتا فرعيهما الالماني والنمساوي وقد ألغاهما هتلر ودولفوس، وكانتا إذاً تحت نفوذ ليون بلوم؛ وهذا الأخير كان وضعه كقائد للجبهة الشعبية يتوقف على الدعم الذي كان يقدمه له الستالينيون. وحتى البيان الافلاطوني الذي اصدرته الاممية ضد التطهيرات وضع ليون بلوم في حالة إرباك، وقد استخدم كل نفوذه لمنع اي عمل يذهب أبعد من ذلك، سواء صدر عن حزبه او عن أي فرع شقيق. هكذا فضل الاشتراكيون ـ الديمقراطيون في أوروبا الغربية، المتحمسون جداً في العادة للدفاع عن الحريات وعن حقوق الفرد في وجه الشيوعية، فضلوا هذه المرة أن يلزموا صمتاً دبلوماسياً، وحتى أن يبرئوا ستالين. قاطعت الاممية، حسبما كتب تروتسكي، سكريتيرها الخاص بها، وكان ذلك يحد سلفاً من فعالية اية محاكمة مضادة: فمن دون الاحزاب الاشتراكية والنقابات، ما كان يمكن اي حملة ان تلفت انتباه الطبقات العاملة(١٨).

حاول أنصار تروتسكي إذاك ان يضمنوا دعم مفكرين يساريين مرموقين. ولم يكن ذلك بناء على رغبة تروتسكي، الذي كان يسخر في الغالب من لجان السلم، ومؤتمرات السلام والاستعراضات المعادية للفاشية التي كان الستالينيون يجمعون فيها كوكبات من النجوم الادبية والاكاديمية. كان يحتقر التنفج المبهرج لهكذا تأثيرات مسرحية، لاسيما حين كان الشيوعيون يحلونه محل عمل صلب وموحد للحركة العمالية. وقد اخذ على اتباعه الاميركيين عدم تمكنهم من اجتذاب الشغيلة الى «اللجان من اجل الدفاع عن تروتسكي»، لكنه لم يكن

---

(١٨) B.O.، العددان ٥٦و٥٧، ١٩٣٧؛ مراسلة ليوفا مع ف. ادلر عام ١٩٣٦. المحفوظات، القسم المقفل.

لديه ، والحالة ذلك ، اي خيار[١٩] .

إلا أن رد الانتليجنسيا كان مخيباً هو الآخر ، لأن الستالينيين الذين كانوا يمارسون عليهم نفوذاً قوياً في فرنسا واسبانيا وبريطانيا والولايات المتحدة ، استخدموا معهم كل وسائل الضغط المعنوي الممكن تصورها لمنعهم من تقديم ادنى دعم لاحتجاج بوجه التطهيرات . ومن موسكو ، حيث كانت قد استؤصلت زهرة الادب والفن الروسيين ، كانت أصوات غوركي وشولوخوف وايهرنبورغ تدوي وتنضم الى الجوقة التي ملأت الفضاء بالزعيق : « اطلقوا النار على الكلاب الكلِبَة ! » وفي الغرب ، كان الادباء المشهورون مثل تيودور درايزر وليون فوشتڤانغر وباربوس وآراغون يتجاوبون مع تلك الصيحة ، وكان رجل مثل رومان رولان ، المعجب بغاندي ، وعدو العنف ، و« الضمير الانساني » لجيله ، يستخدم صوته الانجيلي اللطيف لتبرير المجزرة في روسيا وامتداح السيد ـ الجلاد بقدر من الحماس دفع تروتسكي للتفكير بملاحقته بالقدح والذم . وبما أن غوركي ورومان رولان اعطيا الضوء الاخضر ، فقد حذت حذوهما جحافل من الانسانيين والاخلاقيين الصغار ، بقليل من الوساوس أو حتى من دونها . إن في نصّ نداءاتهم وبياناتهم الداعمة لستالين شيئاً ما غريباً لدى القراءة . ففي الولايات المتحدة ، مثلاً ، دعوا الى مقاطعة لجنة التحقيق التي تشكلت تحت إشراف جون ديوي ، وحذروا « كل الناس ذوي الارادة الحسنة » من اي شكل من اشكال الدعم للجنة ، معلنين ان ناقدي محاكمة موسكو كانوا يتدخلون في الشؤون الداخلية للاتحاد السوفياتي ، ويساعدون بذلك الفاشية ويقوونها و« يوجهون ضربة لقوى التقدم » . وقد وقع البيان كل من تيودور درايزر ، وغرانفيل هيكس ، وكورنيس لامونت ، وماكس ليرنر ، وريموند روبنز ، وآنا سترونغ ، وپول سويزي ، وناتانيال ويست والعديد من الاساتذة والفنانين الذين كان بينهم من سنجدهم فيما بعد في طليعة الحملات الصليبية المعادية للشيوعية في الاربعينات والخمسينات[٢٠] . وشهد لويس فيشر ووالتر دورانتي ، الخبيران الشعبيان في الشؤون السوفياتية ، على نزاهة ستالين وصحة اقوال فيشنسكي والطرق الانسانية

(١٩) انظر الـ نشرة الداخلية للـ S.W.P. (حزب تروتسكي اميركي) ، في مارس / ابريل ١٩٤٠ (إذاك بالذات اثيرت هذه المسألة ، خلال مساجلة تروتسكي مع شاختمان وبورنهام) .

(٢٠) انظر مثلاً البيان المنشور في **Soviet Russia To Day** ، مارس ١٩٣٧ .

للغيبيو في الحصول على اعترافات زينوفييف وكامينيف وبياتاكوف ورادك ، وحتى برترام دي . وولف ، وكان عضواً في المعارضة اللوفستونية ، طرد منذ زمن بعيد من الحزب الشيوعي ، حيّا مع ذلك ستالين لكونه انقذ الثورة من مؤامرة تروتسكية ـ زينوفييفية[٢١] . وفي الصحافة اليهودية الاميركية ، رأينا كتّاباً قدموا انفسهم حتى ذلك الحين كمعجبين بتروتسكي ، ينقلبون ضده حين تكلم على مسحة باطنة معادية للسامية في محاكمات موسكو . كتب رئيس تحرير إحدى تلك الصحف :

« للمرة الاولى نسمع ، نحن اعضاء الصحافة اليهودية ، اتهاماً من هذا النوع . لقد عودونا على اعتبار الاتحاد السوفياتي تعزيتنا الوحيدة ، على الاقل بشأن معاداة السامية. إنه لأمر لا يمكن غفرانه أن يوجه تروتسكي هكذا اتهامات لا أساس لها ضد ستالين »[٢٢] .

إن النفاق والرياء والخوف الساذج من مساعدة هتلر عن طريق انتقاد ستالين لم تكن الأسباب الوحيدة . فبعض افراد الانتليجنسيا وجدوا أن لا ضرورة إطلاقاً

---

(٢١) « مهما أمكن ان تكون اليوم نوايا تروتسكي الذاتية ـ ولن أحاول الحكم عليها ـ فإن دوره الموضوعي يتمثل بتعبئة مشاعر الجماهير الكادحة ضد الاتحاد السوفياتي . لقد امر انصاره في فرنسا بأن يدخلوا في الاممية الاشتراكية ، وابتعد اكثر ايضاً عن العناصر الاساسية في الشيوعية ، ودعا حتى الى الحرب الاهلية في الاتحاد السوفياتي ، وغدا هكذا عدواً للطبقة وللبلد اللذين خدمهما سابقاً باخلاص ما بعده اخلاص » . هذا ما كتبه برترام د. وولف في ١٩٣٦ (**Things We Want to KnoW** ، منشورات ووركز آج) . وسوف ننتظر حتى نهاية التطهيرات الكبرى ، قبل قليل من ظهور بو خارين في قفص الاتهام لنرى وولف ، « الشيوعي الاساسوي » ، يعبر في **The New Republlc** في ٢٤ نوفمبر ١٩٣٧ ، عن اسفه لكونه قدم دعمه المعنوي للتطهيرات ، وقد دفع ذلك تروتسكي للقول إنه لا يزال هناك اشياء كثيرة ينبغي ان يتعلمها واشياء كثيرة يطرحها كي يتحاشى اقتراف اخطاء خطيرة في المستقبل . وفي سنوات لاحقة هاجم وولف كتّاباً آخرين كانوا قد نددوا دائماً بالتطهيرات الستالينية ، واصفاً إياهم بمدّاحي ستالين .

(٢٢) ب. ز. غولدبرغ في **النيويورك تاغ، ٢٦ ـ ٢٧** يناير ١٩٣٧ . في تلك الفترة ، اعاد تروتسكي التعبير عن وجهات نظره بشأن المشكلة اليهودية في مقابلة اعطاها لفورڤاتس ، وهي جريدة اميركية يهودية اخرى ؛ سلّم بأن تجربة العداء للسامية الحديثة ، في الرايخ الثالث ، وحتى في الاتحاد السوفياتي جعلته يتخلى عن امله القديم باندماج اليهود في الامم التي يعيشون فيها . لا بل توصل الى التفكير بانه حتى في ظل الاشتراكية ، ستحتاج المسألة اليهودية الى حل اقليمي ، اي انه قد يحتاج اليهود للاقامة في وطنهم الخاص بهم . إلا انه لم يكن يعتقد مع ذلك ان هذا الوطن قد يكون في فلسطين ، وان الصهيونية قد تكون قادرة على حل المشكلة ، أو حتى ان هذه المشكلة يمكن ان تجد حلا لها في ظل الرأسمالية . أكد انه كلما بقي المجتمع البورجوازي على قيد الحياة كلما سيصبح العداء للسامية حاقداً وهمجياً عبر العالم . **المحفوظات** ، ٢٨ يناير ١٩٣٧ .

لتفنيدات تروتسكي .اكد شارل بيرد ، وكان مؤرخاً أميركياً مميَّزاً ، انه

« ليس من مهمات تروتسكي ان يفعل المستحيل ، اي ان يثبت أمراً سلبياً بدليل ايجابي ، بل إنه يترتب على متهميه ان يقدموا شيئاً آخر غير اعترافات، أي شهادات تثبت ما يحتجون به . . . » .

ونبذ برنارد شو أيضاً فكرة محاكمة مضادة وكتب :

« آمل ألا ينجرَّ تروتسكي للمثول امام محكمة أضيق من جمهور قارئيه ، حيث يقف متهموه تحت رحمته . . . إن قلمه سلاح رهيب » .

وبعد شهر ، كتب بنبرة اقل تعاطفاً :

« كانت قوة تروتسكي في هذه القضية تتمثل بـالطابـع الذي لا يُصدَّق للاتهامات الموجهة ضده . . . لكن تروتسكي أفسد كل شيء ، إذ أطلق بالضبط النموذج ذاته من الهجوم ضد ستالين . الآن وقد أمضيت ما يقارب الثلاث ساعات في حضرة ستالين وراقبته بفضول حاد ، أرى ان الاعتقاد بكون ستالين قاطع طرق مبتذلاً لا يقل صعوبة عن الاعتقاد بأن تروتسكي قاتل »[٢٤] .

وبالطبع ، فإن شو تملص من القضية الحقيقية ، لأن تروتسكي « لم يطلق بالضبط النموذج ذاته من الهجوم ضد ستالين »؛ ومع ذلك ،فعلى عكس رولان ، لم تؤد الصداقة حيال ستالين إلى أن يبرر شو التطهيرات . لم يكن يرى هناك نزاعاً بين الخير والشر ، بل بين الخير والخير ، دراماتاريخية من نوع تلك التي رسمها في سان جون (مسرحية كان قد كتبها حوالى فترة اصدار الحُرْم الاول ضد تروتسكي) ، نزاعاً بين المعركة الثورية لأجل المستقبل ، والسلطة القائمة التي تدافع عن مصالح الحاضر الشرعية . وبالطريقة نفسها ، اعلن اندريه مالرو أن

« تروتسكي قوة معنوية كبرى في العالم ، لكن ستالين اعاد الكرامة الى النوع البشري . ومثلما لم تكن محاكم التفتيش تقلل اطلاقاً من

---

(٢٣) وارد في The Case of L.Trotsky ، ص ٤٦٤

(٢٤) ج.ب.شو في رسائله الى سكريتير اللجنة البريطانية للدفاع عن تروتسكي ، ٦/٢٠ ـ ٣٧/٧/٢١ ، مستشهد به استناداً الى محفوظات تلك اللجنة ومحفوظات تروتسكي ، القسم المقفل .

الكرامة الاساسية للمسيحية ، فإن محاكمات موسكو ، هي الاخرى ، لا تضعف إطلاقاً من الكرامة الاساسية [للشيوعية »(٢٥) .

وكان رد فعل برتولد برخت مشابهاً . كان قد تعاطف إلى هذا الحد او ذاك مع التروتسكية ، وجاءت التطهيرات فهزته ؛ لكنه لم يتمكن من حزم أمره والقطع مع الستالينية . استسلم لها والشك يخالج عقله ، مثلما كان فعل المستسلمون في روسيا ؛ وقد عبر عن الوضع المشؤوم الذي وجدوا هم أنفسهم فيه ، ووجد هو فيه نفسه ، كفنان ، في مسرحيته **Galileo Galilei** . فعبر موشورة التجربة البلشفية بالذات تصور غاليليو راكعاً أمام التفتيش ، وفاعلاً ذلك استجابة للضرورة التاريخية ، بسبب انعدام النضج السياسي والروحي للشعب . وغاليليو الدراما هو زينوفييف أو بوخارين أو راكوفسكي ، مرتدياً الزي التاريخي . يلازمه شبح الاستشهاد العقيم لجيوردانو برونو ، وهذا المثال الرهيب يجعله يستسلم امام التفتيش ، تماماً كما أدى مصير تروتسكي بعدد كبير من الشيوعيين الى الاستسلام لستالين . ويلخص الحوار الثنائي المشهور : « هنيئاً للبلد الذي ينتج بطلاً من هذا النوع ، وويل للشعب الذي يحتاج لبطل من هذا النوع » ، يلخص بوضوح مشكلة تروتسكي وروسيا الستالينية اكثر مما يلخص ورطة غاليليو في عصر النهضة(٢٦) .

رد تروتسكي على مدّاحي ستالين وكل أشباه بيلاطس الذين كانوا يغسلون يديهم ، بغيظ له ما يبرره ، لكنه جعله يظهر مع ذلك بملامح الحيوان الشرير في المثل المعروف ، وقدم للـ « مدافعين الفاترين عن الحقيقة » عذراً ليلزموا الصمت . لم يكن هناك ما يفاجىء في رفض سيدني وبياتريس ويب ضم صوتهما الى اصوات المحتجين ؛ كانا قد أصبحا من المعجبين بستالين . لكن حتى اناس كأندريه جيد و هـ . ج . ويلز ، كان رد فعلهم الاول دعم المحاكمة المضادة ، قرروا في النهاية الوقوف على الحياد . هكذا بقي المدى الـذي وصلته تلك

---

(٢٥) استناداً الى ملخص للخطاب الذي القاه مالرو في مادبة تكريم له اقامتها هيئة تحرير **The Nation** (أرسل هذا المختصر الى تروتسكي احد اتباعه وهو موجود في المحفوظات ، القسم المقفل) . كان مالرو قد جاء الى الولايات المتحدة بمساعدة الستالينيين ، محاولاً جمع تبرعات لصالح الا لوية الاممية التي كانت تقاتل في اسبانيا . قبل ذلك ببعض الوقت ، كان تروتسكي هاجمه بسبب موقفه حيال التطهيرات .

(٢٦) كتب برخت النسخة الاصلية من غاليليو غاليلي ، في ١٩٣٧ ١٩٣٨ ، في ذروة التطهيرات .

الحملة محدوداً ، وتألفت مختلف لجان الدفاع عن تروتسكي بشكل رئيسي من معادين للستالينية معلنين ومن بعض المعادين للشيوعية منذ زمن طويل ، وهو ما ادى إلى الحد اكثر وأكثر من تأثير ذلك العمل .

في آذار / مارس ١٩٣٧ ، شكلت اللجان الاميركية والبريطانية والفرنسية والتشيكوسلوفاكية لجنة مختلطة للتحقيق سوف تقود المحاكمة المضادة ، كانت تضم الفرد روسمر واوتو روهل ، الذي كان قد صوّت كنائب في الرايخستاغ ، هو وكارل ليبكنخت ، ضد الحرب في ١٩١٤ - ١٩١٥ ، وويندلين توماس ، وكان هو الآخر نائباً شيوعياً قديماً في الرايخستاغ ، وكارلو تريسكا ، وكان فوضويا نقابياً مشهوراً ، وسوزان لافوليت ، الكاتبة الاميركية الراديكالية ، المعادية بقوة للماركسية ، وبنجامين ستولبرغ وجون ر . شامبرلين ، وكانا صحفيين ، وادوارد أ . روس ، الاستاذ في جامعة ويسكونسن ، وكارلتون بيلز ، المدرس المحاضر في احدى الجامعات ، وفرانسيسكو زامورا ، وكان كاتباً اميركياً يسارياً . واذا استثنينا روسمر ، فلا احد من اعضاء اللجنة كان مرتبطاً يوماً بتروتسكي ، وكان معظمهم من خصومه السياسيين . كانت اللجنة تستمد سلطتها بشكل رئيسي من شخص جون ديوي ، رئيسها ، الفيلسوف والمربي في الولايات المتحدة في تلك الفترة ، والمعروف ايضاً كصديق للاتحاد السوفياتي . وأما جون ف . فينرتي ، المشهور كمدافع في المحاكمات السياسية الاميركية الكبرى ، لا سيما محاكمتي توم موني وساكووفانزيتي ، فكان دوره كمستشار قانوني للجنة .

في البدء ، ساورت تروتسكي شكوك حول معرفة ما اذا كانت اللجنة ستكون على مستوى مهمتها . لم تكن اسماء معظم اعضائها تعني شيئاً بالنسبة اليه ، أو كانت تعني الشيء القليل ، وكانت شكوك تمتد لتطول حتى رئيس اللجنة . تساءل إذا لم يكن ديوي ، البالغ ٨٤ عاماً تقريباً ، عجوزاً جداً وبعيداً جداً عن المسائل التي ستتصدى لها اللجنة . ألن يغفو أثناء الجلسات ؟ هل سيستنفد الكتلة الوثائقية الضخمة التي تشكلها الشهادات ، وبصفته صديقاً للاتحاد السوفياتي ألن يميل لتبييض صفحة ستالين ؟ الا ان جيمس بورنهام ، الذي بذل كل ما وسعه لتنظيم اللجنة ، بدد كل شكوكه . كتب لتروتسكي : « ديوي عجوز . . . ، لكن ذهنه لا يزال متوقداً ، كما ان نزاهته الشخصية فوق كل الشبهات . عليك ان تتذكر أنه هو الذي كتب التحليل الأكثر نفاذاً لقضية ساكووفانزيتي ؛ وسوف يحكم على الشهادات ، ربما ليس كسياسي . . . لكن

كعالم بخس تقديره . . . لا شك ان ديوي ليس ماركسياً، وكل نزاهته وذكائه الشخصي لا يمنعان انه ، على الصعيد السياسي ، على الحياد . بهذا المعنى ، لا يمكننا ، بالطبع ، ان نكون واثقين تماماً منه[٢٧] .

كان دخول ديوي اللجنة عملاً شبه بطولي . فمن وجهة النظر الفلسفية، كان خصم تروتسكي ، وكانا سيصطدمان بعد قليل خلال مساجلة علنية حول المادية الديالكتيكية . فرغم راديكاليته كان من انصار طريقة الحياة الأميركية الديمقراطية البرلمانية . وبوصفه تجريبياً ، كان يميل بالأحرى لتفضيل ستالين العملي وغير المذهبي ، بوجه تروتسكي ، الماركسي الدوغمائي . وإذ اضطلع في مثل سنه بمسؤولية حمل عبء الرئاسة للجنة تحقيق ، كان عليه أن يقطع العديد من الصلات الدائمة والتخلي عن صداقات قديمة . بذل الستالينيون كل ما وسعهم لاقناعه بالعدول عن المهمة ، وإذ أخفقوا لم يتورعوا عن شن اسوأ الهجمات ضده وأحط الافتراءات . وكان الأقل إيذاء بينها ادعاؤهم انه افتتن بتروتسكي بفعل الشيخوخة الصرفة . حتى الـ **New Republic** التي كان احد مؤسسيها ، والتي كان له مقعده فيها (في فريق التحرير فيها) خلال ربع قرن تقريباً ، انقلبت ضده واستقال منها . توسل اليه اقرب اقربائه ألا يبهت الق سمعته عن طريق المشاركة في قضية مشبوهة وغير مشرفة جداً ، لكن الدس والتنكيد وطدا عزمه . إن واقع تحريك كذا من المؤثرات للحيلولة دون عمله ، بصورة مكشوفة اوخفية ، كان يشكل بالنسبة اليه حجة لصالح ذلك العمل بالذات . وهكذا توقف عن العمل في بحثه **Logic: The theory of Inquiry** ، الذي كان ينظر اليه على انه الـ **magnum opus** الخاص به ، ليغوص في التجربة العملية لذلك التحقيق الخاص . خلال اسابيع واشهر ، استنفدته قراءة الصفحات المضرجة بالدم للتقارير الرسمية حول محاكمات موسكو ، في الكتابات الضخمة ، والمراسلة التي ليست اقل ضخامة ، الخاصة بتروتسكي ، وفي جبال من الوثائق الأخرى . دوّن ملاحظات ، وقارن الوقائع والتآريخ والمزاعم ، الى ان اصبح عارفاً تماماً بكل وجوه القضية . توجب عليه ان يقاوم مراراً التهديدات والتخويفات ، لكن لم يستطع اي شيء ان يزعزع اتزانه اويضعف عزمه . كان على اللجنة ان تخضع تروتسكي لاستجواب مضاد بوصفه شاهداً رئيسياً ، ولم يكن ثمة اي امل في ان تسمح له الحكومة الاميركية بالمجيء الى نيويورك ، لذا قرر ديوي أن ينقل تحقيقه الى مكسيكو . جرى تحذيره بأن اتحاد الشغيلة المكسيكيين لن يسمح للمحاكمة المضادة بأن تتم ؛ وبأنه هو ورفاقه سوف تواجههم

---

(٢٧) من بورنهام الى تروتسكي ، اول ابريل ١٩٣٧ . المحفوظات ، القسم المقفل

مظاهرات معادية على الحدود ، وبأنهم سيتعرضون للتنكيد والهجوم ؛ إلا أن الفيلسوف العجوز ، الصامد رابط الجأش ، استمر في الطريق التي رسمها لنفسه . كان منفتح الذهن ومع انه كان مقتنعاً بأن موسكو لم تثبت أن تروتسكي مذنب إلا انه لم يكن متأكداً بعد من براءته . كان قد عزم لا على البقاء في وضع انعدام التحيز المطلق فقط ، بل كذلك على جعل انعدام التحيز هذا جلياً امام اعين الجميع . لم ير تروتسكي خارج الجلسات العلنية للجنة ، مع انه كان بوده ان يتحادث معه دون شكليات ، وكرجل مع رجل[٢٨] .

افتتحت جلسات اللجنة في ١٠ نيسان / ابريل ؛ بالنسبة للمكان ، جرى التفكير في البدء بقاعة كبرى في وسط مكسيكو ، لكن تم التخلي عن الفكرة لتحاشي مضايقة الجمهور وتوفير المال . هكذا انعقدت الجلسات في البيت الازرق ، وفي حجرة عمل تروتسكي :

> « كان الجو متوتراً ،وكانت هناك مفرزة حراسة من رجال الشرطة في الخارج . . . كان يجري تفتيش الزائرين لكشف الاسلحة النارية ، وكان يميزهم سكرتير لتروتسكي ، يحمل هو ذاته سلاحاً . جرت تغطية نوافذ القاعة المقابلة للشارع ، وكان خلف كل منها حواجز بسماكة ستة اقدام ، مصنوعة من الاجر المملّط واكياس الرمل . . . جرى **انهاء تلك الحواجز من الآجر في الليلة السابقة** . »

كان حاضراً حوالى خمسين شخصاً ، بمن فيهم مخبرو الصحف والمصورون . وقد انعقدت الجلسات وفقاً لاجراآت المحاكمة الاميركية . وكان ديوي قد دعا السفارة السوفياتية والحزبين الشيوعيين في المكسيك والولايات المتحدة لارسال ممثلين يشاركون في الاستجواب المضاد ، لكنه لم يتلق اي جواب على تلك الدعوات[٢٩]

في بيان افتتاحي مقتضب ، اعلن ديوي أن اللجنة ليست محكمة ولا هيئة محلفين بل فقط جهاز تحقيق . « يتمثل دورنا بسماع كل البيّنات التي يمكن ان يقدمها الينا السيد تروتسكي ، وبإخضاعه لاستجواب مضاد واعطاء نتائج تحقيقنا

---

(٢٨) تستند رواية الوقائع هذه الى ما رواه لي ديوي ذاته وسكرتيره ، الدكتور راتنر ، في عام ١٩٥٠ .

(٢٩) The Case of L.Trotsky ، الملحق ٣ . انظر جيمس ت. فاريل في J.Dewy. A symposium ، اصدار سيدني هوك ، ص ٣٦١

للجنة بكامل الاعضاء التي نحن جزء منها . . » إن لقب اللجنة الاميركية للدفاع عن ليون تروتسكي لم يكن يعني ان اللجنة تنحاز لتروتسكي ، ولقد كان عملها « وفقاً للاعتقاد الاميركي بأنه لا ينبغي ان يحكم على اي انسان من دون ان تكون توفرت له إمكانية الدفاع عن نفسه » . كانت تهدف الى ضمان محاكمة عادلة ، في وقت كان هناك اشتباه بأن المتهم حرم من هكذا محاكمة ؛ كانت القضية شبيهة بقضيتي موني وساكو وڤانزيتي ؛ لكن على الاقل ان هؤلاء تمكنوا من الدفاع عن أنفسهم امام محكمة مؤلفة بشكل قانوني ، في حين حكمت أعلى محكمة في الاتحاد السوفياني مرّتين متتاليتين ، بأن تروتسكي وولده مذنبان in absentia (*) . والطلبات المتكررة التي كان تروتسكي قد وجهها للحكومة السوفياتية كي تسترده ، تلك الطلبات التي كانت استحضرته آلياً أمام محكمة نروجية أو مكسيكية ، لم تلق أي جواب . «هكذا ، أن يكون حكم عليه دون أن تتوافر له مناسبة الاستماع اليه قضية تشغل الى أعلى الدرجات اللجنة وضمير العالم بأسره . » وبعد أن شرح ديوي اسباب مشاركته في أعمال اللجنة أعلن انه لما كان نذر حياته للتربية الاجتماعية ، فهو يتعامل مع مهمته الراهنة على انها واجب كبير اجتماعي وتربوي . « إن العمل خلافاً لذلك سيكون بمثابة خيانة لعمل حياتي » .

دامت المرافعات اسبوعاً كاملاً واستغرقت ١٣ جلسة طويلة . أخضع ديوي ، وفينرتي ، وأ . غولدمان محامي تروتسكي ، وآخرون ، أخضعوا تروتسكي لاستجواب مضاد حول كل تفصيل من تفاصيل الاتهام والبيّنات المضادة . وقد تحول الاستجواب المضاد أحيانا إلى نزاع سياسي تقريبا ، لا سيما حين ألح بعض المستنطقين على أن لينين وتروتسكي كانا مشاركين لستالين أدبياً في المسؤولية ودحض تروتسكي هذا الاتهام . لم يكن هناك سؤال واحد رفض تروتسكي أخذه بالاعتبار أو تملص منه . ورغم وصلات مخصصة للمساجلة ، تمت الجلسات من دون صدامات وبهدوء ؛ أو لم يعكرها غير ما اصطلح على تسميته حادث بيلز .

فلقد وجّه كارلتون بيلز ، احد اعضاء اللجنة ، مراراً الى تروتسكي اسئلة خارج الموضوع الى هذا الحد أو ذاك ، لكنها كانت تكشف انحيازاً للستالينية وتتخذ شكلاً مهيباً . وقد أجاب تروتسكي بهدوء ودون أن يخرج من الموضوع .

(*) بالصورة الغيابية (م) .

وحوالي نهاية جلسة طويلة ، في ١٦ نيسان / ابريل ، انطلق بيلز في نقاش سياسي واكد أنه في حين كان ستالين المعبر عن مفهوم الاشتراكية في بلد واحد ويمثل فن الحكم البلشفي في طور نضجه ، كان تروتسكي مثير حرائق منكباً على تفجير الثورة العالمية . رد تروتسكي بأنهم وصفوه في محاكمات موسكو، لا كمهيّج ثورات بل ثورات مضادة ، وكحليف لهتلر . سأله بيلز عندئذ إذا كان يعرف بورودين ، رسول ستالين سابقاً ومستشار تشانغ كاي تشك في الصين . فرد تروتسكي بأنه لم تقيَّض له معرفته شخصياً مع أنه كان يعرفه بالطبع عبر السماع . وهنا سأل بيلز تروتسكي إذا لم يكن أرسل بورودين الى مكسيكو عام ١٩١٩ او عام ١٩٢٠ ليؤسس هناك الحزب الشيوعي ؟ كان السؤال يريد الايحاء بأن تروتسكي كذب على اللجنة ، وبأنه سبق أن حاول تحريك ثورة حتى في البلد الذي كان يمنحه اللجوء الآن . ولما كان تروتسكي لا يزال تحت تأثير تجربته النروجية ، فقد اشتبه بأن هدف السؤال ربما كان تهييج الرأي العام المكسيكي ضده ، وحرمانه من حق اللجوء وإفساد المحاكمة المضادة . فبيّن عندئذ انه وضع دائماً آماله في الثورة العالمية ، لكنه سعى الى إثارتها بوسائل سياسية شرعية لا عن طريق تنظيم انقلابات في البلدان الاجنبية . أما الزعم انه كان قد ارسل بورودين الى مكسيكو ، في ١٩١٩ - ١٩٢٠ ، فكان من قبيل الاختلاق المحض . ففي تلك الحقبة ، في ذروة الحرب الاهلية ، كان يكاد يتسنى له مغادرة قطاره العسكري : كانت عيناه مثبتتين باستمرار على خرائط جبهات العمليات، وكان قد نسي تقريبا كل الجغرافية العالمية .

كرر بيلز زعمه بإلحاح ، وأضاف بأن بورودين شخصياً سبق أن أعلن ان تروتسكي أرسله الى مكسيكو ، وأيضاً انه منذ عام ١٩١٩ كان الحزب الشيوعي السوفياتي ممزقاً بين رجال الدولة ومحركي الثورات . سأله تروتسكي : « هل يمكنني السؤال عن مصدر هذا الخبر المثير؟ هل سبق نشره ؟ » فرد بيلز بالنفي . قال تروتسكي : « لا يمكنني إزاء ذلك سوى ان انصح عضو اللجنة بأن يقول لمبلغه الخبر انه ليس سوى كاذب . » « - شكراً ، ايها السيد تروتسكي ، فالسيد بورودين هو الكاذب . » - هذا ممكن جداً » ، رد تروتسكي باقتضاب . وقبل نهاية الجلسة ، احتج ضد استخدام بيلز « لهجة ستالينية متحيزة » . بدا له الحادث اكثر فأكثر شؤماً ، فقصة بورودين لم يكن لها ادنى علاقة بمحاكمات موسكو ، وقد جرى إقحامها عنوة في المناقشات ، بهدف حصري هو وضع

حكومة المكسيك بالذات في ورطة . وبالتالي فقد أنكر تكراراً ، في الجلسة اللاحقة ، اي قيمة لتأكيدات بيلز ، وطالب اللجنة بالقاء الضوء على مصدرها . وبما أن بيلز حصل على معلوماته من بورودين مباشرة ، كان عليه أن يقول أين وكيف حصل عليها ؛ وإذا كان مداورة ، فكيف حصل عليها ، وبواسطة من ، ومتى ؟ واضاف انه إذا تم التعمق في تلك المسائل ، يمكن اكتشاف الهدف منها وهو إفساد المحاكمة المضادة . « إذا لم يكن السيد بيلز ذاته متورطاً عن وعي وبصورة مباشرة في هذه المكيدة الجديدة ، وآمل ألا يكون ، عليه الاسراع في تقديم كل الشروح الضرورية بحيث يسمح للجنة بنزع القناع عن المصدر الحقيقي للمكيدة . » ولما كان بيلز يرفض كشف ذلك المصدر ، فقد وبخته اللجنة في جلسة سرية ، واستقال من اللجنة . ولم يكن للحادث عواقب اخرى[٣٠] .

لخص تروتسكي بالذات نتائج الاستجواب المضاد في مرافعته الختامية بتاريخ ١٧ نيسان / ابريل [٣١] . ولما كانت علامات الارهاق والتعب بادية عليه ، طلب السماح له بقراءة مرافعته جالساً . بدأ بتبيان انه ، إما أن يكون هو والغالبية الساحقة من اعضاء المكتب السياسي للينين خونة للاتحاد السوفياتي وللشيوعية ، كما كان يزعم موجهو الاتهام في موسكو ، أو ان ستالين ومكتبه السياسي مزورون ، **Tertium non datum** . لقد قيل إن السعي للنفاذ إلى اعماق الاشياء يعني التدخل في الشؤون الخاصة بالاتحاد السوفياتي ، وطن شغيلة العالم . إن وطناً لا يُسمح لشغيلته بنقاش الامور ، هو في الحقيقة « وطن غريب جداً » . هو بالذات وافراد عائلته كانوا قد حرموا من المواطنية السوفياتية ولم يكن لديهم أي خيار آخر غير ان يضعوا انفسهم« بحماية الرأي العالم العالمي » . وقد رد على اولئك الذين كانوا يؤكدون ، على غرار شارلز أ . بيرد ، أنه يتعين على ستالين ان يقدم الدليل على صحة اتهاماته ، لا عليه هو ، وانه يستحيل في كل حال تبيان خطل شهادة سلبية عن طريق شهادة ايجابية ، رد بان المفهوم القانوني للدفع بالغيبة(*) يفترض مسبقاً امكانية هكذا دحض ، وأنه قادر على إثبات دفعه بالغيبة

---

(٣٠) **The Case of L.Trotsky** ، ص ٤١١ - ٤١٣ .

(٣١) المرجع ذاته ، ص ٤٥٩ - ٤٨٥ .

(*) كون المتهم في مكان آخر عند حصول الجريمة (م) .

وعلى تبيان « الواقعة الايجابية » المتمثلة بأن ستالين نظم « أكبر مكيدة في التاريخ » .

إلا أن الرؤية الحقوقية للقضية « كانت تنصب على شكل المكيدة لا على جوهرها » الذي كان لا ينفصل عن الارضية السياسية التي تمت عليها التطهيرات ، ،« عن الاضطهاد الكياني الذي كان يتعرض له الجميع ، من متهمين ، وشهود ، وقضاة ، ومحامين وحتى الاتهام » . ضمن هكذا ظروف من الضغط ، تتوقف محاكمة عن ان تكون سيرورة حقوقية وتصبح « مسرحية ، حيث الادوار مهيأة سلفاً . يظهر المتهمون على المسرح فقط في نهاية سلسلة من التمارين التي تجعل المخرج متأكداً كلياً سلفاً من انهم لن يتجاوزوا حدود دورهم . » لم يكن ثمة مكان لأي نقاش بين الاتهام والدفاع . كان الممثلون الرئيسيون يلعبون دورهم والمسدس مصوب نحوهم . « يمكن أن تؤدى المسرحية بصورة ناجحة او سيئة ، لكن ليست هذه غير مسألة تقنية تحقيق جنائي ، لا مسألة عدالة . »

من أجل تقويم الاتهام ، كان ينبغي النظر في السابقات السياسية للمتهمين . فالجريمة تنبثق في العادة من طبع المجرم ، او انها تتلازم على الاقل مع هذا الطبع . كان على الاستجواب المضاد ان يهتم ، بالضرورة ، إذاً بعمله هو في الحزب البلشفي وبعمل المتهمين الاخرين ، كما بدورهم في الثورة . وعلى ضوء ذلك ، كانت الجرائم المنسوبة إليهم غير متوافقة اطلاقاً مع طبعهم . وهذا هو السبب في أن ستالين زور تاريخهم . كان يجب ان يطبَّق هنا المقياس الكلاسيكي ؟ **Cui prodest** . هل كان يعود اغتيال كيروف بأية منفعة على المعارضة ، أو هل كان يمكن ان يعود بتلك المنفعة ؟ او انه كان يؤمن منفعة لستالين ، الذي قدم له ذريعة لابادة المعارضة ؟هل كان يمكن أن تأمل المعارضة الاستفادة بأي شكل من الاشكال من اعمال تخريب في مناجم الفحم او في المصانع او في سكك الحديد ، او أن الحكومة ، بالأحرى ، التي تسبب إصرارها على الاسراع كثيراً بالتصنيع وتقاعسها البيروقراطي في الكثير من الكوارث الصناعية ، كانت تسعى لتبرئة نفسها عن طريق تحميل المعارضة عبء تلك الكوارث ؟ هل كان يمكن المعارضة أن تكسب اي شيء في تحالف مع هتلر او مع الميكادو ؟ أو أن ستالين كان يستمد نوعاً من رأس المال السياسي من

اعترافات المتهمين التي كانت تذهب الى انهم حلفاء هتلر ؟

كان اقتراف واحدة فقط من تلك الجرائم يعني هرع المعارضة بشكل جنوني إلى الانتحار . كانت لا واقعية الاتهام تفسر عجز المدعي العام عن تقديم اية بيّنة قيّمة . فالمؤامرة التي تكلّم عليها فيشنسكي دامت ، حسب ادعائه ، عدة سنوات ، وكانت لها تشعبات في كل مكان ، في الاتحاد السوفياتي وفي الخارج . كان معظم قادتها والمشاركين فيها المزعومين طوال كل تلك السنوات بين يدي الغيبيو . إلا أن الغيبيو لم تستطع تقديم أي معطى واقعي ، أو حتى واقعة بسيطة تشهد ضد تلك المؤامرة الهائلة . اعترافات ، دائماً اعترافات ، لا شيء غير الاعترافات التي لا تنتهي . « لم يكن للمؤامرة لا لحم ولا دم » . والمتهمون على المنصة لم يكونوا يروون اي حدث أو عمل خاص بالمؤامرة ، لكن فقط المحادثات المتعلقة بها . وكانت النقاشات في المحكمة محادثة بصدد المحادثات . إن غياب أي احتمال صحة سيكولوجي واي مضمون وقائعي كان يبيّن ان ذلك المشهد قد تم تركيبه على أساس « مغناة » معدة سلفاً .

> إلا « أن ميكدة بتلك الدرجة من الضخامة هي شيء يفوق الحدود حتى بالنسبة لأقوى شرطة . . . إن هذا العدد العظيم من الناس والظروف ، والعناصر المميِّزة والتآريخ . . لا يتلاءم . . مع هذه المغناة المختلقة . » « وإذا نظرنا للمسألة من وجهة النظر الفنية ، فإن هكذا مهمة ، اي التوافق الدرامي بين مئات الناس وظروف لا تحصى ، أمر يفوق الحد حتى بالنسبة لعبقري كشكسبير . لكن ليس في متناول الغيبيو واحد كشكسبير **في كل حين** » .

فطالما كانت تكتفي بتلفيق احداث يفترض ان تكون تمت في الاتحاد السوفياتي بالذات ، كان يمكنها الحفاظ على ظاهر تماسك . كان يمكن عنف التحقيق أن يجبر المتهمين والشهود على أن يؤمنوا لرواياتهم الخيالية بعض التماسك . لكن الوضع تبدل حين توجب مد خيوط المؤامرة الى البلدان الاجنبية ، وكان على الغيبيو أن تمدها إلى هناك بحيث تورطه ، هو ، العدو رقم واحد ، في تلك المؤامرة . إلا انه في الخارج ، كان يمكن اخضاع الوقائع والتآريخ والظروف لعملية تحقق من مدى صحتها . وفي كل مرة كان يتم فعل ذلك ، كانت قصص المؤامرات تتهافت وتنهار . فما واحد من « الخيوط

الموصلة » التي كان ينبغي ان تسمح بالوصول الى تروتسكي ، ما كان واحد منها يقود اليه في الواقع . فقد كان ثابتاً ان المتهمين القليلين الذين جرى الزعم بأنه اعطاهم اوامر ارهابية (بحضور ولده او بغير حضوره) ، سواء دافيد برمان ـ يورين ، أو روم ، أو بياتاكوف ، لم يتمكنوا من رؤيته ولم يروه (هو أو ولده) في الاماكن والتآريخ المحددة ، وذلك لأنه ، هو أو ولده ، أو هما معاً ، لم يكونا في تلك الأمكنة. وما ان كان يجري اثبات زيف قصة الاتصال تلك ، حتى كان الاتهام يتهاوى ، علماً ان تلك الاتصالات المزعومة مع رادك ، بواسطة روم ، ومع بياتاكوف ، كانت تشكل النقطة الحاسمة من المؤامرة . كل الدلائل والاتهامات الاخرى اسندت الى اعترافات بياتاكوف ورادك ، أو انطلقت من تلك الاعترافات التي أعطياها ، والتي مفادها أنهما تصرفا كوكيلين رئيسيين لتروتسكي وكالعمادين الرئيسيين للمؤامرة. وقد كان أعلن رادك شخصياً امام المحكمة ان « كل شهادات المتهمين الآخرين ترتكز على شهاداتنا » . وشهادتهما الخاصة بهما ، التي كانت تدور حول لقاآت مع تروتسكي في باريس واوسلو لم تكن تستند إلى شيء . وقد لفت تروتسكي الانظار إلى أنه : « يكاد يكون ضرورياً هدم بناء آجرَّةً بعد آجرّة ، في الوقت الذي يكون هُدِمَ فيه العمودان الرئيسيان » . ومع ذلك ظل يهدم البناء آجُرّة بعد آجرّة .

طلب الى اللجنة أن تأخذ بالاعتبار واقع ان رواياته الخاصة به كانت مفعمة بتلك الأصالة السيكولوجية والتاريخية ، التي كانت تفتقدها بشكل بديهي للغاية الروايات الواردة من موسكو ؛ وأن الوثائق التي قدمها للجنة كانت تعكس بكمال خارق حياته وعمله طوال سنوات ؛ وانه لو اقترف إحدى تلك الجرائم ، فلا مناص من ان تخونه أوراقه في نقطة او في أخرى . إلا ان الناس الذين كانوا يبتلعون جمالاً بسهولة ، لكنهم يغصُّون ، بذبابات ، كانوا يقولون إنه قد يكون رتب كل محفوظاته وكل ملفات مراسلته بحيث يموّه مشاريعه الحقيقية . بيد انه لو كان يمكن تأليف خمس وثائق او عشر او حتى مئة بهذه الطريقة ، بهدف التمويه ، فمن المستحيل فعل ذلك مع آلاف الرسائل الموجهة الى مئات الاشخاص . كلا « لم يبن ناطحة سحاب لتمويه جرذ ميت » . واذا كان اعلن احدهم ، مثلاً ، أن دييغو ريڤيرا عميل سري للكنيسة الكاثوليكية ، أما كانت هيئة محلفين ، تدرس مدى صحة ذلك الاتهام ، تقصَّت لوحات ريڤيرا الجدارية ؟ أكان أحد تجرأ على القول إن عداءه المحموم للاكليروس ، الذي كانت تنضح به

لوحاته بشكل بديهي ، لم يكن غير تمويه محض ؟ لا يمكن احداً أن يبث « دم قلبه ونسغ اعصابه » في اعمال فنية ، ومؤلفات في التاريخ والسياسة الثورية بهدف وحيد هو خداع العالم . كم كان توثيق فيشنسكي أجوف إذا قورن بتوثيقه . لم يكن يضم غير رسائل من تروتسكي ، رسالتين الى مراشكوفسكي ، وثلاث لرادك ، وواحدة الى بياتاكوف ، وكلها رسائل مزورة !

لكن لماذا إذاً أدلى المتهمون باعترافات ؟ لم يكن من الممكن توقع ان يقدم هو ، تروتسكي ، معلومات دقيقة بشأن تقنيات الغيبيو على صعيد التحقيق .

« لا يمكننا أن نسأل هنا ياغودا (كان ييجكوف هو الذي يسأله الآن) او ييجكوف ! او فيشنسكي او ستالين او . . . ضحاياهم ، الذين كان معظمهم قد سقطوا بالرصاص الآن . »

إلا انه كان امام اللجنة الافادات التي أعطاها ، مشفوعة بالقَسَم ، شيوعيون اوروبيون وروس تعرضوا هم بالذات لتلك التقنيات على يدي الغيبيو . وغالباً ما كان يجري تناسي أن من كانوا يدلون بالاعترافات لم يكونوا قادة نشطين للمعارضة ، بل مستسلمين ركعوا منذ سنوات امام ستالين . لم تكن اعترافاتهم الاخيرة غير خاتمة سلسة طويلة من الاستسلامات ، نهاية « متوالية هندسية حقيقية لاتهامات زائفة » . خلال الثلاث عشرة سنة التي انصرمت ، كان ستالين اعتمد على مساعدتهم في إقامة « برج بابل » الافتراء . كان ديكتاتور استخدم الارهاب من دون اي تحفظ ويشتري الضمائر كأكياس البطاطا ، قادراً على انجاز هكذا بطولة . لكن ستالين ذاته كان يرعبه برج بابل الخاص به ، لأنه كان يعرف أنه سينهار لدى أول فجوة تُفتح فيه ، ـ وهو ما سيحصل بالفعل !

واختتم تروتسكي مرافعته بتمجيد لثورة اوكتوبر وللشيوعية . اعلن انه حتى في ظل ستالين ، ورغم كل اهوال التطهيرات ، كان لا يزال يمثل المجتمع السوفياتي أعظم تقدم انجزته البشرية في حقل التنظيم الاجتماعي . لم تكن الثورة تستوجب اللوم على انحطاط البلشفية المأساوي ، بل بالأحرى إخفاقها في التوسع ما وراء حدود روسيا . في الوقت الراهن ، كان العمال السوفيات موضوعين امام الخيار بين هتلر وستالين وكانوا يفضلون ستالين ، وهم محقون في ذلك ، لأن « ستالين افضل من هتلر » . وطالما لم يجد الشغيلة حلاً آخر ، سوف يبقون متبلدين حتى إزاء بشاعات النظام الستاليني ؛ لكنهم سوف ينفضون هذا

التبلد حالما تظهر آفاق انتصارات جديدة للاشتراكية في الخارج .

« هاكم لماذا لا أيأس . . . فأنا صبور . ثلاث ثورات جعلتني صبوراً . . .

« ان تجربة حياتي ، التي لم تفتقد لا النجاحات ولا الاخفاقات ، لم تعجز فقط عن تدمير ايماني بمستقبل البشرية الساطع والوضاء ، بل اعطت ، على العكس ، هذا الايمان ذاته صلابة ما بعدها صلابة . إن الإيمان بالعقل والحقيقة والتضامن البشري الذي كان يخالج نفسي في الثامنة عشرة من عمري حين ذهبت الى الأحياء العمالية في مدينة نيقولاييف الريفية الروسية ، هذا الايمان احتفظت به كاملاً غير منقوص . لقد نضج ، إلاّ انه ليس اقل اتقاداً . »

بهذه الكلمات ، وبتوجيه شكره للجنة ورئيسها ، اختتم دفاعه عن حياته **apologia pro vita sua** .

بقيت اللجنة صامتة وغارقة في انفعال عميق لوقت طويل . كان ديوي ينوي في البدء تلخيص النقاشات واختتامها وفقاً للاشكال المعروفة ، إلا أنه استعاض عن ذلك بانهاء الاستماع للشاهد بهذه الجملة البسيطة : « كل ما قد يمكنني قوله سيكون انحداراً إلى التفاهة »[٣٢] .

إن محضر الاستجواب المضاد رائع وفريد لا سيما اذا اخذنا بالاعتبار ان تروتسكي فرض على نفسه جملة من العوائق . فغالباً ما امتنع عن توجيه لكمات ، لكي لا يعرض الحكومة المكسيكية، خطأ ، للوقوع في ورطة ما . وقد حاول ان يوضح النزاعات المعقدة العديدة ، القائمة بينه وبين ستالين ، لا بلغته الماركسية المعتادة ، التي كان يمكن أن لا يفهمها سامعوه، بل في لغة الليبرالي ذي الذهن التجريبي ، وفقط اولئك الذين حاولوا القيام بهكذا « ترجمة » يعرفون كل صعوباتها . لما كان مهتماً باحتكاكه الشخصي بسامعيه ، لم يقدم دفاعه بلغته الأم او حتى بالالمانية او الفرنسية ، بل بالانكليزية . كانت مفرداته محدودة ، وقواعد اللغة لديه ومصطلحاته مهتزة . وإذ كان متجرداً من الق بلاغته المفوّهة

---

(٣٢) اكتفى ديوي باضافة بعض الاعلانات الشكلية عن اعمال اللجنة اللاحقة .

ويرفض الميزات التي يجدها حتى خطيب تافه في لغته الام ، فقد اجاب من دون اي إعداد عن الاسئلة الاكثر تنوعاً والاكثر تعقيداً والأكثر مفاجأة . يوماً بعد يوم ، وجلسة بعد جلسة ، فتش عن تعابيره ، في تصارعه مع عائق اللغة ، متردداً او متعثراً باستمرار بجمل مضحكة من دون علم منه ، قائلاً احياناً حتى عكس ما كان ينوي قوله ، أو غير متوصل لفهم الاسئلة التي كانت تطرح عليه . كان الامر كما لو أن ديموستين ، مثل أمام محكمة للدفاع فيها عن حياته ، وهو لا يزال يفأفىء وفمه ممتلىء حصى . هكذا روى احداث نضاله الطويل ، عارضاً معتقداته ، وواصفاً التغيرات العديدة التي طرأت على النظام السوفياتي ، ومحللاً نقاط الخلاف ، لا بينه وبين ستالين وبوخارين وحسب ، بل كذلك مع زينوڤييف وكامينيف ، راسماً صوراً للشخصيات ، وغائصاً في كل طور من ذلك النضال الرهيب .

لم يبق في النهاية سؤال واحد من دون جواب ، وقضية واحدة مهمة لم يجرِ تمحيصها ، وحدث تاريخي جدي واحد لم يسلَّط الضوء عليه ! بعد ثلاث عشرة سنة ، كان ديوي ، الذي كرس جزءاً كبيراً من حياته للجدالات الاكاديمية والذي كان لا يزال معارضاً بالدرجة ذاتها Weltanschauung* تروتسكي ، لا ينفك يتذكر باعجاب حماسي « المقدرة الفكرية التي جمع بها تروتسكي ونظم كتلة الادلة والحجج وأوضح لنا معنى كل واقعة متعلقة بالقضية » . لقد تغلب الطابع القاطع لمنطق تروتسكي على تعثر جمله ؛ وكان وضوح افكاره يتألق حتى عبر اخطائه اللفظية . حتى ظرفه وسخريته لم يضعفا ، وغالباً ما عوضا من الكآبة الملازمة لموضوعه . وفوق كل شيء سمحت له عدالة قضيته بالتغلب على كل قيد خارجي او إكراه . وقف حيث وقف كما الحقيقة بالذات ، دون صقل ولا زخرفة ، من دون درع ولا مِجَنّ ، ومع ذلك رائعاً ولا يقهر .

لم تكن لجنة ديوي مستعدة لاصدار حكمها قبل عدة اشهر ، وفي غضون ذلك كان ينبغي ان يكمل تروتسكي البيّنات التي قدمها . واستمر في تشغيل كل من في البيت . كان الاستجواب المضاد والعمل الذي ارتبط به قد انهكاه ولم تكفه إقامة قصيرة في الريف لاستعادة قواه . عانى طوال ما تبقى من الربيع وخلال الصيف من صداع رهيب ، ودوار ، وارتفاع كبير في ضغط الشرايين ، ومن جديد

(*) الفلسفة الشاملة (م) .

تذمر من كون العمر قد خانه . وقد كانت الاصداء الأولى للمحاكمة المضادة اكثر من ضعيفة(٣٣) . أما التوترات على الصعيد العائلي فلم تقِلّ . كتب له ليوڤا في نهاية نيسان / ابريل تقريباً : والدي العزيز ، أنت مستمر في إخضاعي للنبذ . فمنذ اكثر من شهر لم اتلق رسالة منك » . كان تروتسكي المستاء من الطريقة التي يدير بها ليوڤا الـ **Bulletin** ، قد اقترح عليه مجدداً نقلها الى **نيويورك**. **فرد** ليوفا لافتاً نظره بهدوء الى ضرورة بقاء الصحيفة في اوروبا حيث كان يوجد معظم قرائها ، ومن جديد تذمر بمرارة لدى والدته من المعاملة القاسية التي كان يتعرض لها . فحاول تروتسكي آنذاك تسوية الخلافات في رسالة طويلة يخالطها الاعتذار بعض الشيء(٣٤) . شرح لليوڤا كيف انه لما كان اضاع اشهراً طويلة في النزوج قبل ان يغدو في وسعه إعداد المحاكمة المضادة ، فقد اثارت اعصابه المهل الاضافية ، لشدة ما كان متلهفاً للتمكن من وضع الملفات الكاملة بين يدي لجنة ديوي ؛ وكان مقتنعاً بأن مرد تلك المهل نفور ليوڤا من التعاون مع بعض الرفاق . وقد نصحه بأخذ قسط من الراحة لتهدئه اعصابه . « ثمة محن كبرى تنتظرنا ايضاً في المستقبل ، نحن الاثنين » .

كانت تلك النصيحة في محلها تماماً . فليوفا ايضاً كان يعاني من الصداع والحمّى . ولم يكن يتمتع بقدرة والده على المقاومة . كتب لوالدته : « ما الذي بقي لي من قوتي الماضية » ، ملمِّحاً الى انه قد يحتاج قريباً لعملية صغيرة . كان يعيش في الفقر ، لكنه كان يفكر في مساعدة والديه مالياً بكسب معيشته كعامل مصنع او بالحصول على منحة جامعية . وحين حثته ناتاليا على الكتابة للصحف ، بدل اللجوء الى ما كان يفكر به ، رد وفي لهجته شيء من الاحباط :

« انا لا اكتب . . . بسهولة ؛ فعلي ان اقرأ وادرس وافكر ، وهذا يتطلب الوقت . . . ومع ذلك ، فمنذ هجرتي ، كنت ارزح باستمرار تقريباً تحت

---

(٣٣) ابلغت اللجان البريطانية والفرنسية للدفاع عن ليون تروتسكي كويواكان بأن صحف بلديها تتجاهل المحاكمة المضادة بصورة شبه كاملة .

(٣٤) من ليوفا الى تروتسكي ، في ٢٧ نيسان / ابريل من تروتسكي الى ليوفا في ٢٩ أيار / ماو ١٩٣٧ . **المحفوظات** ، **القسم المقفل** . بعد اكثر من ٢٠ عاماً ، اخبرتني ناتاليا ان تروتسكي كتب لليوفا رسالة طويلة جداً وودية للغاية بددت كل سوء التفاهم . وعدتني بتلك الرسالة ، مع انها كانت تخشى جداً ان تكون اضاعتها . كانت تفكر على الارجح بالرسالة التي نختصرها هنا . الا ان هذه الرسالة لم تنجح تماماً في تبديد كل سوء التفاهم .

اعباء تقنية او ما يشابه ذلك . أنا بهيمة لحمل الاثقال ولا شيء آخر . لا اتعلم شيئاً ولا اقرأ شيئاً . لا يمكنني التطلع الى القيام بأي عمل ادبي . ليست لدي الموهبة واللمسة الخفيفة اللتان يمكن أن تعوّضا جزئياً من المعرفة »(٣٥) .

كانت حالة الاحباط تلك تصطبغ بالحنان والاخلاص . حين كان والداه يعيدان اليه الشيكات التي استلمها من الناشرين الفرنسيين وحوَّلها اليهما ، لم يكن يأخذ الا مبلغاً صغيراً جداً لنفسه ، وكان يقسم الباقي بين رفاقه المحتاجين أو يحوله الى صندوق التنظيم . وواقع أن والده كان يفرِّط بقوته كثيراً ويحطم اعصابه كان يزعجه شديد الازعاج . سأل ناتاليا : « لماذا لم يشتر سيارة في مكسيكو وينظم رحلات قنص او صيد ؟ لماذا لا يلعب ل.د. بالكروكي الذي كان يحبه كثيراً في الماضي ؟ » وكتب اليها جواباً عن رسالة حزينة منها :

« عزيزتي ماموشكا ، ماموشكا العزيزة . . . فكري قليلاً بما كان يمكن ان **يحصل** لو لم يقترف ستالين خطأ نفي أبي . كان أبي توفي منذ زمن بعيد . . . او ايضاً بما كان حدث لو سمحوا لي بالعودة الى الاتحاد السوفياتي عام ١٩٢٩ ، لو أن سرجي قام بنشاط سياسي ، أو لو كان ابي حالياً في النروج ، أو ـ أسوأ أيضاً ـ في تركيا . كان كمال سلّمه . . . كان يمكن أن تكون الامور أسوأ ، أسوأ بكثير »(٣٦) .

لاشك أن تلك كانت تعزيات بائسة ، لكن لم يكن هناك افضل منها .

في تلك الفترة تقريباً وقع حادث مأساوي ـ هزلي ، في الحياة الحميمة للعائلة . فوسط كل تلك الاحداث المشؤومة ، وفي ذروة قلق ناتاليا وهمومها ، أحست بلواعج الغيرة الزوجية . ما كان سبب ذلك بالضبط ؟ هذا ما بقيت تكتنفه الظلال . فلقد كانت متحفظة جداً بهذا الصدد ، حتى في رسائلها الى زوجها ، تلك الرسائل لا تترك مع ذلك اي شك بخصوص نقطة معينة : كانت تلك هي المرة الاولى التي يتولد لديها فيها انطباع بأن لديها أسباباً قيِّمة لتشعر بالغيرة . ربما غارت امرأة تتمتع بثقة أقل بالنفس قبل ذلك الوقت بكثير ، لأن سلوك

---

(٣٥) من ليوڤا الى والدته ، ٢٩ و ٣٠ حزيران / يونيو ١٩٣٧ .

(٣٦) رسالة في ٧ تموز / يوليو ١٩٣٧ . المحفوظات ، القسم المقفل .

تروتسكي مع النساء ، في المرات النادرة التي كانت تتوافر له فيها إمكانية ملاحظتهن ، كان يتصف بنوع من التودد الواضح ، غير البريء اطلاقاً من العنفوان الذكوري والحساسية تجاه إعجاب الأنوثة . في كل حال ، كان وجود امرأة يدفع به احياناً نحو إبداء جريء لما لديه من حيوية فاتنة وظرف . كان ثمة فروسية زائلة ورهافة فنية في تلك المغازلات ، ومع ذلك فقد كان فيها شيء من التعارض مع جديته الرفيعة وحياته شبه المتنسكة . لكن كان لدى ناتاليا ما يكفي من الثقة بحب تروتسكي بحيث لم تكن تمتعض من ذلك . لكنها احست في كويواكان بغيرة حادة حيال واحدة لم تكن تشير اليها في رسائلها إلا بالحرف الأول ف. وإذا حكمنا انطلاقاً من العلاقة الظرفية يرجّح أن تكون فريدا كاهلو . فسرعان ما لاحظ بعض افراد المنزل أن ثمة تعكراً في العلاقة بين المرأتين وأنه كان في الصلات بين زوجيهما بعض البرودة . لا يعرف أحد إذا كان جمال فريدا الخارق وذوقها الفني أثارا لدى تروتسكي اكثر من التودد المألوف ، أو إذا كانت ناتاليا ، البالغة إذاك خمسة وخمسين عاماً ، وقعت ضحية الغيرة التي تأتي غالباً في منتصف العمر . يكفينا القول إن أزمة تلت ذلك وان تروتسكي وناتاليا استشعرا التعاسة والبؤس(٣٧) .

في منتصف تموز يوليو،غادر كويواكان إلى الجبال، يصبحه حراسه، وذلك لممارسة الرياضة ، والعمل بالزراعة في أرض واسعة ، وركوب الخيل والصيد . كان يكتب لناتاليا كل يوم ، واحياناً مرتين في اليوم . كان قد وعدها بألا يقول شيئاً في رسائله بشأن ما يقض مضجعها ، لكنه لم يتمكن من الوفاء بالوعد . توسل اليها أن « توقف التنافس مع امرأة كانت تعني الشيء القليل » بالنسبة اليه في حين كانت هي ، ناتاليا ، كل شيء . كان مفعماً بالخجل وكره الذات وكان يوقع

« كلبك العجوز الأمين » . « كم احبك ، ناتا ، وحيدتي ، خالدتي ، المخلصة لي ، يا حبيبتي وضحيتي . . . آه لو في وسعي بعدُ ان احمل القليل من الفرح الى حياتك . في حين اكتب هذه الرسالة ، وبعد كل سطرين او ثلاثة ، انهض وأمشي في كل انحاء غرفتي وأذرف دموع ندم وعرفان بجميلك ، وابكي على الشيخوخة التي فاجأتنا » .

---

(٣٧) انظر مراسلتهما في تموز / يوليو ١٩٣٧ . المحفوظات ، القسم المقفل .

مراراً وتكراراً ، كانت تبرز في رسائله نغمة الرثاء للذات ، الذي لم يستطع يوماً أن يلاحظه لديه اي غريب أو فرد من افراد البيت . « لا أزال أعيش مع ايامنا السالفة ، مع همومنا وذكرياتنا ، ومع عذابي وألمي » . ثم تعود مقاومته الطبيعية ، وحتى فرحه بالحياة . « كل شيء سيكون على ما يرام ، يا ناتا ، كل شيء سيكون على ما يرام ، ينبغي فقط أن تتعافي وأن تكوني أقوى » . وفي احدى المرار ، يروي لها بلهجة منكدة بعض الشيء كيف « فتن » مجموعة من الرجال والنساء والاولاد ـ خصوصاً النساء ! ـ زارته في الجبال . تتدفق حيويته ويحس بشوق جنسي شديد حيال ناتاليا . يقص عليها أنه اعاد لتوه قراءة المقطع من مذكرات تولستوي الذي يصف فيه تولستوي كيف كان في السبعين من عمره ، يعود من نزهاته على صهوات الخيل مفعماً بالشهوة حيال امرأته . وانه هو ، تروتسكي ، يعود في الخامسة والخمسين ، من تلك النزهات المرهقة وهو تحت وطأة المشاعر نفسها . وفجأة تدفعه رغبته بها لاستخدام لغة الجنس الدارجة ويشعر عندئذ « بالارتباك وأنا أضع تلك الكلمات على الورق للمرة الاولى في حياتي » وبـ «صيرورتي بالضبط كطالب شاب في الكلية الحربية » . وكما لإثبات الـ Nihil humanum . . . يطلق العنان لاتهام مضاد يعود الى حياتهما الزوجية البعيدة . ينبش قصة حب يفترض ان تكون ناتاليا عاشتها في عام ١٩١٨ ؛ ويقول إنه لما لم يكن وجَّه لها ادنى تأنيب ولم يشر حتى إلى تلك القضية ، كان عليها ألا تكون صارمة تجاهه ، هو الذي لم يترك لها اي مجال للغيرة . ورداً على رسالته شرحت له « قصة » عام ١٩١٨ . حدث ذلك بعد أن عُيِّنت مديرة لمصلحة المتحفات في مفوضية التربية . لم تكن تعرف كيف تنظم عملها ؛ وقد قدم لها العون أحد مساعديها ، وكان رفيقاً تعترف بأنه « أغرم » بها . لقد شعرت نحوه بالعرفان وعاملته بعطف ، لكن دون أن تبادله مشاعره أو تسمح بأي علاقة حميمة بينهما . ذلك الاتهام المتبادل الساحر اللطيف الذي لم يجد زوجان « خيانة » غيره ، يأخذها الواحد على الآخر بعد ٣٥ سنة من الحياة المشتركة ، يكشف بصورة غير متوقعة كم كان حبهما راسخاً(٣٨) .

---

(٣٨) لا تحمل رسالة ناتاليا « التوضيحية » تاريخاً . وإذا عدنا لدليل داخلي يمكن اعادتها الى ١٥ تموز / يوليو . في ١٩ تموز رد تروتسكي برسالتين ، وكتب كذلك طوال تلك الفترة يوميات خاصة لتقرأها ناتاليا بوجه الحصر (حسبما شدد تكراراً) .

تبدو ناتاليا متحفظة في رسائلها ، ومرتبكة بعض الشيء إزاء انفجاراته العاطفية ، ومهتمةً ايضاً بجعله يعود الى ذاته ، بعيداً عن حالاته الاستبطانية واندفاعه . فإذا عاد إلى نغمته بصدد العمر اجابته دائماً « يشيخ المرء حين لا تعود أمامه آفاق » ، وحين لا يعود يبذل اي جهد في سبيل اي شيء . وهذا لا يمكن ان ينطبق ابداً على وضعه ! « اعمل بانسجام مع نفسك ، عد الى العمل. يكفي أن تفعل هذا حتى تتماثل الى الشفاء في الحال » . بعد قليل ، كانت قد استعادت التحكم بانفعالاتها . ومع أنها كانت هي بالذات مريضة ومتوترة ، كانت تهتم بأمراض كل فرد في العائلة ، وبحرارتهم المرتفعة ، وحظهم السيىء ، وبالجهود التي يبذلونها ، وكانت أقوى من اي منهم . كان يعرف قوة نفسها ويعتمد على ذلك . ففي احدى رسائله اليها ، نقع على هذه الكلمات المعبرة : « سوف تظلين تحملينني على كتفيك ياناتا ، كما فعلتِ دوماً طوال حياتنا »[٣٩] .

في غضون ذلك ، لم يكن يمر يوم واحد تقريباً في الاتحاد السوفياتي من دون مذبحة بشرية جديدة في الاتحاد السوفياتي . في نهاية ايار / مايو اعلنت الغيبيو انها اكتشفت مؤامرة على رأسها المارشال توخاتشفسكي ، المفوّض المنتدب للدفاع القومي ، محدث الجيش الاحمر وقائده الاعلى . واتُّهم بالخيانة جنرالات بارزون كياكير ، واو بوروڤيتش ، وكورك ، وپوتفا ، وبرياكوف وآخرين ، كان بينهم غامارنيك ، المفوض السياسي الاعلى للجيوش . وقد أُعدم الجميع ، ما عدا غامارنيك الذي انتحر . ومن بين الاربعة ماريشالات الذين ظهرت توقيعاتهم في اسفل الحكم بالموت ، فوروشيلوف ، وبوديني ، وبلوشر وبيغوروف ، سوف يواجه الاخيران بعد قليل مفرزة الاعدام . كل هؤلاء الرجال ارتفعوا الى سدة القيادة حين كان تروتسكي مفوضاً للحرب ، لكن معظمهم لم ينتموا للمعارضة ، وما اتصل احد منهم بتروتسكي مذ جرى إبعاده . ومع ذلك فالجميع جرى اتهامهم بانهم شركاؤه وشركاء هتلر ، وبالعمل من اجل هزيمة الاتحاد السوفياتي عسكرياً وتجزئته . وكان إعدامهم فاتحة تطهير طال ٢٥ الف ضابط وقطع رأس الجيش الاحمر ، عشية الحرب العالمية الثانية . وبعد مرور ربع قرن على كل ذلك ، وبعد اعادة اعتبار توخاتشيفسكي رسميًّاً ، ومعظم الجنرالات الآخرين ، لم يسلط اي ضوء على خلفية ذلك التطهير . لكن حسب

(٣٩) من تروتسكي الى ناتاليا ، ١٨ تموز ١٩٣٧ . المحفوظات ، القسم المقفل .

مصادر مختلفة معادية للستالينية ، فإن توخاتشيفسكي ، الذي أثار ذعره الارهاب الذي كان يدمر معنويات الامة ودفاعاتها ، خطط لانقلاب عسكري بهدف إطاحة ستالين وقصم ظهر الغيبيو . فعل ذلك من دون اي علاقة بتروتسكي ، ونتجاوز عن ذكر هتلر او أية دولة اجنبية . اما تروتسكي فلم يصدق بأنه كانت هناك مؤامرة . لكنه وصف سقوط توخاتشيفسكي كعلامة نزاع بين ستالين وسلك الضباط ، نزاع كان يمكن أن يضع انقلاباً عسكرياً على جدول الأعمال(٤٠) .

في تلك الفترة بالذات ، كانت الغيبيو تكرر محاكمة الـ٢١ ، معطية الادوار الرئيسية لريكوف ، وبوخارين ، وتومسكي ، وراكوفسكي ، وكريستنسكي ، وياغودا (من كل هؤلاء ، لم يفلت من ذل اعتراف ومحاكمة علنيين غير تومسكي ، الذي انتحر) . لكن حتى قبل أن يرتفع الستار عن هذا المشهد ، ضرب الارهاب أيضاً التكتل الستاليني . فرودزوتاك ، وميجلوك ، وكوسيور ، وشوبار ، وبوستشيف ، وبينوكيدزه ، واوكوجافا ، وإيلياڤا ، وشيرفياكوف ، واعضاء آخرون في المكتب السياسي ، وامناء سر الحزب في موسكو ، واوكرانيا ، وروسيا البيضاء ، وجورجيا ، وقادة نقابيون ، ومدراء للجنة الدولة للتخطيط وللمجلس الاعلى للاقتصاد القومي ، وكلهم تقريباً ستالينيون منذ زمن بعيد ، جرى التشهير بهم كخونة وجواسيس لدول اجنبية وأعدموا . واورجونيكيدزه ، الذي كان اخلاصه لستالين يعود الى اكثر من ثلاثين عاماً ، لكن الذي بدأ يعارضه بعد أن دخل القلق الى عمق اعماقه ، مات في ظروف خفية ، أو أجبر على الانتحار ، حسبما يعتقد البعض . إلا انه اذا كان الزينو فييفيون والتروتسكيون والبوخارينيون تعرضوا للعار العلني ، فقد كان هؤلاء الستالينيون يدمَّرون سراً ، من دون محاكمة علنية . بقي الدمار الذي اصابهم بنتيجة سخط ستالين مخبأ في العتمة . وقد امتد الارهاب الى خارج حدود الحزب البلشفي وأصاب العديد من الشيوعيين ، الالمان والبولنديين ، والهنغاريين ، والايطاليين ، والبلقانيين ، الذين هربوا من سجون بلدانهم ومعتقلاتها ولجأوا الى الاتحاد السوفياتي ليعيشوا هناك . ثم انتقل الهجوم ضد التروتسكية الى البلدان الاجنبية . ففي اسبانيا ، استقرت الغيبيو منذ بداية الحرب الاهلية وشنت هجوماً ضد الحزب العمالي للتوحيد الماركسي (POUM) . كان

---

(٤٠) B.O. ، العددان ٥٦ ـ ٥٧ ، ١٩٣٧ .

اندريه نين ، زعيم الـ POUM ، قد اختلف مع تروتسكي ، الذي انتقده لمشاركته في حكومة كاتالونيا الموالية ، ولكونه تبنى موقفاً جباناً وشبه منشفي » في الثورة . ومع ذلك ، فإن سياسة نين كانت لا تزال راديكالية جداً ومستقلة جداً بالنسبة للستالينية في فترة الجبهة الشعبية . هكذا تكالب الافتراء ضده وضد حزبه ، وجرى وصفهما بـ« الطابور الخامس » لفرنكو . وفي الاخير ، جرى اختطافه واغتياله . وكل من كان يتجرأ على الاحتجاج ، كان يتعرض لثأر الغيبيو . ان صيد الساحرات ، والاغتيالات ، والوقاحة التي استخدم ستالين بها الثورة الاسبانية ، ثبطت معنويات المعسكر الجمهوري وهيأت لهزيمته . وكما للسخرية ، لم يرسل ستالين شخصاً آخر غير انطونوف - اوفسينكو ، التروتسكي سابقاً واحد ابطال ١٩١٧ ، للاشراف على التطهير في كاتالونيا . ثم حين انجز انطونوف مهمته ، شهّر به بدوره كجاسوس ومخرب وامر بإعدامه .

لم يعد أحد في مأمن مذاك في موسكو ، حتى المحققون والجلادون . فبعد توقيف ياغودا ، جرى تطهير الغيبيو وكل الاجهزة السرّية . كان عملاؤها في اوروبا يُستدعون ليواجهوا التهم المعتادة . في العادة ، كان اولئك العملاء يعرفون ما ينتظرهم او يحزرونه ، لكنهم انصاعوا للأوامر كما لو كانوا منوّمين مغناطيسياً ، وفضل الكثيرون منهم أن يتعرضوا للذبح بدل اللجوء الى بلد رأسمالي . وبالتالي ، حين استقال اينياز رايس ، قائد احدى شبكات الجهاز السري السوفياتي في اوروبا ، من منصبه احتجاجاً على التطهيرات أثار ذلك ضجة . حين اتخذ قراره بذلك ، لم يكن قد تلقى بعد الامر بالعودة الى موسكو . لقد هزته التطهيرات ، فاتصل بسنيڤلت ، البرلماني التروتسكي الهولندي ، وبليوفا ، بواسطة سنيفلت ، ليحذر تروتسكي من أن ستالين قرر تصفية التروتسكية خارج الاتحاد السوفياتي بالوسائل نفسها التي كان يستخدمها داخله . وصف رايس السادية الجهنمية والتهويل الرهيب ، والاستجوابات الطويلة والمرعبة التي حصلت الغيبيو بواسطتها على الاعترافات خلال محاكمات موسكو ، والتعذيب المعنوي والخواء اللذين كان الجيل القديم من البلاشفة يلاقي فيهما الموت . لكنه وصف ايضاً شيوعيين شباباً كانوا يرفضون الخضوع وظلت صيحتهم « ليَحْيَ تروتسكي الى الابد » تدوي في ساحات السجون واماكن الاعدام[٤١] .

---

٤١ - « Zapiski Ignatya Reissa » ، B.O. ، العددان ٦٠ - ٦١ ، كانون الاول ١٩٣٧ .

في ١٨ تموز / يوليو ، وجه رايس من باريس رسالة الى اللجنة المركزية في موسكو ، معلناً قطيعته مع الستالينية وانضمامه الى الاممية الرابعة . اعلن انه

« لن يكون بعيداً ذلك اليوم الذي تنعقد فيه الاشتراكية العالمية لتحاكم على كل الجرائم المقترفة خلال السنوات العشر الاخيرة . لا شيء سيُنسى ، ولا شيء سيُصفح عنه . . . سوف يكون على القائد العبقري ، أبي الشعوب ، شمس الاشتراكية ، أن يقدم الحساب عن أعماله . اعيد اليكم وسام الراية الحمراء ، الذي تقلدته عام ١٩٢٨ . فلا يليق حمله . . . بكرامتي »[٤٢] .

بعد ستة اسابيع ، وبالتحديد في ٤ أيلول/سبتمبر ، جرى اكتشاف جثة رايس ، مدروزة بالرصاص ، على طريق سويسرية ، قرب لوزان . كانت الغيبيو تعرف قراره ، حتى قبل ان يسلم رسالة الاستقالة الى موظف في السفارة السوفياتية بباريس . لما كان يعرف مدى القرف الذي اثارته التطهيرات ، حتى بين بعض زملائه القدامى في الجهاز السري ، كان قد أمل بأن يقنع بعضهم بأن يحذوا حذوه . بهذا الهدف ، كان قد اتخذ تدابير للقاء جرترود شيلدباخ في لوزان ، وكانت عميلة سوفياتية تقيم في ايطاليا ، وصديقته منذ ٢٠ عاما . جاء كلاهما الى الموعد ، فتظاهرت بالمودة ، وبعد محادثتهما الاولى ، جرّته الى لقاء آخر في ضاحية من ضواحي لوزان ، وهناك نصبت له الغيبيو الفخ الذي اودى بحياته .

بعد وقت قصير ، سلطت الشرطتان السويسرية والفرنسية الاضواء على بعض ظروف الاغتيال . وقد حددتا هوية القتلة ، بعد ان تحققت من بصمات متروكة في عربة متروكة وملطخة بالدم ، وفي حقائب متروكة في فنادق . ظهر ان هؤلاء القتلة كانوا اعضاء في الشركة لاعادة توطين المهاجرين الروس ، التي مركزها باريس ، وكانت شركة تكفلها السفارة السوفياتية .

وقد تيقنت الشرطة من أن العصابة التي قتلت رايس ، كانت تراقب كذلك منذ بعض الوقت ، وعن كثب ، تحركات ليوفا . كانت امرأة استؤجرت باسمها

---

٤٢ - رايس ، .Pismo VTS K.V.K.P ، في الـ .B.O العددان ٥٨ - ٥٩ ، سبتمبر - اوكتوبر ١٩٣٧ .

السيارة الملطخة بالدم قد كلفت برصده . (تذكر انها تتبعته قبل عام في جنوبي فرنسا ، حيث ذهب ليستريح قليلا ، واقامت في النزل ذاته الذي كان يقيم فيه ، وطلبت اليه احياناً بإلحاح غريب أن يرافقها في نزهاتها البحرية) . وكشف تحقيق أكثر تعمقاً ان العصابة ذاتها كانت قد نصبت كميناً لليوڤا ، في مولهاوس ، قرب الحدود السويسرية في كانون الثاني/يناير ١٩٣٧ ، في وقت كان قد خطط فيه للذهاب الى هناك بهدف ان يناقش مع محام سويسري موضوع دعوى ضد الستالينيين السويسريين . وقد نجا من المكمن لأن صحته المتردية منعته من القيام بالرحلة . لكن العصابة استمرت في رصد حركاته طوال القسم الأول من العام ، وقد ادرك ذلك . وفي تموز/يوليو وآب/اغسطس لاحظ ببعض الحيرة ان الرقابة الممارسة ضده انقطعت تقريباً . ولا شك ان من كانوا يطاردونه انشغلوا آنذاك بتقفي أثر رايس . أما الآن فكانوا سيستأنفون على الارجح مطاردته كما في السابق(٤٣) . وقد ارعب ليوڤا ان يعرف عبر الاستجواب الى اي حد كان عملاء الغيبيو يطلعون عموماً بسرعة وبدقة على خططه وتحركاته . عن طريق من ؟ ومن انبأهم بنوايا رايس ؟ كان بعض التروتسكيين بدأوا يتساءلون اذا لم يكن العميل الاستفزازي بين اصدقاء ليوڤا الأقربين ، وحامت الشكوك حول اتيان الذي كان عمل ، حتى تاريخ قريب ، لشركة اعادة توطين المهاجرين الروس . كان حذر سنيڤليت حيال اتيان بدرجة من القوة بحيث انه ، بعد ان اتصل به رايس ، رفض في البدء وصله بالمركز التروتسكي في باريس خشية ان يكون ذلك خطراً(٤٤) . الا ان ليوڤا رفض تصديق اي اشتباه برفيقه المفضل ، الذي كان يثق به اكثر مما بأي شخص آخر .

كان ليوڤا يشعر بأن أنشوطة متحركة خفية تضيّق عليه الخناق حين كتب نعي رايس للـ BULLETIN(٤٥)

« يعرف « أبو الشعوب » ، وأمثال ياجوف لديه ، تمام المعرفة ان هنالك

---

٤٣ ـ انظر برقية ليوفا الى كويواكان في ١٦ ايلول / سبتمبر ورسائله الى تروتسكي في ٤ و١٢ تشرين الاول / اوكتوبر ١٩٣٧ . المحفوظات ، القسم المقفل ، انظر أيضاً محضر اغتيال السيد ماركين (اسم ليوفا المستعار) في الـ B.O.العددان ٥٨ ـ ٥٩ .

٤٤ ـ بالاضافة لرسائل ليوفا المشار اليها اعلاه ، انظر رسالته في ٧ آب /اغسطس ١٩٣٧ .

٤٥ ـ B.O. ، العددان ٥٨ ـ ٥٩ .

الكثير من امثال رايس في الكمون . . . سوف تخفق مشاريع ستالين . . . فلا يمكن احداً ان يوقف مجرى التاريخ بواسطة مسدس . ان الستالينية محكوم عليها. ها هي تتعفن وتتحلل امام اعيننا . وسيكون قريباً ذلك اليوم الذي يرمى فيه بجثتها المهترئة في مجارير التاريخ » .

الا ان مصير رايس أخاف المتشبهين المحتملين . ففي الاسابيع القليلة التي تلت ، لم يسر على طريقه غير اثنين فقط من بينهم ، هما والتر كريفيتسكي ، موظف كبير آخر في الجهاز السري ، والكسندر بارمين ، القائم بالاعمال السوفياتي في أثينا . وهما ايضاً ، بعد أن قطعا علاقتهما بالحكومة ، سعيا للاتصال بتروتسكي ، الذي لم يكونا يوماً من انصاره ، وذلك لأنه ، حسبما قال كريفيتسكي ، « كان تروتسكي محاطاً بهالة » حتى في اعين رجال الغيبيو المكلفين بالصراع بوجه التروتسكية[٤٦] . كانا مهتديين غريبين ، فكريفيتسكي كان يخشى ان يرى تروتسكي وانصاره وهم يحذرونه ويحتقرونه ، لأنه امضى سنوات طويلة في خدمة ستالين . كان مهتماً بالتالي بتبرير ماضيه في الوقت ذاته الذي كان يقطع صلته به . اتهمته ارملة رايس بالمشاركة في اغتيال زوجها ، فأحنى رأسه واعترف بأنه ليس بريئاً من كل إدانة[٤٧] . كان تواقاً إلى التكفير عن هكذا مسؤولية ، عن طريق كشف الحقيقة بصدد التطهيرات . لكنه كان قلقاً أيضاً حيال الاحتفاظ بالاسرار الكثيرة التي كان يحملها آنذاك ، والتي كانت تتعلق بالامن العسكري السوفياتي . أصغى ليوفا الى اعترافاته المعذبة ، ليس من دون قرف ، لكنه اعتبر ان من واجبه نقل الخبر الى والده ، وفي الوقت ذاته مساعدة كل مواطن سوفياتي يقطع علاقته بالستالينية ، وتشديد عزمه ، وحمايته قدر الامكان . اما تروتسكي فحث ، من جهته ، كريفيتسكي وبارمين على اعلان موقفهما على رؤوس الاشهاد ، ودون التباس ، ضد ستالين ، وذلك لصالح امنهما الشخصي والوضوح السياسي . كانت تلوياتهما تثير امتعاضه ، وتفقده صبره شفقة ليوفا عليهما . وقد ادى ذلك الى تجدد الخلافات بين الاب والابن[٤٨] .

---

٤٦ ـ .B.O ، العددان ٦٠ ـ ٦١ ، كانون الاول/ ديسمبر ١٩٣٧ .

٤٧ ـ من ليوفا الى تروتسكي ، ١٩ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٣٧ ، ومن تروتسكي الى ليوفا ، ٢٢ كانون الثاني / يناير ١٩٣٨ ، المحفوظات ، القسم المقفل .

٤٨ ـ انظر تروتسكي ، .Tragicheskii Urok, B.O ، المرجع ذاته ورسائل ليوفا في ١٦ ـ ١٩ نوفمبر و ١٧ ديسمبر ١٩٣٧ .

في غضون ذلك ، كان وجود عميل استفزازي في دائرة ليوفا يزيد الفوضى وينمي الشكوك . لقد أكد كريفيتسكي تحذيرات رايس بصدد اغتيالات وشيكة لتروتسكيين ، واعلن ان الغيبيو كانت لديها عيون وآذان داخل الحلقة التروتسكية في باريس . الا انه كان عاجزاً عن تحديد العميل الاستفزازي ، لكن بين كل الاناس المحتملين ، انصبت شكوكه على فيكتور سرج . قال ان الغيبيو ما كانت اطلقت سراح سرج وسمحت له بمغادرة الاتحاد السوفياتي ، لو لم تكن واثقة من انه سيتجسس لحسابها على التروتسكيين. وبالطبع، لم يكن شخص معدًّا اقل من سرج للعب هذا الدور ، فقد كان احد انصار تروتسكي الاكثر قدماً ، وكان كاتباً موهوباً وشهماً وان كان ساذجاً من وجهة النظر السياسية . ان أسوأ ما كان يمكن ان يؤخذ عليه ميله للثرثرة المتبجحة ، وان ذلك خطأ كبير عند عضو في منظمة عليها ان تخفي اسرارها عن الغيبيو . في كل حال ، بدأت الشبهات تحوم حول الجميع ، وحتى حول ليوفا ، في حين كان العميل الحقيقي مستمراً في استلام مراسلات تروتسكي وقراءتها ، وفي مقاسمة ليوفا كل اسراره ، وكان يستخدم كل حيلة لايقاظ الحذر تجاه الآخرين ، وبذلك حفظ سمعته الخاصة به من كل تلوث(٤٩) .

اكتشفت الشرطة الفرنسية ، التي واصلت تحقيقها حول قضية رايس ، ان عضواً في عصابة القتلة طلب تأشيرة مكسيكية وحصل على خرائط مفصلة عن مدينة مكسيكو . وقد نقل ليوفا هذا التحذير في الحال الى كويواكان . كانت الشرطة تعتقد ايضاً ان حياة ليوفا في خطر محدق ، وكُلف حراس خاصون بتولي حمايته(٥٠) . وقد اهتم احد رفاق ليوفا ، وكان على الارجح كليمان (« آدولف ») بوضعه الى درجة انه كتب لتروتسكي وناتاليا ، راجياً اياهما أن يطلبا اليه مغادرة فرنسا والالتحاق بهما في مكسيكو . حذرهما من ان ليوفا مريض ومنهك ، ومعرض لمخاطر ثابتة ، لكنه مقتنع مع ذلك بانه لا يمكن ان يحل محله احد في باريس وبأن عليه « البقاء في مركزه». الا ان ذلك لم يكن حقيقة الامر ، لأن في وسع رفاقه ان يحلوا محله ، بينما اذا بقي في باريس فسيكون من دون دفاع في

٤٩ ـ بالاضافة لرسائل ليوفا المشار اليها اعلاه ، انظر مراسلة اتيان مع تروتسكي ، **المحفوظات القسم المقفل** ، التي تكشف كل تلك التفاصيل .

٥٠ ـ رسالة من ليوفا الى تروتسكي في ١ و ٥ نوفمبر ١٩٣٧ .

وجه الغبيبيو . على الاقل ، ينبغي ان يطالبه والداه بالمجيء الى مكسيكو لبعض الوقت حيث يرتاح ويأخذ فترة نقاهة . « انه قدير وشجاع ومليء بالطاقة وعلينا ان ننقذه[٥١] .

لم يكن لهذا الالتماس المؤثر الفعل الذي كان ينبغي ان يحدثه . لا شك ان تروتسكي كان يعرف تماماً ان حياة ليوفا في خطر ، وكان يوصيه دائماً بالحذر وبتجنب كل نوع من الاتصال بأناس يمكن ان يكون للغبيبيو أي سيطرة عليهم ، لا سيما بمهاجرين روس يحنّون الى وطنهم الأم . قبل قضية رايس بقليل كتب اليه : « اذا حاولوا اغتيالك او اغتيالي ، فستقع التبعة على رأس ستالين ، لكن مهما يكن ، لم يعد له ما يخسره الآن على صعيد الشرف » . إلا انه لم يؤيد مشروع دفع ليوفا لمغادرة فرنسا ، حين بيَّن ليوفا انه لا يمكن أن يحل محله احد في باريس واكد له أنه يتخفّى لحماية نفسه بأسماء مستعارة ، مثلما كان قد فعل تروتسكي في باربيزون . اجاب تروتسكي بأن ليوفا لن يربح شيئاً على الارجح بمغادرة فرنسا . فالولايات المتحدة لم تكن ترغب في قبوله على اراضيها ، وفي المكسيك قد يكون أقل أمناً مما في فرنسا . وهو لم يكن يتمنى اطلاقاً ان يرى ولده يقفل على نفسه في « شبه السجن » بكويوا كان ، وربما كانت الخلافات بين الاب والابن تجعل الجانبين لا ينظران الى التلاقي بعين الرضى . فرسالة تروتسكي النهائية بصدد تلك الامور كانت تنتهي بهذه الجمل الجافة والمتوترة :

> « voilà mon petit[٥٢] ، هذا كل ما يمكنني ان اقوله لك ، ليس كثيراً لكنه . . كل ما لدي . . . عليك الآن أن تحتفظ بكل المال الذي ستستطيع تحصيله من الناشرين ، لأنك ستحتاج اليه . je t'embrasse . ton vieux[٥٣] »

بعد اشهر ، سوف يعيد تروتسكي التفكير بهذه الرسالة بكل مرارة وخز الضمير ، لأنه كان فيها شيء من رسالة موجهة الى مقاتل في موقع متقدم ساقط حتماً . مهما يكن ، فان تروتسكي لم يكن مخطئاً تماماً حين اعتقد أن الخطر

---

٥١ ـ تحمل الرسالة المكتوبة بالالمانية تاريخ ٥ نوفمبر ١٩٣٧ ، وكانت موقعة بالحرف الأول A، والارجح أن يكون الحرف الاول من اسم أدولف . المحفوظات ، القسم المقفل .

٥٢ ـ بالفرنسية ، في الاصل ، الانكليزي ، ومعناها : هوذا يا صغيري (م) .

٥٣ ـ بالفرنسية أيضاً ، من رسالة في ١٨ نوفمبر ١٩٣٧ .

على ليوفا في المكسيك قد يكون اعظم مما في فرنسا . فالعديد من عملاء الغبيبو ، المتظاهرين غالبا بأنهم لاجئون اسبان ، كانوا يأتون للاقامة في المكسيك ، وكان ضجيج المطالبين بابعاد تروتسكي يصبح اكثر فأكثر حدة . وقبل نهاية العام ، كانت جدران مكسيكو مغطاة بملصقات تتهم تروتسكي بالتآمر مع جنرالات رجعيين لاطاحة الرئيس كاردناس واقامة ديكتاتورية فاشية في المكسيك . ولم يكن معلوما ما قد تكون نتائج حملة التشويه تلك .

انقشع الجو القاتم لتلك الاشهر مؤقتاً في ايلول/سبتمبر ، حين اختتمت لجنة ديوي المحاكمة المضادة وأصدرت حكمها . كان نصه جازماً :

« على أساس كل الادلة والبيّنات . . توصلنا الى استنتاج ان محاكمات آب/اغسطس ١٩٣٦ وكانون الثاني/يناير ١٩٣٧ مختلقة ومزيفة تماماً . ونحن نعلن ليون تروتسكي وليون سيدوف غير مذنبين[٥٤] »

وقد تلقى تروتسكي هذا الحكم بفرح . الا ان تأثيره كان ضئيلاً ، اذا لم يكن تافهاً . فاذا كان صوت ديوي لفت الانتباه في الولايات المتحدة فقد جرى تجاهله في اوروبا ، حيث كان الرأي العام منشغلاً باحداث العام الحرجة ، العام الاخير قبل ميونيخ ، وبتقلبات الجبهة الشعبية وبالحرب الاهلية في اسبانيا . من جديد خاب امل تروتسكي ، وبما ان الـ Bulletin ، التي كانت ستنشر الحكم ، أبطأت في الصدور ، فقد غاظه ذلك الى درجة انه أنّب ليوفا تأنيباً شديداً بسبب هذه الجريمة وبسبب عماه السياسي . كتب له في ٢١ كانون الثاني/يناير ١٩٣٨ : « لقد بلغ استيائي حده الاعلى بخصوص الطريقة التي تدار بها الـ Bulletin ، وعليّ ان اطرح من جديد مسألة نقلها الى نيويورك » .

لكن قوة ليوفا كانت قد خارت تماماً في تلك الفترة . كان قد عاش - وفقاً لكلام سيرج - حياة جهنمية . كان يتحمل الفقر والاحباطات الشخصية اكثر مما يتحمل الضربات الى ايمانه وكبريائه . يقول سرج :

« اكثر من مرة ، تأخرنا في شوارع مونبارناس حتى الفجر ، وحاولنا

---

٥٤ - Not guilty ! تقرير لجنة التحقيق حول الاتهامات ضد ليون تروتسكي ، المساقة خلال محاكمات موسكو ، انظر أيضاً رسالة تروتسكي الى ليوفا في ٢١ يناير ١٩٣٨ ،

معاً أن نحل ألغاز محاكمات موسكو ، ومن حين لآخر ، كنا نتوقف تحت مصباح كهربائي ، فيهتف احدنا ، « نحن في متاهة الجنون الصرف[٥٥] »

كان ليوفا المنهك ، والمفلس ، والذي ينهشه القلق بصدد والده ، يعيش دوماً في تلك المتاهة . كان لا يزال يجعل من نفسه صدى لحجج والده ، وتنديداته ، وآماله . لكن مع كل محاكمة ، كان يتحطم شيء في ذاته . فالذكريات الاكثر توهجاً في طفولته ومراهقته كانت ترتبط بالرجال المشدودين اليوم الى قفص الاتهام . كان كامينيف نسيبه ، وبوخارين رفيق لعب محبباً ، وراكوفسكي ، وسميرنوف ، وموارلوف وآخرون كثيرون ، اصدقاء ورفاقاً اكبر سنا ، وكلهم يثيرون اعجابه الشديد بفضيلتهم وبشجاعتهم الثوريتين . كان يطيل التفكير بانحطاطهم ولا يتمكن من التسليم بذلك . كيف امكن تحطيم كل واحد منهم وجعله يزحف في تلال الوحل والدم تلك ؟ الم يكن احدهم سينتصب في النهاية امام المحكمة ليجحد اعترافه ويجعل كل الاتهامات الزائفة والرهيبة تتطاير شظايا ؟ انتظر ليوفا ذلك عبثا . ولقد صُدم وتألم كثيراً حين نُقل اليه أن ارملة لينين اعلنت انها تقدم دعمها للمحاكمة . للمرة الالف ، كرر ان البيروقراطية الستالينية ، التي كانت تتطلع لأن تصبح طبقة مالكة جديدة ، خانت الثورة نهائياً . لكن حتى هذا التفسير لم يتوصل الى تعليل كل ذلك الدم وكل ذلك السعار . اجل ، كانت تلك متاهة الجنون الصرف ، فهل ستتمكن عبقرية والده الخارقة ذاتها من ايجاد وسيلة للخروج منها ؟

ضعف في القلب ، يأس ، حمّى وأرق ! لما كان ليوفا ينفر من مغادرة موقعه ، فقد أخر عملية استئصال الزائدة رغم نوبات حادة متواترة . لم يكن يأكل شيئاً تقريباً ، كانت اعصابه منهارة وكان يجر نفسه باكتئاب . الا انه اصدر في الايام الاولى من شباط/فبراير الـ Bulletin وعلى صفحاته حكم لجنة ديوي . ابلغ كويواكان بذلك فرحاً ، ضاماً البروفات الى رسالته وراسماً مخططات نشاطه القادم ، دون ان يلمّح اطلاقاً الى موضوع صحته . كانت تلك رسالته الاخيرة الى ابويه .

في ٨ شباط/فبراير ، كان لا يزال يعمل لكنه لم يأكل شيئاً خلال النهار

---

٥٥ ـ سرج ، مذكرات ثوري ، ص ٣٧٥ .

وأمضى معظم الوقت مع اتيان . في المساء بالذات ، جاءته نوبة اخرى ، الأسوأ بين الجميع . لم يعد يمكنه ان يؤجل العملية وقتاً اطول . وقد كتب رسالة ختمها وسلمها لامرأته موصيا اياها بأن لا تفتحها الا اذا حدث له شيء طارىء . اعاد اتصاله باتيان ، ولم يرد ان يرى شخصاً آخر . وقد اتفقا على القول انه ينبغي الا يدخل مستشفى فرنسياً وتسجيل نفسه باسمه الحقيقي ، لأنه لو فعل ذلك لاكتشفت الغيبيو مكانه بسهولة . كان عليه أن يدخل عيادة خاصة صغيرة ، يديرها اطباء روس مهاجرون ، ويقدم نفسه على أنه المدعو السيد مارتن ، مهندس فرنسي . وكان عليه الا يتكلم سوى الفرنسية . ولم يكن اي رفيق فرنسي سيعرف مع ذلك اين يوجد واين يزوره . وبعد أن تم التوصل الى اتفاق حول كل ذلك ، طلب اتيان سيارة الاسعاف[٥٦] .

كانت تلك الترتيبات عبثية بشكل غير معقول ، حتى لدى النظرة الاولى . فلقد كان المهاجرون الروس آخر من يمكن ان يأمل ليوفا الظهور بينهم كفرنسي . فما كان اسهل من ان يعود الى لغته الام تحت تأثير الحمى او البنج . وكان منافيا للعقل ان يكون المستشفى الوحيد ، او العيادة الوحيدة التي وجدت له في باريس هي بالضبط مؤسسة يتألف ملاكُها من اولئك الذين كان يهرب منهم كما من الطاعون ، منذ اغتيال رايس . ومع ذلك فقد اعلن عن استعداده للدخول اليها في الحال مع انه لم يكن مصاباً بالهذيان ، ولا في حالة اللاوعي حين قاده اتيان وامرأته اليها . لكن ليس من شك ان حسه النقدي وغريزة البقاء لديه كانا مثلومين كلياً .

اجريت له العملية في المساء ذاته . في الايام التي تلت بدا أنه يشفى بشكل جيد وبسرعة . وإذا استثنينا امرأته ، لم يأت لرؤيته غير إتيان . وقد اعادت له الزيارات المرح . تكلما في السياسة ، وحول مسائل التنظيم ، وباستمرار كان يرجو إتيان بأن يعود في أبكر وقت ممكن . وحين عبر التروتسكيون الفرنسيون عن رغبتهم في رؤيته ، قال لهم إتيان بما يتناسب مع الظرف من جو السرية ، انه ليس بوسعهم القيام بذلك وأنه يجب ابقاء العنوان سرياً ، حتى بالنسبة اليهم إذا كانوا يريدون أن يبقى سراً بالنسبة للغيبيو . وحين جفل أحد الرفاق الفرنسيين من

---

٥٦ ـانظر افادات مدام استرين ، وإلساريس ، وروس ، وجان مارتان واتيان ذاته ،التي اعطيت خلال تحقيق الشرطة . وكذلك تقرير مديرية الشرطة في المحفوظات ، القسم المقفل .

فرط الاحتراس هذا ، وعده إتيان بمناقشة المسألة مع ليوڤا . لكن لم يتم قبول ان يعـود المريض أحـد من الناس . وهكـذا انقضت اربعة ايـام ، وفجأة اصيب بانتكاسة خطيرة . داهمته نوبات الم حاد وفقد وعيه .شوهد في ليل ١٣ شباط / فبراير يتيه نصف عار ، وهو يهذي ، في مماشي وقاعـات المستشفى ، الذي كان ، لسبب أو لآخر ، من دون حراس ودون مسؤولين . كان يهذي بالروسية . وفي الصباح الباكر فاجأ وضعُه طبيبه الجراح بحيث سأل جان إذا لم يكن زوجها حاول وضع حد لحياته، وإذا لم يكن مزاجه في الفترة الاخيرة يدفعه للانتحار . وقد أنكرت جان ذلك ، وانفجرت بالبكـاء معلنة أنـه لا بد أن تكـون الغيبيو سممته . جرى إخضاعه مجدداً لعملية جراحية طارئة ، لكن ذلك لم يؤد لأي تحسن . كان المريض يعاني من آلام احتضار رهيبة ، وقد حاول الاطباء إنقاذه بعمليات نقل دم متكررة ، لكن عبثاً . وفي ١٦ شباط ١٩٣٨ ، توفي عن اثنين وثلاثين عاماً ».

هل توفي حقاً ، كما زعمت أرملته ، بين يدي الغيبيو. إن العديد من الدلائل غير المباشرة توحي بأن هذا هو ما حدث . ففي محاكمات موسكو جرى التشهير به على أنه مساعد أبيه الاكثر نشاطاً ، وبصورة اكثر دقة على انه رئيس اركان المؤامرة التروتسكية ـ الزينوفييفية . وحسب شهادة رايس وكـريڤيسكي ، غالباً ما أُعلِن في هيئة اركان الغيبيو في موسكو : « ان الفتى يعمل جيداً ، فمن دونه كان العجوز وجد صعوبة اكبر بكثير في تسيير العمل » . كان في صالح الغيبيو ان تحرم تروتسكي من مساعده ، لا سيما اذا كان ذلك يرضي روح الانتقام لدى ستالين . كانت الغيبيو تمتلك عميلاً ومخبراً موثوقاً للغاية الى جانبها ، وقد ساقه هذا الى المكان الذي سيلقى الموت فيه . وكان لدى الغيبيو كل الحق في أن تأمل بأنه ما أن يتم التخلص من ليوڤا حتى يحل عميلهـا محله في الفرع الروسي من المنظمـة التروتسكيـة ويقيم اتصالاً مبـاشراً مـع تروتسكي . وفي العيادة ، كان الجميع من المهاجرين الروس ، الاطباء كما الممرضون ، وحتى الطهاة والبوابون ، وكان بعضهم أعضاء في شركة إعادة التوطين ؛ وما كان اسهل بالنسبة للغيبيو من ان تجد عميلاً بينهم يرتب الأمور بحيث يعطي السم للمريض . فمع ذلك العدد من الجرائم في ذمة الغيبيو ، لماذا تكون موسوسـة بما يخص الجريمة الجديدة ؟

لكن لم يكن ثمة إثبات دامغ . بناء لطلب جان جرى فتح تحقيق لم يؤد

لكشف اي دليل على انه كان هنالك سلوك شائن . نفت الشرطة والاطباء بقوة ان يكون حدث تسميم ليوفا أو اي شكل آخر لمحاولة اغتيال بحقه . عزوا موته لمضاعفات بعد الجراحة (انغلاق الأمعاء) ، لضعف في القلب ، وطاقة ضئيلة جداً على المقاومة . وقد وافق طبيب مرموق ، كان كذلك صديقاً لعائلة تروتسكي ، على هذا الرأي . من جهة اخرى ، طرح تروتسكي وكنته عدداً من الاسئلة وثيقة الصلة بالموضوع بقيت من دون إجابة واضحة . هل كان من قبيل الصدفة الصرفة ان ينقل ليوفا الى عيادة روسية ؟ (لم يكن تروتسكي يعرف أنه بعد أن طلب اتيان سيارة الاسعاف أعلم الغيبيو بالامر في الحال ، كما اعترف اتيان ذاته فيما بعد) . اكد مجموع العاملين في العيادة أنهم لم يعرفوا شيئاً عن هوية ليوفا وجنسيته . لكن الشهود العيان اكدوا بالمقابل انهم سمعوه يهذي ، وحتى يناقش في السياسة ، بالروسية . ثم لماذا كان جرّاح ليوفا ميّالاً لعزو انتكاس صحته الى محاولة انتحار بدل الاشارة الى سبب طبيعي ما ؟ تقول أرملة ليوفا إن الجراح سقط في حالة صمت ذاهل حالما انفجرت الفضيحة . تحصن خلف واجب الحفاظ على السر المهني . وعبثاً حاولت جان لفت انتباه المحقق الى هذه الظروف الغامضة ؛ عبثاً لفت تروتسكي الانتباه الى ان التحقيق القضائي الروتيني لم يكن يأخذ بالاعتبار تقنيات الاغتيال المحكمة والغامضة الخاصة بالغيبيو . هل خنقت الشرطة الفرنسية القضية لتغطية قلة فعاليتها كما افترض تروتسكي ؟ هل جرى تشغيل ضغوط سياسية قوية في اوساط الجبهة الشعبية للحيلولة دون القيام بتحقيق كامل ؟ لم تكن العائلة قادرة على شيء غير المطالبة بتحقيق جديد(٥٧) .

حين وصل النبأ الى مكسيكو ، لم يكن تروتسكي في كويواكان . قبل ايام قليلة ، كان ريفيرا لاحظ أن اناساً مجهولين يتسكعون حول البيت الازرق ويتجسسون على سكانه من محطة مراقبة موجودة في الجوار . ولما كان ذلك قد اثار ذعره ، فقد اتخذ ترتيبات لينتقل تروتسكي ويسكن مؤقتاً لدى أنطونيو هيدالغو ، وكان ثورياً قديماً ، صديقاً لريفيرا ، في شابولتيبيك پارك . في ذلك المكان ، كان تروتسكي يشتغل في ١٦ شباط / فبراير بحثه **اخلاقهم واخلاقنا** ،

---

٥٧ ـ جرى الاستشهاد بالافادات ، وتقارير شهود العيان ، وشهادات الاطباء ورسائل تروتسكي ، استنادا الى المحفوظات ، القسم المقفل ، في جزء منها ، وفي الجزء الأخر الى اوراق ليف سيدوف ، التي حولها اليّ او جين مارتين بفضل بيير فرانك .

حين نقلت صحف المساء خبر موت ليوڤا . حين قرأ ريڤيرا النبأ ، اتصل هاتفياً بباريس ، أملاً بالحصول على تكذيب ، ثم ذهب لرؤية تروتسكي في شابو لتيبيك پارك . رفض تروتسكي تصديقه ، وانفجر غضباً ، واشار لريڤيرا بأن يخرج . ثم عاد معه إلى كويواكان ، ليبلغ ناتاليا الخبر . كتبت ناتاليا :

« كنت . . . أفرز صوراً قديمة لولدينا . قُرع الباب وفوجئت برؤية ليون داڤيد وڤيتش داخلاً . هرعت للقائه ، فدخل مطأطىء الجبين كما لم يحدث من قبل . كان وجهه رمادياً ، وبدا وقد تقدم فجأة في السن . فسألت : ما الذي حدث ، هل أنت مريض ؟ واجاب بصوت خافت : إن ليوڤا مريض ، صغيرنا ليوڤا(٥٨) . . . »

طوال أيام ، بقي هو وناتاليا مقفلين على نفسيهما في غرفتهما ، متحجرين من الألم وعاجزين عن رؤية امناء السر ، او استقبال أصدقاء أو الرد على تعاز .

« لم يكن يكلمه أحد ، لأنهم كانوا يرون ان حزنه بلا حدود . وحين خرج بعد ثمانية أيام ، كانت عيناه منتفختين ، ولحيته اطول مما في العادة ، ولم يكن يتمكن من الكلام » .

بعد عدة اسابيع ، كتب الى جان :

« إلى الآن ، لا تزال ناتاليا . . . عاجزة عن الرد عليك . إنها تقرأ رسائلك وتعيد قراءتها ، انها تبكي ، تبكي . وحين أتوصل للتحرر من عملي . . . أبكي معها(٥٩) » .

كان يخالط حزنه وخز الضمير لأنه لم يتوان خلال السنة الاخيرة عن توجيه اقسى التأنيبات لولده ، ولأنه نصحه بالبقاء في باريس . كانت تلك هي المرة الثالثة التي يبكي فيها موت احد اولاده ، وفي كل مرة كان وخز الضمير الذي يلازم هذا الحداد الجديد اعظم واعظم . بعد موت نينا ، عام ١٩٢٨ ، لام نفسه لأنه لم يقم بما يكفي لتشديد عزمها ، وحتى لأنه لم يكتب اليها في الاسابيع

---

٥٨ ـ ناتاليا سيدوفا ، Father and Son في Fourth International ، آب/ اغسطس ١٩٤١ وفي حياة ليون تروتسكي وموته .

٥٩ ـ من تروتسكي الى جان مارتين ، ١٠ آذار/ مارس ١٩٣٨ ، المحفوظات ، القسم المقفل .

الاخيرة من حياتها . وكانت زينا مبعدة عنه حين انتحرت ؛ والآن لقي ليوڤا حتفه في الموقع الذي اوصاه أن يصمد فيه . ما احد من اولاده شاركه ، بقدر ليوڤا ، حياته ونضاله ، وما كان يمكن اية خسارة اخرى أن تدفع به إلى ذلك القدر من الفجيعة .

في ايام الحداد تلك ، كتب نعي ليوڤا ، مرثية فريدة من نوعها في الادب العالمي[٦٠] .

« في حين نكتب ، ام ليڤ سيدوف وأنا ، هذه السطور . . . لا يمكننا الى الآن ان نصدق النبأ . ليس فقط لأنه كان ولدنا ، الامين ، والمخلص ، والمحب ، . . . بل لأنه لا احد آخر دخل حياتنا ومد جذوره فيها بهذا العمق . . . »

« الجيل القديم الذي . . . أبحرنا معه سابقاً على طريق الثورة . . . أزيل من على خشبة المسرح . ما لم تفعله عمليات النفي القيصرية ، والسجون ، والكاتورغا ، وحرمانات الحياة في المنفى ، والحرب الاهلية والمرض ، انجزه ستالين ، أسوأ آفات الثورة ، خلال السنوات الاخيرة . . . من اولئك الذين ايقظهم عام ١٩١٧ وتكوّنوا في ٢٤ جيشاً على الجبهة الثورية ، من ذلك الجيل الذي بلغ منتصف العمر ، أبيد الجزء الافضل ايضاً ؛ والجزء الافضل من الجيل الشاب ، من معاصري ليوڤا ، جرى دوسه ايضاً بالاقدام وطحنه . . .خلال سنوات النفي هذه

، كونّا صداقات جديدة كثيرة ، وبعض اصدقائنا الجدد اصبحوا . . . كأعضاء في عائلتنا ، لكننا لم نتعرف اليهم الا في حين كانت شيخوختنا تقترب . ليوڤا وحده عرفنا حين كنا في شبابنا وشاركنا حياتنا منذ وعى ذاته . وبما أنه بقي شاباً ، فقد غدا معاصرنا تقريباً . . . »

ببساطة وبحنان ، كان يستحضر ذكرياته عن حياة ليوڤا القصيرة ، واصفاً الولد المتصارع مع سجّاني والده ، والجالب رزم طعام وكتباً الى

٦٠- Borets , Lev sedov syn Drug ، في .B.O العدد ٦٤ ، آذار/ مارس ١٩٣٨ (الطبعة الانكليزية بشكل كراس ، Leon Sedov . Son . Friend . Fighter) .

السجن ، والمرتبط بصداقة مع البحارة الثوريين والمختبىء تحت مقعد في قاعة محاضرات الحكومة السوفياتية ، ليرى كيف يقود لينين الثورة . رسم صورة المراهق الذي كان في سنوات الجوع الكبرى إبان الحرب الاهلية يجلب الى البيت في كمٍّ سترة ممزقة رغيفاً صغيراً ساخناً اعطاه إياه شغيلة مخبز كان يقوم بالتحريض السياسي في صفوفهم ؛ وتحدث عنه كيف كان يمقت الامتيازات البيرقراطية ، ويرفض الانتقال مع والده في السيارة ، وكيف غادر منزله الوالدي في الكرملين ليقيم في نزل للطلاب البروليتاريين ، وتطوع للعمل مع فرق شغيلة ، متطوعين هم ايضاً ، لجرف الثلج من شوارع موسكو ، ولتفريغ قطارات خبز وخشب للبناء ، ولاصلاح القاطرات ، كما لمحو الامية . وتذكر الشاب المعارض الذي ترك امرأته وولده ليرافق والديه إلى منفاهما ، والذي كان يؤمن الاتصال بين ابيه والعالم الخارجي ، في الما آتا ، حيث كان محاطاً بالغيبيو ، والذي كان يخرج احياناً في الليل العميق او تحت المطر احيانا ، او في عاصفة ثلجية ، ليلتقي احد الرفاق خفية في الغابات خارج المدينة ، أو في سوق مزدحم بالناس ، او في مكتبة ، او حتى في مبنى للحمّامات العامة .

« وفي كل مرة ، كان يعود سعيداً وكله مرح وحماس ، وفي عينيه شعلة محاربة صغيرة ، ومعه غنيمة وضعها بعناية تحت ردائه » . « كم كان يفهم الناس جيداً . كان يعرف معارضين اكثر مني بكثير . . . وكانت غريزته الثورية تسمح له دائماً بأن يقول من دون تردد ما هو صحيح وما هو خطأ . وكانت عينا أمه تبرقان اعتزازاً ، فقد كانت تعرف ولدها أفضل مما اعرفه » .

عند هذه النقطة ، وجدت مشاعر تبكيت الضمير لدى الوالد مخرجاً . ذكر كم كان متطلباً حيال ليوڤا ، لكنه أوضح تلك التطلبات القاسية ، مشيراً بما يشبه الأعذار الى « عادات عمله المتحذلقة » وميله لأن يشترط الحد الاقصى من القريبين جداً اليه . ومن كان اقرب إليه من ليوڤا ؟ قد يبدو

« ان علاقتنا كانت مطبوعة بنوع من الصرامة والتباعد . لكن تحت هذا الظاهر بالذات . . . كان يحيا تعلق متبادل وعميق وحار ، مصدره

شيء اعظم بما لا يقاس من روابط الدم : اشتراك في وجهات النظر ، مشاطرة لعواطف المحبة كما الكراهية ، الافراح والآلام المعاناة معاً ، والآمال العظام المعقودة بصورة مشتركة . كان البعض لا يرون في ليوڤا غير ابن أبيه ، لكنهم كانوا منخدعين ، تماماً كما اولئك الذين نظروا طويلاً إلى كارل ليبكنخت بهذه الطريقة : إن الظروف وحدها هي التي حرمت شخصية ليوڤا من بلوغ احجامها الحقيقية » .

هنا نجد اعترافاً ، ربما كان مغالى في شهامته ، بمدى مشاركة ليوڤا في اعمال والده الكتابية .

« كان يجب ان يظهر اسمه ، بحق ، بجانب اسمي على كل مؤلفاتي تقريباً التي كتبت منذ عام ١٩٢٩ » .

كم فرح والداه وكم اثلج صدراهما ، حين تلقيا اثناء احتجازهما في النروج نسخة **الكتاب الاحمر** لليوڤا

« أول رد مفحم على مشهِّري الكرملين » !

وكم كان رجال **الغيبيو** على حق حين قالوا :

« من دون الفتى ، كان وجد العجوز صعوبة اكبر بكثير في تسيير العمل » .

والآن ، سيكون الأمر اصعب بكثير ! فكرَّ من جديد بالمحن التي لا بد أن ذلك الكائن الحساس والمرهف مر بها : السيل الذي لا ينتهي من الاكاذيب والافتراءات ، السلسلة الطويلة من تخليات رفاق أو اصدقاء قدامى ومن استسلاماتهم ، وانتحار زينا ، وفي الاخير المحاكمات التي « هزت بعمقٍ بنيته المعنوية » . ومهما تكن الحقيقة بشأن السبب المباشر لموت ليوڤا ، وسواء مات لأن المحن أنهكته ، أو لأن **الغيبيو** سممت له ، ففي الحالتين كان رجال هذه الاخيرة وسيدهم هم المسؤولين عن موته .

وانتهت المرثية الكبيرة بالطريقة التي بدأت بها :

« إننا نتذكر ، والدته التي كانت اقرب اليه من اي شخص في العالم ، وأنا ، نتذكر صورته ملمحاً فملمحاً في اللحظة ذاتها التي نعيش

فيها هذه الساعات الرهيبة ، ونرفض الاعتقاد بأنه لم يعد على قيد الحياة ، ونبكي لأنه يستحيل علينا ان لا نعتقد بذلك . . . كان جزءاً من ذاتنا ، ذلك الجزء الاكثر فتوة . . . بموت ولدنا مات كل ما كان بقي شاباً فينا . . . لم نفكر يوماً ، ولم نتوقع ، امك وأنا ، أن القدر قد يحملنا عبء هذه المهمة . . . مهمة كتابة نعيك . . . لكننا كنا عاجزين عن إنقاذك » .

وكان الآن شبه اكيد ان سرجي قد قضى نحبه أيضاً مع انه لم تكن ثمة معلومات رسمية بشأن ذلك ، وليس ثمة شيء من ذلك بعد ٢٥ عاماً على ذلك التاريخ . إلا أن امامنا الرواية التالية ، على لسان سجين سياسي قاسمه في بداية عام ١٩٣٧ زنزانته في بوتيريك (موسكو)[٦١] . ظلت الغيبيو تضغط على سرجي عدة اشهر في عام ١٩٣٦ كي يجحد والده علناً ، هو وكل المواقف التي يدافع عنها . الا ان سرجي رفض وحكم عليه بخمس سنوات من الاشغال الشاقة في معسكر اعتقال ونفي الى ڤوركوتا . هناك جُمِّع حوالى نهاية العام التروتسكيون القادمون من معتقلات كثيرة أخرى . وهناك ، خلف الاسلاك الشائكة ، أقام سرجي ، للمرة الأولى، صلات وثيقة بهم . ومع انه رفض ، حتى آنذاك ، ان يعتبر نفسه تروتسكياً ، تكلم بعرفان عميق بالجميل وباحترام شديد على انصار والده ، ولا سيما اولئك الذين صمدوا دون ان يستسلموا أبداً طوال عشر سنوات تقريباً . وقد شارك في اضراب عن الطعام أعلنوه ودام اكثر من ثلاثة اشهر ، الى حد انه كاد يموت[٦٢] . وفي بداية ١٩٣٧ ، أعيد الى موسكو لأجل استجواب جديد . (في تلك الفترة التقاه السجين الذي ننقل عنه روايتنا) . لم يكن لديه أي أمل في ان يطلق سراحه أو بالحصول على تخفيف لعقوبته ، لأنه كان مقتنعاً بأن كل من كانوا يتبعون والده ، وهو معهم ، سوف يباد ون . إلا أنه كان يبرهن في سلوكه على رباطة جأش رواقية ، مستمداً قوته من طاقاته الفكرية والمعنوية .

« إذ كان يناقش طرائق الاستجواب لدى الغيبيو ، ويرى أن كل

---

٦١ ـ اعطانا هذه الرواية عن سلوك سرجي في السجن جوزف برجيه ، الذي ساعد في تأسيس الحزب الشيوعي في فلسطين ، وخدم في فرع شؤون الشرق الاوسط في الكومنترن ، لكنه امضى ٢٣ عاماً في سجون ستالين ومعتقلاته ، وقد اطلق سراحه واعيد اعتباره عام ١٩٥٦ .

٦٢ ـ انظر ابعد قليلاً .

امرىء مثقف . . . ينبغي ان تتوافر لديه القوة لمواجهتها . لفت الانتباه الى انه قبل قرن ، كان بالزاك وصف كل تلك الحيل ، وكل تلك التقنيات ، بصورة دقيقة جداً وأنها كانت تقريباً لا تزال على حالها . . . كان يبرهن عن هدوء كامل حيال المستقبل ، وما كان سيدلي بأي شيء ، في اي ظرف كان ، يمكن أن يورطه بأدنى درجة او يورط اي شخص آخر » .

ومن البديهي انه ظل على هذا الموقف حتى النهاية ، لأنه لو لم يفعل ذلك، ولو نجحت الغيبيو في أن تنتزع منه اعترافاً، لكانت نشرت ذلك في العالم اجمع . وكان يحزر أن اهله لا بد أن يخشوا أن تنقصه ، هو ابنهما غير المتهم بالسياسة ، القناعة والشجاعة الضروريتان لتحمل مصيره . وكان يأسف فوق كل شيء واقع انه ما من أحد سيتمكن من ان يقول لهما ، ولا سيما لوالدته ، ما حدث معه من تغيير ، لأنه لم يكن يعتقد أن كل اولئك الذين التقاهم منذ سجنه قد يعيشون ليرووا هذه القصة . وسرعان ما لم يعد صاحب هذه الرواية يرى سرجي ، لكنه سمع سجناء آخرين يتحدثون عن إعدامه . بعد ذلك بوقت طويل ، عام ١٩٣٩ ، وصلت رسالة إلى تروتسكي من مصدر غير جدير كثيراً بالتصديق ، بواسطة صحفي اميركي . وقد أكد أن سرجي كان لا يزال حياً في نهاية عام ١٩٣٨ ، لكن بعد ذلك التاريخ لم يعد يُسمع عنه شيء اطلاقاً[٦٣] .

من ذُرّية تروتسكي ، لم يبق غير سيڤا ، ابن زينا ، الذي كان بلغ آنذاك الثانية عشرة من عمره ، حياً خارج الاتحاد السوفياتي لم يكن معروفاً (وليس معروفاً الى الآن) ما الذي حدث لاحفاد تروتسكي الآخرين . كان يتعهد سيڤا بالتربية كل من ليوڤا وجان ، التي لما كانت من دون ولد فقد تصرفت كأم حقيقية له وتعلقت به بصورة مشغوفة واستحواذية . وقد دعاها تروتسكي للمجيء مع الولد الى المكسيك، وذلك في رسالة اولى بعد موت ليوڤا . كتب لها يقول :

« « احبك كثيراً يا جان ، وبالنسبة لناتاليا ، انت لست فقط . . ابنة محبوبة بكل الحنان والرزانة التي ليس غير حب ناتاليا جديراً بهما ، بل كذلك جزء من ليوفا ، ما يبقى لنا من حياته الاشد حمامة . . . » .

---

٦٣ ـ المحفوظات ، القسم المقفل ،

كل ما كانا يتمنيانه ، هما الاثنين ، هو ان تأتي هي وسيڤا فيعيشا معهما في المكسيك ، واذا لم تكن ترغب جان في ذلك ، فلتأت على الأقل لزيارتهما . « واذا كنت تعتقدين انه سيصعب عليك الآن الانفصال عن سيڤا ، فسنفهم عندئذ مشاعرك[٦٤] » .

إلا ان هذه القصة المؤثرة تنحرف هنا نحو المضحك ، وتندمج الى حد بعيد بخلافات الشلل التروتسكية في باريس ، فقد كان ليوڤا وجان ينتميان لمجموعتين مختلفتين : هو للتروتسكيين الاصيلين ، وهي لجماعة مولينييه . وفي الرسالة التي تركها ليوفا بمثابة وصية ـ وهي تتكلم حقاً لصالح ذوقه وكرامته ـ اعلن انه بالرغم من ذلك الفرق (ويمكن ان نضيف ، رغم حياتهما الزوجية غير الموفقة) ، فقد كان لا يزال يقدرها تقديراً عالياً ويضع فيها ثقة لا حدود لها . ومع ذلك فالخصومات الحادة بين الشلل لم توفر حتى جثمان ليوفا . لقد تركزت على شخص اليتيم الصغير ووضعت تروتسكي شخصياً في وضع غير معقول[٦٥] . فجان ، التي كانت تبذل جهوداً يائسة من اجل الحصول على تحقيق جديد بصدد موت ليوفا ، كلفت محامياً ينتمي لشلة مولينييه بان يمثل مصلحة العائلة حيال القضاء الفرنسي والشرطة الفرنسية ، اما التروتسكيّون الاورثوذكسيون (وجيرار روزنتال محامي تروتسكي) فأنكروا على جان الحق في القيام بذلك واكدوا ان والدي ليوفا وحدهما ـ يملكان حق الكلام باسم العائلة . وقد سمح تصادم المزاعم من الجانبين للشرطة والقضاء يان يتجاهلوا بصورة أسهل طلب فتح تحقيق جديد[٦٦] .

وأثيرت ضجة اخرى بصدد محفوظات تروتسكي . فمن وفاة ليوفا ، كانت بحوزة جان ، وبالتالي بين يدي جماعة مولينييه ، بصورة غير مباشرة . وقد طلب تروتسكي ان ترسل المحفوظات اليه بواسطة احد انصاره الفرنسيين الارثوذكسيين ، لكن جان رفضت تسليمها ، وبردت العلاقات بينها وبين والدي ليوفا فجأةواتخذت حتى طابعاً عدائياً . في الأخير ، استعاد تروتسكي محفوظاته ، لكنه اضطر من اجل ذلك الى أن يرسل احد انصاره الاميركيين الى باريس

٦٤ ـ من تروتسكي الى جان في ١٠ آذار / مارس ١٩٣٨ ، المحفوظات ، القسم المقفل .

٦٥ ـ من تروتسكي الى روسمر ، وجان ، وروس ، وكامي (كليمنت) ، في ١١ آذار .

٦٦ ـ انظر مراسلة تروتسكي مع جيرار روزنتال في المحفوظات القسم المقفل .

لاستعادتها . ورغم الحاح تروتسكي المتكرر ، رفضت جان الذهاب الى المكسيك او ارسال الولد الى هناك . كانت في حالة عصاب ، وكانت نفسها فاقدة الآن التوازن كلياً ، لم تعد تريد الانفصال عن القاصر ، ولو مؤقتاً . وقد اثارت الشلل المتخاصمة ضجة ايضاً حول هذا الموضوع ، ورغم كل جهود تروتسكي لمحاولة كسب كنته ، فقد جعلت كل اتفاق مستحيلاً ، لذا قرر تروتسكي اللجوء للقضاء ، إما لأنه كان راغباً ، بعد خسارة كل اولاده ، في استعادة حفيده ، الوحيد الذي كان يمكنه استعادته ، او لأنه كان يخشى ترك اليتيم ، حسبما قال ، في حماية **شخص شديد القلق وفاقد للأسف ، توازنه** ، او لهذين السببين معاً . وقد تلت ذلك دعوى غير لائقة ، امتدت لعام كامل ، ووضعت الماء في طاحونة صحافة الاثارة ومنشورات الشلل(٦٧) .

ووسط يأس جان من فقد الولد ، حاولت في البدء أن تبطل مطالبات تروتسكي عن طريق التأكيد بأنه لم يكن يوماً متزوجاً زواجاً شرعياً ، لا في المرة الأولى ولا في المرة الثانية ، وكان على تروتسكي ان يثبت عدم صحة تلك المزاعم . وحتى امام ذلك الاستفزاز ، اصر على ان يوضح في رسالة الى المحكمة انه يتفهم وضع جان العاطفي الصعب ويعترف بحقها المعنوي دون ان يعترف بحق شرعي لها على الولد ، وجدد دعوته ، عارضاً عليها دفع تكاليف سفرها الى المكسيك . ذهب حتى الى الاعلان عن استعداده للتفكير باعادة سيفا اليها ، لكن ليس قبل أن يتمكن من رؤ يته(٦٨) . وفي مرتين متتاليتين ، اصدرت المحكمة قراراً لصالح تروتسكي وعينت قيِّمين بهدف اعادة الولد لجده ، لكن جان رفضت الخضوع للقانون واخفت الولد خارج باريس ، ولم تتمكن مارغريت روسمر ، الا بعد بحث طويل و « حملة شتاء » في الفوسج ، من اكتشاف مكان الولد وانتزاعه من يدي جان . لكن لم يكن ذلك كل شيء لأن اصدقاء جان

---

٦٧ - من تروتسكي الى آل روسمر ، ١٩ ايلول ، والى جيرار روزنتال في ٢٧ تشرين الاول ١٩٣٨ . رد روزنتال على تروتسكي في ٧ تشرين الاول ١٩٣٨ . ومن بين العديد من الصحف روت باري سوار القصة في ٢٦ آذار ١٩٣٩ ، وكرست له صحيفة مولينيه ، La verité ، العدد ٤ ، نيسان ١٩٣٩ ، ملحقاً خاصاً بعنوان كل الوسائل مناسبة ، يصوِّر قضية جان ويهاجم تروتسكي لأنه طالب بالولد .

٦٨ - كلام تروتسكي الى السيد هامل ، القيّم الرسمي ، في ٧ شباط ١٩٣٩ ، محضر المناقشات في المحكمة ، وتبليغات قانونية ، والمراسلة بين تروتسكي وامناء سره ووكيله القانوني ، انظر خصوصاً الرسائل في ٢٢ و ٢٧ و ٢٩ آذار / مارس ، و ١٧ و ٢٩ نيسان / ابريل ١٩٣٩ المحفوظات القسم المقفل ، وكذلك رسالة تروتسكي الى آل روسمر في ٢٦ ايار / مايو ١٩٣٩ .

حاولوا اختطاف الولد . ولم يوصله آل روسمر الى كويواكان قبل تشرين الاول / اوكتوبر١٩٣٩ . وفي رسالة مؤثرة ، كان تروتسكي حاول ان يفسر لسيفا لماذا يصر على مجيئه الى المكسيك ، وبما انه امتنع عن الاشارة الى جان بأي شيء يمسها ، لم يكن في وسعه ان يحدد للولد السبب الاساسي، وقد بقي تفسيره مرتبكا وقليل الاقناع .

« صغيري سيفا . . .لقد فارق خالك ليوفا الحياة وعلينا أن نكون على اتصال مباشر الواحد بالآخر . يا صغيري لا اعرف اين هو والدك واذا كان لا يزال حياً . في رسالته الأخيرة التي كتبها الي منذ اربع سنوات تقريباً ، ألح في السؤال إذا كنت نسيت الروسية . ومع ان أباك رجل فائق الذكاء ومثقف جداً ، فهو لا يتكلم لغات أجنبية ،وسيكون قاسياً جداً بالنسبة اليه ان يكتشف يوماً انه عاجز عن التفاهم معك ، والامر ذاته يصح على شقيقتك يمكنك ان تتصور اي اجتماع حزين للعائلة إذا كنت عاجزاً عن الكلام مع شقيقتك الصغيرة بلغتك الام . . . انت الآن كبير ، لذا اود ان احدثك طويلاً عن شيء آخر بالغ الأهمية ، عن الافكار التي كان يشترك بها ـ ويشترك بها الآن ـ كل من امك وابيك ، وخالك ليون ، وانا وناتاليا . أود جداً ان افسر لك شخصياً القيمة الكبرى لتلك الأفكار والاهداف التي تألمت لأجلها عائلتنا . . . ولا زالت تتألم كثيراً . آخذعلى عاتقي ، يا حفيدي ، كل مسؤولية حيالك ، امام نفسي وامام والدك اذا كان حياً وامامك انت » . وختم بهذه الكلمات الجافة بشكل غريب ، وغير المناسبة في رسالة الى ولد صغير : « هذا هو السبب في كون قراري بصدد سفرك لا رجعة فيه(٦٩) » .

إلا أن الڤيبيو واصلت حبك دسائسها ، لم يجد اتيان اية صعوبة في الحلول محل ليوفا في المنظمة التروتسكية في باريس . كان يصدر الآن الـ Bulletin ، وكان المراسل الاهم لتروتسكي في اوروبا ويقيم صلة مع اللاجئين الجدد الذين يفرون من الارهاب الستاليني ويسعون للاتصال بتروتسكي . لم يكن في الفرع الروسي من المنظمة غير ثلاثة اعضاء أو أربعة في باريس ، وما أحد منهم كانت

٦٩ ـ رسالة في ١٩ ايلول / سبتمبر ١٩٣٨ : المحفوظات ، القسم المقفل .

لديه معرفة اتيان بالشؤون السوفياتية ، والثقافة ذاتها والمهارة نفسها . استناداً الى رسائل ليوفا ، كان تروتسكي يعرف ان ليوفا نظر الى اتيان على انه صديقه الأكثر حمامة والأكثر جدارة بالثقة ، وقد فعل العميل الاستفزازي الآن كل ما استطاع لتكريس ذلك الرأي الذي كان مكوناً بصدده . وقد استغل الم تروتسكي الابوي والموضوعات التي كان بالغ الحساسية تجاهها . فحاول إثارة حذر تروتسكي حيال الناس الذين كانوا في طريقه (أي طريق اتيان) . لم ينقض اسبوع على وفاة ليوفا حتى كان يكتب لتروتسكي ، مع كل السخط المطلوب ، بان سنيفليت يشيع الافتراء الذي مفاده ان ليوفا مسؤول عن موت رايس ، وبتجرد ظاهر ذكّر تروتسكي بالثقة الكاملة التي كان ليوفا يضعها فيه ، هو الذي كان يحمل دائماً مفتاح علبة رسائل ليوفا ويجمع كل بريده(٧٠) .

رد تروتسكي ، الذي كانت بينه وبين سنيفليت خلافات سياسية ، بانفجار غاضب ضد « المفتري » . وبالطبع ، كان العميل الاستفزازي مثال التروتسكي الاورثوذكسي ، الذي هو دائماً من رأي العجوز ، لكن الذي لا يأخذ يوماً مظهر موافق خسيس على كل شيء . لما كان مهتماً بتقديم إثباتات وفيرة لكن غير تفاخرية ابداً ، على اخلاصه ، فقد كان يستعلم باهتمام مؤثر عن صحة العجوز ، ورفاهه ، علماً أنه لم يكن يطرح اسئلته على تروتسكي بالذات ، بل على احد امناء سره. فمع تروتسكي ، كان يناقش مباشرة مسائل سياسية ومضمون الـ Bulletin ، التي كانت تظهر الآن بانتظام اكبر مما منذ زمن بعيد. طلب من تروتسكي مقالاً تذكارياً عن رايس ، مقالاً كانمتلهفاً ، حسب قوله، لنشره بمناسبة ذكرى موت المذكور، وحرص عل ان لا تظهر الصحيفة من دون تحية بالشكل المناسب لليوفا في الذكرى الأولى لوفاته . وقد اعلم تروتسكي بأن الـ Bulletin ستظهر وفيها مقال بعنوان «حياة تروتسكي في خطر » يفضح نشاطات عملاء الغيبيو في المكسيك ، وقدم لتروتسكي معطيات واستشهادات ماخوذة من ملفات تضم صحفاً روسية قديمة ومحفوظات متنوعة يصعب الوصول اليها ، وكانت منشورات ومعطيات واستشهادات يحتاج اليها تروتسكي لكتابه ستالين . باختصار ، جعل

٧٠ ـ كان اتيان يراسل تروتسكي احياناً باسمه الخاص به ، وفي احيان اخرى باسم امانة السر الاممية ، واحياناً ايضا كرئيس تحرير الـ Oppositall Bulletin ،انظر مثلاً رسالة السكريترية الأممية الى تروتسكي في ٢٢ شباط/ فبراير ١٩٣٨ ، بتوقيع إتيان وبولسن .

نفسه يظهر بمظهر من لا غنى عنه ، وبالقدر تقريباً الذي كان ليوفا لا غنى عنه . وباستمرار ، كان يسمم بصورة رزينة ، لكن أكثر فاكثر ، الخصومات الداخلية في الشلل التروتسكية والنزاع بين تروتسكي وجان ، الى حد ان تروتسكي توصل الى رفض دعم طلب جان فتح تحقيق رسمي جديد بصدد ظروف وفاة ليوفا . وقد بذل إتيان ذاته كل ما في وسعه للحيلولة دون ذلك التحقيق ، قدم نفسه للشرطة الفرنسية على انه صديق ليون سيدوف الاكثر قرباً اليه ، وأبعد كل شبهة حول وجود عمل خبيث ، معلناً ان وفاة ليوفا نجمت عن المقاومة الضعيفة لبنيته الجسدية[٧١] .

كان العميل الاستفزازي ايضاً محور الاعدادات التي كان يقوم بها التروتسكيون من أجل المؤتمر التأسيسي للاممية الرابعة . في اوج تلك الاعدادات بالذات ، في ١٣ تموز/ يوليو ١٩٣٨ ، اختفى رودولف كليمان ، وهو مهاجر الماني كان سكرتير تروتسكي في باربيزون ، وسكرتير الأممية المرتقب ، اختفى من منزله في باريس بشكل غامض . بعد ١٥ يوماً تقريباً ، تلقى تروتسكي رسالة كتبها كليمان ووقّعها في الظاهر ، لكن جرى ارسالها من بريد نيويورك ، تندد بتحالف تروتسكي مع هتلر وبتعاونه مع الغستابو ، الخ . . . وبعد أن كرر الكاتب الاتهامات الستالينية المعتادة ، اعلن قطع علاقته بتروتسكي (تلقى العديد من التروتسكيين الفرنسيين نسخة عن هذه الرسالة التي ارسلت من بريد بربينيان) . كانت الرسالة تنطوي على عدد كبير من الفظاظات والاخطاء ، التي ما كان يمكن أن يكون كليمان صاحبها اطلاقاً ، بحيث استنتج تروتسكي فوراً ان ذلك كان من قبيل التزوير الفظ ، أو أن كليمان كتبها تحت الاكراه وفي حين كان يهدده احد رجال الغيبيو بالمسدس . « إذا كان كليمان لا يزال حياً ، فليظهر وليعلن امام القضاء او الشرطة او أي لجنة غير متحيزة كل ما يعرفه . ويمكن ان نتوقع انه في اي من الحالات ، لن تتركه الغيبيو يتملص من مخالبها[٧٢] » . بعد

---

٧١ ـ افادة اتيان خلال استجواب الشرطة المشار اليه اعلاه . انظر كذلك رسالته الى تروتسكي بتاريخ ٦ حزيران/ يونيو ١٩٣٨ ، ورسائل تروتسكي الى الرفيقين لولا واتيان ، ١٧ شباط / فبراير ١٩٣٩ ، وقد كتب سكريتير تروتسكي فان هايجنورت الى نافيل في ٢٩ نيسان / ابريل ١٩٣٨ : « تلقيت رسائل من عدة اصدقاء في فرنسا ، وبوجه خاص اتيان ، تبدي القلق على حالة العجوز وتطلب معلومات » ، المحفوظات، القسم المقفل ، انظر كذلك .B.O ، الاعداد ٦٦ ـ ٦٧ ، ٦٨ ـ ٦٩ ، و ٧٠ ، ١٩٣٨ ، والعدد ٧٤ ، في ١٩٣٩ .

٧٢ ـ .B.O ، العددان ٦٨ ـ ٦٩ ، ١٩٣٨ .

قليل ، ألقي بجسم كليمان المشوّه بشكل مرعب في مياه السين. لا شك ان العصابة التي اغتالت رايس هي التي قتلت كذلك كليمان ، وقد تظاهر احد القتلة ، تحت اسم كليمان ، باتخاذ موقف « التلميذ الذي زالت اوهامه » ، والذي يقطع علاقته بتروتسكي . بعد ذلك بسنتين سيتخذ قاتل تروتسكي المظهر نفسه .

لماذا اختارت الغيبيو كليمان من بين الآخرين؟ ما من مقدرة خاصة جعلته مميزاً جداً بين التروتسكيين ، لكنه كان شغيلاً متواضعاً ومتجرداً عينه مفتوحة على كل ما يجري في التنظيم ، ونعتقد انه هو الذي حث تروتسكي وناتاليا على ان يطلبا الى ليوفا مغادرة فرنسا . أكان سرٌّ مهم من اسرار الغيبيو ، قد وقع بين يديه حديثاً ؟ هل كان يتقفى أثرالعميل الاستفزازي ، وربما على وشك نزع القناع عنه ؟ وفقاً لتخمينات تروتسكي ربما كان هذا مايفسر بالشكل الملائم لماذا اختطفته الغيبيو فجأة وقتلته بتلك الطريقة الانتقامية والشرسة(٧٣) .

في غضون ذلك ، كانت شكوك سنيفليت بشأن إتيان قد اتخذت الشكل الجازم لقناعة نهائية ، وقد اعلن هو وسرج ذلك امام الجميع . كانت لدى العميل الاستفزازي عند ذلك الوقاحة لسؤال تروتسكي ماذا ينبغي عمله في هكذا ظرف . رد تروتسكي بأن عليه تحدي متهميه فوراً بان يضعوا اتهاماتهم بين يدي لجنة صالحة « على الرفيق اتيان أن يقوم بهذه الخطوة ، وكلما فعل ذلك مبكراً أكثر كلما كان ذلك افضل . » لم يكن في وسع تروتسكي ان يعطي نصيحة اخرى . ففي هكذا حالات ، كان ضرورياً ومعتاداً ، بالنسبة لرجل اصبح مشبوهاً ، ان يطالب بتحقيق يمنحه الفرصة لتبيان ان شرفه غير ملوث ، لكن تروتسكي ذاته لم يكن يعتقد بصحة الاتهام(٧٤) .

ولجعل الرواية الغريبة اكثر غرابة ، بلغ تروتسكي تحذير آخر قبل أن ينقضي شهر واحد ، كان مصدره ضابط كبير في الغيبيو ، لجأ آنذاك الى الولايات المتحدة ، إلا أن صاحب ذلك التحذير كان يخشى الغيبيو لدرجة أنه رفض كشف

---

٧٣ ـ .B.o ، العددان ٦٨ ـ ٦٩ ، ١٩٣٨ .

٧٤ ـ من تروتسكي الى اتيان ، ٢ كانون الاول / ديسمبر ١٩٣٨ . وجهت هذه الرسالة كما كان مألوفاً الى محرري الـ Bulletin ، المحفوظات ، القسم المقفل . في استشهاد تروتسكي باتهامات سنيفليت وضع كلمة « اتهامات » بين مزدوجتين .

هويته وزعم انه يهودي اميركي عجوز، من أصل روسي، ينقل الى تروتسكي رسالة من احد اقربائه، وهو ضابط في الغيبيو هرب الى اليابان. كان المراسل يتوسل لتروتسكي ان يَحْذرجاسوساً خطيراً في باريس، يدعى مارك. لم يكن يعرف اسم عائلة مارك، لكنّه اعطى وصفاً مفصلاً ودقيقاً بصدد مظهر إتيان الجسدي، وسابقاته وعلاقاته بليوفا، بحيث لم يكن لدى تروتسكي ادنى شك حول الشخص الذي تتناوله الرسالة، وقداعلن كاتب الرسالة عن ذهوله من سذاجة تروتسكيي باريس وانعدام حيطتهم بحيث لم يلفت انتباههم الواقع، المعروف تماماً حسب قوله، الذي مفاده أن مارك اشتغل لشركة اعادة توطين المهاجرين الروس المشهورة. اكد لتروتسكي انه اذا جرى الاهتمام فقط بمراقبة الجاسوس يمكن اكتشاف انه مستمر في لقاء موظفي السفارة السوفياتية سراً. هل كان مارك مسؤولا او لا عن وفاة ليوفا؟ هذا ما لم يكن المراسل يعرف عنه شيئاً، لكنه كان يخشى ان يكون الآن في رأس جدول الاعمال اغتيال تروتسكي، الذي كان سيتم تنفيذه على يد مارك بالذات او بواسطة اسباني يدعي أنه تروتسكي. كان التحذير جدياً. اعلن المراسل بإلحاح: « **ان الشيء الجوهري، ياليف دافيدوفيتش،** هو أن تأخذ حذرك. **تحاش** كل رجل، او امرأة يمكن ان يرسله إليك هذا العميل الاستفزازي او يوصيك به[٧٥] ».

لم يترك تروتسكي التحذير يمر دون اعارته ما يستحق من اهتمام، مرر مقطعاً صغيراً في صحيفة تروتسكية طلب فيه الى هذا المراسل ان يتصل بأنصاره في نيويورك، الا ان المراسل الذي راعه ان يكشف لهم من يكون، حاول ان يكلم تروتسكي بالهاتف من نيويورك، لكنه فشل في الاتصال به. ان امتناع هذا المراسل، في الظاهر، عن الرد والشكل الغريب لتحذيره جعلا تروتسكي يشك في صحة ذلك التحذير. ومع ذلك جرى تشكيل لجنة صغيرة في كويواكان لجلاء تلك القضية، وقد وجدت اللجنة ان كل التهم ضد اتيان لا اساس لها، وتوصل

٧٥ـ وجدنا، زوجتي وانا، هذه الرسالة بين اوراق تروتسكي في القسم المفتوح من **المحفوظات**، في بداية عام ١٩٥٠ واخذنا عنها نسخة، مذاك اعلن الكسندر اورلوف، وهو ضابط سابق في الغيبيو، انه صاحب تلك الرسالة. (انظر افادته خلال **Hearings** of the US senate committe on the Judiciary وهي لجنة فرعية متعلقة بالنشاط السوفياتي في الولايات المتّحدة، الجزء ٥١، ص ٣٤٢٣ـ ٣٤٢٩). وبما يخص دور أورلوف في الغيبيو، وبخاصة خلال التطهيرات في اسبانيا، انظر جيزوهرنانديز، **الخيانة الكبرى**، وكتاب اورلوف الخاص به، جرائم ستالين.

تروتسكي الى التساؤل اذا لم يكن ذلك الاتهام احدى حيل الغيبيو لافقاد الرجل ، الذي كان يبدو الاكثر فعالية واخلاصاً بين مساعديه ، حظوته ، الرجل الذي كان يتكلم الروسية ويكتبها ويعرف بالشؤون السوفياتية بصورة عميقة ويصدر الـ Bulletin . في كل حال ، كان قد وجد نفسه ، حتى ذلك الحين ، ازاء الكثير من الاتهامات التي كانت تتبادل كيفما اتفق في الحلقة التروتسكية الصغيرة في باريس ، واذا كان عليه ان يأخذ كل تلك الاتهامات على محمل الجد لا يعود ممكناً الانتهاء من مطاردة العملاء الاستفزازيين . كان يعرف تماماً ان الجواسيس هم آفة كل شكل من اشكال التنظيم ، لكنه كان يعرف أيضاً ان الشك الدائم ومطاردة الساحرات يمكن ان يكونا أسوأ أيضاً ، وقرر ان لا يعير انتباهه لأي اتهام الا اذا جرى تقديمه واسناده دون التباس . كان يفضل تعريض نفسه لأخطر المخاطر على ان يلوث اتباعه ويفقدهم معنوياتهم عن طريق الشك والذعر ، وهكذا واصل العميل الاستفزازي تأديته مختلف المهام في باريس حتى إعلان الحرب(٧٦) .

بعد موت ليوفا بأقل من ١٥ يوماً ، كان بوخارين وريكوف وراكوفسكي وكريستنسكي وياغودا في قفص الاتهام بموسكو . كان يمكن الاعتقاد بأن الخيال الجنائزي للمخرج بلغ خلال المحاكمتين السابقتين أوجه ، لكن تينك المحاكمتين بدتا تقريباً تجربتين تتسمان بواقعية معتدلة إذا قورنتا باستحضار الأشباح الجديد هذا . مرة أخرى ، شهَّر المدعي العام والمتهمون بتروتسكي على أنه زعيم المؤامرة التي كانت تشمل الآن البورخارينيين ، أعداءه الألداء . وقد أُبرزت شخصية ليوفا ، في دور شريك والده ،بصورة أكثر حدة مما خلال المحاكمتين السابقتين . بعد محاولة ضعيفة من جانب كريستنسكي لإنكار الاتهامات ، اعترف بأنه تآمر مراراً مع تروتسكي شخصياً ومع ليوفا ، في برلين وامكنة اخرى من

---

٧٦ ـ قدمت السيدة ليليادالّين (الرفيقة لولا من الفرع الروسي في السكريتريّة الاممية بباريس في نهاية الثلاثينات) الافادة التالية في الولايات المتحدة ، حين وصلت الى كويوا كان في صيف ١٩٣٩ ، اراها الرسالة التي تحذره من إتيان. قالت : « احسست بالتضايق لبعض الوقت ، لأن التفاصيل كانت كريهة لأبعد الحدود ». وقلت له : « لا شك ان هذه لعبة قذرة من جانب .N.K.V.d التي تريد حرمانك من معاونيك ، وكان تروتسكي تلقى رسالة اخرى من مراسل مجهول يعلمه فيها بأن امرأة ـ اي انا ـ ستزوره بهدف التسميم له . وهكذا قررنا ، كلانا ، ان تلك حيلة دبرتها الـ .N.K.V.D ، واول شيء فعلته ، بعد عودتي الى باريس ، هو أني رويت الامر لاتيان، الذي كنت أثق به . وقد ضحك اتيان من اعماق قلبه بشأن القصة » . اسحق دون ليفين ، The Mind of An Assassin ، ص ٦٠ .

اوروبا ، وأنه وصل ليوفا بالجنرال فون سيكت ، القائد الأعلى للرايخوهر ، ودفع مليوني مارك ذهبي ، اي مليون دولار تقريباً ، ومبالـغ أخرى متنـوعة لتمـويل المؤامرة كان تروتسكي والمتهمـون يوصفون الآن لا كعمـلاء لهتلر والميكادو وحسب ، بل كذلك للاستخبارات العسكرية البريـطانية وحتى للمكتب الثـاني البـولندي . أضيفت الى الـروايات المـألوفـة بشأن محـاولات اغتيـال ستـالين وفـوروشيلوف وكاغـانوفيتش ، والى الكـوارث على صعيـد سكـك الحـديـد ، والانفجارات في المناجم ، والتسميمات الجماعية للشغيلة ، اضيفت قصص تتعلق باغتيال غوركي ومنجنسكي ، وكويبيشيف ، وحتى سفردلوف الـذي توفي عـام ١٩١٩ ، وكل تلك الجرائم كانت في ذمة تروتسكي . عند كل اعتراف ، لم تكن المؤامرة تتخذ فقط مدى أوسع ، وتنتفخ احجامها بشكل لا حدود له ، بحيث تتعدى ما يتحمله العقل ، بل كانت تعود أيضاً الى الوراء اكثـر فاكثـر ، الى الاسابيع الاولى من نشوء النظام السوفياتي وحتى الى فترات سابقة . يصل الى قاعة المحكمة ، مثل الاشباح ، كل من كامكوف ، وكاريلين ، وكانا في السابق من قادة الاشتراكيين الثوريين اليساريين ، ليشهدا بانهما حين أعدا انتفاضتهما المعادية للبلشفية عام ١٩١٨ ، فعلا ذلك بالاتفاق السري مع بوخارين ، الذي كان يخطط لاغتيال لينين . اما ياغودا الذي كلِّف طوال عشر سنوات باضطهاد التروتسكيين ، والذي نفاهم بصورة جمـاعية، وادخـل التعذيب الى السجـون والمعتقلات ، وأعد محاكمة زينوفييف وكامينيف ، فكان يزعم الآن انه لم يكن طوال تلك الفترة بكاملها غير أداة محضة في يدي تروتسكي . وإلى جانب اعضاء سابقين في المكتب السياسي او اللجنـة المركـزية ، ووزراء وسفـراء ، كانت مجموعة من الاطباء المرموقين جالسة في قفص الاتهام . احـدهم ، الدكتـور ليفين ، وهو سبعيني كان الطبيب الشخصي للينين وستالين منذ الثورة ، كان متهماً بتسميم غوركي وكويبشيف، بناء على اوامر ياغودا . وطوال ساعات على امتداد جلسات عديـدة، روى الأطباء كيف كانوا يمـارسون مهنـة التسميم بين جدران الكرملين ، واصفين كل اشكال العمليات السادية التي زعموا انهم كانوا ينغمسون فيها(٧٧) .

قارن تروتسكي تلك المحـاكمة بقضيّـة راسبوتين ، لأنهـا كانت تعبق بـ

Sudebnyi Otchet Po Delu Anti - Sovietskovo i Pravo -TrotskistskovoBloka . _ ٧٧

« الرائحة العفنة ذاتها لسلطةاستبدادية في طور الافول » . وربما لا شيء كهذه المقارنة يُظهر بصورة اشد تعبيراً كم ريع عقله إزاء هذا المشهد ، فلا شك ان قضية راسبوتين كانت حادثة بسيطة وغير مؤذية تقريباً إذا قورنت بأي من تلك المحاكمات ، ويصعب ان يقال إن المحاكمات سرّعت سقوط ستالين حتى وإن كانت لطخت ذكراه بالخزي والعار .إلا انه لم يكن في وسع تروتسكي ان يجد سابقة او نظيراً اكثر ملاءمة لأنه لم يوجد من قبلُ شيءً من ذلك . فبمعنى ما ، تجاوز ستالين كل خيال وكل تجربة تاريخية . : رفع الارهاب الى مرتبة جديدة ومنحه بعداً جديداً ، وبقدر ما كانت المحاكمات تتقدم ، كان كل نوع من رد الفعل العقلاني يفقد تأثيره أكثر فأكثر . استمر تروتسكي في فضح ما تنطوي عليه القضية من عبث وهذيان ، مثبتاً دفعه بالغيبة بصورة منهجية ، ومبرهناً على انه ما كان يمكنه ، ولا كان يمكن ليوفا ، ان يتآمرا مع اي من المتهمين ، ولا سيما مع الجنرال فون سيكت ، في الاماكن والتآريخ المحددة :

« في هذا النشاط الاجرامي ، يبدو الوزراء الاولون ، والوزراء ، والجنرالات ، والماريشالات ، والسفراء ، جميعهم دون تمييز ، وقد تلقوا الاوامر من جهة واحدة ، وليس من قائدهم الرسمي بل من مُبعد . غمزة عين من تروتسكي كانت كافية ليصبح محاربون قدامى في صفوف الثورة عملاء لهتلر والميكادو. بناءعلى تعليمات من تروتسكي ، منقولة بواسطة المراسل الرئيسي والافضل لوكالة تاس ، كان قادة الصناعة والزراعة والنقل يدمرون مصادر الانتاج الخاصة بالأمة ويسحقون حضارتها . بأمر من عدو الشعب يوجهه من النروج او المكسيك ، كان مستخدمون في سكة الحديد يخربون وسائط النقل العسكرية في الشرق الاقصى ، ويسمماطباء محترمون مرضاهم في الكرملين . هذه هي اللوحة المذهلة . . . التي رسمها فيشنسكي ، لكن مع ذلك تنتصب هنا صعوبة : اذا كان كل متلقي الاوامر مني يشغلون المواقع الرئيسية في الجهاز ، كيف يحدث ان يكون ستالين في الكرملين واكون انا في المنفى ؟[٧٨] » .

ذكّر بالاطار الدولي للمحاكمات وبنتائجها . كانت قوات هتلر قد قامت

---

٧٨ ـ B.O. ، العدد ٦٥ ، ١٩٣٨ .

بدخولها الظافر الى النمسا وتستعد لغزوات اخرى :

« ألا يزال ستالين يضحك بينه وبين نفسه في الكواليس ، وهل ان هذا المنحى البائس الذي اخذته الاحداث لم يقطع بعد نفسه ؟ صحيح انه مفصول عن العالم بجدار من الجهل والعبودية ، صحيح انه معتاد على التفكير بأن الرأي العام العالمي لا شيء وبأن الغيبيو هي كل شيء ، لكن العلائم المهدِّدة التي تتضاعف يجب ان تكون جلية حتى بالنسبة اليه . تغوص الجماهير الكادحة في العالم باسره في قلق بالغ الحدة . . وتحرز الفاشية النصر تلو النصر وتجد مساعدها الرئيسي . . . في الستالينية . تقرع اخطارعسكرية رهيبة كل ابواب الاتحاد السوفياتي . وقد اختار ستالين هذا الوقت بالضبط يمزق الجيش إرباً ويدوس الامة . حتى هذا الغاصب من تفليس . . . ينبغي ان يجد من الأصعب ان يضحك بينه وبين نفسه . إن حقداً هائلاً ينمو حوله ، وكراهية رهيبة معلقة فوق رأسه . . . » .

« من الممكن جداً ان يستثير نظام يبيد . . أفضل عقول الامة ، في الأخير ، معارضة ارهابية اصيلة . اكثر من ذلك ، إذا [لم يحدث هذا] . . . سيكون هذا متعارضاً مع كل قوانين التاريخ . . لكن ارهاب اليأس والانتقام هذا غريب عن المنضوين تحت لواء الاممية الرابعة . . فالانتقام الفردي . . سيكون بالنسبة الينا صغيراً جداً . اي اكتفاء سياسي ومعنوي ، يمكن الطبقة العاملة ان تستمدّه ، في الحقيقة ، من اغتيال قايين ـ دجوغاشفيلي ، الذي يمكن اي « عبقري » جديد بيروقراطي ان يحل محله دون صعوبة ؟بمقدار ما يمكن ان يكون لمصير ستالين الشخصي من أهمية بالنسبة الينا جميعاً ، فإننا لا نتمنى غير شيء واحد : ان يبقى على قيد الحياة بعد انهيار نظامه الخاص به ، وليس هذا الانهيار ببعيد » .

وقد توقع« **محاكمة أخرى ، محاكمة حقيقية هذه المرة** » ،يجلس خلالها الشغيلة لمحاكمة ستالين وشركائه « **ولن يجد احد كلمة واحدة** آنذاك ، في اللغة البشرية ، للدفاع عن الاكثرشؤماً بين جميع قاييني التاريخ . . والنُصُب التي رفعها لنفسه سيجري تحطيمها او نقلها الى

المتحفات حيث توضع في قاعات مخصصة لأهوال الاستبداد الكلياني ، وستعيد الطبقة العاملة الظافرة النظر بكل المحاكمات العلنية والسرية ، وتقيم نصُباً للضحايا منكودي الحظ للاجرام والفظاعات الستالينية ، في ساحات اتحاد سوفياتي متحرّر[٧٩]».

ومرة أخرى ، سوف تتحقق هذه النبوءة ، لكن بعد زمن طويل . في غضون ذلك ، فعلت التطهيرات ، باتساعها وقوتها ، على طريقة زلزال طبيعي هائل كان كل رد فعل بشري ضده غير مُجْدٍ. لقد طحن الارهاب الادمغةوحطم الارادات وسحق كل مقاومة . كانت الاحقاد ومشاعر الكره الهائلة التي تكلم عليها تروتسكي موجودة حقاً، لكن مكبوتة بعمق ، وقد بقيت مخزونة للمستقبل . وقد عجزت في ذلك الوقت بالذات ، وطوال ما تبقى من عهد ستالين ، عن ان تجد اي مخرج ، فكل الذين كانت تلك الانفعالات تتلازم لديهم (والتروتسكيون في طليعتهم) ، مع الوعي السياسي ، والذين كانت لديهم افكار وبرامج عمل يقدمونها ، كل هؤلاء كانوا يتعرضون للابادة المنهجية والتي لا ترحم .

خلال اكثر من عشرة اعوام ، كان ستالين قد احتفظ بالتروتسكيين خلف القضبان وخلف الاسلاك الشائكة ، مخضعاً اياهم لاضطهادغيرإنساني . كان قد افقد العديد منهم معنوياتهم ، وادخل الشقاق في صفوفهم ونجح تقريباً في عزلهم عن المجتمع . ومنذ عام ١٩٣٤ ، كان يبدو ان التروتسكية قد شُطبت نهائياً من الخارطة ، ومع ذلك ، فبعد سنتين او ثلاث ، كان ستالين يخافها اكثر من أي وقت مضى . فمن الغريب ان التطهيرات الكبرى وعمليات النفي الجماعية التي تلت اغتيال كيروف اعطت حياة جديدة للتروتسكية . إن التروتسكيين الذين اصبح حولهم عشرات الالوف ، لا بل مئات الالوف من المنفيين حديثاً ، لم يعودوا يشعرون بانفسهم معزولين . انضم اليهم جمهور المستسلمين الذين كانوا يفكرون بشكل كئيب بان الامور لم تكن لتصل الى تلك النقطة لو صمدوا الى جانب التروتسكيين . كان معارضون ينتمون لمجموعات اصغر سناً ، وكومسوموليون عارضوا الستالينية للمرة الأولى بعدهزيمة التروتسكية بزمن طويل ، و « تحريفيون » من كل الانواع ، وشغيلة عاديون جرى نفيهم بسبب إخلال تافه بانضباط العمل ، ومستاؤ ون ومتذمرون لم يبدأوا التفكير سياسياً الا بعدان اصبحوا

٧٩ ـ المرجع ذاته ، الافتتاحية ،

خلف الاسلاك الشائكة ، كل هؤلاء كانوا يشكلون جمهوراً جديداً واسعاً للمحاربين القدامى التروتسكيين[٨٠] . كان النظام في المعتقلات يصبح اشد فأشد قساوة ، كان على قاطني المعسكر ان يتعبوا طوال عشر ساعات او اثنتي عشرة ساعة يومياً ويموتوا جوعاً ويهلكوا مرضاً ، في قذارة لا توصف. ومع ذلك غدت المعتقلات مرة اخرى ، مدارس وحقول تدريب للمعارضة ، وكان التروتسكيون مدرسين فيها لا مثيل لهم ، كانوا على رأس المنفيين في كل الاضرابات والصيامات عن الطعام تقريباً. كانوا يطالبون الادارة بتحسينات في شروط الحياة في المعتقلات. وبسلوكهم الجسور ، البطولي في الغالب ، بثوا في آخرين ارادة الصمود ، ولما كانوا منظمين بحزم ، وممارسين للانضباط الذاتي ، وجيّدي الاطلاع سياسياً ، فقد شكلوا النخبة الحقيقة لذلك الجزء الضخم من الأمة الذي جرى الالقاء به خلف الاسلاك الشائكة .

أدرك ستالين انه لن ينجز شيئاً عن طريق تنكيل اشد . لم يعد ممكناً اضافة المزيد الى التعذيب والاضطهاد ، اللذين لم يفعلا اكثر من احاطة التروتسكيين بهالة الشهادة . فطالما بقوا على قيد الحياة ، سيشكلون تهديداً بالنسبة اليه ، ومع الحرب ومخاطرها التي كانت تقترب ، كان يمكن ان يصبح التهديد الكامن حقيقة ، رأينا انه منذ استولى على السلطة توجب عليه ان يستعيدها بلا انقطاع . وقد قرر الآن التخلص من ضرورة الاستمرار في الاستعادة تلك ، كان يهدف الى ضمانها مرة والى الابد ، وبمواجهة كل المخاطر ، ولم يكن هنالك غير طريقة واحدة ينجح فيها بذلك المشروع : الابادة الشاملة لكل المعارضة وفي طليعتهم التروتسكيين . كانت محاكمات موسكو قد اصطُنعت لتبرير هذا الهدف ، الذي جرى تنفيذ الجزء الاكبر منه آنذاك ، لا تحت كشّافات قاعات المحكمة ، بل في زنازين الشرق والشمال البعيد ومعتقلاتهما .

يصف شاهد عيان ، سجين سابق في معتقل فوركوتا الكبير ، لم يكن هو

---

٨٠ - يروي م . فاينسود في **سمولنسك تحت الحكم السوفياتي** ، استناداً الى وثائق للغيبيو جرى وضع اليد عليها ، حالات سئل فيها شغيلة ، حتى في عامي ١٩٣٦ - ١٩٣٧ ، في ذروة التطهيرات ، من يجب النظر اليه كبلشفي نموذجي ، فردُّوا تروتسكي و (أو) زينوفييف ، واقترح تلامذة ، خلال لقاء جماهيري جرى تنظيمه تحية لذكرى كيروف ، أن يجري ادخال تروتسكي إلى بريزيديوم الشرف (ص٣٠٢ وغيرها) . ولم تكن التروتسكية حظيت بشعبية خاصة في منطقة سمولنسك ، وقد كانت تلك الحالات اكثر تواتراً في اقسام اخرى من البلاد . كل المتهمين ، (بجرائم) ، وحتى في الغالب اولاد ، كانوا يُنفون بصفة « تروتسكيين » . وبالنسبة لوصف حملات التشهير بـ « تروتسكيين » في منطقة سمولنسك ، انظر المرجع ذاته ، ص ٢٣٢ - ٢٣٧ .

ذاتـه تـروتسكيـاً ، يصف بـالشكـل التـالي نشـاطـات التـروتسكيين الاخيـرة وتصفيتهم[٨١] ، كتب يقول : « كان في ذلك المعتقل وحده قرابة الف تروتسكي قديم كانوا يشيرون الى انفسهم بعبارة بلاشفة ـ لينينيين . كان حوالى خمسمئة منهم يعملون في منجم فوركوتا . وفي كل معتقلات منطقة بيشورا ، كان هنالك عدة آلاف من « التروتسكيين الاورثوذكسيين » ، ممن جرى نفيهم منذ عام ١٩٢٧ و « ظلوا مخلصين لأفكارهم السياسية وقادتهم حتى النهاية » . ومن المرجح أن الراوي يُدخل مستسلمين قدامى في عداد التروتسكيين الاورثوذكسيين ، فبدون ذلك يصبح تقديرعددهم مبالغاً به كثيراً[٨٢] ، ويضيف : « بالاضافة الى هؤلاء التروتسكيين الحقيقيين ، كان في تلك الفترة في معتقلات فوركوتـا ومعتقلات اخـرى اكثـر من مئة ألف محتجـز انضمـوا ، بـوصفهم اعضـاءً حـزبيين اوكومسومولبين ، الى المعارضة التروتسكية ، ثم جرى اجبـارهم ، في فترات مختلفة ولاسباب شتى . . « على الارتداد والتسليم باخطائهم » ، وترك صفـوف المعارضة» . و« الكثير من المنفيين الذين لم يكونوا يوماً أعضاء حزبيين كانوا يعتبرون انفسهم أيضاً تروتسكيين . وهذه الأعداد لا بد ان تضم أيضاً معارضين من كل المشارب ، وحتى بعض تلامذة ريكوف وبوخارين ، كما قادمين جدداً ينتمون الى المجموعات صغيرة السن أو الاصغر سناً ، كما يشير شاهد العيان ذاته .

« ومع ذلك ـ يقول الشاهد ـ كانت الغالبية الساحقة من المجموعة تتـألف من تروتسكيين حقيقيين ، انصار ل.د. تروتسكي » . ويذكر بين قادتهم ڤ.ڤ. كوسيور ، وپوزنانسكي ، وڤلاديمير ايڤانوڤ.

وتروتسكيين اخرين اصيلين من زمن قديم .

« وصلوا الى المنجم في صيف ١٩٣٦ ووضعوا . . . في كوخين كبيرين . . . رفضوا جازمين العمل في الآبار ، اشتغلوا فقط في المنجم الرئيسي ، ولمدة ثماني ساعات يومياً ، فقط ، لا لمدة عشر واثنتي عشرة كما كان يقضي بذلك النظام ويفعل المحتجزون الآخرون . كانوا يرفضون بصورة

---

٨١ ـ هذه الرواية (Trotskisty Navorkute) ، التي وقّعها م. ب. ، ظهرت في صحيفة المهاجرين المناشفة -Sotsialistcheskii vestnik ، العددان ١٠ـ ١١ ، ١٩٦١ .

٨٢ ـ قارن بالفصل الأول ، ص ٨١ .

مكشوفة تماماً انظمة المعتقل ، وبشكل منهجي . كانت قد مرت عشر سنوات تقريباً على إرسال معظمهم الى معازل سياسية ، في البدء داخل زنزانات ثم في معسكرات اعتقال على جزر سولوفكي ، واخيراً في فوركوتا . كان التروتسكيون يشكلون المجموعة الوحيدة من السجناء السياسيين الذين ينتقدون علناً الخط الستاليني العام ويقاومون سجانيهم بالقدر نفسه من العلانية وبصورة منهجية » .

كانوا يعلنون كذلك ، تماماً كما كان يفعل تروتسكي في الخارج ، انهم سيدافعون عن الاتحاد السوفياتي ، في حالة الحرب، بصورة غير مشروطة ، لكنهم سيعملون على اطاحة حكومة ستالين . وحتى اليساريون المتطرفون ، كانصار سوبرونوف ، كانوا يشاركون في هذا الموقف ، لكن بتحفظات .

في خريف ١٩٣٦ ، بعد محاكمة زينوفييف وكامينيف ، نظم التروتسكيون لقاءات جماعية ومظاهرات في المعتقل على شرف قادتهم ورفاقهم المعْدَمين . وبعد قليل ، في ٢٧ تشرين الاول / اوكتوبر ، بدأوا اضراباً عن الطعام ، وهذا هو الاضراب الذي شارك فيه سرجي ابن تروتسكي الاصغر ، وفقاً للرواية المذكورة اعلاه ، وانضم اليه التروتسكيون من كل معتقلات منطقة بيتشورا ، ودام الاضراب ١٣٢ يوماً . احتج المضربون ضد نقلهم من كل منافيهم السابقة ، وضد كونهم عوقبوا من دون محاكمة علنية . طالبوا بيوم العمل من ثماني ساعات والتغذية ذاتها لكل المحتجزين ، بغض النظر عن تحقيق قاعدة المردود او عدم تحقيقها ، وبفصل المحتجزين السياسيين عن المحكومين العاديين ، وبنقل المعطوبين والنساء والشيوخ الى خارج المعتقلات القطبية ، الى مناطق مناخها افضل . وقد اتخذ القرار بالاضراب عن الطعام ، خلال اجتماع عام . جرى استثناء المرضى والمسجونين من عمر معين منه ، لكن هؤلاء «الأخيرين رفضوا هذا الاستثناء بصورة جازمة » . في كل ثكنة تقريباً ، استجاب موقوفون غير تروتسكيين لهذا النداء لكن « الصيام لم يكن كاملاً الا في ثكنات التروتسكيين » .

خوفاً من أن ينتشر هذا المثال ، نقلت الادارة التروتسكيين الى اكواخ مقفرة ونصف متصدعة على بعد اربعين كيلومتراً من المعتقل ، وعلى مجموع الف صائم مات العديد ، ولم يوقف الصيام طوعاً الا اثنان (من غير التروتسكيين) . وفي آذار/ مارس ١٩٣٧ ، بناء على اوامر موسكو ، رضخت ادارة المعتقل لكل

الشروط ، وتوقف الصيام . وخلال الاشهرالقليلة التي تلت ، وقبل ان يبلغ ارهاب فترة ياجوف ذروته ، تمتع التروتسكيّون بالحقوق التي انتزعـوها ، واشـاع ذلك تفاؤلا في صفوف منفيين آخرين ، بحيث شرع بعضهم ينتظرون بفارغ الصبر الذكرى العشرين لثورة اوكتوبر ، آملين ان يصدر في تلك المناسبة عفو جزئي . لكن سرعان ما عاد الارهاب بسعار جديد ، جرى انقاص الوجبة الغذائية الى ٤٠٠ غرام خبز يومياً وسلحت الغيبيو المحكومين العاديين بهراوات وعبأتهم ضد المعارضين . حصلت عمليات مراشقة بالرصاص دون عقاب ، وجرى عزل كل المحتجزين السياسيين في معتقل داخل المعسكر ، محاط بـالاسلاك الشـائكة ويحرسه ليل نهار مئة جندي مدججون بالسلاح .

في صباح يوم حوالى نهاية آذار/ مارس ١٩٣٨ ، نودي على ٢٥ شخصاً معظمهم من التروتسكيين البارزين . تلقى كل منهم كيلو خبزوأمراً باعداد نفسـه واغراضه من اجل مسيرة جديدة .

« وبعد ان ودعوا اصدقاءهم وداعاً حاراً ، غادروا الثكنات. عندئذ جرت مناداة ، ثم غادر الموكب المكان . بعد مضي ربع او ثلث ساعة ، دوت فجأة صلية رصاص ، على مسافة نصف كيلو متر من الثكنات ، قرب الضفة المنحدرة للنهر الصغير المسمّى فوركوتا الاعلى ، ثم سُمعت بعض الرميات المعزولة ، التي بدا كما لو أنها أُطلقت كيفما اتفق ، وران صمت عميق . وبعـدقليل ، مـرت خفارة المـوكب من جـديـد قـرب الثكنات ، وفهم الجميع في اي مسيرة جرى إرسال المحتجزين » .

في اليوم التالي ، حصلت مناداة من النوع نفسه ، لكنها طالت هذه المرة لا اقـل من ٤٠ شخصاً ، جـرى تسليم كل واحـد كميـة من الخبـز وأُمـروا بالاستعداد .

« كان بعضهم منهكاً لدرجة انهم يعجزون عن السير ، وقد وُعِد هؤلاء بـان تؤمن لهم عربـات . حبس المحتجزون الـذين ظلوا في الثكنات انفاسهم ، وكانوايستمعون الى صرير الثلج تحت خطوات اولئك الذين يبتعدون . منذ وقت طويل ، كانت الضجـة قد تـوقفت ، لكن الجميع كانوا لا يزالون يصغون مترقبين . انقضت ساعة تقريباً قبل ان تدوي انفجارات في التوندرا » .

كان جميع من يعيشون في الثكنات يعرفون الآن ما ينتظرهم، لكن بعد

الصيام الطويل في السنة السابقة واشهر أخرى طويلة من البرد والجوع، لم تعد لهم قوة للمقاومة .

« وقد تواصلت عمليات الاعدام في التوندرا طوال شهر نيسان/ ابريل وقسم من شهر ايار / مايو. كلما كان يمر يومان او ثلاثة كان يستدعى ثلاثون شخصاً او اربعون . . .

وتذاع بيانات بواسطة مكبرات الصوت « **بسبب التحريض المضاد للثورة ، والتخريب ، واللصوصية ، ورفض العمل ، ومحاولة الهرب ، جرى اعدام** » . . . . ثم تلي سلسلة من الاسماء . « **وفي احدى المرار ، جرى سوق مجموعة ضخمة تضم قرابة مئة شخص ، معظمهم تروتسكيون . . . فيما كانوا يبتعدون ، انشدوا الأممية ، التي رددتها مئات الاصوات في الثكنات** » . ويصف شاهد العيان الاعدامات التي طالت عائلات المعارضين . سارت زوجة احدالتروتسكيين على عكازيها نحو مكان الاعدام ، ولم يستثن غير الاولاد تحت سن الاثني عشر عاماً . وقد استمرت المجزرة في كل معسكرات منطقة بيتشورا حتى نهاية أيار/ مايو ، ولم يبق في الاكواخ ، في فوركوتا ، غير مئة محتجز تقريباً . وقدمر اسبوعان بهدوء ، ثم جرى إرسال الباقين على قيد الحياة الى المنجم حيث أعْلموا بان ياجوف قد اقيل من منصبه وحل محله بيريا في قيادة الغيبيو .

لم يبق آنذاك ، عملياً ، تروتسكي اوزينوفييفي واحد على قيد الحياة . وبعد سنتين تقريباً ،حين وصل مئات الالوف من المنفيين الجدد البولنديين واللتونيين والليتوانيين والاستونيين الى المعتقلات ، وجدوا بين المحتجزين القدامى العديد من الستالينيين الذين فقدوا حظوتهم ، وحتى بعض البوخارينيين ، لكن لم يجدوا تروتسكياً او زينوفييفياً واحدا . وكان يحدث ان يقص عليهم منفي قديم قصة ابادتهم بواسطة تضمينات وكلمات مموهة ، لأنه لم يكن هنالك ما هو اخطر ، حتى بالنسبة لمنفي بائس ، من الاشتباه بانه يشعر ببعض الشفقة او التعاطف تجاه التروتسكيين(٨٣) .

لم يكن ارهاب فترة ياجوف شيئاً آخر غير ابادة سياسية جماعية ، استأصل كلياً سلالة البلاشفة المعادين للستالينية . وخلال الخمسة عشر عاماً الباقية من

---

٨٣ ـ ادين لبرنارد سينجر ، الصحفي البولندي المعروف ، الذي نفي الى فوركوتا في بداية الحرب العالمية الثانية ، بهذه الاوصاف المفَصّلة والغنية بالمعاني للحياة في معتقلات تلك المنطقة .

حكم ستالين ، لم تبق اي مجموعة في المجتمع السوفياتي ، وحتى في المعتقلات والسجون ، قادرة على مجابهته . لم يتمكن أي مركز للفكر السياسي المستقل من البقاء . كانت هوة رهيبة قد حفرت في وعي الامة ، جرى طحن ذاكرتها الجماعية ، وتحطيم استمرارية تقاليدها الثورية ، وتدمير قدرتها على ان تكوّن اي نوع من الفكر غير الامتثالي وتبلوره. بقي الاتحاد السوفياتي اخيراً ، لا فقط في ميدان السياسة العملية ، بل حتى في سيروراته الذهنية المخفيّة من دون اي خيار غير الستالينية . كان وضع الروح الشعبية هشاً لدرجة انه ، حتى بعد موت ستالين ، لم تتمكن أي حركة معادية للستالينية من الانبثاق من قاعدة المجتمع السوفياتي ومن أعماقه ، لم يمكن اصلاح الملامح الأكثر مغالطة للتاريخ في النظام الستاليني الا بمبادرة من فوق ، على يد مرؤوسي ستالين وشركائه القدامى .

في حين كانت محاكمات موسكو تستثير انتباه العالم المذعور ، مرت المعجزة الكبرى لمعسكرات الاعتقال دون ان يلحظها احد تقريباً . فلقد تمت بسرية مطبقة لدرجة انه كانت ثمة حاجة لسنوات وسنوات كي تتسرب الحقيقة . لكن تروتسكي كان يعرف افضل من اي شخص آخر أن جزءاً صغيراً فقط من الارهاب جرى كشفه عبر المحاكمات ، وكان يشتبه بما يجري في الخلف . الا انه حتى حينذاك ، لم يتمكن من ان يحزر كامل الحقيقة او يتصورها . فحتى لو وسعه ذلك ، لكان صعب على ذهنه ان يستوعب كل ضخامة هذه الحقيقة ، وكل مستتبعاتها ، في الوقت القصير الذي كان باقياً من حياته . كان لا يزال يعوّل على ان تعود القوى المعادية للستالينية الى الواجهة ، وتتمكن من التعبير بوضوح ومن ان تكون فعالة سياسياً ، وبوجه خاص ان تكون قادرة على اطاحة ستالين في حالة حرب وقيادة تلك الحرب نحو نتيجة ظافرة وثورية . وكان لا يزال يعوّل على تجديد البلشفية القديمة التي بدا أن التأثير الواسع والعميق لحملات ستالين الصليبية المتواصلة يعود عليها بالاجلال والتقدير غير المتعمدين . لم يكن يدرك ان كل القوى المعادية للستالينية قد ابيدت ، وان التروتسكية والزينوفييفية والبوخارينية ، التي جرى اغراقها في الدم جميعاً ، قد اختفت ، كأطلنطس(*) ، من الافق السياسي . وانه كان ، هو بالذات ، الوحيد الباقي على قيد الحياة من الأطلنطس .

---

* ـ جزيرة خرافية في المحيط الأطلسي زعموا انها غارت في قعر المحيط (م) .

طوال صيف ١٩٣٨ ، انهمك تروتسكي بإعداد مشروع البرنامج والقرارات لمؤتمر تأسيس الاممية . في الواقع انعقدت كونفرنس صغيرة للتروتسكيين في بيت الفرد روسمر في بيرنبي ، وهي بلدة قرب باريس ، في ٣ ايلول / سبتمبر ١٩٣٨ كان حاضراً ٢١ مندوباً يؤكدون انهم يمثلون منظمات ١١ بلداً[٨٤] . كان ظل الاختطافات والاغتيالات الحديثة ينزل بعبئه الثقيل على الكونفرنس ، وقد انتخب لرئاسة الشرف الشهداء الشباب الثلاثة : ليوفا وكليمان وإيرفين وولف[٨٥] . كان قد اختفى ، في الوقت ذاته الذي اختفى فيه كليمان ، سكريتير تنظيم الكونفرنس ، تقارير حول عمل التروتسكيين في بلدان شتى ، ومشروع النظام الاساسي للاممية الرابعة ووثائق اخرى . وبهدف الحيلولة دون ضربة اخرى من جانب الغيبيو ، لم يعقد الكونفرنس غير جلسة واحدة بكامل الاعضاء ، دامت النهاركله من دون توقف ، وقد أغلق الباب امام مراقبي الـ P.O.U.M الكاتالوني والحزب الاشتراكي العمالي والفلاحي الفرنسي[٨٦] . ولكي تكون السرية كاملة ، تكلم بلاغ صادر في ختام الكونفرنس عن مؤتمر انعقد في لوزان . الا ان اتيان كان يمثل في ذلك الكونفرنس الفرع الروسي للأممية ، وكان حاضراً ايضاً مدعوّان اثنان : إحداهما كانت تروتسكية من نيويورك ، تدعى سيلفيا آجيلوف عملت كمترجمة ، كانت وصلت من نيويورك قبل مدة والتقت في باريس رجلاً كان يسمي نفسه جاك مورنار ، واصبحت عشيقته . كان يحوم حول قاعة المؤتمر ، متظاهراً بعدم الاهتمام اطلاقاً بذلك الاجتماع بالغ السرية وبأنه ينتظر فقط خروج سيلفيا .

ترأس ماكس شاختمان الكونفرنس الذي صوّت ، خلال دورته التي دامت يوماً ، على تقارير اللجان وعلى مشاريع القرارات ، وكان معظمها قد دبجته ريشة

---

٨٤ ـ يستند هذا المحضر الى مسوّدات المؤتمر العالمي للاممية الرابعة ، المنعقد في ٣ ايلول ١٩٣٨ المحفوظات ، القسم المقفل . وقد حصلت كذلك على نسخة مماثلة عن المسوّدات التي كنت حصلت عليها من تروتسكيين بريطانيين قدامى . اذكر أيضاً انني في عام ١٩٣٨ ، قرأت تقريراً نقدياً واكثر تفصيلاً عن المؤتمر وضعه البولنديون الذين شاركوا في المؤتمر ،

٨٥ ـ ايرفين وولف ، سكريتير تروتسكي في النروج وصهر كونراد كنودسن ، مضى الى اسبانيا عام ١٩٣٨ ، وتم اغتياله هناك على يدي الغيبيو .

٨٦ ـ كان الـ P.O.U.M والحزب الاشتراكي العمالي والفلاحي (حزب فرنسي صغير كله حيوية كان يقوده مارسو بيفير) يتعاطفان مع التروتسكية ، رغم بعض الخلافات .

تروتسكي . كانت الروزنامة الرسمية مزدحمة الى حد أنها كانت شغلت أي مؤتمر عادي طوال اسبوع . قدم ناڤيل « التقرير عن النمو » الذي كان معداً لتبرير قرار المنظمات ان تعلن تأسيس الامية الرابعة . الا انه كشف ، بشكل غير مقصود ، ان الامية لم تكن اكثر من وهم . فما واحد من الهيئات التنفيذية أو المكاتب الامية المزعومة ، كان قادراً على العمل خلال السنوات القليلة المنصرمة . ولم تكن فروع الامية تضم الواحدة منها الا عدة عشرات ، أو مئات في احسن الحالات ، من الاعضاء . وكان هذا ينطبق حتى على الفرع الاميركي ، الأكبر عدداً من بين كل الفروع ، الذي كان يؤكد ان عدد اعضائه يصل رسمياً الى ٢٥٠٠ عضو[٨٧] . الا ان الكونفرنس بقي صامداً في تصميمه على أن يتشكل في مؤتمر تأسيسي ، بناء على نصيحة تروتسكي . ولم يعترض غير مندوبين بولنديين ، معلنين ان الفرع البولندي كان يعارض بالاجماع اعلان الامية الرابعة . لفتا الانظار الى انه كان من قبيل الانخراط في طريق مسدودة محاولة خلق امية جديدة ، في حين كانت حركة الشغيلة ، بمجملها ، في حالة انحسار وتمر بفترة ارتكاس كثيف وجمود سياسي ؛ وان نجاح كل الاميات السابقة كان ناجماً الى حد ما عن تشكلها في فترات انتفاضات ثورية .

« كان خلق كل من الاميات السابقة يشكل تهديداً نهائياً لحكم البورجوازية . . . ولم تكن تلك هي الحال مع الامية الرابعة . ما من فرع مهم في الطبقة العاملة سيستجيب لبياننا . ينبغي الانتظار . . . »

كان البولنديون متفقين مع تروتسكي حول ان الاميتين الثانية والثالثة كانتا قد ماتتا معنوياً . لكنهم حذروا الكونفرنس من أنه نوع من الطيش بخس تقدير القدرة الحقيقية لتينك الاميتين في بلدان متنوعة على شد الطبقة العاملة اليهما . ورغم تأييد البولنديين لمشروع البرنامج الذي اعده تروتسكي ، توجهوا بالنداء مرارا إلى رفاقهم ، سائلينهم ان يمتنعوا عن القيام « بحركة لا معنى لها » وعن « اقتراف عمل جنوني »[٨٨] .

---

٨٧ ـ في النشرات الداخلية للتروتسكيين الاميركيين ، كان عدد الاعضاء الملحوظ لا يتخطى الالف ، وقد اعلن دوايت ماكدونالد في مذكرات ثوري ، ص ١٧ : « كان عددنا حوالي ٨٠٠ عضو » .

٨٨ ـ كان ثمة مندوبان بولنديان : احدهما ، ستيفن ، وكان عالماً شاباً يدرس في فرنسا ، سبق ان امضى عدة سنوات من مراهقته في اصلاحية بولندية بسبب نشاطه السياسي : والآخر ، كارل ، وكان شغيلاً يهودياً كهلاً ، سبق =

كانت تلك الاعتراضات ذات وزن ، وكانت تصدر عن الجماعة التروتسكية الوحيدة من خارج الاتحاد السوفياتي التي كان وراءها عدة سنوات من العمل الثوري السري وتراث صلب من الفكر الماركسي الذي يرجع الى روزا لوكسمبورغ . وقد كُرس قسم كبير من الكونفرنس للردود على البولنديين . ولم تكن ثمة محاولة جدية واحدة لدحض محاجتهم . اعلن نافيل أن الفترة « مناسبة بشكل فريد » لخلق الأممية الجديدة .

« كان من الجوهري وضع حد للحالة الراهنة غير المحددة ، وان يكون ثمة برنامج محدد ، وقيادة اممية متشكلة بصورة محددة ، وفروع قومية متكونة بشكل محدد » .

وقد رفض شاختمان حجج البولنديين التاريخية على أنها « غير متصلة بالموضوع وخاطئة » ، ووصفهم بـ « المنشفيين الذين تسللوا الينا » ، لأنه لا يمكن غير مناشفة ان يكوّنوا فهماً للتنظيم بهذه الهشاشة وان يكون لديهم ايمان ضعيف الى تلك الدرجة بمستقبل الامية . وقد اعطى تصويت الكونفرنس اكثرية ١٩ ضد ٣ الى جانب اعلان الامية الرابعة فوراً .

بعد الموافقة بطريقة متسرعه وشبه اجماعية على كل مشاريع القرارات الاخرى ، بادر المندوبون إلى انتخاب لجنة تنفيذية . عندئذ بالذات احتج اتيان ، الذي كان الخطيب الرئيسي بصدد « المسألة الروسية » ، على واقع ان « الفرع الروسي » لم يُعط أي منصب . وقد تدارك الكونفرنس تلك الهفوة ، وعين تروتسكي كعضو شرف سري في الهيئة التنفيذية . ولما لم يكن في وسع تروتسكي المشاركة في عمل الهيئة التنفيذية ، كلف العميل الاستفزازي بالاستمرار في تمثيل « الفرع الروسي » .

قرر تروتسكي « تأسيس » الامية الجديدة في وقت لم يكن يمكن ان يكون فيه لهذا العمل أي تأثير ، تماماً كما كان البولنديون قد حذّروه . كان انصاره في الاتحاد السوفياتي (« اقوى فرع في الامية الرابعة ») قد ابيدوا . وكان عدد

= ان امضى اثنتي عشرة سنة من حياته في السجن اثناء حكم القيصر ثم في ظل بيلسودسكي ، وشارك في ثورة اوكتوبر في موسكو ، وقاتل خلال المعارك الاولى من الحرب الأهلية في روسيا ، ثم عاد الى بولندا ، وهناك جرى الحكم عليه بالاعدام بسبب نشاطه الثوري ، وقد تمكن من الفرار أثناء سوقه الى حيث كان سينفذ به الحكم . كنت انا بالذات صاحب المحاجة ضد تأسيس الامية الرابعة ، التي قدمها هذان المندوبان في الكونفرنس .

أنصاره في اوروبا وآسيا يتناقص بلا انقطاع . كانت الحركة العمالية قد سُحقت في كل البلدان تقريباً شرقيَّ الراين وجنوبي الألب . ما كان يمكن اي منظمة ماركسية أن تنصرف لنشاط سري منهجي تحت حكم هتلر ، في المانيا ، كما في النمسا ، وفيما بعد في تشيكوسلوفاكيا . وفي فرنسا ، كانت الجبهة الشعبية تتهافت في الاحباط والخمول . وفي اسبانيا ، كانت الحرب الاهلية تقترب من نهايتها ، حيث كان اليسار قد انهزم معنوياً قبل ان ينهزم عسكرياً . كل القارة الاوروبية كانت في حال الانهيار السياسي ، ولا تنتظر الا ان ترى جيش هتلر القوي يكتسحها . وسوف تكون سنوات من الاحتلال النازي والاضطهاد والاذلال غير المحتملة ضرورية لتدفع الطبقة العاملة في بعض البلدان عنوة الى النشاط السياسي أو المقاومة . لكن الشغيلة آنذاك ، على الاقل في فرنسا وفي ايطاليا ، كانوا سيتجهون نحو الاحزاب الستالينية التي كانت مشدودة الى الاتحاد السوفياتي ، اكبر قوى المقاومة ، والاكثر فعالية منذ عام ١٩٤١ . ومهما تكن التبدلات في الظروف ، كان لا بد أن يبقى نفوذ التروتسكية بالغ الضآلة . ولم تكن الآفاق أفضل في آسيا ، مع ان هذه كانت تمتلىء بالخميرة الثورية . لقد كرس تروتسكي الكثير من الوقت والانتباه للاحداث الاجتماعية والسياسية الجارية في الصين واليابان والهند والهند الصينية واندونيسيا . وفي كل تلك البلدان ، مارس نوعاً من التأثير على مجموعات صغيرة من الشغيلة والمثقفين الشيوعيين . لكن لم يكن انصاره قادرين ، في اي من تلك الامكنة ، إذا استثنينا سيلان ، على تشكيل حزب سياسي فعّال . حتى في الصين ، حيث كان يمكن الاعتقاد بأن معارضته لسياسة ستالين في ١٩٢٥ - ١٩٢٧ قد تنتج أقوى تأثير ، لم يكن للاممية فرع جدير بهذه التسمية . إن المجموعات التروتسكية ، التي كانت تعمل سراً تحت ضغط فقر رهيب وتتعرض للاضطهاد ، سواء من الكيومنتانغ او من الستالينيين ، لم تكن تضم اكثر من دزينتين من الاعضاء في شانغهاي ، وعدة دزينات في هونغ كونغ ، وحلقات صغيرة مبعثرة في مقاطعات الشرق والوسط . وحتى بعد أن التحق تشن - تو - سيو بالتروتسكية ، لم ينجحوا يوماً في الخروج من عزلتهم . لقد امضى تشن - تو - سيو ست سنوات في السجن ؛ وبعد أن أخلي سبيله ، جرى نفيه الى قرية بعيدة في مقاطعة شونغ كينغ وحظر عليه القيام بأي نشاط سياسي ، وحتى اي نشر لكتاباته . عاش في الجوع والخوف ، رازحاً تحت خزي مسؤ وليته عن هزيمة ١٩٢٧ ، يحذره التروتسكيون ويشهِّر به الماويون ، ويحيط به

الجواسيس وتهدده بالاغتيال شرطة تشانغ كاي تشك ، التي عادت عام ١٩٤٣ فألقت به في السجن ثم اغتالته . وفي عامي ١٩٣٨ و ١٩٣٩ ، حاول تروتسكي يائساً أن يخرجه من الصين ، آملاً « أن يتمكن من ان يلعب في الاممية الرابعة دوراً مشابهاً للدور الذي لعبه كاتاياما في الاممية الثالثة ، لكن . . . مع مكاسب أكبر لقضية الثورة » . لكن تشن - تو - سيو كان قد أصبح منهار القوى وكـان يغوص في اكثر التشاؤم سواداً . كان لا يزال يحصل احياناً أن يلقي على الوضع السياسي في الصين نظرة فطنة ويبّين اين ولماذا كانت التروتسكية تخفق . ففي كلام مكتوب بعد شهرين من اعلان الاممية الرابعة ، اوضح مثلاً لمـاذا على الحركة الثورية في الصين ان تستند الى الفلاحين لا الى شغيلة المدن (كما سبق ان اعتقد هو وتروتسكي) . كان اليابانيون قد فككوا الصناعة في المقاطعات الاكثر تقدماً في الصين . وهذا يعني بالتالي ان « الطبقة العاملة الصينية حُشرت، من الناحية العددية ، والمادية ، والروحية ، في الوضع الذي كانت تجد نفسها فيه قبل ثلاثين او اربعين عاماً » . كان من السخافة إذاً الاعتقاد بأن الثورة قد تجد مراكزها الرئيسية في المدن .

« إذا لم ندرك الآن ما ستكون على الارجح الظروف السياسية في المستقبل ، واذا لم نعترف بوضوح بضعف البروليتاريا الصينية ووضـع حزبها ، لن نفعل اكثر من التقوقع في اوكارنا الصغيرة . سوف ننام في حين تـزول حـظوظنـا وتتبـدد . وفي حين نعتـز بمـا نحن ، نتعلل بالتعزيـات » . وواصل يقـول إن التروتسكيين ، بصلفهم العصبـوي ، وموقفهم السلبي الصرف تجاه الماوية وعدم احساسهم بحاجات الحرب ضد اليابان ، كانوا يفصلون انفسهم عن الحقائق السياسية . كان يخشى ان يؤدي إعلان الاممية الرابعة إلى ترسيخ كبريائهم واوهامهم ،وان تنتهي تلك المغامرة بالافلاس . كان يميل شخصياً الى نوع من المصالحة ، حيناً مع الكيومنتانغ ، وحيناً مع الماوية ، لكنه لم يكن يستطيع - او لم يكن يريد - التوصل إلى تسويات مع هذه او مع ذاك . لقد عاش سنواته الاخيرة المأساوية كإنسان محطم كلياً . ولخصت تحذيراته وقدره المصير البائس للتروتسكية في الجزء من العالم الذي كان يعيش فيه[٨٩] .

---

٨٩ - انظر رسائل تروتسكي الى « الرفيق غلاس » في ٥ شباط / فبراير و ٢٥ حزيران/ يونيو ١٩٣٨ والانطباعات عن =

البلد الوحيد الذي اثارت فيه التروتسكية بعض الضجة كان الولايات المتحدة . ففي كانون الثاني/يناير ١٩٣٨ ، وبعد عدة انشقاقات واندماجات ، تشكل حزب العمال الاشتراكي واصبح سريعاً اقوى فرع للاممية الرابعة . كان له نشاط نضالي في النقابات وفي الصناعة ، واصدر بانتظام دوريتين هما **الاممية الجديدة** ، وكانت مجلة شهرية نظرية ، **والمناضل**. كان على رأسه فريق قوي من القادة القادرين والمجربين ، اذا قوّمناهم وفقاً للمبادىء الاميركية الخاصة ، وكان جيمس ب. كانون ، وماكس شاختمان وجيمس بورنهام الاكثر شهرة بينهم[٩٠] . وكان تروتسكي دائماً في تصرف الحزب ، يقدم نصائحه طوعاً ، وينتقد اتباعه ويمتدحهم ويتعقبهم ، مسوّياً المخاصمات والمناوشات . وكان رسله يتنقلون بين نيويورك ومكسيكو ، ويسهل الاتصال كون كل امناء سره تقريباً وحراسه في البيت الازرق من الاميركيين . كانت نيويورك الآن ، لا باريس ، مركز التروتسكية . ومع ذلك ، كان الحزب الاميركي برعماً ضعيفاً جداً مغروساً في ارض لا يستمد منها الا القليل القليل من الغذاء .

لماذا إذاً مضى تروتسكي قدماً في اعلان الاممية الرابعة رغم هكذا علائم لا تدعو للتفاؤ ل ؟ كان قد مضى الآن اكثر من خمس سنوات على قراره استحالة البقاء في الاممية بجانب ستالين ومانويلسكي وشركاهما ؛ وخلال تلك السنوات ، كانت الاممية الثالثة قد تلفت وتفسخت الى حد دفعه لأن يقطع علاقته وعلاقة تلامذته بها بتلك الدرجة من الحسم والدرامية . كرد فعل على الاممية الثانية ، كان لينين طالب البلاشفة ، في الماضي ، بالحاح بأن يخلعوا « القميص القديمة المتسخة » الخاصة بالاشتراكية ـ الديمقراطية وبتسمية انفسهم بالشيوعيين . وقد تكلم تروتسكي على « سفلس الستالينية » وعلى « سرطان الحركة العمالية الذي يجب ان يُكوى بالحديد المحمّى » . وكان يعتقد بأنه يخلق منظمة ستلعب دوراً

= رحلة الى الصين ولقاءات مع التروتسكيين الصينيين قام بها هـ. فليتمان (١٩شباط / فبراير١٩٤٠) . إن مراسلة تروتسكي الغزيرة مع اتباعه الصينيين تبيّن الاهتمام الشديد والمتواصل الذي أولاه دائماً لمنظورات الثورة الصينية، وانا أنقل وجهات نظر تشن ـ تو سيو استناداً الى احد ابحاثه الطويلة المكتوبة في سي ـ تشوان بتاريخ ٣ تشرين الثاني ١٩٣٨ . المحفوظات ، القسم المقفل .

٩٠ ـ جيمس ب. كانون ، تاريخ التروتسكية الاميركية ، وميشال بابلد ،عشرون عاماً من حياة الاممية الرابعة ، في الاممية الرابعة ، ١٩٥٨ ـ ٥٩ ، وماكس شاختمان ٢٥ عاماً من حياة التروتسكية الاميركية في الاممية الجديدة ، ١٩٥٤ .

حاسماً في الصراعات الطبقية الثورية القادمة(٩١) .

هل كان يأمل النجاح في مستقبل قريب ، أو أنه كان يعمل للتاريخ من دون أي أمل من هذا النوع ؟ ان هذا أقل وضوحاً ، فتصريحاته الخاصة به متناقضة . لقد كتب مرة مستنداً الى عدد انصاره المحدود :

« كل الحركات الكبرى بدأت « كمجموعات صغيرة منشقة » عن حركات قديمة . كانت المسيحية في البدء انشقاقاً صغيراً عن اليهودية ، والبروتستانتية عن الكاثوليكية ، اي عن المسيحية المنحطة . وانبثق تجمّع ماركس ـ انجلز كانشقاق صغير عن اليسار الهيغلي ، وجرى اعداد الاممية الشيوعية خلال الحرب الاخيرة انطلاقاً من هكذا انشقاقات عن الاممية الاشتراكية ـ الديمقراطية . ولم يكن مطلقو كل تلك الحركات قادرين على اجتذاب اتباع كثر الا لأنهم لم يخافوا البقاء منعزلين » .

إن هكذا مقطعاً يوحي بالرغم من تفاؤله التاريخي ، بأن تروتسكي لم يكن يتوقع نجاحاً سريعاً وحاسماً . من جهة اخرى ، لم يكن مشروع البرنامج الذي كتبه للاممية إعلان مبادىء بقدر ما كان توجيهاً بصدد التكتيك ، مكتوباً لحزب منخرط حتى رأسه في النضالات النقابية ، والسياسة اليومية ، ويبذل جهده لضمان القيادة العملية على الفور . ولقد كتب في رسالة موجهة الى مؤتمر التأسيس :

« منذ الآن ، تواجه الاممية الرابعة مهام حركة جماهيرية . إنها الآن منظمة ، لا تمتلك فقط فكرة واضحة عن القوى الموجهة لهذا العصر ، بل كذلك سلسلة كاملة من المتطلبات اليومية- القادرة على توحيد الجماهير في النضال الثوري لأجل الاستيلاء على السلطة » .

واضاف : « إن انعدام التناسب بين قوتنا اليوم ومهامنا في الغد اوضح بالنسبة الينا مما هو بالنسبة لنا قدينا . لكن الديالكتيك المأساوي والصارم لعصرنا يشتغل لصالحنا . فالجماهير التي ستدفعها الحرب الى السخط واليأس الكاملين لن تجد قيادة غير تلك التي تقدمها لها الاممية الرابعة » .

---

٩١ ـ .B.O ، العدد ٧١ ، نوفمبر ١٩٣٨ . خطاب بالانكليزية في مؤتمر التأسيس .

وفي خطاب إلى انصاره الاميركيين ، مجَّد الرسالة التي تحملها الاممية الجديدة بروح شبه صوفية ، وبثقة اكبر ايضاً :

« ... خلال السنوات العشر القادمة ، سوف يحصل برنامج الاممية الرابعة على تأييد الملايين ، وهؤلاء الملايين من الثوريين سيكونون قادرين على اقتحام السماء والأرض » .

وخلال فترة أزمة ميونيخ ، اعلن مجدداً انه حتى لو كانت الاممية الرابعة ما تزال ضعيفة في بداية الحرب القادمة

« فكل يوم جديد سيعمل لمصلحتنا ... وخلال الشهور الاولى من الحرب ، سيحصل رد فعل صاخب ضد سعار الشوفينيية في صفوف جماهير الشغيلة ، وسيكون من ضحاياه الاوائل ، إلى جانب الفاشية ، احزاب الامميتين الثانية والثالثة . وسيكون انهيار هذه الشرط الضروري لحركة ثورية مفتوحة تقودها الاممية الرابعة » .

وقد هتف امام كينغسلي مارتن ، الذي زاره عام ١٩٣٧ :

« اقول لك ان الاممية الرابعة ستكون قوة كبرى في العالم قبل ان تنقضي ثلاث سنوات أو خمس[٩٢] » .

كانت تستند آماله إلى المقدمة المنطقية المزدوجة التي فحواها أنه ستلي الحرب القادمة انعكاسات ثورية شبيهة بتلك التي تلت الحرب العالمية الاولى ، لكن بحجم وقوة اكثر ضخامة . وكان يعتقد ايضاً أن كل الاحزاب الستالينية ستنزل بثقلها، مثلها مثل الاحزاب الاشتراكية ـ الديمقراطية ، لكبح صعود الثورة . واكثر من اي وقت آخر ، كان يرى في بلدان الغرب الصناعية المتقدمة الميادين الرئيسية للمعركة من اجل الاشتراكية . فمن طبقتها العاملة سوف تأتي المبادرة

---

٩٢ ـ B.O. استشهاد مذكور، والعددان ٦٦ ـ٦٧ ، و ٧١ ، ١٩٣٨ ، كان اللقاء مع كينغسلي مارتن ، الذي وصفه هذا الاخير في The New Statesman في ١٠ نيسان ١٩٣٧ ، غيرودي ، بسبب اهتمام مارتن بالدفاع عن شرف صديقه د. ن. بريت (K.C.,M.P) الذي كان منشغلا بتبرير محاكمات موسكو من وجهة النظر القانونية امام الجمهور البريطاني . كانت حساسية رئيس التحرير البريطاني حيال شرف بريت وعدم مبالاته بشرف كل من طالتهم محاكمات موسكو ، وتروتسكي من بينهم، ربما قد اغاظت تروتسكي ودفعته الى تصريح مبالغ به. وقد اعطى تروتسكي ذاته وصفاً قارصاً لزيارة مارتن الى كويواكان في مراسلته مع السكريتيرية الاممية بباريس .

الثورية المناسبة التي لا يمكن غيرها أن يقطع الحلقة المفرغة لـ «الاشتراكية في بلد واحد والاستبدادية البيروقراطية» التي كانت الثورة الروسية مسجونة فيها . وكان أمراً شبه غير ممكن التصور ان تتمكن الرأسمالية الغربية ، التي سبق ان طحنتها ازمات الثلاثينات وجمودها الاقتصادي ، من البقاء على قيد الحياة بعد الزلزال الوشيك . لم يكن يشك في أن هتلر سيحاول توحيد اوروبا تحت هيمنة الامبريالية الالمانية وسيفشل في ذلك . لكن اوروبا بحاجة لأن تتوحد ، ولا يمكن غير الثورة البروليتارية ان توحدها وتخلق الولايات المتحدة لأوروبا الاشتراكية . هذا الانقلاب الاجتماعي العظيم لن تنجرّ اليه المانيا وحدها ، بميراثها الماركسي ، وفرنسا وايطاليا بتقاليدهما الثورية ، بل كذلك اميركا الشمالية . ففي **المقدمة لفكر كارل ماركس الحي** ، التي كتبها عام ١٩٣٩ ، دحض النيوديل الذي جاء به روزفلت وكل محاولات تجديد شباب الرأسمالية واصلاحها على انها شعوذة عاجزة ورجعية . ولفت الانتباه الى اي حد ينطبق **رأس المال** تماماً على مشكلات الاقتصاد الاميركي . حيّا فجر عصر جديد من الماركسية في الولايات المتحدة .

«. . . في الماركسية أيضاً سوف تلحق أميركا بأوروبا ببضع قفزات وتتجاوزها . إن التقنية التقدمية والبنية الاجتماعية التقدمية ، سوف تشقان طريقهما في دائرة المذهب الفكري . وأفضل منظري الماركسية سيظهرون على ارض اميركا ويصبح ماركس مرشد العامل الاميركي المتقدم[٩٣] » .

لم يهمل تروتسكي الطاقات الكامنة الهائلة للثورة في البلدان المتخلفة ، ولا سيما في الصين . وكان يشدد على تلك البلدان اكثر من اي كاتب آخر في الثلاثينات ؛ لكنه كان يرى هذه المنظورات على أنها خاضعة لمنظورات ثورة في الغرب .

« حالما تبدأ الثورة الاشتراكية ، سوف تمتد من بلد لبلد ، بقوة اشد بما لا يقاس من تلك التي تتوسع بها الفاشية اليوم . فبفضل المثل ودعم الامم المتقدمة ستنخرط الامم المتأخرة ايضاً في تيار الاشتراكية الرئيسي » .

٩٣ـ Living Thoughts of Karl Marx ، ص ٣٨ .

هكذا إذ كان يدفع الى الحد الاقصى منطق الماركسية الكلاسيكية الذي كان من مسلماته أن « تقنية تقدمية وبنية اجتماعية تقدمية » تشكلان قاعدة الثورة الاشتراكية ، فقد كان يبّين دون إرادته التباعد بين النظرية والوقائع . فلو لعبت البلدان الصناعية المتقدمة الدور الذي حددته لها الماركسية الكلاسيكية في النظرية ، ما كان بلد اكثر ملاءمة للماركسية والاشتراكية من الولايات المتحدة . لم يكن تروتسكي يتوقع - وما كان في وسعه أن يتوقع - ان الامم المتخلفة ستشكل خلال العقود القليلة اللاحقة « التيار الرئيسي للاشتراكية » ، الذي سيسعى « الغرب المتقدم » لكبحه أو لنبذه ، وأن الولايات المتحدة بوجه خاص ، ستصبح السور العالمي الاكبر والاقوى بوجه الماركسية بدل أن تخلق نسختها فائقة الحداثة عن هذه الماركسية(٩٤) .

كان يتوقع ان يرى الطبقات الكادحة في الغرب تنهض كما كانت قد نهضت عام ١٨٤٨ ، و١٨٧١ ، و١٩٠٥ و١٩١٧ - ١٩١٨ . وذهب الى حد تطبيق الفهم الماركسي التقليدي على الصين ، وكان ينظر بحذر الى جيوش ماوتسي تونغ الفلاحية ، خائفاً من ان تتحول ، كالكثير من هذا النوع من الجيوش في تاريخ الصين ، الى اداة للردة وتدخل في نزاع مع الشغيلة إذا لم يعرف هؤلاء كيف يستعيدون المبادرة الثورية . فرغم تحذيرات تشن - تو - سيو ، كان يعتقد ان الطبقة العاملة الصينية ستستعيد انطلاقتها السياسية وتعيد تأكيد طبيعتها كالقوة القائدة للثورة . بالنسبة اليه ، بقي واقع أن الهيمنة في كل صراع طبقي حديث لا بد أن تكون للمدن ، بقي من المسلمات ، وكانت فكرة حركة متمردة تأتي من خارج المدن وتستولي عليها تبدو له فكرة غير واقعية ورجعية . ففي الغرب كما في الشرق ، كان يشدد على ان الثورة ستكون بروليتارية بالمعنى الحقيقي للكلمة أو لا تكون أبداً . وما كان في وسعه ، بوجه خاص ، أن يتصور الوضع الذي سيظهر خلال الحرب العالمية الثانية وما بعدها ، حين وجّه مجرى صراع الطبقات في الشرق وفي الغرب - لا بل حرفه بمعنى ما - تحالف روسيا ستالين مع الغرب ، في البدء ، ثم تضادهما على المستوى العالمي .

---

٩٤ - إن مسألة معرفة ما إذا كانت تشخيصات تروتسكي بشأن الغرب المتقدم وبوجه خاص الولايات المتحدة ، ستظهر حوالى نهاية هذا القرن باللاواقعية نفسها التي تظهر بها في منتصفه ، لا بد ان تبقى ، بالطبع ، مسألة غير محسومة .

انطلاقاً من هذه المقدمات ، لم يكن يمكن تروتسكي إلا ان يطرح هذا السؤال : مَنْ - أي حزب - سيقود الصراعات الثورية القادمة ؟ واجاب عنه بأن الاممية الثانية ليست غيرحصن مضاد مهترىء للنظام الاجتماعي القديم ، وبأن الاممية الثالثة اداة بين يدي ستالين ، أداة سوف يرميها ستالين حين يناسبه ذلك ، او يستخدمها كمحض عملة للمساومة في معاملاته مع القوى الرأسمالية . كان ستالين وبيروقراطيته يعيشان في الخوف من الثورة في الخارج ، ثورة يمكن أن تنبه ايضاً الطبقة العاملة في الاتحاد السوفياتي وتعرض للخطر امتيازات الحكم المطلق البيروقراطي . هكذا حين كان الشغيلة يدخلون في عصر جديد من التمخضات الاجتماعية ، كانوا يفتقرون الى حزب ماركسي ثوري يقودهم. كانت السلسلة الطويلة من الكوارث التي عانوا منها خلال العشرينات والثلاثينات ناجمة عن غياب القيادة ، ومن دون قيادة ثوريّة سيكون عليهم ان يقاسوا هزائم اخرى اكثر كارثية . إذا لم تكن الماركسية وهماً ، وإذا كانت الطبقة العاملة الاداة التاريخية للاشتراكية ، واذا كانت اللينينية محقة في الإصرار على واقع أنه لا يمكن الشغيلة الانتصار إذا لم تقدهم طليعة واعية ، فالأزمة المديدة في القيادة لا يمكن ان يحلها غير تكوين حزب شيوعي جديد واممية جديدة . كان يميل تروتسكي ، مثله مثل روزا لوكسمبورغ وماركسيين كثيرين آخرين ، خلال الفترة التي لم يكن قد غدا فيها بلشفياً بعد ، الى ايلاء الثقة للنشاط الطبيعي للطبقة العاملة واهمال وظائف القيادة وتنظيم الحزب ، وهي وظائف كانت في قلب اهتمامات لينين . مذاك توصل الى ان يرى في ذلك اكبر غلطة اقترفها خلال عمله السياسي الطويل ، ولم يكن سيضع ثقته الآن ، مرة اخرى ، في الموج العفوي للمد الثوري . وبما ان استدلالاته كانت تدفعه الى تحديد مهمة لنفسه لم يكن ليتراجع امام كل المصاعب التي تلازم تلك المهمة ، ولا حتى امام استحالتها الظاهرة . « لقد قضت الامميتان الثانية والثالثة نحبهما ، عاشت الاممية الرابعة ! » كان واجبه ، كما تصوره ، يقضي بإعلان ذلك ؛ اما الباقي فسوف يتكفل به المستقبل .

كانت التروتسكية تتقدم في تلك الفترة ، في وسط واحد على الاقل ، على صعيد الانتليجنسيا الاميركية الراديكالية ، وبوجه خاص في الدوائر الأدبية . فتحت تأثير الأزمة الكبرى وصعود النازية والحرب الاهلية الاسبانية ، شعر العديد من المثقفين الاميركيين بأنفسهم تحت جاذبية الحزب الشيوعي ، لكن اولئك الذين

كانوا يتمتعون افضل من غيرهم بالروح النقدية توقفوا إزاء انتهازية الجبهة الشعبية التي دفعت الحزب الى مغازلة روزفلت وتوجيه التحية الى النيو ديل. وشعروا بالتشكك والقرف إزاء محاكمات موسكو والمناورات الملتبسة والطقوس الغريبة الخاصة بالستالينية. اما التروتسكية فبدت لهم تياراً من الهواء النقي يقتحم الجو الخانق لليسار ويفتح آفاقاً جديدة. استجاب كتّابٌ للطابع الدرامي المثير للعطف في نضال تروتسكي، ولبلاغته وعبقريته الادبية. لاقت التروتسكية نوعاً من الرواج سوف يترك آثاراً عديدة في الأدب الاميركي. وبين الكتّاب، ولا سيما بين النقاد الذين أثرت فيم، نشير الى ادموند ويلسون، وسيدني هوك، وجيمس ت. فاريل، ودوايت ماكدونالد، وتشارلز مالامود، وفيليب راهف، وجيمس رورتي، وهارولد روزنبرغ، وكليمنت غرينبرغ، وماري ماكارثي وغيرهم وغيرهم[٩٥].

أصبحت **partisan Review** مركز التروتسكية الادبية. فهذه المجلة، التي اصدرها فيليب راهف ووليام فيليبس، كانت تصدر تحت رعاية جون ريد كلوبز، والحزب الشيوعي بصورة غير مباشرة. الا أن المحررين، الذين اغاظهم تدخل الحزب في الادب، واستاؤوا من تقلباته السياسية، وهزتهم محاكمات موسكو، اوقفوا نشر المجلة. ولكن قبل نهاية عام ١٩٣٧، اعادوا إصدارها، لكنهم غيّروا اتجاهها: سوف تتخذ Partisan Review موقفاً إلى جانب الاشتراكية الثورية وضد الستالينية. وقد دعا المحررون تروتسكي للتعاون مع الصحيفة، فرفض في البدء وأبدى تحفظات إزاء تلك المغامرة، كاتباً الى دوايت ماكدونالد: «انطباعي العام ان محرري Partisan Review قديرون ومثقفون واذكياء، لكن ليس لديهم ما يقولون[٩٦]. لم يكن قادة حزب العمال الاشتراكي يرغبون اطلاقاً في أن تحاط المجلة بهالات هيبته ونفوذه، وهو ذاته كان يتساءل الى أي حد كان التزام

---

٩٥ - دوايت ماكدونالد، **المرجع المذكور**، ص ١٢، الى ١٥.

٩٦ - من تروتسكي الى ماكدونالد، ٢٠ كانون الثاني ١٩٣٨. كان محررو .P.R قد دعوا تروتسكي للمشاركة في ندوة حول الماركسية، كان سيشارك فيها أيضاً هارولد لاسكي، وسيدني هوك، واينيازيو سيلون، وادموند ويلسون، واوغست تالهايمر، وجون ستراشي، وفينر بروكواي وآخرين. وكان الموضوع المطروح هو: ما هناك من حي وما هناك من ميت في الماركسية. إن كون .P.R نوت فتح نصل تتساءل فيه عن مدى صحة الماركسية لم يزكّها اطلاقاً لدى تروتسكي. انظر مراسلته مع محرري Partisan Review في المحفوظات، القسم المقفل، وقد تخلى المحررون عن فكرة الندوة.

Partisan Review بالاشتراكية الثورية جدياً . فمعظم المتعاونين معها لم يعرفوا من الماركسية والبلشفية الا التشويهات الستالينية ، ولما كانوا قد تخلصوا من الاوهام حول الستالينية ، ألم يكونوا سينقلبون كذلك ضد الماركسية والبلشفية ؟ من جهة اخرى ، اخذ على المحررين رد فعلهم الضعيف ضد محاكمات موسكو ومحاولتهم البقاء على علاقة حسنة مع New Masses و The Nation ، و The New Republic ، التي إما كانت تدافع عن المحاكمات او بقيت مهوّمة بصدد هذا الموضوع . كتب تروتسكي الى راهف :

« إن بعض التدابير ضرورية لنضال ضد النظرية غير السليمة ، واخرى ضرورية لمكافحة وباء كوليرا ، وستالين يشبه الكوليرا اكثر بكثير مما يشبه نظرية خاطئة . ينبغي ان يكون النضال كثيفاً وشرساً وعديم الرحمة ، وإن عنصراً من العصبية . . . لصحي[٩٧] . لكن حوالى نهاية العام ، في حين اصبحت .Partisan R اكثر صراحة في عدائها للستالينية ، انكسر الجليد . وكانت الفترة التي ارتبطت خلالها المجلة بتروتسكي بالصورة الاكثر وثوقاً هي تلك التي نشر فيها بريتون وريفيرا ، بوحي من تروتسكي ، **البيان لأجل حرية الفن** على صفحاتها ودعوا إلى تشكيل فدرالية اممية للكتّاب والفنانين الثوريين بهدف مقاومة الانتهاكات الكليانية للادب والفنون[٩٨] .

وصل اندريه بريتون ، الشاعر السوريالي الفرنسي ، إلى كويواكان في شباط/فبراير ١٩٣٨ . كان منذ زمن طويل معجباً شديد الاعجاب بتروتسكي ، ولا شيء يصوّر بشكل أفضل شعوره حيال تروتسكي ، الذي لم يكن مقتصراً عليه وحده ، إلا رسالة كتبها له بعد زيارته المكسيك ، وهو على متن المركب الذي كان عائداً به الى فرنسا : « **العزيز جداً ليف دافيدوڤيتش**

إذ أخاطبك بهذه الطريقة ، اعاني من قلة ثقتي بنفسي أقل مما

---

٩٧ ـ من تروتسكي الى راهف ، ٢١ آذار / مارس١٩٣٨ ، المرجع ذاته .

٩٨ ـ .P.R ، خريف ١٩٣٨ ، رسالتان من تروتسكي الى راهف في ٢ ايار و ٣٠ حزيران ١٩٣٨ . **المحفوظات القسم المقفل ، وهاتان الرسالتان تضمان وصفاً ساخراً للعاملين في .P.R ، كتبه جيمس بورنهام ، بالاضافة الى** Chronique de Scandale (من بورنهام الى تروتسكي ، ١٢ نيسان ١٩٣٨) .

بحضورك . لقد شعرت في اغلب الاحيان بالرغبة في مخاطبتك هكذا ، وأقول لك ذلك لكي تدرك الى اي حد أنكَبِتُ في كل مرة أحاول ان اقوم بحركة تجاهك ، واحاول ذلك على مرأى منك » .

كان ذلك الكبت ناجماً عن « اعجاب لا حدود له » . كان « عقدة كورديليا » تستولي عليه كلما وجد نفسه بحضور تروتسكي ، وهو لم يكن يعاني من ذلك الكبت الا عندما يتوجب عليه الاقتراب من الرجال العظام .

« انت واحد من هؤلاء . . . الوحيد حيّاً . . . وانا بحاجة لسيرورة تكيف طويلة كي اقنع نفسي بأنك لست خارج متناولي » .

لم يكن رد تروتسكي على هذه الرسالة اقل تميّزاً :

« تبدو لي مدائحك مبالغاً بها لدرجة اني بدأت أتصور ببعض الانزعاج مستقبل العلاقات بيننا[٩٩] » .

خلال إقامة بريتون في كويواكان ، قام هو وتروتسكي وريفيرا بنزهات طويلة ورحلات في الريف ، وكانوا يناقشون ، بحدة في بعض الاحيان ، مسائل تتعلق بالسياسة والفن . ففي فرنسا ، كان سوء التفاهم سائداً بين السورياليين والتروتسكيين ، وبوجه خاص نافيل ، السوريالي القديم . لكن موقف تروتسكي حيال السوريالية ، كما حيال كل تجديد في الفن ، كان ودياً ، وإن لم يكن خالياً من النقد . كان يقبل بتركيز السورياليين شبه الفرويدي على الحلم وتجارب ما تحت الوعي ، لكن كان يهز رأسه إزاء « شطحة صوفية » في اعمال بريتون واصدقائه . ومع ان هذه القضايا كانت بعيدة عن اهتماماته في تلك الفترة (لأن زيارة بريتون تصادفت مع موت ليوفا ومحاكمة بوخارين) ، إلا أنه تناقش طويلاً مع بريتون وريفيرا في مسائل متعلقة بالشيوعية والفن وفلسفة الماركسية وعلم الجمال . ومن هذه المناقشات انبثقت فكرة بيان موجه الى الكتاب والفنانين في الفدرالية الاممية . وقد ظهر البيان الذي كان تروتسكي أحد واضعَيه بتوقيع بريتون

---

٩٩ - من بريتون الى تروتسكي ، في ٩ آب / اغسطس ١٩٣٨ ، وجواب تروتسكي في ٣١ آب ، **المحفوظات** القسم المقفل ، انظر كذلك ، بريتون ، La clef des Champs ، ص ١٤٢ - ١٥٤ ، Entretiens ص ١١٨ - ١١٩ و ١٨٧ - ١٩٠ ، موريس نادو ، Histoire du Surréalisme ، ص ٢٤٢ - ٢٤٣ .

وريڤيرا في Partisan Review[100] . واوحت هذه المغامرة الى تروتسكي ذاته التعليق التالي في رسائل موجهة الى بريتون و P.R. .

كتب لبريتون :

« احيي من كل قلبي مبادرتك ودييغو ريفيرا لخلق الـ FIARI ، اتحاد الفنانين الثورين حقاً والمستقلين حقاً. لماذا لا يضاف كذلك : الفنانين الحقيقين ؟ (. . .) تتحول الكرة الارضية الى ثكنة امبريالية موحلة ونتنة. إن ابطال الديمقراطية ، وعلى رأسهم دالاديه الذي لا مثيل له، يبذلون كل جهدهم ليشبهوا ابطال الفاشية (. . .) وكلما كان الديكتاتور جاهلاً وبليداً ، كلما أحس بأنه مدعو لتوجيه تطور العلم والفلسفة والفن. وعبودية الانتليجنسيا وغريزة القطيع لديها تشكلان كذلك علامة مهمة على انحطاط المجتمع المعاصر » .

وقد كانت فكرة البيان هي من حيث الجوهر الفكرة التي سبق ان عبر عنها في **الادب والثورة** ، قبل ١٥ عاماً ، في حين كان يسعى لتحاشي وضع الستالينية الفنون والادب تحت وصايتها . كان يهاجم الآن نمّامي الستالينية ، « من امثال أراغون واهرنبورغ وغيرهما من الاوباش المبتذلين » و « سادة يكتبون بحماس متساو سيرة حياة يسوع المسيح وسيرة حياة يوسف ستالين » ومالرو الذي « كان التزوير في اوصافه الاكثر حداثة ، عما يجري في اسبانيا والمانيا ، مقرفاً اكثر لا سيما انه يسعى لاعطائه الشكل الفني » . كان سلوك مالرو بالنسبة اليه « نموذجياً بالنسبة لشريحة كاملة من الكتّاب ، لجيل كامل تقريباً : يكذب الناس على اساس « صداقة » مزعومة تجاه ثورة اوكتوبر . كما لو كانت الثورة بحاجة الى الكذب ! » . كان على النضال من اجل الحقيقة الفنية وأمانة الفنان التي لا تتزعزع حيال ذاته ، ان يصبح ، بالتالي ، جزءاً ضرورياً من النضال لأجل افكار الثورة .

« في الفن ، يعبر الانسان . . . عن حاجته للانسجام ولوجود متفتح

---

١٠٠ ـ .Partisan R ، خريف ١٩٣٨ ، يؤكد بريتون ان ريفيرا اعطى توقيعه فقط وان تروتسكي كان الكاتب الرئيسي للبيان ، لكنه رأى انه ليس من المناسب ان يوقعه .

كلياً . . . يرفض مجتمع الطبقات منحه إياهما (هذا الاستشهاد من رسالة وجهها تروتسكي الى **Partisan Review**) . هذا هو السبب في ان كل خلق فني أصيل يتطلب دائماً احتجاجاً ضد الواقع ، واعياً او غير واع ، نشيطاً أو سلبياً ، متفائلاً او متشائماً . . . إن الرأسمالية في عصر انحطاطها عاجزة عن ان تؤمّن لتيارات الفن تلك ، التي تستجيب الى حد ما لحاجات عصرنا ، الشروط الدنيا الضرورية لتطورها ؛ إنها تحس برعب متوسوس امام كل كلمة جديدة . تعيش الجماهير المضطَهَدة حياتها الخاصة بها . إن البيئة الفنية البوهيميّة محشورة في ضيقها الخاص بها . . . لقد حلت المدارس الفنية للعقود الاخيرة ، المستقبلية والدادائية والسوريالية ، بعضها محل البعض الآخر من دون أن تعطي أي منها ثمراً . . . يستحيل الخروج من هذا المأزق بالوسائل الفنية وحدها ، فالازمة ازمة الحضارة بكاملها . . . إذا لم ينجح المجتمع المعاصر في اعادة بناء نفسه ، لا بد أن يهلك الفن كما هلك الفن الاغريقي تحت انقاض الحضارة العبودية . . . ينجم عن ذلك ان وظيفة الفن في عصرنا تتحدد بالموقف الذي يتخذه حيال الثورة » .

« هنا بالضبط نصب التاريخ فخاً هائلاً للفنون . إن جيلاً كاملاً من الانتليجنسيا « اليسارية » توجه بأنظاره نحو الشرق وربط . . . مصيره لا بالطبقة العاملة الثورية بقدر ما بثورة ظافرة ، وليس هذا الشيء نفسه إطلاقاً . في هذه الثورة الظافرة ، ليس هناك الثورة وحسب بل كذلك شريحة جديدة ذات امتيازات . . . خنقت الخلق الفني بقبضتها الكليانية . . . حتى في ظل المَلَكية المطلقة ، كان فن البلاط قائماً على المَثْلنة لا على التزوير ، بينما الفن الرسمي في الاتحاد السوفياتي ، ـ وليس هناك غير هذا النوع من الفن ـ ، يشارك العدالة الرسمية مصيرها . إن هدفه هو تمجيد « الزعيم » وأن يختلق رسمياً اسطورة بطولية . . . » .

« يوصف اسلوب الرسم الرسمي السوفياتي بـ « الواقعية الاشتراكية » ، وهي سمة ما كان يمكن ان يختلقها غير بيروقراطي

منصَّب على رأس سكريتارية للفنون الجميلة . وتكمن هذه الواقعية في تقليد تصاوير ريفية دغرية daguerreotype(*) عائدة الى سنوات ١٨٥٠ - ١٨٧٥ . ويعني الاسلوب « الاشتراكي » استخدام زخارف من الصور الفوتوغرافية المصطنعة لتصوير احداث لم تقع في يوم من الايام . لا يمكن ، من دون قرف واستهوال ، قراءة القصائد والقصص او النظر الى الرسوم والمنحوتات التي يمجد فيها هؤلاء الموظفون المسلحون بالريشة او المرقاش ، او الازميل ، والموضوعون تحت رقابة موظفين مسلحين بمسدس ، « القادة العظام العباقرة » ، الذين لا ومضة عبقرية أو عظمةٍ واحدةً لديهم . سوف يظل فن العصر الستاليني التعبير الاكثر صدماً عن الانحطاط الاكثر عمقاً للثورة البروليتارية » .

وقد لفت الانتباه الى ان المشكلة لا تقتصر على الاتحاد السوفياتي :

« بحجة اعتراف متأخر بثورة اكتوبر ، ركعت الانتليجنسيا الغربية « اليسارية » امام البيروقراطية السوفياتية . . . انفتح عهد جديد مع كل انواع المراكز والحلقات . . . مع الرسائل المحتومة لرومان رولان ، ومع طبعات معانة ، ومآدب ، ومؤتمرات (حيث من الصعب رسم أي خط بين الفن والغيبيو). ومع ذلك ، فبالرغم من الاتساع الملحوظ لتلك الحركة المعسكرة لم تنتج تلك الحركة الى الآن عملاً فنياً وحيداً قادراً على البقاء بعد موت مؤلفه وملهميه في الكرملين » .

« يحتاج الفن والثقافة والسياسة لمنظور جديد ، فمن دونه لن تتقدم البشرية . . . لكن حزباً ثورياً أصيلاً لا يمكنه - ولا يريد - « توجيه » الفن ، وأقلَّ ايضاً ، اخضاعه لأوامره . . . وفقط بيروقراطية جاهلة ووقحة ، جعلتها السلطة التعسفية تندفع كالمجنونة ، في وسعها ان تتصور هكذا طموحاً . . . لا يمكن الفن ان يكون الحليف الكبير للثورة الا بمقدار ما يبقى مخلصاً لذاته[١٠١] »

---

* - طريقة قديمة في التصوير الفوتوغرافي على الواح فضية (م)

١٠١ - .B.O ، العدد ٧٤ ، ١٩٣٩ .

رغم النداءات المثيرة للفدرالية الاممية للكتّاب والفنانين ، لم تقم لهذه الاخيرة قائمة حقيقية . ففي اوروبا ، سرعان ما اغرقت نداءها للدفاع عن الحرية الفنية دمدمات الحرب التي كانت تقترب ، وفي امريكا ، كان ربيع التروتسكية الادبية قصير الامد . وكما توجس تروتسكي ، تحول قرف الانتليجنسيا من الستالينية الى رد فعل ضد الماركسية عموماً وضد البلشفية .

للمرة الالف ، يمكننا ان نتتبع هنا الدورة الغريبة التي رسمتها الانفعالات التي اثارها تروتسكي لدى اتباعه من المثقفين . كان معظمهم قد مالوا نحوه بتوقير حماسي ، وقد اثار لدى معظمهم « عقدة كورديليا » التي تكلم عليها بريتون . لكن مع الوقت ، وجدوا ان طريقته في الحياة وفي التفكير كانت تتطلب ضغطاً معنوياً غير محتمل. وجدوا، في الحقيقة، أنه يتخطاهم كثيراً. اكتشفوا أن ملكهم لير كان لا يزال الاكثر تصلباً بين الثوريين . لم يكن ينوي ان يجمع حوله سلسلة من المعجبين الغنائيين ، بل كان يناضل من اجل كسب مقاتلين لصالح القضية الاكثر استحالة بين القضايا. كان يسعى إلى أن يؤلب أنصاره وفقاً لمثاله هو بالذات، ضد كل اشكال السلطة في العالم : ضد الفاشية ، وضد الديمقراطية البورجوازية وضد الستالينية ، وضد كل انواع الامبريالية ، والاشتراكية ـ الوطنية ، والاصلاحية والنزعة السّلمية ، وضد الدين والصوفية وحتى التجريبية والعقلانية الدنيويتين . كان يتطلب من اتباعه ان يدافعوا عن الاتحاد السوفياتي بصورة غير مشروطة ، رغم ستالين ، وان يشنوا الحرب على الستالينية بعنف يساوي عنفه . وفي حقل المبادىء ، لم يكن يتراجع بوصة واحدة ، ولم يكن يسمح بأن يحصل غير ذلك مع الآخرين . كان يتطلب من انصاره قناعة لا تتزعزع ولا مبالاة كلية بالرأي العام ، واخلاصاً صارماً وايماناً وقاداً بالثورة البروليتارية التي كان يحس دوماً بانفاسها (بينما لم يكونوا هم ، يحسون بها) . باختصار ، كان يتوقع ان يكونوا مصنوعين من الجبلة المصنوع ، هو ، منها .

لقد تقاعسوا ، وحل في البدء محل توقيرهم الحماسي له الانزعاج والشك ، او تعب مشوب دائماً بالخوف ، ثم المعارضة ، وفي الاخير عداء صريح أو مموه . وتوصل المثقفون الميالون للتروتسكية الى الارتداد ، الواحد بعد الآخر ، بحياء في البدء ، ثم بغضب ، وجحد حماسهم القديم والوقوف طويلاً عند أخطاء تروتسكي . وبما ان لا شيء اكثر خذلاناً من الخذلان ، فقد سلطوا الضوء على كل الأخطاء او الاخفاقات ، الحقيقية او الوهمية ، التي امكنهم ان

يسجلوها عليه ، وتوصلوا بعد ذلك الى التنديد به على انه مستغرق في احلام اليقظة متعصب ودوغمائي ، او قرروا انه ، هو وستالين وجهان لعملة واحدة .

وراء الصورة الدائمة لهذه الخيبات والصداقات المقطوعة ، كان يُستشعر الحنق المتنامي لدى الانتليجنسيا الراديكالية في الغرب حيال التجربة الثورية الروسية بكل اشكالها وحيال الماركسية . كانت تلك سيرورة من تلك السيرورات المثنية الى الوراء للتحول السياسي ، التي يتحول بها راديكاليو فترة ما وثوريوها الى وسطيين محافظين او رجعيين في الفترة اللاحقة ، وبين الكتّاب ذوي الميول التروتسكية في الثلاثينات ، عدد صغير جداً لن يكونوا على رأس الحملات الصليبية الدعاوية ضد الشيوعية في نهاية الاربعينات ونهاية الخمسينات . وسوف يحمل الآخرون الى تلك الحملات معرفتهم بالشيوعية عن كثب ، وتمييزهم الدقيق ، وان وحيد الجانب ، لوجوهها الهشة ، وحقداً محموماً كان تروتسكي قد نفثه فيهم أملاً بأن يوجهوه ضد الستالينية لا ضد الشيوعية (وبالطبع فان الكثير من الستالينيين السابقين ، الذين لم يخضعوا لأي تأثير تروتسكي ، شغلوا ايضاً مواقع بارزة في الحملات المضادة للشيوعية ، لكنهم كانوا في اغلب الاحيان جواسيس مبتذلين ، بدل ان يكونوا ملهمين ايديولوجيين) .

اختفت بدايات ذلك التحول اختفاء جزئياً في فوضى بعض المساجلات الصغيرة . ففي شتاء ١٩٣٧ ـ ١٩٣٨ ، اثار ايستمان وسرج وسوفارين وسيليغا وآخرون مسألة مسؤولية تروتسكي عن سحق تمرد كرونشتاد في عام ١٩٢١ . كان السياق الذي اثاروا فيه هذه المسألة يتلازم مع محاولة لاكتشاف اين ومتى بالضبط تم في البلشفية ذلك الصدع المشؤوم الذي خرجت منه الستالينية . وكان جوابهم انه تم في عام ١٩٢١ ، في كرونشتاد ابان سحق التمرد . كان ذلك في نظرهم المنعطف الحاسم ، الخطيئة الاصلية اذا صح التعبير ، الذي قاد البلشفية الى السقوط . وتروتسكي ، الم يكن مسؤولاً عن سحق تمرد كرونشتاد ؟ وفي ذلك العمل بالذات الم يكن الرائد الحقيقي للارهاب الستاليني ؟ كان النقاد يجدون من السهل ادانته ، لا سيما انهم كانوا يكوّنون عن انتفاضة كرونشتاد صورة ممثلنة الى حد بعيد ويمجدونها كأول احتجاج حقيقي للبروليتاريا ضد خيانة الثورة . رد تروتسكي بأن الصورة تلك غير واقعية ، وبأنه لو لم يسحق البلاشفة الانتفاضة ، لكانوا فتحوا الباب على مصراعيه للثورة المضادة . لقد اعلن كامل مسؤوليته السياسية عن قرار المكتب السياسي بشأن ذلك ، وهو القرار الذي اعطاه دعمه ، واكتفى فقط بانكار

الزعم القائل بأنه قاد الهجوم على كرونشتاد بنفسه » (١٠٢)!

كانت تلك الحرب الكلامية مشحونة باحتدام غريب وغير معقول . فلم يكن ثمة حاجة للموافقة على رواية تروتسكي كي نرى ان نقاده نفخوا الى ابعد الحدود اهمية انتفاضة كرونشتاد ، حين فصلوها عن السياق التاريخي وعن عدد كبير من تيارات الاحداث المتداخلة . فكرونشتاد ، بوصفها مدخلاً الى الستالينية ، كانت تكسف في نظرهم العوامل الاساسية التي شجعت على نمو الستالينية : هزائم الشيوعية في الغرب ، فقر الاتحاد السوفياتي وعزلته ، انهاك جماهير الشغيلة ، النزاعات بين المدن والريف ، « منطق » نظام الحزب الواحد ، وهكذا دواليك . ولقد احتدم النقاش حول تلك الحادثة البعيدة نسبياً والملتبسة وتسمم احياناً الى حد أن تروتسكي لاحظ ما يلي : « قد يعتقد المرء ان تمرد كرونشتاد لم يتم قبل ١٧ سنة ، بل البارحة » والذي كان يغيظه هو ان اصدقاءه المخلصين المزعومين اختاروا مضايقته بأسئلتهم حول كرونشتاد في ذروة حملته ضد محاكمات موسكو . اضف الى ذلك انه في حين كان يفضح الاعدامات الراهنة لنساء خصوم الستالينية واولادهم راح سرج وسوڤارين يلومانه على اطلاق النار على رهائن خلال الحرب الأهلية . الم تكن عاصفة الصياح والزعيق تلك تشكل دعماً لستالين ؟ الم يكونوا يرون الفرق السياسي والمعنوي بين استخدامه العنف في الحرب الاهلية والارهاب الستاليني الحالي ؟ او انهم كانوا ينكرون على الحكومة البلشفية في اعوام ١٩١٨ ـ ١٩٢١ حقها في الدفاع عن نفسها وفرض النظام ؟

---

١٠٢ ـ B.O. ، العدد ٧٠ ، ١٩٣٨ ، في رسالة موجهة الى ليوفا ، في ١٩ تشرين الثاني ١٩٣٨ ، كتب تروتسكي ، انه حين اثير الموضوع ، امام المكتب السياسي ، وقف إلى جانب الهجوم على كرونشتاد ، بينما وقف ستالين في الجهة المعاكسة واعلن انه إذا ترك العصاة وشأنهم فسوف يستسلمون بعد اسبوعين او ثلاثة ، ومن الجدير بالملاحظة ان تروتسكي لم يشر ابداً الى هذه الواقعة في مجادلاته العلنية ضد ستالين وفي السيرة التي كتبها عن حياة ستالين ، مع انه لم يترك مناسبة لم يشدد فيها على الطابع الرخو لسياسة ستالين وعلى انحرافاته عن خط لينين . هل كان تروتسكي يدرك الى حد ما ان الرخاوة السياسية في تلك الحالة كان يمكن ان تعيد شيئاً من البريق لسمعة ستالين ؟ وقد استؤنف النقاش بصدد كروشتاد في The New و Trotsky « hue and Cry International over kronstadt » April 1938 V.Serge « Letter to The Editor » , February 1939 ..) وفي كتابَيْ (سيليغا، في بلاد الكذبة الكبيرة ، وسرج ، مذكرات ثوري). واحد امناء سر تروتسكي الاميركيين ، الذي امضى عدة اشهر في كويواكان عام ١٩٣٩ ، كتب بعد ذلك قصة بعنوان The great Prince Died (برنارد وولف) ، الفكرة الرئيسية فيها هي ان ضمير تروتسكي وحياته كانا يرزحان تحت ذلك الشعور بالذنب حيال كرونشتاد. ومن المؤسف ان الرواية فجة وهزيلة من الزاوية الفنية بقدر ما هي كاذبة من الزاوية التاريخية .

« لا أعرف . . . اذا كان هنالك ضحايا بريئة في كرونشتاد . . والآن وقد انقضت سنوات طويلة على ذلك الحدث، لا يمكنني ان احدد بالضبط من كان يجب معاقبته ، وبأية صورة . . . . . لا سيما انه ليس بين يدي معطى واحد . لكن انا مستعد تماماً للقول ان الحرب الاهلية ليست مدرسة سلوك انساني . لقد لام المثاليون ودعاة السلام الثورة دائماً على « التجاوزات » . وعقدة الموضوع تكمن في ان هذه التجاوزات ناجمة عن طبيعة الثورة بالذات ، التي هي ذاتها « تجاوز » للتاريخ . فلينبذ الثورة من يرغبون في ذلك (على الاقل في مقالاتهم البائسة في الصحف) ، بهذه الحجة . اما انا فلن انبذها » .

اتهمه النقاد بـ « لا اخلاقية لينينية » أو جزويتية » ، اي بتأكيد ان الغاية تبرر الوسيلة ، فرد بدراسته **اخلاقهم واخلاقنا** ، وهو عرض عدائي وبليغ لاخلاق الشيوعية[١٠٣] . وتبدأ هذه الدراسة بدفق شتائم ضد الديمقراطيين وفوضويي اليسار الذين يطلقون في الفترة التي تنتصر فيها الردة ، « العنان لعفنهم الاخلاقي اكثر من العادة بمرتين ، تماماً كما يعرق آخرون خوفاً بشكل مضاعف » ، والذين يعظون بالأخلاق الثوري المضطهد، لا المضطهد القدير . وفي الواقع انه لم يكن يقبل اي مبدأ اخلاقي مطلق . فهكذا مطلقات لا معنى لها خارج الدين . فالبابوات ، على الاقل ، كانوا يعيدونها الى الوحي الالهي . لكن من اين يستمد نقاده ، اولئك « الكهنة الدنيويون الهزيلون » حقائقهم الاخلاقية الخالدة ؟ من ضمير الانسان ، ومن طبيعته الاخلاقية ومن مفاهيم مماثلة ليست سوى مواربات لـ « الوحي الالهي » .

تتجسد الاخلاق في التاريخ وفي الصراعات الطبقية ، وليست جوهراً ثابتاً : انها تعكس التجربة والحاجات الاجتماعية ، لذا عليها دائماً أن تربط مجدداً بين الوسائل والغايات . وقد دافع تروتسكي عن الجزويتيين في وجه نقادهم الاخلاقيين ، في مقطع ملفت للنظر :

« لم تعلّم الرهبانية الجزويتية ابداً . . . أن اي وسيلة ، وان كانت

---

١٠٣ ـكان تروتسكي يختتم النص الاول من هذه الدراسة حين نقل اليه ريفيرا خبر وفاة ليوفا ، فجاء الاهداء لذكراه B.O. ، العددان ٦٨ ، و ٦٩ ، ١٩٣٨ ، The New International ، حزيران ١٩٣٨) . وقد ظهرت الدراسة أيضاً في كراس بلغات عديدة •

اجـرامية . . . مسمـوح بهـا . . . شـرط ان تـوصـل الى الهـدف . .
هكذا . . . مذهب نسبه الى الجزويتيّين ، عن سوء نية ، البروتستانت ،
والى حد ما خصومهم من الكاثوليك ، الذين لم يكونوا متوسوسين اطلاقاً
في اختيار الوسائل الموصلة الى اهدافهم ».

لقد فسَّر اللاهوتيوّن الجزويتيون البديهية ، التي فحواها أن كل نوع من الوسيلة ، يمكن ان يكون في ذاته حيادياً من الناحية الاخلاقية ، يجب ان يتم تبريره او الحكم عليه حسبما يكون الهدف الذي يرمي اليه . فاطلاق النار لا دلالة اخلاقية له ، واطلاق النار لقتل كلب كلِب يهدد ولداً هو عمل جيد ، اما اطلاق النار لارتكاب عملية قتل فهو جريمة .

« في الاخلاق العملية للجزويتيين ، لم يواجههم ما هو اسوأ من
الرهبان والكهنة الآخرين . . . على العكس ، كانوا ارفـع منهم ، في
الاحوال كافة ، واكثر انسجاماً وشجاعة وفطنة . كـانوا يمثلون منـظمة
نضالية ، مغلقة وعدوانية وممركزة بشكل دقيق ، خطرة لا فقط بالنسبة
لاعدائها بل كذلك بالنسبة لحلفائها » .

وكالبلاشفة ، كان لهم عصرهم البطولي ، وفترات الانحطاط ، حين تحولوا من محاربي الكنيسة الى بيروقراطيين ،

و « مثل البيروقراطيين الطيبين ، غدوا مختلسين ممتازين » .

الا ان الجزويتي يختلف ، في الفترة البطولية ، عن الكاهن العادي ، مثلما يختلف جندي الكنيسة عن ذلك الذي يلعب فيها دور التاجر . « ليس من حقنا ابداً أن نمثلن هذا او ذلك ، لكنه امـر مشين تمامـاً ان ننظر الى المحـارب المتعصب بالعين التي ننظر بها الى الحانوتي البليد والكسول » .

اكد تروتسكي ان فكرة تبرير الغايـة للوسيلة هي فكرة ضمنية في كل فهم للاخلاق ، وكذلك في تلك النفعية الانكلو ـ سكسونية التي شُنَّت من وجهة نظرها معظم الهجمات على اللااخلاقية الجزويتية والبلشفية . . فبمقدار ما يستتبـع المثل الأعلى : أكبر قدر من السعادة الممكنة لأكبر عدد ممكن من الناس ، أن ما يتم فعله لتحقيق هذه الغاية هو اخلاقي ، يتوافق هذا المثل الاعلى مع المفهوم الجزويتي حول الغاية والوسائل . وكل الحكومات (بما فيها الاكثر « انسانية »)

التي تنادي في زمن الحرب بأن من واجب جيوشها ان تبيد اكبر عدد ممكن من الاعداء ، الا توافق على المبدأ القائل بأن الغاية تبرر الوسيلة ؟ الا ان الغاية ذاتها تتطلب تبريراً ايضا ، ويمكن الغايات والوسائل أن تغيّر من مواقعها ، لأن ما يُعتبر الآن كغاية يمكن ان يكون فيما بعد وسيلة نحو غاية جديدة . فبالنسبة للماركسي ، ان الغاية العظمى المتمثلة بزيادة سيطرة الانسان على الطبيعة والغاء تحكم الانسان بالانسان تجد تبريرها ، والامر ذاته يصح على الوسائل الموصلة الى هذه الغاية : الاشتراكية . ويصح الامر أيضاً على الوسائل الموصلة الى الاشتراكية : كصراع الطبقات الثوري . ان الاخلاق الماركسية ـ اللينينية انما توجهها حاجات الثورة . هل يعني ذلك ان كل الوسائل ، وحتى الاكاذيب والخيانات وجرائم القتل يمكن استخدامها اذا كانت تدفع بمصالح الثورة الى الامام ؟ يجيب تروتسكي : « كل الوسائل التي تؤدي بشكل اصيل الى تحرر النوع الانساني مسموح بها » لكن ديالكتيك الغاية والوسائل هو بحيث لا يمكن ان تؤدي بعض الوسائل الى هذه الغاية . .

« الوسائل الوحيدة المسموح بها ، والاجبارية ، هي تلك التي تحمل التضامن والوحدة الى الشغيلة الثوريين وتملأهم بعداء لا مهادنة فيه للاضطهاد . . . وتفعمهم بوعي مهمتهم التاريخية وتزيد من شجاعتهم وروح التضحية لديهم . اذاً ، ليست كل الوسائل مسموحاً بها » ،

ومن يعلن ان الغاية تبرر الوسيلة يعلن ايضاً ان الغاية تنبذ بعض الوسائل على انها لا تتوافق معها . « لجعل الحنطة تنبت ، يجب بذر حبة حنطة » ولن تقوم الاشتراكية على الخداع والدجل وعبادة القادة الذين يذلون الجماهير . كما لا يمكن فرضها على الشغيلة رغماً عنهم . وكما قال لاسال :

لا تدُلَّ فقط على الهدف ، دُلَّ أيضاً على الطريق لأن الهدف والطريق ينموان بالتداخل الوثيق فيما بينهما بحيث يتبدل هذا دائماً مع ذاك ويولدُ طريق جديد هدفاً جديدا .

ان الحقيقة والنزاهة في العلاقات مع الجماهير الكادحة جوهرية بالنسبة للاخلاق الثورية ، لأن اي طريق آخر سيقود حتماً الى هدف آخر غير الاشتراكية . كان البلاشفة في عصرهم البطولي « الحزب السياسي الأشرف في التاريخ بأكمله» . بالطبع ، لقد خدعوا اعداءهم ، لا سيما في فترة الحرب الاهلية ، لكنهم كانوا

صادقين مع الشعب العامل ، الذي كسبوا ثقته الى حد جهلته الاحزاب الاخرى . فلينين ، الذي كان ينبذ كل المطلقات الاخلاقية ، كرس كل حياته لقضية المضطهدين وبدا حيَّ الضمير الى ابعد الحدود في افكاره ، وعديم الخوف في افعاله ، ولم يُظهر يوماً ادنى موقف عليائي تجاه الشغيل البسيط ، والامرأة الضعيفة والولد . وبالنسبة لتروتسكي بالذات ، حين قرر ان تؤخذ عائلات ضباط الحرس الابيض كرهائن ، تحمل كل مسؤولية ذلك التدبير ، الذي املته ضرورات الحرب الاهلية ، علماً أنه حسب علمه لم يتم اعدام رهينة واحدة . « كان تم انقاذ مئات الالوف من الحيوات ، لو ان الثورة ابدت منذ البدء قدراً اقل من الشهامة النافلة». كان يثق بالاجيال القادمة ، فهي ستعرف كيف تحكم على سلوكه كما عرفت كيف تحكم على صلابة لنكولن خلال الحرب الاهلية .

> « ان التاريخ يقيس قساوة الشماليين والجنوبيين بمقاييس مختلفة . لنأخذ مالك عبيد يلجأ الى الحيلة والعنف ليقيّد العبد ، وعبداً يستخدم الحيلة والعنف ليقطع قيوده . فقط خصيان جديرون بالاحتقار سوف يقولون لنا انهما متساويان امام محكمة الاخلاق ! » .

كان القاء فظاعات الستالينية على كاهل ثورة اكتوبر و « اللااخلاقية البلشفية » من قبيل تزوير الحقيقة . لم تكن الستالينية ناتج الثورة او البلشفية ، بل ناتج ترسبات المجتمع القديم ، وهذا يفسر الصراع الذي لا رحمة فيه الذي خاضه ستالين ضد البلاشفة القدامى ، وهو صراع كانت الهمجية البدائية لروسيا تنتقم عبره من التطلعات والقوى التقدمية التي بلغت ذروتها عام ١٩١٧ . اضف الى ذلك ان الستالينية كانت تكثيفاً لكل الأكاذيب والفظاظات والدناءات التي تشكل آلية السيطرة الطبقية وسيطرة الدولة عموماً . لم يكن يحق بالتالي ، للمدافعين عن مجتمع الطبقات وعن الدولة ، بمن فيهم المدافعين عن الديمقراطية البورجوازية ، لم يكن يحق لهم اطلاقاً ان يشعروا بتفوق اخلاقي : فالستالينية تقدم لهم مرآتهم الخاصة بهم ، حتى لو كان الأمر يتعلق جزئياً بمرآة مشوَّهة .

بين الردود العديدة على **أخلاقهم وأخلاقنا** ، يستحق رد[١٠٤] جون ديوي ان نذكره هنا . لقد وافق ديوي على مفهوم تروتسكي بشأن العلاقة بين الهدف

---

١٠٤ ـ ج . ديوي ، Means and Ends ، في The New International ، آب ١٩٣٨ .

والوسائل والطابع النسبي تاريخياً للاحكام الاخلاقية ، كما وافق على انه يمكن تبرير وسيلة بالهدف من ورائها ، وان الغاية تقبل التبرير اذا قادت الى زيادة سيطرة الانسان على الطبيعة والغاء سيطرة الانسان على الانسان . لكنه اختلف مع تروتسكي في امر واحد ، اذ لم يكن يرى لماذا يجب ان يجري السعي وراء تلك الغاية ، بصورة رئيسية او حصرية ، عبر وسائل صراع الطبقات . كان يرى ان تروتسكي وكل الماركسيين ، يتعاملون مع صراع الطبقات كما مع هدف في ذاته . اكتشف تناقضاً فلسفياً لدى تروتسكي الذي كان يؤكد ، من جهة ، أن طبيعة الغاية ، اي الاشتراكية ، تحدد طابع الوسائل ، ومن جهة اخرى ، يستنتج الوسائل من « القوانين التاريخية لصراع الطبقات » او يبررها استناداً الى تلك القوانين . بالنسبة لديوي ، كان التسليم بـ **قوانين ثابتة** يجري الزعم بانها تحكم تطور المجتمع أمراً غير متصل بالموضوع .

> « ان الاعتقاد بأن قانوناً من قوانين التاريخ يحدد الطريقة الخاصة لخوض صراع ما يبدو لي ، بلا ادنى شك ، انه يستتبع الميل للانصراف ، بصورة عصبية وحتى صوفية ، الى استخدام بعض اشكال خوض صراع الطبقات ، واستبعاد كل الاشكال الاخرى . ان الماركسية الاورثوذكسية تشترك مع النزعة الدينية الاورثوذكسية . . . والمثاليات التقليدية في الاعتقاد بان الغايات البشرية منسوجة بنسيج الوجود بالذات وبنيته ، وهو فهم من المرجح ان يكون ورثه من اصوله الهيغلية » .

أصبحت خلاصة ديوي السمة الاساسية لمعظم الهجمات على تروتسكي ، التي ستنصبُّ بعد قليل من جانب تلامذته واصدقائه القدامى . كلهم اخذوا مرمى لهم « ارث الماركسية الهيغلي » ، المادية الديالكتيكية ، و« العصبية الدينية » للبلشفية . تكلم ماكس ايستمان ، مثلا ، على الانهيار النهائي لـ « الحلم بشأن الاشتراكية » « اني ادافع عن التخلي عن هذه المثل العليا المطلقة والطوباوية» . مذاك لم تعد الماركسية بالنسبة اليه ديانة قديمة او ايماناً رومانسياً المانيا فقط ، بل كذلك جدَّة الفاشية والستالينية معاً .

> « لا ننسينَّ ان ستالين كان اشتراكياً ، وان موسوليني كان اشتراكياً ، وان مئات الالوف من انصار هتلر كانوا اشتراكيين أو شيوعيين . . . »

وبالطريقة نفسها ، تخلى سيدني هوك عن فكرة ديكتاتورية البروليتاريا ،

وتخلى اخيراً عن الماركسية لصالح الليبرالية التجريبية . وحصل الامر ذاته مع ادموند ولسون ، وبنجامين ستولبرغ ، وجيمس رورتي ، وآخرين أيضاً .[١٠٥] .

وجد تروتسكي ، بعد ٤٠ سنة من المساجلات الايديولوجية ، قليلاً من الاشياء الجديدة والمبتكرة في هذه الحجج ، التي ذكّرته بتيخوميروف وكتابه **لماذا لم اعد ثورياً ؟** وهو الجحد شبه الكلاسيكي من جانب نارودني ترك الحركة الثورية لمسالمة النظام القائم . مذاك ، كان المتعبون والزائلة اوهامهم ، من كل جيل ، وفي كل عقد ، يحاولون الاجابة عن هذا السؤال في حين ينسحبون من المعركة او ينتقلون الى المعسكر المقابل . ما كان جديداً في هذه المرة انما هو عنف زوال الوهم . وكان يتلازم مع الضربات الوحشية التي كانت الستالينية توجهها للايمان وللوهم . لم ينسحب اناس يوماً من صراع ثوري بانفعال بتلك الدرجة من العمق ، وبحنق بتلك الدرجة من الصدق . لم تظهر قضية يوماً يائسة الى الحد الذي ظهرت به قضية تروتسكي للاساتذة والكتّاب والنقاد الادبيين الذين كانوا يتخلون عنه اذاك . بدأوا يشعرون بأنهم اذ اختاروا التروتسكية تورطوا دون ضرورة في تلك القضية الخطرة والغامضة ، والضخمة والبعيدة ، التي كانت تشكلها الثورة الروسية ، وان ذلك الالتزام كان يضعهم في صدام مع طريقة حياتهم والجو الايديولوجي المسيطر في جامعاتهم كما في مكاتب تحريرهم كما في تجمعاتهم الادبية . كانت اعارة المرء اسمه للجنة دفاع عن تروتسكي واحتجاج ضد التطهيرات شيئاً ، لكنه كان شيئاً آخر ، مختلفاً تماماً ، أن يوقع على بيان الاممية الرابعة ويستجيب لنداء تروتسكي من اجل تحويل الحرب العالمية القادمة الى حرب اهلية معممة . ان ما كان يؤلم تروتسكي هو ان يرى انه حتى اصدقاء قدماء وشركاء قدامى كايستمان وسرج يديرون له ظهرهم . لقد اطلق العنان لغضبه ضدهم وضد آخرين على شاكلتهم ، وشبيهاً بمساجل كبير آخر ليس مشدداً في اختيار ضحاياه ، حفظ في نثره - كما تُحفظ حشرات في العنبر - أسماء بعض الكتبة التافهين الذين لولا ذلك ، لكانوا سقطوا منذ زمن طويل في النسيان . هوذا نموذج من سجالاته ، حيث المرمى هو سوفارين :

« داعية سلام سابق ، شيوعي سابق ، تروتسكي سابق ،

---

١٠٥ - ماكس ايتسمان ، هل الماركسية علم ؟ ص ٢٧٥ - ٢٩٧ . سيدني هوك ، السلطة السياسية والحرية الشخصية .

ديمقراطي - شيوعي سابق ، ماركسي سابق . . . وربما امكن القول سوفارين سابق ، وبالغ الوقاحة في هجماته ضد الثورة البروليتارية . . لدرجة انه لا يعرف بالضبط ما الذي يريده . . . هذا الرجل يحب ان . . يجمع نصوصاً وملفات وثائق ، ومقتطفات ، ومزدوجات وفواصل ، وبيده ريشة . وادى به ذلك الى تخيل ان هذه العدة قد تكفيه حتى نهاية حياته . عندئذ بالذات كان عليه ان يتعلم ان من الضروري ايضاً معرفة طريقة التفكير . . . وفي كتابه عن ستالين ، سلم نفسه شهادة فقره الفكري ، رغم وفرة الاستشهادات والوقائع المهمة . . . لا يفهم الثورة ولا الثورة المضادة ، وهو يطبق مقاييس حجّاج هزيل على السيرورة التاريخية . وانعدام التناسب بين ميله للنقد وعجز ذهنه عن الخلق يتأكله كالحامض . لذا تراه باستمرار في حالة غيظ وحشي، يفتقر الى كل دقة اولية في تقدير الافكار والرجال والاحداث ، مغطياً كل ذلك بوعظه الاخلاقي الجاف . تجتذبه الرجعية ككل كارهي البشر والكلبيين* . لكن هل قطع علناً علاقته بالماركسية؟ ليس في حد علمنا . انه يفضل الالتباس فهذا عنصره الطبيعي . لقد كتب في مقاله النقدي المخصص لكراسي اخلاقهم واخلاقنا : « مرة اخرى ، يمتطي تروتسكي مهره صراع الطبقات ». بالنسبة لهذا الماركسي سابقاً ، لم يعد صراع الطبقات غير حصان تروتسكي الصغير ، فهو ، اي سوفارين ، يفضل ان يبقى مفرشخاً على الكلب الميت للاخلاق الابدية(١٠٦) .

وانضم الى جولات تروتسكي السجالية بحيوية واضحة ، اثنان من تلاميذه هما جيمس بورنهام وماكس شاختمان . أغارا بغضب على « المثقفين المعتزلين » يمزقانهم إرباً بسبب « هلعهم من ستالين » و « خيانتهم للطبقة العاملة وللماركسية » لكن لن يمر وقت طويل قبل ان يتخلى هذان التلميذان هما أيضاً عن المعلم لينضما الى « المثقفين المعتزلين »(١٠٧) .

(*) Cynics ، المؤمنون بأن السلوك البشري تتحكم به المصالح الذاتية وحدها ، ويعبرون عن هذا الموقف عادةً بالسخرية (م) .

١٠٦ ـ B.O. ، العددان ٧٧ ـ ٧٨ ، ١٩٣٩ ، و New International ، آب ١٩٣٩ .

١٠٧ ـ New International ، كانون الثاني/ يناير ١٩٣٩ .

بعد صداقة دامت عامين ، تخاصم تروتسكي وريفيرا . وقد نشبت هذه الخصومة فجأة ، وحالاً بعد ظهور البيان حول حرية الفن في .P.R خلال الصيف ، كان تروتسكي كتب لمنظمي مؤتمر تأسيس الاممية الرابعة ، آملا ان يشارك ريفيرا في المؤتمر :

« « عليكم ان تدعوه شخصياً . . . وتشددوا على ان الاممية الرابعة تعتز بأن يكون في صفوفها ، هو الفنان الاكبر في عصرنا والثوري الذي لا يلين . علينا ان نكون مجاملين حيال دييغو ريفيرا بقدر ما كان ماركس حيال فرايليغراث ولينين حيال غوركي . فكفنّان ، هو اعلى بكثير من فرايليغراث وغوركي ، وهو بالاضافة الى ذلك ثوري اصيل بينما لم يكن فرايليغراث غير متعاطف بورجوازي صغير ، وغوركي غير رفيق طريق ملتبس بعض الشيء »[١٠٨] .

لذا كانت صدمة قاسية بالنسبة لتروتسكي ، حين اطلق ريفيرا ، قبل نهاية ذلك العام بالذات ، هجمات وحشية ضد الرئيس كارديناس ، الذي وصفه ، والحالة هذه ، بـ « شريك الستالينيين » . وحين منح خلال انتخابات الرئاسة دعمه لخصم كارديناس ، المازان ، وكان جنرالاً من اقصى اليمين وعد باخضاع النقابات وقمع اليسار . كان ريفيرا ، هو ايضاً ، قد التقط « فيروس كره الستالينية » (لكن تلك كانت نزوة من نزوات سلوكه السياسي بحيث عاد بعد سنوات ، نادماً ، الى الحظيرة الستالينية) . كان تروتسكي يتحاشى بالكثير من العناية ان يتدخل في شؤون السياسة المكسيكية ، ولم يكن يريد في اي من الحالات ان يفعل اي شيء ازاء نوع العداء للستالينية الذي كان ينصرف اليه الآن ريفيرا وازاء حملته ضد كارديناس . وقد حاول ان يثني ريفيرا ففشل . ولما كان مرتبطاً بصورة وثيقة للغاية ، في نظر الجمهور ، بالرسام ، لم يكن امامه غير طريق واحد، طريق القطيعة العلنية، يحرره من أية مسؤولية تجاه نزوات ريفيرا السياسية . هكذا اسف تروتسكي في بلاغ خاص ، لموقف ريفيرا خلال انتخابات الرئاسة ، واعلن انه ، من الآن وصاعداً ، لم يعد يمكنه ان يشعر بأي تضامن ادبي حياله او حتى ان يتمتع بضيافته[١٠٩] . الا انه حين هاجم الستالينيون

---

١٠٨ ـ من تروتسكي الى امانة السر الاممية في باريس ، ٢ احزيران / يونيو ، ١٩٣٨ .

١٠٩ ـ بيان من تروتسكي الى الصحافة المكسيكية في ١١ كانون الثاني/ يناير ١٩٣٩ . **المحفوظات** ، انظر ايضاً =

ريفيرا ، معلنين انه باع نفسه للرجعية ، دافع عنه تروتسكي ضد تهمة بيع النفس ، معبراً عن اعجابه الذي لم ينقص بـ :

« العبقري الذي لا يمكن اخطاءه السياسية ان تلقي ظلالاً ، بأي شكل من الاشكال على فنه وعلى نزاهته الشخصية (١١٠) »

وضعت القطيعة مع ريفيرا ، وقرار مغادرة البيت الازرق ، تروتسكي في حالة مالية صعبة . كانت الاموال التي يكسبها محدودة جداً ، وهو ما لم يكن له كبير اهمية طالما لم يكن عليه ان يدفع ايجار مسكنه ، لكنه كان الآن مضطراً لبذل كل ما يمكنه من جهد لزيادة مردوده المالي ، وفي غضون ذلك اضطر للاستدانة من اصدقاء له كي يتمكن من اعالة ساكني بيته(١١١) . كان قد باشر كتابة سيرة لستالين ، لكن لما كان عمله ينقطع باستمرار ، فهو لم يكن يتقدم الا ببطء شديد. ولما كان خيّب امل ناشريه لكون سيرة لينين لم تبدُ اطلاقاً على وشك الظهور ، فقد أبدوا تحفظات شديدة بشأن التسليفات المالية(١١٢) . كان يفكر بكتابة كتاب قصير وشعبي يمكن ان يصبح من الكتب ذات الرواج الكبير ، ويحرره هكذا من اعماله الروتينية الصحافية . لكنه لم يكن يستطيع حزم امره

= رسالة فان هايجنورت الى بريتون ، ١١ كانون الثاني ١٩٣٩ ، التي يخبره فيها بناء على توجيهات تروتسكي بالقطيعة . رد بريتون على تروتسكي في ٢ حزيران رافضاً اتخاذ موقف في ذلك النزاع بين تروتسكي وريفيرا .

١١٠ ـ مقال لتروتسكي (**الجهل ليس سلاحا للثورة**) الى صحيفة Trinchera Aprista ، كتبه في ٣٠ كانون الثاني / يناير ١٩٣٩ ، **المحفوظات** .

١١١ ـ قيل لي ان ناشراً وصاحب مكتبة مكسيكياً من اصل روسي ، متحدراً من ثوريين روس ، كان في تلك المناسبة ومناسبات اخرى ايضاً دائن تروتسكي ، وسمعت أيضاً اساطير خيالية حول الجانب المالي من حياة تروتسكي في المنفى : هكذا اكد لي رئيس تحرير مجلة اميركية كبرى ان تروتسكي كان يسحب المال من حساب ضخم في مصرف اميركي فتحه لينين باسمه واسم تروتسكي خلال الحرب الاهلية ، حين كان ياخذ بالحسبان احتمال هزيمة بلشفية والحاجة الى استئناف النضال الثوري في الخارج . ولو كانت القصة صحيحة لكانت مثيرة للاهتمام لكنها لم تكن كذلك .

١١٢ ـ **المحفوظات**، القسم المقفل ، انظر في هذا القسم المقفل مراسلة تروتسكي مع ناشريه ، البيانات المفصلة بحقوق التأليف المدفوعة ، الاقساط المسلّفة ، الخ . . . التي تعطي فكرة واضحة عن صعوباته المالية في عام ١٩٣٩ ، هكذا كان دابلداي قدم له منذ عام ١٩٣٦ سلفة بخمسة آلاف سترلينية عن سيرة لينين وكان يطالبه الآن بالمخطوطة بالحاح . كان قد دفع له ايضاً عام ١٩٣٦ ، ١٨٠٠ سترلينية ، وفي تاريخ لاحق مبلغاً اقل ، وذلك عن **الثورة المغدورة** . لكن في عام ١٩٣٩ ، لم تكن المبيعات قد غطت بعد التسليفات . كان تروتسكي وقع عقوداً بصدد كتابه ستالين مع هاربرز في نيويورك ونيكولسون وواتسون في لندن خلال النصف الأول من عام ١٩٣٨ ، لكن قبل ان ينتهي العام كان هاربرز قد رفض تقديم سُلف ، بحجة انه كان يأخذ وقتاً طويلاً قبل ان يقدم اجزاء من مخطوطته .

لكتابته . وقد فاوض new york public library وجامعتي هارفارد وستانفـورد لبيع محفوظاته . فلما كان يرغب كثيراً في وضع اوراقه في مكان امين ، كان السعر الـذي حدده بخساً ، لكن الشارين المحتملين لم يكـونـوا مستعجلين ودامت المفاوضات اكثر من عام[113] . حتى في حقل الصحافة ، انهارت اعماله بصورة كارثية ، وغالباً ما كان وكلاؤه الادبيون يجدون صعوبات في تسويق مقالاته رغم انه كان يكتب حول موضوعات جد راهنة ، كاتفاقات ميونيخ ، ووضع القوات المسلحة السوفياتية ، والدبلوماسية الاميركية ، ودور اليابان في الحرب القادمة ، وهلم جراً[114] .

جرته صعوباته المالية الى نزاع غريب مع مجلة **لايف**[115] . ففي نهاية ايلول/سبتمبر **١٩٣٩** ، وبمبادرة من بورنهام ، مضى احـد محرري **لايف** الى كويوا كان ، وطلب منه كتابة مخطط لشخصية ستالين ، ومقالا حول موت لينين (كان تروتسكي قد انهى الفصل من كتابه **ستالين** حيث اوحى بان ستالين سمّم للينين ، وكان سيقدم هذه الرواية للحدث في **لايف**). وقد ظهر مقاله الاول في المجلة في ٢ تشرين الاول/اكتوبر ، وهو لم يكن ينطوي الا على تذكرات غير مؤذية نسبياً . ومع ذلك ، فقد استفز حنق الليبراليين المؤيدين لستالين ، الذين قصفوا **لايف** باحتجاجات مصحوبة بالتوبيخ . وقد نشرت **لايف** بعض تلك الاحتجاجات ، وهو ما ادى الى استشاطة تروتسكي غيظاً ، وقد اكد انها تنطوي على قدح بحقه وانها صادرة عن « مصنع للغيبيو » في نيويورك . ومع ذلك فقد ارسل مقاله الثاني حـول مـوت لينين ، لكن **لايف** رفضت نشـره . ومن سخـريـة القـدر ، ان الاعتراضات التي اثارها الناشرون معقولة بما فيه الكفاية . لقـد وجدوا ان ظن تروتسكي المتعلق بتسميم لينين على يد ستالين قليل الاقناع وطالبوه بتخمينات اقل وبوقائع دامغة اكثر . فهدد بملاحقة **لايف** لاخلالها بالعقد ، وفي نوبة غضب

---

١١٣ ـ من تروتسكي الى البرت غولدمان ، ١١ كانون الثاني ١٩٤٠ . لم تقدم جامعة هارفرد اكثر من ٦٠٠٠ سترلينية لشراء المحفوظات . في الاخير اشترت هذه الجامعة المحفوظات بـ ١٥٠٠٠ سترلينية وهو مبلغ صغير اذا اخذنا بالحسبان « القيمة » التي استلمتها .

١١٤ ـ بين المقالات المتنوعة لتروتسكي التي وجدها الناشرون الاميركيون والانكليز ذات قيمة من زاوية راهنيتها مقال مكتوب في بداية صيف ١٩٣٩ ، يعلن ان ستالين على وشك توقيع معاهدة مع هتلر .

١١٥ ـ انظر رسالة تروتسكي الى بورنهام في ٣٠ ايلول ١٩٣٩ ومراسلته مع مجلة **لايف** . **المحفوظات** ، القسم المقفل .

ارسل المقال الى Saturday Evening Post و Collier'sحيث اصطدم مجدداً بالرفض . في الاخير نشرت Liberty المقال . ومن المحزن ان المراسلة السخيفة والغاضبة بشأن كل هذا الموضوع جعلته يضيع الكثير من الوقت في السنة الاخيرة من حياته . وفي الاخير ، دفعت له لايف المبلغ المقابل للمقال الذي لم ينشر ، وامكنه ان يقول لبعض الاصدقاء ان هذا الكسب وبعض التحصيلات الاخرى تقيه شر العوز لعدة اشهر ، وتسمح له بالاستمرار في المساومة لبيع محفوظاته .

في شباط/فبراير او آذار/مارس ١٩٣٩ ، استأجر بيتاً في آفينيدا فيينا ، في الضواحي البعيدة لكويواكان ، حيث الشارع الطويل يغدو فارغاً ومليئاً بالصخور والغبار ، مع بعض الاكواخ البائسة المبعثرة من الجانبين . كان البيت قديماً ومبنياً بشكل فظ ، لكنه كان قوياً نسبياً وواسعاً ، قائماً على ارض مستقلة ومفصولة عن الطريق والجوار بجدران سميكة . وما كاد آل تروتسكي يرتبون مسكنهم حتى شاع الخبر بأن الغيبيو على وشك شراء الارض . فاضطر تروتسكي لشرائها هو ، منعاً لحصول ذلك، رغم انه اضطر للاستدانة من اجل القيام بهذه العملية العقارية ، الاولى في حياته . لكن يبدو انه كان ضروريا ، بسبب التهديدات المتواصلة باعمال عنف من جانب الستالينيين ، تحصين البيت . هكذا اقيم فيما بعد برج حراسة على بوابة الدخول . في كل حال ، جرى تصفيح الابواب سريعاً ، وتجهيزها بمزاليج قوية ، وكدست اكياس رمل ازاء الجدران ووضعت اشارات انذار . ليل نهار ، كان خمسة من رجال الشرطة يحرسون في الشارع وثمانية الى عشرة تروتسكيين يحرسون في الداخل . كان التروتسكيون يعيشون في المكان ، وبعد نوبة حراسة على المدخل ، كانوا يعملون كأمناء سر ، ويشاركون في النشاطات المنزلية ، وبخاصة في المناقشات التي كانت تتم بانتظام في المساء ، الا اذا حوَّل وصول زائرين النهار الى فترة مناقشات .

كان الزائرون في بعض الاحيان لاجئين سياسيين من اوروبا ، لكنهم كانوا في الغالب اميركيين ، مربين راديكاليين ، واساتذة ليبراليين ، وصحفيين ، ومؤرخين ، واحياناً اعضاء في الكونغرس أو شيوخاً ، وبالطبع تروتسكيين . وكانت المناقشات تتدرج من الديالكتيك والسوريالية الى وضع السود في اميركا ، ومن الاستراتيجية العسكرية الى الزراعة الهندية والمشكلات الاجتماعية في البرازيل والبيرو . وكل زائر كان مصدر معرفة جديدة بالنسبة لتروتسكي الذي كان يستمع ويسأل ويدوّن ملاحظات ، ويناقش ثم يسأل من جديد . لم يكن يبدو ان ثمة

حدوداً لفضوله وقدرته على استيعاب الوقائع . وقد كانت راحة البال التي يستقبل بها غرباء تضايق حراسه ، لكنهم لم يكونوا يستطيعون شيئاً بمواجهة ذلك . فقط حين انتقل فضوله الى الجوار المباشر ، والقى نظرات خفية على الاكواخ التي كانت في الجهة المقابلة من الطريق ليرى كيف يعيش فيها الناس ، وما يفكرون بصدد الاصلاح الزراعي ، حينئذ فقط اوقفه حراسه . اعتبروا انه يخاطر اذ يقوم بنزهات طويلة في الريف بحمايتهم اقل مما اذا تجاوز المدخل وتاه في الخارج ، في الجوار المباشر للمنزل .

كان ينبغي القيام بالنزهات الريفية فجأة وبسرية تامة . كان يمضي عموماً داخل سيارة ، بصحبة ناتاليا وصديق والحراس ، وحين كان يجتاز مكسيكو كان عليه ان ينزل في مقعده ويغطي وجهه ، والا كان يتعرف عليه الجمهور المار على الرصيف فيحييه او يزعق بوجهه . تماماً كما في الماآتا وبرنكيبو ، كانت نزهاته جولات عسكرية ، تنطوي على الكثير من المسيرات ، وعمليات التسلق وصرف الطاقة. ولما لم تكن ثمة مناسبات كثيرة للصيد او القنص ، فقد نمّى هواية جديدة : راح يجمع انواعاً من الصبّار الضخم والنادر على الجبال المغطاة بالحصى التي لها شكل الهرم . كان لا يزال يتمتع ، حين لا يكون مريضا ، بمقدار كبير من القوى الجسدية ، مع ان شعره الابيض ووجهه المجعّد كثيراً كانا يعطيانه مظهر من شاخ باكراً . وكان احتفظ أيضاً بمشيته العسكرية ، فيسير بخطوات سريعة بحيث يكاد يلحق به الاقوى بين حراسه ، حين كان يتسلق منحدراً صعباً ، وعلى ظهره حملٌ من الصبار الثقيل « المشكوك بالحراب». كتب احد امناء سره : « صحبنا مرة بعض الاصدقاء الى تامازونشال على مسافة حوالى ٣٨٠ كم من كويواكان ، املاً باكتشاف نوع خاص من الصبار . وقد فشلنا في ذلك ، لكن في طريق العودة ، قرب مكسيكو ، لاحظ ل.د. Vizna gas ، فقرر التوقف وجمع حمل منها ، رغم الليل الذي كان قد هبط قبل ان نصل الى ذلك المكان . كان الليل لطيفاً للغاية ، وكان ل.د. مرح المزاج ، يذهب ويجيء بحيوية ما بين المجموعة الصغيرة ، مقتلعاً صباراً على ضوء مصباحي السيارة[١١٦]

---

١١٦ كارل ماير ، ليف دافيد وفيتش في Fourth international ، آب ١٩٤١ ، شارلز كورميل ، مع تروتسكي في مكسيكو ؛ المرجع ذاته ، آب ١٩٤٤ ، إ. روسمر في الملحق ٢ للطبعة الفرنسية لكتاب حياتي ، لتروتسكي .

وغالبا ما كان على صحبه ان يتبعوه في حرارة شمس شديدة ، حين كان يتسلق الوعر وقامته بارزة بوضوح على خلفية من الصخور ، متدثرة ببذلة زرقاء لفلاح فرنسي ، بينما شعره الكث الابيض يتبعثر في الريح . وكانت ناتاليا تنكده فتسمي تلك الطلعات **أيام الاشغال الشاقة** ،

« كان في حالة جنون مؤقت ـ حسبما تتذكر ـ اول من يبدأ العمل وآخر من يمضي . . وكما لو كان مندفعا ، في نوع من التنويم المغناطيسي ، **لانجاز ما كان يقوم به**[117] . »

الا انه مع مضي الوقت وازدياد عنف التهديدات الستالينية ، بدت تلك الطلعات اكثر فاكثر خطراً . غدا كل وجود تروتسكي مضغوطا داخل جدران ما كان نصف ساحة نصف سجن . وقد انعكس ذلك حتى في طريقة ممارسته للرياضة البدنية ، وفي هواياته . شرع يغرس انواع الصبار الاكثر غربة في بستانه الكبير ويربي فراخاً وارانب في الفناء . لكن حتى في هذه الانهماكات البيتية الحزينة ، بقي منهجياً بشكل دقيق . كان يمضي كل صباح وقتاً لا بأس به وهو في الفناء يطعم الارانب والفراخ ، وفقاً للصيغ « العلمية الدقيقة » معتنياً بها ومنظفاً اقفاصها وحجراتها .

« وحين كانت صحته سيئة ـ تقول ناتاليا ـ كان اطعام الارانب بالنسبة اليه يستلزم جهداً ممضاً ، لكنه لم يكن يستطيع التخلي عنه لأنه كان يشفق على تلك البهائم الصغيرة » .

كم كان ماضيه الصاخب ، الذي هز العالم يبدو له الآن بعيداً ، فائق البعد ! وكم كانت عزلته وعزلة ناتاليا قاسية ممضة ! نادراً ، نادراً جداً ما كان وجه او صوت ينبثق من ذلك الماضي ، لكن فقط لجعله يحس بأنه لا شيء من كل ذلك يمكن ان يستعاد او يبعث حياً . في تشرين الاول/اكتوبر **١٩٣٩** ، وصل الفرد ومارغريت روسمر اخيراً الى كويواكان . كانا الصديقين الوحيدين لتروتسكي من فترة الحرب العالمية الاولى اللذين بقيا على قيد الحياة ، وقد بقيا معهما في افينيدا فيينا ، خلال ثمانية اشهر تقريباً ، حتى نهاية ايار/مايو **١٩٤٠** . وخلال تلك الفترة امضوا ساعات كثيرة يتحادثون ويسترجعون ذكريات حميمة . تصفح

---

١١٧ ـ ناتاليا سيدوفا في **Father and son** ، الاممية الرابعة ، آب ١٩٤١ ، وفي حياة ليون تروتسكي وموته .

تروتسكي وروسمر معاً المحفوظات ، فارزين اياها ، ومتأملين في وثائق قديمة . وفي بعض الاحيان كان محارب قديم آخر ، هو اوتو روهل ، اللاجىء ايضاً في مكسيكو ، ينضم اليهما . كان روهل - كما نتذكر - قد تميز خلال الحرب العالمية الاولى لأنه كان واحداً من الاشتراكيين الاثنين في الرايخستاغ (كان الآخر هو كارل ليبكنخت) اللذين صوّتا ضد الحرب . وكان واحداً من المؤسسين العديدين للحزب الشيوعي الالماني واحد المنشقين الاوائل الذين قطعوا علاقتهم به . وفي المهجر ، كرس نفسه لدراسة حول ماركس ، ونحى نفسه عن كل نشاط سياسي ، الا انه وافق على ان يكون عضواً في لجنة ديوي للتحقيق . ومنذ المحاكمة المضادة ، اصبح احد المترددين باستمرار على البيت الازرق ، ثم على الآفينيدا فيينا . وتروتسكي ، الذي كان يحترم علمه ، كان يكنّ له صداقة حارة ويبذل كل ما في وسعه لمساعدته . هكذا اصدرا معاً the living thoughts of Karl Marx[١١٨] .

في ايام الحرب الاولى ، رجعت افكار الرجال الثلاثة الى الفترة التي انخرطوا جميعهم خلالها في المعارضة الثورية للحرب ، فترة حركة زيمرفالد . وقد اقترح تروتسكي (كاتب بيان زيمرفالد) اصدار بيان جديد يؤكد استمرارية الموقف الثوري خلال الحربين العالميتين ويرمز اليها . وايد روسمر ذلك ، لكن لما كان روهل يختلف معهما في بعض النقاط ، ولم يعد يسمح لنفسه ، في كل حال ، بأن يجربه العمل السياسي ، جرى التخلي عن فكرة بيان زمرفالد جديد . كان الماضي بعيداً جداً بحيث لا يمكن الرد عليه ولو بصدى .

كان سيفا قد وصل مع آل روسمر الى كويواكان ، وقد غمر تروتسكي وناتاليا حفيدهما المستعاد بالمحبة والحنان . كان قد مضى الآن سبعة اعوام تقريباً على مغادرته لهما في برنكيبو . عاش الولد كل تلك السنوات في المانيا والنمسا وفرنسا ، وغيّر القيّم عليه والمدرسة واللغة ، ونسي الروسية تقريباً . كما لو كانت مأساة جده الهائلة معكوسة في عالم طفولته الصغير : ما كاد يغادر المهد حتى

---

١١٨ - كان تروتسكي نصح الناشرين الاميركيين لونغمان غرين وشركاه بان يطلبوا الى روهل، الذي كتب سيرة لحياة ماركس ، ان يكون المؤلف الوحيد لهذا الكتاب ، مؤكداً لهم انه ، بعد ريازانوف ، كان روهل اكبر علّامة حي في ميدان الماركسية . وقد وافق الناشرون على ان يختار روهل النصوص للطبع ويعدها له ، لكنهم الحوا على ان يكتب تروتسكي المقدمة .

انتُزع منه ابوه ، ولم يكد ينضم مجدداً الى امه في برلين حتى عمدت للانتحار ، ثم ان ليوفا ، الذي اخذ مكان والده ، توفي فجأة وبشكل غامض ، واصبح الولد مدار نزاع عائلي ، واختطف واخفي واستعيد الى اللحظة التي اعيد فيها الى جده الذي كان يكاد يتذكره ، والذي تربى في جو توقيره . والآن ، كان اليتيم المبلبل يتطلع ، بصورة مهتزة، الى المنزل الغريب الذي جيء به اليه ، والذي يشبه حصناً ، والممتلىء دائماً بالناس ، منزل كان قد اصبح يحمل علامة الموت .

خلف الضيفين اللذين لقيا أشد الترحيب بين الجميع ، الزوجين روسمر ، سوف يتسلل ظل مشؤوم ، ظل رامون ميركادير ، «جاكسون». كان هذا صديق سيلفيا أجيلوف ، التروتسكية الاميركية التي حضرت كونفرنس تأسيس الاممية الرابعة في بيت آل روسمر . ويدعي البعض ان جاكسون قُدِّم آنذاك ، أو بعد قليل ، الى آل روسمر ، وانه مذاك سعى برزانة وراء صحبتهما وقدم لهما العديد من الخدمات الصغيرة ، بالتجرد الاكثر كلية . الا ان تكذيب روسمر جازم بصدد هذه النقطة ، وقد اكد انه لم يلتق الرجل الا في مكسيكو ، وأيد جاكسون ذاته هذه الرواية(١١٩) . كان جاكسون يسعى ليظهر ، بصورة مقنعة اقناعاً كافياً ، بمظهر رجل الاعمال غير المهتم بالسياسة ، والرياضي والعيّاش . وقد اتى الى مكسيكو في الفترة التي وصل فيها آل روسمر الى هناك ، وذلك بصفة عميل شركة نفط ، كما يبدو . الا انه بقي متنحياً ، وانقضت اشهر عديدة قبل ان يسعى لبلوغ البيت المحصّن في افينيدا فيينا . لكنه كان يعد نفسه لانجاز مهمته الرهيبة .

كان كتاب تروتسكي ، بعنوان ستالين ، الكتاب الوحيد الكامل ، والاخير ، الذي اشتغل عليه في تلك السنوات . ولما كان تم نشره بعد الوفاة ، فهو يضم سبعة فصول مكتملة جُمعت إليها شذرات متنوعة تولى ترتيبها واكمالها والربط فيما بينها احد الناشرين ، دون ان يكون ذلك دائماً بالتوافق مع المنحى العام لفكر تروتسكي. لذا ليس ثمة ما يدهش في كون كتاب تروتسكي يفتقر الى النضج والتوازن اللذين نجدهما في مؤلفاته الأخرى . لكن حتى لو عاش ما فيه الكفاية لاعطائه شكله النهائي ولأن يزيل من مسوّداته الأولى العديد من الصياغات التقريبية او التأكيدات المبالغ بها ، ربما ظل المؤلف الاضعف بين مؤلفاته .

١١٩ - انظر أ. روسمر Une mise aupoint sur L'assassinat de L.Trotsky في La Révolution Prolétarienne ، العدد ٢٠ ، نوفمبر ١٩٤٨ ، انظر ايضاً افادة جاكسون في أ . غولدمان ، اغتيال ل . تروتسكي ص ١١ - ١٥ ، و٢٥ .

لم يكن تروتسكي يدرك إطلاقاً أنه يخفض منزلته بعض الشيء إذ يضطلع بدور رسّام لشخصية خصمه وعدوه . لم يجد يوماً اي عمل ادبي أو صحفي دون قدره ، شريطة أن يتمكن من تنفيذه بضمير حي . ويقال أن ناشريه حثوه على كتابة هذه السيرة عن حياة ستالين وإن الضرورات المالية اجبرته على الاستجابة . الا ان الدلائل لا تثبت هذا الزعم كلياً ، فالناشرون كانوا يشددون ، بالقدر ذاته ، إذا لم يكن اكثر ، على أن ينجز سيرة حياة لينين التي كان وعد بإنجازها[١٢٠] . وإذا كانت الحاجة الى المال لعبت دوراً ودفعته الى ان يعطي الاولوية لكتابه ستالين ، فإن الحافز الذي دفعه للعمل بقي مع ذلك ، في جوهره ، فنياً وأدبياً . كان يرغب بشدة في ان يعيد تقويم شخصية ستالين على الضوء الحديث والشرس للتطهيرات ، وكان الافتتان بهذه المهمة أقوى من كل كبرياء أو غرور يمكن ان يحول بينه وبين أن يصبح كاتب سيرة ستالين . إن طبع هذا الاخير الرئيسي كسوبر ـ قايين ، الذي كان يتكشف الآن ، كان تروتسكي يجهله ألى حدٍّ ما . كان يتفحص من جديد ملامح ستالين ، ينقبّ في أعماق محفوظاته ويبحث في ذكرياته عن تلك المشاهد ، وهذه الحوادث وتلك الانطباعات التي كان يبدو الآن أنها تتخذ مظاهر جديدة ومعاني جديدة . نقّب بريبة صارمة في الزوايا والشقوق المعتمة لتاريخ ستالين ، واكتشف في كل مكان الكائن الشرير ذاته ، او اعاد اكتشافه . وخلص الى استنتاج ان قايين التطهيرات الكبرى كان هناك في كل الأوقات ، مختبئاً تحت صفة العضو في المكتب السياسي ، ولدى البلشفي لما قبل عام ١٩١٧ ، ولدى المحرض في عام ١٩٠٥ ، وحتى لدى التلميذ في معهد تفليس للاهوت والولد سوزو . وقد رسم الوجه المشؤوم ، والشرير ، الشبيه بالقرد تقريباً الذي يخط طريقه خلسة باتجاه أرفع موقع في السلطة . هذا الوجه الخشن ، غير المتوازن ، وغير الواقعي أحياناً ، يستمد ميزته الفنية من قوة الشغف التي تحركه . إنه يمثل الجذع المبتور لمسخ مرعب .

لا مجال أطلاقاً للشك في أن تروتسكي يعالج الوقائع والتآريخ والاستشهادات ، حتى هنا ، بالضمير اليقظ الذي يحمله الى عملة التاريخي

(١٢٠) انظر مراسلة تروتسكي مع كورتيس براون ، الوكالة الادبية . المحفوظات ، القسم المقفل .

المعتاد . يرسم خطأً واضحاً يفصل بين الوقائع الثابتة والاستنتاجات والتخمينات والمسموعات ، بحيث يستطيع القارىء أن يصفي هذه الكتلة الضخمة من المادة السيرية ويكوّن رأيه الخاص به . ويصل تحذلق تروتسكي الى درجة ان طريقته في التقصي والعرض تكرارية ومتعبة الى حد خارق . مسلحاً بعدد هائل من الاستشهادات والوثائق ، تراه يساجل ملء وقته مع مجموعات من متملقي ستالين وبطانته ، دون أن يدري أنه يمنحهم بذلك الكثير من الشرف غير المتوقع . إلا انه إذ يرسم الصورة ، يستخدم بغزارة وفي الغالب مادة مؤلفة من الاستدلال والتخمين والاقاويل . يلتقط كل ما يشاع او يُسمع إذا كان يكشف ملمحاً من ملامح القسوة أو يوحي بالغدر لدى الفتى (جوغاشفيلي .) ويصدق رفاق ستالين في المدرسة الذين اصبحوا فيما بعد اعداءه ، الذين يعلنون في مذكراتهم المتعلقة بطفولتهم (مذكرات كتبت في المنفى ، بعد ثلاثين عاماً او اكثر احياناً على وقوع ما يوردونه) ان الولد سوزو لم يكن يتلقى الا بالسخرية أفراح رفاقه واحزانهم ، وانه لم يكن يعرف شفقة تجاه الناس والحيوانات ، وكأن الانتقام قد أصبح لديه ، منذ صباه ، الهدف الأقصى لكل جهوده . يستشهد بخصوم ستالين ، الذين يصفون الشاب والرجل الناضج كما لوكان عميلاً استفزازياً ، ومع ان تروتسكي لا يقبل الاتهام ، الا انه يوليه نوعاً من الاهتمام ، لأنه يُظهر على ماذا كان ستالين قادراً في نظر رفاقه القدامى[١٢١] .

وليس من حاجة لإيراد العديد من الامثلة على هذه الطريقة في تصور الأمور . إن الأكثر إدهاشاً هو بالطبع ايحاء تروتسكي ، المذكور في مكان سابق ، بأن ستالين سمّم للينين . يروي انه في شباط / فبراير **١٩٢٣** ، كان لينين يريد الانتحار بعد أن أصيب بالشلل وفقد القدرة على النطق ، وطلب السم من ستالين . ستالين ذاته أسرَّ بذلك الى تروتسكي كما إلى زينوفييف وكامينيف . وهو يتذكر التعبير الغريب الذي كان بادياً آنذاك على وجه ستالين ، ويوجه هذا الاتهام مستنداً الى واقع ان موت لينين ، بعد عام ، تم بصورة غير متوقعة ، والى ان النزاع في تلك الفترة بين ستالين ولينين كان من الحدة بحيث اتخذ ستالين على الأرجح قراره بتسريع موت لينين .

---

(١٢١) تروتسكي ، ستالين ، ص ١١ ـ ١٢ ، ٥٣ ، ١٠٠ ، ١١٦ ، و١٢٠ .

« لا أدري إذا كان ستالين ارسل السم الى لينين بعد أن لمَّح الأطباء إلى فقدان الأمل بشفائه ، او إذا كان لجأ ألى وسائل اكثر مباشرة . لكنني مقتنع كلياً بأنه ما كان يمكن ان ينتظر ستالين مكتوف اليدين في حين يتوقف مصيره على خيط رفيع ، والقرار على حركة صغيرة ، بالغة الصغر ، من يده[١٢٢] »

وهنا يقدم تروتسكي ، في سياق جديد startingly القصة التي رواها مراراً عديدة من قبل ، حول كيف ناور ستالين ليبقيه ، اي تروتسكي ، بعيداً عن موسكو خلال جنازة لينين :

« يمكن أن يكون خشي أن اربط بين وفاة لينين ومحادثة العام السابق حول السم ، وأستجوب الاطباء لمعرفة اذا كان يمكن أن يتعلق الأمر بتسميم ، وأطلب تشريحاً خاصاً . »

ويتذكر أنه عند عودته الى موسكو بعد الجنازة لم يكن الأطباء يعرفون ما يقولونه بصدد وفاة لينين . وانه حتى بعد سنتين أو ثلاث سنوات ، كان زينوفييف وكامينيف يتحاشيان كل نقاش يتعلق بذلك ويردان على اسئلة تروتسكي بـ « كلمات من مقطع واحد وفيما يتحاشيان نظرتي » . إلا أنه لا يقول لنا إطلاقاً إذا كان الاشتباه ـ او الاقتناع ـ بذنب ستالين قد ورد في ذهنه عام ١٩٢٤ ، أو إذا اتخذ شكله فقط بعد التطهيرات ، وبعد أن جرى اتهام ياغودا واطباء الكرملين باستخدام السم في دسائسهم القاتلة . واذا كان تولد لديه ذلك الاشتباه او الاقتناع عام ١٩٢٤ ، لماذا لم يتكلم عليه قبل عام ١٩٣٩ ؟ ولماذا بعد موت لينين ، وصف ستالين لماكس ايستمان بالذات كثوري شجاع وصادق ؟ حتى في هذه السيرة الاتهامية ، لا يزال تروتسكي يعبر عن الرأي القائل بأن ستالين ما كان فجَّر يوماً الصراع داخل الحزب لو انه توقع الى أي تمخضات دموية سوف يؤدي[١٢٣] . وهو بذلك لا يزال ينظر إلى ستالين في عام ١٩٢٤ كرجل شريف في الأساس ، وإنْ قصير النظر ، ما كان يمكن أن يسمّم لينين . هكذا تضاربات توحي بأن تروتسكي إذ يتهم ستالين بهذه الجريمة الخاصة يعكس تجربة

---

(١٢٢) المرجع المذكور ، ص ٣٧٢ ـ ٣٨٢ .

(١٢٣) المرجع المذكور ، ص ٣٩٣ ، وماكس ايستمان ، Since Lenin Died ، ص ٥٥

التطهيرات الكبرى على سنتي ١٩٢٣ ـ ١٩٢٤ ، ويخلص الى ان ستالين ، جلاد كل تلامذة لينين ، كان قادراً بالتأكيد على قتل لينين ايضا ، وقد فعل ذلك . إلا ان من الصعب ألا نتساءل اذا كان لغز موت لينين ، وشبهة السلوك غير الاخلاقي ، ومكائد ستالين لتحاشي تشريح للجثمان ، ليست في هذه القصة ظروفاً عديدة منقولة عن قصة موت ليوقا .

لا شك ان شخصية ستالين تضع اي كاتب للسيرة امام هذه المشكلة الصعبة . فمن المسلَّم به ان طبعه كان عنصراً حاسماً في التطهيرات وان مهمة كاتب السيرة هي بالضبط في تتبع تكوُّن هذا الطبع ، وابراز متى في نعومة اظفاره ، في اي طور والى اي حد ، تكشفت ميوله . الا ان هذه المهمة لا تختلف ابداً عن تلك التي على الدارس الذي يحلل مجرى حياة مجرم أن يحلها . فاحتمال عمل اجرامي يمكن ان يكون قائماً في طبع معيَّن في طور مبكر كفاية ، لكن لا يجب تقديمه كواقع قبل أن يصبح حقيقة بالفعل . صحيح ان طبعاً متشككاً وكتوماً إلى ابعد الحدود ، وتوقاً الى السلطة شديداً وسريع الامتعاض ، ظهرا لدى ستالين قبل صعوده بزمن طويل . إلا أن هذه لم تكن خلال سنوات طويلة غير ميزات ثانوية . وعلى كاتب السيرة ان يتعامل معها بنوع من حس التناسب ، ويأخذ بالحسبان دينامية الشخصية والتفاعل المهم الى ابعد الحدود بين الظروف والطبع . وستالين الذي يقدمه لنا تروتسكي غير محتمل التصديق ، بمقدار ما يظهر لديه كما لو كان ، في ١٩٣٦ ـ ١٩٣٨ ، هو ذاته الذي كان عام ١٩٢٤ وحتى عام ١٩٠٤ . لا نرى المسخ يتكون وينمو ويبزغ : انه مكتمل تقريباً منذ البدء . لا تظهر اطلاقاً أي صفات او انفعالات أفضل ، من مثل الطموح الفكري ودرجة من التعاطف مع المضطهدين ، وهي امور لا ينضم أي شاب ، بدونها ، الى حزب ثوري يتعرض للاضطهاد . ليس صعود ستالين في الحزب ناجماً عن الجدارة او المنجزات ، وبذلك لا يعود بالامكان تقريباً تفسير نجاحه . ويبدو انتخابه لمكتب لينين السياسي ووجوده في الحكومة البلشفية الضيقة وتعيينه أميناً عاماً ، أموراً عرضية بالكامل . إن تروتسكي بالذات يختصر طريقته بتصور الامور في جملة واحدة :

« لقد تمت سيرورة صعود ستالين في مكان ما خلف ستار سياسي لا يمكن النفاذ عبره . في لحظة ما ، اجتاز وجهه فجأة جدار الكرملين ،

في لباس السلطة الكامل[١٢٤] . . . »

إلا أنه حتى استناداً الى افشاءات تروتسكي بالذات ، يبدو أن ستالين لم ينتقل الى الواجهة بهذا الشكل ، وأنه كان بعد لينين وتروتسكي الرجل الاكثر نفوذاً في مجالس الحزب الداخلية ، على الأقل منذ عام ١٩١٨ ، ولم يكن صدفة أن لينين وصف ستالين في وصيته كأحد الرجلين الأكثر قدرة في اللجنة المركزية .

ككاتب سيرة بقدر ما كقائد للمعارضة ، بخس تروتسكي قدر ستالين والقوى والظروف التي اكسبته حظوته . لاحظ بحق ان

« المقارنة الرسمية الشائعة التي تضع ستالين على مستوى لينين هي ببساطة عديمة اللياقة »

واضاف :

« إذا كانت قاعدة المقارنة اتساع الشخصية ، يستحيل حينئذ وضع ستالين حتى بجانب موسوليني او هتلر . فمهما تكن هزيلة « أفكار » الفاشية ، فإن الزعيمين الظافرين للرجعية ، الايطالي والالماني ، أبديا منذ بداية حركتيهما مبادرة ، واستنهضا الجماهير للعمل ، وفتحا طرقاً جديدة عبر الغابة السياسية . ولا شيء من هذا القبيل يمكن ان يقال عن ستالين » .

هذه الكلمات كتبت في حين كان الاتحاد السوفياتي يدخل العقد الثاني من الاقتصاد المخطط . وحتى آنذاك ، كان رنينها غير واقعي الى حد ما ، لكنه أضحى وهمياً بالكامل ، حين امكن النظر ، بعد سنوات ، الى دور ستالين على خلفية الحرب العالمية الثانية وانعكاساتها . ويواصل تروتسكي :

« اذا حاولنا ان نجد شبيهاً تاريخياً لستالين ، لا يجب علينا ان نستبعد كرومويل وروبسبيير ونابوليون ولينين وحسب ، بل حتى موسوليني وهتلر ايضا . ربما أمكننا أن نقارب ، أكثر ، فهماً لستالين بالتفكير

---

(١٢٤) تروتسكي ، المرجع المذكور ، ص ٣٣٦ .

بمصطفى كمال باشا ، أو بورفيريو دياز . »[١٢٥] .

إن في غياب المقياس والمنظور التاريخيين هنا شيئاً ما مدهشاً ومضايقاً .

لا شك ان ما يوجه ريشة تروتسكي في مقاطع كهذه انما هو غضبه المستشاط وقرفه إزاء فظاعات عبادة ستالين . أنزل إلى حد ادنى من الحجم الطبيعي المستبدَّ الذي نفخ نفسه الى حد بلوغ قامة السوبرمان ، الطاغية الذي جعل من نفسه الهاً . واذ فعل تروتسكي ذلك فتح الطريق ، إذا شئتم ، لأولئك الذين سوف يسقطون ، بعد سنوات طويلة ، نُصُب ستالين الى الارض ، وينتزعون جثمانه من ضريح الساحة الحمراء ، ويمحون اسمه من على لوحات الشوارع والساحات ، وحتى يعيدون تسمية ستالينغراد باسم فُولغا غراد . وإذ كان تروتسكي يحدس بكل هذا بصورة واعية ، فقد ذكر بأنه جرى كذلك تأليه نيرون ، لكن

« بعد موته جرى تحطيم تماثيله ومحو اسمه من كل مكان . إن انتقام التاريخ أرهب من انتقام الامين العام الاكثر قوة ، وأجرؤ على التفكير بأن هذا ينطوي على تعزية »[١٢٦] .

وإذا كان تروتسكي على وشك أن يطعنه غدر ستالين الأقصى ، تراه يستمتع بدينونة التاريخ القريبة وبانتصاره هو من وراء القبر . يعد لذلك العقاب بكلمات وزنها كاف لتفيد كنصوص تدعم حكم الاجيال القادمة . ينظر الى ستالين كرمز لفراغ شاسع ، كناتج حقبة انحلت خلالها الاخلاق الملازمة للنظام الاجتماعي القديم ، بينما لم تتمكن الاخلاق الجديدة بعد من ان تتكون :

« **أنا الدولة** ، تكاد تكون صيغة ليبرالية إذا قيست بحقائق نظام ستالين الكلياني . كان لويس الرابع عشر يماثل نفسه بالدولة والكنيسة ، لكن فقط خلال عصور السلطة الزمنية . ان الدولة الكليانية تمضي ابعد بكثير من القيصرية ـ البابوية . . يمكن ستالين ان يقول بحق ، خلافاً للملك الشمس ، **أنا المجتمع** . »

وهوذا كيف ينقل الينا تروتسكي ، بواسطة حكمة بسيطة معبرة ، كامل التوتر

(١٢٥) المرجع المذكور ، ص ٤١٣ .

(١٢٦) المرجع المذكور ، ص ٣٨٣ .

المأساوي بين ستالين والبلاشفة القدامى :

« من بين رسل المسيح الاثني عشر ، كان يهوذا الخائن الوحيد .
لكن لو انه استولى على السلطة ، لأعلن الأحد عشر رسولاً خونة ،
ومعهم الرسل الاقل أهمية وهم وفقاً للوقا سبعون(١٢٧) .

يمكن تعليقات تروتسكي بشأن الاحداث التي تقود إلى الحرب ، وحول منظورات الحرب والثورة ، أن تكون موضوع دراسة احادية خاصة . فلدى قراءة هذه الكتابات ، يصعقنا اكثر من اي وقت مضى التضاد القائم بين تحليلاته الصافية والتي لا عيب فيها تقريباً للعناصر الاستراتيجية والدبلوماسية في الوضع العالمي ورؤيته المبلبلة لمنظورات الثورة . كان يرى في الحرب العالمية الثانية استمراراً للحرب العالمية الاولى ، وامتداداً لصراع القوى الامبريالية العظمى لأجل تقسيم جديد للعالم . في فترة ازمة ميونيخ ، كان يرى « قوة هتلر وضعفه في .. سهولة استعماله . . . التهويل والخداع وفي المخاطرة بالحرب » ، بينما القوى الاستعمارية القديمة التي لا شيء أمامها لتكسبه بل أشياء كثيرة تخسرها، ترتعب إزاء فكرة نزاع مسلح . « إن شامبرلين قد يتخلى عن كل ديمقراطيات العالم - ولم يبْقَ الكثير منها - من اجل عُشْر الهند . » كان يرى ان اتفاقات ميونيخ سرَّعت اندلاع الحرب ، ونجاحات فرانكو في اسبانيا فعلت الشيء نفسه بمقدار ما كانت تثلج صدور الحكومات البورجوازية مخلِّصة اياها من الخوف من ثورة في اوروبا . كان لسياسة ستالين ، هي ايضاً ، الاثر نفسه : حين كان يصفي الحركة العمالية ، كما لو يتعلق الامر بالنفط او بالمانغنيز ، كان يساعد هو ايضاً الرأسمالية على استعادة ثقتها بذاتها(١٢٨) . لكن الموقف الحاسم كان موقف الولايات المتحدة ، لأن شامبرلين وستالين كانا يخافان ، كلاهما ، التورط في حرب ضد هتلر طالما بقيت الولايات المتحدة بعيدة عن اي انخراط . ومع ذلك ،فكقوة امبريالية قيادية

(١٢٧) المرجع المذكور ، ص ٤١٦ - ٤٢١ .

(١٢٨) في مقال بتاريخ ٢٢ ايلول / سبتمبر ١٩٣٨ ، .B.O ، العدد ٧٠ ، كتب تروتسكي : « يمكن التأكد منذ الآن من أن الدبلوماسية السوفياتية ستحاول التقارب مع المانيا . . . سوف تعطي التسوية المحققة على جثة تشيكوسلوفاكيا . . هتلر قاعدة أكثر ملاءمة لشن الحرب. سوف تدخل طيرانات شامبرلين الى ميونيخ في التاريخ كرمز التشنجات الدبلوماسية التي عاشتها اوروبا الامبريالية ، المنقسمة والجشعة والعاجزة عشية حمام الدم الجديد الذي يتهيأ لكوكبنا » . انظر ايضاً .B.O اعداد ٧١ - ٧٤ ، ٧٥ - ٧٦ .

على الصعيد العالمي، وريثة للمكانة التي شغلتها بريطانيا حتى ذلـك الحين، لم يكن بوسع الولايات المتحدة ان تبقى انعزالية. كانت لها مصلحة حيوية في وقف توسع الامبرياليتين اليابانية والالمانية. وستضطر للانضمام الى الحرب العالمية الثانية، مبكرةً اكثر بكثير مما خلال الحرب العالمية الاولى. كانت الولايات المتحدة معدة ايضاً للعب دور اكثر حسماً بكثير في تحقيق السلام، لأنه « **إذا لم يعقد السلم على قاعدة الاشتراكية، فسوف تملي الولايات المتحـدة الظافـرة شروط السلام** ».

يمكن ان نتخيل بسهولة التشهيرات المدوية التي استقبل بها تـروتسكي المعاهدة الالمانية - السوفياتية في آب / اغسطس ١٩٣٩. لقد كشف سيد التطهيرات الكبرى عن نفسه الآن بصورة علنية كشريك لهتلر. منذ عام ١٩٣٣، كان تروتسكي يردد انه لا شيء يناسب ستالين افضل من تسوية مع هتلر. والآن بعد أن قُطع رأس الجيش الاحمر، كان خوف ستالين من ضعفه قد رمى به بين ذراعي هتلر « وفي حين يخوض هتلر عملياته العسكريـة، يلعب ستالين دور معتمده »، هذا ما لاحظه تروتسكي منذ الايام الاولى للحرب[١٢٩]. إلا أنـه اضاف ان هدف ستالين لم يكن تسهيل انتصار الرايخ الثالث، بل ابقاء الاتحاد السوفياتي خارج الحرب اطول وقت ممكن، والحصول في غضون ذلك على اطلاق يده في دول بحر البلطيق، وفي البلقان. وحين بادر ستالين وهتلر، وسط تصفيق الكومنترن، الى تقسيم بولندا، علق تروتسكي كما يلي: « سوف تبعث بولندا حية، أما الأممية الثالثة فلا». لكن حتى في هجماته الاكثر حدة ضد افتقاد ستالين المبادىء وضد سخريته، لم يكن يلقي كل اللوم على ستالين، بل كان يردد ان « مفتاح سياسة الكرملين موجود في واشنـطن. وانه اذا كـانت تريـد الولايـات المتحدة ان ترى ستالين يبدل اتجاهه، عليها أن تلقي بكامل وزنها في الكفة المضادة لهتلر. وكرر الفكرة ذاتها خلال حرب شتاء ١٩٣٩ - ١٩٤٠، معلناً انه اذ تتحاشى فرنسا وبريطانيا كل نوع من الصدام العسكري الحقيقي مع المانيا فهما تقومان بنوع من « الاضراب العسكري » ضد الولايات المتحدة. في الشرق كما في الغرب، كان يجري تشجيع هتلر على غزو اوروبا. كانت الحكومتان البولندية والتشيكية قد فرّتا الى فرنسا وفي ٤ كانون الاول / ديسمبر ١٩٣٩، قبل

---

(١٢٩) إن المقال، ستالين معتمد هتلر، مؤرخ في ٢ ايلول / سبتمبر ١٩٣٩، الثالثة صباحاً. المحفوظات.

اشهر من انهيار فرنسا ، كتب تروتسكي : « من يدري اذا كانت الحكومة الفرنسية لـن تطلب اللجوء الى بريطانيا ، هي والحكومات البلجيكية والهولندية والبولندية والتشيكوسلوفاكية ؟ » لم يكن يقبل « حتى لحظة واحدة » احتمال انتصار نازي : « لكن قبل ان

تحين ساعة هزيمة هتلر، سيكون عدد الذين سيجري تكنيسهم في اوروبا كبيراً، كبيراً جداً. ولا يريد ستالين ان يكون من بينهم . ذلك هو السبب في أنه يهتم كثيراً بأن لا ينفصل عن هتلر باكراً جداً(١٣٠) » .

حين استسلمت فرنسا ، واوروبا بمجملها تقريباً ، امام قدرة هتلر العسكرية ، ندد تروتسكي بستالين والكومنترن لانهما ساهما في التسبب بهذه الكارثة :

« لقد خدعت الاممیتان الثانية والثالثة . . الطبقة العاملة وافقدتاها معنوياتها . فبعد خمس سنوات من الدعاوة لصالح تحالف الديمقراطيات والامن الجماعي وبعد انتقال ستالين المفاجىء الى معسكر هتلر، أخذت الطبقة العاملة الفرنسية على حين غرة . تسببت الحرب ببلبلة رهيبة ، وولّدت جواً من الانهزامية السلبية . . . »

وكان الاتحاد السوفياتي الان « على حافة الهاوية » وكل مكاسب ستالين الاقليمية في اوروبا الشرقية لم تكن تساوي الا القليل اذا قورنت بالموارد والقدرات التي انتزعها هتلر والتي سوف يستخدمها ضد الاتحاد السوفياتي .(١٣١)

بعد أن اعلن تروتسكي كل ذلك ، كان يصر مع هذا بحزم ما بعده حزم على واقع ان الاتحاد السوفياتي يبقى دولة عمالية من حقها ان يجري الدفاع عنها بصورة غير مشروطة في وجه كل اعدائها الرأسماليين ، الفاشيين والديمقراطيين. لم يكن حق ينكر على ستالين حقه في المساومة مع هتلر ، مع أنه كان يفكر بأن المعاهدة الالمانية ـ السوفياتية لم تقدم اي منفعة ذات معنى للاتحاد السوفياتي . ربما كان فضّل تحالفاً سوفياتياً مع الغرب ، لكن بشأن معرفة الى اي جهة يجب أن يميل الاتحاد السوفياتي ، كان يؤكد انه لا ينبغي اتخاذ القرارات إلا لأسباب تتعلق بالملاءمة ، وان ما من مبدأ اخلاقي او سياسي يدخل في هذا الخيار ، إذ إن الدول الغربية العظمى ، مثلها مثل الرايخ الثالث ، كانت تقاتل

---

(١٣٠) النجمان التوأمان ، هتلر وستالين ، استناداً الى المحفوظات .

(١٣١) تصريح للصحافة : دور الكرملين في الكارثة الاوروبية ، ١٧ حزيران / يونيو ١٩٤٠ . المرجع ذاته .

فقط من زاوية مصالحها الامبريالية . إن ما كان تروتسكي يرفضه في سياسة ستالين ، لم يكن اختياره حليفاً محدداً او شريكاً ما ، بل تحويله هذا الخيار الى فضيلة ومناداته بتضامنه الايديولوجي مع اي كان ، شريطة ان يكون شريك اللحظة الحاضرة . كان ستالين ومولوتوف يمتدحان الآن الصداقة الالمانية ـ السوفياتية « المملطة بالدم » . كان معاونوهما يغمضون اعينهم عن فظاعات هتلر ويعلنون ان بولندا لن تنهض بعد اليوم ، ويوجه دعاويوهما ، من مثل اولبريشت ، حماسهم المعادي للامبريالية ضد القوى الغربية بوجه الحصر . وقد خلص تروتسكي الى القول : **« هوذا كيف تمارس الستالينية تأثيرها المضاد للثورة في الحلبة الدولية » . وكان في ذلك سبب اضافي بالنسبة للشغيلة الروس كي يطيحوها عنوة . لكنه اعاد التأكيد بأنه ، حتى في ظل حكم ستالين ، بقيت الدولة العمالية حقيقة ينبغي حمايتها ضد كل عدو خارجي ، والقتال لأجلها حتى النهاية**(١٣٢) .

كان يدرك تماماً أن أفكاره ستبدو غريبة بالنسبة للكثير من الناس ، لكن ألم يكن الواقع غريباً ايضا بالدرجة نفسها ؟ ففي تواطؤ ستالين مع هتلر وضمه المناطق الحدودية شرقي بولندا ، عمد الى مصادرة املاك الملاكين الكبار في تلك المناطق ، وتقسيم أملاكهم بين الفلاحين وتأميم الصناعة والمصارف . ولما كان مهتماً بممارسة رقابة عسكرية على الاراضي الملحقة ، على ميدانه الدفاعي الجديد ، فقد كان يرتب نظامه السياسي والاجتماعي في جميع جوانبه على اساس نظام الاتحاد السوفياتي . هكذا إذاً ، كان عمل ثوري ينجم عن تعاون ستالين وخصومته مع الدولة الاكثر عداء للثورة في العالم . فبضربة واحدة كان ستالين يحقق الرغبات الاساسية التي وردت دائماً في كل برامج الشيوعيين والاشتراكيين البولنديين والاوكرانيين ، هذه الرغبات التي بدوا ، هم ، عاجزين عن تحقيقها . كان الانقلاب الاجتماعي في الاراضي الملحقة من عمل قوى الاحتلال السوفياتية لا من عمل الشغيلة البولنديين والاوكرانيين ، وكانت تلك الثورة الاولى من سلسلة طويلة للثورات من فوق التي سوف يفرضها ستالين في اوروبا الشرقية . وفي الوقت ذاته الذي كان يصادر فيه املاك الطبقات المالكة على الصعيد الاقتصادي ، كان يصادر الشغيلة والفلاحين على المستوى السياسي

---

(١٣٢) الاتحاد السوفياتي في الحرب ، New International ، نوفمبر ١٩٣٩ ، انظر ايضاً المقالات في الاعداد اللاحقة من هذه الدورية ، ودفاعاً عن الماركسيّة .

بحرمانهم من حرية التعبير والتجمع[١٣٣] .

في حين كان تروتسكي يحتقر « طرائق ستالين البيروقراطية و « الغش مع هتلر » ، كان يعترف بالطابع التقدمي بشكل اساسي للتغييرات الاجتماعية التي تمت في الحدود الشرقية لبولندا ، ويؤكد انه إذا كان ستالين أطاح النظام الاجتماعي القديم في تلك الاماكن ، فقد كان ذلك لأن الدولة العمالية واقع وحقيقة في الاتحاد السوفياتي ، وذلك هو بالضبط ما منعه من التفاهم مع مالكي الارض والرأسماليين البولنديين . بمعنى آخر ، كانت الدينامية الثورية للدولة الستالينية قد تجاوزت الآن حدود الاتحاد السوفياتي . إلّا انه في حين كان تروتسكي يُقْدم على ذلك التأكيد ، كان ينخرط في تناقض . ألم يؤكد ان ستالين مستمر في لعب دور مزدوج ، تقدمي ورجعي في آن معاً ، لكن فقط في الاتحاد السوفياتي ، بينما دوره على الساحة العالمية مضاد للثورة بصورة حصرية ، اي متجه نحو الحفاظ على النظام الرأسمالي ؟ والم تكن هذه حجة تروتسكي لصالح خلق الاممية الرابعة ؟ كان مستمراً في التأكيد بأن تأثير الستالينية العالمي بقي عموماً مضاداً للثورة ، وأن الانقلاب الاجتماعي في الحدود الشرقية لبولندا لم يكن غير ظاهرة محلية . وقد لفت الانتباه الى ان مصادرة ملّاكي الاراضي والرأسماليين في اوكرانيا الغربية ، ثم فيما بعد في دول البلطيق ، كانت تافهة الوزن إذا قيست بالاحباط الذي ولدته الستالينية لدى الطبقة العاملة الفرنسية ، وبخيانة الثورة الاسبانية والخدمات المؤداة لهتلر . كان يعود باستمرار الى التباين القائم بين وجهي الستالينية ، الوجه الداخلي والوجه الخارجي ، ويسعى لتفسيره بواقع ان العناصر المكونة للدولة العمالية داخل الاتحاد السوفياتي ، الملكية القومية لوسائل الانتاج ، والتخطيط والتقاليد الثورية ، كانت تحرف نفسها عبر الاستبداد البيروقراطي الخاص بستالين وتحد من حرية حركته ، بينما كانت الستالينية تفعل في الحلبة الدولية وهي متحررة من كل كبت من هذا النوع ، ملاحقة فقط مصالحها الضيقة ومستسلمة كلياً لنزعتها الانتهازية[١٣٤] .

رغم أن هذه المحاجة كانت تنطوي علي جانب من الحقيقة ، فهي لم تكن تستطيع ان تحل ـ او حتى ان تخفي ـ الصعوبات النظرية والسياسية التي كانت

---

(١٣٣) New International ، استشهاد مذكور .

(١٣٤) المرجع ذاته .

تتعرض لها التروتسكية الآن ، صعوبات ستنمو كثيراً مع احداث العقد اللاحق . الى أي حد كان تمييز تروتسكي بين وظيفة الستالينية الداخلية (التي كانت لا تزال تقدمية جزئياً) ووظيفتها الاممية (المضادة للثورة كلياً) تمييزاً ينطبق على الواقع ؟ هل يمكن حكومة او جماعة قيادية أن تمتلك لبعض الوقت نوعاً من الطبع في الداخل وطبعاً آخر مختلفاً تماماً في الخارج ؟ واذا كان الجهاز السياسي السوفياتي يحتفظ بصفة الدولة العمالية ، فكيف لم تتأثر بذلك علاقاته مع العالم الخارجي ؟ وكيف كان يمكن حكومة دولة عمالية ان تكون ، بصورة متماسكة ، عاملاً من عوامل الثورة المضادة ؟

ما كان يمكن تروتسكي وتلامذته ان يتعاملوا مع هذه المشكلة الا بطريقة من طريقتين : فإما كان يتوجب عليهم ان يعلنوا أن الاتحاد السوفياتي لم يعد دولة عمالية ، ويفسر ذلك الاتجاه المضاد للثورة في سياسية ستالين سواء في الداخل او في الخارج ، وانه لم يعد هنالك ، بالتالي ، اي مبرر بالنسبة للماركسيين كي يواصلوا دفاعهم عن الاتحاد السوفياتي ، أو كان عليهم ان يسلموا بأن الستالينية مستمرة في لعب دور مزدوج ومتساوي الحدين (تقدمي ورجعي) ، سواء في الخارج او في الداخل ، وان ذلك يتوافق مع الطابع المتناقض لنظام الاتحاد السوفياتي ، المتمثل ببقاء دولة عمالية داخل الاستبداد البيروقراطي ، واخيراً أنه لا يمكن الماركسيين أن يكونوا على مستوى وضع بهذا التعقيد إلا بالتصدي ، من جهة ، للستالينية ، وبالدفاع عن الاتحاد السوفياتي ، من الجهة الاخرى .

حاول عدد قليل من تلامذة تروتسكي ان يخرجوا من هذه الورطة بأن اعلنوا انه لم يعد للاتحاد السوفياتي شيء من دولة عمالية ، لأن بيروقراطيته تشكل طبقة جديدة تستغل الشغيلة والفلاحين وتضطهدهم . ومعروف ان هذه الفكرة كانت في الجو منذ عام ١٩٢١ ، حين صاغتها المعارضة العمالية للمرة الاولى في موسكو . ومع أن تروتسكي نبذها ، لم تتوقف عن اغراء بعض انصاره . عام ١٩٢٩ ، جعلهم راكوفسكي يجفلون حين كتب أن الاتحاد السوفياتي انجز تحوله من دولة بروليتارية مصابة بتشويهات بيروقراطية الى دولة بيروقراطية ، تتصف فقط بعنصر بروليتاري متبقٍّ(١٣٥) . وقد استشهد تروتسكي ، مؤيِّداً ، بهذه الفكرة

(١٣٥) انظر الـ B.O. ، العددان ١٥ ، ١٦ ، ١٩٣٠ ، مراسلة مع الاتحاد السوفياتي .

(التي تنطوي عليها بعض استدلالاته في **الثورة المغدورة**)، لكنه لم يستخلص منها اي نتيجة . كان بعض تلامذته يتساءلون الآن ما الذي يمكن ان يبقى من هذا العنصر البروليتاري المتبقي بعد عشر سنوات ؟ واي سنوات ! ألم يكن من قبيل العبث الاستمرار في الكلام على دولة عمالية ؟ وكانت بعض تأملات تروتسكي وايحاآته وملاحظاته العابرة تشجعهم على الوصول الى هكذا خلاصة . كان قد اكد في **الثورة المغدورة** أن الجماعات الادارية في الاتحاد السوفياتي تتهيأ لنزع تأميم الصناعة وللتحول الى مالكة للأسهم ، وبتعبير آخر أن البيروقراطية الستالينية تحضن طبقة رأسمالية جديدة . انقضت سنوات ولم تظهر اية علامة على هكذا احتمال . ألم ينخدع تروتسكي ، بالتالي ، في فهمه للمجتمع السوفياتي ؟ كان يرى ان البيروقراطية الستالينية تحضن طبقة بورجوازية جديدة ورأسمالية جديدة ، لكن ألم تكن تلك البيروقراطية بالذات الطبقة الجديدة ، بالضبط ، التي حضنتها ثورة اوكتوبر واعطتها كل ريشها ؟

عشية اعلان الحرب بالضبط ، اجاب تروتسكيٌّ ايطالي سابق ، هو برونو ريزي ، بالايجاب عن هذا السؤال ، في كتاب نشره في باريس ، انتبه إليه القليلون لكنه أحدث تأثيراً ، وكان بعنوان *la Bureaucratisation du monde* (*) . كان ريزي المؤلف الاصلي لمفهوم الثورة المديرية التي سيعرضها فيما بعد بورنهام وشاختمان وجيلاس وآخرون عديدون عبر نسخ معدلة اكثر فجاجة بكثير . كان يستند جزئياً إلى استدلال تروتسكي كما ظهر في **الثورة المغدورة** ، بهدف نبذ ذلك الاستدلال بمجمله . اكد ان الثورة الروسية التي اخذت على عاتقها ، تماماً كالثورة الفرنسية ، الغاء اللامساواة ، لم تفعل غير استبدال نمط استغلال اقتصادي واضطهاد سياسي بنمط آخر . وتروتسكي ، الذي كان شبح عودةٍ للرأسمالية في الاتحاد السوفياتي **يؤرِّقه** ، لم يعرف ان يرى أن الجماعية البيروقراطية أرسيت هناك كشكل جديد من اشكال الهيمنة الطبقية . كان يرفض النظر الى البيروقراطية كطبقة جديدة ، لأنها لا تمتلك وسائل الانتاج ولا تراكم ارباحاً . لكن ريزي رد على ذلك بأن البيروقراطية تمتلك عملياً وسائل الانتاج وتراكم بالفعل أرباحاً ، مع فرق وحيد هو أنها تفعل ذلك جماعياً لا فردياً كما كانت تفعل الطبقات المالكة القديمة .

(*) تبقرط العالم (م)

« لا يتملك المستغلون في الاتحاد السوفياتي فائض القيمة مباشرة ، كما يفعل الرأسمالي حين يضع في جيبه ارباح منشأته ، بل يفعلون ذلك مداورة ، بواسطة الدولة التي تختزن المقدار الاجمالي لفائض القيمة القومي ثم توزعه عندئذ على موظفيها »(١٣٦)

إن امتلاك وسائل الانتاج *de facto ، الامتلاك **بواسطة** الدولة وامتلاك **الدولة، حل محل الامتلاك البورجوازي de jure**. لم يكن هذا الوضع الجديد،** كما افترض تروتسكي ، فاصلاً بيروقراطياً او مرحلة انتقالية رجعية ، بل طوراً جديداً ، من تطور المجتمع وحتى طوراً ضرورياً تاريخياً . فكما ان الاقطاعية لم تعقبها المساواة والأخوة بل الرأسمالية ، كذلك لم تعقب الرأسماليةَ الاشتراكيةُ بل الجماعية البيروقراطية . كان البلاشفة غير قادرين موضوعياً على تحقيق مثلهم الاعلى بقدر ما كان اليعقوبيون عاجزين عن تحقيق مثلهم الخاص بهم . كانت الاشتراكية لا تزال طوبى ، والشغيلة الذين كانت تلهمهم خيبت آمالهم مرة اخرى ثمار الثورة .

وتابع ريزي : « **بمقدار ما نظمت الجماعية البيروقراطية المجتمع واقتصاده بصورة أكثر فعالية وأكثر انتاجية مما فعلت الرأسمالية** أو كان في وسعها أن تفعل ، فإن انتصارها سجل تقدماً تاريخياً . كان محتماً بالتالي ان تحل محل الرأسمالية . كانت رقابة الدولة والتخطيط مسيطرين ، لا فقط في النظام الستاليني، بل كذلك في ظل هتلر وموسوليني ، وحتى روزفلت . كان الستالينيون والنازيون وجماعة النيوديل الادوات الواعية او غير الواعية ، بدرجات متفاوتة ، لنظام الاستغلال الجديد ذاته المعد للانتصار في العالم اجمع . وخلص ريزي الى القول إنه طالما ظلت الجماعية البيروقراطية تحفز الانتاجية الاجتماعية فهي ستبقى قوية لا تقهر . لم يكن في وسع الشغيلة ان يفعلوا الا ما فعلوه في بداية الرأسمالية ، أي ان يناضلوا لتحسين وضعهم وانتزاع تنازلات واصلاحات من مستغليهم الجدد . وفقط حين يبدأ

---

(١٣٦) برونو ريزي ، تبقرط العالم .

(*) بالفعل (م) .

(**) حقوقياً (م) .

النظام الجديد يتحلل ، ويؤخر التطور الاجتماعي ويعيقه ، يصبحون قادرين على استئناف المعركة من اجل الاشتراكية بنجاح . كان هذا المنظور منظوراً بعيداً ، ومع ذلك لم يكن غير واقعي . كانت الجماعية البيروقراطية آخر شكل من سيطرة الانسان على الانسان ، قريب جداً من المجتمع اللاطبقي بحيث ترفض البيروقراطية ، الطبقة المستغلة الاخيرة ، الاعتراف بأنها طبقة مالكة »[١٣٧]

حين علم تروتسكي بأن ريزي عبر عن اتجاه ايديولوجي يجد صدى لدى التروتسكيين ، قام بنقد محاجته في دراسة بعنوان **الاتحاد السوفياتي في الحرب**، كتبها في منتصف ايلول / سبتمبر **١٩٣٩**[١٣٨] . بدأ بالقول : « سيكون من قبيل اقتراف حماقة كبرى ان نقطع العلاقة برفاق تختلف وجهات نظرهم عن وجهات نظرنا بما يخص طبيعة الاتحاد السوفياتي الاجتماعية طالما بقينا متفقين على مهامنا السياسية » . إن مسألة معرفة ما إذا كان الاتحاد السوفياتي دولة عمالية أو لا لم تكن في الغالب غير مماحكة، ويمتاز ريزي، على الأقل، بكونه رفعها الى مستوى تعميم تاريخي . لقد توصل الى ان يرى في الجماعية البيروقراطية النظام الاجتماعي الجديد ، وبصورة جوهرية النظام نفسه الذي تمثل الستالينية والنازية والفاشية والنيوديل واجهات مختلفة له . وقد رد تروتسكي بأن معادلة ريزي : الستالينية = الغازية ، قد تظهر معقولة بما يكفي في هذه الايام من المعاهدة بين هتلر وستالين . فالعديدون ادعوا أن هذه المعاهدة لم تفعل غير تسليط الضوء على القرابة بين النظامين ، قرابة جلية في تقنيتهما الحكومية . وكان رأي ريزي ان دفع الرقابة على الاقتصاد الى خلاصتها المنطقية وتأميم الصناعة بكاملها لم يعودا بالنسبة للدولة النازية والفاشية (لكن كذلك بالنسبة للدولة الروزفلتية) غير مسألة وقت . على نقيض ذلك ، اكد تروتسكي أنه مهما تكن اوجه الشبه بين الطرائق الحكومية لدى كل من هتلر وستالين ، فالفروق الاقتصادية والاجتماعية نوعية ، لا كمية وحسب . وهنا تكمن الهوة بين نظام هذا ونظام ذاك ، فلا هتلر ولا روزفلت يمكنهما المضي ابعد من التأميمات الجزئية . كل منهما لا يفعل غير فرض تدخل الدولة على نظام رأسمالي

---

(١٣٧) برونو ريزي ، المرجع المذكور .

(١٣٨) نيو انترناشيونال ، تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٣٩ ، ودفاعاً عن الماركسية ، ص ٨و١١ .

من حيث الجوهر ، بينما ستالين هو الوحيد الذي يشرف على اقتصاد ما بعد رأسمالي حقاً . لا شك ان نمو البيروقراطية جلي في بلدان مختلفة وفي ظل انظمة مختلفة ، لكن الجماعية البيروقراطية بما هي نظام اجتماعي متميز ، وبشرط أن يوجد هذا النظام ، لا تزال محصورة في بلد واحد ، وترتكز هناك على أسس كانت خلقتها الثورة الاشتراكية .

كان من قبيل التجاسر ، بالتالي ، الكلام على « اتجاه شامل » تمثل بفضله الجماعية البيروقراطية الخلف الحقيقي للرأسمالية . فلو كان الامر كذلك - يقول تروتسكي - لكانت الثورة الاشتراكية ، حتى في البلدان الصناعية الاكثر تقدماً ، او في عدة بلدان من هذا النموذج ، ستُدخل حتماً شيئاً من هذا القبيل الى النظام الستاليني . وكانت هذه في الواقع وجهة نظر ريزي ، وقد رد عليها تروتسكي بإثباتات تجريبية تبين كيف أن تخلف روسيا وفقرها وعزلتها ساهمت بشكل حاسم في إرساء الستالينية . كانت الثورة الروسية قد انحطت تحت ثقل الظروف ، ولم يكن هناك من مبرر لافتراض ان كل ثورة اشتراكية معرضة حتماً ، وبالاستقلال عن الظروف ، للانحطاط بشكل مماثل . لم تكن الستالينية قاعدة المجتمع الجديد ، كما اعتقد ريزي ، بل تشوُّهاً تاريخياً ، لم تكن الناتج النهائي للثورة بل انحرافاً في مجرى الثورة . كانت البيروقراطية دائماً زائدة طفيلية في الطبقة العاملة ، خطرة بقدر ما يمكن ان تكون هكذا زائدة . لكنها لم تكن تشكل جسماً مستقلاً ، وخلافاً لما كان يعتقده ريزي ، لم تكن الجماعية البيروقراطية تمثل اي تقدم تاريخي . فالتقدم الذي يتم في الاتحاد السوفياتي كان ناجماً عن الجماعية لا عن البيروقراطية . وما كان يمكن الستالينية البقاء الا بقدر ما يستمر الاتحاد السوفياتي في الاكتفاء باستعارة تقنية غربية رفيعة وبمحاكاتها وتمثلها . لكن في اللحظة التي يتم فيها تخطي هذا الطور ، ستغدو متطلبات الحياة الاجتماعية اكثر تعقيداً وينبغي ان تعيد المبادرة الاجتماعية تأكيد نفسها . كان نزاع عظيم بين البيروقراطية والمبادرة الاجتماعية يرتسم ، بالتالي ، في مستقبل قريب ، وسيكون هذا النزاع اعمق لأن البيروقراطية على عكس البورجوازية الفرنسية بعد الثورة « لا تحمل معها نظاماً اقتصادياً جديداً » ، لا يمكنه ان يعمل من دونها . على العكس من ذلك ، لكي يعمل النظام الجديد كما يجب ، ينبغي ان يتخلص من ضغط البيروقراطية الخانق .

كانت الفكرة التي تنطوي عليها كل نظريات الجماعية البيروقراطية هي أن

الطبقة العاملة برهنت عن عجزها عن انجاز الثورة الاشتراكية التي كانت الماركسية تنتظر ان تراها تنجزها. الا ان الرأسمالية برهنت، هي الأخرى، عن عجزها عن العمل والبقاء . هكذا كان ينبغي ان يحل محلها شكل أو آخر من الاقتصاد القائم على الجماعية ، لكن لما كانت الطبقة العالمة لم تعرف كيف تكون على مستوى تلك المهمة ، فقد تولت البيروقراطية تنفيذها . ولم تكن الجماعية الاشتراكية هي التي حلت محل النظام القديم بل الجماعية البيروقراطية . وقد وافق تروتسكي على أن النقطة الحاسمة من المساجلة تكمن هنا (١٣٩) . كانت مسألة معرفة ما إذا كان الاتحاد السوفياتي دولة عمالية ، او إذا كان نظامه نظام جماعية بيروقراطية ، مسألة ثانوية . كل ما كان يريد أن يقوله ، حين يتكلم على الدولة العمالية ، هو أن كمونيتها وعناصرها كانت لا تزال محفوظة في بنية الاتحاد السوفياتي الاجتماعية . لم يخطر يوماً بباله ان يوحي بأن النظام الستاليني دولة عمالية بالمعنى العادي او السياسي للكلمة . كان يمكن من جهة اخرى الكلام على جماعية بيروقراطية سوفياتية والاستمرار في التفكير بأنها تنطوي على كمونية الدولة العمالية، لكن الاهم بكثير، كان معرفة ما إذا ثمة ايمان بأن الجماعية البيروقراطية ترسخت لأن الطبقة العاملة كانت عاجزة من حيث الجوهر عن تحقيق الاشتراكية .

لم يكن هنالك من شك في ان سجل الحركة العمالية كان يتشكل من اخفاقات وإحباطات . لم يعرف الشغيلة ان يسدوا طريق السلطة امام موسوليني وهتلر وفرانكو ، بل تركوا الجبهات الشعبية تقودهم الى الهزيمة ، كما انهم لم يحولوا ايضاً دون الحربين العالميتين . لكن كيف كان يمكن تشخيص تلك الاخفاقات ؟ هل كان الامر يتعلق باخطاء في القيادة يمكن معالجتها ، او بافلاس الطبقة العاملة التاريخي وبالدليل الواضح على عجزها عن ادارة المجتمع وتحويله ؟ إذا كانت القيادة مخطئة ، فوسيلة الخروج من ذلك المأزق كانت تتمثل بخلق قيادة جديدة ، في أحزاب ماركسية جديدة ، وأممية جديدة . لكن اذا كان الخطأ خطأ الطبقة العاملة ، كان يجب عندئذ التسليم بأن الفهم الماركسي للمجتمع الرأسمالي وللاشتراكية فهم خاطىء ، لأن الماركسية نادت بأن الاشتراكية إما ان تكون من عمل البروليتاريا ، أو لا تكون ابداً . ألم تكن الماركسية ، مذاك ، شكلاً آخر من الايديولوجية » ، أو من الوعي الزائف الذي

(١٣٩) استشهاد مذكور .

يدفع الطبقات المضطهدة واحزابها الى الاعتقاد بأنها تناضل من اجل غاياتها الخاصة بها ، بينما لا تفعل في الحقيقة غير إعلاء مصالح طبقة قيادية جديدة أو حتى قديمة ؟ لو نظر الى هزيمة البلشفية الأصلية من هذه الزاوية ، لكانت بدت ، في الواقع ، من النموذج ذاته لهزيمة اليعقوبيين (اي كنـاتج تضارب بين الطوبى ونظام اجتماعي جديد) ، وكان انتصار ستالين اتخذ شكل انتصار الواقع على الوهم وبدا كعمل ضروري للتقدم التاريخي .

هكذا كان تروتسكي يتساءل في نهاية حياته عن المعنى والهدف اللذين تنطوي عليهما حياته كلها وكل نضاله ، وفي الواقع كل نضالات العديد من اجيال المقاتلين الاشتراكيين والشيوعيين. هل كان الجهد الثوري لقرن بكامله يتحول هباء منثوراً ؟ مراراً وتكراراً كان يعود الى واقع ان الشغيلة لم يطيحوا الرأسمالية في اي مكان خارج روسيا . مراراً وتكراراً كان يستعرض سلسلة الهزائم الطويلة والكئيبة ، التي حلت بالثورة ما بين الحربين العالميتين ، ويجد نفسه مدفوعاً لاستنتاج انه إذا كانت اخفاقات رئيسية جديدة ستضاف الى هذه الجردة فإن كل المنظور التاريخي الذي رسمته الماركسية قد يصبح عندئذ مدار بحث واعادة نظر . وعند هذه النقطة ، انجر الى واحدة من تلك الصياغات المبالغ بها التي نجدها من حين لآخر لدى كل مساجل كبير وكل مناضل عظيم ، وهي صياغات تؤدي ، إذا جرى الأخذ بها حرفياً ، الى بلبلة لا تنتهي . لقد اعلن أن التجربة النهائية للطبقة العاملة والاشتراكية والماركسية وشيكة : كانت آتية مع الحرب العالمية الثانية . إذا لم تكن الحرب ستقود الى ثورة بروليتارية في الغرب ، لن تحل الاشتراكية ، عملياً ، محل الرأسمالية الآفلة ، بل نظام جديد من الاستغلال البيروقراطي والكلياني . واذا كانت الطبقات العاملة في الغرب ستستولي على السلطة ، لكن لتبدو عاجزة عن الاحتفاظ بها ، وتتخلى عنها لبيروقراطية ذات امتيازات كما فعل الشغيلة الروس ، ربما سيكون ضرورياً عندئذ الاعتراف بأن الآمال التي وضعتها الماركسية في البروليتاريا كانت زائفة . في تلك الحالة ايضاً ، سيبدو ارساء الستالينية في روسيا من منظار مختلف :

> ربما سنكون مضطرين عندئذ للاعتراف بأن . . . الستالينية لم تكن تمد جذورها في تخلف البلد ، وفي واقع الحصار الامبريالي ، بل في عجز البروليتاريا الفطري عن ان تصبح طبقة قائدة ، وقد يكون عند ذلك ضرورياً الحكم في عودة الى الوراء بأن . . . الاتحاد السوفياتي

، كما هو حالياً ، كان رائد نظام جديد شامل من الاستغلال . . . ومهما يكن الطابع المكلف لهذا المنظور ، لن يبقى لنا ، في حال ظهرت البروليتاريا العالمية عاجزة حقاً عن القيام برسالتها . . . لن يبقى لنا شيء آخر غير الاعتراف علنا بأن البرنامج الاشتراكي ، المرتكز على التناقضات الداخلية للمجتمع الرأسمالي ، تبخر مثل طوبى »(١٤٠) .

ربما لم يكن غير الماركسيين قادرين على الشعور كلياً بالضخامة المأساوية التي تتخذها هذه الكلمات في فم تروتسكي . صحيح انه كان يتلفظ بها لضرورات المناقشة . لكن حتى لضرورات المناقشة ، لم يكن تصور حتى ذلك الحين إمكانية اخفاق تام للاشتراكية . ألح على ان التجربة النهائية هي مسألة ستحسمها السنوات القليلة اللاحقة ، وحدد بدقة ممضة شروط تلك التجربة . ومضى قُدماً في محاكمته : « **من البديهي انه إذا تكشف ان البرنامج الماركسي غير قابل التطبيق ، سيكون برنامج حد ادنى جديد ضرورياً للدفاع عن مصالح عبيد النظام البيروقراطي الكلياني** » . وقد كان هذا المقطع مميِّزاً للرجل : إذا كانت العبودية البيروقراطية كل ما يختزنه المستقبل للنوع البشري ، سيكون عندئذ هو وتلامذته الى جانب العبيد لا الى جانب المستغلين الجدد ، مهما يكن الطابع الضروري تاريخياً للاستغلال الجديد . لما كان عاش كل حياته مقتنعاً بأن مجيء الاشتراكية أمر ثابت علمياً وأن التاريخ بجانب من يناضلون من اجل تحرر المستغلين والمضطهدين ، كان يطلب الآن بإلحاح الى تلامذته ان يبقوا الى جانب المستغلين والمضطهدين ، حتى لو كان التاريخ وكل الحقائق العلمية ضدهم . فمن جانبه ، هو ، سوف يكون ، مهما يكن ، الى جانب سبارتاكوس لامع بومبيوس والقياصرة .

لقد استكشف هذا المنظور الأسود ، إلا انه لم يرضخ مع ذلك ، وكان يسأل إذا كانت هنالك اثباتات كافية تدعم الفكرة التي مفادها ان الطبقة العاملة عاجزة عن اطاحة الرأسمالية وتحويل المجتمع . إن من كانوا يعتنقون وجهة النظر هذه ، بمن فيهم بعض تلامذته ، لم يكونوا رأوا الطبقة العاملة يوماً وهي تقوم بعمل ثوري ، ولم يشهدوا غير انتصار الفاشية ، والنازية ، والستالينية ، ولم يعرفوا الا الديمقراطية البورجوازية في طور تحللها . باختصار ، كل تجربتهم

---

(١٤٠) Loc. cit. et Passim .

السياسية كانت تتألف من هزائم وإحباطات . فلماذا الدهشة اذا هم توصلوا للشك بالقدرة السياسية للبروليتاريا ؟ لكن كيف كان يمكن ان يشك بها ، هو الذي رأى الشغيلة الروس وقادهم في عام ١٩١٧ ؟ « **خلال هذه السنوات من الردة الرجعية على الصعيد العالمي الاوسع ، علينا ان ننطلق من الامكانات التي اظهرتها البروليتاريا الروسية في عام ١٩١٧** . » إن الطاقة والذكاء الثوريين اللذين ابداهما الشغيلة الروس آنذاك ، كانتا موجودتين بالتأكيد في وضع الكمون لدى الشغيلة الألمان والفرنسيين والانكليز والاميركيين . لذا فإن ثورة اوكتوبر كانت لا تزال « مصدر قوة جباراً » و « رهاناً للمستقبل ذا قيمة لا تقدر » . اما بشأن سلسلة الهزائم التي تلت ، فيجب ان لا يلام عليها الشغيلة بل قادتهم « المحافظون والبورجوازيون كلياً » . وقد كان ديالكتيك السيرورة التاريخية بحيث « ولّدت بروليتاريا روسيا ، احد البلدان الاكثر تخلفاً . . . القيادة الاشد شجاعة والاكثر وضوحاً ، بينما لم تكن البروليتاريا تمتلك بعد في بريطانيا ، البلد الذي كانت الحضارة البورجوازية فيه هي الاقدم ، الا القادة الاكثر غباء وخنوعاً . لكن القادة يمضون وتبقى الطبقة الاجتماعية . وعلى الماركسيين ان يبقوا يعملون لتجديد القيادة ويراهنون بعمق على الاندفاع العضوي العميق والذي لا يقهر لدى الجماهير ، للخروج من الفوضى الدموية للرأسمالية .

لقد اعاد تأكيد قناعاته الماركسية ، لا بالتفاؤل الوقاد لسنوات صباه ، بل بإخلاص جربته المحن وصمد إزاء الملمات :

> « . . . ان المهمة الاساسية لعصرنا لم تتغير ، لسبب بسيط هو أنها لم تنجز . . . ليس للماركسيين ادنى حق (إذا لم ننظر الى زوال الوهم والى التعب على أنهما من الحقوق) بأن يخلصوا من ذلك الى نتيجة مفادها أن البروليتاريا أخلّت بكل امكاناتها الثورية وعليها أن تتخلى عن كل تطلع . . . حين يتعلق الأمر بأعمق التغييرات في الأنظمة الاقتصادية والثقافية ، تزن ٢٥ سنة على مستوى التاريخ اقل ممّا تزنه ساعة في حياة رجل . فما الذي كنا نقوله عن فرد يتخلى ، لأنه عانى من نكسات في بعض الساعات او بعض الايام ، عن الهدف الذي حدده لنفسه على اساس كل تجربة . . . حياته ؟ إذا تسببت هذه الحرب - كما نحن مقتنعون بجزم - بثورة بروليتارية ، فهذه الثورة ستؤدي حتماً الى اطاحة البيروقراطية في الاتحاد السوفياتي وتجديد الديمقراطية السوفياتية على قاعدة اقتصادية وثقافية اكثر رقياً بكثير من قاعدة عام ١٩١٨ ، وفي

هكذا حالة ستكون قد حُلت مسألة معرفة ما إذا كانت البيروقراطيه الستالينية طبقة جديدة أو زائدة خبيثة على جسد الدولة العمالية . . . وسيتضح للعالم اجمع ان البيروقراطيّة السوفياتية لم تشكل في السيرورة الثورية العالمية غير انتكاسة عرضية » .

إن شطب الاتحاد السوفياتي بسبب هذه الانتكاسة العرضية ، وفقدان كل منظور تاريخي ،هكذا ، لا يقبلان الغفران . كان الاتحاد السوفياتي ، والاتحاد السوفياتي وحده ، مؤقتاً ، ينطوي في ذاته على هيكل ديمقراطية اشتراكية منبعثة ، وذلك ما كان يجب الدفاع عنه .

« ما الذي ندافع عنه من الاتحاد السوفياتي ؟ ليس الملامح التي يشبه بها البلدان الرأسمالية ، بل بالضبط تلك التي يختلف بها عنها ، ليس الامتيازات والاضطهاد ، بل عناصر الاشتراكية . وهذا الموقف لا يعني اطلاقاً تقارباً ما مع بيروقراطية الكرملين ، أو قبولاً ما بسياستها ، أو مصالحة ما مع سياسة حلفاء ستالين . . . لسنا حزباً حكومياً ، إننا حزب المعارضة التي لا تقبل المصالحة . . . نحقق مهماتنا . . . فقط بتربية الشغيلة . . . بأن نوضح لهم ما عليهم ان يدافعوا عنه وما الذي ينبغي أن يطيحوه . »

وإذ عاد تروتسكي مجدداً إلى المبادرات التي اتخذها ستالين في بولندا الشرقية ، لاحظ انه لو ابقى ستالين على الملكية الخاصة من غير مساس بها ، لكان من الواجب اعادة تقويم طبيعة الدولة السوفياتية كلياً . لكن ستالين كان يتصرف كما سبق ان فعل نابوليون ، الذي بعد أن دجَّن الثورة في الداخل حملها الى الخارج على رؤوس الحراب (هنا كان تروتسكي يعيد النظر ضمناً بالفكرة المتعلقة بالطابع المضاد للثورة كلياً لسياسة ستالين الخارجية) . لاشك ان تلك لم تكن الطريقة الماركسية في الثورة :

« كنا ولا نزال ضد تملك الكرملين أراضي جديدة ، إننا مع استقلال اوكرانيا السوفياتيةو . . . روسيا البيضاء السوفياتية . في الوقت ذاته ، ينبغي للملتحقين بالاممية الرابعة ، في المناطق البولندية التي احتلها الجيش الاحمر ، ان يكونوا الاكثر نشاطاً في مصادرة الملاكين الارضيين والرأسماليين ، وفي توزيع الارض على الفلاحين ، وخلق

السوفياتات والمجالس العمالية ، الخ . . . عليهم ، وهم يتولون ذلك ، ان يحتفظوا باستقلالهم السياسي ، ويقاتلوا في الانتخابات من اجل الاستقلال الكامل للسوفييتات ومجالس المصانع حيال البيروقراطية ، وأن يقوموا بدعاوتهم الثورية بروح الحذر حيال الكرملين ووكالاته المحلية » .

لم يكن باستطاعة تروتسكي ان يقدم لأنصاره البولنديين والاوكرانيين نصائح اخرى ويبقى في الوقت ذاته مخلصاً لنفسه . الا انه لم يكن لديهم اي فرصة للعمل بهذه النصيحة ، كانوا ضعفاء وفي مواقع محكوم عليها سلفاً وقد سحقتهم الغيبيو على الفور . هم ايضاً وقعوا كما وقع هو بين سندان الضرورة ومطرقة استحالة العمل .

استمر ذلك النزاع حتى نهاية ايار / مايو ١٩٤٠ ، اي حتى فترة الغارة المسلحة على منزل تروتسكي . كان جيمس بورنهام وماكس شاختمان وتروتسكيون اميركيون آخرون ، من بين اعضاء حزب العمال الاشتراكي ، يعتنقون وجهات نظر شبيهة بتلك التي عبّر عنها ريزي وان كانت اقل جزماً . ومع اندلاع الحرب ومعاهدة ستالين ـ هتلر ، تبلورت تلك الوجهات بسرعة . ففي بداية ايلول / سبتمبر ١٩٣٩ ، عرض بورنهام على اللجنة المركزية للحزب مشروع قرار يشدد على « انه يستحيل اعتبار الاتحاد السوفياتي دولة عمالية من اي زاوية جرى النظر اليه منها »(١٤١) . وقبل نهاية الشهر ، قدم شاختمان مشروع قرار يندد بالاحتلال السوفياتي لاوكرانيا الغربية وروسيا البيضاء على أنه احتلال امبريالي .

وقد نفى أن يكون لذلك الاحتلال اية نتائج تقدمية ، من تلك التي تحدث عنها تروتسكي ، وطالب الحزب بالحاح بأن يتخلى عن تعهده بالدفاع عن الاتحاد السوفياتي . كان بورنهام ، بوصفه استاذاً للفلسفة في جامعة نيويورك ، وشاختمان ، خطيب الحرب الشعبي ، يمارسان تأثيراً مهماً على الانتليجنسيا التروتسكية . كانا قد التزما حتى ذلك الحين بمعارضة الحرب بالانهزامية الثورية ، اذا خاضت الحرب حكومة بورجوازية وحتى حكومة ديمقراطية ، وبالدفاع عن الاتحاد السوفياتي أيا يكن المعسكر الامبريالي الذي يتحالف معه . وبالنسبة

---

(١٤١) انظر النشرة الداخلية لحزب العمال الاشتراكي ، و **The New International** للاشهر الاخيرة من عام ١٩٣٩ . ايضاً دوايت ماكدونالد ، مذكرات ثوري ، ص ١٧ ـ ١٩ .

لرجلين كبورنهام وشاختمان ، كان سهلاً ان يجعلا من نفسيهما المعبرين النظريين عن هكذا وجهة نظر قبل اندلاع الحرب ، حين كان ثمة اعتقاد عموماً بأن الاتحاد السوفياتي سيكون حليف الديمقراطيات الغربية . لكن مع معاهدة ستالين ـ هتلر ، وبداية الاعمال العدوانية ، تغيرت اشياء كثيرة كانت الحالة النفسية للامة الاميركية ، حتى خلال سنوات الحياد ، متعاطفة ، وإن بحذر ، مع فرنسا وبريطانيا ، ومستنكرة بغضب الحلف الالماني ـ السوفياتي . حتى التروتسكيون وجدوا من الصعب الصمود في وجه ذلك الاستعداد النفسي . لم يكن في وسع بورنهام وشاختمان الامتناع عن الشعور بانهما اذا استمرا في الدفاع عن الاتحاد السوفياتي ، سيجتذبان لنفسيهما اشد الاستنكار قساوة ؛ الا انه كان عليهما ، قبل رفض الدفاع عنه ، ان يعلنا بتعابير ماركسية ان الاتحاد السوفياتي لم يعد دولة عمالية ، بل فقط قوة عظمى مضادة للثورة ، تقاتل لأجل توسعها الامبريالي . واذا كان ريزي لا يزال يعتبر ان الجماعية البيروقراطية ضرورية تاريخياً ، وتقدمية الى حد ما ، فقد انكر بورنهام وشاختمان ان تكون لهما تلك الفضائل . وكان منطق استدلالهما يذهب بهما أبعد أيضاً ، لأنهما انكرا ان يكون ثمة ما هو تقدمي في الاقتصاد السوفياتي . هاجما ، ضمناً او علناً ، الملكية القومية للصناعة والتخطيط القومي ، معتبرين أنهما يفيدان كأساس للجماعية البيروقراطية والعبودية الكليانية . وبالتدريج ، وُضعت كل مبادىء البرنامج الماركسي ـ اللينيني ، موضع نقاش ، بما فيها الديالكتيك والاخلاق . توصل بورنهام وشاختمان ومن كانوا يتبعونهما الى نبذ البرنامج نقطة وراء الاخرى . كان ذلك استمراراً لـ« اعتزال المثقفين » الذي سبق ان وصفاه في هجماتهما ضد ايستمان ، وهوك وآخرين على صفحات **The New International** . لكن المهاجمين كانا ينضمان الآن الى المعتزلين .

في نقد تروتسكي لريزي ، كان قد قال كل ما لديه في تلك المجادلة . اما المساجلة مع بورنهام وشاختمان فقد خيضت على مستويات ادنى بكثير ، فكراً واسلوباً سياسيين . وقد كانت المناقشة ملفتة للنظر بسبب انفجار الاحباط والتشاؤم المكبوت حتى ذلك الحين لدى انصار تروتسكي ، والطريقة التي واجههم بها تروتسكي للمرة الاخيرة وكانت تلك هي مساجلته الاخيرة(١٤٢) .

(١٤٢) جُمعت وجهات نظر تروتسكي الاكثر تميزاً ضمن تلك المساجلة في دفاعاً عن الماركسية .

كل تلك المشكلات موضوع الجدال بلغت ذروتها قبل نهاية عام ١٩٣٩ ، حين أمر ستالين جيوشه بمهاجمة فنلندا . وفي التعليقات التي كتبها تروتسكي ، انتقد ستالين بصرامة بسبب «خوضه الاحمق وعديم الكفاءة» للحرب ضد فنلندا التي أهانت العالم وعرّضت الجيش الاحمر لهزائم مُذلة[١٤٣] . الا انه الح على واقع ان كل ما كان ستالين يحاوله في فنلندا إنما هو ضمان جبهة من الاتحاد السوفياتي معرضة لهجوم محتمل من جانب هتلر . كانت تلك محاولة شرعية ، وكل حكومة سوفياتية تعمل ضمن الظروف التي كان ستالين يجد نفسه فيها (ظروف كانت مع ذلك من عمل ستالين) كانت ستضطر لحماية حدودها على حساب فنلندا . كان يجب اعطاء المصلحة الاستراتيجية للدولة العمالية الأولوية بالنسبة لحق فنلندا في تقرير مصيرها[١٤٤] . ولما كان غزو ستالين فنلندا قد أثار في البلدان المتحالفة حملة لصالح نقل مسرح الحرب وتدخل مسلح الى جانب فنلندا ، جدد تروتسكي ، بالحاح متزايد ، نداءه للدفاع عن الاتحاد السوفياتي . وقد أثار ذلك صيحة غضب عامة لدى تلامذته السابقين .

« هل اصبح تروتسكي مدّاح ستالين والمدافع عنه ؟ انه يريد اذاً منا أن نكون ادوات ستالين ؟ »

اجاب بورنهام :

« . . . كلا ، ايها الرفيق تروتسكي . . . لن نقاتل الى جانب الغيبيو للحفاظ على الثورة المضادة في الكرملين »[١٤٥] .

هكذا كلمات كانت ترجّع صدى اللهجة التي استخدمها تروتسكي ذاته بشأن التطهيرات الكبرى حين دعا كل انسان شريف لفضح الدسائس القاتلة للغيبيو وحرق سرطان الستالينية بالحديد المحمّى ، وحين تفجر ضد اصدقائه في الاتحاد السوفياتي الذين تحججوا بالمصالح المقدسة للدولة العمالية فوجدوا اعذاراً لجرائم ستالين . صحيح انه ردد ، حتى في احتدام المساجلات الأكثر

---

(١٤٣) ظهرت تعليقات تروتسكي حول الحرب في فنلندا في الصحف الاميركية والانكليزية ، وقد لخص وجهات نظره في مقال ، في آذار / مارس ١٩٤٠ ، بعنوان **ستالين بعد التجربة الفنلندية** ، **المحفوظات** .

(١٤٤) دفاعاً عن الماركسية ، ص ٥٦ ـ ٥٩ .

(١٤٥) خيضت المساجلة داخل ح . ع . اش . في نشرته الداخلية ، التي نشرت مشاريع قرارات الاكثرية والاقلية ، وفي **The New International** .

غضباً ، انه سيدافع ، هو واتباعه ، عن الاتحاد السوفياتي دون قيد او شرط في وجه اعدائه الاجانب . لكن الكثير من انصاره تعاملوا مع تلك الاعلانات كما لو كانت طريقة للكلام خاصة به ، وهلعوا حين اكتشفوا انه قال حقاً ما يعتقده ويؤمن به في اعمق اعماقه . فاتهموه حينئذ بانعدام الانسجام وبالمداهنة وحتى بالخيانة ، وبحثوا عن استدلالاته وحججه ليمسكوا بالخيوط المحلولة فيها وينسجوا منها نظريتهم الخاصة بهم . الم يقل تروتسكي سابقاً ان الستالينية ليست على المستوى العالمي غير عامل ردة وثورة مضادة ؟ كيف كان بوسعه ان يصر الآن على النتائج التقدمية والثورية للتوسع الستاليني في اوروبا الشرقية ؟ وحين كانوا يتكلمون على الطبقة الجديدة في الاتحاد السوفياتي والجماعية البيروقراطية ، اخذ عليهم تخليهم عن الماركسية واعلن ان من غير المعقول الكلام على نمط استغلال جديد في بلد تم فيه تأميم وسائل الانتاج . لكن ألم يكن هو قد أعلن انه إذا اخفقت الاشتراكية في الغرب من الآن لما بعد عدة سنوات ، سوف تحل الجماعية البيروقراطية محل الرأسمالية كنظام استغلال جديد شامل ؟ إذا كان يمكن تصور الجماعية البيروقراطية كنظام جديد شامل من الاستغلال ، فلماذا لا يمكن تصورها كنظام قومي للاتحاد السوفياتي ؟ حين أعلن ان افلاس الماركسية قد يقع اذا لم تطح الطبقات العاملة الغربية الرأسمالية في نهاية الحرب العالمية الثانية ، صرع جميع أنصاره بضربة على الرأس[١٤٦] . فلقد كانوا رأوا الكثير من نبوءاته تتحقق ، بحيث لم يكونوا ميالين أبداً للاستخفاف بهذه النبوءة . لقد أمضى السذَّج والاوفياء من تلامذته السنوات التي تلت وهم يبحثون عن علامات الثورة في الغرب وتتراءى لهم رؤى ثورة ؛ اما المتشككون والساخرون فوصلوا الى استنتاج (فوري أو متأخر قليلاً) ان افلاس الماركسيَّة والاشتراكية اصبح ناجزاً ، باعتراف تروتسكي بالذات حسب زعمهم ، وان عصر الجماعية البيروقراطية قد بدأ . كان بورنهام أول من وضع النقاط على الحروف . كان في السابق « بلشفيا لينينيا » جيداً وحتى عدواً شرساً للامبريالية الاميركية ، طالما كان لديه الانطباع بأنه يسبح في اتجاه مد التاريخ ، لكن بعد ان اقتنع - بمُساعدة تروتسكي غير الارادية - بأن طبقة المدراء هي التي كانت تسبح مع الامواج ،

---

(١٤٦) دفاعاً عن الماركسية ، ص٣٠ . كتب تروتسكي : « لاشك ان بعض الرفاق فوجئوا حين سمعوني أتكلم في مقالي على احتمالات نظرية بصدد الجماعية البيروقراطية ، لابل توصلوا حتى الى ان يكتشفوا في ذلك مراجعة كاملة للماركسية » .

سارع الى نبذ كل الصابورة الايديولوجية للماركسية ، والمناداة بمجيء الثورة المديرية(١٤٧) . وكان شاختمان موافقاً على تشخيص بورنهام ، لكن لما كان أشد ارتباطاً بالماركسية وتعلقاً بها ، فقد كان يتطلع الى هذا المنظور بألم لا بفرح ، وحاول ان يوفق بينه وبين ما تبقى من قناعاته السابقة الغارقة(١٤٨) .

استناداً الى التروتسكية الجديدة التي جمعها بورنهام وشاختمان من الثورة المغدورة ، استخدما إلى حد ما حججاً قوية ، وراحا يزعمان الآن انهما يدافعان عن التروتسكية بوجه تروتسكي ذاته . فأعاد إلمعلم حينئذ ، صياغة جملة ماركس المشهورة ، ورد بقوله : « إذاً أنا لست تروتسكياً »(١٤٩) لكن لمواجهة حججهما ، كان عليه ان يجحد ، ضمنياً على الاقل ، مبالغاته السجالية الخاصة به . كتب في احدى الرسائل :

« هؤلاء الرفاق مستشيطون غيظاً بشأن معاهدة ستالين - هتلر، وهذا مفهوم تماماً ، فهم يريدون الانتقام من ستالين . جيد جداً ! لكننا الآن ضعفاء ولا نستطيع أن نطيح الكرملين فوراً . ان بعض الرفاق يحاولون عندئذ أن يجدوا إرضاء لفظياً صرفاً، فيخلعون عن الاتحاد السوفياتي لقب الدولة العمالية ، تماماً كما يحرم ستالين موظفاً فاقد الحظوة من وسام لينين . اني اجد ذلك صبيانياً بعض الشيء، ايها الصديق العزيز ، فالسوسيولوجيا الماركسية والهستيريا لا تلتقيان أبداً . »(١٥٠)

بعد كل ما قاسى على يدي ستالين ، لم يكن هنالك ما يفجعه اكثر من رؤ ية تلامذته الخاصين به وقد اعماهم كره الستالينية ، وسوف يدافع في وجههم حتى الرمق الاخير لصالح الفكر الماركسي الموضوعي وضد الهستيريا .

انشق الاميركيون الى اكثرية بقيادة جيمس پ كانون ، الذي وافق على

---

(١٤٧) انظر بورنهام ، Science and Style (A Reply to Comrade Trotsky) ، المعادة طباعته كملحق في كتاب تروتسكي ، دفاعاً عن الماركسية . سياسة اليأس في ذي نيو انترناشونال ، آذار - نيسان ١٩٤٠ والثورة المديرية .

(١٤٨) شاختمان ، ازمة الحزب الاميركي ، رسالة مفتوحة الى تروتسكي والاتحاد السوفياتي والحرب وقد نشرتا في النشرة الداخلية وفي ذي نيو انترناشيونال ، آذار نيسان ١٩٤٠ .

(١٤٩) تروتسكي ، المرجع المذكور ، ص ١٦٨ .

(١٥٠) المرجع ذاته ، ٢٣ .

وجهات نظر تروتسكي ، واقلية تبعت بورنهام وشاختمان . وقد طالب تروتسكي الجميع ، بإلحاح ، بأن يبرهنوا عن لياقة وتسامح . وفي حين شجع انصار كانون على ان يخوضوا النقاش بقوة وحزم بوجه بورنهام وشاختمان ، حذرهم من ان العملاء الستاليين في صفوفهم سوف يسعون الى دفع الخصومة الى اعلى ذراها ، ونصحهم بأن يسمحوا للاقلية بالتعبير بحرية داخل ح . ع . اش . ، وحتى بالعمل كتكتل عضوي ؛ ووجه هذا التحذير : « اذا اقترح احدهم . . طرد الرفيق بورنهام ، سوف اعارض ذلك بقوة » . (١٥١)

الا أن الاقلية تشكلت تلقائيا في حزب جديد ، واستولت على **ذي نيو انترناشونال** ، المجلة النظرية الشهرية ل ح . ع . اش . وللحال تقريباً ، تم انشقاق جديد في الحزب الجديد لأن بورنهام قطع علاقته به ، معلناً انه

« « بين كل المعتقدات الاكثر اهمية التي ارتبطت بالحركة الماركسية ، سواء بنسختها اللينينية او الستالينية او التروتسكية ، ليس هناك من واحد أقبل به بشكله التقليدي . اعتبر هذه المعتقدات إما خاطئة ، أو بائدة ، أو لا معنى لها اطلاقاً . . »

كان في ذلك الاعتراف ، الصادر عن واحد كان احد قادة التروتسكية خلال السنوات الأخيرة ، شيء ما يثير الذعر . فقبل اسابيع قليلة ، كان بورنهام واصدقاؤه قد استاؤوا من ملاحظة تروتسكي بشأن نمط تفكيرهم غير الماركسي . كان بورنهام يعلن الآن : « **إذا وضعنا انفسنا على أرض المعتقدات والمصالح . . لم يكن لي منذ سنوات عديدة اي موقع حقيقي في حزب ماركسي** »(١٥٢) . اكان ذلك صحيحاً أم لم يكن ، وسواء كان من سيكتب فيما بعد **الثورة المديرية** يحاول فقط ان يضفي على بهلوانياته الايديولوجية طابعاً اقل مفاجأة وصدماً ، أو انه لم يفعل في الواقع غير التظاهر بمظهر الماركسي - اللينيني المتحمس طيلة كل تلك السنوات ، فلا شيء مما كمان يقوله تروتسكي عنه يمكن ان يكون ، حتى من بعيد ، بفداحة هذه الصورة عن بورنهام بقلمه .

---

(١٥١) المرجع ذاته ، ص ٩٧ - ١٠١ - ١٤٨ . . . وحتى بعد ان عقدت الاقلية جمعيتها القومية ، نصح تروتسكي الاكثرية مجدداً بالا تستند الى ذلك كمبرر للطرد .

(١٥٢) رسالة الاستقالة لبورنهام واردة في ملحق دفاعاً عن الماركسية ، ص ٢٠٧ - ٢١١ .

وبعد الحدث ، لم يكن تروتسكي مستاء لأنه خسر تلميذاً مشكوكاً به إلى هذه الدرجة ، كان قد وصفه في رسائله الخاصة بنعوت اكثرها اعتدالاً : المتنفج الثقافي(١٥٣) ، وكان ينتظر أن يرى آخرين يحذون حذوه .

« ليس دوايت ماكدونالد متنفجاً ، لكنه أحمق قليلاً . . وسوف يترك الحزب كما فعل برنهام ، لكن لما كان كسولاً اكثر قليلاً ، فسوف يتم ذلك فيما بعد » .

إلا أن القطيعة مع شاختمان ، الذي كان يكن له مودة خفية (مع انه طالما اغتاظ مما لديه من بهلوانية وسطحية ، الخ . . .) ، سببت له حزناً حقيقياً . كانت علاقاتهما ترجع الى زيارة شاختمان له في برنكيبو في بداية عام ١٩٢٩ ، وفيما بعد غدت تلك العلاقات اكثر وثوقاً بنتيجة لقاءات عديدة ورسائل وإثباتات على اخلاص شاختمان . وفي الصراع بين الكتل آنذاك ، اعطى تروتسكي دعمه لكانون بالطبع ، لكنه كان يشعر على المستوى الشخصي ، بأنه اقرب الى شاختمان . كتب اليه في ذروة المساجلة :

« لو كان في وسعي ، لاستقللت الطائرة فوراً الى نيويورك سيتي ، لاجري معك نقاشاً غير منقطع طوال ٤٨ ساعة أو ٧٢ . آسف جداً ألا تشعر بالحاجة . . للمجيء الى هنا لمناقشة هذه المسائل معي ، أو انك ربما تشعر حقاً بهذه الحاجة ؟ كان أسعدني ذلك » .(١٥٤)

كان امكن القول إن هذا الانشقاق دمر الاممية الرابعة ، لو أنه كان يمكن حتى الكلام على تدمير منظمة خيالية الى تلك الدرجة . كان تروتسكي واثقاً من انه بعد رحيل العناصر البورجوازية الصغيرة والوصولية ، سيمد ح.ع.اش. جذوراً اكثر عمقاً في الطبقة العاملة الاميركية . الا ان ذلك لم يحدث ، وبقي الحزب كنيسة صغيرة ابدى اعضاؤها تعلقاً ورعاً بحرفية تعاليم تروتسكي ، ثم فيما بعد بذكراه ، لكنهم لم ينجحوا في اعطاء الحزب اي وزن سياسي . اما المجموعة المنافسة ، مجموعة شاختمان ، المجردة من تلك الفضائل التي تجعل البدع الاضعف تبقى حية طوال عشرات وعشرات السنين ، فقد تخلت اكثر فأكثر عن

---

(١٥٣) ظهر هذا النعت ايضاً في دفاعاً عن الماركسية .

(١٥٤) المرجع ذاته ، ص ٦٤ .

تروتسكيتها ، وتفتتت ، واختفت[١٥٥] . وقد تأثرت بذلك ايضاً المجموعات التروتسكية في بلدان أخرى ، لأن عدداً لا بأس به من الاعضاء ، في كل مكان وبخاصة في فرنسا ، وافقوا على وجهات نظر بورنهام وشاختمان .

هكذا كان تروتسكي ، عند غروب شمسه ، يرى للمرة الاخيرة الصخرة التي دفع بها نحو ذروة جبله الكئيب تتدحرج مجدداً على المنحدر .

في **٢٧** شباط/ فبراير **١٩٤٠** ، كتب تروتسكي وصيته . كان حرَّر في السابق عدة وصايا قصيرة ، لكنه لم يفعل ذلك إلا لهدف قانوني.، كي يضمن لناتاليا و(أو) ليوفا وراثة حقوقه كمؤلف . إلا أن الوثيقة التي نتحدث الآن عنها كانت ارادته الحقيقية الاخيرة ووصيته . كان كل سطر من هذه الوثيقة مفعماً بالشعور بنهايته الوشيكة . إلا أنه كان يفترض وهو يكتبها أنه قد يموت ميتة طبيعية أو ينتحر ، ولم يكن يفكر بأنه سيموت على يد قاتل . « **إن ضغطي الدموي المرتفع (والمستمر في الارتفاع) يخدع من هم بقربي بشأن وضعي الحقيقي . فأنا نشيط وقادر على العمل ، لكن النهاية قريبة بالطبع** » . ومع ذلك فخلال الاشهر الستة التي كانت باقية له ، لم يكن وضعه الصحي ، رغم طلعاته ونزلاته المعتادة ، على درجة من الخطورة بحيث يبرر هذا التوقع القاتم . وفي ملحق مؤرخ في **٣** آذار/ مارس كان يردد : « **أحس الآن . . بجيشان طاقة روحية بسبب ضغط الدم المرتفع ، لكن لن يدوم هذا طويلاً** » . كان يعتقد أنه في طور متقدم من تصلب الشرايين وأن اطباءه يخفون الحقيقة عنه . وبديهي أن مرض لينين الاخير وشلله طويل الأمد غالباً ما كانا يحضران ذاكرته ، وقد اعلن انه بدل معاناة هكذا عذاب قد ينتحر ، أو بصورة ادق « قد يختصر . . . سيرورة الاحتضار **البطيئة للغاية** » . ومع ذلك ، فقد كان يأمل ان يفاجئه الموت بجلطة في الدماغ ، لأنه ـ حسب قوله ـ « ستكون تلك أفضل نهاية يمكن أن أتمناها »[١٥٦] .

دون أن يدري ، كيّف **وصيَّته** إلى حد ما مع وصية لينين ، فالوثيقتان تنطوي

---

(١٥٥) تخلى شاختمان ومجموعته مذاك ، بصورة رسمية وجازمة ، عن كل علاقة بالتروتسكية واللينينية والتحقوا بالمجموعة الاشتراكية ـ الديمقراطية التي كان يقودها نورمان توماس ، وهي مجموعة بقي تأثيرها على السياسة الاميركية تافهاً ايضاً .

(١٥٦) المحفوظات ويوميات المنفى ، ص ١٣٩ ـ ١٤١ .

كل منهما على نص رئيسي وملحق اضيف بعد أيام . الا ان مضمونهما يعكس المفارقة المدهشة القائمة بين الاطباع والظروف . فوصية لينين غير شخصية اطلاقاً . لقد اضفى عليها شكل رسالة الى مؤتمر الحزب الذي سوف ينعقد ، وهو لا يقول ، ولا يوحي حتى بأنه يكتبها وهو يفكر بموته القريب . ومع انه هو أيضاً كانت تعذبه أخطر المآزق ، لم يكن يشعر بالحاجة لأن يجعل من إرادته قانون إيمان ، إذ كان يعرف تماماً أن مبادئه ومعتقداته سوف يكون مسلماً بها . كان ذهنه مشغولاً فقط بأزمة البلشفية (التي كان يعرف أن موته سيفجرها) وبطرق الحيلولة دونها ، وقد قال للحزب ما كان يعتقد انه فضائل كل من قادته الرئيسيين وعيوبه ؛ عرض عليه خطته لاعادة تنظيم اللجنة المركزية ، ونصح اللجنة بإبعاد ستالين عن منصب الأمانة العامة . وحتى رمقه الاخير ، بقي بكل كيانه قائد حركة كبرى . وعلى العكس ، كانت وصية تروتسكي شخصية الى ابعد الحدود . يعلن باقتضاب أنه ليس من حاجة هنا لأن يدحض افتراء ستالين الوضيع والاحمق ، لأنه ليس من لطخة واحدة على شرفه الثوري ، وان جيلاً ثورياً جديداً سوف يعيد الاعتبار لشرفه السياسي كما لشرف آلاف الضحايا . وبجملة واحدة ، يشكر الاصدقاء والانصار الذين بقوا مخلصين له في اصعب ساعات حياته ، لكنه لا يقدم لهم اية نصيحة ، ولا تنطوي الوصية على اية إشارة الى الاممية الرابعة . وقد كرس نصف النص لناتاليا :

« بالاضافة الى الغبطة التي منحنيها كوني مقاتلاً لأجل قضية الاشتراكية ، منحني القدر سعادة أن أكون زوجها . فخلال قرابة اربعين عاماً من الحياة المشتركة ، بقيت نبعاً لا ينضب من المحبة والشهامة والحنان . لقد عانت آلاماً عظيمة . . لكني اجد تعزية في كونها عرفت كذلك ايام سعادة » .

ويقطع هذا التعبير عن تقديره لها بإعلان إيمان :

« طوال الثلاثة والاربعين عاماً من حياتي الواعية ، كنت ثورياً ، وطوال اثنين واربعين عاماً ، قاتلت تحت راية الماركسية . لو كان علي أن أعود من البدء ، لكنت حاولت تحاشي هذا الخطأ او ذاك ، لكن مجرى حياتي الرئيسي كان بقي على حاله دون تبديل . سأموت ثورياً بروليتارياً ، ماركسياً ، مادياً ديالكتيكياً ، وبالتالي ملحداً لا يلين . وليس

ايماني بمستقبل البشرية الشيوعي أقل اتقاداً ، انه في الحقيقة اكثر صلابة ، حالياً ، مما كان في أيام صباي » .

وفي حين كان يكتب تلك السطور ، نظر من النافذة ورأى ناتاليا تقترب من البيت . وقد دفعته رؤيتها لأن يختتم بهذا المقطع الشعري :

« وصلت ناتاشا لتوها من الساحة الى الشباك وفتحته على مصراعيه كي يدخل الهواء بحرية اكبر الى غرفتي . استطيع أن أرى الرقعة النيِّرة الخضراء من العشب تحت الجدار والسماء الصافية الزرقاء فوقه ، وضوء الشمس في كل مكان . الحياة جميلة. فلتنظفها الاجيال القادمة من كل شر ، ومن كل اضطهاد ، ومن كل عنف وتستمتع بها كلياً » .

وفي فقرة مضافة ، يوصي لناتاليا بكل حقوقه الادبية ، ويبدأ فقرة جديدة بهذه الكلمات : « في حال متنا نحن الاثنين . . . » لكنه لم ينه هذه الجملة وظل ما تبقى من الصفحة ابيض . وفي ملحق ٣ آذار/ مارس ، عاد الى الحديث عن طبيعة مرضه ، وروى أنه ، هو وناتاليا ، قد اتفقا اكثر من مرة على أن من الأفضل الانتحار بدل ترك العمر يحول المرء الى حطام . « **احتفظ لنفسي بحق تحديد لحظة موتي . . . لكن مهما تكن ظروف هذا الموت ، سأموت بايمان لا يتزعزع بالمستقبل الشيوعي ، هذا الايمان بالانسان وبمستقبله يمنحني ، حتى في هذا الحين ، قدرة على المقاومة لا يمكن أن يمنحها اي دين** »(١٥٧) .

الآن ، كان ستالين قد قرر انه ليس في وسعه ترك تروتسكي وقتاً أطول على قيد الحياة . ويبدو هذا غريباً . فالمرء قد يتساءل : ما كان عساه يخشى بعد ؟ ألم يستأصل كل أنصار تروتسكي ، وحتى عائلاتهم ليمنع ظهور آخذ بالثأر ؟ وما الذي كان يمكن تروتسكي ان يفعله ضده في الطرف الآخر من العالم ؟ قبل سنوات ، كان يمكن ان يخشى ستالين رؤية تروتسكي يقود حركة شيوعية جديدة في الخارج ، لكن ألم يكن يدرك الآن ان الاممية الرابعة قد انهارت كلياً ؟

يبقى واقع ان ستالين لم يكن مطمئنا ، لم يكن في وسعه الايمان بأنه انجز كل ما يريده بالعنف والارهاب وبأن الاطلنطس البلشفية القديمة اختفت حقاً .

---

(١٥٧) المحفوظات ، ويوميات المنفى ، ص ١٣٩ ـ ١٤١ .

كان يتفحص وجوه الحشود التي كانت تهتف له ويحزر أي حقد رهيب يمكن ان يخفي تملقهم . فمع ذلك العدد الكبير من الحيوات المدمرة أو المحطمة، وذلك القدر من الاستياء واليأس حوله ، من في وسعه التكهن بما يمكن ان تأتي به الحرب من صدمات غير متوقعة ؟ وإذا كانت الاطلنطس القديمة ستظهر من جديد بصورة أو بأخرى ، عامرة بسكان جدد ، لكن مفعمين بالتحدي القديم ؟ حتى اذا كانت الاممية الرابعة عاجزة كلياً في الوقت الراهن ، من يمكن ان يقول كيف قد تعدل زلازل الحرب شكل المسرح السياسي ؟ فرب جبال انهارت الى الحضيض بينما غدت كثبان صغيرة ذرى لا تُطال . كل هذه المنظورات كانت تتمتع بالدرجة ذاتها من الواقعية بالنسبة لامال تروتسكي ومخاوف ستالين ، وكان تروتسكي الحي صانعها الاسمى والذي لا يكل . كان لا يزال الناطق بلسان الاطلنطس ، هاتفاً دائماً بأهوائها الوقادة وبصيحات قتالها . وعند كل منعطف حرج ، حين انتهت حملة فنلندا غير المجيدة ، وحين احتل هتلر الدانمرك والنروج ، وحين سقطت فرنسا ، كان يرتفع صوت من الجانب الآخر من المحيط ، مزمجراً بصدد عواقب تلك الكوارث ، واخطاء ستالين التي ساهمت في التسبب بها والاخطار المميتة التي تهدد الاتحاد السوفياتي . صحيح أن اتهاماته وإداناته وتحذيراته لم تكن تصل إلى الشعب السوفياتي ؛ لكنها كانت تظهر في الصحف الاميركية والانكليزية وغيرها ، وبما أن الحرب كانت تمتد الى الشرق ، ففي وسعها ، وسط الهياج العظيم وفوضى الانسحابات والهزائم العسكرية ، ان تصل أيضاً الى هناك .

في نهاية نيسان/ ابريل ١٩٤٠ ، توجه تروتسكي الى الشغيلة والفلاحين والجنود والبحارة السوفيات عبر رسالة بعنوان : **انهم يخدعونكم** . وثمّة من يزعم ان منشوراً يحمل تلك الرسالة أدخله سراً الى الاتحاد السوفياتي بحارة متعاطفون ، لكن من المشكوك به أن تكون الرسالة بلغت من هي مرسلة اليهم(١٥٨) . الا ان كل جملة في تلك الرسالة كانت من الديناميت . قال للشغيلة

---

(١٥٨) استشهد بنص الرسالة المؤرخة في ٢٣ نيسان ١٩٤٠ استناداً الى المحفوظات في تلك الفترة تقريباً ، اي قبل غزو الالمان للنروج بقليل ، غادر والترهيلد ، التروتسكي الالماني ، النروج آملاً بلوغ اميركا عبر الاتحاد السوفياتي واليابان . الا انه اختفى في الطريق دون ان يترك أثراً . ومن شبه المؤكد انه اوقف وأُعدم في الاتحاد السوفياتي . ومن الممكن ، دون ان يكون هذا مرجحاً ، انه حاول نقل رسالة تروتسكي الى شعب الاتحاد السوفياتي .

والجنود السوفيات :

« صحفكم تقص عليكم اكاذيب لمصلحة قايين ـ ستالين ومفوضيه المفسدين وسكريتيريه ورجال الغيبيو الخاصين به . ان بيروقراطيتكم متعطشة للدم ولا ترحم في الداخل ، لكنها هلعة حيال القوى الامبريالية » .

كانت نذالات ستالين تحرم الاتحاد السوفياتي من كل عطف في الخارج ، وتعزله وتقوي اعداءه . تلك النذالات كانت المصدر الرئيسي للاخطار التي تهدد الاتحاد السوفياتي . وقد دعا تروتسكي الشغيلة والجنود لأنْ لا يسلموا البورجوازية العالمية الصناعة المؤممة والاقتصاد المجمّع ، لأنه كان لا يزال يمكن أن يبنى على تلك الأسس مجتمع جديد اكثر سعادة .

« واجب الثوريين أن يدافعوا بالمناجذ والاظافر عن كل موقع احتلته الطبقة العاملة . . . كالحقوق الديمقراطية ، وسلالم الأجور ، وانجاز جبار بضخامة تأميم وسائل الانتاج والاقتصاد المخطط » .

لكن الشعب سوف يستفيد من مكاسب ثورة اوكتوبر هذه في حالة واحدة : اذا بدا قادراً على ان يصنع بالبيروقراطية الستالينية ما سبق أن صنعه بالبيروقراطية القيصرية . كلا ، لم يكن في وسع ستالين أن يسمح لصوت تروتسكي ، بمواصلة الدعوة الى الثورة .

وصف عدة ضباط سابقين في الغيبيو وشيوعيين أجانب ، بعد ذلك ، كيف كان يعد الهجوم النهائي ضد تروتسكي(١٥٩) . ففي نهاية الحرب الأهلية الاسبانية ؛ جرى نقل بؤر الغيبيو المتخصصة بتصفية التروتسكية الى المكسيك ، وبذل الستالينيون المكسيكيون كل ما وَسَعهم ليضرموا الهستيريا الجماعية « ضد الخائن القابع في كويواكان » . كانوا يتهمونه ، ليل نهار ، لا فقط بالتآمر ضد ستالين ، بل كذلك لمصلحة عمالقة النفط الاميركي ، وضد كارديناس ، وبالاعداد لاضراب عام وانقلاب فاشي في المكسيك . إلا أنه حتى آنذاك ، في بداية عام ١٩٤٠ ، اتهمت موسكو قادة الحزب الشيوعي المكسيكي بتبني موقف

(١٥٩) انظر مثلاً بودنز ، **This is my story** ، ص ٢٥٧ ـ ٢٦٣ وافادة اورلوف المستشهد بها آنفاً .

مُصلحٍ حيال التروتسكية ، وأعيد اولئك القادة بالذات الى القاعدة. واستؤنفت الحملة المعادية للتروتسكية بعنف متزايد . وقد اقترف تروتسكي ذاته خطأً صغيراً جاء بالماء الى طاحونة اعدائه . فقبل نهاية عام ١٩٣٩ بوجه التحديد ، وافق على ان يذهب الى الولايات المتحدة ويمثل بصفة شاهد امام اللجنة المسمّاة Dies Committe of the House of Representatives وكانت جهازاً يقوم بتحقيقات حول النشاطات المعادية لأميركا (ويستبق بذلك صيد الساحرات للسيناتور ماكارثي في الخمسينات) . كان السناتور دايز ، رئيس اللجنة ، يطلب حظر الحزب الشيوعي الاميركي ، بحجة أنه فرع لدولة اجنبية . وكان تروتسكي ينوي استخدام اللجنة منبراً لفضح النشاطات الاجرامية للغيبيو ضده وضد أنصاره ، لكنه أبلغ مسبقاً ، وبدون التباس ، أنه سيقف ضد حظر الحزب الشيوعي ويدعو شغيلة العالم لتحويل الحرب العالمية الى ثورة عالمية . ولكن لم يجر تنفيذ شيء من المشروع ، جزئياً لأن انصار تروتسكي ، ولا سيما بورنهام ، عارضوه بشدة ، و جزئياً لأن لجنة دايز التي بلغها نوع الافادة التي كان تروتسكي مستعداً لاعطائها لم تبْدِ أية رغبة في الاستماع إليه ولأن الحكومة الاميركية رفضت اعطاءه تأشيرة دخول . إلا انه مهما تكن الشروط التي كان ينوي على اساسها المثول امام اللجنة فقد سهل مجرد موافقته على القيام بذلك مهمة الستالينيين . فاتهموه بحبك الدسائس مع دايز وعمالقة النفط ضد الشعب الاميركي ؛ وفي اول ايار/ مايو ١٩٤٠ ، مر عشرون الف شيوعي بزيهم الخاص في عرض بمدينة مكسيكو ، رافعين رايات تحمل شعار : « فليُطرد تروتسكي ! » وقد رد بتكذيبات ، ونشر مراسلته المتعلقة بلجنة دايز ، وطلب ان تفتح المكسيك تحقيقاً رسمياً بصدد هذه المسألة(١٦٠) . اما الرئيس كاردناس فلم يُعِر أي أذن للاتهامات الستالينية . ومع ذلك ، فقد كان لتلك الاتهامات بعض التأثير ، وتساءل المتعاطفون مع تروتسكي إذا لم يكن سيُحرم من الملجأ ، لا سيما إذا هُزِم كاردناس في الانتخابات اللاحقة .

في تلك الفترة ، كان القاتل قد اصبح على عتبة المنزل في أڤينيدا فيينا . كان ذلك هو الرجل الذي قدم نفسه في صيف عام ١٩٣٨ ، على انه جاك

---

(١٦٠) لماذا وافقت على المثول امام لجنة دايز ، تصريح صحفي لتروتسكي في ١١ و١٢ كانون الاول / ديسمبر ١٩٣٩ . المحفوظات .

مورنار ، ابن دبلوماسي بلجيكي ، لسيلفيا أجيلوف ، التروتسكية الاميركية التي كانت تحضر كونفرنس تأسيس الاممية الرابعة . لم يجر النجاح ابداً في تحديد اسمه الحقيقي رسمياً ، مع أنه بدا ثابتاً إلى حد بعيد أنه رامون ميركادير ، ابن كاريداد ميركادير ، وهي شيوعية اسبانية كانت معروفة تماماً في بلدها خلال الحرب الأهلية interalia بعلاقاتها الوثيقة بالغيبيو . لم يكن لقاء مورنار بسيلڤيا اجيلوف في باريس عرضياً اطلاقاً ، بل كان موضوع تهيئة مسبقة بالكثير من العناية . فمنذ فترة كان عملاء الغيبيو يراقبون سيلڤيا واختها ، فقد كانت الاثنتان تروتسكيتين ، وكانت اخت سيلفيا تذهب بين الحين والآخر الى كويواكان كساعية وتقوم بأعمال سكريتيرية لتروتسكي . اما سيلفيا فكانت درست الفلسفة مع سيدني هوك ، وعلم النفس في جامعة كولومبيا ، وكانت تعرف الروسية والفرنسية والاسبانية ، وكان في وسعها تقديم مساعدة قيِّمة بشكل خاص للعجوز الذي كان غالباً ما يتذمر من الشلل في عمله لعدم وجود سكريتيرة روسية . هذه العانس المتوحدة ، التي لم يكن مظهرها مغرياً إطلاقاً ، وجدت نفسها فجأة وفي أثرها شاب جميل بالغ الأناقة ، هو جاك مورنار . وقد وقعت ، وامضت معه في فرنسا عدة أشهر من الشرود الكلي ، وكأنها في حلم . من حين لآخر ، كان سلوكه يحيرها : كان يبدي انعدام اهتمام كلياً بالسياسة بحيث كان ذلك يشبه البلادة الفكرية ، وهو أمر مذهل لدى رجل مثقف كان والده دبلوماسياً . كانت له علاقات غامضة ومغلقة في عالم التجارة والصحافة ، وحتى بيئته العائلية كانت ملغزة ، وكانت القصص التي يرويها لها عن نفسه غريبة وحتى غير متماسكة . وكان ينفق دون حساب ، كما من نبع مال ، على الولائم واللهو[١٦١] .

في شباط/فبراير **١٩٣٩** ، عادت سيلفيا اجيلوف الى الولايات المتحدة ، وفي ايلول/ سبتمبر التحق بها في نيويورك . ومن جديد حيَّر سلوكه سيلفيا قليلاً . فلقد ابلغها انه سيصل الى الولايات المتحدة بصفة مراسل اميركي لصحيفة بلجيكيَة ، لكنه وصل بجواز سفر كندي مزور باسم مستعار هو فرانك جاكسون ، وأعلن أنه فعل ذلك للتملص من الخدمة العسكرية في بلجيكا . زعم أنه لم يأت من قبل الى نيويورك ، ومع ذلك كان يعرف التحرك في المدينة مثل شخص ليس المكان غريباً أبداً بالنسبة اليه . ولكنه كان يرد على كل الاسئلة المحتارة بأجوبة

---

(١٦١) م. كريبو ، عرفت قاتل تروتسكي ، في فرانس - اوبسرڤاتور ، ١٩ أيار ١٩٦٠ .

مقبولة ، وبما انه لم يتوقف لحظة عن لعب دور الفتى المنغمس في الملذات والعيَّاش، لم يثر أي شك ذي طابع سياسي . وأسوأ ما كان يمكنها ان تأخذه عليه طيشه وميل للتشدق عنده . وقد حاولت تحسينه ، وجعله يهتم بالتروتسكية لكنه استقبل كل محاولاتها بضجر عميق ، وبقي ذهنه مغلقاً في وجه تلك المحاولات . لذا حين اعلن لها بعد قليل من وصوله إلى نيويورك انه ماض الى مكسيكو بصفة عميل بيع ومدير مؤسسة تصدير واستيراد ، لم تجد في ذلك أي غريب . وحين حثها على ان تلتحق به في مكسيكو وافقت على ذلك بحماس .

وصل الى مكسيكو قبل منتصف تشرين الأول/ اوكتوبر ، ووصلت هي في كانون الثاني/ يناير . وللحال ذهبت تتعبد في مقام افينيدا فيينا ، حيث لا شك انها نقلت رسائل من تروتسكيين اميركيين . وبعد قليل ، عادت للمساعدة في اعمال السكريتيرية . وفي العادة كان جاكسون يأتي بها الى أڤينيدا ڤيينا في سيارته المترفة ، ثم يعود فينتظرها في نهاية عملها عند المدخل ، وقد تعرف اليه الحراس مع الوقت ، وغالباً ما كانوا يثرثرون معه . إلا أن أشهراً عديدة مرت قبل أن يغامر داخل الحصن (كان يتظاهر دائماً برسم ابتسامة تنازل حين يجري الحديث عن نشاطات سيلڤيا السياسية ، ولارضائها بالضبط بدأ يظهر اكثر قليلاً من الفضول بهذا الصدد) . وقد التقى صدفة على عتبة المنزل ، بألفرد ومارغريت روسمر ، ولم يمر وقت حتى كانت العلاقات مع « هذا الشاب الممتلىء لطفاً ومجاملة » ، « زوج سيلفيا » ، تأخذ طابعاً أليفاً . وقد دعاهما مراراً للعشاء في مكسيكو ، واخذهما في رحلات تعرُّف إلى معالم البلاد .

في الساعات التي كان ثمة اعتقاد أنه يمضيها في العمل بصفة رجل اعمال ، كان يتصل برجال الغيبيو الذين يتلقى منهم اوامر ، وكما يبدو بأمه التي كانت آنذاك في مكسيكو ، إذا صدقنا عدة مصادر مختلفة . لم تكوِّن سيلفيا اي فكرة عن تلك الاتصالات ، وهو لم يقدم « زوجته » أبداً لأمه . في مرة واحدة فقط صدرت عنه حماقة ، جعلت سيلفيا تأخذ حذرها . فقد اعطاها عنوان مكتبه كرجل اعمال ، وظهر أن ذلك العنوان من نسج الخيال . وقد اعتذر لتلك « الغلطة » وأعطاها عنواناً آخر ، ولما كانت سيلفيا قد تذكرت انه اقترف « خطأ » مماثلاً في باريس في احدى المرار ، فقد ضايقها ذلك الى درجة انها طلبت من

مارغريت روسمر ، وهي شخص فطن وسريع الملاحظة ، ان تحقق في القضية . الا انها اكتشفت ان العنوان الجديد حقيقي ، وحتى الزوجان روسمر كانا مقتنعين بأنه لو كان هنالك امر مشبوه ، ولو قليلاً ، في قضايا مورنار جاكسون ، فذلك لم يكن له ، على الاقل ، أية علاقة بالسياسة ، بحيث لم يحاول احد ان يتفحص عن كثب اكثر طبيعة مكتب اعماله (جرى بعد وقت طويل اكتشاف ان المكتب ذاته كان يستخدمه العديد من ستالينيي المحلة من ذوي الشأن). ولقد كان لدى سيلفيا ما يكفي من التوسوس بحيث لم تصطحب جاكسون ابداً الى داخل بيت تروتسكي . اعلنت حتى لتروتسكي بأنه لما كان زوجها جاء الى المكسيك بجواز سفر مزور فربما تسببت زيارته لتروتسكي بمضايقات غير مفيدة ، وحين ذهبت في اذار/ مارس الى نيويورك حصلت من جاكسون على وعد رسمي بأنه لن يدخل في غيابها ابداً الى المنزل في أفينيدا فيينا .

إلا انه دخله مع ذلك بعد قليل . كان روسمر قد مرض ، فطُلب من جاكسون أن ينقله الى المستشفى الفرنسي في مكسيكو ، ثم يعيده ، وأن يشتري أدوية ، إلخ . . وفي حين حتى القدر كان يسهل هكذا له الطريق ، كان محترساً كفاية فكتب الى سيلڤيا يشرح لها معتذراً سبب اخلاله بوعده . ورغم الالفة المتنامية مع سكان منزل تروتسكي ، سوف تنقضي ثلاثة اشهر اخرى قبل أن يتعرف الى تروتسكي ذاته . يبدو أنه حتى ذلك الحين ، لم يكن قد أسند الى جاكسون دور القاتل . كانت مهمته تتمثل بالأحرى بالتعرف الى المنزل وترتيبه ودفاعاته ، وباستكشاف التفاصيل المتعلقة بالمسار اليومي لحياة تروتسكي ، وأي نوع آخر من المعلومات التي يمكن أن تكون مفيدة لتنفيذ هجوم جماعي مسلح سوف يتولاه آخرون .

سوف يكون الرجل المكلف بهذا الهجوم هو داڤيد ألفارو سيكايروس ، صديق ريفيرا القديم ، وهو رسام شيوعي مشهور وقائد لعمال المناجم المكسيكيين . كان قد عاد في العام السابق من اسبانيا حيث قاد عدة مفارز خلال الحرب الأهلية . وهو لم يغادر المعركة الا على رأس دزينتين او ثلاث من الباقين على قيد الحياة . وأن يكون في وسع فنان مرموق الى هذه الدرجة ، وحتى بطولي ، الموافقة على ان يكون قاتل تروتسكي ، أو حتى التطوع للقيام بهكذا عمل ، يعطي فكرة كافية عن الاخلاق الستالينية في تلك السنوات . بالطبع ، كانت عادة قومية في المكسيك أن تُسوّى الحسابات السياسية بالمسدس . والفن

والثورة وقطع الطرق كانت وثيقة الترابط في شخصية سيكايروس ، وقد كان فيه الكثير من القرصان الاميركي اللاتيني . كان أقام في اسبانيا علاقات وثيقة بالغيبيو ، ويقول البعض مع عائلة ميركادير . ورغم كل تلك الخدمات المندفعة التي قدمها ، تعرض في الفترة الاخيرة للوم الحزب الشيوعي لاساءة استخدامه أموال الحزب . وقد أذله ذلك ، وكان يتحرق شوقاً لاستعادة الاعتبار عن طريق اثبات إخلاصه بعمل خطر ويمكن المفاخرة به . هكذا وضع مخطط هجوم مسلح على منزل تروتسكي ، ولتنفيذ ذلك المخطط استدعى رجالا قاتلوا سابقاً تحت إمرته في اسبانيا ، وبعض عمال المناجم المكسيكيين(١٦٢) .

كان الجميع قد عاشوا في أڤينيدا فيينا بانتظار هكذا هجوم . فقد علّق تروتسكي وهو يقرأ الشتائم التي تطلقها ضده الصحف الستالينية المحلية بقوله : « لا يكتب الناس كل هذا الا حين يكونون مستعدين للرد على الريشة بالرشاش » . وفي الحقيقة أنه جرى تحصين بيته بناء لالحاح انصاره الاميركيين . كانت ابواب مصفحة بشكل متين ، واسلاك مكهربة ، واشارات انذار آلية ورشاشات تسد الطريق أمام المهاجمين المحتملين ، وقد زيد عدد الحراس ، وكان عشرة رجال شرطة مكسيكيون يحرسون في الخارج وحول المنزل ، وفي الداخل ، كان رجال يتولون الحراسة على المدخل ليل نهار ؛ وفي قاعة الحراسة ، كان هناك باستمرار اربعة او خمسة رجال واسلحتهم جاهزة للاطلاق . لا شك ان بعض اولئك الحراس ، ولا سيما بعض الشباب الاميركيين من عائلة بورجوازية ، المتخرجين حديثاً من المعهد او الجامعة ، لم يكونوا مؤهلين تماماً لهذا النوع من العمل ؛ لكن لم يكن في اليد حيلة ، والشغيلة القليلون الاعضاء في المنظمة التروتسكية نادراً ما كان يمكنهم ترك عملهم وعائلتهم للمجيء الى كويواكان . وكان الرجال يأتون ويمضون. وبعد اشهر من هذا العمل الرتيب ، كان الحارس يصبح بسهولة عرضة للانهاك وقلة الانضباط ، بحيث ينبغي استبداله ، وكان محتماً بالتالي ، أن يكون حارس المدخل بين الحين والآخر شخصاً يفتقر الى الخبرة . وقد كان روبرت شلدون هارت ، الذي تولى الحراسة

(١٦٢) الجنرال ل. أ. س. سالازار ، اغتيال في مكسيكو ، الترجمة الفرنسية بعنوان ، هكذا جرى اغتيال تروتسكي.. ترجمه من الاسبانية جان تالبوت ، باريس ١٩٤٨ . (حصلت على بعض التفاصيل المتعلقة بطبع سيكايروس وتاريخه من كاتب اميركي عرفه جيداً خلال الثلاثينات .)

ليلة هجوم سيكايروس ، وصل من نيويورك في ٧ نيسان/ ابريل، وخلال الاسابيع الستة التي أمضاها في كويواكان ، وجد فيه رفاقه ، وتروتسكي بالذات ، شخصاً ودوداً ومخلصاً ، لكن ضعيفاً وسريع التصديق . بعد وقت طويل ، تذكر رفاقه أنه سرعان ما ارتبط بصداقة مورنار جاكسون وغالباً ما كانوا يرونهما يخرجان معاً . لم يكن ثمة اي شك في ان امن تروتسكي يتوقف الآن على بعض الظروف العرضية . الا أن تلك الظروف لم تكن عرضية اطلاقاً ، لأنها كانت تعكس الوضع العام ، والعداوات الشديدة حياله ، والشح الكبير في انصاره ومحدودية امكاناتهم .

في ٢٣ أيار /مايو ، اشتغل تروتسكي بقسوة طيلة النهار ونام متأخراً ، ولم يتمكن من ان يغفو الا بعد أن أخذ حبة منوِّم . حوالى الرابعة صباحاً ، أيقظته ضجة شبيهة بفرقعة الرشاشات . ولما كان متعباً ولا يزال في خدر بداية الاستيقاظ اعتقد لوهلة ان الامر يتعلق بمكسيكيين يحتفلون في الخارج بأحد أعيادهم القومية او الدينية الصاخبة ، باطلاق المفرقعات والألعاب النارية . « **لكن الانفجارات كانت قريبة جداً ، في قلب الغرفة القريبة مني بالذات وفوق رأسي . غدت رائحة البارود أكثر حدة ونفاذاً . . كانوا يطلقون علينا النار**[١٦٣] » . كانت ناتاليا قد قفزت وجعلت من جسدها متراساً له . وبعد لحظة ، اجبرته والرصاص ينهمر على التمدد على الارض ، في زاوية بين السرير والحائط وإذ دفعها بدوره للتمدد على الارض ، غطته من جديد بجسدها . بقيا لابدين في الظلمة ، بصمت ، فيما كان مهاجمون غير مرئيين يُبقون الغرفة تحت رمي كثيف ومتصالب وطويل ينطلق من النوافذ والأبواب .

ربما أُطلقت مئتا رصاصة ، سقطت منها مئة على السرير ، أو قربه ، وفيما بعد جرى احصاء ٧٠ ثقباً في الجدران والابواب . ولما كانت ناتاليا تحاول النهوض شدها مجدداً الى الارض وبقيا هناك دون حراك ، رائحة البارود في المنخرين، وهما يتساءلان ما الذي حل بالحراس والشرطة في الخارج .

فجأة سمعا صرخة حادة خلف الحائط والباب : « جدّاه ! » كان المهاجمون

---

(١٦٣) كتب تقريراً عن الحادثة في ٨ حزيران / يونيو ١٩٤٠ ظهر بعد موته بعنوان ستالين يريد موتي ، في **Fourth International** ، آب / اغسطس ١٩٤١ .

قد تدفقوا على غرفة سيڤا . واعلن تروتسكي فيما بعد ان صوت الفتى « بقي الذكرى الأكثر مأساوية من تلك الليلة » . وتتذكر ناتاليا : « تلك الصرخة جعلت القشعريرة تسري في عظامنا . . ثم ران الصمت . همس تروتسكي : « لقد خطفوه » . وكما في حلم رأت ناتاليا شبح رجل على ضوء لهب قنبلة حارقة انفجرت في غرفة الولد ، « تقويسة طاسة ، ازراراً لامعة ، وجهاً مستطيلاً » . توقف الرجل على عتبة غرفة تروتسكي المتصلة بغرفة الولد ، كما للاطمئنان الى انه لم يعد ثمة علامة حياة ، ومع انه بدا أن كل حياة قد أُزهقت ، اطلق صلية اخرى على السريرين واختفى . كان اطلاق النار يدوي الآن في الفناء ، وكانت غرفة الولد تلتهمها النار . لم يكن سيڤا هناك وكان يمكن ان يرى المرء خيطاً رفيعاً من الدم يقود الى الباحة المحاذية ، وتتذكر ناتاليا :

« ثم خيَّم الصمت . . صمت لا يحتمل » ، وفكرتُ : « اين يمكن ان اخبئك فتكون آمناً ؟» كنت افقد قوتي بنتيجة التوتر والطابع اليائس للوضع . وفكرت بأنهم سيعودون بين حين وآخر للاجهاز عليه . أين كان كل سكان البيت ، آل روسمر ، امناء السر ، الحراس والشرطة ؟ هل قُتلوا جميعاً ؟ تكوَّن لدينا انطباع بأن سكينة الليل تشبه سكينة القبر ، سكينة الموت بالذات . وفجأة سمعنا الصوت ذاته ، صوت حفيدنا ، لكنه كان يصدر هذه المرة عن الباحة المحاذية ، وكان يرن بصورة مختلفة ، رنين جملة موسيقية متقطعة ، بشجاعة وفرح : « آلـ . . . فرد مار ــ غيـ ـ ر يـ ـ ت ! » كان هذا الصوت يعيدنا الى الحياة » .

لقد نجح سيڤا هو الآخر في النجاة من القتلة إذ اختبأ تحت سريره ، ولما كان يعتقد أن جـدّيه قُتلا فقد خرج ، رغم جرح في إبهام رجله ، ليبحث عن الزوجين روسمر ، حتى قبل أن يتوقف اطلاق النار[١٦٤] .

خلال دقائق كان جميع سكان البيت قد تجمعوا في باحة الطعام . لم يُقتل أحد وحتى لم يكن احد مصاباً بجرح بليغ . وكان الحراس لا يزالون مذهولين لدرجة انهم لم يتحققوا مما حصل لرجال الشرطة في الخارج . هرع تروتسكي إلى الشارع ووجد الحراس منزوعي السلاح ومقيّدين . تلت ذلك روايات قصيرة ،

(١٦٤) ناتاليا سيدوڤا ، حياة ليون تروتسكي وموته .

وسريعة ، ومرتجفة . كانت الساعة تقارب الرابعة صباحاً حين فاجأ اكثر من عشرين رجلاً بلباس الجيش والشرطة الحراس وتحكموا بهم دون اطلاق رصاصة واحدة . حينئذ اقترب المهاجمون ، تحت إمرة قائد ، من المدخل ، وكلّم احدهم روبرت شيلدون هارت الذي كان يحرس . وقد فتح الأخير البوابة للحال ، فتدفق المهاجمون الى ساحة المنزل وأرهبوا الحراس الباقين ، ووضعوا رشاشاتهم خلف الاشجار في نقاط مختلفة أمام غرفة نوم تروتسكي ، واحتلوا عدة مواقع وفتحوا النار . كانوا يستهدفون بالطبع قتل تروتسكي وعائلته ، فهم لم يوجهوا نارهم نحو اي شخص آخر . دامت الغارة عشرين دقيقة . وإذ اقتنع المهاجمون بأنه لا يمكن أن يكون تروتسكي أو زوجه او حفيده بقوا على قيد الحياة ، انسحبوا من المكان ، وهم يطلقون قنابل حارقة في المنزل وقنبلة قوية (لم تنفجر) في باحة الطعام . وقد هرب البعض في سيارات لتروتسكي ، كانت تبقى عادة في الساحة ، مستعدة للانطلاق في اية لحظة ، ومفاتيحها فيها. أما شيلدون فاختفى مع المهاجمين ، وقد أكد جميع رجال الشرطة الذين رأوه انه لم يُبد أية مقاومة لكن اثنين من المهاجمين جراه الى الخارج وهما يمسكان بذراعيه بقوة .

كان الفرح والارتياح لـ « النجاة العجائبية » رد الفعل الأول ، وقد حفز ما حصل روح السخرية لدى تروتسكي . أمتعه ان يرى هجوماً بتلك القوة ، ومعداً بكل تلك العناية ، ينتهي الى الفشل بتلك الطريقة البائسة ، لمجرد أنه هو وناتاليا والولد قد فعلوا الشيء الوحيد الذي يمكنهم فعله في حالة يائسة الى ذلك الحد ، اي الارتماء تحت أسرتهم . مذاك ، اصبح ستالين وعملاؤه مكشوفين ، ومثاراً للسخرية . لم يعد هنالك ادنى شك حول شخصيةالمحرض على الهجوم ، والآمر به والمستفيد منه . لكن كانت تخالط الحيرة تلك النشوة وهذه السخرية الظافرة ، كان المهاجمون يعرفون تماماً ترتيبات الدفاع عن الحصن الصغير ، ويعلمون حتى انه بامكانهم الهرب في سيارات ضحاياهم . كيف أمكن شيلدون أن يتركهم يدخلون ، من دون تردد ظاهر ؟كان ضعيفاً وسريع التصديق لكن من المؤكد انه قبل ان يفتح الباب اقترب منه واحد يثق به ويعرف صوته ! من كان هذا ؟ أو ان المهاجمين دخلوا الى الساحة بعد أن تسلقوا الجدران العالية واجتازوا الاسلاك المكهربة . لماذا إذاً خطفوا شيلدون ؟ (الذي لا بد أنهم قتلوه) .

بعد اقل من نصف ساعة ، كان الكولونيل سالازار ، قائد الشرطة السرية المكسيكية قد وصل الى مكان الحادث . وهاكم كيف وصف المشهد[١٦٥] .

« طلبت رؤية تروتسكي الذي وصل بعد قليل ترافقه امرأته . . . كان بالبيجاما وقد ارتدى فوقها مِبْذلاً . استقبلاني بمودة . . لكنه كان يحتفظ بهدوء مذهل ، كما لو أن شيئاً لم يحدث . . كان تروتسكي يبتسم وعيناه لامعتان وصافيتان خلف نظارتيه ـ عينان متفحصتان وثاقبتان باستمرار ـ بنظرات حادة ونافذة ، ومظهر ساخر ، وميفيستوفيلي[*] قليلاً . وكان شعره . . . شبه الابيض . . . يبدو مشعثاً قليلاً ، مردوداً الى الخلف ، وبعض الخصل المبعثرة تسقط على الجانبين . . . كان هنالك تناقض مذهل بين تروتسكي وناتاليا . فهو نشيط وذو سلطة . . . وملامحه لا تزال شابة وحازمة . . بينما هي لطيفة وهادئة وشبه مستسلمة » .

لكن الاثنين كانا يتصرفان بهدوء وبتحكم بالذات تامين ، بحيث بدا ذلك غير طبيعي لقائد الشرطة . وقد ساوره الشك للحال : هل كان هنالك حقاً محاولة اعتداء على حياتهما أم أن في الأمر مسرحية ؟ اصغى سالازار لتروتسكي الذي كان يروي له ، في حجرته ، بدقة وتفصيل ، ما حدث له قبل قليل ، لكن دون ادنى انفعال . ومن جديد راح يفكر : « **هذا العدد من المهاجمين ، وذلك القدر من الاسلحة النارية وحتى القنابل ، ومع ذلك لم يحصل لهم اي شيء . يبدو هذا غريباً** . وعاد الى الجنينة التي كانت تبدو بصبّارها المعتنى به بالكثير من المحبة اكثر هدوءاً من اي وقت مضى . سأل الضابط تروتسكي إذا كان يشتبه بأحد كـ « مسؤول عن الاعتداء » .

« بالطبع ، نعم ! ـ أجاب بلهجة جازمة تماماً ـ تعال » .

وضع ذراعه اليمنى على كتفي وقادني ببطء نحو اقفاص الارانب . . توقف ، وارسل حوله نظرة دائرية كما للتأكد من اننا لوحدنا ، وبعد أن وضع يده اليمنى قرب شفتيه ، كما لو كان يريد أن يهمس بسر ليس ثمة اعمق منه ، قال لي بصوت خافت وبقناعة راسخة :

(١٦٥) سالازار ، المرجع المذكور ، ص ٦ الى ١٠

(*) نسبة الى ميفيستوفيليس ، رمز الشيطان في فوست لغوته (م) .

« إن المسؤول عن الاعتداء هو يوسف ستالين ، بواسطة **الغيبيو** » .

كان الضابط الآن واثقاً من ان تروتسكي يخدعه . « **نظرت إليه بذهول . . . تحولت شكوكي الأولى إلى يقين وقلت في نفسي مجدداً** : « **انها مسرحية ، لا شك في ذلك** » . وحين نصحه تروتسكي باستجواب الستالينيين المحليين الاكثر بروزاً ، الذين يمكن ان يعرف بواسطتهم الكثير حول الهجوم ، استنتج سالازار ان « الثوري العجوز يحاول صرف انتباهي عن الطريق الحقيقي » . واصدر الامر بتوقيف الخدم الثلاثة اولاً ، وكانوا طاهية ، ووصيفة ومستخدماً ، بالاضافة الى اثنين من امناء سر تروتسكي ، هما أوتو شوسلر وشارلز كورنيل. وقد اخذ التحقيق عندئذ منحى سمح بالاشاعات الاكثر إثارة . قال البعض ان دييغو ريفيرا نظم الهجوم وأن المهاجمين اكتسحوا المنزل وهم يهتفون « يعيش المازار » (كان هذا اسم الجنرال الرجعي الذي دعم ريفيرا ترشيحه للرئاسة ضد كارديناس). وكان آخرون يؤكدون أن تروتسكي أو أنصاره رتبوا الهجوم لتتجه الشكوك نحو الستالينيين ويفقدهم ذلك اعتبارهم(١٦٦) .

ومن الغريب أن قائد الشرطة السرية لم يكن يشعر بأي عداوة تجاه تروتسكي ، ولم تكن له مصلحة شخصية اطلاقاً في القضية ، لكن في ذهن جندي محترف وشرطي ليس لديه اي اطلاع على القضايا والشخصيات والاجواء الخاصة بالصراع الرهيب الذي كان الهجوم يستهدف وضع نهاية له ، كان لا بد أن تبدو هذه القصة ألغازاً بألغاز . . كان قد أحصى لتوه ٧٣ أثراً للرصاص في الحائط القائم فوق سرير تروتسكي ، بحيث بدت له « النجاة العجائبية » غامضة إلى ابعد الحدود . كان يلاحظ سيطرة تروتسكي وناتاليا على ذاتيهما ، ولما كان محارباً قديماً في العديد من الحروب الأهلية في المكسيك فكر بأنه لم ير في حياته احداً يتصرف بهذا الهدوء بعد الخطر مباشرة(١٦٧) . بدت دقة تروتسكي ودعابته في غير محلهما ومثاراً للشبهات (لم يدرك ان الهدوء « غير العادي » لدى الرجل ، وشجاعته ودعابته كانت من طبيعته الا بعد اشهر عدة ، حين اضطرته

---

(١٦٦) لم تنفرد الصحف المكسيكية الموالية لستالين في نشر مراسلة توحي بان تروتسكي ومن في بيته اختلقوا الهجوم ، بل شاركتها في ذلك The Nation الصادرة في نيويورك . وقد علّق تروتسكي كالتالي : « اي نوع خسيس من الزحافات ، هؤلاء « الراديكاليون » في The Nation » (١٨ حزيران/يونيو ١٩٤٠ ، المحفوظات)

(١٦٧) سالازار ، المرجع المذكور ، ص ١٠ - ١١ و ١٠٠ .

مهامه لرؤية تروتسكي مراراً كثيرة) . من جهة اخرى . . كانت الغارة ، حتى من وجهة النظر المكسيكية ، بالغة الضخامة بحيث كان يصعب على سالازار ان يعتقد انها يمكن ان تكون من فعل الستالينيين الذين يدعمون رجلاً لم يكن يحس نحَوه بأية صداقة ، هو كارديناس . كما ان سلوك حراس تروتسكي الشخصيين أثار حذره ايضاً . لماذا بقوا سلبيين الى تلك الدرجة الغريبة ؟ لماذا لم يطلق المهاجمون الرصاص على اي منهم ؟ كان سالازار مقتنعاً بأن شيلدون كان متواطئاً مع المهاجمين ، وهرب معهم بكامل ارادته . بينما اكد تروتسكي بشدة ان شيلدون كان ضحيتهم ، لا شريكهم ، لكنه لم يكن يستطيع اعطاء اي دليل . كان هناك بعض الحقيقة في استدلال سالازار ، فالغارة ما كان يمكن أن تتم من دون تعاون شخص من محيط تروتسكي ، او على الاقل على علاقة وثيقة بقاطني المنزل . من كان هذا ؟ كان لا بد أن تستلفت هذه المسألة الآن انتباههم وتثير حذرهم وتيقظهم .

بعد أسبوع من ذلك التاريخ ، احتج تروتسكي المستاء من الشكوك الموجهة ضده وضد ريڤيرا ، احتج لدى الرئيس كارديناس على توقيف سكريتيريه(١٦٨) . استند الى ما كان يعرفه (inter alia عن طريق رايس وكريڤيتسكي) بصدد نشاطات الغيبيو في العديد من البلدان وطلب ان يستجوب القضاء او الشرطة الامينين العامين السابق والحالي للحزب الشيوعي المكسيكي ، بالاضافة الى سيكايروس ولومباردو توليدانو . وقد أمر الرئيس باطلاق سراح سكريتيري تروتسكي فوراً . لكن لفترة من الزمن ، سار التحقيق في مسار غير سليم ، ونشط تروتسكي لدحض الاتهامات الموجهة ضده، مدافعاً عن معاونيه ومؤكداً براءة روبرت شيلدون هارت . قال إنه لو كان هارت عميلاً للغيبيو لكان استطاع طعني خلسة بخنجر ، من دون كل هذه الجلبة التي سببها هجوم حاشد ومثير . في غضون ذلك ، اعتقلت الشرطة العديد من المهاجمين الذين اكدوا جميعهم ان سيكايروس كان قائدهم ، لكن سيكايروس ذاته عمد إلى الاختفاء(١٦٩) . واخيراً في ٢٥ حزيران/

(١٦٨) رسالة من تروتسكي الى الرئيس كارديناس ، ٣١ ايار/ مايو ١٩٤٠ . المحفوظات .

(١٦٩) سالازار ، المرجع ذاته ، ص ١٩٥ . بعد ان اوقف سيكايروس في ٤ تشرين الاول/اوكتوبر ١٩٤٠ (إثر إغتيال تروتسكي) ، لم ينكر مشاركته في الهجوم في ايار ، لكنه اكد ان الحزب الشيوعي لم يكن له علاقة بكل ذلك ، وانه لم يكن ينوي قتل تروتسكي ، بل التسبب بصدمة نفسية والاحتجاج ضد وجود تروتسكي ، وبعد ان اطلق سراح سيكايروس بكفالة ، اختفى من المكسيك عدة سنوات .

يونيو ، اكتشف رجال سالازار جثة شيلدون هارت ، مدفونة في مزرعة صغيرة خارج مكسيكو ، وكان قد استأجر تلك المزرعة رسامان معروفان ، كلاهما ستالينيان .

في الرابعة صباحاً ، بعد شهر ويوم من الاعتداء ، وصل سالازار حاملاً هذا الخبر الى منزل تروتسكي ، وقد رفض الحراس ايقاظ تروتسكي ، فعاد الى المزرعة مع احد الحراس للتعرف على الجثة .

« وصلنا فجراً إلى أسفل المنحدر ، وكانت الارض الموحلة تجعل الصعود بالغ الصعوبة . كانت الجثة ممددة على المحفّة حيث تركتها ، خارج المنزل . . تعرَّف أوتو . . فوراً على رفيقه » .

« كان قد طلع النهار ، حين وصلنا إلى سان آنجل . وُضعت الجثة في فناء ، ووصل الجنرال نونيز بعد قليل وأمر بغسلها ، ثم عزز الحراسة لأن الخبر انتشر في الدسكرة ، وبدأت جماهير الفضوليين تتدفق . وبعد أن انتهت الشكليات ، انسحب الحاكم . وفجأة علا الصخب .

ـ تروتسكي ! تروتسكي !

« كان هو في الواقع . كانت الساعة اشارت الى العاشرة حين اقترب المنفي الروسي العجوز من الجثمان . بدا حزيناً ، منهكاً . وقد بقي طويلاً وهو يتأمل سكرتيره السابق . كانت عيناه مغرورقتين بالدمع . هذا الرجل الذي قاد ثورة كبرى ، وبقي حياً بعد معارك دامية ، ورأى كل اصدقائه واعضاء عائلته يختفون الواحد بعد الآخر ، والذي لم يهزه في الاخير اعتداء كان على وشك أن يكلفه حياته ، وحياة امرأته وحفيده ، هذا الرجل كان يبكي الآن بصمت(١٧٠) » .

إلا ان لغز دور هارت لم يتم حله أبداً . استمر سالازار يؤكد ان هارت كان عميلاً للغيبيو ، وان الغيبيو قتلته لأنها كانت تخاف ان يقع في يد الشرطة المكسيكية ويتكلم اكثر من اللازم . وقد اثبت هذا الافتراض جزئياً شهود عيان اعلنوا انهم رأوا هارت يذهب ويجيء حول المزرعة بكل حرية ويتنزه من دون

---

(١٧٠) سالازار ، المرجع المذكور ، ص ٧٦ ـ ٧٧ .

حراسة . بمقابل ذلك ، اصر تروتسكي على انه كان الثامن بين امناء سره الذي يهلك بهذه الطريقة ، وأن كل ما كان يعرفه هو عن هارت ويعرفه رفاقه الاميركيون كان يناقض رواية سالازار(١٧١) . وقد ارسل رسالة تعزية مؤثرة الى اهل الضحية ، واستوضع لوحة ، تحية لذكرى « بوب » . مقابل تلك اللوحة ، سوف ينتصب بعد قليل شاهد قبر تروتسكي الخاص به .

بعد **٢٤** أيار/ مايو ، استمرت غيوم القدر تتبلد ثقيلة وخانقة فوق الحصن الصغير في أڤينيدا ڤيينا . يوماً بعد يوم ، واسبوعاً بعد اسبوع ، كان سكان الحصن ينتظرون هجوماً جديداً ، وفي نظر تروتسكي كانت نزوة من نزوات الحظ هي التي ابقته على قيد الحياة . كان ينهض صباحاً ويقول لناتاليا : « أترين ، فهم لم يقتلونا في الليلة الماضية ، ومع ذلك فأنت لا تزالين مستاءة» . ومرة أو اثنتين ، اضاف متأملاً : « نعم ياناتاشا ، لقد حصلنا على تأجيل للتنفيذ(١٧٢). بقي فاعلاً ونشيطاً كما دائماً ، متدخلاً في كل مرحلة من تحقيق الشرطة ، ماثلاً أمام المحكمة ، راداً على الافتراءات التي لا تنقطع ، معلقاً على احداث من مثل استسلام فرنسا وتصريح مولوتوف الذي يدعم فيه الرايخ الثالث ، ومستمراً في مناقشة وضع السود في الولايات المتحدة ، وتكتيك الانهزامية الثورية ، وهلم جرا . وفي زيارة إليه قبل منتصف حزيران / يونيو ، رجاه فريق من الاصدقاء الاميركيين أن يدخل في السرية ويأخذ اسماً مستعاراً ويسمح بإدخاله خفية الى الولايات المتحدة حيث كانوا متأكدين من أنه يمكنهم ان يقدموا له ملجأ سرياً وأميناً . وقد رفض الاستماع الى توسلاتهم وقال لهم انه لا يستطيع الاختباء لانقاذ حياته والقيام بعمله بصورة خفية . كان عليه مقابلة الصديق كما العدو في وضح النهار ، وعلى رأسه الحاسر أن يتحمل « ليل الجحيم الاسود » حتى النهاية(١٧٣) .

لم يرضخ إلا آسفاً لأصدقائه وللسلطات المكسيكية ، الذين حثوه على تعزيز دفاعات منزله بجدران باطون اكثر علواً ، وبأبراج حراسة جديدة ، وابواب

---

(١٧١) اعطى تروتسكي اللائحة التالية بامناء السر والمساعدين الذين هلكوا ، ضحايا الثأر الستاليني : غلازمان ، بوتوف ، بلومكين ، سيرموكس ، بوزنانسكي ، كليمان ، وولف . (٢٠ حزيران/ يونيو ١٩٤٠ محفوظات) .

(١٧٢) ناتاليا سيدوڤا ، TAK eto Bylo, B. O. العدد ٨٥ ، آذار/ مارس ١٩٤١ ، **كيف حصل ذلك ، الاممية الرابعة** ، ايار ١٩٤١ .

(١٧٣) نقل لي ذلك احد الذين قدموا ذلك الاقتراح لتروتسكي .

مصفحة وستائر فولاذية توضع على النوافذ . راقب بعناية اعمال التحصين ، واقترح تبديلات وتحسينات ، ثم هز كتفيه اشمئزازاً . قال لجوزف هانسن ، سكريتيره: « يذكّرني هذا بأول سجن احتُجزت فيه . تصدر الابواب الضجة ذاتها . . . ليس هذا بيتاً ، إنه سجن من القرون الوسطى » . ويروي هانسن : « فاجأني يوماً أتأمل الابراج الجديدة ، فومضت في عينيه واحدة من تلك الابتسامات الحارة والحميمة التي عرف بها . . . وقال : « لقد بلغت حضارتنا مستوى بالغ الارتفاع ، لأن علينا أن نستمر في إنجاز هكذا إنشاءات »[١٧٤] . كان حقاً كرجل ينتظر اليوم المشؤوم في زنزانة المحكوم عليه ، لكنه كان مصمماً على أن يستخدم كل ساعة من حياته الباقية استخداماً حكيماً ، ولم تفارقه دعابته وسخريته .

قام بنزهاته الاخيرة بالسيارة في الريف ، على طرقات موحلة وينتشر فوقها الحصى : كان ذهنه يشرد الى طرقات روسيا ، خلال سنوات الحرب الأهلية . خلال جولته الاخيرة

« نام اكثر من المعتاد بكثير ، كما لو كان منهكاً وكانت تلك المناسبة الأولى ، المنتظرة طويلاً ، للاستراحة . ترك نفسه يسترخي على المقعد الى جانبي ، ونام من كوبرنافاكا حتى آميتاميكا تقريباً حيث البراكين پوپوكاتيپيليت ، والايكستاكسيهواتل ، والمرأة النائمة تنصب ذراها البيضاء المحاطة بغيوم كبرى تشبه ندف الثلج . . . وقد توقفنا قرب هاسييندا(*) قديمة مجهزة بأبراج ومدعمة جدرانها بقوة . تأمل العجوز الجدران باهتمام : « هذا حائط جميل ، لكنه قروسطي ، تماماً كما سجننا[١٧٥] » .

بهذا النعت ، « قروسطي » الذي كان يمر كثيراً على لسانه ، لم يكن يعبر فقط عن اشمئزازه من احتجازه بل كذلك عن شعوره بأن العالم يتهاوى مما كان يمكن ان يكون عصر تقدم وبشرية منتصرة الى الفظاعات الوحشية لقرون الظلام ،

---

(١٧٤) ج . هانسن ، مع تروتسكي حتى النهاية ، الاممية الرابعة ، اوكتوبر ١٩٤٠ .

* مزرعة (م)

(١٧٥) هانسن ، استشهاد مذكور . .

وبأنه هو ، ذاته ، إذ كان يحيط نفسه بالابراج ، والدعائم والاستحكامات ، كان متورطـاً بشكل أو بآخر في ذلك الانحطاط العام . بعد الغارة أهداه اصدقاء بذلة مصفحة ، لكنه لم يستطع إخفاء تضايقه ، حتى وهو يتشكرهم . وقد وضع البذلة جانباً وأوحى بأنها ستجد استعمالاً أفضل إذا ارتداها الحارس في الباحة . واقترح عليه امناء سره مراراً أن يجري تفتيش الزائرين لرؤ ية إذا كانوا يخفون سلاحاً : وكانوا يحتجون في كل مرة يستقبل فيها غرباء لوحده في غرفة العمل . أعلن هانسن : « لم يكن يستطيع تحمل فكرة تفتيش اصدقائه . لا شك أنه كان يشعر بأن ذلك لا يفيد ، في كل حال ، وانه يمكن ان يعطينا شعوراً زائفاً بالأمن . . فعميل الغيبيو . . . سيجد وسيلة لإفقاد تفتيشنا فعاليته » : وكان يقطب حاجبيه حين كان احد حراسه الشخصيين يحاول البقاء معه خلال تحادثه مع زائرين ، لأن بعضهم كانت لديهم مشكلات شخصية ولم يكونوا يريدون الكلام بحرية بحضور حارس[١٧٦] .

في ٢٨ أيار/ مايو ، أي بعد الغارة بأيام ، وجد القاتل نفسه للمرة الأولى وجهاً لوجـه مع تروتسكي . لم يكن يمكن أن يكون اللقاء أكثر مصادفة . كان الزوجان روسمر على وشك مغادرة المكسيك والابحار الى فيرا كروز ، وقد عرض جاكسون أن ينقلهما الى هناك بسيارته ، مدعياً أن على جدول اعماله في كل حال ، رحلة عمل الى فيراكروز من ضمن رحلاته المنتظمة . وقد اتى ليأخذهما في الصباح الباكر ، وقـد طُلب اليه الانتظار في الباحة الى أن يصبحا جاهزين . وفي اللحظة التي دخل فيها التقى تروتسكي صدفة ، وكان لا يزال قرب اقفاصه يُطعم الارانب . وقد شـد تروتسكي يـد الضيف دون أن يتوقف عن عمله ، وتصرف جاكسون بود ورصانة مثاليين . لم يتجرأ على النظر الى الرجل الكبير ،أو يحاول الدخول في حديث معه ، أو حتى التأخر الى جانبه. بدل ذلك ، ذهب نحو غرفة سيڤا ، وقدم له طائرة شراعية وشرح لـه كيف يلعب بها . وبـإيحاء من تروتسكي ، سألته ناتاليا عندئذ أن ينضم للعائلة ، وللزوجين روسمر اللذين كانا إلى المائدة يأخذان فطورهما[١٧٧] .

بعد عودة جاكسون من فيراكروز ، بقي خمسة عشر يوما لم يظهر خلالها في

(١٧٦) هانسن ، استشهاد مذكور .

(١٧٧) هانسن ، استشهاد مذكور .

أفينيدا فيينا . وحين ظهر مجدداً في ١٢ حزيران/ يونيو لم يبق اكثر من دقائق قليلة ، ليقول إنه يمضي الى نيويورك وليترك سيارته للحراس ، كي يتمكنوا من استخدامها في غيابه . وقد عاد الى مكسيكو بعد شهر ، لكنه بقي ثلاثة اسابيع لم يأت خلالها الى افينيدا فيينا ، إلى حين دعاه تروتسكي وامرأته ، هو وسيلفيا كي يأتيا ويأخذا الشاي معهما في ٢٩ تموز / يوليو . كانت تلك زيارته الأطول ، اذ دامت اكثر من ساعة بقليل . واذا صدقنا التقارير المفصلة التي احتفظ بها الحراس ، لم يجتز البوابة الا عشر مرات من ٢٨ أيار/ مايو الى ٢٠ آب/ اغسطس . وقد كان ذلك كافياً للتأكد من ترتيب الامكنة وقياس ضحيته ، ووضع اللمسات الاخيرة على خطته . لم يكن في وسعه التصرف بصورة اكثر امحاء ، ومجاملة ، وبراءة . كان يصل حاملاً باقة زهر متواضعة وعلبة ملبس لناتاليا ، وهدايا من سيلفيا . وقد قدم نفسه كمتسلق جبال مجرب ليرافق تروتسكي وهو يتسلق المرتفعات ، لكنه لم يصر على هذا العرض ، ولم يعد يتكلم عليه اطلاقاً . وحين كان يتكلم مع الحراس ، كان يذكر اثناء الحديث اسماء تروتسكيين معروفين من جنسيات مختلفة ، بحيث يعطي الانطباع بأنه كان جزءاً من الحركة ، وكان يشير ، عابراً ، إلى هباته لصندوق الحزب . إلا أنه كان يتصرف بحضور تروتسكي وناتاليا بصورة شبه خجول ، كما يَحسن بشخص كان خارج الحركة وتحول لتوه الى متعاطف . كانت تلك فترة الانشقاق التروتسكيين الاميركيين ، وكانت سيلفيا قد اصطفت الى جانب بورنهام وشاختمان ، لكنها كانت لا تزال تلقى الحفاوة في افينيدا فيينا . وفقط حين دعيت هي وجاكسون لتناول الشاي حصل نقاش حاد على المائدة . لم يشارك جاكسون في النقاش لكنه ترك الحاضرين يفهمون أنه من رأي تروتسكي، وأنه موافق على أن الاتحاد السوفياتي دولة عمالية ويجب الدفاع عنه دون قيد أو شرط . أما مع امناء السر ، فقد بدا أقل تحفظاً ، وحدثهم عن النقاشات الحادة التي دارت بينه وبين سيلفيا بهذا الصدد . الا انه اهتم مع ذلك بأن لا يبدي الكثير من الحماس . ألم يكن تروتسكي قد حذر انصاره من أن العملاء الاستفزازيين في صفوفهم سيُبدون الكثير من الحماس ويسعون لمفاقمة خصوماتهم ؟ حسناً ، لم يفعل جاكسون شيئاً من ذلك . حاول فقط ، بصورة متبصرة ، ان يعيد سيلفيا الى وجهة النظر الصحيحة .

إلا أن هذا المنافق البارع (الذي سوف يحبط طوال اعوام سجنه العشرين

مساعي كل المحققين والقضاة والاطباء والمحللين النفسيين الذين حاولوا كشف هويته الحقيقية وطبيعة علاقاته) شرع ينتابه الوجل كلما اقتربت ساعة التنفيذ . حين عاد من نيويورك ، حيث تلقى على الارجح التعليمات النهائية بشأن مهمته ، كان مزاجه قاتماً . كان في العادة قوياً ومرحاً فأصبح عصبياً وكئيباً ، وغدت بشرته شاحبة ومخضرّة ، ووجهه متشنجاً ، وراحت يداه ترتجفان . كان يمضي الجزء الاكبر من ايامه في السرير ، صامتاً ، منغلقاً على نفسه ورافضاً التحدث مع سيلفيا . ثم كانت تلي ذلك نوبات مرح وثرثرة كانت تخيف امناء سر تروتسكي . كان يتبجح بفتوحاته كمتسلق جبال وبقوته البدنية التي تسمح له بشق كتلة جليد ضخمة بضربة واحدة . وخلال وجبة طعام ، أثبت مهارة يديه كجرّاح ، إذ قطع فرخاً برشاقة خارقة (بعد اشهر تذكر الذين شهدوا تلك « البرهنة » انه سبق ان أعلن معرفته الجيدة بكليمان الذي وُجِد جثمانه مقطّعاً بتلك الرشاقة الجراحية) . كان يتحدث عن العبقرية المالية لـ« مدير »ه التجاري وعرض ان يقوم معه ببعض عمليات البورصة لمساعدة الاممية الرابعة مالياً . وفي احد الايام ، إذ كان يتأمل بصحبة تروتسكي وهانسن اعمال التحصين في أفينيدا فيينا ، لاحظ انها غير ذات قيمة لأن الغيبيو قد تستخدم في هجومها اللاحق طريقة مختلفة تماماً ، وحين سئل أية طريقة اجاب بهزة من كتفيه .

لن يتذكر قاطنو المنزل ذلك وحوادث صغيرة مشابهة إلا بعد ثلاثة أشهر أو أربعة ، إذ ادركوا كم كانت مشؤومة . ففي ذلك الحين ، لم يكونوا قد رأوا فيها أسوأ من دلائل على مزاج جاكسون غريب الاطوار . تروتسكي ، وحده ، الذي كان لا يعرفه الا قليلاً ، شعر بالخشية من جراء ذلك . صحيح انه لم يدافع عن جاكسون الا باعتدال حين ابدى احدهم استياءه لأن جاكسون لم يمر حتى على مركز التروتسكيين خلال رحلته الى نيويورك . آنذاك ، قال تروتسكي : « حسناً ، حسناً ، ان زوج سيلفيا هو بالتأكيد شخص ثرثار لا يقدم ابداً خدمات كبرى بصفة رفيق ، لكن ربما تحسّن فيما بعد ، فثمة حاجة لأنواع مختلفة من الناس لبناء حزب » . لكن احاديث جاكسون بشأن « مديره »، « النابغة المالي » ، ومضاربات البورصة التي قد يتولاها لأجل الحركة ، جعلت تروتسكي يجفل . اعلنت ناتاليا :

« تلك الاحاديث المقتضبة لم ترُقْ لي ، وصُدم ليون دافيدوفيتش بها كثيراً. قال لي : من هو « مدير الاعمال » هذا فاحش الغنى ؟ ينبغي

البحث عنه : فقد يكون استغلالياً من النمط الفاشي ـ وقد يكون افضل بالنسبة إلينا ألا نستقبل زوج سيلفيا بعد اليوم . . . » .

كان قد قطع علاقاته بمولينييه الذي كانت لديه هو الآخر مشاريعه المالية ، لكنه لم يشك يوماً بالصدق السياسي لدى مولينييه ، وحتى آنذاك كان يرغب في أن يسامحه على اخطائه . لكنه كان يشعر بشيء ما مشؤوم في شخص جاكسون : ربما كانت له صلات بالفاشيين ؟ لكن رغم ذلك الحدس الغامض ، لم يكن يريد أن يهينه من دون التأكد سلفاً بأن حذره في محله تماماً[١٧٨] .

في ١٧ آب/ اغسطس ،عاد جاكسون ليقول إنه كتب مقالاً ضد بورنهام وشاختمان (يشتمل كذلك بعض الاشارات الى الوضع كما يظهر في فرنسا تحت الاحتلال الالماني) . سأل تروتسكي إذا كان يريد تصفح المسودة واقتراح تعديلات ؟ كان يضرب هكذا بحذق على وتر حساس لدى ضحيته ، الحاجة الى تعليم الرفاق والانصار وتحسينهم . دعا تروتسكي جاكسون على مضض ، لكن تحت تأثير الشعور بالواجب ، كي يأتي معه الى حجرة عمله ، حيث بقيا لوحدهما وناقشا المقال . بعد عشر دقائق فقط ، خرج تروتسكي مشوشاً ، ومنزعجاً : كانت شكوكه قد تعززت فجأة ، واعلن لناتاليا انه لم يعد يرغب اطلاقاً في أن يرى جاكسون مجدداً . ما كان يثير انفعاله لم يكن ما كتبه الرجل (بعض الكليشيهات غير المتقنة والمختلطة) بل سلوكه . فحين كانا في مكتبه وكان تروتسكي يتصفح المقال ، جلس جاكسون على الطاولة ، وبقي هناك ، فوق رأس مضيفه حتى نهاية المقابلة ، وطيلة الوقت ، ابقى قبعته على رأسه ومشمعه على جسمه . لم يكن تروتسكي مغتاظاً فقط من افتقار زائره الى التهذيب ، بل كان يحس من جديد بالغش .لفت انتباه ناتاليا الى ان جاكسون لم يكن يشبه بسلوكه فرنسياً ، ومع ذلك كان يقدم نفسه كبلجيكي ربي في فرنسا . من كان بالضبط ؟ ينبغي اكتشاف ذلك . كانت ناتاليا مبلبلة ، فقد بدا لها ان تروتسكي لاحظ شيئاً جديداً بخصوص جاكسون ، وانه لم يصل بعد الى خلاصة ، او بالأحرى لم يكن مستعجلاً للتوصل اليها . الا أنه كان هناك ما يثير الذعر في ما تتضمنه كلماته . إذا كان جاكسون خدعه بشأن جنسيته ، فلماذا فعل ذلك ؟ وألم يكن يخدعهم

(١٧٨) ناتاليا سيدوفا ، حياة ليون تروتسكي وموته،ص ، ٣١٩ .

ايضاً بشأن امور اخرى ؟ وبشأن ماذا ؟ بقيت هذه الاسئلة ماثلة في فكر تروتسكي ، لأنه بعد يومين ردد هذه الملاحظات امام هانسن ، كما لو كان يريد التأكد من أن أحداً من محيطه كانت لديه مخاوف مماثلة . إلا أن القاتل تحرك بصورة اسرع من حدس ضحيته وغريزة البقاء لديه ، وقد أسرَّ لهانسن بشكوكه الغامضة في اليوم الذي سبق الاعتداء عليه مباشرة[١٧٩] .

كانت المقابلة في ١٧آب/اغسطس الاعادة النهائية بالنسبة لجاكسون . فقد اجتذب تروتسكي الى مكتبه لمواجهته tête à tête ، وجعله يقرأ مخطوطة ، وجلس فوق رأسه . كان قد جاء لهذه الاعادة النهائية مع معوله ، وخنجره ومسدسه ، التي خبأها تحت المشمع الذي كان يضغطه بذراعيه . وربما كانت في جيبه مذاك الرسالة المعدة لشرح اسبابه : كان نص تلك الرسالة قد دُق بالآلة الكاتبة من قبل ، وفي يوم الاعتداء ، لم يكن عليه غير وضع التاريخ وتوقيعه . صوَّر نفسه في تلك الرسالة كـ « تابع متحمس » لليون تروتسكي كان مستعداً لبذل آخر نقطة من دمه لأجله ، وقد جاء الى مكسيكو بناء لتعليمات الاممية الرابعة ، وكان لقاء تروتسكي بالنسبة اليه تحقيقاً لحلم . لكن في مكسيكو كان ينتظره « إحباط كبير » . فالرجل الذي تخيل انه قائد الطبقة العاملة ، بدا على حقيقته كمجرم معاد للثورة ، وحثه على المضي الى روسيا لتنظيم سلسلة اعتداءات ضد اشخاص مختلفين ، وفي مقدمتهم ستالين . اكتشف ان تروتسكي يتآمر وبعض قادة البلدان الرأسمالية . وكان قنصل دولة اجنبية كبرى يزوره باستمرار ، ويتآمر تروتسكي ضد الاتحاد السوفياتي والمكسيك في آن معاً[١٨٠] . اما غرض تلك الرسالة فكان جعل موت تروتسكي يأتي ليعزز كل الاتهامات الستالينية ، باستثناء امر واحد ، وهو أنه بنتيجة المعاهدة الالمانية ـ السوفياتية كان ينبغي استبدال الاتهام ، الذي فحواه ان تروتسكي كان شريكاً لهتلر ، بالايحاء بأنه في خدمة الامبريالية الاميركية . لكن الحيلة بالذات التي كان على « تابع تروتسكي المحبط » ان يثبت بها الاتهامات الستالينية لم تكن جديدة . فاليد التي اغتالت كليمان سابقاً كانت قد كتبت الافشاءات ذاتها الصادرة عن تروتسكيٍّ محبط ، باسم كليمان . وليزيد جاكسون من قذارة تلفيقاته ، أضاف أن تروتسكي حثه على ترك امرأته ، لأنها

---

(١٧٩) ناتاليا سيدوفا ، المرجع ذاته ، و B.O. ، العدد ٨٥ ـ ١٩٤١ ؛ الاممية الرابعة ، ايار / مايو ١٩٤١ .

(١٨٠) يوجد النص الكامل لاعتراف جاكسون في : البرت غولدمان ، اغتيال ليون تروتسكي ، ص ٥ ـ ٨ .

انضمت الى جماعة شاختمان ، لكنه ، أي جاكسون ، لم يكن في وسعه مواصلة الحياة او المضي الى روسيا من دون سيلڤيا . كان التزييف فظاً ، لكن غير فظ بشكل كاف بالنسبة للسذّج . وفي كل حال ، من كان سيجد الوقت والصبر الكافيين لتفحصه بدقة ، في غضون تلك الفترة بين استسلام فرنسا ومعركة انجلترا ، في وقت كان قد طحن فيه وجود شعوب كثيرة وأُسس دول عديدة ؟

هكذا حل اليوم الاخير ، الثلاثاء ٢٠ آب /اغسطس . كل الذين استحضروا ذلك اليوم فيما بعد كانوا لا يزالون يتذكرون السلام والهدوء الخارقين اللذين ظلا يسودان البيت حتى الساعة المشؤومة . كانت الشمس ساطعة ، وكان العجوز يشع هدوءا وثقة ونشاطاً . حين استيقظ في السابعة صباحاً ، لم يبادر امرأته بالمزحة المعتادة المشؤومة : « أترين ، إنهم لم يقتلونا هذه الليلة » . بل قال لها وهو يشعر بعافية بدنية : « منذ زمن طويل لم أحس بأني على ما يرام إلى هذه الدرجة » ؛ واضاف ان الحبوب المنوّمة كان لها تأثير ايجابي عليه . فأجابت : « ليس المنوِّم هو الذي ينفعك ، بل النوم العميق والراحة التامة » . « طبعاً » ـ قاطعها موافقاً ، وباغتباط ، وكان يأمل بيوم عمل جيد حقاً . لبس بسرعة وخرج بخطوة ثابتة إلى الفناء ليطعم أرانبه . كان قد اهملها قليلاً ، لأن الطبيب امره بقضاء الأحد في السرير ، وهو ما فعله . لذا اهتم بها ساعتين كاملتين . وعلى الفطور طمأن ناتاليا مجدداً إلى صحته الممتازة ومزاجه الجيد . كان عميق الرغبة في الانكباب من جديد على « كتابي المسكين » **ستالين** ، الذي **اضطر** للتخلي عنه بعد غارة ايار/ مايو ليكرس وقته لتحقيقات الشرطة وللمجادلات الجارية . لكن الآن بعد أن قال كل ما لديه حول الغارة ، كان التحقيق يتقدم في الطريق الصحيح وكان يأمل ألا يكون عليه الاهتمام به اكثر . لكن قبل الانصراف مجدداً للعمل في **ستالين** ، كان يريد أن يكتب مقالاً مهماً ليس مخصصاً للصحافة البورجوازية الكبرى بل للدوريات التروتسكية الصغيرة . وقد توجه الى مكتبه وهو يتكلم بحيوية على ذلك المقال .

وجد بريد الصباح مرضياً ، فقد وضع محفوظاته اخيراً في مكان مأمون، إذ وصلته برقية من المسؤول عن مكتبة جامعة هارڤارد يعلمه فيها بأنها وصلته . فلقد حصلت صعوبات بهذا الشأن واعترضت المحفوظات عوائق في الطريق ، تسببت بها الڠيبيو أو الـ .F.B.I. **قبل** أيّام كان تروتسكي ابلغ الاميركي البرت غولدمان ، محاميه وصديقه ، أن يبادر لاجراءات قانونية إذا حاولت الـ F.B.I

التفتيش في اوراقه . كتب اليه : « ليس لدي شخصياً ما اخفيه ، لكن كثيرين آخرين مذكورون في رسائلي » . لقد اودع محفوظاته في هارڤارد شريطة أن يبقى احد اقسامها مغلقاً حتى ايار / مايو ١٩٨٠[١٨١] . وهذا القسم من محفوظاته كان يضم مراسلته مع اتباعه . ففي وقت كانت فيه كل اوروبا تقريباً تحت رقابة الغستابو او الغيبيو ، كان يشعر بأن من واجبه حماية مراسليه بهذه الطريقة .

لكن العقبات الصغيرة في الطريق كانت بالطبع غير جدية ، وكانت هذه المسألة قد سُوِّيت الآن بصورة مرضية . كتب بانجليزيته الخاصة عدة رسائل مقتضبة ، لطيفة ومرحة ، الى تروتسكيين اميركيين[١٨٢] . استعلم عن صحة احدهم ، الذي كان قد عاد الى بلده بعد ان أمضى فترة في كويواكان سكريتيراً له . شكر هذا الرفيق وامرأته على قاموس للعاميّة الاميركية كانا ارسلاه اليه ، ووعد بأن يدرسه بمثابرة بحيث يتمكن من متابعة محادثة حراسه الشخصيين اثناء الطعام . وجه تحياته لرفاق كانوا قد سجنوا لنشاطات اضرابية ، واصبحوا على وشك اطلاق سراحهم . ثم جلس كي يسجل مقاله الاخير على الديكتافون[١٨٣] .

كان النص الأولي المشوّه للمقال يوحي بأن فكره كان منشغلاً ، وبأنه كان يحاول تعديل فكرة قديمة ، أو بلورة فكرة جديدة . حتى تاريخ قريب ، كان قد دعا الى الانهزامية الثورية ، مثلما سبق ان فعل لينين في الحرب العالمية الأولى ، بالقول للشغيلة ان مهمتهم لا تتمثل بالدفاع عن أي وطن امبريالي ، اكان ديمقراطياً أو فاشياً ، بل بتحويل الحرب الى ثورة . لكن الآن وقد احتل النازيون عملياً كل اوروبا ، وكانت الطبقتان العاملتان الانكليزية والاميركية تردان على ذلك بالمناهضة النضالية للفاشية كان يشعر بأنه من غير المفيد تكرار صيغ قديمة بكل بساطة .

> « إن الحرب الحالية هي ، كما سبق ان اعلنا في اكثر من مناسبة ، استمرار للحرب الأولى ، لكن الاستمرار ليس تكراراً ، (**بل تطوير ، تعميق ، مفاقمة** » .

---

(١٨١) من تروتسكي الى غولدمان ، ١٧ ـ ٨ ـ ١٩٤٠ . **المحفوظات ، القسم المقفل** .

(١٨٢) انظر رسائل تروتسكي **الاخيرة في الاممية الرابعة** ، تشرين الاول ١٩٤٠ .

(١٨٣) مقال تروتسكي **الاخير** ، المرجع ذاته .

كذلك الامر ، فإن مواصلة السياسة اللينينية لسنوات ١٩١٤ - ١٩١٧ لا ينبغي أن تكون مجرد تكرار ، بل تطويراً وتعميقاً . كانت انهزامية لينين الثورية قد حصنت الحزب البلشفي ضد أصنام الوطنية البورجوازية ، لكن خلافاً لاعتقاد شائع جداً ، « لم يكن في وسعها كسب الجماهير التي لم تكن تريد فاتحاً أجنبياً». كان البلاشفة قد حصلوا على الدعم الشعبي ، لا بسبب رفض الدفاع عن الوطن البورجوازي بقدر ما بالوجوه الايجابية لتحريضهم وعملهم الثوري . وختم بقوله إن على الماركسيين واللينينيين خلال هذه الحرب أن يدركوا هذا . وعبَّر عن موقف حازم ضد جماعة شاختمان والتروتسكيين دعاة السلام الذين كانوا يرفضون التجنيد في الولايات المتحدة . وفي رسالة كان كتبها قبل أيام ، علّق على استفتاءات للرأي العام بيَّنت ان ٧٠٪ من الشغيلة الاميركيين يؤيدون التجنيد .

« نضع أنفسنا على ارض الـ ٧٠٪ من الشغيلة ، ونعلن : انتم ، ايها الشغيلة ، ترغبون في الدفاع عن . . . الديمقراطية . نحن . . . نرغب المضي أبعد . الا اننا مستعدون للدفاع عن الديمقراطية معكم بشرط ان يكون ذلك دفاعاً حقيقياً لا خيانة على طريقة پيتان » .

وفي المقال ، كان فكره يتيه بين فرنسا المهانة والمضطَهَدة « على يد بيروقراطية شائخة وخداعة والمسرح السياسي الاميركي المختلف الى حد بعيد » ، لكن لم يسعفه الوقت لتطوير هذه الأفكار الجنينية ، وسوف يبقى صوته في الديكتافون الأثر الوحيد لهذا التلمس الاخير الذي لم يكن قد توصل بعد الى خلاصة واضحة تماماً في اتجاه جديد .

عند الساعة الواحدة ، اتى ريغو ، محاميه المكسيكي لينصحه بالرد فوراً على هجوم في **إل پوپولار** ، صحيفة توليدانو ، التي كانت تتهمه بقدح النقابات المكسيكية. وكان تروتسكي يخشى ان يعيده ذلك مجدداً الى المساجلات العقيمة مع الستالينيين المحليين ، لكنه اتفق مع المحامي بأن من الضروري الرد فوراً على **إل پوپولار** . نحّى المقال حول الانهزامية الثورية على ان يستأنف نصّه بعد ايام . قال لناتاليا : « سوف اعمد للهجوم وأصفهم بأنهم مفترون وقحون». كان يبدو مليئاً بالتحدي ، لكن كذلك بالمرح ، واكد لها مرة اخرى بأنه في وضع ممتاز . بعد قيلولة قصيرة جلس مجدداً الى مكتبه واخذ ملحوظات من **إل پوپولار** . « كان

يبدو على ما يرام ـ تقول ناتاليا ـ وطيلة الوقت لم يتغير مزاجه » . قبل قليل ، كانت رأته ناتاليا في الباحة ، حاسر الرأس تحت الشمس الحارقة ، وقد ذهبت مسرعة لتبحث له عن قبعة بيضاء يقي بها رأسه . ومن حين لآخر ، كانت تفتح باب مكتبه قليلاً ، وببطء « بحيث لا ينزعج » ، وتراه في وضعه المعتاد ، منحنياً على مكتبه ، والريشة بيده . من وراء الباب ، وعلى رؤوس الاصابع ، كانت نيوبي الحديثة تلقي نظرات الحنان الاخيرة على المحبوب الوحيد الذي بقي لها . بعد الخامسة من بعد الظهر بقليل ، عاد مجدداً الى أقفاصه لاطعام الارانب . وقد لاحظت ناتاليا ، وهي تمر على الشرفة ، أحداً قربها لم تعرفه في البدء . اقترب هذا الشخص ، ورفع قبعته ، كان جاكسون . « ها هو هذا مرة أخرى ، تلك كانت الفكرة التي مرت بخاطري . وتساءلت : لماذا بدأ يكثر من مجيئه ؟ » وكان مظهره يجعل هواجسها اكثر ثقلاً : كان وجهه رمادياً أخضر ، وحركاته عصبية ومهتزة ، وكان يشد مشمَّعه الى جسده بتشنج . وتذكرت فجأة أنه تبجح أمامها بأنه لا يرتدي معطفاً ولا يضع قبعة حتى في الشتاء ، وسألته لماذا يضع قبعة ومشمعاً رغم تلك الشمس؟ اجاب : « ربما ستمطر » ، وطلب قدح ماء . فعرضت عليه الشاي . « لا ، لا ، لقد اكلت متأخراً واشعر أن طعامي ما يزال هنا (قال ذلك وهو يشير الى عنقه) ، انه يخنقني » . كان ذهنه مختلطاً ، ولم يكن يبدو انه يفهم معنى ما يقال له . سألته إذا كان صحَّح مقاله ، فبقي يشد معطفه إلى جسمه بيد ، واشار بالأخرى الى عدة اوراق مدقوقة بالآلة الكاتبة ، وقد سُرَّت وهي تفكر بأن زوجها لن يتعب عينيه بالنظر الى مخطوطة غير مقروءة ، وتوجهت بصحبة جاكسون نحو اقفاص الارانب . وإذ كانا يقتربان ، استدار تروتسكي نحوها وقال بالروسية ان جاكسون كان ينتظر مجيء سيلفيا ، ولما كانا سيمضيان الى نيويورك في الغد فربما كان على ناتاليا ان تدعوهما لعشاء وداعي . فأجابته بأن جاكسون رفض لتوه الشاي وانه ليس على ما يرام . فنظر اليه ليف دافيدوفيتش بانتباه وقال له بنبرة توبيخ خفيفة : « مرة اخرى انت بصحة سيئة ، تبدو مريضاً ، انتبه لنفسك »(١٨٤) . ومرت لحظة من الصمت المرتبك . كان الرجل الغريب هناك ، ينتظر وبيده صفحاته المدقوقة بالآلة الكاتبة ، ولما كان تروتسكي نصحه بإعادة كتابة المقال

(١٨٤) ناتاليا سيدوفا ، المرجع ذاته .

فقد كان يحس بأن عليه القاء نظرة على نتيجة جهوده الجديدة .

روت ناتاليا ان « ليف داڤيد وڤيتش كان نافراً من ترك ارانبه .

«ولم يكن المقال يثير اهتمامه اطلاقاً » ، لكنه قال بعد أن كبح شعوره : « ما رأيك لو قرأنا مقالك ؟» ومن دون ان يستعجـل ، اغلق ابواب الاقفاص ، ونزع قفازي العمل الخاصين به . ونظف بالفرشاة بذلته الزرقاء ، واتجه ببطء وصمت معي ومع جاكسون نحو المنزل . رافقتهما الى باب حجرة عمل ل.د. انغلق الباب ودخلت الى الحجرة المجاورة . وفي حين كانا يدخلان حجرة العمل ، ومضت في خاطر تروتسكي فكرة ان « هذا الرجل يمكن ان يقتلني » .

هذا على الاقل ما قاله لناتاليا بعد دقائق حين كان ممدداً على الارض مضرجاً بالدماء . لكن لا بد ان افكاراً من هذا النوع كانت قد راودته احياناً ، لينحّيها للحال حين كان غرباء يزورونه واحداً واحداً أو جماعات . كان قد قرر الا يترك الخوف وكره البشر يشلان حياته ، وهكذا خنق تلك الارتكاسة الضعيفة الاخيرة لغريزة البقاء لديه . ذهب الى مكتبه ، وجلس إليه ، وانحنى على النص المدقوق على الآلة الكاتبة .

كان قد تصفح الصفحة الأولى حين تلقى ضربة رهيبة على رأسه . وقد جاء في افادة جاكسون :

« كنت قـد وضعت مشمَّعي . . . على قطعـة اثـاث . اخـرجت المعول من المشمع واغمضت عينيّ ، وبكل قواي وجهت اليه ضربة على الجمجمة » .

كان يعتقد أنه بنتيجة تلك الضربة الهائلة ، ستموت ضحيته دون أن تند عنها صرخة ، وانه سيخرج ، هو ، ويختفي قبل أن تكتشف الجريمة . لكن خلافاً لـذلك ، اطلقت الضحيـة صرخـة حادة ورهيبـة . قال القـاتل : « تلك الصرخة ، سأسمعها طيلة حياتي »(١٨٥) . قفز تروتسكي ، وجمجمته مهشمة ، ووجهه مضرج بالدم ، وقذف نحو القاتل كل ما وقع تحت يديه ، الكتب والمحبرة

(١٨٥) سالازار ، المرجع المذكور ، ص ١٦٠ .

وحتى الديكتافون ، ثم انقض عليه ؛ كل ذلك لم يأخذ ثلاث دقائق أو أربع . جعلت الصيحة الثاقبة والممزِّقة ناتاليا والحراس يقفزون من امكنتهم ، لكن مرت لحظات قبل أن يدركوا من أين انبعثت ، ويهرعوا في ذلك الاتجاه . خلال تلك اللحظات ، دارت رحى صراع صاخب في حجرة العمل ، آخر صراع انخرط به تروتسكي . قاتل كنمر ، وتماسك مع القاتل ، عضه بيده وانتزع منه المعول . وقد تبلبل القاتل الى حد انه لم يستخدم مسدسه او خنجره .

ولما لم يعد في وسع تروتسكي ان يبقى واقفاً ، وفي حين كان يوتر كل ارادته كي لا ينهار عند قدمي عدوه ، تراجع ببطء وهو يترنح . وحين اندفعت ناتاليا الى الغرفة وجدته واقفاً ، على عتبة الباب بين قاعة الطعام والشرفة ، مستنداً الى اطار الباب .

« كان وجهه مغطى بالدم ، وعبر ذلك الدم ، كانت عيناه الزرقاوان ، اللتان لم تعد النظارتان فوقهما ، تلمعان اكثر حيوية من اي وقت مضى ، وكان ذراعاه متدليين. سألته ما الذي حدث ، ما الذي حدث ؟ واحطته بذراعيّ . . . لكنه لم يجب على الفور . بعد لحظة ، تساءلت اذا كان شيء ما سقط عليه من السقف (كان سقف حجرة عمله قيد الاصلاح) ولماذا كان هنالك ، واقفاً في ذلك المكان ؟ فقال بهدوء ، ومن دون غضب ، من دون مرارة ، او حزن : « جاكسون » وقال ذلك كما لو كان يريد أن يقول: « الآن ، لقد حصل ذلك » . خطونا عدة خطوات ، وتهاوى بمساعدتي وببطء على حشيَّة على الارض(١٨٦) » .

« ناتاشا ، احبك » . تلفظ بهذه الكلمات بصورة غير متوقعة ، ورصينة ، وشبه صارمة ، لدرجة أنني أحسست بنفسي ، وقد انهكتني الصدمة الداخلية ، أنحني نحوه » وهمست : « لا احد ، لا احد ، لا احد إطلاقاً ينبغي أن يُسمح له برؤيتك من دون أن يجري تفتيشه » ، ثم وضعت بعناية مخدة تحت رأسه المحطم وقطعة ثلج على جرحه ومسحت الدم عن جبينه وخديه . قال : « ينبغي ان يبقى سيڤا بعيداً عن كل هذا » . كان يتكلم بصعوبة ، وتصبح الكلمات غير مميزة ، لكن لم

(١٨٦) ناتاليا سيدوفا ، استشهاد مذكور ، ص ١٩٧ .

يبد انه كان يدرك ذلك . « هل تعرفين ، هناك (وادار عينيه نحو باب مكتبه) احسست . . . فهمت ما كان يريد فعله . . . كان يريد . . . مرة أخرى . . . لكني منعته من ذلك » .

ركعت ناتاليا وهانسن إلى جانبيه ، الواحد بمواجهة الآخر ، واستدار نحو هانسن ، وكلمه بالانكليزية ، فبذلت عندئذ ما تملكه من جهد لفهم معنى كلماته ، لكن دون جدوى .

«انها النهاية» قال لسكريتيره بالانجليزية ، وكان يريد ان يعرف بالضبط ما الذي حصل له . كان مقتنعاً ان جاكسون اطلق النار عليه وبقي غير مصدق حين قال له هانسن انه تلقى ضربة معول وان الجرح سطحي . « كلا ، كلا ، كلا ، — اجاب وهو يشير الى قلبه ـ احس هنا ، انهم نجحوا هذه المرة » وحين أكدا له من جديد ان الجرح ليس خطيراً ، ابتسم ابتسامة ضعيفة كما لو كان يسليه ان يرى احداً يحاول تشديد عزمه واخفاء الحقيقة عنه . ودون انقطاع تقريباً ، كان يضع يدي ناتاليا على شفتيه . واصل كلامه بالانكليزية « اعتنوا بناتاليا ، لقد كانت الى جانبي خلال سنوات طويلة ، طويلة » . « سنفعل ذلك » وعد هانسن . « شد العجوز يدينا بتشنج ، وعيناه قد اغرورقتا فجأة بالدموع ، وناتاليا التي كانت تنشج بقيت منحنية فوقه ، معانقة جرحه »[١٨٧] .

خلال ذلك ، كان الحراس قد القوا القبض في الحجرة على القاتل ، وكانوا يضربونه باعقاب المسدسات ؛ ومن الخارج كان يُسمع أنينه وعويله . « قولا لهم الا يقتلوه»، قال تروتسكي وهو يبذل جهداً للتلفظ بكلماته بوضوح . « كلا ، كلا ، لا ينبغي قتله ، ينبغي تركه يتكلم » . وقد روى الحراس ان جاكسون قال ، وهو يتلقى الضربات : « لديهم شيء ما ضدي ! لقد سجنوا أمي . . . لا علاقة لسيلفيا بكل هذا » . . . وحين حاولوا ان يعرفوا منه من سجن أمه انكر أن تكون الغيبيو ، وقال انه لا ادنى علاقة له بالغيبيو .

حين وصل الطبيب ، كان ذراع تروتسكي الايمن وساقه اليمنى قد اصبحا مشلولين ، وحين دخل حملة المحفة ، ومعهم الشرطة ، قامت ناتاليا بحركة تراجع : فكرت بموت ليوفا في المستشفى ، ولم تكن تريد أن ينقلوا زوجها . هو

---

(١٨٧) هانسن ، استشهاد مذكور .

ايضاً لم يكن يريد نقله . وفقط حين وعده هانسن بأن يرافقه حراسه الشخصيون ، اجاب : « إذاً أسلم نفسي لأمرك » ، كما لو كان يدرك أنه ، بالنسبة اليه ، قد ولى اليوم الذي كان يأخذ فيه قراراته بنفسه . وفي حين كانـوا يضعونه على المحفة ، همس من جديد : « اريد ان يذهب كل ما أملكه الى ناتاليا . . اعتنوا بها »(١٨٨) .

عند البوابة الخارجية ، أوقف الحراس حاملي المحفة ، بيقظة متأخرة ، لما كانوا يخشون هجوماً جديداً ، لم يكونوا يريدون السماح بأخذ تروتسكي قبل أن يأتي الجنرال نونيز ، قائد الشرطة ، ويؤمن الحراسة بنفسه . وقد روى أحـد المسعفين :

« لاحظت ان امرأة الجريح غطت زوجها بشـال ابيض ، كانت السينيورا تبكي وتمسك بالرأس الدامي بين يديها . لم يكن السينيور تروتسكي يتكلم ولم يكن يئن . كنا جميعا نعتقده ميتاً ، لكنه . . . كان لا يزال يتنفس »(١٨٩) .

حملوه حتى سيارة الاسعاف بين شريطين من رجال الشرطة ، وبينما هم على وشك الانطلاق ، جاءت سيارة اسعاف اخرى لتنقل القاتل .

« عبر المدينة الهادرة ، وعبـر ضجيجها البـاطل وجلبتهـا ، وفي اضوائها المسائية المزخرفة ، كانت سيارة الاسعاف تمر ، شاقة طريقها في زحمـة السيارات وهي تتجـاوزها . كـانت صفارات الانـذار تعول باستمرار وشريط الشرطة على دراجاتها النارية يطلق صفاراته الحادة . كنا ننقل جريحنا ، والقلق غير المحتمل في قلوبنا والذعر يتـزايد لحـظة فلحظة في النفوس . كان هو يحتفظ بكامل وعيه . كانت يده اليمنى ترسم باستمرار دوائر في الهواء ، كما لو انها لا تجد مكانا تحط عليه . ثم تاهت على الغطاء ، وصادفت اناء ماء موضوعاً فوق رأسه ، واخيراً وجدت ناتاليا . وهي ، التي كانت منحنية فوقه ، سـألته كيف يشعـر

(١٨٨) هانسن ، استشهاد مذكور .

(١٨٩) سالازار ، المرجع المذكور ، ص ١٠٢ - ١٠٣ .

بنفسه . « الآن افضل » ، ثم اشار الى هانسن بأن يقترب ، وبصوت هامس ، اعطاه التعليمات حول طريقة خوض التحقيق . « انه قاتل سياسي . . . عضو في الغيبيو أو فاشي ، والاقرب الى الصحة انه من الغيبيو . . . لكن ربما بمساعدة الغستابو » (في الوقت ذاته تقريباً ، كان القاتل ، في سيارة الاسعاف الأخرى ، يبسط لحراسه رسالة تكشف اسبابه وتعلن بوضوح ان لا علاقة للغستابو، على الاقل بالنسبة لهذه الجريمة) .

كان جمهور كبير قد تجمع حول المستشفى حين أُنزل تروتسكي من سيارة الاسعاف . « يمكن أن يكون هنالك اعداء بينهم » أبدت ناتاليا قلقها بهذه الكلمات وأضافت : « اين اصدقاؤنا ؟ يجب أن يحيطوا بالمحفة » . بعد دقائق كان ممدداً على سرير ضيق في المستشفى ، وكان الاطباء يفحصون جرحه . بدأت ممرضة تقص شعره ، اما هو فابتسم لناتاليا التي كانت عند رأسه ، وذكَّرها كيف في المساء السابق فكرا باستقدام الحلاق ليقص له شعره . قال لها وهو يغمز بعينه : « أترين ، حتى الحلاق جاء هو ايضاً » ثم استدار نحو هانسن، وعيناه شبه مغلقتين ، وعلى فمه السؤال الذي طرحه عليه مراراً : « جو ، هل معك . . . دفتر جيب ؟ » تذكر أن هانسن لا يعرف الروسية وبذل جهداً كبيراً ليملي الرسالة بالانكليزية . كان صوته يكاد يُسمع ، وكلماته غير واضحة . هو ذا ما أعلن هانسن انه كتبه :

« أنا على وشك الموت من ضربات قاتل سياسي . . . لقد ضربني الرجل في مكتبي ، حيث صارعته . . . كنا . . . قد بدأنا نتحدث عن الاحصائيات الفرنسية . . . ضربني . . . أرجو ان . . . تقول لاصدقائنا . . . اني واثق . . . من انتصار الاممية الرابعة . . . الى الامام » .

حين بدأ يملي ، كان من الواضح انه يأمل التمكن من الادلاء بروايته عن الاعتداء وفي آن معاً برسالة سياسية ، لكنه شعر فجأة بأن الحياة تفارقه فاختصر الرواية وسارع الى اعطاء اتباعه تشجيعه الأخير .

بدأت الممرضات ينزعن ملابسه للعملية الجراحية ، فقصصن بذلته وقميصه والقميص الداخلي ، بالمقصات ، ثم انتزعن ساعة معصمه . وحين بدأن ينتزعن

ثيابه الاخيرة ، قال لناتاليا بوضوح ، لكن بنبرة حزينة جداً ، ورصينة جداً : « لا اريد أن يخلعن ثيابي افعلي ذلك بنفسك». كانت تلك الكلمات الاخيرة التي وجهها اليها . وحين انتهت من خلع ثيابه ، انحنت فوقه ووضعت شفتيها على شفتيه : « رد على قبلتي ، فكررت ورد من جديد ، ثم مرة اخرى . وكان ذلك وداعنا الاخير »[١٩٠] .

في المساء ذاته ، حوالى السابعة والنصف ، فقد وعيه كلياً . تولى خمسة جراحين ثقب العظم . كان عمق الجرح لا أقل من سبعة سنتيمترات . كان عظم الجمجمة الجداري الايمن مكسوراً ، وشظاياه قد مزقت الدماغ : كانت سحايا الدماغ متضررة وقسم من المادة الدماغية مسحوقاً ومدمراً . « تحمَّل العملية بقوة خارقة » لكنه لم يستعد وعيه ؛ وقد صارع الموت اكثر من ٢٢ ساعة . سهرت عليه ناتاليا ليل نهار ، « يابسة العينين ، متشنجة اليدين » ، منتظرة استيقاظه . وهذه هي الصورة الاخيرة التي احتفظت بها عنه !

> « انهضوه ، فمال رأسه على كتفه ، وسقط ذراعاه كما في إنزال الصليب لتيسيان ، لكن بدل تاج من الشوك ، كان على رأس الرجل المحتضر ضمادات ، وقد احتفظت ملامحه بكل نقائها وعنفوانها . كان يبدو في كل لحظة أنه سينتصب ليقرر مصيره بنفسه[١٩١] » .

توفي في ٢١ آب /اغسطس ١٩٤٠ في السابعة و ٢٥ دقيقة مساء . أظهر التشريح دماغاً خارق الحجم » ، يزن ١٥٦٠غ ، « وكان قلبه ايضاً بالغ الضخامة »[١٩٢] .

في ٢٢ آب /اغسطس ، ووفقاً للعادة في المكسيك ، سار موكب جنائزي مهيب خلف النعش الذي كان يحمل جثمان تروتسكي عبر شوارع العاصمة الرئيسية ، كما في الضواحي العمالية ، حيث كانت جماهير صامتة ، حافية ورثَّة الثياب متجمعة على الارصفة . كان ينوي التروتسكيون الاميركيون نقل الجثمان الى الولايات المتحدة ، لكن الـ State Department رفضت اعطاء

---

(١٩٠) ناتاليا سيدوفا ، استشهاد مذكور .

(١٩١) ناتاليا سيدوفا ، استشهاد مذكور .

(١٩٢) سالازار ، المرجع المذكور .

التأشيرة ، حتى للميت . خلال خمسة أيام ، بقي الجثمان مسجّى ، وحوالى ثلاثمئة الف رجل وامرأة مروا من امامه ، بينما كانت تدوي في الشوارع الـ . Grand Corrido de Leon Trotsky

وكانت اغنية شعبية الفها شاعر ملحمي مجهول(١٩٣) . وفي ٢٧ آب/ أغسطس ، تم حرق الجثمان ، ودفن رماده في باحة حصن كديواكان الصغير . فوق القبر ، نُصب حجر ابيض مستطيل ، وفوق ذلك الحجر رُفع علم أحمر .

عاشت ناتاليا في ذلك المنزل عشرين عاماً ايضاً ، وحين كانت تستيقظ ، كانت عيناها تتجهان نحو الحجر الابيض في الباحة .

---

(١٩٣) سالازار ، استشهاد مذكور . وهنا سطور قليلة من الـ Corrido ، تتنفس الحقد الشعبي على القاتل « الماكر والجبان » .

Murio Trotsky asesinado
De la noche a la mañana
Porque Habian permeditado
Venganza Tarde O temporano

Fué un dia martes por la tarde
este tragedia fatal
Que ha co.nmovido al pais
y a todo la Capital.

أعلنت البرافدا عن الحادث بعدة اسطر ، قائلة إن تروتسكي قُتل على يدي « احد اتباعه المحبطين » .

حاشيـــة

النصر في الهزيمة

في كل تاريخ الثورة الروسية ، وفي تاريخ الحركة العمالية والماركسية ، لم تمر حقبة بصعوبة سنوات النفي الاخير لتروتسكي وقتامتها . كانت تلك حقبة حيث ـ ونعيد هنا صياغة كلام ماركس ـ « الفكرة كانت تندفع نحو الواقع » ، لكن لما كان الواقع لا يهفو نحو الفكرة ، ظهرت هوة بين الاثنين ، هوة أضيق لكن أعمق مما في اي وقت مضى . كان العالم ممزقاً بتناقضات خارقة : لم تكن الرأسمالية أقرب يوماً الى الكارثة مما خلال الأزمات وحالات الجمود في أواخر العشرينات وفي الثلاثينات ، ولم تبدُ يوماً بتلك الوحشية في مقاومتها للضغط . لم تبد عاصفة صراع الطبقات يوماً موشكة الى ذلك الحد على الانفجار ، كما لم تكن يوماً عاجزة عنه ، مع ذلك ، إلى هذا الحد . لم يُر يوماً بحجم ذلك الحشد الهائل من الجماهير التي تستلهم الاشتراكية ، ومع ذلك لم تكن تلك الجماهير يوماً على ذلك القدر من العجز والجمود . في كل تجربة الانسان الحديث ، لم يكن هنالك ما هو بسمو الدولة العمالية الأولى ، المحاولة الأولى لبناء الاشتراكية ، وما هو بإثارتها للنفور . وربما لم يعش رجل ، حتى ذلك الحين ، على ذلك القدر من الاتصال الوثيق بآلام البشرية المضطهدة ونضالاتها ، في الوقت الذي بقي فيه على تلك الدرجة من العزلة ، كتروتسكي .

ما كان اذاً معنى عمله ومغزى هزيمته ؟

اي جواب عن هذا السؤال لا يمكن أن يكون الا تقريبياً ، لأننا لا نزال نفتقر الى الآن لمنظورات تاريخية واسعة ، وينطلق تقويمنا لتروتسكي من حكمنا على الثورة الروسية بصورة أساسية . وإذا كان لا بد ، انطلاقاً من ذلك ، من الوصول الى الفكرة القائلة بأن كل ما كان يستهدفه البلاشفة (الاشتراكية) لم يكن غير fata morgana(*) ، وبأن الثورة لم تفعل غير إحلال نموذج من الاستغلال

(*) سراب (م) .

والاضطهاد محل نموذج آخر ، ولم يكن بإمكانها أن تفعل شيئاً آخر ، فإن تروتسكي يشابه حينذاك الكاهن الأكبر لإله كان لا بد أن يفشل ، مثل خادم طوبى يعلق في فخ احلامه وأوهامه القاتل . لكن حتى آنذاك ، يجتذب الاحترام والتعاطف اللذين ندين بهما للطوباويين والرؤياويين الكبار ، ويبرز من بينهم كأحد أكبرهم واعظمهم . حتى إذا كان صحيحاً أن قدر الانسان هو أن يجرجر نفسه ، معذباً ودامياً ، من هزيمة الى هزيمة ، ويتخلص من نير ليرضخ لآخر ، فإن امل الانسان بمصير مختلف سيستمر ، كأعمدة من النار ، في تبديد الظلمات الكئيبة للصحراء اللامتناهية التي يضلّ فيها من دون ارض موعودة في الأفق . ولا أحد في عصرنا عبَّر عن هذه التطلعات بتلك الدرجة من الشغف والحيوية وذلك القدر من التضحية كتروتسكي .

لكن الم تكن الثورة الروسية قادرة إلا على ان تعطي الشعب نيراً بدل نير آخر ، وهل ستكون هذه نتيجتها النهائية ؟ هكذا طريقة في رؤية الاشياء كانت تبدو معقولة بالنسبة لمن كانوا يتأملون الستالينية في السنوات الاخيرة من حياة تروتسكي وفيما بعد . ضد هؤلاء أكد تروتسكي قناعته بأنه في المستقبل ، حين يكون المجتمع السوفياتي قد تقدم نحو الاشتراكية ، لن يعود يُنظر الى الستالينية إلا كمحض انتكاسة ظرفية . إلا ان تفاؤله بدا مجّانياً حتى بالنسة لأتباعه ، لكن بعد ٢٥ عاماً ، يصعب أن تبدو نبوءته مجانية ، حتى إذا بقيت تُعتبر إلى الآن متجاسرة . من الواضح أنه حتى في ظل الستالينية ، أنجز المجتمع السوفياتي تقدماً واسعاً في حقول عديدة ، وأن هذا التقدم ، غير المنفصل عن اقتصاده المؤمم والمخطط ، كان يدمر الستالينية وينخرها من الداخل .

كان لا يزال مبكراً ، في حياة تروتسكي ، السعي لرسم موازنة لذلك التطور ، ولم تكن محاولاته للقيام بذلك مجردة من كل خطأ ؛ وحتى بعد ربع قرن لم تصبح هذه الموازنة واضحة تماماً . لكن من البديهي أن المجتمع السوفياتي بذل جهوداً لم تخلُ من النجاح للتخلص من المعيقات الثقيلة ولتطوير الموجودات الضخمة التي ورثها من الحقبة الستالينية . كان هنالك في بداية الستينات قدر من الفقر واللامساواة والاضطهاد اقل بكثير مما في الثلاثينات أو بداية الخمسينات . إن المفارقة مذهلة لدرجة أنه من غير المعقول الكلام على « عبودية كليانية جديدة أرستها الجماعية البيروقراطية » . لا تزال المسائل التي

ناقشها تروتسكي وتلامذته خلال مساجلته الأخيرة تخضع للنقاش ، لا داخل شلل صغيرة بل امام جمهور عالمي. ولا تزال مسألة معرفة ما إذا كانت البيروقراطية السوفياتية طبقة جديدة واذا كان ثمة حاجة لاصلاح او الى ثورة لوضع حد لحكمها الاعتباطي ، لا تزال مطروحة .إن ما لا جدال حوله هو أن اصلاحات العقد الأول الذي تلا موت ستالين ، رغم الطابع غير الملائم والمتناقض الذي تنطبع به ، حدَّت لدرجة كبيرة من الاستبداد البيروقراطي ولطفته ، وأن تيارات جديدة من التطلعات الشعبية تعمل لكي تحول المجتمع السوفياتي اكثر ايضاً ، وبصورة اشد جذرية .

لكن حتى مع ذلك ، فان اعتقاد تروتسكي ، الذي مفاده أن يوماً سيأتي حين ستظهر كل فظاعات الستالينية كانتكاسة ظرفية ليس اكثر ، يمكن ان يستمر في ثلم الحساسية المعاصرة . إلا أنه كان يطبق المقياس التاريخي الكبير على الاحداث وعلى قدره الخاص به : « حين يتعلق الأمر بالتغيرات الاكثر عمقاً في النظام الاقتصادي والثقافي ، فإن ٢٥ عاماً تزن في ميزان التاريخ اقل مما تزن ساعة في حياة انسان » . (لم تكن نزعته لاعتماد المنظورات التاريخية الطويلة تفلُّ من حساسيته حيال مظالم عصره وقساواته، بل كانت تزيد على العكس من حدتها. وقد ندَّد بالافساد الستاليني للاشتراكية بالقدر ذاته من الحماس لأنه، هو ذاته ، كان يستبقي في مدى رؤيته على الدوام آفاق مستقبل اشتراكي انساني حقاً .) وإذا قيس التقدم ، الذي انجزه المجتمع السوفياتي منذ عصره ، بهذا المقياس التاريخي ، فهو ليس غير بداية متواضعة ، ومتواضعة جداً . بيد أنه حتى هذه البداية تبرر الثورة ، والتفاؤل الاساسي الذي كان يشعر به حيالها ، وهي تبدد الضباب الكثيف للاحباط واليأس .

إن حياة تروتسكي وعمله الهائلين يشكلان عنصرين اساسيين من تجربة الثورة الروسية ، وحتى من حبكة الحضارة المعاصرة . إن الطابع الفريد لاحداث حياته والصفات الادبية والجمالية الخارقة لمحاولته تدافع عن نفسها بنفسها وتشهد على اهميته . ومن المستحيل ألا تحدث طاقة فكرية بهذا السمو ، ونشاط بذلك الإعجاز ، وشهادة بذلك النبل ، كامل تأثيرها ، إذ إن ذلك يتعارض مع كل معنى للتاريخ . فهذه هي المادة التي تصنع منها الأساطير الأكثر سمواً والهاماً . إلا أن اسطورة Legend تروتسكي منسوجة من وقائع ثابتة وحقائق يمكن التحقق منها . هنا لا ترفرف اية اسطورة mythe فوق الواقع ، بل يرتفع الواقع بالذات

الى مستوى الاسطورة .

كان مجرى حياة تروتسكي غنياً ومتألقاً لدرجة أن أياً من أجزائه كان كافياً ليملأ حياة شخصية تاريخية مرموقة . لو توفي في الثلاثين أو الخامسة والثلاثين من عمره ، قبل عام ١٩١٧ بقليل ، لكان وضع في مصاف مفكرين وثوريين روس من امثال بيلينسكي وهرزن وباكونين ، كسليلهم الماركسي والمساوي لهم . ولو ان حياته انتهت عام ١٩٢١ ، أو بعد ذلك ، في الفترة التي مات فيها لينين تقريباً ، لكان الناس تذكروه كقائد ثورة اوكتوبر ومؤسس الجيش الاحمر وقائده الكبير خلال الحرب الاهلية وكمرشد الاممية الشيوعية ، الذي كان يتوجه الى عمال العالم بقوة ماركس وألقه وبنبرات لم يجر سماعها منذ البيان الشيوعي (احتاجت الستالينية لعقود من التزوير والافتراء كي تبلبل هذه الصورة عنه في ذاكرة جيلين وتمحوها منها) . إن الافكار التي نادى بها والعمل الذي انجزه بصفته قائد المعارضة ، بين ١٩٢٣ و١٩٢٩ ، تشكل المادة والجوهر في احد الفصول الأكثر اهمية والاشد درامية في حوليات البلشفية والشيوعية . جاء الى الواجهة كالشخصية الاولى في اكبر مساجلة ايديولوجية عبر القرون ، وكالملهم المعنوي والفكري للتصنيع والاقتصاد المخطط ، واخيراً كالناطق بلسان كل اولئك الذين قاوموا من داخل الحزب البلشفي صعود الستالينية . حتى لو توفي عام ١٩٢٧ ، لكان ترك خلفه تراثاً من الافكار لا يمكن تدميره او الحكم عليه بنسيان طويل الأمد ، تراث من اجله واجه الكثير من أنصاره مفرزة الإعدام واسمه على شفاههم ، تراث يزيد من راهنيته ووزنه ويتلمس الطريق نحوه جيل سوفياتي جديد .

وفي ذروة ذلك كله ، تأتي افكاره وكتاباته ونضالاته وتطوافاته خلال المرحلة التي يؤرخ لها هذا الجزء . استعرضنا بالنقد اخفاقاته ومغالطاته وحساباته الخاطئة : إخفاقه التام على صعيد الاممية الرابعة ، اخطاءه بشأن منظورات الثورة في الغرب ، تلمساته بصدد الاصلاح والثورة في الاتحاد السوفياتي ، وتناقضات « التروتسكية الجديدة » في سنواته الاخيرة . تفحصنا كذلك بالتفصيل ، بين الحملات التي خاضها ، تلك التي تجد اليوم تبريرها الكامل والذي لا جدال فيه : جهوده بعيدة النظر بشكل رائع ، وإن غير المجدية ، لتنبيه الشغيلة الالمان واليسار العالمي والاتحاد السوفياتي من الخطر المميت لسيطرة هتلر ، انتقاداته المتواصلة والمَدعومة لإساءة ستالين البشعة لاستخدام السلطة ، لا سيما في قيادة

الشؤون الاقتصادية ، وبخاصة في حقل التجميع ، ونضاله الاخير والجبار ضد التطهيرات الكبرى . وحتى ورثة ستالين ، الذين لا يزالون يبذلون كل ما في وسعهم لصد شبح تروتسكي ، يسلّمون ضمنا بأنه كان على حق بصدد هذه الموضوعات الاساسية . وبعد هذا العدد من السنين ، كل ما كانوا قادرين على فعله ، بكل الشجاعة التي بثها فيهم ستالين الميت ، هو أن يستجيبوا بصورة متباينة للاحتجاجات والاتهامات والانتقادات التي وجهها تروتسكي لستالين .

علينا أن نصر مجدداً على واقع ان قوة تروتسكي وضعفه كانا ، كلاهما ، حتى النهاية ، متأصلين في الماركسية الكلاسيكية . لخصت هزائمه الورطة الاساسية التي وجدت الماركسية نفسها فيها بما هي مذهب وحركة . التباعد والطلاق بين الرؤيا الماركسية للتطور الثوري والمجرى الراهن لصراع الطبقات والثورة .

لقد حققت الثورة الاشتراكية فتوحاتها الواسعة الاولى في الشرق المتخلف لا في الغرب المتقدم ، في بلدان لم يكن يتفوق فيها الشغيلة الصناعيون بل الفلاحون . لم تكن مهمتها المباشرة ارساء الاشتراكية بل القيام بالتراكم الاشتراكي الاولي . حسب التصور الماركسي الكلاسيكي لمسار الأمور ، كانت الثورة ستتم حين تكون قوى الانتاج في المجتمع القديم قد تخطت علاقات الملكية فيه الى درجة تفجر معها البنية الاجتماعية القديمة . كانت الثورة خلقت علاقات جديدة للملكية وبنية جديدة تتوافق مع قوى انتاج دينامية ومتقدمة وكاملة النمو . لكن ما حدث في الواقع هو أن الثورة خلقت الاشكال الاكثر تقدماً للتنظيم الاجتماعي للاقتصاد الاكثر تأخراً . أقامت بنى ملكيات اجتماعية وتخطيط على قوى انتاج قديمة ومتخلفة ، وجزئياً على فراغ . هكذا وُضع الفهم النظري الماركسي للثورة رأساً على عقب . لما كانت علاقات الانتاج الجديدة ما فوق قوى الانتاج القائمة فقد كانت كذلك فوق مستوى فهم الغالبية الكبرى من الشعب ؛ لذا دافعت عنها الحكومة الثورية وطورتها ضد إرادة الغالبية ، وحل الاستبداد البيروقراطي محل ديمقراطية السوفييتات ؛ وبدل أن تضمحل الدولة ، اضطلعت بسلطان شرس ولا سابق له ، وتوصل النزاع بين القاعدة الماركسية وواقع الثورة للنفاذ الى كل نشاط الحزب الحاكم وفكره . حاولت الستالينية أن تسيطر على هذا النزاع ، عن طريق إفساد القاعدة أو تنحيتها . أما التروتسكية

فحاولت الحفاظ على القاعدة ، او التوصل لتوازن مؤقت بين القاعدة والواقع ، إلى أن تأتي الثورة في الغرب فتحل هذا النزاع وتعيد الانسجام بين النظرية والممارسة . وقد لخصت هزيمة تروتسكي اخفاقات الثورة في الغرب .

الى اي حد كانت تلك الهزيمة نهائية ولا رجعة فيها ؟ رأينا انه طالما كان تروتسكي لا يزال حياً ، لم يعتبر ستالين ابداً أنه هُزِم نهائياً . ولم يكن خوف ستالين مجرد وسواس من وساوس جنون الارتياب ، بل كان يقاسمه إياه قياديون من الدرجة الأولى على مسرح السياسة العالمية . ويقدم روبر كولوندر ، سفير فرنسا لدى الرايخ الثالث ، شهادة مذهلة على ذلك في وصف لقائه الاخير مع هتلر ، قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية مباشرة . تبجح هتلر بمنافع معاهدته مع ستالين ، ورسم بانوراما باهرة لانتصاره العسكري القادم . رداً على ذلك خاطب السفير الفرنسي عقله ، وتكلم على الاضطراب الاجتماعي والثورات التي قد تلي حرباً طويلة ورهيبة، وتبتلع كل الحكومات المتحاربة. «أنت تفكر في نفسك كما لو كنت المنتصر. . . ـ قال السفيرـ لكن هل فكرت في احتمال آخر؟ ان المنتصر قد يكون تروتسكي». فقفز هتلر (كما لو أصابته ضربة على معدته) وزعق بأن هذا الاحتمال، اي خطر انتصار تروتسكي ، كان سبباً اضافياً، بالنسبة لفرنسا وبريطانيا كي لا تشنا الحرب على الرايخ الثالث. هكذا فإن سيد الرايخ الثالث ورسول الجمهورية الثالثة كانا يحاولان، خلال مناوراتهما الاخيرة والساعات الاخيرة من السلام، ان يخوِّف واحدهما الآخر، وكل واحد حكومة الآخر، بذكر اسم المنبوذ المتوحد، الواقع في الشرك، المحتجز في أقاصي الأرض. وقد لاحظ تروتسكي حين قرأ هذا الحوار: «إنهم يهجسون بشبح الثورة ويعطونه اسم رجل».

هل كان هتلر والسفير مخطئين كلياً حين اعطيا هذا الشبح اسم تروتسكي ؟ يمكن التأكيد بأنه رغم وجود أسس فعلية جداً لخوفهما ، كان عليهما أن يعطيا الشبح اسم ستالين لا اسم تروتسكي . ففي كل حال ، .كان ستالين هو الذي سينتصر على هتلر ، ومع ذلك فكما يحصل غالباً في التاريخ ، كانت الحقائق الضمنية هنا أكثر بلبلة والتباساً بكثير من سطح الاحداث . كان انتصار ستالين على تروتسكي يخفي عنصر هزيمة ثقيلاً ، بينما كانت هزيمة تروتسكي حبلى بانتصار . إن المسألة الايديولوجية المركزية التي شكلت مدار نزاعهما كانت الاشتراكية في بلد واحد ، مسألة معرفة ما إذا كان الاتحاد السوفياتي يريد ـ او

يستطيع ـ تحقيق الاشتراكية في الانعزال ، على قاعدة الاقتصاد القومي ، او اذا كانت الاشتراكية ممكنة التصور حصراً كنظام عالمي للمجتمع . إن الجواب الذي اعطته الاحداث اقل وضوحاً بكثير مما كانت الحجج النظرية ، لكنه يقترب من وجهة نظر تروتسكي اكثر بكثير مما من وجهة نظر ستالين . فقبل أن يقترب الاتحاد السوفياتي ، في اي من الامكنة ، من الاشتراكية ، بوقت طويل ، كانت الثورة قد امتدت الى بلدان اخرى ، ويمكن القول إن التاريخ لم يترك الاتحاد السوفياتي لوحده وقتاً طويلاً بحيث يكون امكن المضي بالتجربة المخبرية المتعلقة بالاشتراكية في بلد واحد الى طور متقدم ، ناهيك بإنجازها . وبمقدار ما دخلت الاممية الثورية في نزاع مع الانعزالية البلشفية ، خلال الصراع بين التروتسكية والستالينية ، لم تكن الستالينية هي التي خرجت بالنجاح الباهر ؛ فمنذ زمن طويل لفظت الانعزالية البلشفية انفاسها . من جهة اخرى ، كانت قوة مقاومة الاتحاد السوفياتي ، حتى في العزلة ، اكبر مما اعتقد تروتسكي احياناً ،وخلافاً لتوقعه ، لم تكن بروليتاريا الغرب هي التي حررت روسيا الثورية . فمن سخرية التاريخ ، ان الستالينية بالذات هي التي فجرت قوقعتها القومية ، رغماً عنها .

في المناقشة الأخيرة التي دخل فيها تروتسكي رهن مستقبل الماركسية والاشتراكية بكامله بنتائج الحرب العالمية الثانية . إذ كان مقتنعاً بـأن الحرب ستؤدي الى الثورة ،الثورة الماركسية الكلاسيكية ، اكد انها إذا فشلت في ذلك ستكون الماركسية قد دُحضت ، وستخسر الاشتراكية نهائيا بالتغيُّب ، وتبدأ حقبة الجماعية البيروقراطية . كانت تلك ، في كل حال ، وجهة نظر يائسة وجَسُوراً ودوغمائية . مرة اخرى ، سوف يتكشف ان الواقع التاريخي اكثر تعقيداً بما لا يقاس من مخطط واضع النظريات . فالحرب اطلقت فعلياً سلسلة جديدة من الثورات ، ومع ذلك ، فمرة اخرى لم تتطابق السيرورة مع النموذج الكلاسيكي . من جديد ، فشلت البروليتاريا الغربية في بدء الهجوم واحتلال متاريس النظام القديم ؛ وفي اوروبا الشرقية ، انهار النظام الاجتماعي القديم ، بشكل رئيسي تحت ضغط القوة المسلحة الروسية المتقدمةِ مظفَّرةً حتى الايلب . كان الطلاق بين النظرية والممارسة ، او بين القاعدة والواقع يتعمق اكثر فأكثر .

لم يكن هذا التطور عرضياً . كان يمثل استمراراً لاتجاه ارتسم للمرة الاولى في ١٩٢٠ ـ١٩٢١ ، حين زحف الجيش الاحمر نحو فرصوفيا وحين احتل

جورجيا[1] . مع هذه الاعمال العسكرية كانت الدورة الثورية التي اطلقتها الحرب العالمية الاولى قد وصلت الى نهايتها . كانت البلشفية قد ظهرت في بداية تلك الدورة في ذروة ثورة اصيلة . وحوالى نهاية هذه الدورة ذاتها ، كان البلاشفة قد بدأوا ينشرون الثورة بواسطة الفتح . تلا ذلك فاصل طويل من عقدين لم تمتد خلاله البلشفية اطلاقاً . وحين أطلقت الحرب العالمية الثانية دورة اخرى من الثورة ، اقلعت هذه من حيث انتهت الدورة الاولى ، بالثورة عبر الفتح . وكقاعدة عامة ، يوجد في التاريخ العسكري تواصلٌ بين الطور النهائي من حرب ما والطور الابتدائي لحرب اخرى . تسيطر الاسلحة والافكار المتعلقة بالمعركة ، المبتدَعة والمتشكلة حوالى نهاية نزاع مسلح ، على المرحلة الاولى من النزاع التالي . ويوجد تواصلٌ مماثل ايضاً بين دورات الثورات . ففي ١٩٢٠ - ١٩٢١ ، إذ كانت البلشفية تسعى لضرب عزلتها ، حاولت عبر طفرات ، بالأحرى ، ان تحمل الثورة الى الخارج على رؤوس الحراب. وبعد عقدين أو ثلاثة ، كانت الستالينية ، المنتزَعة من قوقعتها القومية عبر الحرب ، تفرض الثورة على كامل اوروبا الشرقية .

كان تروتسكي يتوقع ان يرى الدورة الثورية الثانية تبدأ بالأشكال التي اتخذتها الدورة الاولى ، بصراعات طبقية وانتفاضات بروليتارية تتوقف نتيجتها اجمالاً على توازن القوى الاجتماعية داخل كل امة كبرى ، ومواصفات القيادة الثورية القومية . إلا ان الدورة الجديدة اقلعت ، لا من النقطة التي بدأت فيها الدورة السابقة ، بل من النقطة التي انتهت عندها ؛ لا بالثورة من تحت ، بل بالثورة من فوق ، بالثورة عبر الفتح . وبما انه لم يكن يمكن ان يتم ذلك الا على يد قوة كبرى ، تمارس باديء ذي بدء ضغطها على اطرافها ، فقد تمت الدورة في محيط الاتحاد السوفياتي . لم تكن الادوات الرئيسية للثورة تتمثل بشغيلة البلدان المعنية واحزابها ، بل بالجيش الأحمر . لم يكن النجاح او الفشل يتوقف على توازن القوى الاجتماعية داخل امة ما، بل بصورة رئيسية على التوازن الدولي ، والمعاهدات الدبلوماسية والتحالفات والحملات العسكرية . فرض الصراع والتعاون بين الدول الكبرى نفسه على صراع الطبقات وعدَّله وشوّهه . وكل المقاييس ، التي كان الماركسيون اعتادوا على ان يحكموا

---

(١) انظر النبي المسلح ، الفصل ١٣ .

بواسطتها على النضج الثوري لأمة او انعدام نضجها ، قد اخفقت . فلقد شكلت معاهدة ستالين مع هتلر وتقسيم دوائر النفوذ فيما بينهما نقطة الانطلاق لانقلاب اجتماعي في بولندا الشرقية ودول البلطيق . وتم انجاز الثورات في بولندا بحصر المعنى ، والبلدان البلقانية والمانيا الشرقية على قاعدة التقسيم الى دوائر التي احدثها ستالين وروزفلت وتشرشل في طهران ويالطا . هذه القسمة اعطت الدول الغربية القدرة على استخدام قوتها ونفوذها لتخنق الثورة في اوروبا الغربية واليونان ، بالتواطؤ مع ستالين ، مهما كان التوازن المحلي للقوى الاجتماعية . من المرجح انه لو لم تكن اتفاقات طهران ويالطا ، كانت اوروبا الغربية ، بالافضلية على اوروبا الشرقية ، هي التي اصبحت مسرحاً للثورة ، لا سيما فرنسا وايطاليا حيث كانت سلطة الطبقات المسيطرة القديمة على الحضيض ، وحيث كانت الطبقات الكادحة في حالة تمرد ، وكانت الاحزاب الشيوعية تقود الجزء الاكبر من المقاومة المسلحة . ان ستالين ، الذي كان يعمل وفقاً لتعهداته الدبلوماسية ، حصل من الشيوعيين الفرنسيين والايطاليين على رضوخهم في بلديهم لاعادة الرأسمالية ، في حين كان انهيارها واقعاً ، وحتى على أن يعاونوا في تلك الاعادة . في الوقت ذاته ، كان تشرشل وروزفلت يقنعان الزمر القيادية البورجوازية لأوروبا الشرقية بالخضوع لهيمنة روسيا ، وبالتالي الاستسلام للثورة .ومن جانبي خط القسمة الكبير ، كان التوازن الدولي بين القوى الكبرى يمتص صراع الطبقات . تماما كما كانت الثورة والثورة المضادة ، في العصر النابوليوني ، ناتجَيْ الاسلحة والدبلوماسية .

لم ير تروتسكي غير افتتاح تلك السلسلة الكبرى من الاحداث ، ولم يدرك ما كان ينبىء به . كل عادات التفكير لديه كانت تجعل من الصعب ، إن لم يكن من المستحيل ، بالنسبة اليه التصور بأن جيوش ثلاث قوى كبرى ودبلوماسياتها ، ستكون قادرة ، على امتداد حقبة كاملة ، ان تفرض ارادتها على كل الطبقات الاجتماعية في اوروبا القديمة ؛ وبأن صراع الطبقات ، بالتالي ، الذي سيُخنق على المستوى الذي كان يتم فيه ، تقليدياً ، سوف يتم على مستوى وبأشكال مختلفة ، كتنافس بين كتل نفوذ وكحرب باردة .

عن قناعة نظرية كما عن غريزة سياسية ، لم يكن تروتسكي يشعر بغير الاشمئزاز حيال الثورة عبر الفتح . كان قد عارض غزو بولندا وجورجيا في ١٩٢٠ و١٩٢١ ، حين كان لينين يشجع تلك المغامرات ؛ وبصفته مفوض الحرب ، كان

قد تنصل بحزم من توخا تشيفسكي ، اول معبر عن الطريقة النابوليونية الجديدة ، طريقة نقل الثورة الى البلدان الاجنبية . قبل عشرين عاماً من الحرب العالمية الثانية ، كان قد ندد بالمرسَل المسلح للبلشفية ، معلناً : « انه سيكون افضل بالنسبة اليه ان يعلق في عنقه حجر الرحى ويُلقى به في البحر . . . » وقد ظل موقفه عام ١٩٤٠ هو ذاته الذي كان عام ١٩٢٠ . كان لا يزال يرى في الثورة عبر الفتح الانحراف الاخطر عن الطريق الثوري . كان لا يزال يؤمن عن ثقة بأن شغيلة الغرب تحركهم الظروف التي كانوا يوجدون فيها كي يناضلوا من اجل السلطة ومن اجل الاشتراكية ، وبأنه سيكون اجراماً من جانب الحكومة السوفياتية ان تحاول القيام بالثورة من أجلهم ، مثلما سيكون اجراماً ان تعمل مباشرة ضد مصالحهم الثورية . كان العالم بنظره لا يزال حاملاً بالاشتراكية ، وظل يعتقد بأن ذلك الحمل لا يمكن ان يدوم طويلاً ، لكنه كان يخشى أن يؤدي اي عبث به الى الاجهاض . وهو لم يكن مخطئاً تماماً ، إذا ان العبث المسلح بالثورة على يد ستالين انتج اكثر من ولادة جنين ميت - واكثر من ولادة مسخ حي .

لكن إزاء الثورة عبر الفتح وجد تروتسكي نفسه مجدداً في مأزق جدي . كان مع الثورة وضد الفتوحات ، لكن حين كانت الثورة تؤدي الى الفتح او حين كان الفتح يطلق الثورة ، لم يكن في وسعه أن يدفع معارضته الى ابعد من قطيعة مفتوحة لا رجعة فيها . لم يدفع بها الى هذه النقطة حول مسألة جورجيا وبولندا في ١٩٢٠ - ١٩٢١ ، ولم يفعل ذلك ايضاً بصدد مسألة بولندا وفنلندا في ١٩٣٩ - ١٩٤٠ . ولو بقي حياً وشهد نتائج الحرب العالمية الثانية لكان وجد مأزقه يتفاقم ويصبح جباراً ومستحيل الحل ، ولا شك انه كان أدان ستالين لكونه تخلى لقاء ثمن تافه عن مصالح الشيوعية في الغرب . ولا شك ايضاً ان منطق موقفه كان اجبره على قبول واقع الثورة في اوروبا الشرقية ، ورغم كل قرفه من الطرق الستالينية ، على الاعتراف بأن الديمقراطيات الشعبية دول عمالية . هكذا موقف ، مهما كانت فضائله ، وتجرده ، ما كان ليقدم أي خيط موصل الى ممارسة سياسية عملية . هكذا إذاً فإن تروتسكي ، رجل الممارسة العملية ، كان صعُب عليه أن يجد اي دور فعلي على قياسه في كل دراما ما بعد الحرب . لم يكن ثمة مكان للماركسية الكلاسيكية في تلك الدورة من الثورة .

الا أن تلك الدورة ، كسابقتها ، كانت ستعرف نهاية مختلفة عن بدايتها . بلغت أوجها في الثورة الصينية ، التي لم تفرض من فوق ولا جيء بها على

رؤوس الحراب الأجنبية . لقد كافح ماوتسي تونغ وحزبه لأجل السلطة رغم ستالين (الذي كان يهدف في ١٩٤٧ ـ ١٩٤٨ ، كما في ١٩٢٥ ـ١٩٢٦ ، الى الاتفاق مع الكيومنتانغ وتشانغ كاي تشك) ، وإذ استوليا على السلطة لم يتوقفا عند الاطوار الديمقراطية البورجوازية للانتفاضة ، بل انصاعا لمنطق الثورة الدائمة ودفعا الثورة ، بالتالي ، نحو نهايتها المعادية للبورجوازية . وبمعنى ما ، كان هذا ، اي الاوكتوبر الصيني ، احد انتصارات تروتسكي الاخرى بعد الممات .

إلا انه ، هنا أيضاً ، « كل نظرية هي رمادية وخضراء هي شجرة الحياة » . لم تكن البروليتاريا الصناعية محرك الانتفاضة ، وحلت جيوش ماو الفلاحية محل شغيلة المدن ، ونقلت الثورة من الريف الى المدينة . كان تروتسكي مقتنعاً بأنه إذا كان على تلك الجيوش ان تبقى محصورة في الارياف زمناً طويلاً ، فهي ستتماثل مع طبقة الفلاحين الى حد أنها قد تجعل من نفسها بطلة مصالحها الفردية ضد شغيلة المدن وضد الاشتراكية ، وقد تصبح الدعامة الرئيسية لرجعية جديدة (الم تكن الجيوش الفلاحية الصينية ، في الماضي ، قد قاتلت التمردات واطاحت السلالات القائمة لا لشيء الا لاستبدالها بسلالات جديدة؟) . كان هذا التحليل صحيحاً بتعابير الماركسية الكلاسيكية التي كانت تعتبر من المسلَّم به ان على حزب الثورة الاشتراكية ، لا ان يمثل شغيلة المدن وحسب ، بل كذلك أن يعيش بالضرورة معهم ويعمل بواسطتهم ، وألا يفقد طابعه الطبقي ويعبر عن مصالح طبقات كانت غريبة عنه . من الممكن تماماً ، في الواقع ، انه لو لم تتوقف تلك الثورة إلا على الفروق الاجتماعية داخل الصين ، كان أنصار ماو اصبحوا ، خلال مرحلة يينان ، متماثلين مع الفلاحين لدرجة العجز ، رغم اصلهم الشيوعي ، عن ردم الهوة بين التمرد الفلاحي والثورة البروليتارية . لكن حتى في الصين ، كانت تحدد نتيجة الكفاح عوامل أممية بقدر ما تحددها عوامل قومية . فوسط الحرب الباردة ، وبمواجهة التدخل الاميركي المعادي ، ضمِن حزب ماو سيطرته بالانشداد الى الاتحاد السوفياتي وبتحويل بنية الصين الاجتماعية بالتوافق مع ذلك . هكذا كانت السيطرة الثورية للاتحاد السوفياتي تحقق (رغم العرقلة الأساسية من جانب ستالين) ما لم يكن ليحققه ، بطريقة أخرى ، غير الشغيلة الصينيين . لقد دفعت الثورة الصينية في اتجاه معاد للبورجوازية واشتراكي . ولما كانت البروليتاريا الصينية مشتتة تقريباً وغائبة عن المسرح السياسي ، حولت قوة جذب الاتحاد

السوفياتي جيوش ماو الفلاحية الى اداة للجماعية .

بهذا كان مد الثورة ابتعد اكثر الى الشرق ، أبعد فأبعد عن الغرب المتقدم . مرة اخرى غدت الثورة حبيساً في مجتمع قبـ ـ صناعي ، وبدائي ومحروم من كل شيء . اكثر من اي وقت مضى ، بدت الماركسية الكلاسيكية غير متصلة ، من وجهة النظر العملية ، بمشكلات الشرق بقدر ما هي غير متصلة بمشكلات الغرب . هذا كان مع ذلك ديالكتيك الوضع ، بحيث كانت تحدث في الوقت ذاته سيرورات تمنحه ، بصورة غير متوقعة ، صحة جديدة . فبفضل تصنيع مكثف ، كان الشرق المتخلف يصبح اقل فأقل تخلفاً . كان الاتحاد السوفياتي يطفو كالقوة الصناعية الثانية في العالم ، ببنية اجتماعية محوّلة جذرياً ، وطبقة صناعية واسعة تناضل من اجل نمط حياة حديث ومستويات معيشة وتربية للجماهير ترتفع بصورة متفاوتة ، لكن بسرعة . إن الشروط المسبقة للاشتراكية التي لم تكن توجد ، وفقاً للماركسية الكلاسيكية ، الا في بلدان الغرب رفيعة التصنيع ، كانت تُخلق وتتجمع في المجتمع السوفياتي ؛ وبالنسبة لحاجات المجتمع الجديدة ، كانت الستالينية ، بمزيج الماركسية والهمجية فيها ، اصبحت شيئاً من الماضي ، وغدت طرائقها للتراكم البدائي بدائية جداً ، وتعارضها مع المساواة يصدم كثيراً ، واستبداديتها غير معقولة . هكذا فإن تقاليد الماركسية وثورة اوكتوبر التي بقيت على قيد الحياة في حالة بيات شتوي ـ اذا صح التعبير ـ ، بدأت تستيقظ في نفوس الملايين وتناضل ضد الامتياز البيروقراطي وجمود الستالينية والوزن الميت للعقيدة وحيدة الاتجاه . فإذ حدَّثت الستالينية بنية المجتمع عنوة ، عملت على تدمير نفسها بنفسها ، ومهدت الطريق لرجوع الى الماركسية الكلاسيكية .

هذا الرجوع تمَّ ببطء ، وصاحبته فوضى والتباسات لا تنتهي . فالنزاع بين الستالينية ، او ما بقي منها ، ووعي اجتماعي منبعث ، يملأ العقد الاول الذي تلا وفاة ستالين . ولو ان المعارضات التروتسكية والزينوفييفية والبوخارينية بقيت على قيد الحياة في الخمسينات ، لكانت مهمة نزع الستالينية آلت اليها ، وكانت تلك المعارضات اضطلعت بها بشرف ، وبصورة صادقة ومنطقية ؛ لكن لما كانت غرقت جميعاً مع الاطلنطس البلشفية القديمة ، وبما أن نزع الستالينية كان ضرورة محتومة ، اضطر معاونو ستالين وشركاؤه للاضطلاع به . ولم يكن في وسعهم الا أن يبادروا لتلك المهمة من دون كبير حماس ، مرتجفي الروح ، مرتعشي الايدي ، دون ان ينسوا ابداً دورهم في جرائم ستالين ودون ان يفارقهم الانشغال

بوضع حد للافشاءات المشينة وللاصلاحات التي اضطروا للمبادرة اليها . وبين كل اشباح الماضي ، لم يكن يلاحقهم بصورة بذلك القدر من السخرية ، وتلك الدرجة من التهديد ، كشبح تروتسكي ، عدوهم رقم واحد ، الذي كان كل افشاء وكل اصلاح تحية اجلال غير واعية اليه. ولم يثر شيء ، في الواقع ، ذعر خروتشوف قدر امكانية أن يرى شباباً متحررين من كل مسؤولية عن اهوال العصر الستاليني يفقدون صبرهم إزاء مراوغاته ومورابـاته ، ويتوصلون الى دفاع مكشوف عن تروتسكي .

في كل حال، لن يعتم هذا الدفاع أن يأتي ، مع أنه ربما لن يتم قبل أن يكون ورثة ستالين الشائخون غادروا المسرح . وحين سيأتي ، لن يكون غير عمل من اعمال العدالة ، وإن متأخر ، لذكرى رجل عظيم . بهذا العمل ستعلن الدولة العمالية انها بلغت نضجها وحطمت قيودها البيروقراطية ، والتحقت مجدداً براية الماركسية الكلاسيكية التي نفيت مع تروتسكي .

اي اثر قد يكون لذلك على باقي العالم ؟ إن هذا السؤال بالغ الاتساع بحيث لا يمكن نقاشه في حاشية لدراسة سيرية . وسأكتفي هنا بالقول إنه إذا كان مسار التاريخ قد الغى هزيمة تروتسكي ، بازالة التضاد بين روسيا المتخلفة والغرب المتقدم ، وهو تضاد كانت هزيمته متأصلة فيه ، فإن تجديد الثورة الروسية لا بد أن يساهم في محو هذا التضاد كلياً ونهائياً . إن الغرب ، حيث أوحت ماركسية ، انحطت على يد الأم روسيا الى ستالينية ، بالاشمئزاز والخوف ، لا بد أن يكون رد فعله بصورة مختلفة تماماً إزاء ماركسية تطهرت من كل تنمّياتها(*) الهمجية ؛ وعليه ان يتعرف اخيراً ، في هذه الماركسية ، على ابداعه الخاص به ، رؤياه الخاصة به للمصير البشري . هكذا يمكن ان تكتمل دائرة التاريخ

إلى أن يخلق الأمل
من حطامه شيئاً يتأمله

كان تروتسكي يقارن احياناً تقدم النوع البشري بمسيرة حجاج حفاة يتقدمون نحو مزارهم متحركين في البدء بضع خطوات الى الامام ، ثم متراجعين ، أو قافزين جانباً بحيث يتقدمون فقط وينحرفون أو يتراجعون مجدداً . وهكذا ، إذ

(*) زيادات غير طبيعية عن طريق النمو العضوي او بواسطة اضافات خارجية تدريجية (م) .

يتعرجون باستمرار ، يقتربون دائبين من هدفهم . كان يعتبر ان دوره يكمن في حث الحاج على التقدم . الا انه حين يتراجع النوع البشري مـذعـوراً بعد بعض التقدم ، يسمح بإهانة من كانوا يدفعون به الى الامام وتقذيرهم ودوسهم حتى الموت ـ وفقط حين يستأنف سيره الى الامام يدفع ضريبة كئيبة لضحاياه ، ويكرم ذكراهم ويجمع ذخائرهم بورع . إذاك ، يشعر بعرفان الجميل ازاء كل نقطة دم بذلوها ، لأنه يعرف ان دمهم غذى بذرة المستقبل .

الفهرس

ملحـــق : الصـــور



من اليسار إلى اليمين بيار نافيل (٢٦ عاما)، تروتسكي، محاميه جيرار روزنتال (٢٦ عاما)، ودينيز نافيل. في برنكيبو في صيف ١٩٣٠.



ناتاليا في برنكيبو



زينا، ابنة تروتسكي من زواجه الأول، وقد نفي زوجها المدرس بلاتون ڤولكوڤ، وكان قاتل خلال الحرب الأهلية في صفوف الثورة ثم أصبح مناضلاً في المعارضة اليسارية، ونفي عام ١٩٢٨. في نهاية ١٩٣٠ حصلت على تصريح بالخروج من الاتحاد السوفياتي مع أحد ولديها، سيڤا. بقيت عشرة أشهر في برنكيبو ثم التحقت بليوڤا في برلين حيث تابعت معالجة في التحليل النفسي.

في ٥ كانون الثاني ١٩٣٣، وبعد قليل من حرمانها من المواطنية السوفياتية، انتحرت بالغاز. أما ابنتها الصغيرة التي بقيت في الاتحاد السوفياتي مع جدتها الكسندرا، ثم حضنتها أخت الأخيرة ساريا لڤوڤنا، بعد توقيف الجدة المذكورة، فقد اختفت مع أحفاد تروتسكي الآخرين في نهاية الثلاثينات.





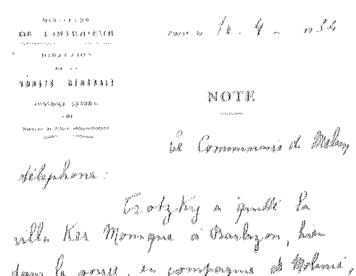
كان تروتسكي يكرس جزءاً كبيراً من وقته للفروع ـ حوالى الثلاثين ـ في المعارضة اليسارية الأممية. في الصورة أعلاه، يقرأ اسبوعية العصبة الشيوعية في أميركا. وفي الأسفل مع ناتاليا وليوڤا، ومناضلين جاءا من تشيكوسلوفاكيا، عام ١٩٣٠، وهما يان فرانكل (٢٤ عاماً)، إلى اليسار، وجيري كوب (٢٣ عاماً) خلف تروتسكي. لم يبق كوب غير أشهر، لكن فرانكل سيبقى ثلاث سنوات ويغدو معاون تروتسكي الذي لا غنى عنه.



... بروسكي، فالأمريكي آلان سوالبك (٣٤ عاماً)، فالفرنسي بيار فرانك (٢٩ عاماً)
... هانفورث (٢٦ عاماً) وقد جاء جالساً على يمين فرانكل، والألماني رودولف كليمانت.







NOTE

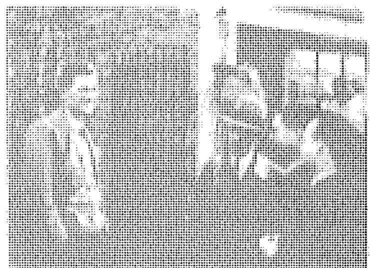
16. 4. 1934

Le Commissaire de Melun

téléphone:

Trotzky a quitté la villa Ker Monique à Barbizon, hier dans la soirée, en compagnie de Molinier, demeurant avenue St Ouen n° 7. Il a laissé entendre qu'il se rendait à la Sûreté Générale.

Mme Trotzky et les autres occupants de la villa sont restés à Barbizon



في سان باليه، مجموعة المساعدين والحراس: من اليسار إلى اليمين، رودولف كليمانت، تروتسكي، ايفان كريبو (٢٢ عاما)، جان مارتين دي باليير، زوجة ريمون مولينييه وصديقة ليون سيدوف (٣٦ عاما)، وسارا جاكوبز (٣٣ عاماً)، وهي أميركية من أصل روسي، كانت معروفة باسم سارا.ڤيبر، وسكريترة لتروتسكي في برنكيبو لمدة أسابيع، ثم في سان باليه ففي باربيزون. أمامهم يجلس ڤان هايجنورت.

في نيسان ١٩٣٤، بعد اكتشاف الشرطة الفرنسية مسكن تروتسكي السري في باربيزون (إلى اليسار)، ڤيلا كير مونيك، وتبني الصحافة الكبرى حملة الحقد التي بدأتها الصحافة النازية، جرى ابعاد تروتسكي من فرنسا.

في الأسفل، إلى اليمين، يجيب هايجنورت ساخرا عن اسئلة الصحافيين الذين حاصروا الڤيلا التي غادرها تروتسكي، كما يشير تقرير الشرطة في الوسط.





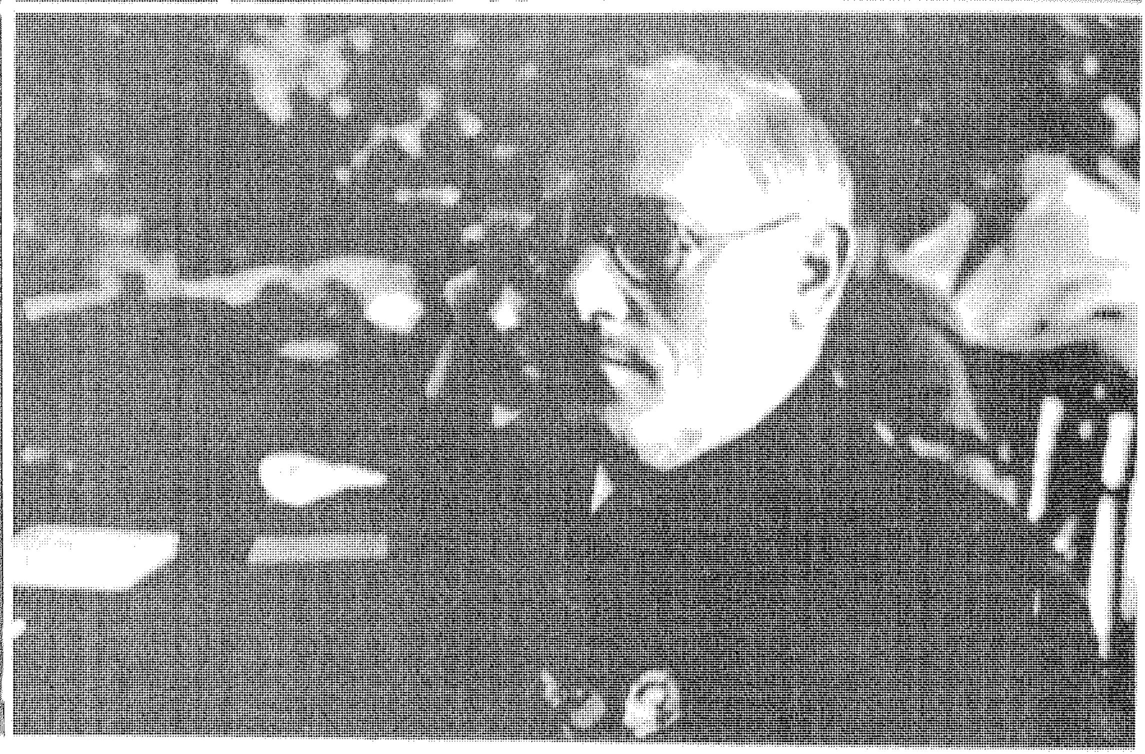


[illegible] وهو [illegible] حرارة الاستقبال الرسمي الذي لقيه منذ وصوله إلى المكسيك بعد
[illegible] ناقلة النفط [illegible]
[illegible] مع الرسام المكسيكي ديغو ريفيرا الذي استضافه في «البيت الأزرق» بكويواكان. إلى
[illegible] وهو [illegible] عن ظهر ناقلة النفط [illegible] في الطريق إلى المكسيك.



ابن تروتسكي الأصغر، سيرجي، مع أحد ولديه. كان متخصصًا بالرياضيات وأستاذًا في معهد التكنولوجيا. وقد امتنع عن أي نشاط سياسي ورفض عرض والده الالتحاق به في المنفى. إلا أنه عبر عن تضامنه القريب من المعتقلين التروتسكيين الذين أعجبته شجاعتهم، وتضامن مع كل أصدقائهم. وبعد أن رفض الاستجابة لطلب البوليس بأن يشارك في حملة الاتهامات لوالده، جرى إعدامه دون محاكمة عام ١٩٣٧ على الأرجح



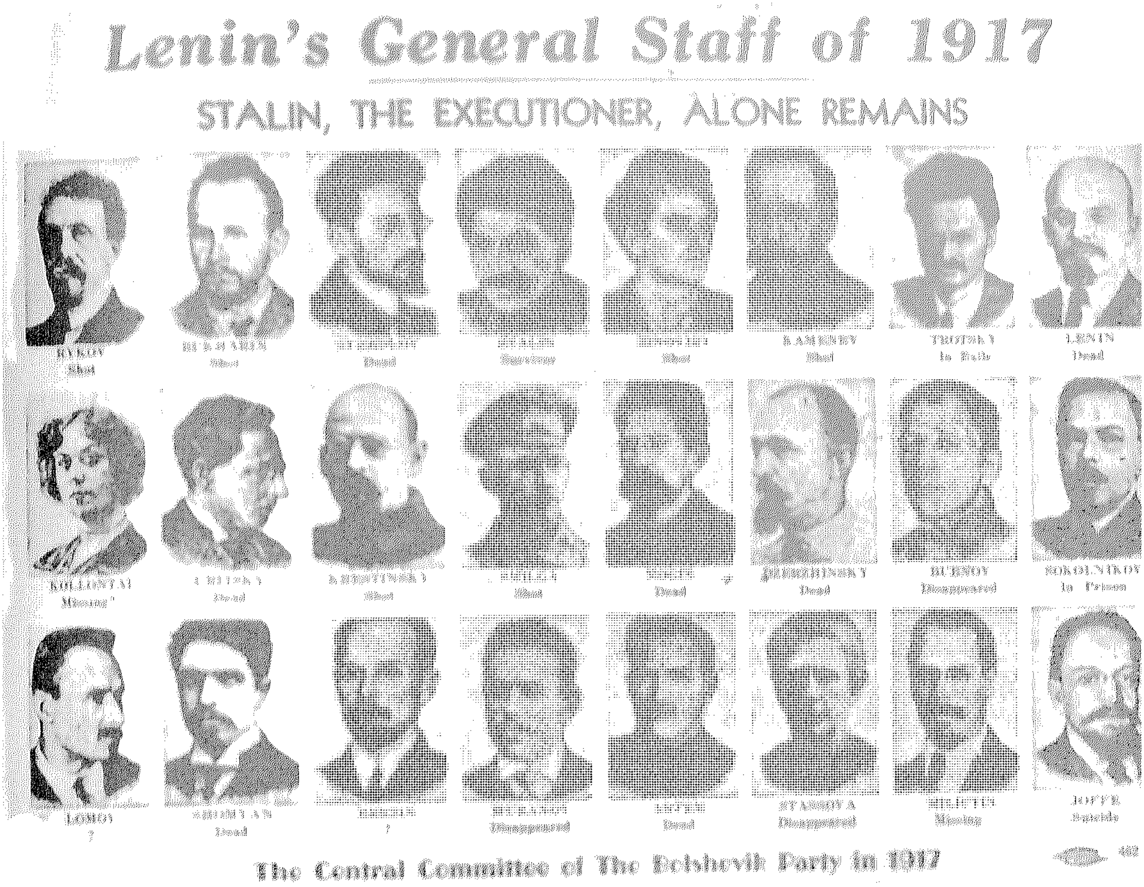


أعلاه: تروتسكي يقدم مداخلته أمام لجنة ديوي التي كانت تحقق في الاتهامات التي صدرت بحقه عن محاكمات موسكو. وقد أثارت المداخلة إعجاب أعضاء اللجنة الشديد وتأثرهم العميق.

في الأسفل: مدعي العام في محاكمات موسكو، اندريه فيشنسكي، الذي كان قد شارك في حكومة للبيض خلال الحرب الأهلية. ثم أصبح في الثلاثينات مقرباً من ستالين، ومن هذا الموقع لعب دور النائب العام في المحاكمات التي أدت إلى إعدام البلاشفة القدامى، بعد أن اخضعتهم إلى أبشع عملية إذلال سبقت دفعهم إلى مقارز الإعدام.

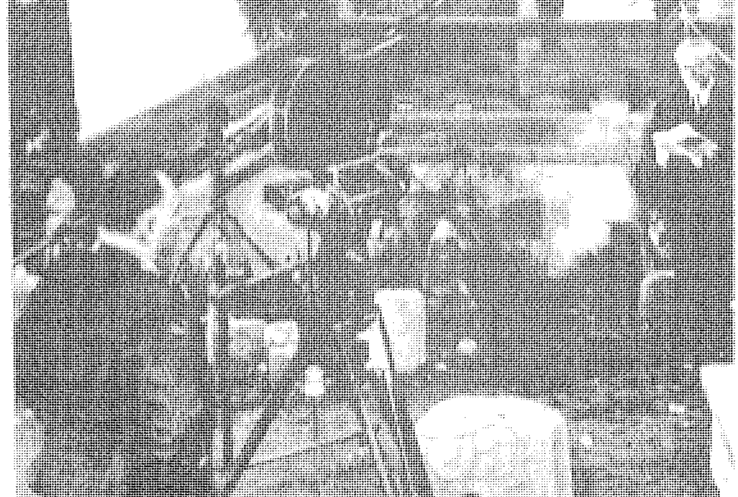


أيار ١٩٣٨، خلال رحلة. من اليسار إلى اليمين: ديغو ريفيرا، فريدا كاهلو (زوجته)، ناتاليا، ريفاهنس،
أندريه بريتون، تروتسكي، مناضل مكسيكي، حارس، سائق، ثم جان فان هاينورت



يُرى أعلاه تجميع حققه التروتسكيون الأميركيون في نهاية الثلاثينات، يحدد مصير ٢٤ عضواً في اللجنة المركزية البلشفية لعام ١٩١٧. على ٢٤، انتحر واحد، واختفى اثنان، وكان واحد في المنفى، وجرى إعدام ستة. والوحيد الباقي كان ستالين

تروتسكي يتكلم في ٢٦ شباط ١٩٣٨، على محاكمات موسكو أمام الكاميرا





من اليسار إلى اليمين: تروتسكي، سيفا، الفرد ومارغريت روسمر وناتاليا سيدوفا. والصورة مأخوذة في بداية عام ١٩٤٠





أعلاه، القائد مروسكي، زعيم موركاندو حركة التمرد
في الأسفل، القائد في حملة فيدانيب، مع لاسموس التمرد





أعلاه، ميركادير يعالج من الكدمات التي أصابه بها الحراس وفي الأسفل، يرد على اسئلة المحققين.

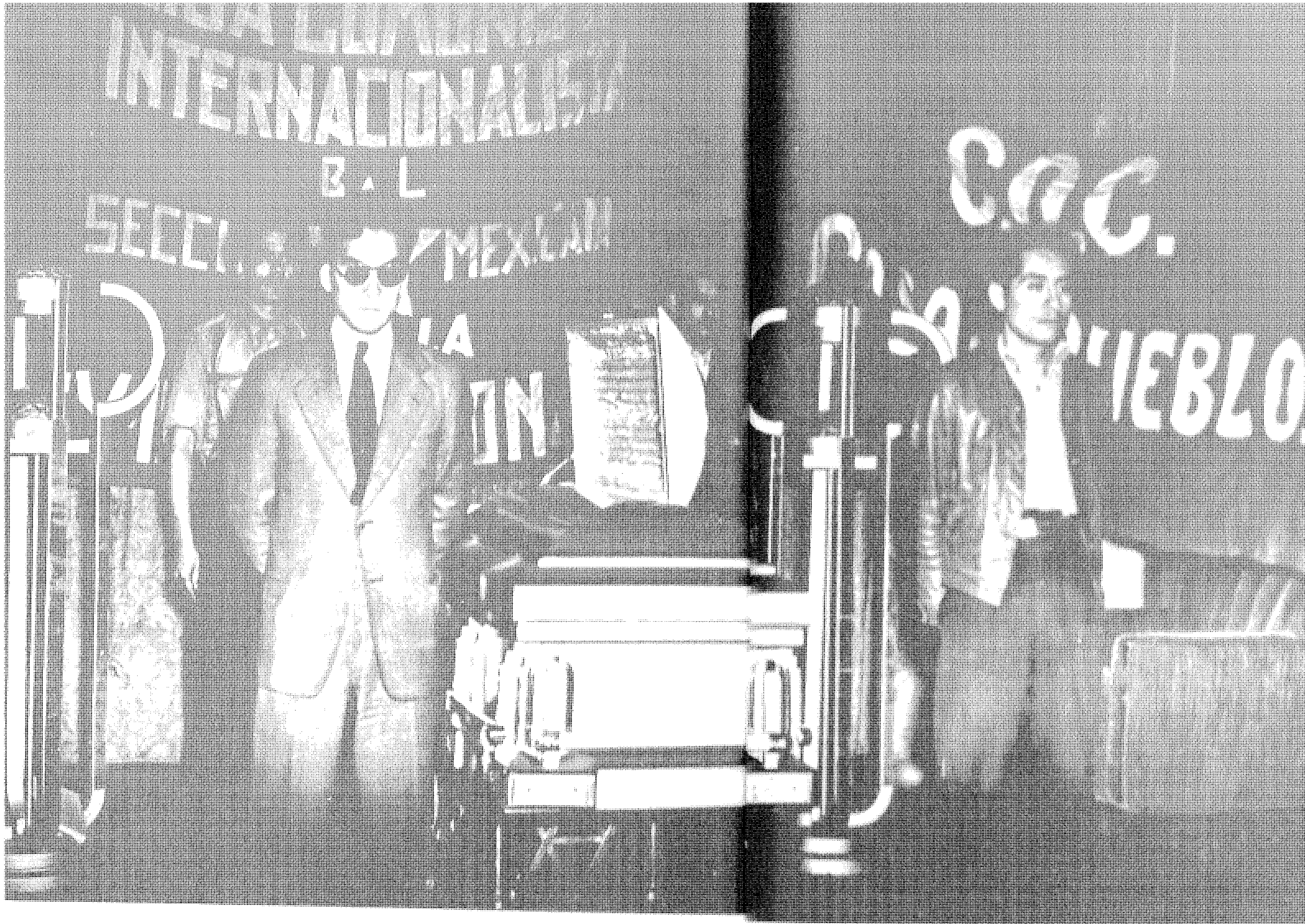


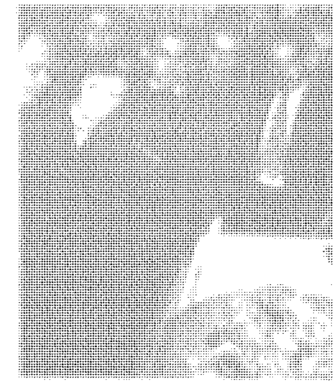
قبل ان يلفظ تروتسكي انفاسه، قال لناتاليا بالروسية إنه يحبها. وقال لسكرتيره جورج هانسن، بالانكليزية "وأنا واثق من انتصار الأممية الرابعة. إلى الأمام".
هنا تروتسكي، ميتاً



في ٢٢ آب ١٩٤٠، سار عشرات الألوف وراء نعش تروتسكي في شوارع مكسيكو، على امتداد ١٢ كيلومتراً، وصولاً إلى البانثيون.









راية الفرع المكسيكي في الأممية الرابعة، المدرس الشاب اوكتافيو فرنانديز (٢٧ عاماً)، أحد قادته، وهو يخفي عينيه المحمرتين خلف نظارتين سوداوين. إلى اليمين، أعلاه، ناتاليا ساهرة بجانب النعش، في الوسط جثمان تروتسكي وفي الأسفل ناتاليا تبكي.

في ٢٦ آب، أعلنت الحكومة الأميركية عن رفضها نقل الجثمان إلى الولايات المتحدة لأجل احتفال جنائزي. كان تروتسكي، ميتاً، يخيف أيضاً حكومة أكبر دولة أمبريالية.

كان رفاق تروتسكي طالبوا حكومة الولايات المتحدة بالسماح لهم بنقل الجثمان من أجل الاحتفال بجنازته في نيويورك. وقد أبقي الجثمان في الغرفة الجنائزية من ٢٢ إلى ٢٧ آب، بانتظار جواب واشنطن. كنت هناك. كان حراس شرف، من عمال مكسيكيين ومعاونين لتروتسكي، يبقون ٢٤ ساعة في اليوم قرب النعش. كان هنالك حشد كبير من الناس الذين يودون تكريم تروتسكي للمرة الأخيرة بالمرور وإلقاء نظرة على النعش. وقد قدر عدد الأشخاص الذين مروا أمامه بثلاثمئة ألف. كان معظمهم من الناس الذين يستخدمهم العمل. الكثير منهم كانوا ممزقي الثياب وحفاة. وكانوا يمرون بصمت مطأطئي الرأس. في الصورة أعلاه، أمام



دافيد سيكايروس، الرسام الستاليني المكسيكي الذي قاد الهجوم على بيت تروتسكي في أيار ١٩٤٠. ويرى هنا مع قائد الشرطة، بعد إلقاء القبض عليه في خريف ١٩٤٠.

